جوناثان بلوم

قصة الورق

تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة



ترجمة

د. أحمد العدوي

قصةُ الورقِ

تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهورِ الطباعة

تأليف

جوناثان م. بلوم

نقله إلى العربيَّة وقدَّم له وعلَّق عليه

د. أحمد العدوي

قصة الورق

تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة

هــذا الكتــاب صــادر عــن مشــروع «مــدّ» للترجمــة الــذي تقــوم عليــه دار أدب للنشــر والتوزيــع ضمــن مبــادرة إثــراء المحتــوى إحــدى مبــادرات مركــز الملــك عبــد العزيــز الثقافــي العالمي (إثراء)

هذه هي التَّرجمة العربية الكاملة
لكتاب:
"Paper Before Print
The History and Impact of Paper
in the Islamic world"
By
Jonathan M. Bloom

ⓗ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بلوم، جوناثان م.
قصة الورق؛ تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة. / جوناثان م. بلوم؛ أحمد العدوي.- الرياض، ١٤٤٢هـ
نقله إلى العربية: د. أحمد العدوي
٤٦٤ ص؛ المقاس ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٣-٦٩١٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الورق. أ. العدوي، أحمد العدوي (مترجم) ب. العنوان
ديوي ٦٧٦ ١٤٤٢/٥٣٥٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٣٥٧
ردمك: ٣-٦٩١٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

info@adab.com ● adab.com ● @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

المُحتويات

تَصدير التَّرجمة العربية
بقلم المؤلف/ جوناثان بلوم

إنه لشرفٌ عظيمٌ حقًّا أن يترجمَ أحمد العَدوي كتابي «قصَّة الورق؛ تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهورِ الطِّباعة» -الصَّادر عام ٢٠٠١- إلى اللغةِ العربيَّةِ. كما أنَّني سعيدٌ أيضًا أن تنشُرَ «دار أدب» هذه الترجمةَ العربيةَ، وفي هذا المظهرِ الرَّائعِ، والثَّوبِ القَشيبِ.

كثيرًا ما نُردِّد -في أيامِنا هذه- أننا نعيش في مجتمعٍ تُظلُّه العَولَمةُ، حيث تنتقلُ بعض المعلوماتِ حول العالم في جزءٍ من الثَّانية؛ إلَّا أنه غالبًا ما يكون من الصعوبةِ بمكانٍ الوصولُ إلى أنواعٍ بعينها من المعلومات، ولا سيَّما تلك المَكنونة في بطونِ الكتبِ التقليديةِ المطبوعةِ على الورقِ. وربما تمثَّلت صعوبةُ الوصولِ إلى ذلك الصِّنف من المعلوماتِ في نُدرةِ الكُتبِ الأجنبيَّةِ المنشورةِ في بلادٍ أخرى في المكتباتِ أو في دور بيعِ الكُتبِ المَحليَّة. بل ربَّما لم يسمَع جمهورُ القُراءِ المُهتمِّين بهذه الكُتب قطُّ، أو لعلَّهُم سمِعوا بها، إلَّا أنَّهم لم يكُن بوسعِهم الوصول إليها. وحتى لو كان بمَقدورِهم الوصولُ إليها، فقد لا يكون بإمكانِهم قراءتها بسَلاسةٍ لاختلافِ اللغةِ التي كُتِبَت بها.

وعلى الرَّغم من أنَّ كتابي هذا قد تناول الدَّورَ المِحوريَّ الذي لعبَه الورقُ في تطورِ الحضارةِ في العالم الإسلامي -والكيفيةَ التي نقَل المسلمون المعرفةَ بالورقِ وصناعتِه من شرق آسيا إلى غرب أوروبا في القرونِ الوسطى- فإنَّ عمومُ القرَّاء في المِنطقة التي تناولَها بالدِّراسة لا يكادون يعرفونه! وذلك على الرَّغم من صدورِ ترجمةٍ تُركيَّةٍ للكتاب في عام ٢٠٠٣. ويحدوني الأملُ في أن تصبحَ هذه الترجمةُ العربيةُ مُتاحةً على نطاقٍ واسعٍ لجمهورِ القرَّاء العربِ، ومعروفةً لهم. وأن تُلهم جيلًا جديدًا منهم تقديرَ الدورِ الحاسمِ الذي لعِبته المجتمعاتُ الإسلاميةُ في الحضارةِ الإنسانيةِ، عندما استخدَمت الورقَ وسيلةً للتواصُلِ البَشري.

قد أُلهِمتُ دراسةَ هذا الموضوع عرَضًا، في غضونِ العَقدِ الأخير من القرنِ المُنصرِم، عندما تساءلتُ ذات يومٍ -وأنا مؤرخٌ للفنِّ والعِمارةِ الإسلاميَّة- عمَّا إذا كان المُهندسون والبنَّاؤون في ديارِ الإسلامِ في القرون الوسطى قد استخدموا المُخطَّطات الهندسيَّة في تَصميمِ مبانيهم التي شيَّدوها. وعلى فرضِ أنهم استَخدَموا مثل تلك المخطَّطات الهندسيَّة، فما هي الأدلةُ على وجودِها؟ وما هي النَّتائج التي قد تُستخلصُ من إثباتِ هذه الفرضيَّة؟ وهكذا تجسَّدت أجوبةُ هذه الأسئلةِ البسيطةِ أوَّلًا في شكلِ مقالاتٍ، ثم قادتني تلك الأجوبةُ نفسُها إلى تقديم مُقترحٍ لمطبعة جامعة يل (Yale University Press) يقضي بتأليفِ كتابٍ في هذا الموضوع.

وأثارت الفِكرةُ اهتمامَ النَّاشرِ بالفِعل، إلَّا أنَّه اقترح عليَّ -في بادئ الأمرِ- أن أكتبَ تاريخًا عالميًّا للورقِ، بدلًا من التَّركيزِ على العالم الإسلامي فحسب. وعلى هذا النَّحو أعددتُ مخطوطةَ الكتابِ -نزولًا على رغبةِ النَّاشر- على كَرهٍ منِّي، وسَلَّمتُها له. بيد أن عضوًا من أعضاءِ الهيئةِ الاستشاريةِ -ولستُ أعرفه- علَّق قائلًا: إنه سيغدو من الأفضلِ لو ركَّز المؤلِّفُ على العالمِ الإسلاميِّ فحسب. وعلى هذا النَّحو أعدتُ كتابةَ الكتابِ برمَّتِه، وبالطَّريقةِ التي خطَّطتُ لها منذ البدايةِ. وربَّ ضارةٍ نافعة، فقد جاء الكتابُ في صورتِه النِّهائيةِ أفضل، وذلك نتيجةً لإعادةِ كتابتِه، وإعادةِ هيكلتِه أكثر من مرَّةٍ.

وقد أسعَدني حقًّا أن أرى هذا الكتابَ -الذي صدَر منذ نحو ٢٠ عامًا- قد ألهَم الباحثين في أمريكا وأوروبَّا البحثَ والتوسُّعَ في بعض القضايا التي أثارها. وإنَّني أتطلَّع شوقًا إلى رؤيةِ الكيفيَّةِ التي سيقدِّرُ بها قُرَّاء هذه التَّرجمةِ العربيَّةِ ذلك الدَّورَ المنسيَّ لـ «الورق قبل ظهورِ الطِّباعةِ».

جوناثان بلوم

ريتشموند (Richmond)، نيو هامبشَاير (New Hampshire)

العاشر من يناير (كانون الثَّاني) من عام ٢٠٢١ للميلاد

مقدِّمة المترجِم

(١)

كانت قناعتي -ولم تزل كذلك- أن مؤرِّخَ الفنونِ لديه دائمًا روايةٌ أخرى للتَّاريخ، لا أثر فيها لصَهيلِ الخيولِ، ولا لقعقعةِ السُّيوفِ، ولا لمؤامراتِ البلاطِ، ولا للصِّراعاتِ على الحُكم. ولا ترى فيها إلا تجلياتِ الحضارةِ الإنسانيَّة في أروع صُورها، بل إنَّك -إن أنعمت النَّظرَ- قد ترى فيها العجب العُجاب، فتلمسُ تأثر المماليك بالإيلخانيِّين في الذَّوق الفنِّي وصُنع المصاحفِ السُّلطانية الضَّخمة، وكان بين الفريقين ما صنَع الحدَّاد، بل لم تنقطع الحروبُ بينهما. كما ترى فيها تأثر العُثمانيين بالصفويِّين في فنونِ العمارة والخطِّ، وكانا من ألدِّ الخِصام. وهكذا يقدِّم مؤرِّخُ الفنونِ روايةَ أخرى للتَّاريخ بكلِّ ما تحمِله هذه الكلمة من معانٍ، ولكنها غالبًا ما تعكسُ رؤيةً فنِّيةً ضيقةً شديدةَ التخصُّصِ، لذا لا يُقبِل على قراءةِ كتاباتٍ متخصِّصةٍ كهذه إلا المُهتمِّين بالفنونِ والمتخصِّصين فيها غالبًا.

وإذا كانت الحال -على ما وصفتُ- تنطبقُ على السَّواد الأعظم من مؤرِّخي الفنونِ مثل: أرشيبالد كريزويل (Archibald Creswell)، وديفيد تالبوت رايس (David Talbot Rice) وآرثر أبهام بوب (Arthur Upham Pope) وغيرهم- فإنَّها لا تنطبق على مؤرِّخِ للفنونِ بقامةِ جوناثان بلوم. فقد تناول عددٌ من الدَّارسين -سواءً من العربِ أو المُستشرقين- موضوع معرفةِ المسلمين بالورق (الكاغَد). وبالقدرِ الذي أحطتُ به علمًا من أبحاثِ الفريقين في هذا الصَّدد؛ فإن بوسعي القول: إن أحدًا منهم لم يعتنِ بدراسةِ أثر الورقِ في الحضارةِ الإسلاميَّةِ كما فعَل بلوم في هذا الكتاب، فقد عالَج بلوم قصَّةَ الورق في العالم الإسلاميِّ على نحوِ مختلفِ تمامًا عمَّا فعَل غيره. بل أظنُّه فتح بابًا

مـن التَّسـاؤلاتِ حول وجـودِ تأثيراتٍ أخرى لحلـولِ الورقِ محلَّ الـرَّق وأوراق البَردي بوصفه حاملَ الكتابةِ الرَّئيس في العالم الإسلاميِّ[1] منذ منتصفِ القرن الثَّاني الهجري/ الثَّامن الميلادي على أصعدةِ الحياةِ الفكريَّة والفنِّية والتقنيَّة.

ولـم يُعالج بلوم تاريخَ الورقِ -ابتداءً- بوصفِه مجرَّد فصلٍ من فصولِ القصَّة الأوسع، وهـي اختـراع المَطبعـةِ وظهـورِ الكتـابِ المطبـوعِ، على النَّهج نفسِـه الـذي انتهَجه أكثر الباحثين الذين تصدَّوا لدراسةِ تاريخ الورقِ من قبل. بل انصبَّ تركيزُه على دراسةِ تاريخ الورقِ في العالم الإسلامي فحسب، ومن حيث شكَّل الورقُ وسيطًا رائعًا لنقلِ المعرفةِ. وعلى هذا النَّحو تبيَّن المؤلِّف ملامحَ ثورةٍ علميَّةٍ كبرى نشَـأت في ديار الإسـلام بفضلِ الـورقِ. إلا أنَّ ملامـح تلـك الثَّـورة ضاعَـت فـي خضـمِّ الجلبـةِ التي نجمَت عـن ظهورِ الطِّباعـة، وسيادةِ الكتابِ المطبوعِ على نظيرِه المخطوطِ فـي أوروبَّا، ثم التطوُّرات التي ترتَّبت على ظهورِ الطباعةِ لاحقًا.

ونسَب بلوم الفضلَ للحضارةِ الإسلاميَّة فيما تعلَّق بإدخال تقنياتِ صناعةِ الورق إلى أوروبَّا، فقد اخترع جوتنبرج المطبعةَ في أعقاب معرفةِ أوروبَّا بالورقِ عن طريقِ مُسلمي صِقلِّيـة والأندلُس مباشـرةً. وجـادل بلوم في أنَّ اختراع جوتنبرج مـا كان ليُجدي نفعًا لو استُخدِمت آلتُه في الطِّباعة على الرَّق، فقد كانت تكلفةُ طباعةِ الكتابِ على الرَّق تُعادل تقريبًا تكلفةَ نسخِ الكتابِ بخطِّ اليد. وهكذا لولا صناعة الورقِ التي كان أهلُ أوروبَّا قد عرفوا سـرَّ صناعتِها من المسـلمين، لما كان لاختراع جوتنبرج فائدةً عمليةً تُذكَر، وربما استغرق الأوربيُّون وقتًا طويلًا قبل أن يُدرِكوا فوائدَ المطبعةِ.

***

(٢)

نشَـر بلـوم هـذا الكتـابَ بعنـوان: (Paper Before Print; The History and Impact of Paper in the Islamic world)، مـن مجلـدٍ واحـدٍ فـي ٢٧٠ صفحـةٍ مـن القَطـع الكبيـر.

---

(١) أعـرب بلـوم عن دهشـتِه من أنَّ تأثيرَ كتابِه على الدِّراسـات الغربيّة -كما رصَده- يُعدُّ أقوى من تأثيرِه على الدِّراسـات الإسـلاميَّة خاصَّـةً حتـى يومنا هذا بعد صـدور الكتابِ بعشـرين عامًا. من رسـالةٍ للمؤلِّف إلى المُترجم، بتاريخ ١٢/ ١٢/ ٢٠٢٠.

وصدَرت طبعته الأولى عن مطبعة جامعة يل (Yale University Press) بالولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠١. ثم ما لبِثت أن نفدت الطبعة الأولى وأضحَت نُسخُ الكتابِ عزيزةً، حتى بيعَت النُّسخةُ الواحدةِ منه بـ ٥٠٠ دولار[١]، ثم اضطُّرت مُطبعة جامعة يل إلى إعادة طباعتِه مجددًا استجابةً للطلبِ عليه.

والكتابُ مُصوَّرٌ، ومُنسقٌ على نحوٍ مثيرٍ للإعجاب حقًّا، ومن بعض النَّواحي الفنِّية شكَّلت ترجمتُه تحدٍّ بسبب تعقيدِ تَصميمِه. بيد أنه أكبر بكثيرٍ من كونه مجرَّد تناول لتاريخِ الورق في العالم الإسلامي، فلا ينبغي للمرء أن يغترَّ بعنوانِه، ولا بنطاقِه -سواءً جغرافيًا أو تاريخيًا- فهو يقدِّم للقارئ تاريخًا مُكتملًا للورق، منذ اخْتُرِعَ في الصِّين، مرورًا بازدهارِ صناعتِه في العالم الإسلامي، ثم انتقال صناعتِه إلى أوروبَّا، ثم ظهورِ الطِّباعة -سواءً في الصِّين أو أوروبَّا- ثم انتقال الطِّباعةِ إلى العالمِ الإسلاميِّ بأخَرةٍ.

وعلى الرَّغم من تركيز المؤلِّفِ على تاريخ الورق في سياقِ العالم الإسلامي، فإنه عرَض تاريخ الورقِ على نحوٍ شاملٍ، ومن منظورٍ مقارنٍ بين الصِّين والعالم الإسلامي وأوروبَّا، كُلَّما سمَح له السِّياقُ بذلك. بل إنَّ القارئ لهذا الكتاب سيُلمُّ بالكيفيَّة التي لم تَتغيَّر بها صناعةُ الورقِ في أيامنا هذه كثيرًا عن ذي قبل، فعلى الرغم من الأساليب الثوريَّةِ الصناعيَّةِ الحديثةِ التي استَجدَّت في صناعة الورق في العالم الحديث، فإن خطواتِ صُنعِه تقريبًا ظلَّت هي نفسها في مبادئها العامَّة.

وناقَش بلوم في الفصل الأول حواملَ الكتابةِ في بلاد ما بين النَّهرين ومصرَ والصِّين منذ فجر التَّاريخ حتى اختُرِع الورق. ثم ناقش اختراع الورق في الصِّين وانتقالِه إلى كوريا واليابان وآسيا الوُسطى. ثم معرفة المسلمين بالورقِ في نهاية المطاف. ثم استَعرض رحلةَ الورقِ من الصِّين إلى آسيا الوسطى والتي استغرقت خمسةَ قرونٍ من الزَّمان، ثم انتقال صناعة الورقِ -بعد ذلك- عبر أوراسيا حتى بلَغت سواحل المُحيط الأطلسي في المغرب والأندلس خلال قرنَيْن فحسب من معرفةِ المسلمين بالكيفيَّة التي كان الورق يُصنَع بها.

وفي الفصلِ الثَّاني عرَض بلوم للتَّحسيناتِ الإقليميَّة التي أدخَلها المسلمون على

(١) من رسالةٍ من المؤلف إلى المترجم بتاريخ ١٢/ ١٢/ ٢٠٢٠.

صناعةِ الورق، بعد أن وقَفوا على سرِّ صناعتِه من مُسلمي آسيا الوسطَى. كما ميَّز بين خصائص مختلفِ أنواع الورق الذي صُنِع على امتدادِ مساحاتٍ شاسعةٍ من ديارِ الإسلام، بدايةً من إقليم آسيا الوسطى مرورًا ببلاد فارس والعراق والشَّام ومصرَ والمغرب وصولًا إلى الورقِ المُزجزجِ ذي الجودةِ العاليةِ الذي صُنِع في شاطِبةَ بالأندلس. وكانت ذخائرُ مكتبات أوروبا وأمريكا من الوثائق والمخطوطاتِ الإسلاميَّة، ولا سيَّما أوراق الجنيزة وأرشيف أراغون- خيرَ مُعينٍ للمؤلِّف في هذا الرَّصدِ الشَّامل.

كما أظهَر بلوم أثر ذلك الاتِّصال الحضاري بين الصِّين وآسيا الوسطى وبلاد فارس خاصَّةً فيما تعلَّق بتطويرِ تِقنياتِ صُنع الورق. فعندما سيطَر المغول على بلاد فارس والصِّين معًا أضحت الاتِّصالات بين الفُرس والصينيِّين أكثر يُسرًا في ظل الإيلخانيِّين، فأخَذ المسلمون عن الصينيِّين كثيرًا من الابتكاراتِ التِّقنيةِ التي ساعدت على تحسينِ جودةِ لُبِّ الورقِ، ومن ثم تحسين نوعيَّةِ الورق المُنتج، حتى وصَل الأمرُ إلى صناعةِ أفرُخ عملاقةٍ من الورق، فاق حجم الفَرخِ منها قامةَ الرجل أحيانًا! وعلى هذا النَّحو استُغني عن لصقِ أوصال الأوراق الصغيرة لصُنع أوراقٍ كبيرةٍ. ثم وضَّح بلوم علاقة تحسين تقنياتِ صناعةِ لُبِّ الورق -وصُنع أنواعٍ خاصَّةٍ من الورق خِصِّيصًا لاستخدام ما بعينِه- باندلاعِ ثورةٍ ثانيةٍ للكتاب الإسلامي تمثَّلت في تنفيذِ المصاحف والكُتب الضَّخمة، وظهور الكتابِ المُصوَّر، وازدهار فنِّ رسم المُنمنماتِ، وتطور الخط العربي، وغيره من الفُنون التي ارتبطَت بصناعة الورقِ المصقولِ خاصةً.

وفي الفصل الثَّالث ناقَش بلوم أثر الورق في انتقالِ الثَّقافة القائمة على الحفظِ والرِّواية في العالمِ الإسلامي إلى ثقافةٍ مُستندةٍ إلى النصِّ المدوَّن، كما ناقَش خصائصَ الكتابةِ بالعربيَّة، وأثر الورق في تطوُّر الخط العربي، وأنار -بتفصيلاتٍ جديدةٍ- ظهور الخطِّ المتطوِّر الذي تفرَّع عن الخطِّ الكوفي الزَّاوي القديم، وهو الخط الذي يُسمِّيه المُستشرقون بالخط الليِّن المكسور (Broken cursive script)، والتي دعَت استل ويلان إلى تسميته بـ «خط الورَّاق» تخليدًا لذكرى الورَّاقين والنسَّاخين الذين ابتكروه قبل ظهورِ الخطوطِ المنسوبةِ، وعلاقة ظهور هذا الخط وانتشارِه باستخدام الورق بوصفه حاملًا للكتابةِ آنذاك. كما ناقش بلوم ظاهرة ازدهار صناعة الورق وشُيوعه بـ«انفجارِ الكتب» أو ما نُطلق عليه نحن في ثقافتنا «عصر التَّدوين»، كما تناول شيوع الورقِ وعلاقته بنشأةِ

المكتبات الإسلامية العظيمة في القرون الوسطى، وأخيرًا أثر الورقِ في ثقافة التَّدوين.

وفي الفصلِ الرَّابع أوقف بلوم القارئ جليًّا على تلك التَّطورات التي نجمَت عن معرفة المُسلمين بالورقِ، وكيف أعقَب انتشاره تطور نُظمِ التَّدوين بما في ذلك التَّرميز في مختلفِ العلومِ والفنونِ كالرياضيَّات -التي حقَّقت طفرةً حقيقيَّةً مع تدوين الحسابات والمُعادلات بالمدادِ والورق- ثم الموسيقى ورسم الخرائط الجغرافيَّة، بل والتِّجارة أيضًا. في هذا الصَّدد، تناول بلوم سِلسلةً من التَّأثيرات الثَّقافية التي ترقى إلى تغيراتٍ ثوريَّةٍ تُشبه كثيرًا ملامح تلك المُتغيرات التي ترتَّبت على اختراع المطبعة على يد جوتنبرج. وساق الدَّليلَ تلو الدَّليلِ على الكيفيَّة التي غيَّر بها توفُّر الورق في أيدي الكُتَّاب من عادات التَّفكير والتَّدوين، بما في ذلك ظهور التَّرميز في مُختلف العلوم والفنون حتى فكَّر بعض المُصنِّفين في الكيفية التي يمكن بها تدوين ما لم يكن يُتصوَّر تدوينُه آنذاك، مثل الموسيقى والألحان. وجادل بلوم بأن هذا التقدُّم الذي شهِدَته تلك العلوم والفنون في العالم الإسلامي، لا يُتصوَّر عقلًا أن يجري على وسيطٍ آخر لنقل المعرفة سوى الورق. وعلى هذا النَّحو تسبَّب ظهورُ الورق وانتشاره في تغيير مسار التَّاريخ البشري، قبل أن تُواصِل الطِّباعة تعميقَ ذلك المسار، وعلى مُستوى أكثر تطوُّرًا.

وليس من المُستغرب -بالنَّظر إلى تميُّز بلوم بوصفِه مؤرخًا للفنونِ والعمارةِ الإسلامية في الأصل- أن يُفرِدَ الفصلَ الخامسَ للفنونِ البصريَّة التي لعِب الورق دورَ الوسيط في تنفيذها. فربَط بلوم على نحو لا يُعوزه الإقناعُ تطوَّر الفنون الإسلاميَّة (لا سيَّما فن رسم المُنمنمات) بالتَّاريخ الأوسع نطاقًا للتِّقنية، لا سيما تِقنية صناعة الورق. وعزا إلى الورقِ الفضلَ في ظاهرةٍ طالما أثارت انتباه المتخصِّصين في الفنونِ الإسلاميَّة والعمارة، ألا وهي: ذلك الميلُ التَّدريجي إلى توحيدِ النَّمط في الفنونِ الإسلامية بصفةٍ عامَّةٍ، والعِمارة بصفةٍ خاصَّةٍ، بعد القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي، حيثُ أظهَر المُهندسون مَيلًا إلى رسم المخطَّطات المعمارِية على الورق ذي المسقط الشَّبكي. وجادل بأن هذه الظَّاهرة حدثَت نتيجة الاعتماد المُتزايد على الورقِ وسيطًا لنقل الرُّسومات الهندسيَّة المعمارية وزخارفِ الخَزف والأعمال المعدنية، وتَصميمات الأقمشة والمنسوجات، وهو التطور الذي أدَّى إلى كسرِ التوحُّد التَّاريخي بين الحِرفي والفنَّان فصلًا دام حتَّى يوم النَّاس هذا.

وتناول الفصل السَّادس من هذا الكتاب، عمليَّة انتقال صناعة الورق إلى أوروبا وتطورها هناك بعد ظهور الطباعة. أمَّا الفصل السَّابع فقد استعرَض فيه المؤلف أثر ظهور الطباعة على تطورِ صناعة الورق، وتَصميم الخطوطِ العربيَّة المبكِّرة في المطابع الأوروبيَّة، وبواكير المطبوعات العربيَّة في مطابع أوروبا، ولا سيما المصاحف. ثم عرَّج على رَفضِ العالم الإسلامي تبنِّي تقنية الطِّباعة، وتفضيله عمليات النَّسخ التَّقليدية وسيلةً لتكاثر الكُتبِ. وقارن بلوم بين موقف العالم الإسلامي في القرن الثَّاني الهجري/ الثَّامن الميلادي، عندما قبِل المُسلمون الورقَ بحماسةٍ وبلا ترددٍ، وبين موقفه في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي عندما أظهر المُسلمون التوجُّسَ والرِّيبة من المطبعةِ التي اخترعها جوتنبرج. ثم عدَّد بلوم الآثارَ التي ترتَّبَت على حماسةِ الأوربيِّين للمطبعةِ، بإزاء الرَّفض الذي قابلَها المُسلمون به. كما درَس طرفًا من أسبابِ التفوُّق التِّقني لدى الأوروبيِّين في مقابلِ الجمودِ والركودِ اللذين باتت تتميَّز بهما التَّقنية في العالم الإسلامي منذ أواخر العصر المملوكي ومُعظم العصر العثماني.

بيد أنَّ بلوم أكَّد على أنَّ العالمَ الإسلاميَّ عرَف الطِّباعةَ مبكِّرًا، حيث كانت طريقة الطِّباعة بالقالبِ -الخشَبي أو البرونزي (الطَّرْش)- معروفةً لدى المسلمين، إلا أن استخداماتها كانت محدودةً، وتتمثَّل في نقشِ الأقمشةِ والمنسوجات وصُنع التَّمائم الرَّخيصة، وزخرفة غُلافي الكتابِ من الدَّاخلِ خاصةً.

واختَتم بلوم كتابَه بمقالةٍ ببليوجرافيةٍ تضمَّنت عرضًا لمصادرِ موضوعه، وإرشاداتٍ عامة للباحثين بشأن نطاقِها وكيفية التَّعامل معها. ثم أتبعها بقائمةِ المصادر والمراجع.

***

(٣)

تميَّز تناولُ بلوم لتاريخِ الورقِ، بكثيرٍ من التَّصحيحاتِ للأفكارِ النَّمطيَّة التي شابها التعصُّب ضد الحضارة الإسلامية في أوساطِ الاستشراق، فقد عزا بلوم الفضلَ للحضارةِ الإسلامية في قسمٍ كبيرٍ من التقدُّم العِلمي الذي أحرزَه الإنسانُ في الحقبِ الأخيرةِ، ولم يقصِّر في إقامة الدَّليل تلو الآخر على أننا مازلنا نحيا في أجواءِ تلك الحقبةِ التي دشَّنها المسلمون عندما عرَّضُوا قطاعًا واسعًا من المجتمعِ للكلمةِ المكتوبةِ، فازدهر النَّشاط

العقلي الذي انفجَر في وجه أغلالٍ من التعصُّب والخُرافةِ والاستبدادِ. ومن ثم بدأت حقبةٌ جديدةٌ من الحضارةِ الإنسانيَّةِ، بظهور ما يطلق عليه علماء الاجتماع «المُجتمعات المتعلِّمة» (Learned societies)، حيث لم تعُدِ القراءةُ والكتابةُ حِكرًا على فئةٍ قليلةٍ من الناس، بل وُجِدَت شريحةٌ واسعةٌ من السكَّانِ تعرف القراءة والكتابة. وافتتح هذا التطور الثَّقافي الثَّوري -الذي حقَّقته المجتمعاتُ الإسلاميَّةُ في غضونِ قرنٍ ونيِّفٍ منذ ظهور الإسلام- تلك الحقبة التي لا زلنا نعيش فيها إلى الآن، على حدِّ قول ألفريد ڤون كريمر.

والفرضيَّة الرَّئيسة للمؤلف أنَّ تاريخَ الورقِ في العالم الإسلامي ينقسم إلى حقبتَيْن، الأولى عندما ساعد شيوعُه على ازدهارِ الكتابةِ بوصفها إحدى المظاهر المُميِّزة لعصر التَّدوين، فازدهر التأليفُ في مختلفِ العلوم والفنونِ، لكنَّ الورقَ لم يكن رخيصًا بما فيه الكفاية، فأقبل العلماءُ والكُتَّاب على استخدامِه، في حين انتشَر استخدامه بمعدلاتٍ أقلَّ عند غيرهم من طبقاتِ المجتمع. أما الحقبة الثَّانية فتبدأ منذ القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي، عندما أدَّى شيوعُ مصانع الورقِ في العالم الإسلامي إلى رخصِ ثمنِه وتحسُّن أنواعِه وقُطوعِه، ما أدَّى إلى تطوراتٍ ثوريَّةٍ طرَأت على الفنونِ الإسلاميَّة، حيث أقبلت طبقاتٌ أخرى من المجتمع على استخدامِ الورقِ مثل الحرفيِّين والبنَّائين، فظهرتِ المصاحفُ العَظيمةُ، وازدهر الكتابُ المصوَّر، وتطوَّرت فنونُ الزَّخرفة في المباني والمُنشآت، وكذلك على الخزفِ والأشغالِ المعدنيَّة ... إلخ. وهكذا تميَّز المهندسون عن البنَّائين، ومالت خصائصُ العمارةِ إلى التوحُّدِ والانسِجام. والأهم من ذلك كُسِر ذلك التوحُّد التَّاريخي بين الحِرفيِّ والفنَّان، فأضحى الفنَّانُ يصمِّمُ، والحِرفيُّ ينفذُ التَّصميمَ.

كما افترض المؤلِّفُ أنَّ اختراع الورق ينبغي أن يُعدَّ ثورةً فكريَّةً وتقنيَّةً، تقفُ على قدم المُساواةِ مع اختراع المطبعةِ ذات الأحرُفِ المتحرِّكة في أوروبَّا في القرن الخامس عشر الميلادي على يد جوتنبرج. وعزا الفضلَ في هذا التطور للحضارةِ الإسلاميَّة دون غيرها. كما فنَّد المؤلف رواية الثَّعالبي المشهورة، والتي تقضي بأن سَبي الصِّينيِّين من صُنَّاع الورق -الذين وقعوا في أسرِ زياد بن صالح في أعقابِ معركة «طلاس»- هم الذين علَّموا المُسلمين الكيفيَّة التي صنَع بها أهل الصِّين الورق. وقدَّم المؤلف قرائنَ أثريةً وتقنيَّةً مُقنِعةً تدلُّ على أنَّ صناعة الورق كانت معروفةً في آسيا الوسطى، وأنَّ الورق

كان يُستخدم على نطاقٍ واسعٍ هناك قبل فتح المُسلمين لها بقرنَين من الزَّمان على الأقل.

ولم يقتصِرْ عرضُ بلوم لتاريخ الورق في الإسلام على العالم الإسلامي فحسب، بل عالـج أيضًا تلـك الكيفية التي انتقَلت بها صناعةُ الورقِ من العالم الإسـلامي إلى أوروبًا من خلال مُسلمي صِقلية والأندلس، والكيفية التي انتشَرت بها صناعةُ الورقِ في أوروبا فـي أعقـابِ ذلك من أقصاها إلى أقصاها، في الوقت الذي اندثرت فيه صناعةُ الورقِ في العالم الإسـلامي -باسـتثناء تُركيا وإيران والهند- والكيفية التي أثَّر بها ذلك على اعتقادِ الأوروبيّيـن -لوقـتٍ طويـلٍ في الحقبـةِ الاسـتِعماريَّة- أنهم هم أصلُ صناعـةِ الورق في العالـم. كما عالَج بلوم تلك الكيفيَّة التي سقَطت بها قرونٌ من تميُّز المسلمين في صناعةِ الورقِ من الذَّاكرة الأوروبيَّة في القرنين الثَّامن عشـر والتَّاسـع عشر. ثم تلك الكيفيَّة التي عالجت بها المركزيَّة الأوروبيَّة[1] ظهورَ حقائقَ دامغةٍ تُفيد بأن الصينيِّين هم أصل اختراع الورق، وكيف استُغلَّ مؤرِّخو المركزية الأوروبيَّة هذه الحقيقة للتَّشويش على إسهاماتِ العالـم الإسـلامي في صناعةِ الورق وانتشـاره، بل ومعرفة أوروبًا به، وبالكيفيَّة التي صُنِع بها. ورأى بلوم أن قضيَّة اختراع الورقِ في الصِّين تُعدُّ قضيةً هامشيةً إلى حدٍّ بعيدٍ بالنسبة لتاريـخ الثقافـة والتِّقنيـة الأوروبيَّتين، وذلـك على النَّقيض من تاريخ الورقِ في الإسـلام وتقنيـات صناعتِـه عند المسـلمين، فالقضيَّة الأخيـرةُ في القلبِ من النِّقـاش حول تاريخ الـورق الأوروبِّـي وتطـوِّر صناعتِـه، والتغيُّـرات التي أسـفَر عنها ظهوره فـي أوروبا على الصَّعيدين الثَّقافي والتِّقني. وعلى هذا النَّحو رأى بلوم أن أوروبَّا أسقَطت مجددًا وعمدًا قرونًا من التميُّز الإسلامي في صناعةِ الورقِ تهرُّبًا من تبعاتِ الاعترافِ بفضلِ المسلمين على التَّاريخ التِّقني الأوروبي في مسارٍ من أهم مساراتِه.

ولم يتجاهل بلوم إسهامَ الحضارةِ الصينيَّةِ المتمثِّل في صناعةِ الورقِ وتطوير تقنياتِ صناعـة اللُّـب خلال فصولِ كتابه الماتِع. وعلى هذا فإنَّ هذا القسـم من الكتاب قد يفتحُ آفاقًـا جديـدةً للباحثين العرب، حـول تقنياتِ أهل الصِّين في صناعـةِ الورقِ، وكيف أفاد المُسـلمون منها، لا سـيَّما تقنيات تحسين اللُّبِّ الـذي صُنِع منه الـورق، بحيث تمكَّنت

(١) وصفُ بلوم هؤلاء المؤرِّخين بـ «الجهلة المُتعصِّبين الذين لا همَّ لهم إلا تشـويه صورةِ الآخر». من رسـالةٍ من المؤلف إلى المترجِم بتاريخ ١٢/ ١٢/ ٢٠٢٠.

بعـض بقاع العالم الإسـلامي مـن صناعةِ عُملةٍ ورقيَّةٍ بطريقةِ الطباعـةِ بالقالبِ على ورقٍ مصنـوعٍ يدويًّـا في القرون الوسـطى. نعم لم تحـظَ تلك العُملة بثقةِ النَّـاس آنذاك، وأدَّى صـدور تلـك العُملـةِ إلى انـدلاع اضطرابـاتٍ سياسـيَّةٍ واقتصاديَّةٍ واسـعةِ النطـاق. وفي الأخير: لم يُكتب لهذه التَّجربة الاستمرار. ولكن مجرد ظهور تلك العملة الورقيَّة ينهض دليـلًا فـي حدِّ ذاته علـى التطورِ الكبيرِ الذي شـهدته حرفةُ صناعةِ الـورقِ في بعض بقاع العالم الإسـلامي، وكذلك شاهدًا على التَّحسيناتِ التي أُدخِلَت عليها، فأنتَج المسلمون عملـةً ورقيَّـةً مصنوعةً يدويًّا، بحيـث امتلكت تلك العملةُ أهم سـمات العُملاتِ الورقيَّة الجديرة بالثِّقة، وهي الصُّعوبة البالغة لإمكانيَّة التَّقليد أو التَّزوير.

كمـا خلُص بلوم أيضًا إلى أنَّ تقنياتِ المسـلمين في صناعـةِ الورق والتَّعديلات التي أدخلوهـا على صناعتِـه لا تختلفُ كثيرًا عن الرياضيَّات الهنديَّـة التي خضَعت لتطوراتٍ كبيـرةٍ جـرَت عليها في البوتقة الإسـلامية، قبـل أن تعرفها أوروبا في صيغتِها الإسـلامية المُطوَّرة. وفي الحقيقة فإن بلوم ما انفكَّ يعرضُ من منظورٍ مقارن -كلَّما سمَح له السِّياق بذلك- بين تاريخ الورقِ في العالم الإسلامي وتاريخ مثيله في أوروبا. الأمر الذي جعل هـذا الكتـاب عملًا فريـدًا بحق، حيث قـدَّم روايةً مثيرةً لا مثيـلَ لها في المكتبـةِ العربيةِ، ناهيـك عن دراسـات أقرانِـه من المستشـرقين. حتى قيل: «إن دراسـةَ الورق الإسـلامي بـدأت علـى يد كارباتشـيك (Josef von Karabacek)، لكنها خطَت خطـوةً مُهمَّةً على يدِ جوناثان بلوم»[1].

***

(٤)

خطَّـط بلـوم منذ البدايةِ لتوسـيعِ قاعدةِ قـرَّاءِ الكتاب في الغربِ، ومـن ثَم فقد أجرى تعديـلاتٍ هيكليَّـةً علـى كتابه كـي يُلائم القارئ العـام، لا المُتخصِّص فحسـب. فعرَض مادَّته بطريقةٍ فريدةٍ، فقد اسـتغنى عن الحواشـي تمامًا -سـواءً كانت سفليةً أو مُجملةً في نهايةِ الفصل أو الكتاب- وانحازَ إلى تِقنيةٍ أخرى من تقنياتِ عرضِ المادة الثَّانوية، وهي

(1) Marianna Shreve Simpson, Paper before Print, Book Review, *Speculum*, Vol. 78, No. 4 (Oct., 2003), pp. 1250-1252.

التي تُدعى التَّعليقات العَرَضيَّة (Sidebars)، وفصَّل فيها المؤلف بعض ما أجمَله في متنِ دراستِه، لا سيما تلك المادة التي شعَر بأنَّ ما ورَد في المتنِ ربما أثار فضول القارئ لمزيدٍ من التعمُّق، مثل آلية عمل الخفَّاق الهولندي في خفقِ خِرق الكِتَّان لصُنع اللُّب. أو السِّمات الفيزيائية والكيميائيَّة التي تجعل من أليافِ السِّليلوز -دون غيرها- مادةً مثاليةً لصُنع الورق، على سبيل المثال. والطَّريف أن المؤلِّفَ حدَّثني مؤخرًا أن أستاذَه أوليج جاربر (Oleg Grabar) عندما رأى المسوَّدةَ النهائيَّةَ للكتابِ أخبره بأن «التَّعليقات العَرَضيَّة» ليست بهذا السُّوء الذي يعتقده بعضُ النَّاس. وسُرَّ بلوم كثيرًا من تعليقِ أستاذِه، ثم أردف بلوم قائلًا: «لا شيءَ يعدلُ تقديرَ الآخرين لما يبذُله المرءُ من جَهدٍ»[١].

أمَّا عن التَّوثيقِ والإحالاتِ على المصادر والمراجع، فقد أفرَد بلوم لها قسمًا من أقسام الكتاب، عُني بعرضِ المصادر والمراجع ذات الصِّلة بالموضوعات التي تناولها على مدارِ فصول الكتاب على التَّرتيب، وهو ذلك الفصلُ المعنون بـ«قضايا ببليوجرافيَّة» وهو ليس عرضًا نقديًّا للمصادرِ والمراجعِ ابتداءً، كما لا يُعدُّ ببليوجرافيا شاملة. بل عرَض فيه بلوم مصادرَه، وجدوى الاعتماد عليها في دراسةِ نقاطٍ بعينِها من تاريخ الورق لمن أراد مزيدًا من القراءةِ المتعمِّقةِ، سواءً في تاريخ الورق عمومًا، أو تاريخ الورق في الإسلام بصفةٍ خاصةٍ. وفي رأيي فإنَّ هذا القسم من الدِّراسة بالغ الأهميَّة بالنِّسبة للباحثين العرب الذين يُزمِعون دراسةَ تاريخ الورق، أو مراحل صُنع الكتابِ الإسلامي المخطوط في القرون الوسطى. وعلى حدِّ وصفِ ديفيد دونكان (David Duncan) فهو «مقالٌ جيد قدَّم فيه بلوم مادةً ببليوجرافيَّةً رائعةً تتعلَّق بالدراساتِ المُتخصِّصةِ في تاريخ الورقِ وبيان مدى أهميتِها في هذا السِّياق»[٢]. كما اختار بلوم الصُّور والنَّماذج التي عرضَها بتبصُّرٍ، فهي نماذجُ مختارةٌ بعنايةٍ، ويُنير مُعظمها النصَّ بالفعل، ووضعها المؤلِّفُ في الأماكن الملائمةِ لها من النص.

أمَّا من حيثُ المنهج فقد مزَج بلوم بين عدَّة علوم وتخصُّصاتٍ بينيَّة في رصدِه لقصَّة الورقِ في العالم الإسلامي، فأضحَت دراستُه دراسة تاريخيَّة وفنِّية وأثريَّة وتِقنيَّة لتاريخ

---

(١) من رسالة من المؤلف إلى المترجِم بتاريخ ١٨/ ١١/ ٢٠٢٠.

(2) David J. Duncan, Paper Before Print, *Middle East Studies* Association *Bulletin*, Winter 2003, Vol. 36, No. 2 (Winter 2003), pp. 209-210.

الـورقِ فـي العالـم الإسـلامي منذ دخوله ديار الإسـلام حتـى معرفةِ المسـلمين بالمطبعةِ وفنون الطِّباعة. وأسفَر نهج بلوم في النهاية عن كتابٍ ممتعٍ سهل القِراءة، نُظِّمت فصوله تنظيمًا منطقيًّا، ولم يدَّخِر المؤلف جهدًا لجذب انتباه القارئ ووقايتِه من الشُّرودِ في أثناء القـراءةِ، مثل: سلاسـةِ العـرضِ، وتنوع المواد المصـوَّرة، والأسـلوب الموجز في طرحِ الأسـئلة وعـرض الإجابـاتِ المحتملةِ عليهـا، فضلًا عن المتعـةِ التي وفَّرتهـا التَّعليقات العرضيَّة(١). وعلى هذا النَّحو سيظلُّ كتابُ بلوم مرجعًا أساسيًّا في تاريخ الورق الإسلامي لسنواتٍ طويلةٍ قادمةٍ.

لـذا لـم يكن من الغريـب أن يفوزَ هذا الكتـاب بعدَّة جوائز عالمية هي: جائزة شـارلز روفـوس مـوري لأفضلِ كتابٍ في تاريـخ الفنِّ عـام ٢٠٠٣ (the Charles Rufus Morey Award of the College Art Association). كمـا حصَـل علـى تقديـر الجهـد المُشـرِّف لصاحبِـه فـي جائزة ألبرت حوراني لأفضل كتابٍ (Albert Hourani Book Award of the Middle East Studies Association of North America)، وكذلك نالَ هذا الكتابُ المركزَ الثانـي لجائـزة ألفـا سـيجما التي يمنحُها اتحـاد المعاهـد والجامعات اليسـوعيَّة لأفضلِ كتابٍ (the Alpha Sigma Nu Book Award of the Association of Jesuit Colleges and Universities). كمـا فـاز بالمركزِ الثَّاني في جائزةِ المركز البريطاني-الكُويتي عام ٢٠٠٢ (the British-Kuwait Friendship Society Book Prize of the British Society for Middle Eastern Studies). وفضـلًا عـن ذلـك، تُرجم الكتـابُ إلى اللغةِ التركيَّـة، كما نوقِش على صفحاتِ نحو ٢٠ دوريةً متنوعةً، فمنها الشعبيَّة ومنها الأكاديميَّة المُتخصِّصة(٢).

***

(٥)

ولم يخلُ تناول بلوم لقصَّة الورق في الإسلامِ من الاصطدام ببعض ثوابت المركزيَّة الأوروبيَّـة، لـذا لم يكن من الغريب أن تتعالى أصـواتُ بعض الباحثين بالإنكارِ عليه، بل

---

(1) David J. Roxburgh, Paper before Print, *Iranian Studies*, Jun., 2005, Vol. 38, No. 2 (Jun., 2005), pp. 363-366.

(٢) من رسالةٍ من المؤلِّف إلى المترجم، بتاريخ ١٢/ ١٢/ ٢٠٢٠.

بلغ بعضهم حدَّ العصبية في الردِّ عليه مثلما فعلت ثيا بورنس (Thea Burns) التي وصَفت دراسة بلوم بأنها «دراسةٌ مخيبةٌ للآمال على الرغم من عُنوانها المُثير»، كما أخذت على بلوم إفراطَه في التَّخمين في ظلِّ غيابِ الأدلة المُقنعة، وجادلت بأنَّ الأوروبِّيين كانوا سيتعرَّفون على الورق وطُرق صناعتِه عن طريق قوافل التجَّار التي اتجهت شرقًا صوبَ الصِّين، وأن الأمرَ لم يكن بحاجةٍ إلى وساطةِ العالم الإسلامي![1].

ومع ذلك فقد أشادَ عددٌ من الباحثين بالجهد الذي بذله بلوم في دراستِه مثل ديڤيد دونكان -على سبيل المثالِ- وإن كان أخذ على بلوم تجاهل تحليل انتشار الورقِ في فرنسا في الفصل السَّادس من كتابه -الذي أفرده لانتقال الورقِ في أوروبَّا- كما أخَذ عليه أيضًا أنَّه لم يُميِّز بما فيه الكفاية بين صناعة الورقِ في الأندلس الإسلاميَّة، ثم إسبانيا النَّصرانية[2]. وكذلك فعل فريد مهدوي، الذي أشاد بتعمُّقِ بلوم في مصادرَ متنوعةٍ، في سبيلِ إنجاز هذه الدِّراسة الصَّعبة، وكيف وضَّح من خلال بحثِه -بطريقٍ غير مباشرٍ- أن طريقَ الحرير في القرونِ الوسطى لم يكن طريقًا للتبادل التجاريِّ فحسب، بل كان طريقًا لتبادل الأفكارِ وانتقال التِّقنيات عبر الأقاليم الأفرو-أوراسيَّة. وفوق ذاك، فقد وضَّح بلوم ذلك الدَّور المعقَّد الذي لعبه الورقُ في المجالاتِ الفكرية والفنِّية والاجتماعيَّة والاقتصادية والتِّقنية في الإسلام[3].

واستلزم استعراضُ بلوم لتاريخ الورق وآثاره على أصعدةِ الحياة الثَّقافية وغيرها من أوجُهِ الحياة في القرون الوسطى حتى اختراع المطبعة، الدَّمج بين عدة علومٍ وتخصُّصات بينيَّة تطلبتها دراسة تاريخ الورق، فقد عرَض بلوم جوانب من التَّاريخ الإسلامي،

---

(١) انظر عرضَها العَصبيَّ لكتاب جوناثان بلوم في:

Thea Burns, Paper before Print, *Journal of the American Institute for Conservation*, Vol. 42. No. 1, Architecture Issue (Spring, 2003), pp. 124-126.

حيث لم تذكُر في الكتابِ عنصرًا إيجابيًا واحدًا، بل وصفَت أطروحتَه الرئيسةَ (وهي علاقة الورق الإسلامي بنظيره الأوروبي) بالمَعيبةِ ابتداءً.

(2) David J. Duncan, Paper Before Print, op. cit, pp. 209-210.

(3) Farid Mahdavi, Paper before Print, *The Journal of Interdisciplinary History*, Summer, 2003, Vol. 34, No. 1 (Summer, 2003), pp. 129-130.

مصحوبةً بجوانبَ أخرى من تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط، مختلطةً بلمحاتٍ أخرى من تاريخ التِّقنية، مُمتزجةً بلمحاتٍ من تاريخ الفنونِ والعمارة الإسلامية، في مَعينٍ واحد، فأخرج لنا عملًا شاملًا قلَّما نرى نظيرًا له. وأنا هنا لا أجد أنسَب من استعارة وصْف المستشرق المرموق ريتشارد بولِّيت Richard W. Bulliet في وصفِ هذا العمل وصاحبه:

«كان بلوم -في ثنايا معالجته للثَّورةِ الثقافيَّة التي ترتَّبت على صناعةِ الورقِ- قادرًا على ربطِ الظواهر الثَّقافية بغيرِها في دراسةٍ أصيلةٍ تنتمي إلى تاريخ التَّقنيةِ. ومن ثَمَّ ينبغي الاعترافُ بهذا العمل بوصفِه إسهامًا رئيسًا في تاريخ التَّقنيةِ العالميَّة بوجهٍ عام. وعلى هذا النَّحو يستحقُّ جوناثان بلوم أن نرفعَ له القُبَّعة احترامًا وتقديرًا»[1].

***

(٦)

أردتُ منذ البدايةِ الحفاظَ على روحِ الكتابِ وتنسيقِه كما ألَّفه صاحبُه، على الرغم من التحدِّيات الفنِّية التي أحاطَت بهذا الخيارِ، ولا سيَّما مع وجودِ هذا العدد الكبير من الصُّورِ والأشكالِ المصحوبةِ بتعليقاتٍ تتفاوت في الطُّول فيما بينها. وعلى هذا النَّحو رأيتُ الاحتفاظَ بتقنيةِ التَّعليقات العرَضيَّة التي عرَض فيها المؤلف المادة الثَّانوية، هذا فضلًا عن عرضِ الأشكال والصُّور على النَّهج نفسه في أصلِه الإنجليزي، بل في المواضِع نفسها التي وردت فيها. وقد أثبت مُنضِّد الكتابِ الأستاذ/ أحمد نَسيرة كفاءةً واقتدارًا في مُحاكاةِ الكتابِ الأصلي، فكأنِّي ترجمتُ نصَّ الكتابِ، وترجم هو مظهره بصَريًّا إلى العربيَّةِ.

كما قُمت بإعادة الاقتباساتِ النَّصيَّة من المصادر العربية -التي حَواها هذا الكتاب بين دفَّتيه، والتي قام المؤلِّف بترجمتها إلى الإنجليزيةِ- إلى أصولها العربيَّة. بيد أنه لم يكن هناك بدٌّ من ترجمةِ النُّصوصِ الفارسيَّة اعتمادًا على ترجمةِ المؤلِّف لها إلى الإنجليزية، وذلك لصعوبةِ الوصول إلى هذه المصادر الفارسيَّة من جهةٍ، وكذلك لجهلي

(1) Richard W. Bulliet, Paper before print ... Book Rreview, *Technology and Culture*, Vol. 44, No. 1 (Jan., 2003), p 161.

باللغة الفارسيَّةِ من جهةٍ أخرى، ومن ثم فقد ترجمتُ هذه النُّصوص مباشرةً من خلال ترجمةِ المؤلِّف الإنجليزيَّة لها. وكذلك كان الحال مع النُّصوصِ العربيَّة المُستقاة من الوثائقِ المحفوظةِ في مكتبات أوروبَّا وأمريكا، ولا سيما وثائق الجنيزة المكتوبة بالعربيَّة العاميَّة بالحرفِ العبريِّ. واقتصر التصرُّف الوحيدُ للمُترجِم في المَتنِ على إقحام التَّواريخ الهجريَّة -التي أهمَلها المؤلف تمامًا بدعوى انعدام أهمِّيتها للقارئ الغربي- جنبًا إلى جنب مع التواريخ الميلادية؛ لأهمِّيتِها القُصوى للقارئ العربي.

وكذلك علَّقتُ على بعض ما أوْرَده المؤلف، واستدركتُ عليه في الحواشي في مواضِعَ. وحاولت الاقتصاد في تعليقي على النَّص ما وسعَني هذا. ومن ثَمَّ لم أعلِّقْ على النص أو أستَدرِكْ على مؤلِّفه إلا لضرورةٍ رأيتُها. ووضعت تعليقاتي على المتنِ في حواشٍ مفردةٍ اختتمتُها بكلمة المُترجم بين قوسَين.

وفي ختام هذه المقدمة أودُّ أن أشكرَ الصَّديقَ العزيزَ الدكتور/ عبد الله بن رفود السُّفياني، على ما قام به من جهدٍ في سبيلِ إخراج هذا الكتاب، ذلك أنَّ فضلَه وبصمتَه واضِحان على هذا الكتابِ، بل لولاه ما رأت هذه التَّرجمة العربيَّة لهذا الكتاب النُّور؛ إذ واجَه بعض العراقيل الفنِّية والإداريَّة في الاتفاق مع مطبعةِ جامعة يل على ترجمةِ هذا الكتاب المُهم إلى العربيَّة، وأدار هذا الملفَّ بحنكةٍ وخبرةٍ ودربةٍ حتى كان له ما أراد. كما تفضَّل عليَّ بمراجعة نصِّ هذا الكتاب، وكان لملحوظاتِه الثَّاقبة أثرٌ كبيرٌ في تجنُّبي لكثيرٍ من الأخطاءِ والهنات. كما أنَّه لم يدَّخر جهدًا في سبيلِ خروج هذا الكتاب في أبهى حُلَّةٍ.

والشُّكرُ موصولٌ لـ «دار أدب»، وفريقِها المُتميِّز، وذلك على تعامِلهم المِهني الدَّقيق منذ لحظة الحصولِ على حقوقِ ترجمةِ الكتابِ، ومتابعتهم تفصيلاتِ التَّصميم والإخراج الفنِّي، وعنايتِهم الفائقة بجميع التَّفصيلات.

كما أتقدَّم بوافر الشُّكر لمؤلِّفِ الكتاب، والصَّديق العزيز البروفيسور جوناثان بلوم مرَّتين، الأولى: لأنَّه لم يُقصِّر في تقديم يدِ المُساعدةِ والعون، بل بذَل وسعَه في سَبيل إزالةِ العقباتِ الفنِّية والإداريَّة في الاتفاق مع مطبعة جامعة يل على التَّرجمةِ العربيةِ لهذا

الكتاب. والثَّانية: لأنه لم يضنَّ بتقديمِ يد المُساعدةِ والعونِ أثناء ترجمةِ هذا الكتابِ، فقد ألححْتُ عليه بالأسئلةِ، واقتضته بعض تساؤلاتي العودةَ إلى مُسوَّدات الكتابِ تارةً، وإلى مصادرِه تارةً أخرى، ليستخرجَ لي ما أردتُه منه، حتى إنَّه مازحني قائلًا: «لو علِمتُ أنَّ هذا الكتاب سيُتَرجَم إلى العربيَّةِ يومًا ما، لفضَّلتُ تقنيةَ الحواشي السُّفليَّة، بدلًا من العودةِ إلى مُسوَّداتِ الكتابِ ومصادره بعد مُضيِّ نحو ٢٠ عامًا من فراغي من تأليفِه».

وعلى كل حالٍ فما كانت هذه التَّرجمة العربيَّة لكتابِه لتخرج على هذا الوجه، دون المعاونةِ الصَّادقةِ والكريمةِ التي أبداها جوناثان بلوم، وهو رجلٌ كريمٌ ومِعطاءٌ ومجاملٌ بطبعِه.

﴿ والحمدُ لله أوَّلًا وآخرًا ﴾

د. أحمد عبد المُنعم العَدوِي

القاهرة، وقد انتصَف نهارُ يومِ الأربعاء الموافق غُرَّة جُمادى الأولى من عام ١٤٤٢ للهجرةِ النبويَّة الشَّريفة، المُوافق ١٦ من ديسمبر/ كانون الأوَّل من عام ٢٠٢٠ لميلادِ المَسيح.

مقدمة المؤلف

غَيَّر الـورق -وهو مادةٌ من الشُّـيوع الآن إلى الحدِّ الذي قد يفكـر المرءُ فيها بوصفها هِبةً- تلـك الكيفيَّـة التـي عـاش بها الناس فـي غربي آسـيا وشـمالي إفريقيا فـي القرون الوسطى، بل والطُّرق التي عمِلوا بها أيضًا، فقد أضحى الورقُ الوسيطَ الرَّئيسَ للذَّاكرة.

أنفقـتُ حياتـي المِهنيةَ في دراسـة تاريـخ الفنِّ والعمـارة الإسـلامية والكتابة في هذا المجال، بيد أنني ما لبثتُ أن أدركتُ -فجأةً- تلك العلاقة المعقَّدة بين الحفظِ والتَّدوين منذ نحو عشر سنواتٍ خلَت، وذلك عندما دلَفت طفلتي -البالغة من العمر عامين- إلى المطبـخ بالطابـق السُّـفلي صَبيحة أحد الأيام، ثم سـألتني عن سـببِ وضع وعاء السُّـكر ومِطْحَنـة الفُلفـل، علـى رفِّ المطبخ على نحوٍ مختلفٍ عمَّا كانـا عليه في الليلة البارحة. هنـا أدْرَكـتُ من فـوري أن ابنتي حفِظَت أين كانت أماكن تلك الأشـياء في الليلة البارحة تحديـدًا؛ ولأنهـا كانت تدرك أهميَّة تلك المعلومات بالنسـبة لها، فلم يكن لديها وسـيلةٌ أخرى لتَسجيلِها، سوى حفظها.

لقـد كانـت طفلـةً علـى فطرتِها لـم تـزل، ولا عهد لهـا بالقـراءة والكتابة بعـد. ويَعِي البالغون أن موضع وعاء السُّكر أمرٌ غير ذي بالٍ عادةً؛ وإن كان من الأهمية بمكان بالنسبة لهم، فبوسـعهم تسـجيل تلك المعلومات على العُبوَّة كتابةً، هذا إذا كانوا يعرفون القراءة والكتابة بطبيعة الحال. وغالبًا ما يكون لدى الأُميِّين من البالغين ذاكِراتٌ مُذهلةٌ، ومن ثَم يبدو أن تعلُّمَ القراءة والكتابة يُصيب الميلَ إلى الحفظ، أو القدرة على التذكُّر في مقتلٍ.

بدا لي آنذاك -ولم يزل يبدو لي- أن كثيرًا من الظَّواهر في تاريخ الحضارة الإسلامية فـي القـرون الوسـطى، بين القرنين الأول والعاشـر الهجريين/ السَّـابع والسَّـادس عشَـر الميلاديـيـن، يمكـن أن يُنظـر إليها مـن منظورِ الصِّراع بيـن الحفظِ والتَّدويـن. وقد تزامن

انتصار التَّدوين، سواءً كان مكتوبًا أو مُصوَّرًا، مع ظهورِ الورق. وعلى الرغم من أنني اكتشفت لاحقًا أن هذه المفاهيم قد أثارت فضولَ عددٍ من مؤرِّخي الحضارة الأوروبية، فإنَّ قِلَّةً من الباحثين فحسب، شرعوا في تطبيقِها على الحضارة الإسلامية.

يُعْنَى هذا الكتاب بالتَّاريخ الإسلامي، وبالثقافةِ البصرية في حقبة ما قبل الحداثة، بيد أن الأسئلة الأكثر عموميَّة، مع تلك الإشكاليات التي حمَلتها في طيَّاتها، كانت في القلب من النِّقاش حول تطور الثقافة الغربية الحديثة، وعلى الأخص تلك الوسائط التي نُقِلت الأفكار من خلالها، وتم بها الانتقال من الحفظ إلى التَّدوين. لقد استكشَف مؤرخون غربيون أمثال م. ت. كلانشي (M. T. Clanchy) ولوسيان فبفر (Lucien Febvre) وهنري-جان مارتن (Henri-Jean Martin) عمليَّة التحول من الحفظِ إلى التَّدوين في أوروبا في القرون الوسطى، وما بعد القرون الوسطى كذلك، فدرَسوا -على سبيل المثال- تلك الطُّرق التي حلَّت بها سجلَّاتُ الحسابات والوثائق والعقود محلَّ الطرق التقليدية في حفظ تلك السجلَّات في الذَّاكرة. أو كيف أدى اختراع المطبعة إلى قيام ثورةٍ في الطِّباعة، مُعرِّضةً بذلك قطاعًا واسعًا من المجتمع للكلمةِ المكتوبةِ للمرة الأولى.

وعلى صعيد الإسلام، يكشفُ ذلك البونُ الزمنيُّ الواسع بين إدخال الورق من جهةٍ، وإدخال الطِّباعة للمرة الأولى من جهةٍ أخرى، عن مدى أهمية الوسيط -أعني الورق- في تلك القفزة العملاقة في تاريخ البشرية. وعلى هذا النَّحو فإنَّ عددًا كبيرًا من الأفكار التي سأُناقشُها على امتداد الصفحات التالية، معروفةٌ منذ فترةٍ طويلة للمتخصِّصين، بيد أنه لم يتم جمعها معًا في سِلْكِ عملٍ واحدٍ قطُّ. ومن ثم يمكنني القول: إنَّ أسلافي -الذين تناولوا هذه الموضوعات- قد شاهدوا الأشجارَ حقًّا، لكن قلةً قليلةً منهم، باستثناء ألفريد فون كريمر (Alfred von Kremer) -الذي اخترتُ أن استهلَّ هذا الكتاب الذي بين يديك بكلماتِه- قد دلفُوا إلى داخل الغابة.

قمتُ بتجميع عدة فروعٍ وتخصُّصاتٍ بينيَّةٍ معًا في سِلكٍ واحدٍ في هذا الكتاب. ونظرًا لأن تاريخ الورق في الصين وأوروبا متاحٌ للقارئ العام، فقد صرفتُ عنايتي هنا إلى الكشفِ عن القصةِ المُثيرةِ للورق قبل الطباعة في العالم الإسلامي. وقد تطلَّب القيام بذلك الجمع بين الحقائق المتنوعة في إطار روايةٍ واحدةٍ تمتاز بالتماسك.

سبق أن أشار المستشرق الأمريكي الكبير مارشال ج. هودجسون (Marshall G. S. Hodgson) إلى أن المؤرِّخين المسلمين في القرون الوسطى لم يولوا اهتمامًا -يُعْرفُ فيُذكَر- للتطورات الثقافية، بل أوْلَوا عنايتهم لأفعال الأفراد ومسؤوليتهم عنها فحسب. ومن ثم فقد تجاهلت المصادر الإسلامية الإجابةَ عن عددٍ كبيرٍ من الأسئلة التي قد تشغل بال مؤرِّخ الثقافة المُحْدَثِ عادةً، من قبيل تلك الأسئلة المتعلقة بإدخال التِّقنية وانتشارِها مثلًا. عندئذ -والحال على ما وصفتُ آنفًا- ينبغي على المؤرخ أن يربطَ بين تلك المعلومات التي يستخرجها من خلال تلك الملحوظات العرَضية التي وردت في ثنايا نصوص مصادر القرون الوسطى من جهةٍ، وبين تلك الأدلة -المُبتسرة غالبًا- والتي يستنبطها من خلال السِّجلات الأثرية والفنِّية من جهةٍ أخرى. بيد أنه نادرًا ما تؤدِّي تلك الأدلة المتاحة إلى روايةٍ جَليَّةٍ أو واضحةٍ تشفي الغليل، كما قد ينشُد الباحث. فلم يعُد الورق يُصْنَع الآن في العديد من المناطق التي ذُكرت في هذا الكتاب، ويظلُّ الدَّليل الوحيد على الكيفية التي صُنعت بها ورقة ما، هو تلك الشهادة -الغامضة عادةً- لتلك الورقة نفسها.

ربما قمتُ بتعديلِ أدلَّةٍ ظرفيةٍ لتناسبَ تحليلي في هذا الكتاب، وذاك في سبيل سردِ قصة الورق في العالم الإسلامي قبل الطِّباعة. وبوصفي مؤرِّخًا، فإنَّني أعتقد أن الأدلة التي ظفرت بها، تخدم شرحي لذلك الاختراع، وانتشار صناعة الورق وتطورها، على النحو الأفضل. بيد أنَّني -في الوقت عينه- لا أملك إلا الإقرار أيضًا بأن ثمة تفسيرات أخرى، وهي معقولة أيضًا، حتى وإن بدت أقلَّ احتمالًا. وعلى أقل تقدير، أرجو أن يستفزَّ تحليلي في هذا الكتاب، غيري من الباحثين، فيخرجوا لنا ما بجُعبتِهم من أدلةٍ وتحليلاتٍ أُخر. وأظنُّ ظنًّا كاليقين، أن المؤرِّخين المُشتغلين بتاريخ الورق وتاريخ الإسلام بصفةٍ عامةٍ، ودارسي الفنِّ الإسلامي بصفةٍ خاصةٍ، سيتلمَّسون الأعذار لي في تعميماتي الجامحة -أحيانًا- وذلك سبيلًا لتقريب هذا الموضوع الغامض -بل والمهم- لأذهان جمهورٍ أوسع من القُراء.

وحاولت -باستهدافي للقارئ العام بهذا الكتاب- التخفُّفَ من الأثقال التي نراها عادةً في كتابات المتخصِّصين، ولا سيما تلك التَّقاليد التي ما انفكَّوا مُراعين لها عندما لا يستهدفون سواهم بكتاباتِهم، خاصةً في تلك الدراسات التي تُعْنى بتاريخ الإسلام

في غربي آسيا وشمالي إفريقيا. فقد استخدمت -على سبيل المثال- نظامًا مبسَّطًا لرسم الكلمات العربية والفارسيَّة والتُّركيَّة بالأحرف اللاتينيَّة، مع الإتيان بمرادفاتٍ إنجليزيةٍ شائعةٍ لها حيثما أمكنني ذلك. كما تجنبتُ استخدام أحرفٍ لاتينيةٍ خاصَّةٍ، بديلًا عن الأحرف الصَّائتة في تلك اللغات بالكليَّة، مُستثنيًا من ذلك الإجراء تلك القائمة الببليوجرافية التي يجدها القارئ في نهاية هذا الكتاب. وسوف يُقدر أولئك الذين يعرفون هذه اللغات ما قمت به لتجنُّب ترويع أولئك الذين لا يعرفونها. بينما لن يُبالي من لا يعرف تلك اللغات بما قُمت به، بطبيعة الحال. وسبيلًا للتبسيط، أشرتُ إلى مناطق غربي آسيا وشمالي إفريقيا، مثل: بلاد فارِس ومصر والمغرب، بأسمائها المُحْدَثة، على الرغم من أنها في مجملها تقريبًا من ابتداعات القرن العشرين، كما أن حدودَها الحالية تقلَّصت مقارنةً بحدودها في الماضي.

لقد ذكرتُ أيضًا جميع التواريخ وفقًا لتقويمٍ موحَّد وهو التقويم الميلادي، واستخدمت اختصار (B.C.E)، والتي تعني قبل الميلاد (Before Christ era) بدلًا من (B.C) التي تعني (Before Christ) أي قبل الميلاد. كما استخدمت اختصار (C.E) التي تعني ميلاديًّا (Christ era). وذلك بدلًا من اختصار (A.D) والتي تعني (Anno domini) أي عهد السَّيد المسيح[1]؛ وذاك لأن المسلمين استخدموا تقويمًا قمريًّا لا يتطابق تمامًا مع التَّقويم الشَّمسي الذي استُخدم في أماكن أُخر من العالم. ومن ثم، فقد يبدو للقارئ أن بعض الحوادث التاريخية القصيرة المؤرَّخة على أساس التقويم الهجري طويلة ومُمتدَّة عند مقابلتها على التاريخ الميلادي أحيانًا. والسِّر في ذلك يكمن في أن العام الهجري قد يمتد بين عامين في التقويم الغربي. ولمَّا لم أكن-أحيانًا-قادرًا على تأريخ بعض الحوادث التاريخية بدقةٍ، فقد استخدمت تاريخ السُّلالة الحاكمة بالإشارة إلى الأُمويِّين (٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م) تارةً، أو إلى العبَّاسيِّين (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٤٩-١٢٥٨م) تارةً أخرى.

وتصرفتُ في بعض الاقتباسات والتَّرجمات على نحو طفيفٍ لإبراز حُجَّتي، وذلك دون إخلالٍ جوهريٍّ بالمعنى، ويمكن للقارئ أن يثق بذلك تمام الثِّقة. وإنما عمدتُ

---

(١) وضعتُ التَّواريخ الهجرية الموافقة للتواريخ الميلادية بجانب التَّواريخ الميلادية التي ذكَرها المؤلف في المتن، لأهميتها للقارئ العربي. (المترجم)

إلـى ذلك سـبيلًا لمسـاعدة القارئ على الاسـتمتاع بانسـيابِ حِجاجي، كمـا قُمت أيضًا باستبدال الحواشي السُّفلية، أو التعليقات الختامية بمقالة ببليوجرافية خاصة، إضافةً إلى قائمةٍ كاملةٍ بالدراسات والبحوث التي أفدتُ منها في هذه الدراسة، والتي يمكن للقارئ أن يعاودها في نهاية هذا الكتاب. أما الشُّروحات حول بعض الموضوعات المتخصِّصة المتعلقة بصناعة الورق، كالفيزياء والكيمياء، أو مبادئ تشغيل آلة الخفق الهولندية (Hol-lander)، فستجدها في سلسلةٍ من التَّعليقات العَرضية التي حرصت على وضعها مُنفصلةً عن متنِ الكتاب، على نحو يناسب القارئ، وعلى امتداد فصول هذا الكتاب.

يمكننـي إرجاع أصولِ شـغفي بالـورق وبصناعته، إلى طفولتي في الخمسـينيَّات من القـرن المنصـرم، وذلـك عندما شـاهدت برنامجًا علميًّا فـي التلفاز كان يُقَـدَّمُ للأطفال، ويُدعى «راقِب السيد ويزارد (Watch Mr. Wizard). شرَح فيه السيد ويزارد –باستفاضةٍ– كيـف يمكـن صُنع الورق عن طريـق إذابةِ ورق الحمَّام في حوض المـاء، ثم جمع اللُّب المُذاب ونشره على غربالٍ سلكيٍّ صغيرٍ. ووجدتُني مُتحمِّسًا لإجراء تلك التجربة، وذلك على الرغم من أنني نشأت في شقةٍ ضيقةٍ في مدينة نيويورك. وبعد أن قمت بإذابة نصف لِفافةٍ كاملةٍ من ورق الحمَّام في حوض الاستحمام، نجحت في استخلاص معظم اللُّبِّ المُذابِ في الماء من الحوض، وقمتُ بنشره على باب نافذةٍ سِلكيةٍ، ووضعتُها قلقةً غير مسـتقرةٍ، فـي مواجهـة مُكيِّف الهواء؛ كي تجفَّ سـريعًا، بيد أنها ما لبثت أن سـقَطت من فورها في الهوة المترَّبة المحصورة بين مُكيِّف الهواء والجدار. وليت الخسائر اقتصرت علـى ذلك! فقد انسـدَّ أنبوبُ صـرف الماء في حوض الحمَّام بفعـل بقايا اللُّب المذاب، وهكـذا بات لزامًا عليَّ أن أشـرح تجربتـي العِلميَّة أمام أبوين سـاخطَين أوَّلًا، ثم توجَّبَ عليَّ أيضًا أن أُعيدها بحذافيرها أمام مشرف المبنى –غير المُتعاطف– لاحقًا.

وكان عليَّ الانتظار لعدة سـنوات، حيث أعدتُ اكتشـافَ باب النَّافذة المفقود، وعليه بقايـا مُتحلِّلـة مـن أثـرِ تجربتي فـي صناعة الـورق. بل إنني لـم أتذكر حتى تلـك التجربة الصِّبيانية، حتى وقفت عن كثبٍ على الكيفية التي يُصنع بها الورق. وحتى بعد أن أنفقتُ عـدة سـنوات في البحث والتقصِّي –كانت حصيلتُهـا هذا الكتاب الذي بين يديك الآن– فإن شغفي بتاريخ الورق لم يزل على حاله، ولم يضعف قط. بل كان من دواعي سعادتي أن أكتشفَ أن ثَمَّ علماء آخرين عكَفوا علىإعدادِ دراساتٍ مُماثلةٍ ذات صلةٍ بما قمتُ به.

وأنا على ثقةٍ من أن هذا الكتاب لن يكون آخر قولي في هذا الموضوع، طالما أن معرفتنا بتاريخ الورق لم تزل تتعمَّق وتنمو يومًا بعد يومٍ.

وقَف عددٌ من المؤسَّسات والأفراد خلف رؤية هذا الكتاب للنُّور. فقد حصلتُ على منحةٍ من المجلس الأمريكي للمجتمعات المتعلمة (American Council of Learned Societies) ما سمَح لي بالسَّفر، ومن ثم تقديم عملي في مؤتمرٍ عُقِد في أدنبره (Edin-burgh). كما حصلتُ على منحة أندرو و. ميلون (Andrew W. Mellon) لزمالة الباحثين من متحف متروبوليتان للفنون في نيويورك. ومنحني ذلك رفاهية التَّعامل مع أوراق القرون الوسطى لمدة ستة أشهرٍ كاملةٍ، بالإضافة إلى الحديث مع عدد من الأُمناء والقيِّمين على المجموعات المحفوظة ثمَّة، ناهيك عن العمل جنبًا إلى جنب معهم. ومن بين العاملين في متحف متروبوليتان من يستحقون أن أخُصَّهم بالشكر؛ لسخائهم في إنفاقِ أوقاتهم في تعليم شخص مبتدئ إبَّان عرضهم لروائع كنوزهم، وعلى رأسهم: سارة بيرتالان (Sarah Bertalan)، ستيفانو كاربوني (Stefano Carboni)، مارجوري شيلِّي (Marjorie Shelley)، ودانيال ووكر (Daniel Walker). أمَّا الحفاوة البالغة التي استقبلتني بها كارين ساك (Karen Sack) فقد جعلت مُتعة استكشاف التُّفاحة الكُبرى[١] أمرًا ميسورًا.

في واشنطن العاصمة، لم تضِن كل من: معصومة فرهاد (Massumeh Farhad) ومارثا سميث (Martha Smith) من معرض فرير للفنون (Freer Gallery of Art) ومتحف ساكلر (Sackler Museum)، ومؤسسة سميثسونيان (Smithsonian Institution)، بوقتَيهما وخبرتَيهما، تمامًا كما فعل آلان ولويس فيرن (Alan & Lois Fern) مع كرم ضيافةٍ وحفاوةٍ استقبلاني بها. كما كان لتشجيع ديفيد وايز (David Wise) من «مؤسسة الأوقاف الوطنية للعلوم الإنسانية» (the National Endowment for the Humanities)

---

(١) التفَّاحة الكُبرى (Big Apple) كناية عن مدينة نيويورك في الأدبيات الأمريكية المعاصرة. واستُخدم هذا التَّعبير للمرة الأولى في عشرينيَّات القرن الماضي على يد جون ج. فيتز جيرالد (John J. Fitz Gerald)، المراسل الرياضي لصحيفة (*New York Morning Telegraph*). ثم شاع على ألسنةِ الأمريكيين فيما بعد، ولا سيما في العقد السَّابع من القرن الماضي عندما استخدم على نطاقٍ واسعٍ في حملةٍ ترويجيةٍ للسياحة في نيويورك. (المترجم)

-وهي وكالة فيدراليَّة- أثرًا على استمراري في مشروعي. وسمَحت لي زمالة (*NEH*) السخيَّة للبحوث المُستقلَّة، بقضاء سنةٍ كاملةٍ في إنهاء نص هذا الكتاب.

كما استقبلني جيفري ڤيرني الابن (Geoffrey Verney, Jr.) بحفاوةٍ بالغةٍ في شركة (Monadnock Paper Mills) لصناعة الورق، بل وأعارني عدة كتب مُتخصِّصة في هذا المجال من مكتبته الخاصة. وسمح لي ستيفان ريف (Stefan Reif) من وحدة أبحاث (Taylor Schechter Research Unit) في مكتبة جامعة كامبريدج (Cambridge University) أن ألمس بيدي، وإن تمَّ ذلك بحذرٍ بالغ، وتحت إشرافه شخصيًّا، عددًا من وثائق الجنيزة. وأتاح لي مركز دراسات الشرق الأوسط (Center for Middle Eastern Studies) التابع لجامعة هارڤارد (Harvard University) ثرواتٍ لا تُضاهى من مُقتنيات مكتبة جامعة هارڤارد، وبَذلوا ذلك بسخاءٍ لباحثٍ مُستقلٍّ. وكذلك ساعد صندوقُ دعم الأُستاذية لجامعة نورما جان كالديروود (NormaJean Calderwood University Professorship) في كلية بوسطن (Boston College) على نشرِ هذا الكتاب من خلال تبرعهم بهبةٍ سخيةٍ.

تجدر الإشارة إلى أنني أعدتُ استخدام مادة مقالي «ثورةٌ برِزْمَةٍ من الورقِ: تاريخ الورق (Revolution by the Ream: A History of Paper)، المنشور لأول مرة في مجلة أرامكو العالمية (*Aramco World Magazine*)، (العدد الخمسين، رقم ٣ يونيو ١٩٩٩: صفحات ٢٦-٣٩). وبالمثل فإنَّ بعضًا من مادة «الفصل الخامس» قد نُشِرت لأول مرة في مقالتين لي: «التَّصميمات المنقولة في العمارة الإسلامية المبكرة (On the Transmission of Designs in Early Islamic Architecture)، (مجلة مقرنص *Muqarnas*، العدد العاشر ١٩٩٣، صفحات ٢١-٢٨)، و«إدخال الورق إلى ديار الإسلام وتطور المخطوطة المصوَّرة (The Introduction of Paper to the Islamic Lands and the Development of the Illustrated Manuscript)» (مجلة مُقرْنَص (*Muqarnas*)، العدد السابع عشر، ٢٠٠٠، صفحات ١٧-٢٣). وأعدت استخدام تلك المادة في هذا الكتاب بإذن خاص من كلتا المجلَّتين المشار إليهما آنفًا.

وأسهم بعض الأصدقاء والزملاء الآخرين، بطرقٍ لا تُعدُّ ولا تُحصَى في جعل هذا الكتاب على ما هو عليه. ومن بين هؤلاء ريك آشِر (Rick Asher)، ڤالد أتاناسيو (Vlad

(Atanasiu، ماريـان بروكانـد (Marianne Barrucand)، كرايـن بويـن (Craigen Bowen)، جيري كاربون (Jerry Carbone)، أنطوني كاتلر (Anthony Cutler)، ديڤيد ديمبسي (David Dempsey)، هليـن إيڤانـز (Helen Evans)، أنّيـت فيـرن (Annette Fern)، وليـام جراهـام (William Graham)، برودينـس هاربـر (Prudence O. Harper)، كارول هيلنبرانـد (Car- ole Hillenbrand)، كانديـس هـوز (Candace Howes)، روبـرت إيرويـن (Robert Irwin)، مارليـن جنكينز–مدينـة (Marilyn Jenkins-Madina) ومعـن ز. مدينـة (Maan Z. Madi- na)، ليندا كومـاروف (Linda Komaroff)، مايـكل ج. لافـوس (Michael G. LaFosse)، هيليـن لوڤـداي (Helen Loveday)، ريتشـارد باركنسـون (Richard Parkinson)، ديڤيـد باورز (David Powers)، نيتا بريمشاند (Neeta Premchand)، جيفري روبر (Geoffrey Rop- er)، د. فيرتشـايلد روجليـس (D. Fairchild Ruggles)، آدم أ. صبـره (A. I. Sabra)، جورج سـكانلان (George Scanlan)، نانسـي شاتزمان–شـتاينهاردت (Nancy Shatzman-Stein- hardt)، نيكولاس سـيمس ويليامز (Nicholas Sims-Williams)، ب. أوكتور سـكيرڤو (P. Octor Skjervo)، جوزيـف تايلور (Joseph Taylor)، ريتشـارد ڤيردي (Richard Verdery)، وليام ڤلكل (William Voelkle)، آن واردويل (Anne Wardwell)، أوليڤر واتسـون (Oliver Watson)، الراحلة استلّة ويلان (Estelle Whelan)، م. ليزلي ويلكنز (M. Lesley Wilkins)، أوين رايت (Owen Wright)، جلاوس ڤون زاسـترو (Glaus von Zastrow). كما شـجعني كل من جون نيكول (John Nicoll)، جودي مترو (Judy Metro) من مطبعة جامعة يَلْ (Yale University Press)، على تجويد عملي وتحسينه. واشتركت معهما باتريشيا فيدلر (Patricia Fidler) بكفاءةٍ وسخاءِ نفسٍ، وإن كنَّا قد قطعنا شوطًا لا بأس به قبل انضمامها إلينا.

كمـا أنقذتنـي ماري باسـتي (Mary Pasti) ذات العينين النَّاقدتيـن، والحسّ التَّحريري الـذي قلَّمـا يُخطـئ، من العديد مـن التناقضات والأخطـاء التي وقعت فيها، فـإذا تعاطَى القـارئ مـع كتابي هـذا على نحوٍ جيدٍ، فإنَّ لها فضلًا كبيرًا فـي ذلك. كما انبرى المصوِّر جون لونج (John Long) للحصول على التَّراخيص والأذونات اللازمة لنشر الصَّور التي لها حقوق ملكيَّة لدى الغير، في هذا الكتاب. وقامت كل من ماري ماير (Mary Mayer) وديـان جوتاردي (Diane Gottardi) بتنسـيق تلك الصور في هذا الكتاب على هذا النحو الرائع الذي تراه الآن ماثلًا بين يديك.

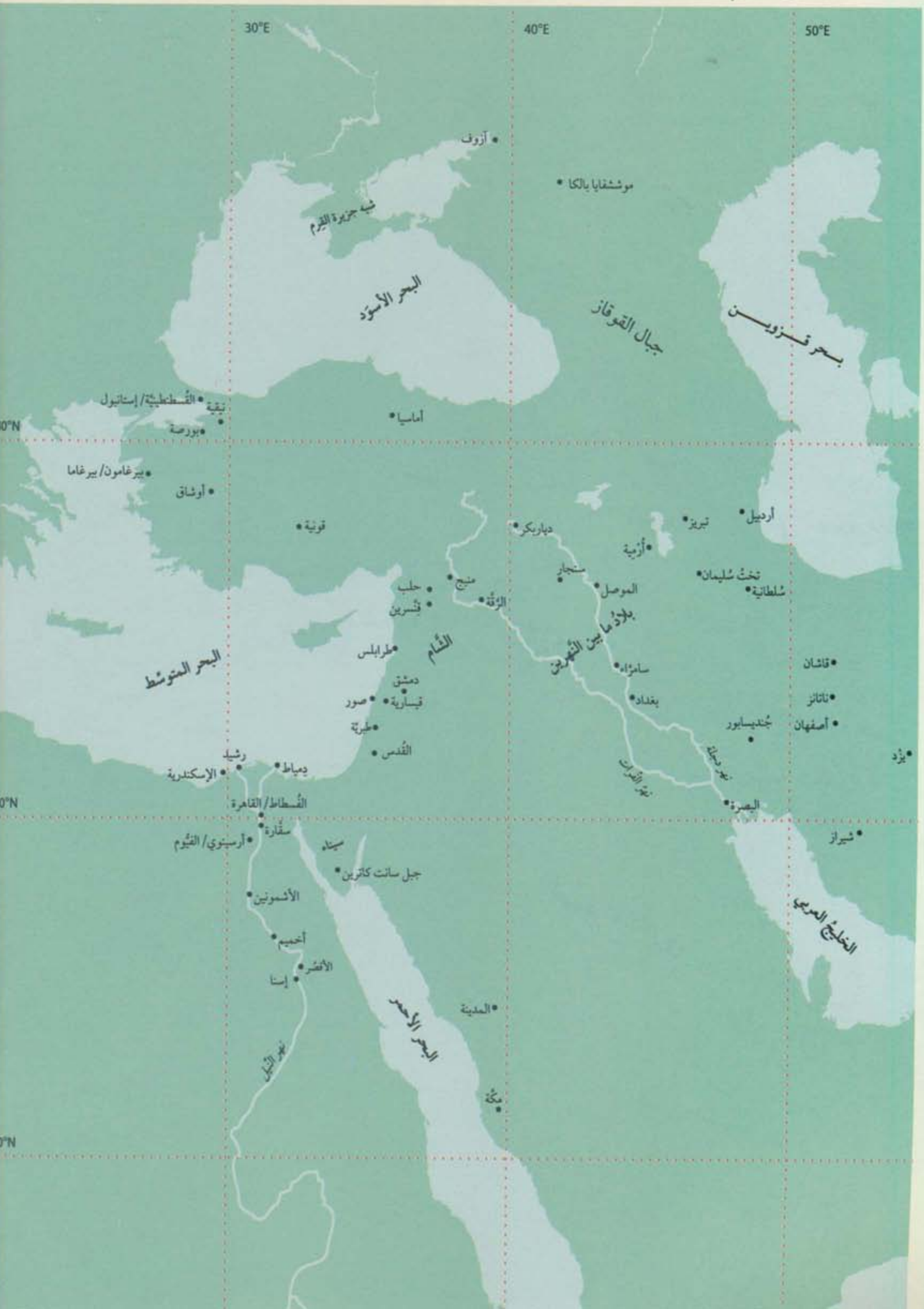
وهناك شخصان يستحقّان ذكرًا خاصًّا وذلك لجهودِهما الخاصة في هذا الكتاب. فقد تخلّى روبرت هيلينبراند (Robert Hillenbrand) بنُبلٍ وإنكار ذاتٍ عن عطلةٍ، كان يستحقّها عن جدارة؛ ليتفرَّغ لقراءة المُسوَّدة الأخيرة من مخطوطة هذا الكتاب المُعَدَّة للطباعة. فخرج الكتابُ أفضل كثيرًا بسبب عينيه النّاقدتين وتعليقاته القيِّمة. وكانت زميلتي وزوجتي، شِيلا بلير (Sheila Blair)، إبان هذا المشروع الطَّويل، مصدرًا دائمًا للتَّشجيع، ومجلسًا للأسمارِ، وينبوعًا لا ينضبُ مَعينُه من المعرفة المتخصِّصَة في مجالاتٍ شتَّى. كما كانت -في الوقت عينه- قارئةً صَبورةً؛ لذا، فأنا أشكرهما جزيل الشُّكر.

جوناثان بلوم



90°E
120°E
60°
40°
20°
0°
سيبيريا
بازيريك
تورفان
كاراخوتو
طلاس
طشقند
نهر سيحون
سمرقند
جبل موغ
لولان
لوب نور
دونهوانج
كاشغر
داندان أيلوق
خوتان
بلخ
وري
شانشي
كوريا
كابول
كشمير
شيان
شانشي
سوجو
جيجيانج
مولتان
نهر السند
دلهي
ماوانجدوي
نهرجانجا
أحمد آباد
كوجارات
دولت آباد
الدكن
فيتنام
ساحل المليبار


0°
30°E
قازان
المنطقة مفصّلة في الخريطة التّالية
مايِنتس
نورمبرج
جبال الألب
كلوني
البندقية
جنوة
أفينون
فابريانو
روما
أمالفي
بلباو
سنتياجو دي كومبوستلا
برشلونة
طُليطلة
بلنسية
ميورقة
شاطبة
قُرطُبة
إشبيلية
غرناطة
سَبتة
تلمسان
تازة
فاس
الرّباط
سجلماسة
باليرمو
تراباني
صقلية
كاتانيا
تونس
سوسة
المهدية
القيروان
ترانسلفانيا
آزوف
موششفايا بالكا
شبه جزيرة القرم
البحر الأسود
جبال القوقاز
بحر قزوين
القُسطنطينية/ إستانبول
نيقية
بورصة
أماسيا
بيرغامون/ بيرغاما
أوشاق
قونية
أردبيل
تبريز
الموصل
سنجار
منبج
حلب
بلاد ما بين النهرين
الشام
البحر المتوسّط
دمشق
بغداد
نهر دجلة
نهر الفرات
القُدس
الإسكندرية
الفُسطاط/ القاهرة
أرسينوي/ الفيوم
البصرة
الأشمونين
أخميم
إسنا
نهر النيل
المدينة
مكة
البحر الأحمر
الصّحراء الكُبرى
أوذَغَست
عدن


30°E
40°E
50°E
آزوف
موششقايا بالكا
شبه جزيرة القرم
البحر الأسوَد
جبال القوقاز
بحر قزوين
القسطنطينية/ إستانبول
نيقية
بورصة
أماسيا
بيرغامون/ بيرغاما
أوشاق
قونية
دياربكر
تبريز
أردبيل
أرْمية
سنجار
الموصل
تختُ سُليمان
سُلطانية
حلب
قِنَّسرين
منبج
الرَّقة
الشام
طرابلس
البحر المتوسِّط
بلاد ما بين النهرين
سامرّاء
قاشان
ناتانز
أصفهان
دمشق
قيسارية
صور
طبرية
بغداد
جُنديسابور
القُدس
يزد
رشيد
دمياط
الإسكندرية
نهر دجلة
نهر الفرات
البصرة
الفُسطاط/ القاهرة
سقّارة
أرسينوي/ الفيّوم
سيناء
جبل سانت كاترين
شيراز
الأشمونين
الخليج العربي
أخميم
الأقصُر
إسنا
المدينة
البحر الأحمر
نهر النيل
مكّة

مدخل

«كان لخفض تكلفةِ مواد الكتابة، التي تزامنت مع إنتاج الورق، أهميةٌ عُظمى من المنظورين الثَّقافي والتَّاريخي؛ إذ كانت الكتبُ المدونةُ على الرَّق (Parchment) أو أوراق البردي (Papyrus) باهظةَ الثَّمن، ولم يكن بمقدور السَّواد الأعظم من النَّاس شراؤها، ناهيك عن استخدامها. وعلى هذا النحو جعل العربُ التَّعليمَ في متناول الجميع، ولم يعد امتيازًا مقصورًا على طبقةٍ واحدةٍ من السكان فحسب. فقد أنتجوا مواد الكتابة الرَّخيصة بوفرةٍ، فانتشرت في أسواق العالم الإسلامي شرقًا وغربًا. وهكذا ازدهر النَّشاط الفكري الذي انفجر في وجه أغلالٍ من التَّعصُّب وسيادة الخرافة والاستبداد. ومن ثَم بدأت حقبةٌ جديدةٌ من الحضَارة، تلك الحقبة التي لا زلنا نعيشُ فيها إلى الآن».

Alfred Von Kremer, *Culturgeschichte des Orients*(١).

اختُرِع الورقُ -وهو أكثر المواد انتشارًا بحياتنا اليوم- في الصِّين قبل قرنٍ أو قرنَين من ميلاد المسيح. ومع ذلك، فقد انقضى ما يقرب من ألف عام، قبل أن يستخدم الأوروبيُّون الورقَ للمرة الأولى، بل لم يصنَعوه بأنفسهم حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

(١) ألفريد ڤون كريمر (١٨٢٨ - ١٨٨٩م): مُستشرقٌ نمسوي، درس الفلسفةَ أولًا في ڤيينا، ثم استهوته دراسة الفقه الإسلامي واللغات الشَّرقية، ثم درس اللغة اليونانية الحديثة والعربية والعبرية والفارسية. وحصل على منحةٍ دراسيةٍ من أكاديمية العلوم فسافر إلى سوريا ومصر بين عامي ١٨٤٩-١٨٥١. وبعد عودته عُيِّن أستاذًا للغة العربية العاميَّة في معهد ڤيينا للتقنيات في مايو من عام ١٨٥٢، ثم عاد إلى مصرَ ليعمل مُترجمًا في القنصلية النِّمسوية بالقاهرة. ثم عُيِّن نائبًا للقُنصل في عام ١٨٥٨، ثم قنصلًا لبلاده في القاهرة في عام ١٨٥٩، ثم قنصلًا لبلاده في بيروت عام ١٨٧٠، ثم مستشارًا في وزارة الخارجية في ڤيينا عام ١٨٧٢. ثم انتُخِب عضوًا في أكاديمية العلوم عام ١٨٧٦. وصنَّف كريمر أكثر من ٢٠ كتابًا تناول فيها الإسلام وحضارته، والجغرافيا عند العرب وتاريخ مصر والشَّام والجزيرة العربية خاصةً. (المترجم)

وتعلَّم النَّصارى الأوروبيُّون صناعة الورق من مسلمي الأندلس، الذين حكموا إسبانيا، وأسَّسوا هناك أول مصانع لصناعة الورق في أوروبا قاطبةً، حيث قام صنَّاع الورق المسلمون في هذه المصانع بتحويل خِرق الكتان وألياف النُّفايات الأخرى إلى مادةٍ قويَّةٍ ومرنةٍ صالحةٍ للكتابة، وذاك عن طريق خفق الألياف أولًا، باستخدام المطارق الثقيلة (Trip-hammers) التي تعمل بقوة دفع تيار الماء، ثم جَمْعِ اللُّب الرَّطب الناتج عن عملية الخفق، ثم نشره على الألواح يدويًا، ثم تجفيفه في الأخير.

ووجَدت الطبقة الوسطى النَّاشئة حديثًا، وقوامها كُتَّاب العَدل والتجَّار في جنوبي أوروبا، في الورقِ وسيطًا مثاليًا لتدوين السِّجلات والصُّكوك والوثائق التجارية، التي تزايد استخدام أهل هذه الطبقة لها بوتيرةٍ متسارعةٍ. بينما استمر الرُّهبان في نسخ مخطوطاتهم على الرَّق المُكْلِف، المصنوع من جلود الأغنام والماعز والبقر. وفي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي زار رجلُ الأعمالِ الألماني أولمان ستورمر (Ulman Stromer) مصانع الورق في إيطاليا، التي صُمِّمت على غرار نماذج أوَّليَّة من مثيلتها في غرب آسيا، ورآها عن كثب، ومن ثم عمل على تأسيس أول مصنع للورق في نورمبرج (Nuremberg) شمال جبال الألب (انظر: شكل ١).

وانطلقت صناعة الورق أوروبيًا عندما شرع يوهان جوتنبرج (Johann Gutenberg) في طباعة الكُتب في مدينةماينتس (Mainz) في القرن الخامس عشر الميلادي. وعلى الرغم من أنه يُعتقد أن جوتنبرج طبَع خمسةً وثلاثين نُسخة من الكتاب المقدس على الرَّق، إلا أن بقية الطبعة (التي رُبما بلغت ٢٠٠ نسخة) طُبِعت على الورقِ المصنوعِ يدويًا.

واعتمدت ثورة الطباعة اللاحقة على مصانع الورق الموجودة بالفعل آنذاك، مثل مصنع ستورمر (Stromer) المُشار إليه آنفًا؛ وذاك لأنَّ الدَّواعي الاقتصادية فرضت على الطبَّاعين أن يقوموا بتخفيض التكاليف الباهظة بالفعل لصُنع الكتاب، ناهيك عن تسخير المطبعة في إنتاج عددٍ كبيرٍ من النُّسخِ في الطبعة الواحدةِ. ومن ثم مسَّت الحاجة آنذاك إلى كمياتٍ كبيرةٍ من الورق المصنوع يدويًا -وهو الذي كان بالكاد يسدُّ حاجة السُّوق- لطباعة الأعداد المُتزايدة من الكتب التي كان الأوروبيُّون يتلهَّفون للحصول عليها، ويُقبلون على قراءتها في القرن السَّادس عشر الميلادي. ولصنع تلك الكميَّات اللازمة من الورق، كان ينبغي جمع خِرق الكتَّان وفرزها وإعدادها، ومن ثم أضحت وظيفة جامع الخرق (*Ragman*) عملًا مهمًّا حقًّا في تلك الحقبة. وعلى هذا النَّحو ازداد الطلب

على الورق في القرون التَّالية، وطوَّر الأوروبيُّون استخداماتٍ جديدة ومتنوعة للورق، بدءًا من عُبوات الشَّاي وانتهاءً بورق الجدران. بل أضافوا مصادرَ جديدةً، ولا سيما لُب الخشب، للألياف التي يمكن صُنع الورق منها.

حتى يوم الناس هذا -وعلى الرغم من المستقبل الواعدِ للحاسوب- فما زلنا نستخدم الورق على نحوٍ لا يُقاس بأي حقبةٍ مضَت من تاريخ البشريَّة. فعلى سبيل الاستشهاد: قدَّرت شركة تصنيع الحاسوب HP (Hewlett-Packard) في عام ١٩٩٦، أن آلات التَّصوير وأجهزة الفاكسميلي وطابعات الحواسيب قد أخرجت نحو ٨٦٠ بليون صفحة في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها. وإذا ما وضعت هذه الأوراق -المكونة من تقاريرَ لا حصر لها، ومذكرات داخليَّة ورسائل إخباريَّة- معًا جنبًا إلى جنب، فسوف تُغطِّي ما يقرب من ٢٠٠ ألف ميل مربع، أي نحو ١٨٪ من إجمالي سطح أرض الولايات المتحدة الأمريكية.

وإذا افترضنا تحقُّق الهدف، الذي لا أراه واقعيًا، المتمثل في «المكتب الرقمي (Computerized office)»، أي الاستغناء تمامًا عن استعمال الورق في المُعاملات المكتبيَّة، فستظل -بالرغم من ذلك- لدى الشركات المُصنِّعة للورق منافذ لتصريف منتجاتها، حيث يُستخدَم الورقُ الآن في عددٍ لا يُحصى من الأغراض الأخرى، بما في ذلك صناعات التَّغليف والتَّصفية والبناء. ويسرد الدليل القياسي لصناعة الورق في الولايات المتحدة الصادر عام ١٩٩٦، وهو دليل (Lockwood-Post) لمنتجات اللبِّ والورق والمُحولات والتجار (Lockwood-Post's Directory of Products of Pulp, Paper Mills, Converters and Merchants)، أكثر من ٤٠٠ استخدام مختلف للورق، بدءًا من الأوراق الخشنة الكاشطة (فروخ الصَّنفرة) وانتهاءً بالخيوط الورقية.

الورق:

تُغْمَرُ ألياف السليلوز في الماء ثم تُرسَّب على لوحٍ بهدف إزالة المياه الزائدة، وبعد التجفيف تستحيل الألياف ورقةً مُتماسكةً. ويمكن استخلاص ألياف السليلوز الموجودة في جُدران الخلايا النباتية، إمَّا مباشرة من اللحاء أو الأخشاب، أو على نحوٍ غير مباشر من خلال الخِرق أو نفايات النسيج، مثل وبر القطن الذي يتخلف من بعض المعالجات الأخرى. ويدين الورقُ بصفاته المميزة من القوة والمرونة إلى الصفات الكيميائية والفيزيائية للسليلوز ($C_6H_7O_2[OH]_3$)، الذي تصنعه النباتات من الجلوكوز ($C_6H_{12}O_6$)، وهو سكرٌ بسيطٌ يُنتج أثناء عملية التمثيل الضوئي. ويربطُ النبات جزيئات الجلوكوز، والتي تكون على شكل حلقات متفرعة، بذرَّات الأكسجين في شكل نمطٍ تبادليّ. ونظرًا لأن كل حلقة تصبح مقلوبة عند اتصالها بالحلقة الأخرى، فإن جُزيء السليلوز يحتوي على شحنة موجبة وأخرى سالبة بالتبادل على طول كل وجه على حدة، وتسمح هذه الشحنات بتجميع الجُزيئات معًا لتشكيل ألياف دقيقة وألياف عادية. ويؤدي الاتصال الوثيق بين جزيئات السليلوز إلى حدوث ترابط هيدروجيني، وتجاذب بين ذرات الأكسجين ذات الشُحنة السَّالبة وذرات الهيدروجين ذات الشحنة الموجبة، التي تعطي الشكل والقوة للألياف. =



شكل (١): منظر عام لمدينة نورمبرج، حيث يظهر مصنع أولمان ستـرومر *Ulman*) *Stromer*) للورق أسفل يمين اللوحة، من رسم هارتمان شـادل -Hartmann Sche) del)، المصدر: (Hartmann Schedel, *Liber chronicarurn*, 1493)

ولأنَّ إدخـال الـورق، فـي شـمالي أوروبَّـا، فـي القـرن الرابـع عشـر سَـرعان مـا تبعـه اختـراع المطبعـة بالأحـرفِ المتحرِّكة في القـرن الخامس عشـر الميلادي، فقد مـال المؤرِّخون إلى تضمين تاريـخ الورق داخل إطـار القصَّة الأكبر للطِّباعـة، وظهور الكتاب المطبـوع. فقد عالـج هنري-جـان مارتـن (Henri-Jean Martin)، فـي تاريخه القيِّـم: «التاريخ وقوة الكتابـة *History and Power of* *Writing*) الصَّـادر عـام ١٩٩٤، تاريخ الورق معالجةً قصيرةً نسبيًّا -رغم اعترافه بأهميته- في إطار قصته الأوسـع. وحتى في الصِّين -حيـث اختُرِع الورقُ هناك، بـل وآلة الطباعة أيضًا- عادةً ما عالج المؤرِّخـون تاريخ الورق وتاريخ الطباعة معًا في معينٍ واحدٍ. كما هو الحال في دراسة -بل قل تُحفة- تسين تسون- هسوين Tsien) (Tsuen- Hsuin، المسـماة: «الـورق والطباعـة -*Paper and Print* (*ing*» الصَّادرة عام ١٩٨٥.

ومع ذلك تظل للورق قصته الخاصة به، على الرغم من أن نفرًا

التركيب الجزيئي للسليلوز

ويشـكل السـليلوز، وهـو العنصر الأكثـر وفرة من بين جميع المركَّبات العضويـة الطبيعيـة، نحـو ٣٣٪ مـن جميـع المواد النباتيـة (نحو ٩٠٪ من القطـن ونحـو ٥٠٪ مـن الخشـب). ويمكـن تحريـر أليـاف السـليلوز من المـواد النباتيـة عـن طريـق الرطوبـة أو الحـرارة أو الخفـق، أو مزيـج مـن تلـك العمليـات معًـا. فتوضع سـيقان نبـات «الكتَّـان» فـي الميـاه وتخمَّـر (حتـى تُصبـح عطنـة) وتُجفَّـف، ثـم تُخفق لتحرير الألياف، التي قد تُغزل خيوطًـا مـن الكتـان أو يُصنـع منهـا الورق. ويقوم صنَّاع الورق اليابانيون بطهـي اللِّحاء الداخلي لنبات الكوزو (kozo)، الذي يصنعون الورق الياباني منـه، علـى البخـار، ثـم يجففونـه، ويغمرونـه، وينعمونـه، ويكشـطونه، ثـم يغسـلونه، ويطهونـه. ولا حاجـة إلى مثل هذه العمليات عند استخدام مـواد مثل الخِـرق، والحبال القديمة، أو شِـباك صيـد الأسـماك القديمـة. وبعد أن تُفـرَز هذه المـواد، وتُنَظَّف، تُغمر فـي الماء وتُتـرك لتتخمَّر، فتبدأ عملية كسـر روابط الألياف مباشـرةً. وبعـد التخمير، تتعـرض الألياف، أيًّا كان مصدرها، للخفق في الماء لمزيدٍ مـن التَّفتيـت بحيـث تنتفـخ وتندمج معًـا. وتنفصـل الطبقـات الخارجيـة للأليـاف جزئيًـا خـلال عمليـة =

قليلًا من المؤرخين قد درسوها. وحتى أولئك الذين درَسوها، فقد كتَب معظمهم لأمثالهم من المتخصِّصين. فكان عالم الفلك الفرنسي، جيروم دي لالاند (Jérôme de Lalande) هو أول عالم أوروبي يدرس تاريخ الورق، إذ نشَر عام ١٧٦٢ دليلًا شاملًا عن تاريخ صناعة الورق وتقنياتها، وهو: فنُّ صناعةِ الورق (L'art de-faire le papier). وبعد بضع سنواتٍ عادت اللوحات التي قدَّمها دي لالاند في عمله -والتي تُوضِّح عملية صناعة الورق- إلى الظهور مجددًا في موسوعة ديديروت ودي أليمبرت (*Diderot and d'Alemmbert Enryclopedie*)، والتي كانت تهدفُ إلى تلخيص المعرفةِ والتِّقنيةِ الأوروبيَّتين في القرن الثَّامن عشر (انظر: شكل ٢). وبالنسبة للقارئ من عصرنا هذا، فإنَّ العمل الذي بوسعه الوصول إليه في هذا الصدد، والذي تناول تاريخ الورق، هو عملٌ كلاسيكيٌّ كتبه أمريكي يدعى دارد هانتر (Dard Hunter) وأسماه: صناعة الورق؛ تاريخ حرفة قديمة وتقنياتها (*Papermaking: The History and Technique of an Ancient Craft*) ونشَره عام ١٩٤٣؛ ثم أعاد نشره في طبعةٍ ثانيةٍ عام ١٩٤٧، وبالرغم من قِدمه النِّسبي، إلا أن دور النَّشر ما تزال تعيد طِباعتَه إلى اليوم. وفي الآونة الأخيرة، ألقَى الكاتبُ الفرنسي لوسيان بولاسترون (Lucien Polastron) نظرةً شاملةً على تاريخ صناعة الورق، من أصوله الآسيوية إلى العمليات الصِّناعية الأوروبية الحديثة في كتابه: الورق ٢٠٠٠ عام من التاريخ والمعرفة (*Le Papier: 2000 ans d'histoire et de savoir-faire*) الصَّادر عام ١٩٩٩.

وتُشير أوصافُ عملية صناعةِ الورق في القرن الثامن عشر إلى أن صناعة الورق، مثْلُها في ذلك مَثَلُ معظم العمليات الصناعية في أوروبَّا قبل الثورة الصناعية، لم تتغيَّر -اللهم إلا على نحو طفيفٍ للغاية- خلال الألف عام المنصرمة، وذلك بغض النظر عن إدخال آلة الخفاق الهولندي (*Hollander beater*) وهو الاختراع الهولندي

التليُّف (fibrillation) (كما تسمَّى)، عن الألياف الدَّقيقة، ما يتسبَّب في تعلُّق جزيئات الماء (التي تمتاز بوجودِ شُحنةٍ موجبة وأخرى سالبة) بذرات الهيدروجين المكشوفة على طول حواف جزيئات السليلوز في الألياف الدقيقة. وعندما يصبح اللبُّ (أو الحشوة) رطبًا يُجمع على هيئةِ حصيرة وينشر على اللوح ويجفَّف ثمة. وهكذا تعيد الأليافُ الدقيقةُ تشكيل الروابط الفيزيائية والكيميائية في الألياف المُتشابكة. وبمجرد جفاف حصيرة السليلوز، يتبخر الماء الذي كان عالقًا على الطبقات الخارجية لأليافِ السليلوز، فتشتد صلات الألياف الأقرب إلى بعضها، وتسمح تلك العملية للألياف الدقيقة بتشكيل النَّوع نفسه، الذي كان قائمًا منذ البدء، من الروابط الهيدروجينية التي كانت لكل ليفةٍ على حدة مع الألياف المجاورة لها. وهذا المزيج من الترابط الفيزيائي والكيميائي لألياف السليلوز هو الذي يكسب الورق قوته ومرونته.



ألياف القُطن، كما تبدو من خلال المجهر الإلكتروني

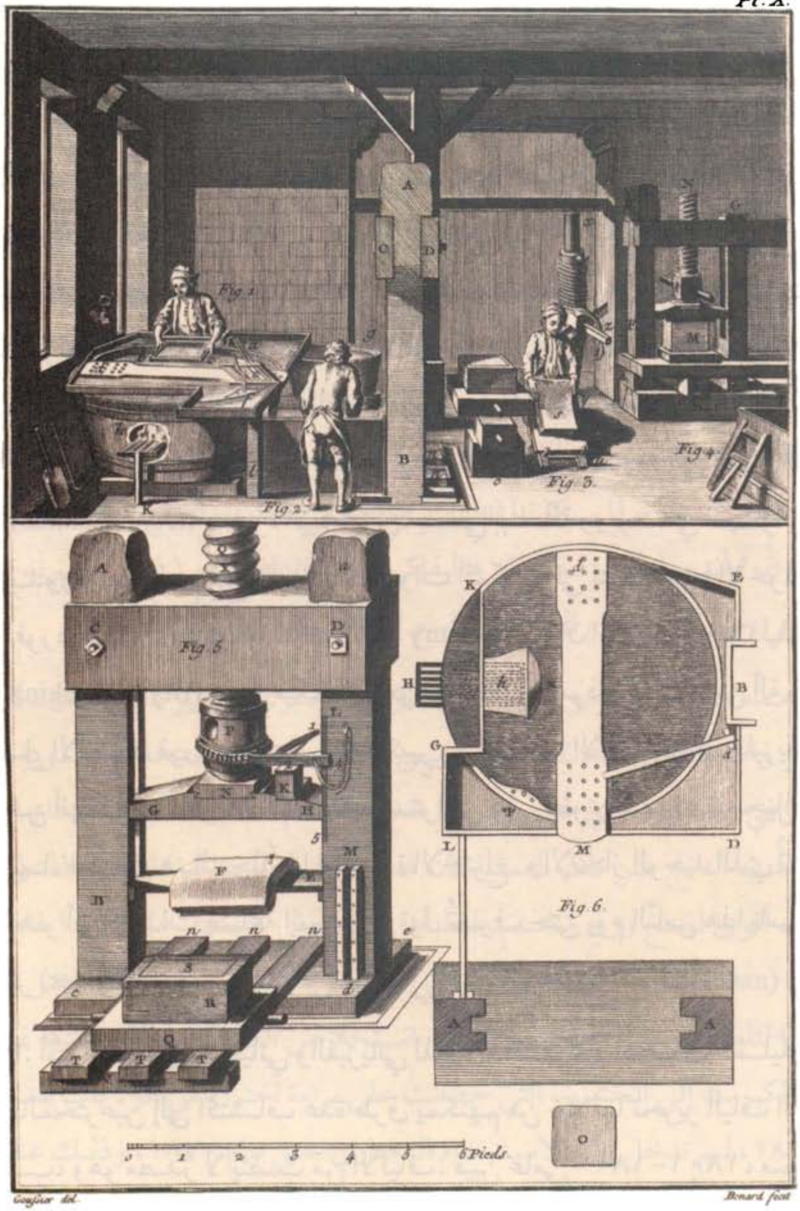
=

الذي عمل على تسريع وتيرةِ عملية تحويل الخِرق إلى اللُّب، في أواخر القرن السابع عشر. ولكن منذ مُنتصف القرن الثامن عشر تغيرت صناعة الورق، مثلها في ذلك مثل غيرها من العمليات الصناعية الأساسية، مثل: صناعات الغزل والنَّسيج، وذلك من خلال عددٍ كبيرٍ من الاكتشافات والاختراعات المُتتالية:

أولًا: أدَّى فصل عنصر الكلور (*Chlorine*) بخصائصه المُبيِّضة الكامنة فيه إلى توسيع نطاقِ الأقمشة -فضلًا عن الألياف من الأنواع الأخرى- التي يمكن تصنيع ورقٍ أبيضَ مناسبٍ للطباعة منها؛ إذ كان لون الورقة يتوقف في المقام الأول على لون الألياف التي تُصْنَع منها. فالألياف البيضاء كانت تنتج ورقًا أبيضَ، في حين تنتج الألياف الدَّاكنة والقذرة ورقًا أسمرَ داكنًا بطبيعة الحال.

ونجح الكيميائي السويدي كارل ڤيلهلم شيلي (Karl Wilhelm Scheele) في تحضير غاز الكلور للمرة الأولى في عام ١٧٧٤. وأثبت الكيميائي الفرنسي كلود بيرثوليت (Claude Berthollet) خصائص التَّبييض لغاز الكلور للمرة الأولى بعد عَقدٍ من الزمن لاحقًا. ثم ما لبث أن حصل الأخوان الإنجليزيَّان كليمنت وجورج-تايلور (Clement & George Taylor) على براءة اختراع نظير توصُّلهما إلى مادةٍ مُبيِّضَةٍ في عام ١٧٩٢. وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ توصَّل الكيميائي الإسكتلندي تشارلز تينانت (Charles Tennant) إلى مسحوقٍ مبيِّضٍ، كان مزيجًا صلبًا من الكلور والجير المُطْفَأ، وكان له التَّأثير نفسه الذي يُحدثه غاز الكلور السَّام، إلا أنه يمكن التعامل معه وشحنه بسهولة. واستُخدِم المَسحوق على نطاقٍ واسعٍ في تبيض القماش والخِرق لصناعة الورق، وكذلك لتبييضِ الورق المطبوع والمُستخدم سابقًا في عملية إعادة التدوير. ولكن بحلول عام ١٨٢٩، ظهرت تقارير تُشير إلى تأثير عملية التَّبييض على جودة الورق.

بعد تشكيل الورقة وتجفيفها، يستمر السليلوز في الورق في امتصاص الماء. ومن ثم فالورق الرَّطِب أضعف من الورق الجاف، وهذا الأمر يعرفه أي شخص يستخدم المناشف الورقيَّة، أو يحاول قراءة صحيفةٍ مُبتلَّةٍ. كما تتشبَّع الورقة بالسوائل، كما هو الحال في الورق النَّشاف، وذلك ما لم تكن مغلفة أو مُشبَّعةً («مُغرَّاة *Sized*») ببعض المواد مثل: الشَّمع أو النَّشا أو الغِراء، لتأخير عملية اختراق السَّائل للورق. وتكمن الاختلافات في أنواع الورق في الألياف ومعالجتها وتجهيزها، فيختلف الورق في القوة والجودة والمرونة والمظهر والمَلمس. وثمة أوراق رقيقة تكون قويةً للغاية، وأخرى سَميكة ويمكن تمزيقها بسهولة ويُسر. وقد يكون سطح الورقة خشنًا أو أملسًا مثل الزجاج.



Papetterie, Cuve à Ouvrer.

شكل (٢): صانع الورق يُشكّل حجمَ الفرخ طبقًا للقوالب المعيارية (أعلاه إلى اليسار)، وآخر يبسطُ ويسوي الأفرخ الورقيّة (أعلاه إلى الوسط)، وثالثٌ يقوم بكبسِ أكوام الورق (أعلاه إلى اليمين). وأدناه تفصيل المِكبَس والراقود. المصدر: موسوعة ديديروت وجان دي المبيرت (Denis Diderot and Jean d'Alembert, Encyclopedia, 1756.)

ثانيًا: كان اختراع آلة صُنع الورق العملية يعني أن صُنعَ كمياتٍ كبيرةٍ من الورق يمكن أن يكون أسهلَ نسبيًا وأسرع، وذلك باستخدام عددٍ أقل من الأيدي العاملة. ومن ثم فقد حاول جنديٌّ مُتقاعد يدعى نيكولاس لويس روبرت (Nicholas-Louis Robert)، بعد أن اكتسب الخبرة اللازمة إبَّان عمله في مصنع فرانسوا ديدوت (François Didot) في إسُّون (Essonnes) في فرنسا، اختراع آلةٍ لتسريع وتيرةِ عملية صناعة الورق. وفشلت محاولاته الأولى، ولكنه تقدَّم في عام ١٧٩٨ بطلبٍ للحصول على براءة اختراع لماكينة أنتجت شريطًا لا نهايةَ له من الورق، بدلًا من أفرخ الورقِ المُعتادة. وعلى الرغم من اعتراف الحكومة الفرنسيَّة بأهمية اختراع روبرت، فقد أُجبر الرجلُ، في الأخير، على بيع براءة اختراعه إلى ديدوت (Didot)، وتوصَّل الأخير بدورِه إلى اتفاق مع جون جامبل (John Gamble)، صِهره الإنجليزي، يقضي ببناء آلة روبرت في انجلترا. ووصَل جامبل بدورِه إلى تفاهم مع تاجرين للأدوات المكتبية في لندن، هما الأخوان هنري وسيلي فوردرينير (Henry and Sealy Fourdrinier)، اللذان استأجرا بعد ذلك برايان دونكين (Bryan Donkin)، وهو ميكانيكيٌّ موهوبٌ؛ لبناء نموذج مُحسَّنٍ من آلة روبرت. ثم حصَل الأخوان فوردرينير على عددٍ كبيرٍ من براءات الاختراع الإنجليزية. وعلى الرغم من أنهما أنفَقا نحو ٦٠ ألف جنيه استرليني على تطوير آلتهم، وتسجيل براءات اختراعاتِها، فقد ظلَّ هناك خللٌ ما في براءة الاختراع. والإنجاز الوحيد الذي نجحَا في تحقيقه هو أن ماكيناتِ صناعة الورق لم تزل تُعرف حتى يوم النَّاس هذا باسم آلات فوردرينير (*Fourdrinier*).

أخيرًا: أدَّى التَّحليل الكيميائي والفيزيائي للورق، فضلًا عن اكتشاف السِّليلوز (*cellulose*) بالمُخترعين إلى اكتشافِ عدة طرق يمكنهم من خلالها تحرير ألياف السليلوز من الخشب، وهو مصدرٌ لا ينضبُ من الألياف. فبين عامي ١٨٠٠–١٨٠١، منَح مكتب براءات الاختراع البريطاني براءة اختراعٍ لصانع الورق ماتياس كوبس (Matthias Koops) لنجاحه في صُنع ورقٍ «مُناسبٍ للطباعةِ والأغراض المُفيدة الأخرى» من «القش والتِّبن والشَّوك والمخلَّفات، لا سيما مخلَّفات القُنَّب والكتان وأنواع مختلفة من الخشب ولِحاء الأشجار»، بيد أن تفاصيلَ تجربة كوبس غير معروفة الآن، بل سَرعان ما أعلنت شركتُه إفلاسَها.

وبحلول منتصف القرن التَّاسع عشر، كان الكيميائي الفرنسي أنسيلمي بايين (Anselme Payen) قد عزَل السليلوز عن غيره من المكونات الكيميائية للخشب، وفي عام ١٨٤٠، مُنِح فريدريش جوتلوب كيلّر (Friedrich Gottlob Keller) -وكان نسَّاجًا ألمانيًّا- براءة اختراعٍ لصنعه آلة لطحن الخشبِ لاستخدامه لاحقًا في صناعة الورق. وذلك على الرغم من أن لُبَّ كيلر احتوى على كميَّةٍ متساويةٍ تقريبًا من ألياف الخِرق التي لم ير مندوحةً من إضافتها إلى لُبِّ أخشابه ليمنحه المرونة الكافية لصنع الورق منه. وبعد ستِّ سنوات من هذا التاريخ، اشترى هينريش ڤولتير (Heinrich Voelter) -الذي كان يدير مصنعًا للورق في ولاية سكسونيا (Saxony)- براءة اختراع كيلر، وابتكرَ طريقةً لإنتاج الكميَّةِ المناسبةِ من اللبِّ. وفي الوقت نفسه، شرع تشارلز فينيرتي (Charles Fenerty) من مدينة نوڤا سكوتيا (Nova Scotia) في تجارب لصنع الورق من الخشب المطحون. وأنتج أول ورقة له في هاليفاكس (Halifax) عام ١٨٤١. ولم تدخل تلك العملية في حيِّز الاستخدام الصِّناعي واسع النِّطاق حتى عام ١٨٧٠ تقريبًا.

في هذه الأثناء، أي نحو عام ١٨٥١، طوَّر الإنجليزي هيو بيرجس (Hugh Burgess) وتشارلز وات (Charles Watt) تقنيةً لتليين لُبِّ الخشب باستخدام الصُّودا الكاوية (N_aOH) في وسطٍ حراريٍّ عالٍ. ومن ثم فقد استُخدِم خشب الصُّودا منذ عام ١٨٥٦م، ولكن اللُّب الناتج عن تلك العملية كان ضعيفًا نسبيًّا، ومن ثم كان من المُتعيِّن مزجه مع أليافٍ أقوى لصنع ورقٍ مُناسبٍ للطباعة عليه. وفي مستهل عام ١٨٥٧ قام ب. ك. تيلغمان (B. C. Tilghman) وهو كيميائي أمريكي، بتجربة استخدام حمض الكبريت (H_2SO_3) لتليين الخشبِ وتكريره بغرض استخلاص اللُّب منه، ولكن تقنيته في إضافة حمض الكبريت إلى الخشب، التي حصَلت على براءة اختراع في الولايات المتحدة في عام ١٨٦٧، لم تدخل حيِّز الاستخدام التجاري حتى عام ١٨٧٠، وذلك عندما أدَّت تجارب أخرى أُجريت في أوروبَّا إلى اعتماد تلك التقنية على نطاقٍ واسعٍ هناك، وفي أمريكا الشَّمالية على حدٍّ سواء.

واستطاع صُنَّاع الورقِ -بحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر- صُنعَ كمياتٍ كبيرة من الورق الرخيص، ومن ثم زادت أعدادُ الكتبِ والمجلَّات والصُّحف زيادةً ثوريَّةً. بل هناك ما يدل على وجودِ عددٍ من الاستخداماتِ الأخرى للورق كذلك.

وبحلول عام ١٩٠٨، أدرجَ دليل صناعة الورق في الولايات المتحدة (Lockwoods) -المُشار إليه آنفًا- ما يقرب من ٢٠٠ استخدام مختلف لمنتجات الورق، بدءًا من «لوحات ألبومات الصور» ومرورًا بـ«الورق المضاد للتَّلوث» و«ورق الكتابة» وصُولًا إلى «فواتير النَّسْخِ الصَّفراء».

خلال تلك السَّنوات عينها، دُرِس تاريخ الورق في أوروبا على أساسِ علميٍّ أمينٍ، وذاك عندما شرع شارلز مويز بريكويت (Charles-Moïse Bricquet) في جمع وتنظيم الآلاف من العلامات المائية القديمة والتَّصميمات الباهتة غالبًا، للحيوانات والأشكال التي دُمِغَ الورق بها إبَّان عمليات تصنيعه، والتي وجدها بريكويت على عيِّنات من الورق القديم. ومن المعلوم أن شركات صناعة الورق الإيطالية، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، كانت أوَّل مصانع أضافت علاماتٍ مائيةً على مُنتجاتِها، وربما كانت هذه العلامات بمثابة علاماتٍ تجاريةٍ، أو ضماناتٍ للجودة. أيًّا ما كان الأمر فقد كان باستطاعة بريكويت ترتيبها وتأريخها استنادًا إلى الوثائق المؤرَّخة التي كُتبت على هذه الأوراق ذات العلامات المائية. وحدَّدت سجلاته الهائلة -لتلك العلامات المائيَّة الأوروبيَّة- التَّاريخ العام لحرفةِ صناعة الورق في أوروبا، وظلَّت منذ ذلك الحين مرجعًا أساسيًّا حتى يوم الناسِ هذا، وبعد مرور نحو قرنٍ من الزمان.

وعلى صعيدٍ آخر، ناقش الأوروبيون منذ فترةٍ طويلةٍ أصولَ الورق. وحتى وقت قريب نسبيًا، كان معظم العلماء الغربيِّين يعتقدون أن الأوروبيِّين، أو العرب، قد توصلوا إلى صناعة الورق استلهامًا من التقنية المصرية القديمة التي حوَّلت لِحاء قصب البردي إلى أوراق ومواد صالحة للكتابة عليها. ففي موسوعة ديديروت (Diderot) -على سبيل المثال- فرق ديديروت بين الورقة الأوروبية أو (ورقة الخِرَق) عن «ورقة البردي المصرية»، وكذلك عن ورقة «القطن» التي اعتقد ديديروت أن البيزنطيِّين هم أصحابها الذين اخترعوها. وميَّز كل هذا عن الورق الصِّيني والياباني. وكان يعتقد أن ورقة الخِرق هي اختراعٌ أوروبيٌّ محض، وبناءً على هذا فحص المصادرَ الأوروبيةَ المُحتملةَ لهذه الصناعة وتقنياتها: من الألمان، مرورًا بالإيطاليين، وحتى اللَّاجئين اليونانيِّين[1] في بازل

(١) يعني اللاجئين اليونانيِّين الفارِّين نجاةً بأنفسهم بعد سقوط القُسطنطينية في أيدي العُثمانيِّين. (المترجم)

(Basle). وعلـى هـذا فقـد رفَض الاحتمالَ الذي يقضي بأن تلـك الصناعة قد جاءت من «الشَّرق» أو من قِبَل مُسلمي الأندلس خاصةً.

ربمـا نلتمـسُ بعـض العُـذر لـ ديدروت، بـل ونسـوِّغُ ارتباكه على هـذا النحو: فكلمة (*paper*) التـي نعرفهـا بالإنجليزيـة منـذ القـرن الرابع عشـر بمعنى «الـورق»، دخلت إلى الإنجليزية من باب اللغة الفرنسـيَّة القديمة، والإسـبانية على حدٍّ سـواء، وكلتاهما أُخِذَتا مـن كلمـةٍ لاتينيـةٍ هـي (*Papyrus*) التي تعنـي البردي، وكـذا فعلت الفرنسـية المعاصرة، والألمانيـة (*Papier*) والإسـبانية المعاصـرة (*Papel*). هـذا مـن جهةٍ، ومـن جهة أخرى: دعـا الإيطاليُّـون الورقـة (*Carta*)، وهي كلمة مشـتقة مـن كلمـة (Khartes)، وهي الكلمة اليونانيـة القديمـة التـي أُطلِقَـت علَمًا على ورق البـردي. وهناك عددٌ كبيـرٌ من الكلمات الإنجليزية الشَّائعة المُتعلقة بالورق والكتابة، والتي اشتُقَّت من تلك الكلمة، مثل البطاقة (Card)، والـورق المقوى (Cardboard)، وعلم رسـم الخرائـط (Cartography)، والورق المُقوَّى (Carton)، والرسوم المُتحركة (Cartoon)، والخرطوش (Cartouche)، والمِحبرة (Cartridge)، والمخطـط (Chart)، والميثـاق (Charter)، وكلهـا اشـتُقَّت -كما لعلَّك قد لحَظْتَ- من تلك الكلمة اليونانية التي أشرنا إليها آنفًا.

لم يكن لدى الأوروبيِّين -لعدة قرون تَلت- أي دليلٍ يُعرفُ فيُذكر على أن الصينيِّين هـم القـوم الذين يجـب أن يُعزى إليهم الفضـلُ في اختراع الورق -وذلـك قبل أن يعرفه العَربُ بوقـتٍ طويـلٍ- وأن صناعة الورق ككل ينبغي أن تُعزَى إلـى الصِّين دون غيرها. ونتيجـةً لذلـك، عندما شـرَع الأوروبيُّون فـي الاتصالِ المباشـر مع اليابانيِّيـن والصِّينيِّين في القرن السـابع عشـر، دُهِشـوا كثيرًا لاكتشـافهم أن ورق الصين يشـبه ورقهم إلى حدٍّ كبيـرٍ. ومـع ذلك فقد صوَّر لهم تعصُّبهم، أن ورقَ الصين كان أقل جودة من ورقهم، وأن الآسيويين ينبغي أن يكونوا قد تعلَّموا صناعة الورق من الأوروبيِّين بوسيلةٍ ما، وفي وقت ما في الماضي. ولم يفترِض الأوروبيون قطُّ أن الحقيقة تكمُن في نقيضِ تلك الفرضية. وعلى سبيل المثال طلَب أحد الموظفين الإنجليز، في تقريرٍ كتَبه إلى شركة الهند الشَّرقية مـن مدينـة باتانـي (Patani) فـي عام ١٦١٤، الـورق من أوروبَّـا. وعلى الرغـم من توافر الورق المحلِّي المصنوع هناك بين يديه، كتَب هذا الموظَّفُ قائلًا:

«نحـن مضطرون إلى كتابةِ سـجلَّاتنا كافةً على الورق الصِّيني، بسـببِ نُدرةِ الـورق [الأوروبي]؛ فلم نجد ما يكفي من الورقِ [الأوروبي] لكتابة رسـالةٍ إلى فخامتِكـم؛ لذا أتوسَّـلُ إليكم أن تُسـعفونا بالكُتب والورق والأحبـار التي تمسُّ حاجتنا إليها بشدَّة هنا، فالأرضَةُ هنا تأكل الورقَ الصِّيني!».

وعلـى الرغـم مـن الطلـب الأوروبِّـي المُتنامـي علـى الـورق، فنـادرًا مـا كان التجار الأوروبيُّون الناشِطون في آسيا يُصدِّرون الورق الآسيوي المُنتج محليًّا إلى بلادهم. ومع ذلك فقد اسـتخدموه -هم أنفسُـهم- في حفظ سـجلَّاتهم هُناك. ولا ريب أن أحد تلك الأسـباب التـي كمنـت خلف تلـك الظاهرة هو أن الـورق المحلِّي كان له سـطحٌ أملس، لا يُناسـب الكتابـةَ عليـه بالأقـلام المصنوعـة مـن ريشـة الإوَز (*Goose-quill*) التي اعتاد الأوروبيون استخدامها في الكتابة عادةً. وكما أوضح آدم أوليريوس (Adam Olearius)، سفير دُوق هولشتاين (Holstein) في بلاد فارس في القرن السَّابع عشر:

«أفضـل أنواعـه [يعني المدادَ] يأتي من جُزر الهنـد، والحقُّ أن تلك الأحْبَار ليست كلها جيدة وجميلة، إلا أنها مناسبةٌ تمامًا لأقلامهم، التي لا يصْنَعونها من ريـش الإوز، كما نفعلُ نحنُ معشـر الأوروبيِّين. وأقلامنـا صلبةٌ للغايةِ بحيث لا تتناسـب مع أسـطح أوراقهم، التي تُصنع إمَّا من الحرير أو القُطن، ومن ثم فهي رقيقـة للغايـة؛ لـذا فقد صنَعوا أقلامهم مـن البُوص أو القَصَـب، وهي أكبر قليلًا من أقلامنا».

كانت اليابان قد تمكَّنت من صُنعِ نوعٍ رائع من الورق، قريب الشَّبه من مثيله الأوروبي، وعلـى الرغـم مـن أن الهولنديِّين هم الذين تمكنوا وحدهـم، دون القوى الأوروبية كافةً، مـن الوصـول إلـى الموانـئ اليابانية خـلال القرنين ما بيـن عامـي ١٦٣٩-١٨٥٤م، فلم يُذكر الورق الياباني الرَّخيص في سـجلَّات شـركة الهند الشـرقية الهولندية، سوى مرَّتين فحسـب، وقعتـا بيـن عامـي ١٦٤٣-١٦٤٤م. ومـن المُحتمـل أن يكون بعضًـا من تلك الشُّـحنة التجاريـة قـد وصلت إلى موانـئ هولندا، وكانت مصـدرًا للـورق الياباني الذي رسم عليه رمبرانت (Rembrandt) (الرسَّام الهولندي، والطبَّاع الذي كان من المُتعصِّبين للـورق الأوروبـي)، عـدة لوحـاتٍ. وبخـلافِ ذلك، لـم يكتشـف الفنانـون الأوروبيون الجمالَ والقوةَ اللذين تمتَّع بهما الورق الياباني حتى حلول القرن التاسع عشر.

ظهَر ورقُ الجدران الصيني، باهظ الثمن، والمُزخرف يدويًّا للمرة الأولى في أوروبا

فـي أواخر القرن السَّـابع عشـر، في حين ظلـت أوراق الجدران الآسـيوية الأخرى نادرةً نسـبيًّا حتى مُنتصف القرن الثَّامن عشـر، عندما صدَّرت الهند أول «ورقة جدران هندية» مصنوعـة مـن الخيزران وقـش الأرُزِّ إلى أوروبَّا. واقترح أديبٌ بـارعٌ -كان أقام في الهند لفترةٍ طويلةٍ من حياتِه- في نشرةٍ ظهرت في لندن عام ١٧٧٩، صُنع الورق من ليف نبات الصَّنجيـة الهنـدي (Crotalaria juncea) أو ليـف الجُوت (الخيـش) (Corchorus capsu-laris)، ومما لا شك فيه أن ذلك الرجل رأى بأمِّ عينيه صُنَّاع الورق الهنود يستخدمونهما فـي صناعة الـورقِ الهندي. ولو كان صُنَّاع الورق الأوروبيُّون أكثـر مرونةً وقابليةً للتعلُّم مـن تجـارب صُنَّـاع الـورق الآسـيويِّين، الذين اسـتخدموا تشـكيلةً واسـعةً مـن الألياف المُسـتخرجة من الحشـائش، ولِحاء عددٍ كبيرٍ من الأشجار المُعمِّرة، فربما صادف بحث أوروبا الطويل، عن مصادر جديدة للألياف اللازمة لصنع الورق، نجاحًا مبكرًا.

على أية حالٍ، فقد لَحَظَ عالم الطبيعة، والفيزيائي الفرنسـي رينيه-أنطوان فرتشـولت دي ريمـور (René-Antoine Ferchault de Réamur) أن بعـض أنـواع الدَّبابيـر الأمريكية تصنـع أعشاشًـا ورقيـةً من خيـوط الخشـبِ. وفي مقالـة قدمها إلـى الأكاديميـة الملكية (Académie Royale) فـي ١٥ نوفمبـر (تشـرين الثاني) من عـام ١٧١٩م، أبدى ملحوظةً مفادها أن الخِرق أضحت نادرةً على نحوٍ مُتزايد، وخلُص إلى أن الورق يمكن أن يُصنع مباشـرة من ألياف النَّبات، بل حتى من بعض الأخشـاب. ومن قبيل المفارقة أنه لم يجرِ أي تجارب عمليةٍ في هذا الصَّدد.

في العقودِ التَّالية، حاول بعض الأوروبيِّين الآخرين زيادة كمية الورق المنتج، إما عن طريـق صُنـع الورق من مواد أخرى غير خِـرق القماش، أو عن طريق خلط ألياف الخِرق المتوفرة بموادَّ مالئةٍ مثل الطين. وربما كان القس الألماني وعالم الطبيعة الهاوي يعقوب كريسـتيان شـيفر (Jacob Christian Schäffer)، أكثـر هـؤلاء الأوربيِّين إصرارًا. فقد نشـر المُجلَّـد الأول مـن أطروحة حـول صناعة الورق في عـام ١٧٦٥، وتضمَّنت المجلدات الخمسـة -وهي قوام تلك السلسـلة- عيِّناتٍ من الورق الذي صنَعه بنفسه من مواد مثل: القُنَّـب، لِحـاء الشَّـجر، التِّبـن، الأسْبَسْـتوس، سـيقان الكرنب، أعشـاش الدبابير، عشـبة البرك، الأرقطيون، الشـوك، العُشـب، نبتة القديس جونز، قشـور الـذُّرة، الوزال (Genis-ta)، الصُّنوبر، البطاطس، الألواح الخشـبية القديمة، القصب، الخشب الأصفر، الخشب

البرازيلي، أوراق الفاصُوليا، وخشب الكستناء، والجوز، والخُزامى (Tulip)، وأشجار الزيزفون. وكان ذلك القِسُّ يعمدُ إلى خلطِها كلها مع القطن بنسبة الخُمْس للبِّ القطن. بيد أن شيئًا من هذا كله لم يكن قابلًا للتطبيق تجاريًا.

واستخدم الصينيُّون في بادئ الأمر الخرق وألياف النُّفايات الأخرى لصنع الورق، بيد أنهم سَرعان ما اقتصروا على استعمال اللِّحاء أو الألياف الخشبية فحسب، والتي استخلصوها من طبقة اللِّحاء من النباتات مثل القُنَّب والجوت والخيزران ونبات الرَّامي (Ramie).

وحمَل التجَّار والمبشِّرون البوذيون الورق وتقنيات صناعته من الصِّين، في أعقاب اختراعهم الورق مباشرة، إلى البقاع المجاورة لها، مثل اليابان وكوريا وآسيا الوسطى. حيث اكتُشِفَت عيِّناتٌ من ورقٍ عتيقٍ جدًّا في مواقع مختلفة غربي الصين، فقد ساعد الجفاف الشديد للمناخ هناك على الحفاظ عليها سليمةً. ففي عام ١٩٠٠ اكتشف راهبٌ بوذيٌّ صينيٌّ خبيئةً ضخمةً تتجاوز ثلاثين ألف لِفافةٍ ورقيةٍ في كهفٍ من كهوف دونهوانج (Dunhuang)، دُوِّنت بين القرنَين الرابع والعاشر الميلادي. وتضمَّنت تلك اللِّفافات نصوصًا دينيةً بوذيَّةً وطاويَّةً وكونفوشيوسيَّةً، إضافةً إلى بعض الوثائق الحكومية والعقود التجارية والتَّقويمات، وكذلك وثائق سجَّلت مُمارساتٍ متنوعةً. وكوَّنت تلك الأوراق مكتبة الدَّير، التي عُدَّت بمثابة مخزنٍ لحفظها، في الوقت الذي كانت فيه الحكومة تضطهد البوذيِّين.

بعد بضع سنوات، وتحديدًا في عام ١٩٠٧، اكتشف المُستكشف المجري-البريطاني السير مارك أوريل شتاين (Sir Marc Aurel Stein) مجموعةً صغيرةً من الوثائق الورقية في أطلالِ بُرجٍ قديمٍ للمراقبة في المنطقة الواقعة بين دونهوانج (Dunhuang) ولولان (Loulan). وكانت تلك الوثائق تخصُّ الصُّغديون (Soghdian)(١)، وأُرِّخت تلك الوثائق بالفترة بين القرنين الرابع والسَّادس الميلاديين، ويحتمل أن تمثِّل الرسائلُ الخمسُ الكاملةُ -وكذلك شذرات عديدة أخرى، عُثِر عليها هناك- محتويات حقيبة بريدٍ إمَّا

(١) الصُّغد: قبيلةٌ تركيةٌ كانت تقطن ببلاد ما وراء النهر، في كورةٍ عرفت بالصُّغد، عاصمتها سمَرقنْد، وهي الآن ولايةٌ بجمهورية طاجيكستان.

فُقِدت، أو أُهملت عمدًا لسببٍ أو لآخر. ووُجِدَت إحدى تلك الرسائل محفوظةً داخل مظروفٍ من القماش الخشن، وكانت موجهةً إلى سَمَرقَنْد، الواقعة على بُعدِ نحو ألفيِّ ميلٍ غرب هذا الموقع الذي عُثِر عليها فيه. الأمرُ الذي يُظهِر -جليًّا- أن تجارَ طريق الحرير قد استخدموا الورق في جميع مُدن الواحات الواقعة في آسيا الوسطى، قبل انتشار الإسلام في تلك البقاع بعدة قرونٍ على الأقل.

وعرَف المسلمون الورق، ابتداءً، عندما تمكَّنت جيوشهم من فتح إقليم آسيا الوسطى في القرن الثَّامن الميلادي. وذلك بحسب الثَّعالبي[1]، المؤرخ العربي الذي عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والذي ذكر في كتابه المسمى **لطائف المعارف** أن بعضَ صُنَّاع الورق من أهل الصين قد وقعوا في أسرِ القائد العربي زياد بن صَالح، وهم الذين أدخلوا صناعة الورق إلى سَمرقند بعد معركة «أطلح» أو على نحو أكثر شيوعًا «طلاس» (*Talas*) التي وقعت عام ١٣٤هـ/ ٧٥١م. ثم علَّق الثَّعالبي قائلًا:

> «ثُم كَثُرَت الصَّنْعَةُ [يعني صناعة الورق] واستمرَّتِ العَادةُ، حتى صارت مَتجرًا لأَهْلِ سَمَرْقَنْد، فعَمَّ خيرُهَا والارْتِفَاقُ بها»[2].

ما ذكَره الثعالبي -ثم ردَّده جميعُ الباحثين الذين درَسوا تاريخ الورق- لا يعدو أن يكون روايةً طريفةً حقًّا. بيد أنها ليست واقعيةً على الأرجح. فقد كان الورق معروفًا ومُستخدمًا منذ فترة طويلة في آسيا الوسطى قبل وقوع تلك الحوادث التي سردها

(١) تُوفِّي أبو منصور الثَّعالبي عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م. (المترجم)

(٢) انظر سياقَ هذا النص في: الثعالبي، **لطائف المعارف**، (ليدن، ١٨٦٧)، ١٣٦. جديرٌ بالذكر أنَّ الثعالبي توسَّع قليلًا في هذه المعلومات في كتابه: **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، حيث كتَب قائلًا:

> «كواغد سمَر قند [والكواغد جمع كاغد وهو الاسم الذي أطلقَه المسلمون علمًا على الورقِ الصِّيني، وما تزال الكلمةُ مُستخدمةً في اللغتين الفارسية والتُّركية المعاصرتين إلى اليوم بمعنى الورق] هي من خصائصها التي عطَّلت قَرَاطِيس مصر [يعني أوراق البردي] والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها [يعني الرَّق]، إلا أنها أنعمُ وأحسنُ وأرفقُ، ولا تكون إلا بسمَرقند والصِّين، وذكر صاحب **المسالك والممالك** أنه وقَع من الصِّين إلى سَمَرقند في سبيٍ سَباهم زِيَادُ بن صَالح فى وقْعَة أطلح من اتخذ الكواغيد، ثمَّ كثرت الصَّنْعَة واستمرت العَادة حَتَّى صَارَت متجرًا لأهل سَمَرقند، فَعمَّ خَيرها والارتفاقُ بها جميع البلدان في الآفَاق».

انظر: الثعالبي، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٣)، ٤٣٦. (المترجم)

الثَّعالبي آنفًا. ومن ثم فإن رواية صنَّاع الورق الصِّينيِّين الأسرى ما هي إلا قصة مُختلقة. هذا فضلًا عن أن صنَّاع الورق المسلمين لم يتمكَّنوا من صُنْع ورقِهم من المواد نفسها التي صنَع منها الصِّينيون أوراقهم. وعلى الرغم من أنه قد عُثِر على عيناتٍ مبكرةٍ من الورق الصِّيني في المناطق القاحلة غربي الصين، فالرَّاجحُ عندنا أن الورق قد صُنع للمرة الأولى في المناطق الدَّافئة والرَّطبة وشبه الاستوائية جنوبي الصِّين، حيثُ لا تنمو النَّباتات شبه الاستوائية التي استخدمها الصينيُّون في صناعة الورق، في الأراضي القاحلة في وسط آسيا وغربها.

وبناءً على هذا فقد بحَث صُنَّاع الورق في آسيا الوسطى عن مصادرَ أخرى للألياف؛ كي يصنعوا أوراقهم منها، ووجدوا ضالَّتهم في خِرَق الكِتَّان والقُطْن. وعلى الرغم من أن الصينيِّين خلَطوا -أحيانًا- نُفايات الأنسجة بِلِحاء الألياف، إلا أن خِرق القماش القديمة ظلَّت دائمًا مكونًا ثانويًا في اللُّب الذي استُخدِم في صناعة الورق الصِّيني. وعلى هذا النحو كان صُنَّاع الورق في آسيا الوسطى هم أوَّل من قام بتطوير صناعة الورق من الخِرَق بوصفه مكونًا رئيسًا في صناعة اللبِّ. وربما تمكَّنوا من إنجاز ذلك بُعَيْد دخول الإسلام وانتشاره بينهم. ومن ثم حمَل المسلمون هذه التقنية الجديدة في صناعة الورق إلى العراق والشَّام ومصر والمغرب وصِقلية، وأخيرًا إلى الأندلس، وذلك مع تطوير تقنياتِ التَّصنيع وتحسينها كلما انتقلت الصناعة من بقعةٍ إلى أخرى في ديار الإسلام.

وتتجلَّى إحدى الآثار المهمة للدورِ المحوريِّ٣ للحضارة الإسلامية في نقل صناعة الورق إلى أوروبا في الطريقة التي ما زلنا نحسبُ بها كمية الورق بوحدة تُسمى الرِّزْمة (*Ream*). ويُشير ذلك المُصطلح، أساسًا، إلى عشرين ملزمة (*Quires*) (كُتَيِّب يتكون من ٢٤ صفحة)، أي نحو ٤٨٠ ورقة؛ فالرِّزمة إذًا تحتوي على ٥٠٠ ورقة تقريبًا اليوم. والكلمة الإنجليزية (Ream) جاءت من كلمة (Rayme) الفرنسية القديمة، التي أُخِذَت بدورها من كلمة (Resma) الإسبانية، التي جاءت من كلمة رِزمة (Rizma) العربية، والتي تعني ربطة (Bale) أو حُزْمة (Bundle). وقد أُنشئ أول مصنع أوروبي للورق عندما كانت اللغة العربية هي اللغة الأُم في معظم أنحاء إسبانيا، ومن ثم فلا ينبغي أن يُفاجئنا أصل تلك الكلمة وما اشتُقَّ منها من كلماتٍ أُخَر قط.

مع ذلك -وبصرف النظر عن تلك الرِّوايات- فلم يعترف الأوروبيون بإسهامات

المسلمين في قصة الورق على نحو عام. فلم يكن ديديروت (Diderot) وحده هو الذي تجاهل إسهام المسلمين في صناعة الورق. ولهذا التجاهل عدة أسبابٍ:

السَّبب الأول لهذا التَّجاهل يعود إلى أن الإيطاليّين ما لبثوا بعد فترة وجيزة من إتقانهم صناعة الورق في القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أن أضافوه إلى بضائعِهم وصادراتهم إلى المغرب وغربي آسيا؛ ذلك أنهم سخَّروا عددًا كبيرًا من الأنهار والمجاري المائية اللازمة لإقامة مصانع الورق -لمواءمة البيئة في أراضيهم لذلك الغرض- كما كانوا حريصين في الوقتِ عينِه على تطوير تقنياتهم في صناعتِه؛ لذا فقد طوَّروا مُنتجًا أقوى وأرخص من الورق المحليّ المتوفر في ديار الإسلام. وأخيرًا لم يتمكن صنَّاع الورق في العالم الإسلامي من المُنافسةِ في هذه البيئة غير المتكافئة. وبحلول القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي، كانت صناعة الورق قد درَست آثارها تمامًا في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، باستثناء تُركيا وبلاد فارس والهند. وبحلول القرن التاسع عشر الميلادي، لم يكن لدى معظم سُكَّان أوروبا أدنى فكرةٍ عن أن صناعة الورق كانت يومًا ما صناعةً أساسيةً في العالم الإسلامي.

أمَّا السَّبب الثاني: فهو أن الباحثين قد تجنَّبوا عمدًا التعرُّضَ لتاريخ الورق في ديار الإسلام؛ وذلك لصعوبة دراستِه بالكُلِّية. فتُظهر المقارنة أن نظيرَه -أعني الورق الأوروبي- قد أُرِّخَ استنادًا إلى فحصِ العلامات المائية[1] التي حمَلها، وكذلك الوثائق المؤرَّخة، أو تأريخ الكتبِ التي دُوِّنَت على ورقٍ حمَل علامةً مائيةً. أمَّا دراسة الورق «الإسلاميّ» أو «العربيّ» فكانت أكثر غموضًا؛ وذلك بسبب الغياب التَّام للعلامات المائية. ويمكن تأريخ الورق الإسلامي من خلال الرجوع إلى النُّصوص المُدوَّنة عليه، أو دراسة الخطوط التي كُتِبَت بها تلك النصوص فحسب. وعلى الرغم من وجودِ عددٍ

(١) لا شأن للعلاماتِ المائية التي ظهَرت على الورق الأوروبي، بالعلامات المائية التي ظهرت على الورق الصِّيني، فالعلامات الأوروبيَّة -بخلاف الصينيَّة- لم يلعب الماء دورًا يذكر في صناعتِها، وإنما هي علامات دمَغ بها صُنَّاعُ الورقِ الأوربيُّون -ولا سيما الإيطاليُّون منهم- عن طريق وضع شكلٍ مصنوعٍ من الأسلاك المعدنيَّة الدقيقة أسفل القالب المُستخدم في صناعة الورقة، والذي ترك بدوره انطباعًا باهتًا على الورقةِ فور جفافها. وتكونت تلك العلامات من أشكال من الحيوانات الحقيقية أو الخيالية والصُّلبان وبعض الرموز الدِّينية الأخرى. أمَّا الغرض منها فمسألة لم يحسمها الباحثون بعد، إلا أنهم يميلون إلى أنها مثَّلت شكلًا من أشكال العلامات التجارية أو علامات الجودة. (المترجم)

كبيرٍ من النصوص العربية والفارسية المؤرخة، إلا أن هناك عددًا وافرًا منها أيضًا لم يؤرَّخ. فضلًا عن ذلك ثَمَّ عددٌ كبير من التواريخ، التي دوِّنت عادةً في خواتيم الكتب العربية، وفُقدت بفقدان الصفحات الأخيرة التي حملت تلك الخواتيم نفسها. ونظرًا لأن تأريخ الكتاباتِ العربيَّة لم يزل حقلًا قيد الدراسة، فإنَّ معظم الباحثين والخبراء لم ينجحوا حتى الآن في التوصل لاتفاقٍ عام على مبادئ تأريخ وثيقةٍ مكتوبةٍ، من خلال النظر إلى أُسلوب كتابتها فحسب.

وأمَّا السبب الثَّالث الذي كمَن خلف تجاهل الغربِ الاعترافَ بإسهامات المُسلمين في صناعة الورق؛ فهو أنه عندما ازدهرت الحضارة الإسلامية، في المنطقة الشَّاسعة الفاصلة بين الصِّين وأوروبا، لم يتبع ذلك اختراعُ الطباعة سريعًا في أعقاب صناعةِ الورق، كما حدث في الصِّين ثم في أوروبا لاحقًا. وذلك على الرغم من أن المسلمين عرفوا الطباعة في القرن الرابع أو الخامس الهجريين/ العاشر أو الحادي عشر الميلاديين، واستخدموها في بعض الأحيان في صناعة التَّمائم الرَّخيصة، أو لتزيين المنسوجات القُطنية، إلا أن طباعة الكتب دخَلت إلى العالم الإسلامي بعد ألف سنةٍ كاملةٍ من تاريخ دخول الورق في أواخر القرنَين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين. وبصرف النظر عن بلاد فارس والشَّام، حيث أنشأ النَّصارى من الأرمن والملكانيِّين، على الترتيب، مطابعهم في القرنين السَّابع عشر وأوائل الثامن عشر، فلم تكن ثَمَّ مطابع في العالم الإسلامي حتى أنشأ إبراهيم مُتفرِّقة -ذلك العُثماني الذي كان حديثَ عهدٍ باعتناق الإسلام- مطبعةً في إستانبول في العقد الثاني من القرن الثَّامن عشر، ثم سرعان ما صدر فرمان بإغلاقها في عام ١٧٤٢. إبَّان ذلك كان هذا الأخير قد طبَع خرائطَ ومعاجمَ وأعمالًا دُنيويةً أخرى. بيد أن طباعة المصاحف والنُّصوص الدِّينية الأخرى ظلَّت أمرًا محظورًا على المطبعةِ بالكُلِّية؛ لذلك لم تظهر الطبعةُ الأولى من المُصحف بين ظهراني المسلمين! بل طبَع المبشرون النَّصارى في المطبعةِ الڤينيسية (Venetian Paganino de Paganini') المصحفَ للمرة الأولى في عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م. ولم يطبع المسلمون المصحف للمرة الأولى حتى عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٧م، وذلك في سانت بطرسبورغ (St. Petersburg). تلته طبعةٌ أخرى ظهرت في قازان (Kazan) في عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٣م.

وأمَّا السبب الرابع، فهو أن معظم العلماء عدُّوا تاريخَ الورقِ فصلًا من تاريخ أكبرَ

مـن طباعـة المعرفـة ونشـرِها من خـلال الكتـب المطبوعة، لذا لـم يُثِرْ تاريـخ الورق في ديـار الإسـلام فضولَهم قـط. بيد أن الـورق في حد ذاته يعد وسـيطًا قويًّا لنقـل المعرفة، ويمكن رؤية تأثير انتشار الورق وصناعته -التي عادة ما تكون مُضْمَرةً في ظل الطِّباعة- في التغيرات الهائلة -بل الثَّورية- في مجالاتٍ مُتنوعةٍ من النَّشـاط البشـري مثل: الأدب والرياضيَّـات والجغرافيا والتجارة والفنون في ديار الإسـلام بيـن القرنين الثاني والثامن الهجريين/ الثامـن والرابع عشـر الميلاديين. وكما حدَث في أعقـاب إدخال الطباعة من طـرازِ الأحـرف المُتحرِّكـة إلى أوروبا فـي القرن الخامس عشـر الميـلادي، أدى إدخال الورق إلى ديار الإسلام إلى ثورةٍ مفاهيميَّةٍ، لم تزل آثارُها ملموسَةً حتى يوم الناس هذا.

أخيـرًا، قـد يعـودُ تجاهل الغرب للدور الإسـلامي في تاريخ الـورق، جزئيًّا، إلى ميلٍ خَبيثٍ، يرمي إلى تجاهلِ الإسـهامات الرئيسـة للحضارة الإسلامية -ولا سيَّما في حالتنا هـذه- بوصـف هذه الحضارة وسـيطًا لنقـل الأفكارِ، حيـث يُفضِّلُ أصحابُ هـذا الميل البحث عن أصولِ صناعة الورق في مكانٍ آخر في التحليل الأخير. نعم قد يكون الورقُ اختراعًا صِينيًّا، ولكن إذا لـم يجلبِ المسـلمون صناعةَ الورقِ من هناك إلى إسـبانيا، لما كان الأوروبيُّون قد عرَفوا عنها شـيئًا قبل القرن السَّـابع عشـر الميلادي. وإذا افترضنا أن السـيِّد جوتنبرج كان مُجبرًا على طباعةِ كتبه على الرَّقِّ فحسـب، فإن تكلفةَ الطباعةِ على الـرَّقِّ عندئذٍ سـتكون مماثلةً تقريبًا لكُلفة النَّسـخ عليه بخطِّ اليـد، ولما كان حريًّا بالكُتب المطبوعةِ أن تحلَّ محلَّ المخطوطات، وربما استغرق الأوروبيُّون وقتًا أطول بكثير لكي يدركوا فوائدَ الطِّباعة.

وبحسـب ج. م. روبرتـس (J. M. Roberts) صاحـب كتاب **تاريـخ أوروبا** (*A History of Europe*) الذي صدَر مؤخرًا، فقد كان تأثير العالم الإسلامي على الحضارة الأوروبية أكبـر بكثيـر مـن تأثيره فـي أي مكانٍ آخر. وعلى الرغـم من أن المؤرِّخيـن الغربيِّين كانوا على اسـتعدادٍ تامٍّ للاعتراف بأسـبقيَّة الصين في تلك الاختراعات، مثل: الورق والطباعة والبـارود، فإن تلك المسـافات الشاسـعة التي فصَلت أوروبا عن الصيـن واليابان والهند قبل العصر الحديث كانت تعني أن «القليل من تلك الإبداعات والابتكارات قد وصَلت إلـى أوروبا قادمةً من آسـيا... ما لـم تكن، مثـل الرياضيَّات الهندية، قد خضَعت لتطورٍ ما جرَى عليها في البوتقةِ العَربيةِ خاصةً». وفيما يتعلق بتاريخ الورق في الغرب، فإن قضية

الأصل النهائي لصناعة الورق في الصِّين هي قضية هامشية بالنسبة لتاريخ أوروبا إلى حدٍّ ما. أما تاريخ صُنع المسلمين للورق وما استخدموه من خاماتٍ وتقنياتٍ في صناعته، فعلى النَّقيض من ذلك، فقد كان لهذا التاريخ تأثيرٌ هائل على تطور الحضارة الغربية بحق.

جذَبت أهميَّة الورق الإسلامي فضولَ العلماء منذ قرن من الزمان، وذلك على يد العالم النمساوي جوزيف ڤون كارباتشيك (Josef von Karabacek). فبين عامي ١٨٧٧–١٨٧٨ تمكَّن الآثاريُّون من جمعِ أكثر من ١٠٠ ألف وثيقة مدونة على ورق البردي فضلًا عن الورق من المواقع الأثرية المصرية، لا سيما في أَخميم (Akhmim) وأرسينوي (الفيوم) (Arsinoë)، والأشمونين (Ashmunayn). وحصَل الأرشيدوق النمساوي راينر (Archduke Rainer) على معظمها عام ١٨٨٤م، لتشكِّل أساس المجموعة البردية العظيمة المحفوظة في ڤيينا، وعُيِّن كارباتشيك أمينًا عامًّا لها. وفي حين شُغِفَ الأرشيدوق راينر بالبرديات القديمة، فقد شُغِف كارباتشيك –وهو مُستعرِبٌ بالممارسةِ لا الدِّراسةِ– بنحو ٢٠ ألف وثيقةٍ ورقيَّةٍ. وتمكَّن كارباتشيك، وبمساعدة من الكيميائي يوليوس ڤيزنر (Julius Wiesner)، من إجراء أوَّل تحليلٍ فنِّي للأوراق الإسلامية، وتمكَّن من إثبات أنها صُنِعت، إلى حدٍّ كبيرٍ، من ألياف نبات الكِتان من خلالِ خِرَقه.

على الرَّغم من أن الباحثين لا يفتأون يستشهدون بأبحاث كارباتشيك حول الورق العربي بعد أكثر من مرور قرنٍ على نشرها، فقد ازدادت معرفتنا بالتاريخ الإسلامي وبالثَّقافة والفنون، ناهيك عن التاريخ الأوسع للورقِ نفسه. فمنذ عام ١٩٥٠، أخرج الباحث الفرنسي جان إيريجوين (Jean Irigoin) وزملاؤه أعمالًا رائدةً في تحديد وتصنيف الأوراق التي لا تحملُ علاماتٍ مائيةً تُعين على تأريخها، سواء الأوروبية منها، أو تلك التي تنتمي إلى غربي آسيا. واستُكمل عمل إيريجوين منذ السَّبعينيات من القرن الماضي من خلال ذلك الاهتمام بالفن الإسلامي، الذي أثارت نماذج مؤرخة منه، ومن الكتب واللوحات الإسلامية فضولَ الناس، سواء على الصعيد الشَّعبي أو العلمي المتخصص. فدرس دون بيكر (Don Baker)، أمين المحفوظات الإنجليزي، عدة آلاف من المخطوطات والأوراق الإسلامية خلال مسيرته المهنية، إلا أنه لم ينشر إلا عددًا محدودًا من المقالات قبل وفاته. لكن حفيدته هيلين لوڤداي (Helen Loveday) نشَرت

مذكـرات جدِّهـا البحثية في أعقـابِ وفاته، حيث قدمـت تلك المذكرات معيـارًا جديدًا يصلح لأن يؤرِّخ به المختصون الأوراق الإسلامية في ثنايا دراساتهم.

لـم يتعلَّـق تاريخ الورق في الحضارة الإسـلامية بنقل تقنيةِ صناعـة الورق من الصين إلـى الغـرب، وباسـتخدام الخِرق، بـدلًا من الأليـافِ النباتيـة الرَّطبة، فـي صناعة الورق فحسـب. بـل أدَّى إدخـال الورق في القـرن الثاني الهجري/ الثامن الميـلادي إلى تحولٍ عظيـمٍ طـرَأ علـى الحضارة الإسـلامية فـي القرون الوسـطى، فقد حفَّـز موجةً اسـتثنائيةً مـن الإبـداع الأدبي جـرَت في جميع المجـالات تقريبًا: من العقيدة إلـى العلوم الطبيعية والأدب. فجمـع المحدِّثـون أحاديـث النبي [ﷺ] التي حُفِظَت شـفهيًّا بعد وفاته في عام ١١هـ/ ٦٣٢م، وقيدوهـا بالمداد والـورق. ودُوِّنت أنواعٌ جديدةٌ مـن الأدب، مثل كتب الطَّبيـخ فضلًا عن تلك الحكايات المُسـلِّية التي نعرفها الآن باسـم **ألـف ليلة وليلة**، على الـورق وعُرِضَـت للبيع على جمهـور من القُـرَّاءِ المهتمين. وترجم العلماءُ والنسَّـاخون لفائـفَ ومخطوطـاتٍ يونانيةً، دُوِّنَت على الرَّق أو على البردي، إلى العربية ثم نسـخوها على الورق وأودعوها بطون الكتب. وعندما أضحى الورق أكثر شيوعًا، تطورت كتاباتٌ جديـدةٌ أضحت أكثر ملاءمة لخصائص الوسـيط الجديد، وفي التطور الأخير عُدَّ الورقُ وسيطًا مناسبًا لنسخِ المصاحف عليه.

وشـجَّع توافر الورق في الأسـواق ظهـور مناهج جديدة لدراسـةِ موضوعاتٍ قديمةٍ. ففـي الوقت نفسـه الذي انتشـر فيه الـورق عبر ديار الإسـلام، كان نظام الأعـداد الهندي لحسـاب الأعداد العشـرية، أي ما نطلق عليه اليوم اصطلاح «الأرقام العربية» ينتشـر من الهنـد إلـى المناطق الواقعة غربها. وقبل إدخال نظام الحسـاب الهندي، كان المسـلمون -شأنُهم في ذلك شأنُ النَّاس في كل مكان آنذاك- قد حسبوا حساباتهم ذهنيًّا، وسجَّلوها إمَّا على لوح الغبار (*Dustboard*)، الذي يمكن أن يُمسـح على نحوٍ متكرِّرٍ، كلما مسَّـت الحاجـة لإضافـة قِيـمٍ جديـدة، أو علـى أصابعهـم «حسـاب العَقـد». ودُوِّن أول كتـابٍ للحسـاب الهنـدي باللغـة العربية في القـرن الثالث الهجري/ التاسـع الميـلادي على يد محمد بن موسـى الخُوارِزمي، الذي اشـتق من اسمه اصطلاح «خوارزمية» (*Algorithm*) (وهـي الكلمة المأخـوذة من الكلمة اللاتينية القروسـطية (*Algorithmus*)، التي أشـارت إلى عملية الحسـاب باسـتخدام الأرقام العربية. وكان الخوارزمي آنئذٍ يحسـب حساباته

على ألواح الغبار، ولكن بعد قرنٍ من وفاته، غيَّر عالم الرياضيات، أبو الحسن أحمد بن إبراهيم الإقليديسي، طريقةَ الحساب الهندي لتتناسَب مع استخدام المِداد والورق.

وحصَل النَّصارى واليهود على الورق بمجرَّد ظهوره في ديار الإسلام -مثْلُهم في ذلك مَثُل المسلمين بطبيعة الحال- وأحد أقدم الأمثلة الباقية من الورق «العربي» هي مخطوطة يونانية في تعاليم آباء الكنيسة، ربما انتُسخت في دمشق نحو عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، أي بعد بضعة عقود فقط من إنشاء مصنعَيْن لصناعة الورقِ في بغداد.

وفي القرن التاسع عشر عُثِر على نحو ٣٠٠ ألف وثيقة، دُوِّنت الغالبية العظمى منها على الورق (تعرف بالعبرية باسم وثائق الجنيزة *Geniza*) في الكُنيِّس الفلسطيني في الفُسطاط (أي القاهرة القديمة). ودُونت وثائق الجنيزة -في الأغلب الأعمِّ- خلال الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى منتصف القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وتتعلق تلك الوثائق بالجاليةِ اليهودية في مصر تحديدًا دون غيرهم، بيد أنها باحت بالكثير عن مجتمع التجار المسلمين في القرون الوسطى، ما ترتَّب عليه مزيدٌ من فهم المؤرخين له. كما أوضحت لنا تلك الوثائق الكيفية التي حلَّ بها الورق محل أوراق البردي، الذي استُخْدِم في مصر قبل أربعة آلاف عام، وكيف أصبح الورق وسيطًا لا غنى عنه للاتِّصالاتِ التجارية.

استخدم التجار في القرون الوسطى، في ديار الإسلام، الورق -على نحوٍ مُنتظمٍ- في كتابة الصُّكوك والرِّقاع والسَّفاتج ووثائق الدَّفع والتَّخالُص، وكذلك الوثائق المُماثلة التي استهدفت تعزيز العلاقات التِّجارية بينهم وبين نظرائهم من التجار في المجتمعات النائية عنهم، مثل: الأندلس والهند.

وتسبَّبَ استيرادُ الورق الأوروبي الذي حمَل علامةً مائيةً في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي في إثارة بعض مخاوف الكُتَّاب المسلمين، حيث أعربَ بعضهم -ولا سيما أهل المغرب- عن انزعاجِهم من كتابة لفظ الجلالة على سطحٍ مُزينٍ بالعلامات المائيَّة التي لم تخلُ من الصُّور والرموز، بما في ذلك الصَّليب. بينما بلغت صناعةُ الورقِ في أماكنَ أُخرى، ولاسيما في بلاد فارس، أوجَها، وكان إنتاجُ أوراق بيضاء رائعة من القطع الكبير في فارس سببًا في ثورةٍ ثانيةٍ في صناعة الكتاب الإسلامي،

لـم نـزل نلمـس آثارَهـا خلال قرنيـن تَليًا هنـاك، وكذلك امتـدت تلك الثورة إلـى أماكن أخرى، مثل: مصر والهند والدولة العُثمانية.

ودُوِّنـت معظـم الكتـبِ علـى أوراقٍ، فـاقَ حجمها ضعفـي حجـم الأوراق المكتبية الحديثـة التـي نسـتخدمها الآن، وظـل الأمرُ جاريًا على هـذا المنوال حتى القرن السَّـابع الهجري/ الثالـث عشـر الميـلادي. وكانـت الأوراق تُصنَـع فـي قوالـبَ يمكـن وضعها بسهولةٍ بين يدي صانع الورق. بينما كانت صحائف الورق الأكبر حجمًا أكثر صعوبة في صُنعها بما لا يُقاس، كما كانت مُكلفةً للغاية، ولا يمكن استخدامها بأريحيَّةٍ عند الكتابة عليها من قبل الكُتَّاب. حتى إنَّ الحكام من الخُلفاء والسَّلاطين -الذين كانوا بحاجةٍ إلى لفائف طويلة لكتابة الوثائق والمراسيم التي كانوا يصدرونها بين الحين والآخر- لجأوا إلى لصق أوصال الصَّحائف الصَّغيرة بعضها ببعضٍ.

ازداد قطعُ الورقِ المُنتج في فارس -ناهيك عن جودته- منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي؛ كي يُستخدم في صناعة الكُتب وفي غيرها على نطاقٍ أوسع، كما نـرى مـن خلالِ عددٍ كبيرٍ من الكُتب الفخمة الكبيرة التي وصلتنا من تلك الحقبة. وربما وقَعـت تلـك التغيرات الاسـتثنائية بسـبب زيادة وتيـرة الاتصالات بين فـارس والصِّين. فقـد تحسَّـنت تقنيـاتُ صناعةِ الورق في الصيـن على مرِّ القرون اسـتجابةً لتطور الطِّباعة هناك. وبدأت السُّلالات المغولية، المُنحدرة من نسل جنگيز خان، تحكُم الصين وآسيا الوسطى وجنوب روسيا وفارس والعراق منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميـلادي. بـل قام حُـكَّام فارس مـن المغول -لفتـرةٍ وجيـزةٍ انتهت على نحـو كارثيٍّ- بإصـدار عملـةٍ ورقيـةٍ مطبوعةٍ في عـام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م. وقد تزامن ذلك مع تحسـين تِقنيات مُعالجة اللُّب.

لم يسمح ذلك القطع الكبير للورق بنماذج أكبر وأضخم من لوحات فنِّ الخط العربي فحسـب، ولكنه سـمَح أيضًا بإخراج الكتبِ ذات المُنمنمات الكبيرة. واسـتهلالًا بالقرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أضحى الكتاب المُصوَّر شكلًا فنيًّا رئيسًا في ديار الإسـلام، مما أدَّى في النهاية إلى ظهور ما يُعْرَف اليوم -على نحو مُتناقضٍ- باسـم «فنِّ المُنمنمات الفارسي».

وُضِعَت المُنمنمات في القرون السابقة لتوضيح النصِّ في الكتب العلمية والتِّقنية من خلال رسومات صغيرة، كان الهدف منها إنارة نقاطٍ محددةٍ في النص فحسب. وصُوِّرَ عددٌ قليلٌ من المُصنفات الأدبية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بيد أن القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي شهد إخراج أعدادٍ كبيرةٍ من كُتب التاريخ والأدب المُزيَّنة بمئات المُنمنمات الغنيَّة. لم يوضِّح العملُ الفنيُّ النصَّ ببساطةٍ كما قد يبدو من الوهلة الأولى، بل مثَّله وعبَّر عنه من خلال استخدام مشاهد مُركَّبَةٍ عمِلت على بثِّ الحياة في الخلفيَّة، أو باستخدام تعبيرات الوجه المُثيرة، أو الإيماءات التي صورت مختلف العواطف البشرية على سبيل الاستشهاد.

وعلى الرغم من أن الرسَّامين الفُرس لم يستمرُّوا في هذا النهج من استخدام هذه المؤثرات التَّصويرية في القرون اللاحقة، إلا أنَّ المثل الأعلى للكتاب الفاخر المُصَوَّر الذي نُسِخَ على أوراق من القطع الكبير من الورق الرائع الصَّنعة، قد كُتب له الخلود لأجيالٍ.

وحفَّز التوافر واسع النِّطاق لورقٍ من قطعٍ أكبر، جنبًا إلى جنب مع نوعية أفضل من الورق المصنوع في فارس في العصر المغولي، وما تلاه من عصورٍ، على قيام ثورةٍ فنِّيةٍ جرَت في ديار الإسلام منذ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. فقد قام المهندسون المعماريون والفنانون باستغلال الوسائط على نحوٍ جيِّد، فوضَعوا التَّصاميم على الورق، ونفَّذوها على خاماتٍ مختلفةٍ، ونقلوها من مكانٍ إلى آخر. وكان ذلك الدَّور الجديد للورق أوضح في المُخططات الهندسية. فقد استخدم البنَّاؤون في العصور القديمة المخطَّطات والرسومات، وثمة إشارات هنا وهناك في المصادرِ إلى المخططات الهندسية في القرون السَّبعة الهجرية الأولى من تاريخ الإسلام، ولكن معظم البنَّائين ظلُّوا يعتمدون على المعرفة التَّجريبيَّة، والتي نقلها بَنَّاءٌ إلى آخر عن طريق الوصف والكلمات، ومن موقع إلى آخر عن طريق المُراقبة والحفظِ. ولكن منذ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، استفاد البنَّاؤون في العالم الإسلامي استفادةً كاملة من المخطَّطات والرسومات لصَقل مهاراتهم التَّقليدية. وأسفر ذلك عن زيادة أنماط التوحيد في العِمارة، حيث أتاحت المخططاتُ المرسومةُ من قِبَلِ شخصٍ يعملُ في العاصمة عن تصميمِ مبنى يُزْمَعُ بناؤه في مدينةٍ إقليميَّةٍ بعيدةٍ، بل ربما لم يسبق لصاحبِ ذلك الرَّسم الهندسي أن زار تلك المدينةَ من قبل.

كما أدَّى توافر الورق في ديار الإسلام إلى إحداث تغييرات في الفنُون الأخرى، كالمشغولات المعدنيَّة، والخزف، والمنسوجات خاصَّةً، بحيث أمكن للفنانين أن يضعوا تصميماتِهم على الورق ابتداءً، ومن ثم أمكن للحِرفيِّين تطبيقها في صناعة تلك الخامات. وذلك على النقيض من الممارسة الحرفية التقليدية التي جرَت على مدار القرون الهجرية الأولى من تاريخ الإسلام، حيث كان الحرفيون هم المصمِّمون أيضًا في الآن نفسه، والذين عمِلوا على تصميم منتجاتهم بأنفسهم، وأثناء عملهم فيها.

ومن ثم أدَّى توافر الورق على نحوٍ متزايدٍ إلى قيام بعض الحرفيِّين في العالم الإسلامي بالعمل بطُرقٍ مختلفة: فقد استقى الخزَّافون تصميماتِهم من السجلات النموذجية التي خُصِّصَت لهذا الغرض، وتعلَّم النسَّاجون فكَّ رموز تعليمات نَسْجِ السجَّادِ من الرسومات الكبيرة على الورق المُقوَّى (الكارتون) أو المُنمنمات. ولم يَعْنِ هذا التطور كسر التوحُّد بين الفنَّان والحِرفي فحسب، بل كان يعني أيضًا أنه بات من الممكن دمج التَّصميمات القديمة والجديدة معًا في النموذج الذي اختار الحِرَفيُّ تنفيذه: فقد تظهر تصاميم مُتشابهة على المنسوجات والخزف والمشغولات المعدنية، والكتب المُزخرفة على سبيل المثال. وهو العامل الذي خلَق ذلك الاتساق في الزَّخرفة الذي ميَّز كثيرًا من تُحف الفن الإسلامي بعد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

ويرتبط اتساقُ وتكرار النقوش والزخارف الموجودة في الكتابات والفنون في ديار الإسلام بعد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بالثقافة الأوروبية عادةً، ولا سيما بعد أن تمكَّن جوتنبرج من اختراع المطبعة ذات الأحرفِ المُتحركة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، حيث تعرضت قطاعاتٌ كبيرةٌ من المجتمع الأوروبي للكلمة المكتوبة للمرة الأولى. بيد أن التردُّد الطويل الذي ساد في ديار الإسلام في أمر قبول المطبعة، جاء على النَّقيض من القبول الواسع والحماسة للورق من قبل، وقد يشير ذلك إلى الافتقار إلى الموادِّ الخام، الذي ربما لعِب دورًا ما في تردد المسلمين فيما يتعلق بتطوير الطباعة.

وعلى سبيل الإجمال -لا التَّفصيل- لم يخترع جوتنبرج الطباعة من العدم، فهناك صلاتٌ واضحةٌ بين مطبعته من طراز الأحرف المتحركة، التي صنعها في ماينتس (Mainz) في القرن الخامس عشر الميلادي، وبين المطبعة السَّابقة عليها من الطراز نفسه

فـي الصّيـن في القرن الحادي عشـر الميلادي. وتلـك الصّلات لـم يُفسّـرها لنا الباحثون بعـد. ومـع ذلك فإنَّ طراز الطباعة بالأحرف المُتحرِّكة فـي مطبعة جوتنبرج نتج عنه عدة تطـورات أُخـرى ألمَّت بالتقنيـة الأوروبية في أواخر القرون الوسـطى، بما في ذلك تلك التِّقنيـات الجديـدة في قطع المعادن وسـبكها، واختـراع الأحبار الزيتيَّـة الجديدة، والتي ناسـبت الأحـرف المعدنيـة علـى نحـو أفضل مـن الأحبـار المائيَّـة التي اسـتُخدمت في الطِّباعـة بالقوالبِ الخشـبيَّة، ناهيك عن اختراع آلةٍ يمكنها طبـع صورة القالب على لوحٍ من الورقِ، وعلى نحو يمتاز بالتَّساوي والسُّرعة في الوقت عينِه. ولستُ أستطيع أن أعزو الفضلَ في جميع تلك التطورات إلا إلى الورقِ في التَّحليل الأخير. لقد كان الورق مادةً بسيطةً حقًا، إلا أنها غيَّرت مسار التاريخ.

الفصل الأول



الفصل الأول
اختراع الورق

«كانـت الكتابـاتُ والنُّقـوش فـي العصـورِ القديمـة تُدوَّن عـادةً على ألـواحٍ من الخيـزُران، أو على قطعٍ منسـوجةٍ من الحرير. لكـن الحرير كان مَغْرَمًا، كما كان الخيـزُران ثَقيـلًا، ومـن ثَمَّ لم تكـن تلك الخامـات ملائمةً للاسـتخدام بوصفها حامـلًا للكتابـةِ. وعلى هذا النَّحـو فكَّر كاي لون (Cai Lun) فـي صُنع الورقِ من لِحاء الأشجار وبقايا القُنَّب وخِرق القماش وشِباك الصَّيد القديمة. ثم قدَّم نتائج تجربته للإمبراطور في السَّـنة الأولى من يوان-شـينج (Yuan-xing) [يكافئ عام ١٠٥ ق.م]، فأثنـى عليـه الإمبراطور الثَّناء الحسَـن لاقتدارِه. واستُخدم الورق، منذ هذا التاريخ، في كل مكانٍ، وأُطلق عليه «ورق الماركيز كاي» وهي التَّسمية التي عمَّت أرجاء الدُّنيا».

Hou Han shu, *History of the Later Han Dynasty*.

وُجِدَ البشرُ على الأرض منذ خمسة ملايين سنة، وانقضى نحو ٩ ,٩٩٪ من تاريخِهم ولم يقرأوا أو يَخُطُّوا بأيديهم قطُّ، وظلَّ الأمر جاريًا على هذا المنوال حتى عرفوا الكتابةَ قبل خمسة آلاف عام. واخترع البشر الكتابة نحو عام ٣٠٠٠ ق.م، فانتقلت المجتمعات البشـرية إلـى آفاقٍ أخرى، حيثُ مكَّنَت الكتابةُ النَّاسَ من نقـلِ كميات أكبر من المعرفة، وعلى نحو أكثر دقة قياسًا بتأديتها شفهيًا، مع بونٍ شاسعٍ على صَعيدي المكان أو الزمان. وعلـى الرغـم مـن قـوة الكتابـة -أو ربما بسـببِ تلك القـوة- أضحـت القـراءةُ والكتابةُ مهـاراتٍ محـدودةً لعـددٍ قليلٍ نسـبيًّا مـن الناس، وظلَّـت كذلك لعدة قـرون، ولـم تتطور المجتمعاتُ المتعلمةُ لعدة آلاف من السِّـنين، حيث أضحت نسـبة كبيرة من الناس تقرأ وتكتب.

تطوَّرت الكتابةُ في بعض مراكز الحضارة القديمة، بيد أن التحولَ إلى المجتمع المُتعلِّم لم يتحقَّق إلا عندما ظهَر الورق، وهو مادة حاملة للكتابة، اختُرِعت في الصين منذ نحو ألفي عام خلَت. ومع ذلك، لم يكن الصينيُّون هم الذين استغلوا إمكانات الورق على هذا النَّحو، بل حاز مسلمو غرب آسيا قصبَ السَّبق في هذا المضمار، بدءًا من القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ إذ افتَتح استخدامهم الورق للكتابة «حقبةً جديدةً من الحضارة، وهي تلك التي نعيشها الآن»، كما قال المؤرخ ألفريد ڤون كريمر (Alfred von Kremer) قبل أكثر من قرنٍ مضى من الزمان.

لم يُختَرعُ الورق -المُستخدَم الآن في جميع أرجاء العالم، للكتابةِ أو للطباعة بأية لغةٍ؛ لكونه مادة خفيفة ومرنة وقوية ورخيصة- بغرض استخدامِه في الكتابة عليه قطُّ؛ بل بغرض التَّغليف. واستغرق اكتشافُ الناس أنَّ الورقَ وسيطٌ مناسبٌ للكتابة عليه سنواتٍ طوال. وقبل ذلك الاكتشاف -وبعبارة أدق: خلال الثلاثة آلاف عام الأولى من تاريخ الكتابة- استخدم معظم الكُتَّاب القلم المعدني المسماري (styluses)، أو أقلام القصَب، أو أقلام الرِّيش، أو الفُرَش، أو الأختام، أو أدوات النَّحت، في الكتابة على الألواح الطينية، وأوراق البردي، وأشرطة الخَيْزُران.

واستخدم الكتَّاب قطعًا موادَّ أخرى للكتابة عليها، مثل: اللِّحاء وأوراق الأشجار، والقماش والجلد. بيد أن هذه الخامات كانت أكثر هشاشة، ومن ثَم لم تنجُ من عوادي الزَّمن، ولم نعرف شيئًا عن استخدامها بوصفها حاملَ كتابةٍ إلا على نحوٍ غير مباشر. ومنَحت طبيعة المواد النَّاعمة أو المرنة أو الماصَّة -وكذلك الأدوات المختلفة التي طُوِّرت للنَّقش عليها- أنظمةَ الكتابة الأولى -أعني لُغات بلاد ما بين النَّهرين(١) ومصر والصِّين المكتوبة- خصائصها المُميِّزةِ لها. وعمِلت هذه الخصائص بدورها على تمييز الخطوط القديمة، وتلك التي تطوَّرت منها، حتى بعد أن دُوِّنَت تلك اللغات كافةً على الورق.

---

(١) بلادُ ما بين النَّهرين (Mesopotamia) اصطلاحٌ جغرافيٌّ-تاريخيٌّ يشير إلى المدن والممالك التي نشأت في الأراضي المحصورة بين الرَّافدين دجلة والفرات، وتضمُّها الآن الحدود السياسية للعراقِ وسورية وتركيا. (المترجم)

الألواح الطينية ولِفافات البردي

ظهَر أقدمُ نظامٍ معروفٍ للكتابة في بلاد ما بين النَّهرين في الألف الرابع قبل الميلاد، واختُرِعت أنظمةُ كتابةٍ أخرى على نحوٍ مُستقلٍّ في وادي السِّند في الألف الثالثة قبل الميلاد، وفي الصِّين في الألف الثَّانية قبل الميلاد، وفي أمريكا الوسطى في الألفِ الأولى قبل الميلاد. وتطورت الكتابة في بلاد ما بين النَّهرين، ولاسيما في سومر الواقعة إلى الجنوب، التي سَرعان ما تحضَّرت، فنما عددُ سكانها، وقُسِّم العمل بينهم، وتطورت النُّظم السياسية ثمة.

أمَّا عن الكتابةِ في بلاد ما بين النَّهرين، فقد دُمغت الألواحُ الطينيَّةُ الناعمة بعلاماتٍ مثَّلت الكلمات والمقاطع الصوتيَّة باستخدام قلم إسفيني مُستدق الطَّرف (wedge-shaped stylus). ووُضِعَت تلك العلامات في صفوفٍ أفقيَّةٍ، وقُرأت –على النحو الذي



شكل (٣): لوحٌ طينيٌّ من بلاد ما بين النَّهرين، مدونٌ عليه نصٌّ بالقلمِ المسماريّ. أوروك، نحو عام ١٥٧٠ ق.م. المتحف البريطاني، لندن ANE] .33236]

تُقرأ به الإنجليزية، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من اللغاتِ في يومنا هذا- من اليسار إلى اليمين، ومن الأعلى إلى الأسفل. وأعطى شكل القلم وسِنُّه (انظر: شكل ٣) الكتابةَ المسماريَّةَ مظهرها المُميِّز لها، وكذلك الاسم المُحْدَث الذي نعرفها به الآن، أعني «الكتابة المِسمارية» (*Cuneiform*). ثم عمِل الكَتبةُ على تجفيف تلك الألواح الطينيَّة. وربما حَرقوها أحيانًا في التنُّور، وتوقَّف ذلك الإجراء على أهميَّةِ النصِّ المُدوَّن على تلك الألواح. وعلى الرغم من أن الكتابةَ المسمارية تطوَّرت لاستخدامِها على الطِّين الرَّطب منذ أقدم العصور، فقد نُقِشَت الكتاباتُ الرسمية على الحجر أو المعدن كذلك، ولكن ليس ثَمَّ دليل على أنها نُقِشَت بقلمٍ أو بفُرشاةٍ باستخدام المداد.

وعلى صعيدٍ آخر، لم يرتبط تطور الكتابة في مصر -على النَّقيض من بلاد ما بين النَّهرين- باستخدام أداةٍ بعينها أو مادَّةٍ بعينها. وعلى الرَّغم من أنه يبدو أن سكان بلاد ما بين النَّهرين قد ألهموا المصريين الكتابةَ، فإن أهل مصرَ لم يستخدموا ألواحًا طينية قطُّ. كما لم يستخدموا أقلامًا مسماريةً للكتابة على ألواح الطين، وكذلك لم يقلِّدوا نظامَ الكتابةِ في بلاد ما بين النَّهرين ذا الإشارات والمقاطع الصوتية. بل طوَّروا نظامًا مُصوَّرًا من الكتابة، وهو الذي عُرِف باسم الهيروغليفيَّة، وهي كلمة يونانية تعني «النَّقشَ المقدس».

وقد عُثِر على أوَّلِ دليلٍ على الكتابة الهيروغليفيَّة على مجموعة من لوحات التَّجميل[1] الحجرية المنحوتة بالنَّقشِ بالبارزِ، إحداها «لوحة نارمر» المحفوظة في المتحف المصري بالقاهرة، ويعود تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م، وهي تصوِّرُ عددًا كبيرًا من المشاهد التي تحتفي بانتصار الملك «نارمر» -آخر ملوك مصر من عصر ما قبل الأُسرات- على أعدائه، وثَمَّ نقش هيروغليفي لاسم الملك أعلى جانبي اللوحة، مُحاطٌ برؤوسٍ لحيواناتٍ قَرناء.

ويبدو لنا أنَّ النظام الكامل للكتابة الهيروغليفية، الذي يجمع بين الرموز (*Logo-*

---

(١) لوحاتُ التجميل (*Cosmetic*) هي أحجارٌ استُخدِمَت في الأصل في مصر، في عصور ما قبل الأسرات لصناعة مُستحضرات التَّجميل للوجه أو الجسم، من خلال طحنِها. بيد أنه يبدو أن تلك الأحجار لم تعُد تُستخدَم لهذا الغرض في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، فنُقِشَت عليها الكتاباتُ التِّذكاريةُ، وربما استخدمت لأغراضٍ احتفالية. (المترجِم)

(*grams* أو الصـور مصحوبـةً بعلاماتٍ لتحديدِ وضعيَّة الكلمة فـي الجملة نحويًّا أو لفظيًّا (*Pronunciation*)، قد ظهَر في هذا الوقت. وثمَّة أمثلة على ذلك من الكتابات التي نُقِشَت على موادَّ مختلفة: فقد نُقشت غالبًا على الحجارة مصحوبةً برسوماتٍ مُفصَّلةٍ وملونةٍ، كما نُقِشت بالغائر على الحجرِ على نحوٍ دقيقٍ (انظر: شكل ٤)، أو نُقِشَت بالبارزِ على الحجر الجيري، أو رُسِمَت على أسطح ذات بُعدين، مثل: الجُدران أو لِفافات البَردِي.

وعلى النَّقيض من الكتابةِ المِسمارية، كان يسَعُ الكاتب المصري الكتابة بالهيروغليفية -وكذلـك قراءتهـا- من اليسـار إلـى اليمين، أو مـن اليمين إلى اليسـار. أو من أعلى إلى أسـفل، بتوجيه الأحرف يمينًا أو يسـارًا، اعتمادًا على نوع المادة التي نُقِشَ عليها النص، سواءً كانت جدارًا مُسطَّحًا، أو تمثالًا ثلاثي الأبعاد على سبيل المثال.

وارتبطـت الكتابـةُ الهيروغليفيَّةُ بالتَّمثيـلِ التَّصويري عُضويًّا، ولـم يتميَّز التَّصوير عن



شكل (٤): نصـوصٌ هيروغليفيـة كُتِبَـت فـي اتِّجاهـات مختلفـة على لوحـة جنائزيـة، من مقبـرة تجيتجي (*Tjetji*) فـي طيبة (الأَقصُر). والنص الأُفقي هـو سـيرةٌ ذاتيـةٌ سـرَد فيهـا صاحبها أفعالَـه ومناقبَه. وأمَّا النص العمـودي فهـو صـلاة جنائزية على روحه. العصر الانتقالي الأول (نحو عام ٢١٥٠-٢٠١٨ ق.م). ٥٩×٤٣ بوصـة، (١٥١,٥×١٠٩,٥سـم). المتحـف البريطانـي- لنـدن EA 614].

النص المصاحب، سوى في قليلٍ من الحالات؛ وذاك لأنه يمكن قراءة الصورِ بوصفِها رمزًا تعبيريًّا يمثل شيئًا ما أو فكرة ما (*Ideo-gram*) كالأسماء والألقابِ.

أمَّا الكتابةُ الهيراطيقيَّةُ (الكهنوتية) فهي نُسخةٌ مُبسطةٌ من الهيروغليفيَّة، طُوِّرت بغرض الاستخدام العمليِّ في الحياةِ اليوميَّة. وعلى النَّقيض من الهيروغليفيَّة -التي يمكن نحتها أو رسمها على مجموعةٍ مُتنوعةٍ من المواد- لم تُكتَب الهيراطيقيَّة إلا على ورقِ البَردِي (*Papyrus*)؛ وبالمداد المصنوع من الكربون، وباستخدام قلمٍ مَصنوعٍ من القصب (انظر: شكل ٥). وعلى هذا النَّحو لم تُنْقَش الهيراطيقيَّة على الحجر -اللهم إلا في القليل النادرِ من الأحوالِ- ولا سيما في العصور القديمة المُتأخرة. وسواءً كُتِبَت الهيراطيقية أفقيًّا أو رأسيًّا، فقد تميَّزت دائمًا بأنها كانت تُكتَب من اليمين إلى اليسار. وفي التطور الأخير كُتِبَت في أسطُرٍ أُفقية فحسب.

وثَمَّ شكلٌ ثالثٌ من أشكالِ الكتابة المصرية القديمة، وهي الدِّيموطيقيَّة (*Demotic*)، وهي كتابة العوامِّ، وكانت أكثر شيوعًا، ومن ثم استخدَمت عددًا كبيرًا من الاختصاراتِ والأحرفِ المُركَّبة بوصفها وسيلةً لاختزال الكلمات والرَّوابط التي تربطها معًا. وأضحت الدِّيموطيقيَّة شائعةَ الاستخدام منذ القرن السَّابع قبل الميلاد، حتى القرن الخامس الميلادي. واشتُق الخط الدِّيموطيقي من أسلوب «كتابة التجار» في الوثائقِ المستخدمة في دلتا النِّيل. ونُقِش حجر رشيد -المكتشف في منطقة دلتا النيل- باللُّغاتِ اليونانية والدِّيموطيقة والهيروغليفيَّة، وهو ما سهَّل على جان فرانسوا شامبليون (Jean François Champol-lion) مُهمَّته في قراءة الهيروغليفية، فتمَكَّن من فكِّ رموزها في القرن التاسع عشر.

البردي

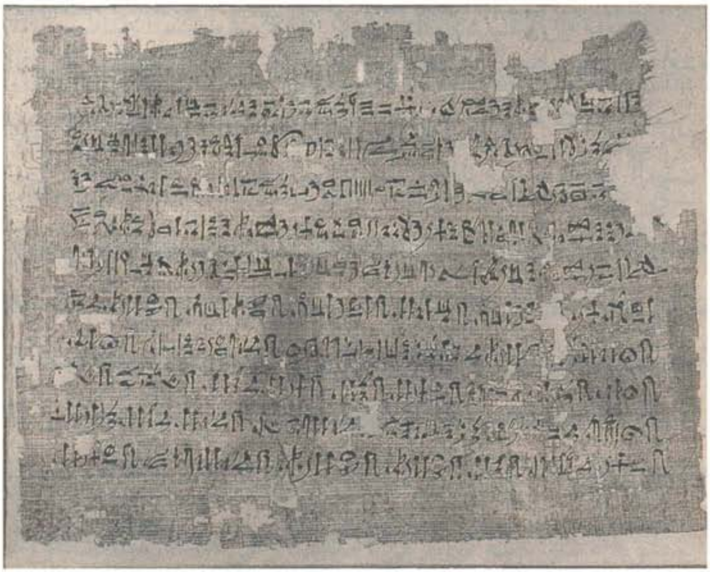
أعدَّ المصريون القُدماء حاملًا للكتابة صنعوه من سيقان نبات البَردي (Paprus cyperus)، وهو نبات ينتمي إلى الفصيلة السَّعدية (sedge)، التي كانت تنمو في مناطق المُستنقعات غير المزروعة في بيئةِ دلتا النِّيل. ومع زيادة الرُّقعة الزراعية، بحلول القرن التَّاسع عشر الميلادي، انقرضَ البردي الأصلي في وادي النيل، على الرَّغم من أنه ازدهر -ولم يزل كذلك- في السُّودان. واستُنبِتَت فصيلةُ البردي التي تُزرع حاليًا في مصر من الحدائق النباتية في باريس عام ١٨٧٢.



نبات البردي في بيئتِه في صقلية
Corrado Basile and Anna di Natale, Il Museo del Papiro di Siracusa (1994).

يُمكن أن ينمو نبات البردي المصري إلى أن يصل إلى ارتفاع ١٦ قدمًا (٥ أمتار) في ظلِّ =

وعلى الرغم من أن المصريِّين كتَبوا على عددٍ كبيرٍ من الأسطح المختلفة، إلا أن الطريقة المميزة التي تطورت بها كتاباتهم كانت نتاجًا للطريقةِ التي اختاروا التَّعامل بها مع أوراق البردي. قُطِعت شرائحُ من قصبِ البردي على هيئةِ صفائح مُستطيلة لُصِقت معًا على هيئة لِفافاتٍ طويلةٍ. ولُصِقَت الأوراق من اليمين إلى اليسار بحيث تُجنِّبُ قلمَ الكاتبِ العثراتِ النَّاتجة عن تداخل الصَّفائح الطُّولية والعَرضية. ولما كانت أوراق البردي هشَّةً نسبيًّا عند الحواف أو عند طيِّها، فإن هيئةَ اللِّفافةِ عمِلت على تقليلِ نسبة الحافةِ إلى السَّطح، كما تجنَّبت الطيَّات تمامًا، إلا أنَّ هيئةَ اللِّفافة لم تسمح إلا باستخدام جانبٍ واحدٍ فحسب من الورقةِ كان صالحًا للكتابة. واستخدم المصريُّون أيضًا الجلود -التي كانت مادةً أكثر تحملًا- للمشروعات الفاخرة، إلى جانب لِفافات البردي التي صُنِعت بإتقانٍ لهذا الغرض نفسه.



شكل (٥): شذرةٌ من لِفافة برديَّةٍ تحمل نصًّا علاجيًّا كُتب بالهيراطيقيَّة. عصر الرَّعامسة (القرن الثاني عشر قبل الميلاد). قياسها ٧بوصات (١٩سم). المُتحف البريطاني- لندن [BMEA 10105].

الظروف الجيدة، فيصل سُمك السِّيقان إلى ٢ بوصة (٥سم). وينتج النبات سيقانًا نحيفةً في ظلِّ ظروفٍ أقل ملاءمة خارج مُستنقعات مصر، لا تصلح لصُنع حامل الكتابة عمليًّا. وعلى هذا النحو كانت صناعة البردي احتكارًا مصريًّا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

وأصبح نبات البردي -في واقع الأمر- شعارَ مصر السُّفلى، وكان يُنظر إليه على أنه رمزٌ مصريٌّ أصيلٌ إلى حدِّ أنه كان بمثابة الشعار لمصر بأكملها. واستُخدمت أوراق البردي في صناعة أشياء كثيرة، بما في ذلك السِّلال والحبال والقوارب، ولكن منذ حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م كان أهم استخدام للبردي هو بوصفه حاملًا للكتابة. وأقدم مثالٍ وصلنا هو لِفافة من أوراق البردي الفارغة وُجِدت في مقبرة هيماكا (Hemaka)، أحد أعوان الملك دن (Den) من الأسرة الأولى (حوالي ٢٩٢٥-٢٧٧٥ ق.م)، في سقَّارة. واللِّفافة مُتقنةُ الصُّنع بالفعل إلى حدِّ أن المرءَ يجزم أنه ينبغي أن يكون المصريون قد صنَعوا لفائفَ البردي منذ وقتٍ أبكرَ من هذا التاريخ، كي يصلوا إلى هذا المستوى من الإتقان في صناعته.

وعلى الرغم من أن الكاتب الروماني بليني الأكبر (Pliny the Elder) (من أهل القرن الأول الميلادي) قد وصَف صناعة أوراق البردي في كتابه **التاريخ الطبيعي**، إلا أن الباحثين ذهبوا في تفسيرِ وصفه مذاهبًا. ويوفر فحصُ البَرديات التي وصلتنا مؤشرًا أفضل على كيفية تحضير أوراق البردي بالفعل. =

وحافظ مناخ مصر -الذي اتَّسم بشدة الجفاف- على عددٍ كبيرٍ من القطع الأثرية المبكرة التي منحتنا نظرةً عامةً لا يُعوِزُها الشُّمول على تاريخ الكتابة المصرية. فإضافةً إلى النُّقوشِ على الجُدران والتَّماثيل والكتابة على لِفافاتِ البردي، نُقِشَت النصوصُ على الكِتَّان المنسوج المستخدم في القَرابين، وأكفان الموتى وأغطية المومياوات. واعتاد الطلابُ الكتابةَ على ألواحٍ خشبيَّةٍ مُستطيلةٍ غُلِّفَت بطبقةٍ رقيقةٍ من الجصِّ سمحت لهم بمحو كتاباتهم بسهولةٍ ويُسرٍ. كما استخدم المصريون أيضًا الآنية الفخارية وشقف الفخار (*Ostraca*) لتعلُّم الكتابةِ، أو لكتابة المفكرات والحسابات المُختصرة. وعلى الرَّغم من سعي الكَتبةِ للكتابة بخطٍّ مُتقنٍ لا يُعوِزه الوضوح، فلا يبدو أن المصريِّين قدَّروا الخطَّ الجميلَ بوصفه فنًّا خالصًا قط.

وصدَّر المصريون أوراقَ البردي إلى معظم المجتمعات المُتعلِّمة في عالم حوض البحر المتوسط القديم، بيد أن النَّماذج التي وصلتنا من خارج نطاق مناخ المصري الجاف نادرة. وأقدم برديةٍ محفوظةٍ عُثر عليها خارج مصر هي لِفافة كُتِبَت بالعِبرية نحو عام ٧٥٠ ق.م، وُجِدت في كهفٍ بالقرب من البحر الميِّت.

وتُعدُّ العبرية واحدة من الخطوط التي تطوَّرت من الأبجدية الفِينيقيَّة، والتي تطورت بدورها في مناطق غرب آسيا خلال الألف الثَّانية قبل الميلاد. والأبجدية (*Alphabet*) نظامٌ للكتابة مُثِّل فيه كل صوتٍ في اللغةِ بعلامة مُميِّزةٍ له. وكان ظهور الأبجدية تطورًا ثوريًّا بحق؛ وذاك لأنها نظامٌ كان يمكن تطبيقه على أية لغة، وليس على اللُّغات السَّامية فحسب.

واستعار اليونانيُّون الأبجدية السَّامية من الفينيقيِّين للغَتِهم، وكيَّفوها لكتاباتهم في أوائل الألف الأولى قبل الميلاد. ولم يعكسوا اتجاه كتاباتهم -فغدت تُقرأ من اليسارِ إلى اليمين-

قطَع صنَّاع البردي، أولًا، سيقان نباتِ البردي إلى أطوال يمكنهم التحكُّم بها، وأُزيلت الطبقة الخارجية من اللُّب، الذي جرَى بعد ذلك تقطيعه أو تقشيره إلى شرائحَ رفيعةٍ للغاية، بلغ عرضها عادة ½ إلى ١½ بوصة، (١-٣سم). ورتِّبت الشَّرائط على سطحٍ أملسَ في خطوطٍ متوازيةٍ، بحيث تلامس بعضها بعضًا أو تتداخل قليلًا، ثم وُضِعت طبقةٌ أخرى، مع قطاع الشرائط مُتعامدةً على الشَّرائح الأولى بزاوية قائمة لتُشكِّل طبقةً فوق الطبقة الأولى. وأدَّى الضَّغطُ أو الطَّرق إلى التحام الشرائطِ معًا، بحيث عمِلَت العصارةُ اللاصقة من ورق البردي المقطوع حديثًا على التصاقِها معًا. فإذا جفَّ البردي أضحى ورقة قوية ومرنة يتراوح عرضها بين ١٦ بوصة (٤٠ سم) إلى ٨ بوصات (٢٠سم).

وأُلصِقت أوصال أوراق البردي المُجفَّفة من طرفٍ إلى آخر باستخدام عجينِ الطَّحين لتشكيل لِفافة، وتغطي حافة الصفيحة الصحيفة التي تليها عادة بحوالي ١بوصة (٢سم). ثم جرَى بعد ذلك صقلُ الحوافِّ بحيث تختفي المفاصل الرابطة بين الصفائح، فلا تُعاند قلم الكاتبِ أثناء الكتابة. وتكوَّنت اللُّفافة عادة من نحو عشرين ورقة. وتعد بردية هاريس العظيمة (Great Harris Papyrus) (نحو عام ١١٦٦ ق.م) لِفافة استثنائية، حيث بلغ طولها نحو ١٣٤ قدمًا (٤١ مترًا).

وحدَّدت رقةُ شرائح البردي سُمكَ الورقةِ، كما حدَّدت جودتها ولونها=

فحسب، بل شرعوا أيضًا في تمثيلِ جميع أصواتِهم في اللغة، وليس الحروف السَّاكنة فقط كما فعَلت الأبجديات السَّامية -ولم تزل تفعل حتى يومنا هذا- فمثَّلوا الأحرفَ الصَّائتةَ أيضًا. ومن ثم أكسب هذا الصَّنيع الكتابةَ اليونانيةَ مكاسبَ عظيمةً، من جهة وضوح الخط، والدِّقة في تسجيل الأصوات.

وأشار المؤلفون الكلاسيكيُّون إلى أن اليونانيِّين استخدموا لفائفَ البردي في القرن السَّادس قبل الميلاد، بيد أن أقدمَ دليلٍ أثريٍّ باقٍ هو شذراتٌ محروقةٌ اكتُشفت في قبرٍ من قبور أثينا، ويرجع تاريخه إلى قرنٍ من الزمان لاحقًا بعد هذا التاريخ. وأُعِدَّت لفائفُ ورق البردي للكتابة اليونانية عن طريق تركيب أشرطة لِحاء البردي اليُسرى على اليُمنى لتتكيَّف مع اتجاه النصِّ في اليونانية؛ وذاك لأن اللغة اليونانية كُتِبَت من اليسار إلى اليمين.

وعرف اليونانيون ورقة البردي على أنها «الخط» (Khates)، إلا أنَّ لِفافة ورق البردي عُرفت في اليونانية باسم الكتاب (Bib-lion)، واشتُقَّت هذه اللفظةُ الأخيرةُ من الكلمة اليونانية (Biblos)، بمعنى «لُب البردي». وتلك الكلمة اليونانية عينُها هي الجذر الذي استمدت منه هذه الكلمات الإنجليزية: (Bible) أي الكتاب المقدَّس، وكذلك كلمة ببليوجرافيا (Bibliography). ثم أطلَق الرُّومان لاحقًا على الكتاب اسم (Volumen)، وهو مُصطلحٌ ما زلنا نراه حتى يومنا هذا في بعض الكلمات الإنجليزية مثل المُجَلَّد (Volume)، واللِّفافة (Volute).

وكثيرًا ما كُتِبَت اليونانيَّةُ -مثلُها في ذلك مثَلُ النصوصِ الأدبيَّة المصرية- على هيئة قوائم في أعمدة -وهي الممارسة المعروفة باللاتينية باسم (*Pagina*)، ومن هذه الكلمة اشتُقَّت كلمة «صفحة» (Page) في الإنجليزية- في أنساقٍ عموديَّةٍ على محور اللِّفافة. وكُتِبت الوثائقُ عادةً -على النَّقيض من النصوص الأدبية- في

ومرونتها. وتميلُ ورقة البردي المثاليَّة إلى الرِّقةِ والبياض، وفقًا لتمثيل ورقِ البردي في اللوحاتِ والنقوش المصرية، ولكن الصَّفار كان يغلِب على أوراق البردي مع تقادمِ العهد. وسَرعان ما أدرك المصريون هذا، فطُليت جدران مقابر أمنحتب الثاني وتحتمس الثالث في وادي الملوك بخلفيَّةٍ صفراء لتُمثِّل صورة أوراق البردي القديمةِ، وقد نُقِشَت عليها الكتابات ثمة.

صُنعت لِفافات البَردي بحيث تكون الألياف أفقية على السَّطح الداخلي، وتكون عمودية على السطح الخارجي. وحدَّ وضع الألياف على هذا النحو من الاهتراء والتَّلف السريع للِّفافةِ البردية، فعند فتح اللفافة، تُضغَطُ الأليافُ الداخليةُ الأفقيةُ، بينما تتمدَّد الأليافُ الرأسيَّةُ في السَّطح الخارجي. كما ساعد ترتيبُ الأليافِ على هذا النحو الكتبةَ على الكتابة على نحو مُستقيم، حيث كان بوسعهم تتبُّع خطوط الألياف بوصفها مؤشرًا على السَّطر. وفضَّل الكَتَبةُ الكتابة على السَّطح الداخلي للِّفافة؛ وذاك لأن السطح الخارجي يمكن تلطيخه بسهولة. وعند القراءة، أمسك القارئ اللِّفافةَ بيده اليُسرى وفردها يمينًا، كما نرى ذلك في تمثيلاتِ الكتبةِ في النقوش المصرية سواءً كانوا جالسين أو واقفين. وإذا فرَد الكاتبُ جزءًا صغيرًا من اللِّفافة، فإن البردي كان صلبًا بما يكفي للسماح للكاتبِ بالكتابة دون حاجة إلى الاستناد إلى سطح صلب. =

صيغةٍ مختلفةٍ تمامًا، تعرف باسم (Rotulus) أو (Roll)، على هيئة عمودٍ واحدٍ طويلٍ يُكْتَبُ موازيًا لمحورِ اللِّفافة، وتُفتَحُ اللِّفافة وتُقرأ على هذا النَّسق رأسيًّا. ويتطابق هذان النَّسقان المُتمايزان على نحوٍ وثيقٍ مع أنواع اللَّفائف المُستخدمة في شرق آسيا: اللِّفافات التي اصطفت فيها الكتابة أفقيًّا على هيئة أعمدة (Horizontal handscroll)، واللُّفافات ذات العمود الرأسي «المُعلَّق» (Vertical "hanging" scroll).

وشاب استخدامَ اللِّفافاتِ عددٌ من العيوبِ؛ إذ كان ثَمَّ جانبٌ واحدٌ فحسب من سطحِها صالحًا للكتابة، ولما كان هناك حدٌّ عمليٌّ لطول النصِّ الذي يُمكن لِلفافةٍ واحدةٍ استيعابه، فكان ينبغي نسخ النصوص الطويلة على عدة لِفافات مُنفصلةٍ، وعلى هذا النَّحو كان من السَّهل أن تُفقَد إحداها فينْخَرِم النصُّ. وبينما كانت قراءة لِفافةٍ واحدةٍ من أولها إلى آخرها أمرًا سهلًا، فإن البحث عن مَقطعٍ بعينه في لِفافةٍ حمَلت نصًّا طويلًا كان أمرًا مُشكِلًا؛ إذ يقتضي فَرْدَ اللِّفافةِ بأكملِها للبحث عن ذلك المقطع المنشود.

ولمَّا استولى الإسكندر الأكبر على مصرَ وطرَد الفُرس منها في عام ٣٣٢ق.م، نصَّب القائد بطليموس الأول الملقب سوتر (Ptolemy I Soter) واليًا عليها. وعلى هذا النَّحو أضْحَت اليونانية لغةَ الإدارةِ الرئيسةِ في مصر وكذلك اللغة التي استخدمها المصريون في الكتابةِ على ورق البردي آنذاك. واشتُهر بطليموس في التاريخ بتأسيسِ مكتبةِ الإسكندرية الكبرى، والتي عمل على توسيعها من بعده، ابنه وخليفته بطليموس الثاني (Ptolemy II). ويُعتقَد أن تلك المكتبة كانت تحتوي على أكثر من نصفِ مليون مجلَّد، أو لِفافة بردية، كما كانت المركز الثَّقافي للعالم القديم.

ولمَّا استخدم الكُتَّاب اليونانيُّون نوعًا من الأقلام أكثر صلابة



كاتبٌ جالسٌ من الأسرة الخامسة، (٢٤٦٥– ٢٣٢٥ ق.م)، متحف اللوفر– باريس (E 3023).

كان سطحُ اللِّفافةِ أملسَ تمامًا على الرغم من الخطوطِ البارزةِ لألياف البردي، ولا يبدو أن خطوطَ الألياف قد أزعجت الكتبة المِصريين. وكانت عصارة النبات المجفَّفةِ تعمل بوصفها غراءً طبيعيًّا؛ فتعمل على منعِ تَشرُّبِ الورقة للمداد، من ثم التشكل على هيئة البقع؛ لذلك كان يسع الكاتب أن يمسح ما خطه عن طريق مسح المداد الرَّطبِ أو غسلِه بعد جفافه، أو باستخدام مكشطة من الحجر لكشطِ السَّطح الجاف.

وتكوَّنت أدواتُ الكاتبِ من حقيبة أقلامٍ بها فتحات لوضع أقلام القصب؛ وقِرص الصِّباغ (cakes of pigment) باللونين الأحمر والأسود؛ وآنية للماء لصُنع المداد. وقطعت أقلام القصب بشكلٍ مائلٍ، وغالبًا، ما مضَغ الكاتب سِنَّ القلم كي يصنع منه سطحًا قاسيًا بعض الشيء، إلا أنه أشبه بالفُرشاة.

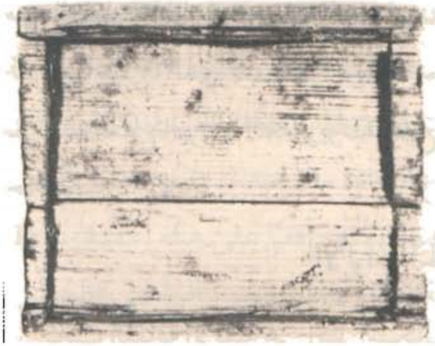
من الأقلام التي استعملها المصريون، لم يكن ذلك القلم صالحًا للكتابةِ على ورق البردي الهش، الذي كان أكثر عُرضة لتمزق السطح نتيجة احتكاكِ القلم الغليظ به، ومن ثم تعلَّم صُنَّاع البردي المصريون تصنيعَ أوراق أكثر سماكةٍ لاستخدام الكتَبةِ اليونانيِّين خاصةً.

الألواح الخشبية وكتب الرَّق

كانت اللِّفافة الأُفقيَّة هي أكثر أشكال حوامل الكتابة شيوعًا في العصور القديمة، بيد أن النَّاس عرفوا أشكالًا أخرى إلى جوارِها أيضًا. وكان «لوحُ الكتابةِ» أحد تلك الأشكال. تكوَّن اللوحُ من قطعةٍ واحدةٍ إلى نحو عشر قطع كانت تُصنَع من الخشب أو العاج، وترتبط معًا بمشابك أو بمُفصلاتٍ، أو بخيطٍ يمرُّ من خلال ثقوبٍ محفورةٍ لهذا الغرض على جانبي تلك الألواح. وكان يسعُ الكاتبَ أن يكتب مباشرةً على الألواح بالمدادِ أو بالطبشور. وغالبًا ما كانت الألواح تُقعَّر قليلًا كي تحمل في الفراغِ النَّاجم عن عملية التَّقعير طبقةً رقيقةً من الشَّمعِ يمكن للكاتب أن ينقش عليها النصَّ باستخدام قلمٍ مسماريٍّ. كما استخدم الكُتَّاب طرف القلم الآخر المُستدير لمحو الكتابة من على سطح الشَّمع عن طريق حك السَّطح الشَّمعي وصقلِه وتنعيمِه مجددًا. وتُترك الحوافُّ -وأحيانًا منطقة صغيرة في وسط اللوح- على منسوبها دون تقعيرٍ لحماية النص المنقوش على الشمع في حال انطباق الألواح وضمها معًا (انظر: شكل ٦).

وعُرِف زوجُ الألواح اللذان طُوِيا معًا لحماية السطح المُشمَّع باسم (*Diptych*). أما الألواح المُتعدِّدة فقد عُرفت باللاتينية باسم الكتاب (*Codex*). وعلى الرغم من أن هذا المصطلح الأخير استُخْدِم في بادئ الأمر عَلمًا على مجموعة الألواحِ المطليَّةِ بالشَّمع، فإنه استُخْدِم في العصورِ المتأخرةِ للإشارة إلى مجموع الأوراق المرنة -سواء كانت من الرَّق، أو من ورق البردي، أو الورق لاحقًا- المطويَّة من المُنتصف على هيئة الكتاب على طولِ حافةٍ واحدةٍ.

وعرف العبرانيُّون الألواح أيضًا، وصوَّرت تقاليدهم ألواحَ النَّبي موسى [عليه السَّلام]، التي دُوِّنت عليها الوصايا العشر على أنها كانت زوجًا من الألواح الشمعية (*Diptych*). وتعلَّم اليونانيُّون صُنع الألواح من الحيثيِّين في آسيا الصغرى، واستخدموها قبل أن يتحوَّلوا





شكل (٦): لوحُ كتابةٍ خشبي مُكتشف في ڤيندولاندا (Vindolanda)، وهو موقعٌ حدوديٌّ كان يقع على تخوم الإمبراطورية الرومانية، شمالي إنجلترا، والنَّقشُ مؤرخ بأواخر القرن الأول، أو بأوائل القرن الثاني الميلادي. المتحف البريطاني- لندن.

شكل (٧): زوجٌ من ألواح الكتابة من خشب البَقس ارتبطا معًا بمفصلات من العاج، اكتُشِفا في حُطام سفينةٍ غارقةٍ في (Uluburun) قبالة سواحل تُركيا. مؤرخٌ بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد. قياسه: ٥ ,٣×٥ بوصات (٩ ,٨×٥ ,١٢سم)[١]. تُنشر بإذنٍ خاص من معهد علوم الآثار البحرية، جامعة أ. م. تكساس *Texas A & M University*) [KW 4370].

إلى الاعتماد على أوراق البردي المستوردة من مصر. واعتقد الباحثون -لأمدٍ طويلٍ- أنَّ أقدم عيِّنةٍ من الألواح هي لوحٌ عاجيٌّ قديمٌ محفوظٌ في المتحفِ البريطاني، عُثِر عليه في موقع النَّمروذ الآشوري (Assyrian site of Nimrud) شمالي العراق، وأُرِّخَت تلك الألواح بنحو عام ٧٠٧ ق.م. ومع ذلك فقد اكتَشف علماءُ الآثار مؤخَّرًا حطامَ سفينةٍ غارقةٍ قُبالة سواحل تُركيا من أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وعثروا بداخلها على زوجٍ صغيرٍ من الألواح الخشبية المُقعَّرة قياسها ٢×٣ بوصة، (٥٠×٨٠مم)، ارتبطَت معًا بمفصلة من العاج (انظر: شكل ٧). ويعني هذا أنَّ الألواح من هذه الشَّاكلةِ استُخْدِمت في الكتابةِ قبل قرونٍ من التأريخ المُفترض للألواحِ المُكتشفة في موقع النَّمروذ.

وعلى الرغم من أن اليونانيِّين القُدماء استخدموا ألواح الكتابة ولفائف البردي، إلا أنَّ الألواحَ استُخدِمت على نحوٍ أساسيٍّ لتسجيل المعلومات ذات الطَّبيعة المؤقَّتة أو الدُّنيوية، مثل: كتابة الرسائل والمُفكِّرات وإيصالات السَّداد والحسابات والتَّمارين

(١) تقدَّمت إشارةُ المؤلف إلى أن قياسها ٢×٣ بوصة، (٥٠×٨٠مم). (المترجم)

الرياضيَّة واللُّغوية ومُسـوَّدات النصوص قبل تبييضِها. ولم تكن الألواحُ -سـواءً صُنعت مـن الخشـب أو مـن العاج أو مـن الطِّين المحـروقِ- ملائمةً بحُكم حجمهـا أو تكوينِها لتسـجيلِ النُّصـوص الطويلة عليها، ولا سـيما الأدبيَّـة منها؛ ذاك أن المصنَّفات مُتوسـطة الطول كانت تتطلب عددًا كبيرًا من الألواحِ، والتي احتاج صاحبها بعد ذلك إلى الاحتفاظ بها وقراءتها معًا.

واعتنى سكان بلاد ما بين النَّهرين بالمحفوظات، واحتوى قصر آشوربانيبال (Assur-banipal) في نِينَوى على ما يصل إلى ٢٦ ألف لوح طينيٍّ، حُفِظت في السِّلال والحقائب والجِـرار وعلى الرُّفـوف. ولكن الحفظ وتدوين قوائم بمحتويات الألواح -أعني أعمال الأرشفة- انطويَا على إشكالياتٍ دائمةٍ مع الألواح الطينيَّة؛ لذا نادرًا ما اشتملت المكتبات -خارج بلاد ما بين النهرين- على ذلك النَّوع من حوامل الكتابة.

ووُثِّق اسـتخدامُ ألواحِ الكتابةِ الشَّـمعيَّةِ في فترةٍ زمنيَّةٍ أبكر في روما، حيث استُعْمِلت في تسـجيل الوثائق القانونية والشَّـهادات الرَّسـمية. وظل اللوحُ الشَّـمعيُّ حاملًا شـائعًا للكتابـة خـلال حقبةٍ كبيـرةٍ من القرون الوسـطى، واستُخدمت -كما أسـلفنا- في كتابة المُسـوَّدات والرَّسـائل والملحوظات، والمراسـلات التجارية. فعلى سبيل المثال شرح البابـا جريجوريـوس الكبيـر (Pope Gregory the Great)، فـي سِلسـلةٍ من العِظات سِفْرَ أيوب نحو عام ٦٠٠م، فكُتِبت عظاتُه مُختصرةً على ألواحٍ شـمعيَّةٍ. ثم نُسِـخ نصُّها لاحقًا علـى خمسٍ وثلاثيـن لِفافةٍ مـن أوراق البـردي، حيثُ صُقِلَـت الألواحُ الشَّـمعيَّة لإعادة استخدامها مجددًا.

كما صُنعت اللِّفافات من الرَّق، وهي مادةٌ ملونةٌ وصلبةٌ، إلا أنها افتقرت إلى المرونة نسبيًّا، وكانـت تُصْنَـع مـن جلود الحيوانـات التي سُـلِخَت عن أجسـامِها، ثـم نُقِعَت ثم جُفِّفَت. وأُطلق على الرَّق باللاتينية (*Pergamena*)، وهي الكلمة التي اشـتُقَّت منها كلمة الـرَّق بالإنجليزيـة (*Parchment*)، وتعود أصول هذه الكلمة إلى مدينة بيرغامون (Perga-mon)، الواقعة غربي الأناضول.

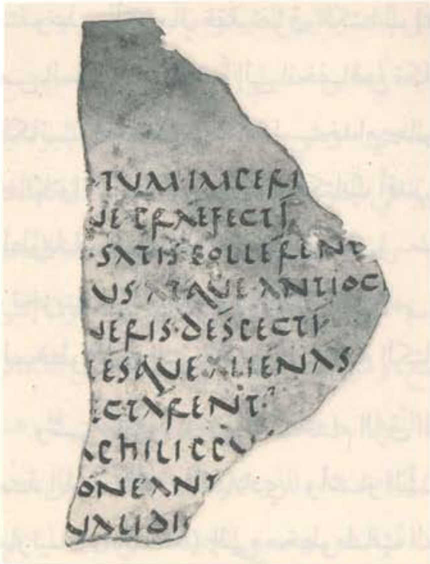
وادَّعـى المؤلـف الرُّومانـي بلينـي (Pliny) أن أصـولَ صناعـةِ الـرَّق تعـود إلـى مدينة برجامون، وذلك عندما أراد حاكمها إيومينيس الثاني سـوتير (Eumenes II Soter) إيجادَ حامـلٍ جديـدٍ للكتابـة في القـرن الثاني قبل الميـلاد؛ وذاك لأنَّ البطالمة فـي مصر -وقد

أصابتهم الغيرةُ من منافسةِ مكتبة برجامون النَّامية لمكتبة الإسكندرية- حظروا تصديرَ أوراقِ البَردِي من مصرَ إلى خارجها. غير أنَّ مصادر كلاسيكيَّة أخرى أشارت إلى أن الرَّق والجِلد كانا مادتين معروفتين منذ القدم بوصفِهما من حواملِ الكتابةِ الرئيسة في شرق البحر المتوسط. فقد نسَخ اليَهود التَّوراة، منذ أقدم العصور، على جانبٍ واحدٍ من الرَّق المصنوعِ من جلودِ الحيوانات التي أحلَّت الشريعةُ اليهوديةُ ذبحَها وتقديمَها بوصفها أضاحٍ (كوشير kosher). وخِيطَت الرُّقوقُ المُعدَّةُ معًا من جُلود حيوانات مُتجانسة لتَشكيل لِفافةٍ طويلةٍ، نسَخ عليها الكتَبةُ نصَّ التَّوراة بالحبرِ الأسود. ولم يُجزْ اليهودُ لأنفسِهم مسَّ اللِّفافة نفسها قط، بل حرَّكوا اللِّفافةَ يُمنةً ويسرةً عن طريق بكرتَيْن خشبيَّتين ثُبِّتتا على جانبي اللفافة، وعرَف القارئ موضِعه من النصِّ باستخدام مؤشرٍ كان يعرف باسم اليد (*yad*) (انظر: شكل ٨).

وتؤيِّد مخطوطاتُ البحر الميت -وأقدمها مؤرخٌ بالقرن الثاني قبل الميلاد، وأحدثها مؤرخٌ بالقرن الأول الميلادي- استخدام الرَّق في منطقة شرق البحر المتوسط، إذ إن بعضًا من هذه المخطوطات دُوِّن على الرَّق.



شكل (٨): التوراة مخطوطة على الرَّق على هيئةِ لِفافةٍ مطوية باستخدام زوجٍ من البَكرات الخشبيَّة من طرفَيْها. وعرَف القارئ مكانَه من النص باستخدام اليد (yad) الذي كان بمثابة المؤشِّر.



شكل (٩): تُشير الكتابة على كلا جانبي هذه الشَّذرة من ورق البردي، التي دوّن عليها مُصنفٌ لاتيني مجهول، وتعرف بـ (De bellis macedonis)، إلى أنها كانت يومًا ما صفحةً من مجلَّد على هيئة الكتاب (*codex*). مؤرخة بنحو عام ١٠٠م. المكتبة البريطانية-لندن.

ونظَر الرومان في بادئ الأمر إلى الرَّق على أنه مادة أقل شأنًا من ورق البردي، وهو حامل الكتابة الرئيس الذي حظِي بشعبيَّةٍ كبيرةٍ طيلة ثلاثة آلاف عام خلَت. وعدَّ الرومان الرَّق مادةً مناسبةً للاستخدام على هيئة الدَّفاتر، لا هيئة اللِّفافات النَّبيلة الصَّالحة للكتبِ دون غيرها. وعلى الرغم من أن الرَّق كان أغلى من ورق البردي؛ إذ كان ينبغي ذبحُ حيوانٍ لصُنعِه، فإنه تميَّز على ورق البردي بأنه كان يسَع الناس صُنعه في أي مكان وُجدت الحيوانات فيه، أي بعبارة أخرى؛ صُنِع الرَّق في كل مكانٍ تقريبًا. كما امتاز الرَّق بمَنْقَبةٍ أخرى؛ إذ لم يكن ليَتشظَّى أو ينشَطِر عند طيِّه كما كان يفعل ورق البردي الهش، وجعلته مزية قابليَّته للطيِّ على هيئة الكتاب (*Codex*)، وهو الاصطلاح الذي كان يُطلق في السَّابق على الألواح الخشبية -كما ذكرنا آنفًا- أكثر شيوعًا.

وعادةً ما يربط الباحثون تزايدَ شعبية الكتاب (*Codex*)، على حسابِ اللِّفافة (*Roll*) في العصور القديمة المُتأخرة بانتشار الرَّق وشُيوع استخدامه. ولكن من قَبيل المحتملِ أن يكون كلا التطورين قد حدثًا على نحوٍ مُستقلٍّ.

الرَّق

الرَّق هو حاملٌ للكتابة، كان يُصنع من جلودِ الحيوانات التي كانت تُنقع ثم تُكشط، ثم تُترك لتجف. وكانت النتيجة لوحةٌ مشدودةٌ وصلبة إلا أنها تفتقر إلى المرونةِ نسبيًّا. واسم الرَّق باللاتينية (Pergamena)، ومنه اشتقت منه كلمة (Parchment) الإنجليزية المعاصرة. وتعود أصول هذه الكلمة إلى مدينة بيرغامون (Pergamon)، الواقعة غربي الأناضول، حيث اعتقد الرومان أنها صُنِعَت لأول مرة في القرن الثاني قبل الميلاد هناك، وذلك على الرغم من أن الرَّق كان معروفًا منذ فترة طويلة في الشَّرق الأوسط ومصر. وأشار فِيلُوم (Vellum) تحديدًا إلى «جلد العِجل المُعد للكتابة والرسم»؛ وغالبًا ما استُخدمت هذه الكلمة على نحو خاطئ عَلمًا على الرَّق، وهو المصطلح الأكثر شمولًا، والذي لا يُشير إلى نوع الحيوان -سواءً كان ماعزًا أو كبشًا أو غزالًا- الذي استُخدم جلده في صنع الرَّق.

وجاءت أجود الجلود لصُنع الرَّق من الحيواناتِ الصَّغيرةِ أو من جلود أجنَّتها. وكان لون شعر الحيوان ذا تأثير على لون الرَّق: وجاء الرَّق الأكثر بياضًا من الحيوانات ذات الشَّعرِ الأبيض، بينما نتجَ عن استخدام جلود الحيواناتِ ذات الشَّعر البُنِّي أو الأسود أو المرقش رَقٌّ داكن اللون. وكان جانب اللَّحم من لوح الرَّق أكثر بياضًا ونُعومةً من جانب الشَّعر، أما جانب الشَّعر فكان أغمق وأكثر خشونة عادةً، وغالبًا ما كان يحمل آثارًا مرقَّطةً من أثر بُصيلات شعر الحيوان.

وتبدأ العملية الشاقة لتحويلِ =

وعلـى أيّةِ حالٍ فقد تفوَّق الكتـابُ (*Codex*) على اللِّفافة بعددٍ مـن المزايـا. فإضافـةً إلى انخفـاضِ تكاليف الإنتـاج -وذاك لأن الكاتـبَ أضحـى بإمكانه استـخدام جانبي المـادة للكتابةِ، وليس جانبًا واحدًا فحسب- كان الكِتابُ أقدرَ على استيعابِ النُّصوص الطويلـة، كمـا كان يسـهل التَّعامـل مـع الكتـب واسـتخدامها وتخزينهـا. وغـدا وصـول القـارئ إلـى مَقطـع بعينِـه أسـهل فـي المخطوطاتِ التي كانت على هيئة الكتابِ مقارنةً باللِّفافة.

وشـرَع الرُّومان في اسـتخدام الرَّق المَطْوي على هيئةِ الكتاب منـذ القرن الأول الميلادي. وأشـار الشَّـاعر الروماني-الإسـباني مارتيـال (Martial) إلـى مخطوطـاتِ الجيـبِ الصَّغيـرةِ لقصائده المنسوخة على الرَّق، وعلى الرغم من أنه لم يذكر كلمة (*Codex*) قطُّ، فإنه، بلا أدنى شك، كان يعني نَسق الكتاب دون غيره.

والشَّـذرة الأولى التي وصَلتنا من الكتاباتِ المدوَّنةِ على هيئة الكتاب (*Codex*)، هو مُصنَّفٌ لاتينيٌّ لمؤلِّفٍ مجهول، مؤرَّخٌ بعام ١٠٠ ق.م، وهو مَصنوعٌ من ورق البردي (انظر: شـكل ٩). ومع ذلك، لم ترقَ الأوراقُ المطويَّةُ -سواء كانت من الرَّقِّ أو البردي- على هيئة «الكتاب»، إلى المكانة الرسمية للكتاب -وهي المكانة التـي تمتَّعـت بها لِفافات البردي دون غيرهـا- حتى القرن الثالث الميـلادي. ونـادرًا مـا ذُكِـرت المُصنَّفـات على نَسـقِ الكتابِ في الأدبِ اليونانـي قبل القرن الثَّالث الميلادي، ولكن بحلول القرنِ الرابـع الميـلادي يبـدو أنَّ المصنفـات التـي وُضِعَـت على نَسـقِ الكتب قد غَدت -في أعينِ النَّاسِ- على بِساطٍ واحدٍ مع لِفافات البردي.

وحـاول بعض العلماء تفسـيرَ سـيادة المخطوطـاتِ على هيئة الكتابِ المصنوع من الرَّق على اللِّفافة المصنوعة من ورق البردي، بربطِ تلك السـيادةِ بزيادة أعداد الدَّاخلين في النَّصرانيَّةِ آنذاك، ولا

الجلـد إلـى مـادة كتابـة بنقـع الجلـد في الجيـر والماء، وهـي عمليَّةٌ بطيئةٌ استغرقت نحو عشرة أيام في العصور القديمـة والقُرون الوسـطى. لكنهـا أضحَـت تسـيرُ علـى نحو أسـرع، لا سيما إذا استُخدمت المواد الكيميائية الحديثة.



«صانع الرَّق» من رسم جوست أمَّان *Jost Amman*. المصدر:

Hans Sachs, Eygentliche Beschreibung aller Stände auff Erden (1568).

كان الجلـدُ النَّاعـمُ يُوضَـع علـى سطح مائلٍ، ثم يعمل صانع الرَّق على إزالة الشَّـعر وآثـار اللحم باسـتخدام سكين. ثم يُغسل الجلد بالماء ويُشدُّ بإحكام على إطـارٍ خشبيٍّ ليجف ببـطء. ويعمـل التَّجفيف على إعادة تنظيم شـبكة ألياف الجلد ومواءمتها لمنحِهـا قوامًـا صلبًـا يُشـبه القشـرة. وكان السـطح يُكشَط أثناء التَّجفيفِ، باسـتخدام سـكِّينٍ ذي حـدٍّ مُنحـنٍ لإزالـةِ آثـار الشـعر الدَّقيقـةِ والصِّباغ والدُّهون واللحـم وكشـف السـطح الأملـس لطبقـة الكوريـوم. وكان =

سيما أن جميع النُّصوص النصرانيَّة المبكرة تقريبًا التي وصلتنا كانت على هيئة الكتاب. فعلى سبيلِ المثال، كانت جميع مخطوطات مكتبة نجع حمَّادي -وهي خَبيئةٌ من النُّصوصِ اليونانيَّة المُترجمة إلى اللغةِ القبطيةِ في القرن الرابع الميلادي، والمُكتشفة في مصر في عام ١٩٤٥- على هيئة الكُتبِ. وعلى هذا النَّحو افترضَ العُلماء أن مُعظمَ النَّصارى الأوائل كانوا ينتمون إلى الطَّبقات الدُّنيا من المجتمع، ومن ثم فإنهم مالوا إلى تفضيلِ الدَّفاتر المُتواضِعة على اللِّفافات النَّبيلة. وحاول الباحث البريطاني ك. هـ. روبرتس (C. H. Roberts) إثبات هذه الفرضية، وجادل -على نحو لا تُعوِزُه البراعة- في أن مُرقَص وضَع إنجيلَه في روما -في الأصل- على الرَّق على هيئة الكِتاب؛ ثم انتسَخه قبطُ مصر على هيئة الكتاب أيضًا، ولكن على ورق البردي، وهو الأمر الذي جعَل النَّصارى يُقبلون على تدوين النُّصوصِ على هيئة الكتب لاحقًا.



شكل (١٠): صفحةٌ من مخطوطةٍ من البردي على هيئة الكتاب (*codex*)، صُنعت فارغة، ثم دُوِّن فيها لاحقًا نصٌّ في قواعد اللغة اليونانية، ومعجم يوناني-لاتيني، والأبجدية اللاتينية. مؤرخة بنحو عام ٤٠٠م. تُنشَر بإذن كريم من أمناء مكتبة شيستر بيتي-دبلن [CBL Pap, Ac. 1499].

معدَّل جفاف الجلد ودرجة صقل السَّطح، إضافةً إلى نسبة الدُّهونِ أو الزيوت أو المواد الكيميائية المتبقية، عوامل تؤثر جميعًا على جودةِ المنتج النهائي. وبعد جفاف الرَّق، كان يسعُ صانعُ الرَّقِّ صقلَ السَّطح بالخفَّاف، مما يعطي سطحًا أملسَ، وكان بوسعه أيضًا تبييض لوحِ الرَّقِّ باستخدام الطباشير.

وعلى الرغم من أن الكاتبَ الروماني بليني (Pliny) ذكر أن الرَّق قد صُنع في القرن الثاني قبل الميلاد، إلا أنه من المعروف أن هذه المادة قد استُخدِمت في مصر في صناعة الطُّبول منذ عام ١٩٠٠ ق.م. أو نحو ذلك التاريخ، وكانَت مادة الكتابة المفضَّلة عند العبرانيين القدماء.

وفي حين لم يُصنع ورق البردي خارج مصر قطُّ، كان بوسع الناس صُنع الرَّق في أي مكان تقريبًا. وفوق ذاك، فإن الظروف المُثلى لحفظ الرَّق أكثر برودةً ورطوبةً من تلك المناسبة لحفظ أوراق البردي. لذلك كان الرَّق وسيطًا مناسبًا للاستخدام والحفظ في نطاق أوسع من المناخات مُقارنةً بأوراق البَردي، ومع ذلك فإن انخفاضَ مُستوياتِ الرطوبة يجعل الرَّق هشًّا، والمستويات العالية منها تجعله يتشعَّث أو يتجعَّد.

وتجدر الإشارة إلى أن النُّسخة الأصلية من إعلان الاستقلال، ودُستور الولايات المتحدة، ووثيقة الحقوق دُوِّنت على الرَّق، وحُفِظت في غاز الأرجون (argon) مع درجة رطوبةٍ نسبيَّةٍ تبلغ ٤٠٪، وهي نسبة أعلى بكثير من تلك المناسبة لحفظ الورق.

ومع ذلك سَرعان ما غير روبرتس رأيه، واقترَح مع ت. ك. سكيت (T. C. Skeat) أن أصولَ «الكتاب» تكمُن في تقاليد اليَهود التي اقتضت تسجيلَ الشَّريعة الشفهيَّة على الألواحِ المُقعَّرة أو على لِحاء الأشجارِ، على النَّقيض من تسجيلِهم للشَّريعة المكتوبةِ -أي التوراة- على اللِّفافات المصنوعة من الرَّق. ووفقًا لهذه الفرضية، فقد سجَّل النَّصارى الشرقيُّون أعمالَ المسيح وأقوالَه (أعني الأناجيل)، وهي تقاليدُ شفهيَّةٌ في التَّحليل الأخير، أُسوة بالتَّقليدِ اليهودي في تَسجيلِ الشريعةِ الشفهية. بيد أن هذه الفرضيَّة -بدورِها- أثارت قدرًا كبيرًا من الجدل والاعتراض في أوساطِ العُلماء والباحثين.

وجادل جيمس أُدونيل (James O'Donnell)، مؤخرًا، بأن النَّصرانيَّة، وهي «الدين الأسمى في العُصورِ القديمة المُتأخِّرة، قد استَخدمت الكلمةَ المكتوبةَ على نحوٍ هادفٍ لخلقِ نفسِها وتشكيلِ ذاتِها». وفي هذا السِّياق، كانت الكُتبُ الصَّغيرةُ التي يسهُل إخفاؤها وسيلةً مناسبةً لدينٍ حيويٍّ كان ما يزال يمرُّ بمرحلةٍ حرجةٍ. وأيًّا ما كان الأمر فقد أفسَحت الصَّفحات على نَسقِ الكتاب -على نحو مثير للإعجاب- المجالَ لطرقٍ جديدةٍ في القراءةِ والمُراجعة.

بيد أنَّ المُصنَّفات على هيئة الكُتب من العصورِ المسيحيَّة الباكرة التي وصلتنا نادرةٌ للغاية، وقد عُثِر على معظم الشَّذرات التي وصلتْنَا منها في مصر، والتي لم تعدُ كونها ولايةً واحدةً من ولايات الإمبراطورية الرُّومانية في التَّحليل الأخيرِ. وربَّما فسَّر مناخُ مصر الاستثنائي ذلك البقاء الاستثنائي -بدورِه- لتلك الكتابات هناك. ومن ثم فإنه ليس من سببٍ مُقنعٍ يدعو إلى إثارة كل هذا الجدلِ، إذ لا ينبغي تعميمُ الأدلة التي عُثِر عليها في مصرَ على الولايات الرُّومانية الأخرى كافةً، كما لا ينبغي لتلك الأدلة أن تشرحَ بالضرورة ما حدَث في غيرها من الولايات.

وكيفما كان الأمر، فبحلول مُنتصف القرن الرابع الميلادي أضحى نَسق «الكتاب» الشكل المقبول للمُصنَّف المدوَّن في جميع أنحاء الإمبراطورية النَّصرانيَّة، حتى إن الإمبراطور قسطنطين الثاني (Constantius II) أصدر أوامِرَه إلى الكُتَّابِ العامِلين في مكتبة بيرجامون (Pergamon) بنقل النصوصِ المُدوَّنةِ على لِفافات البردي، إلى الرَّق المطوي على هيئةِ الكتب. ودوَّن المصريون مصنَّفاتهم، في الفترة الممتدة بين القَرنين الثاني والرابع الميلاديَّين، على هيئة الكُتب، بيد أنهم واصلوا استخدام أوراق البردي،

وذلك على الرغم من أن تنسيقَ أوراقِ البردي على هيئة الكتاب كشف عن نُقطتين من أكبر نقاط ضعفِ ورق البردي: فقد تجعَّدت الأوراقُ من أثر الطيِّ المتكرِّر ومن ثم تضرَّرت بشدة، كما تآكلت حوافُ الأوراقِ. وعلى أية حالٍ فقد أُعِدَّت كُتبُ البردي على نَسق الكتاب، أوراقًا فارغة للاستخدام لاحقًا، ولا سيما إذا حكَّمنا مثالًا محفوظًا في مكتبة شستر بيتي (Chester Beatty) يعود تاريخه إلى نحو عام ٤٠٠م، صُنِع فارغًا، ثم دُوِّن عليه لاحقًا مصنفٌ تناول قواعد اللغة اليونانيَّة، ومعجم يوناني-لاتيني، وأخيرًا الأبجدية اللاتينية (انظر: شكل ١٠).

أما خارج مصر، فقد صُنِعت الكُتبُ من الرَّق. مثل «الكِتاب السِّينائي» (Codex *Sinaiticus*) وهو من أقدم المخطوطات التي وصلتنا من الكتابِ المقدَّس. وربما نُسِخ هذا الكتاب في قيصرية (Caesarea) من أرض فلسطين، في أواخر القرن الرابع الميلادي، و«الكتاب السَّكندري» (Codex *Alexandrinus*)، الذي نُسِخ في الإسكندرية في أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلاديين. فأمَّا «الكتاب السِّينائي»، فقد تضمَّن العهدَ الجديدَ كاملًا وجزءًا من العهدِ القديم، وضمَّ ما يقرب من ٨٠٠ لوحة من الرَّق قياسها ١٥×١٣بوصة (٣٧٠×٣٢٠مم)، وكُتِبَ النَّصُّ في أربعةِ أعمدةٍ، بلغت مسطرةُ كل عمودٍ نحو ٤٨ سطرًا في كل صفحة. فإذا افترضنا أن كلَّ فرخٍ من الرَّق قد يكون قد أنتَج ما بين صفحتَين إلى أربع صفحات، فإنه كان ينبغي ذبح بضع مئات من الحيوانات لكتابةِ نُسخةٍ واحدةٍ فحسب من الكتاب المقدس! وعلى أية حال فإن تفضيلَ الكاتبِ كتابة النَّص على هيئة أعمدةٍ ضيقةٍ جاء وفاءً للعُرف القديم بالكتابة على هيئة أعمدة (*Paginae*) على لِفافات البردي (انظر: شكل ١١).

واحتفَظت أوراقُ البردي بأهميتها حتى بعد فتح العرب لمصر في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وذلك على الرغم من أنَّ العرب تبنَّوا الممارسةَ اليهوديةَ والنصرانيَّةَ التي تقضي باستخدام الرَّق لنَسخ النصوص المقدَّسةِ، وعلى رأسها القُرآن -وحي الله إلى النبيِّ [ﷺ]- الذي كان يُنسَخُ دائمًا على هيئة كتابٍ من الرَّق. وأطلَق العربُ على البردي اسم «قِرْطاس»، وهي كلمة مُشتقةٌ من الكلمة اليونانية (*khartes*). كما أنهم استمرُّوا في تصديرِ البردي ليس إلى الدَّولة البيزنطيَّة وروما فحسب، بل إلى سائر ولايات الدولةِ العربية نفسِها، حيث استُخدِمت هناك -إلى جانب الرَّق- لحفظ سجلات الجزية ورِقاع دفع الخَراج وما أشبه ذلك.

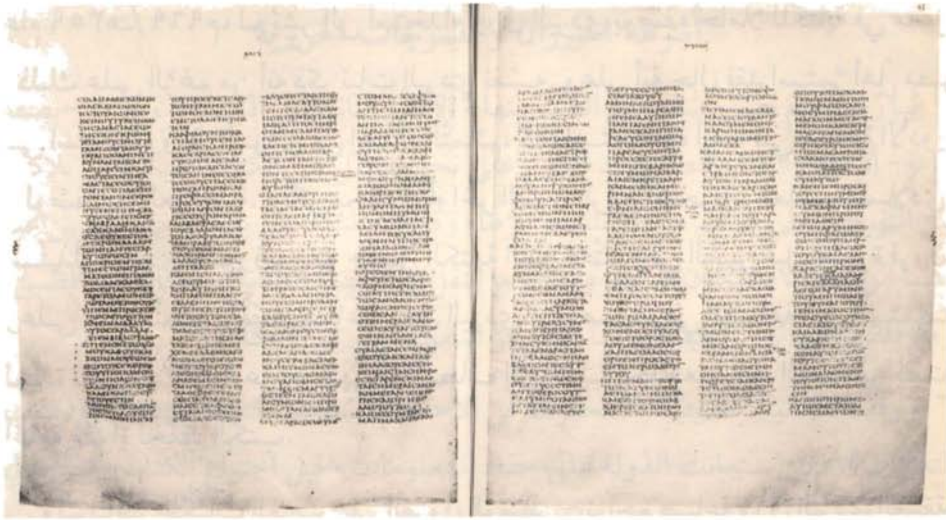
واكتشف الآثاريُّون بردياتٍ عربيَّةً في سورية وفلسطين أرَّخوها بالنِّصفِ الثَّاني من القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي. ونمَا نباتُ البردي على ضفافِ نهر الفُرات في العراق، وقيل: إنَّ الخليفةَ المُعتصِمَ أمَر بإنشاء مصنعٍ لإنتاج ورق البردي بالقُربِ من عاصمته سامراء في عام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م، واستَقدَم له بعض المصريِّين خصيصًا للعمل فيه، لكن إنتاجَ ذلك المصنع كان محدودًا على ما يبدو.

وأشار الجُغرافي الصِّقلي ابن حوقل في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إلى أن نبات البردي كان يكثُر في صقلية، بيد أنه استخدم هناك لصُنع حبالٍ لاستخدامِ البحَّارة على ظهورِ السُّفن، وكانت الكمية الضَّئيلة التي أُنتِجت من أوراق البردي في صقلية آنذاك، تُخصَّص لقاضي القُضاةِ من دون النَّاس كافةً.

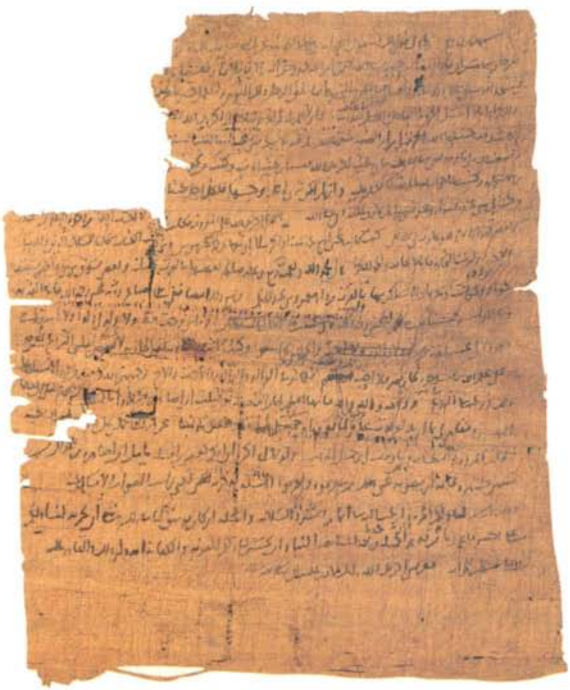
وظلَّت أوراق البردي حاملَ الكتابةِ الرَّئيس في مصر حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. والغالبية العُظمى من أوراق البردي العربية التي وصَلتنا هي شذراتٌ من لِفافات احتوت على وثائقَ رسميَّةٍ وتجاريةٍ، مثل: سجلَّات الجِزية والخَراج والحسابات، والأوامر، وعُقود الشِّراء والإيجار والإقرارات الشَّرعية وعُقود الزَّواج والرَّسائل الخاصة، ولكنَّ بعض البرديَّات التي احتوت نصوصًا أدبيَّةً وصَلتنا كذلك (انظر: شكل ١٢).

وكما اقتضَت المُمارسةُ السَّائدة منذ العصور القديمة، فقد كُتِبَت جميع الوثائق العربية على هيئة أعمدةٍ طويلةٍ، وعلى جانبٍ واحدٍ من جانبي لِفافة البردي؛ وفُرِدَت اللِّفافةُ عموديًّا عند القراءة. وكُتبت النُّصوص الأدبيَّة عادةً على هيئةِ الكتاب، تأسِّيًا بالتَّقليد القديم المُتأخِّر باستخدام هيئة الكتاب (*Codex*) لنَسخِ المُصنَّفات الأدبية. وثم مثالان معروفان على الأقل قد وصلانا: **قَصَص الأنبياء** لـ وهب بن مُنبِّه، وهي نُسخةٌ مُؤرَّخة بعام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م، و**صَحيفة عبد الله بن وهب** المُحدِّث المالكي، وضمَّت صَحيفتُه بعض الأحاديثِ النَّبوية، ونُسِخَت في إسنا، من أرض مصر، نحو عام ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م.

وذكر المؤرِّخ المسعودي -نحو عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م- أنَّ ورقَ البردي كان لم يزل يُصنَع بمصر في أيَّامِه. بيد أنَّ ابن حَوْقَل، الذي زار مصرَ بعد ذلك بسَنواتٍ، وتحديدًا في



شكل (١١): صفحاتٌ من الكتابِ «السّينائي» (Codex *Sinaiticus*)، كُتِبَ باليونانية على أوراق كبيرة من الرَّق، في أواخر القرن الرابع الميلادي، وتبلغ أبعاد كل صفحة ١٥,٢٥×١٣,٥ بوصة (٣٨,٨×٣٤,٤ سم). المكتبة البريطانية- لندن.



شكل (١٢): شذرةٌ من ورقةٍ برديةٍ مُدونٌ عليها حسابٌ ماليٌّ على جانب، وترجمةٌ لأحدِهم على الجانب الآخر. مصر، القرن الثالث الهجر/ التَّاسع الميلادي، مجموعة ناصر د. خليلي للفن الإسلامي، لندن [PPS 411].

عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، لم يُشِر إلى استخدامِ ورق البردي بوصفِه حاملًا للكتابة في مصر، وذلك على الرَّغم من أنه ذكَر نبات البردي نفسَه. وعلى أية حال فقد استمرَّ أهلُ مصرَ في استخدام ورق البردي في إعداد التَّمائم، كما استخدموه أيضًا في صناعةِ الأدوية والوصَفات العلاجيَّة. ولكن بحلول أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، استُبدِل البردي بالورق، وهو حاملُ الكتابةِ الذي اختُرع في الصِّين قبل عشَرة قرونٍ. وعلى هذا النَّحو توقَّفت صِناعة ورق البردي في مصرَ، وهي الصِّناعة التي استمرَّت لمدة ناهزت ٤٠٠٠ عام، وانتهى به المطاف إلى أن يُستخدَم من قِبل المُجلِّدين لصُنع أغلفةٍ مُقواةٍ لحفظِ الكتب.

ولم يناقش الكُتَّابُ العربُ -في القرون الوسطى- تراجع صناعة ورق البردي العَتيقة، والكيفيَّة التي اندثرت بها. وينبغي أن يكون الحرفيُّون المصريُّون الذين احترفوا صِناعة أوراق البَردي قد عرفوا منذ عدة قرون -وتحديدًا منذ أن بدأ الكتَّابُ يظهرونَ الميلَ إلى هيئةِ الكتابِ، وإلى الكتابةِ على الرَّق- أن عهدَ احتكارِهم الطَّويل لحاملِ الكتابةِ الرئيسِ في منطقة حوض البحر المتوسِّطِ قد ولَّى وأضحى جزءًا من الماضي. وعلى الرغم من أن الرَّق تمتع بميزةٍ كبيرة على ورق البردي، حيث كان يمكن صُنعه في كل مكان تقريبًا، إلا أنَّ الورقَ تفوَّق عليهما معًا بعدة مزايا، فقد كان يَسعُ الناس إنتاجه في كل مكانٍ، وبثمنٍ بخسٍ، وبكمياتٍ تجاريةٍ.

ولا شك في أن المسؤولين البيزنطيِّين شعروا بالارتياح؛ لكونهم استطاعوا الحفاظَ على وارداتِهم من أوراقِ البردي المصرية بعد فتح العرب لمصر، كما لا بد أن صُنَّاع البردي المصريِّين قد شعروا بالارتياح أيضًا لاستمرار الطَّلبِ الخارجي على صادراتِهم من ورق البردي. بيد أن الاستخدام المُتنامي للورق من قِبَل الدَّواوينِ المزدهرةِ في العراق أدَّى -بكلِّ تأكيدٍ- إلى انخفاضِ الطَّلب على أوراق البَردي المصرية بحلول أوائلِ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وأخيرًا أُهمِلت زراعةُ البَردي في مصر لصالِح بعض المحاصيلِ النَّقديَّةِ الأخرى، مثل: قَصبِ السُّكَّر أو الكتَّان. وعلى هذا النَّحو أُغلق المصنعُ الأمُّ في مصر في التطورِ الأخير. بل وشرَع المصريون أنفسُهم في صناعةِ الورقِ.

أشرطة الخيزران والمنسوجات الحريرية

يُؤرِّخ أقدمُ نصٍّ وصَلنا من الصِّين بنهاية الألفية الثانية قبل الميلاد. ويُعتقد -بصفةٍ عامةٍ- أن نظامَ الكتابةَ الصينيِّ قد اختُرِع على نحو مُستقلٍّ عن الكتابةِ المبكرةِ في بلاد ما بين النَّهرين، على الرغم من أن انتشار الرُّعاء وقُطعان الشَّاء من بلاد ما بين النَّهرين عبر آسيا الوسطى، قد يكون قد وفَّر وسيلةً ما انتقل بها مفهومُ الكتابةِ من هناك إلى الصِّين، وفقًا للقولِ المأثورِ: «حيثما مرَّتِ الشَّاء مَرَّ النَّاسُ، ومن ثَمَّ الأفكارُ».

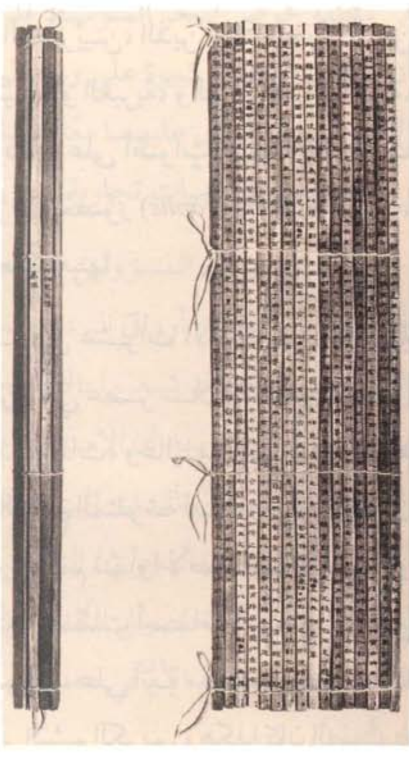
ووفقًا للتَّقاليد الصينيَّة، المحفوظة في **الأحكام** المُلحقة بكتاب (I Ching) (كتاب التغيُّرات)، فقد استعانت الدَّولة على حفظِ المعلومات -قبل اختراع الكتابة- «بالحبالِ المعقودةِ»، ويحتملُ أن هذا النصَّ يُشير إلى وسيلةٍ ما للحفظِ يُشبه وسيلة الكويبو (*qui-pu*)، المستخدمة عند الإنكا (Incas) ولا سيَّما في أوساطِ القبائل البيرو-إسبانية (pre-Hispanic) في بيرو.

ولم يكُن تطور الكتابة في الصِّين -كما هو الحال في مصر- مُتَّصلًا بالوسيطِ الذي دُونت عليه، بل على النَّقيض من السُّومريِّين والمصريِّين، الذين استخدموا كلًّا من التَّصاوير والعلامات الدَّالة على المقاطع الصوتيَّة، أو العبرية، واليونانية، واللَّاتينية، والعَربية، وهي اللغات التي استخدَمت الأبجديةَ دلالةً على أصواتٍ بعينِها، فقد عبَّرت الكتابةُ الصينيَّةُ القديمةُ عن الكلمات باستخدام الرَّمز المُصوَّر (*Pictographs*) فحسب، أي إن حرفًا واحدًا في الصِّينية كان يقابل كلمةً واحدةً بعينها.

وتتمثَّل أقدم الكتاباتِ الصِّينية التي وصَلتنا في عشرات الآلاف من الأسئلةِ والاستفساراتِ الموجَّهة إلى الكُهَّان والمُتنبِّئين، في عصر سلالة شانج (Shang) (١٦٠٠-١٠٥٠ ق.م)، نُقِشت على عظام أكتافِ الحيوانات، وغالبًا ما كانت هذه العِظام للثيران وأصداف السَّلاحف. وعرَّض الكُهَّان هذه العظامَ المنقوشةَ للنَّارِ، وقرأوا الشُّقوق الناتجة عن الحرارةِ في العِظام أو الأصدافِ، ومن ثم تنبَّأوا لأصحابها بالغيبِ، أو أجابوهم عن سُؤلهم. كما عُثِر على نقوشٍ أخرى، تضمَّنت أسماءَ الأسلاف وبعض الأدعيةِ للحماية، والأُمنيات بالبركاتِ وبالعُمر المديدِ، على آنيةٍ مصنوعةٍ من البرونز، وكذلك على الأحجارِ والتُّحف المصنوعة من حجرِ اليَشم الكريم. وهكذا كان الصينيُّون

يأملون في ضمان حصولِ أحفادهم على النِّعم، من خلال نقشِ هذه الكتاباتِ على موادَّ صلبةٍ غير قابلةٍ للتحلُّلِ أو الفناء.

وكان من الممكن أن تُرسَم الصور-الكلمات (*Pictograms*) على الهيكلِ الذي نُقِشت عليه النُّبوءة باستخدام فُرشاةٍ قبل أن يُنحت النَّقشُ. وقد عثر الآثاريون بالفعل على أحرفٍ مرسومةٍ على الأواني الفخارية التي اكتشفوها في المواقع الأثرية في شانج (Shang). وتُشير هذه الشَّذرات إلى تقليدٍ صينيٍّ موازٍ -وإن كان قد اندثر الآن- يتمثَّل في الكتابةِ بالفُرشاة والمداد على الأسطُح المُستوية. وأقربُ دليلٍ أدبيٍّ مَوثوقٍ على مثلِ هذه الكتابات مُؤرخٌ بأواخر القرن السَّادس أو أوائل القرن الخامس قبل الميلاد، عندما كانت الكُتب تُكتَب بالمداد على أشرطةٍ نحيفةٍ من الخيزران أو الخشب، أو على أطوالٍ من الحريرِ المنسوجِ. ومع ذلك، فإن أفضلَ الأمثلةِ وأكثرها اكتمالًا مما وصلنا، يعودُ إلى القرونِ الثَّلاثة الميلادية الأولى.



شكل (١٣): ألواح من الخيزُران منقوشة بالمداد بجزء من كتاب الطقوس، اكتشفت في ووي (*Wuwei*)، بولاية جانسو (*Gansu*). مؤرخة في الفترة بين عامي ٢٥ ق.م-٢٢٠م. قياسها ٢١× ½ بوصة (٥٤×١سم). المصدر: Wu-wei Han chien (1964), fig. 1058.

وقد اكتُشِف ما يقرُب من أربعين ألف لوحِ من الخيزُران والخشب القديم منذ القرن التَّاسع عشر. وقد امتازت هذه الألواح بالطول مع عرض محدودٍ (٢٠× ١½ بوصة: ٥٠×١-٢سم)، وغالبًا ما سمِّيت هذه الشَّرائط بـ الألواح، وهي تدينُ بشكلِها هذا إلى الخيزُران الذي صُنِعَت منه عادةً. وانتظَمت تلك الألواحُ ببعضها في سِلْك كتابٍ باستخدام الخيوطِ المُتداخلةِ المُتشابكةِ التي مرت من خلال الثُّقوب في تلك الألواح. بحيث بدَت الكُتب المُدوَّنة على هذا النَّسق كالستائر المصنوعة من الخَيزُران إلى حدٍّ ما (انظر: شكل ١٣). ونُقِش كل لوحِ رأسيًّا بنحو ثلاثين حرفًا، على الرَّغم من أن بعض الألواح احتوَت على ما يصلُ إلى ثمانين حرفًا. لقد حدَّد الوسيط شكلَ الخطِّ؛ وذاك أن استخدام هذه الشَّرائط الطَّويلة ذات العرضِ المحدودِ ربما أدى إلى التنظيم المميَّزِ للنصِّ الصِّيني على هيئة الأعمدة الرأسية، وهي سمةٌ ميَّزت الكتابة الصينيَّة حتى يوم الناس هذا.

ووفَّرت قطعةٌ منسوجةٌ من الحرير، نُسجت في أواخر الألفِ الرابعة قبل الميلاد، سطحًا مِضيافًا للكتابة، بيد أن الحرير كان مادةً أغلى ثمنًا من ألواحِ الخيزُران أو الخشب؛



شكل (١٤): خريطة من الحرير اكتشفت في ماوانجدوي (Mawang-dui). القرن الثاني قبل الميلاد، مُكونة من ٢٨ قطعة. كان الحجم الكلي في الأصل ٣٩×٣١ بوصة (٩٨×٧٨سم).

ذاك أن إنتاجَه كان عمليةً شاقةً للغاية، فكان لا بدَّ من غلي شرانِق دودة القز، ثم العمل على تفكيكِ خيوطِها وتجميعها معًا على هيئة غزلٍ، ثم نسج القماش من تلك الخيوط في الأخير. ومن ثم، استُخدِم الحريرُ حينما لم يكُن استخدام الخيزُران أو الخشب مُناسبًا للكتابةِ في أغراضٍ بعينها، مثل: نسخ المُبيَّضات من الكتب التي تطلَّبت سطحًا أكثر اتِّساعًا، والمُنمنمات المرسومة في الكتبِ المدونةِ على الألواح، وكذلك لرسم الخرائط، أو للمشروعات الكبرى التي لم تكن تكلفةُ المواد التي دُوِّنت عليها أمرًا يشغلُ بالَ أصحاب تلك المشروعات.

وثَم ثلاثُ خرائط من الحرير مؤرخةٌ جميعًا بالقرن الثاني قبل الميلاد، عُثِر عليها مؤخرًا في مقابر ماوانجدوي (Mawangdui) (انظر: شكل ١٤). كما استُخدم الحريرُ لأشكالٍ أُخرى من الكتابةِ، مثل نسخ نبوءات العرَّافين والمُنجِّمين، وتسجيل أقوالِ الملوكِ المأثورة للأجيالِ التَّالية، وإحياء إنجازات رجال الدَّولة والأبطال من القادة العسكريِّين، وكتابة الرسائل قُربانًا لأرواحِ الأسلاف. ولكن، وكما ذكر فان يه (Fan Yeh)، صاحب كتاب «تاريخ آل هان في عصرهم المتأخر» (*History of the Later Han Dynasty*)، في منتصف القرن الخامس الميلادي: «كان الحريرُ مَغْرمًا، وكان الخيزرانُ ثقيلًا»، ومن ثم ودَّ أهل الصين لو استخدموا مادةً خفيفةً للكتابةِ، وأقل تكلفةً، فلمَّا اخترعوها أطلقوا عليها «زهي» (Zhi) -أي الورق- لتكون حاملًا للكتابة.

اختراع الورق

احتَفت رواية كاي لون (Cai Lun)، أو الماركيز كاي (Marquis Cai) -وهو خصيٌّ خدَم في البلاط الإمبراطوري في عهد الإمبراطور هيدي (Hedi)- باختراع الورق في أواخر القرن الأول قبل الميلاد؛ إذ طبقًا لروايةٍ تداولها الناس بعد نحو ٣٥٠ عامًا لاحقًا، فقد صنَع كاي لون الورقَ (Zhi) من لِحاء الأشجار ومُخلَّفات القُنَّب وخِرق القماش وشِباك الصَّيدِ القديمةِ، ثم استخدمها للكتابة. وأشاد الإمبراطور باختراع لون، وأطلق عليه أهل الصين اسم «ورق كاي لون» (zhi of Cai Lun). إلَّا أن الأدلَّةَ الأثريةَ، فضلًا عن تلك المُستقاة من المصادرِ الأدبيةِ، تُشيران معًا إلى أنَّ الورق كان معروفًا منذ عدة قرونٍ سبقَت التَّاريخَ المفترضَ لرواية كاي لون، ومن ثم فإن تلك الرِّواية ما هي إلا حديث خرافةٍ طريفٍ، وضِعَ بعد فترةٍ طويلةٍ من ظهورِ الورق، وذلك من باب تقريبِ عمليةٍ طويلةٍ وغامضةِ الأصولِ للأذهان.

وعـرَّف معجـمٌ صِينـيٌّ صُنِّف قريبًا في العصـر الذي عاش فيه كاي لون مادة زهي (Zhi) على أنها: «حصيرةٌ مصنوعةٌ من أليافِ النُّفايات» (xu yi zhan ye). وتُشـير الكلمة الصينية (xu) إلى بقايا ليفيَّةٍ كانت تُستخلص من الخِرق، أو من غلي شـرانق دودة القز. أمـا كلمـة (zhan) فتُشـير إلـى حَصيـرةٍ كانـت تُصنَـع مـن أليـافٍ منسـوجةٍ، وتُستخدم لتغطيـة الأشـياء، حيـث إن عمليـات إعادة تدويـر خِـرق الحريـر والأليـاف القديمـة فـي الملابـس المُبطَّنة، إضافةً إلى عمليات غسـل القُنَّب والكتَّان كانت عملياتٍ معروفةً فـي الصِّيـن منذ وقت مبكر مـن القرن السَّـادس أو ربما الخامس قبل الميلاد.

وربمـا اتَّفق أن وضع شـخصٌ ما أليافَ النُّفايـات الرطبة على حصيرةٍ ثم جفَّت، فأوحى له هذا بفكرة تشكيل تلك الألياف على هيئـة ورقـةٍ رقيقةٍ، وذلـك على الرغم مـن أن أقـدم الأوراق التي وصَلتنا لـم تكن مصنوعة من خِرق الحرير، بل كانت مصنوعة من أليـاف القُنَّـب. ولمَّا لم تكن لأليـاف الحرير الخـواص الفيزيائية والكيميائيـة التي تتسـم بها ألياف السُّـليلوز الضَّرورية في صناعة الـورق، فإن الورق الحقيقي لا يمكن أن يكون قد صُنِع من خِرق الحرير قط، على الرغم من أن الحَرف الصِّيني الذي يصور كلمة (zhi) أي الورق يحمل جذر كلمة «الحرير» على يساره.

واكتشف علماء الآثار عيِّناتٍ من الورق المبكِّر للغاية في عددٍ كبيرٍ من المواقع القاحلةِ الواقعة غربي الصين في القرن الماضي. وأثـار التَّحليـل الفنِّـي لهـا إضافـةً إلـى التواريـخ المقترحـة لهذه العينات جدلًا كبيرًا بين العلماء. وعلى الرَّغم من ذلك لم يجادل أحدٌ من أولئك العلماء في ريادة الصينِ في صناعة الورق، واتَّفق أكثرهم على أن الورق قد اختُرِع في القرن الثاني قبل الميلاد، أي قبل قرنين، إن لم يكن ثلاثة قرون من مولِد كاي لون.

اللُّبود

يسـتدعي التَّنظيـم العشـوائي لأليـاف السُّـليلوز المُتشـابكة الـذي يميـز الـورق المقارنـة باللُّبَّـاد، وهو نسـيجٌ مصنـوع مـن أليـاف الصُّـوف المتشـابكة، فيزيائيًّـا عـن طريـق الاحتـكاكِ والضَّغـط والرطوبـة والحـرارة. ومع ذلك، ترتبـط أليافُ الصـوف فـي اللُّبَّـاد بروابـط فيزيائية فحسـب، وليـس بروابـط كيميائيـة كتلك التي تتميَّزُ بها ألياف الورق.

ويعـدُّ التَّلبيـدُ مـن أقـدم طـرقِ صناعة النَّسيج، ويعود تاريخ معرفة البشـر بصناعة اللُّبود إلى عصورٍ ما قبـل التاريخ، ولا سـيما عند سـكان شـمال آسـيا ووسـطها. وعُثِـر علـى أقـدم أنـواع اللبـود التـي وصلتنا في تلَّـةِ دفـنٍ مُتجمِّـدةٍ بفعـل الجليد في بازيريك (Pazyryk)، في سـيبيريا (Si-beria)، والتي يرجـع تاريخها تقليديًّا إلـى القـرن الخامـس قبـل الميـلاد. وتُشير صناعته الجيدة إلى أن تقنياتِ التَّلبيـد كانـت معروفـةً فـي وسـط وشرق آسيا قبل ذلك التاريخ بوقتٍ طويلٍ.

وعلى الرغم من أن تقنياتِ صناعة الورقِ والتَّلبيد متشابهتان إلى حدٍّ ما، كما توصل إليهما سـكان شـرق آسيا علـى نحـو موثـوق، فليس ثم سـبب يدعـو للاعتقـاد بـأن صناعـةَ الـورق أُخِذَت من تقاليد صِناعة اللُّبود. فمن الوجهـة التاريخية تمايـزت التِّقنيتان علـى الرغـم مـن أوجـه الشـبه =

وربمـا كانت أقدم عيِّنةٍ مُكتشـفةٍ من الورق -حتى يومنا هذا- ورقـة خشـنة مصنوعة من القنَّـب عُثِرَ عليها في إيجيـن بانر (Ejin Banner) فـي منغوليـا الدَّاخلـة، وهـي مؤرخةٌ بحقبة هـان الغربية (٢٠٦ ق.م: ٩م)، وتميَّزت بسـطحٍ خَشـنٍ للغاية، لا يتناسـب مع غرضِ الكتابة عليها. أما العيِّنات التي اكتُشفت في باقياو (Baqiao) -أو جسـر بـا (Ba Bridge) كمـا تدعى أحيانًا- في ولاية شانشـي (Shaanxi) الصينيَّة في عام ١٩٥٧، ومن ضمنها شذرةٌ من الورق يبلغ قياسُـها نحو ٤ بوصات مربعة (١٠ سم٢)، صُنِعت من القنَّب المزروع (Cannabis sativa) ومؤرخةٌ بعهد الحاكم ودي (Wudi) فـي أواخر حقبة هان الغربيـة (١٤١-٨٧ ق.م)، وقيل: إنها ورقةٌ صفراءُ فاتحٌ لونُها، وسميكةٌ وغير مستويةٌ، وخشنةٌ ورديئةُ الصُّنع بحيث ظهَرت بقايا النَّسيج -ومصدره بلا شكٍّ الرَّاقود الذي أُخِذ ذلك اللُّب منه- واضحةً على سـطحها. وكشَفت إحدى العيِّنات عـن بعض الحلقات المجهرية من الأليـاف، بينما احتوت أخرى على بقايا صغيرةٍ من حبلٍ دقيقٍ من طبقتيْنِ مصنوع من القُنَّب، ما يُشير إلى أن تلك الورقة قد صُنِعَت من أليافٍ أُعيد تدويرها.

كما عثَر أعضاءُ البعثةِ الشماليةِ الغربيةِ للصِّين في عام ١٩٣٤، علـى شَـذرةٍ أخـرى، قياسـها ٤×٥,١بوصـة (١٠×٤سـم)، فـي أنقـاض بُرجٍ للمراقبة في منطقة لوبنور (Lopnor)، في شـينجيانج (Xinjiang)، وأُرِّخَت تلك الشَّـذرة، استنادًا للأدلَّـةِ الظَّرفية بنحو عام ٤٩ ق.م. واكتُشِـفَت شـذراتٌ أُخر من الورق، ومعها أدوات استخدمت للصَّقـل (الصَّنفـرة) إلـى جانـب بعـض العُمـلات المعدنيـة العائـدة إلى عهـد إمبراطور هـان شـواندي (Xuandi)، الـذي حكَم في القـرن الأول قبل الميلاد، فـي قبوٍ تحت الأرض اكتُشِـفَ فـي منطقـة شـونجيان (Zhongyan) بولايـة شانشـي (Shaanxi) فـي عـام ١٩٧٨. وليـس ثَـمَّ ورقـة مـن هـذه الأوراق

بينهما. كما عاش البدو الرُّحَّل الذين صنَعوا اللُّبودَ في آسيا الوسطى بعيدًا عـن سـكان القـرى الذيـن صنَعـوا الـورق. ومـع ذلك فليـس هناك كبير فـرق بيـن صناعـة اللبـود وصناعـة الـورق فـي الصناعـاتِ المتطـورة الحديثة، ولا سـيما في مجالِ صناعة الأقمشـة غيـر المنسـوجة، مـن جهة الأليـاف الاصطناعيـة والروابـط الكيميائيـة، وكذلـك غمـر الأليـاف في الماء قبـل تجميعها على شاشـةٍ تمهيـدًا لتجفيفهـا، بحيـث يغدو من الصعب تصنيفُ مادة معينة على أنها ورقٌ يشبه اللُّبَّاد، أو لُبَّاد يُشبه الورق.

جميعًا كانت تصلح للكتابة عليها، ومن غير المحتمل أن واحدةً منها صُنِعَت في تلك المناطق النائية حيث اكتُشفت، بل ينبغي أن تُرد أصول صناعة الورق إلى المناطق الأكثر اعتدالًا، بل إن شئنا الدقة، قُلنا: المناطق المداريَّة الواقعة جنوبي الصِّين تحديدًا، ولا سيَّما جنوبي شرق الصين.

أمَّا الأدلَّة المُستقاة من المصادر الأدبية فتؤكِّد على المنافع التي صُنِع الورق من أجلها في طورِه المبكر. فثَم روايةٌ صينيةٌ وُضِعت نحو عام ٩٣ ق.م وتسجِّل أول استخدام موثَّقٍ للمناديل الورقية، حيث نصَح أحدُ حرسِ الإمبراطور أميرًا بتغطية أنفه بقطعة من الورق (Zhi) . وهناك روايةٌ أخرى تشير إلى مُستحضرٍ سامٍّ كان ملفوفًا في مادة تدعى (Hi ti)، وهي الكلمة التي فسَّرها أحد الشُّراح من القرن الثاني الميلادي بأن المعنى المُراد هو قطعة من الورق (Zhi) الأحمر.

أضحى الورقُ مُستخدَمًا بالفعل لأغراضِ الكتابةِ بحلول القرن الأول الميلادي، أي قبل أن يخترعه كاي لون، كما يُفترَض. ما يشير إلى أن صنَّاع الورق اكتشفوا حيلةً للتغلب على أحد عيوبه القليلة، فإذا لم يُعالَج سطحُ الورقةِ بوسيلةٍ ما، فإنه يعمل كالنَّشَّافة فيمتص المداد الذي يمِيع على وجه الصَّفحة ويتشكَّل على هيئةِ بقعة، تطمسُ ما خطَّه القلمُ على سطْحِ الورقة. وتُشير عيِّنات من الورق، يعود تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي، إلى أن صنَّاع الورق عرفوا عددًا من تقنياتِ التَّغرية وطلاء الورق، مثل: طلاء السَّطح بالجصِّ، أو بالصَّمغ أو بالغِراء أو بالنَّشا، وقايةً من تميُّع المدادِ على هيئة بُقع.

ويذكُر التَّاريخ الرَّسمي الذي يغطي عهد الإمبراطور جوانجوو (Guangwu) -في مستهلِّ القرن الأول الميلادي- أن كاتبَ الميمنةِ كان مسؤولًا عن توفير الورقِ والفُرشاةِ والمدادِ. كما درَّس أحد العلماء طلابَه -نحو عام ٧٦م- نصوصًا من نُسَخٍ من المُصنفات القديمة المكتوبة على ألواح، نفترض أنها كانت من الخشب أو الخيزران، فضلًا عن الورق (zhi). ومن ثَمَّ فلابد أن الورق كان مادة شائعةً بين النَّاس إلى حدٍّ ما آنئذٍ.

وتؤيد الاكتشافاتُ الأثريَّةُ التي أُجرِيت غربي الصين هذه الروايات. ففي عام ١٩٤٢ على سبيل المثال، وجَد الباحثون من أكاديمية سينيكا (Academia Sinica) شذراتٍ من ورقٍ سميكٍ خشنٍ منقوشٍ يحتوي على نحو ٢٤ رمزًا تحت أنقاض برجِ مراقبةٍ قديم



شكل (١٥): شذرةٌ من ورقٍ مصنوعٍ من القنَّب عليه آثار خارطة، اكتشفت في فانجماتان (*Fangmatan*)، بالقرب من تيانشوي (*Tianshui*)، بولاية جانسو (*Gansu*). نحو عام ١٥٠ ق.م.

بالقرب من جويان (Juyan) (كاراخوتو Karakhoto سابقًا)، في منغوليا الدَّاخلة. ونظرًا لأنَّ برج المراقبة هذا قد هُجِر من قِبل المُقاتلةِ الصينيِّين بين عامي ١٠٩-١١٠م، فقد أُرِّخت هذه الشَّذرات -استنادًا إلى أُسِسٍ تاريخية- بمُستهلِّ القرن الثاني الميلادي، ومَن يدري، فربما كانت أقدم من ذلك التاريخ المُفترض. وعلى هذا النَّحو عدَّها الدَّارسون أقدمَ عينةٍ من الورقِ الذي حمَل نصًّا مكتوبًا على الإطلاق.

كما عثَر الآثاريون على شذرتَين كبيرتَين من الورقِ في عام ١٩٧٤، أُرِّخَتا بعام ٥٢ق.م في برجِ مراقبةٍ آخر في جيان نفسها، فضلًا عن عشرين ألف لوحٍ خشبيٍّ منقوشٍ. وفي العام نفسه، عُثر على عددٍ كبيرٍ من الأوراق المدونة في قبر هان (Han) في هانتانبو (Hantanpo) بالقرب من ووي (Wuwei) في مقاطعة جانسو (Gansu) (انظر: شكل ١٥)، وهي مؤرخةٌ بقُبَيْل عام ٢٢٠م. وكلها مصنوعة من القُنَّبِ، وقيل: إنَّها أكثر رُقيًّا -من الوجهة الفنِّية- مقارنةً بعيِّنات الورقِ الأخرى التي عُثِر عليها، فقد امتازت بكونها بيضاء اللون، وأرق كثيرًا، وتتناسب تمامًا مع أغراضِ الكتابةِ عليها باستخدام الفُرشاةِ والمدادِ.

وفي عام ١٩٩١ عُثر على ورقةٍ مؤرخةٍ بعهد الإمبراطور هان تسيواندي (Xuandi)، في القرن الأول قبل الميلاد، بين أنكسي (Anxi) ودونهوانج (Dunhuang)، في ولاية جانسو (Gansu). كما عُثِر على ورقتيْنِ سليمتيْنِ من الورقِ الأبيض المرِن والقَوي من السُّمْكِ نفسه التي تميَّزت به الأوراق التي عُثر عليها في مقابر هان الشَّرقية (Eastern Han tombs) في سهل فولونج (Fulong) قرب لانزهو (Lanzhou)، الواقعة أيضًا في ولاية جانسو.

وبوسعنا القول -استنادًا إلى هذه الأمثلة المبكرة من الورق- إن صنَّاع الورقِ الأوائلِ

شكَّلوا أفرُخَ الورقِ من خلال صبِّ اللُّب المصنوع من الخِرق ومخلَّفات القماش في قوالبَ قماشية عائمة في حوض الماء. ومع توسُّع نطاق استخدام الورق، أتقنوا صناعتَه، وصاروا أكثر كفاءةً، فطوَّروا من تقنيات صناعتِه وبحثوا عن مصادرَ جديدةٍ للألياف. وهكذا شرَع صُنَّاع الورق -في هذا العهد- في استخدام نوعٍ جديدٍ من القوالب، صنعوها من قطعتين وغمروها في وعاء اللبِّ؛ ومكَّنتهم تلك القوالب الجديدة من إزالةِ الورقةِ الرَّطبةِ من القالب بمجرَّد تشكُّلِها، وعمِل هذا الإجراء على تسريع وتيرةِ عملية إنتاج الورق إلى حدٍّ كبيرٍ؛ وذاك لأنهم استطاعوا استخدامَ القالب نفسه على الفور لصنع ورقةٍ أخرى بدلًا من انتظار الورقة المُتشكِّلة فيه حتى تجف.

كما بدأت مصانعُ الورقِ الصِّينية في التخلِّي عن الخِرق والنُّفايات بوصفها مصدرًا لصناعة الورق، واتجهت لصنع الورق من اللُّبِّ المأخوذِ مباشرةً من ألياف لِحاء نباتات مثل القُنَّب والجوت (Gorchorus capsularis)، والروطان (Galamus spp)، والخيزُران، أو من لِحاء شجرة البروسونتة الورقيَّة (Broussonetia papyrifer) أو شجرة التُّوت (Morus alba). كما استخدموا الألياف واللِّحاء إمَّا مفردةً، أو في خليطٍ من أنواعٍ مختلفةٍ منها. ويبدو لنا أن عملية اختيارِ نوع الألياف المناسبة وتقدير كمِّياتِها قد اختلفت من منطقةٍ إلى أخرى، وتوقَّف ذلك على المواردِ المتاحةِ محليًّا.

وانتُخِبَ الورقُ المصنوعُ من التُّوت للاستخدام في حفظِ السجلَّات العامة التي اكتُشِفَت في لوبنور (Lopnor)، خلال عهدي أسرتي وي (Wei) (٢٢٠-٢٦٥م) وجين (Jin) الغربية (٢٦٥-٣١٧م). كما استُخدم الورق المصنوع من الرُّوطان في عهد أسرة جين الغربية أيضًا، بحلول عصر السُّلالات الجنوبية والشمالية (٣١٧-٥٨١م). وعُرِفَ ورق الرُّوطان المُنتجُ في شانشي (Shanxi)، في ولاية جيجيانج (Zhejiang)، باسم ورق شان (Shan paper).

ونظرًا لأن القوالبَ كان ينبغي أن تكون ذات حجمٍ معقولٍ، فإن أفرخ الورق، عادة ما كانت تُلصق أوصالُها لتتخذ هيئة اللِّفافة المعدَّة للكتابة عليها، مثلُها في ذلك مثلُ أوراق البردي المصرية والحرير الصِّيني أيضًا. وبلغ متوسط عدد الأوراق -كلٌّ على حِدة- نحو عرض قدم وطول ٢ قدم (٣٠×٦٠سم)، ومن ثم كان ينبغي أن يكونَ القالب صغيرًا ومناسبًا لصنع ورقة بهذا الحجم. إلا أنَّ حجم القالب أخذ يزداد تدريجيًّا خلال الحقبة

ما بين القرنين السَّادس إلى العاشر الميلاديين. بيد أن اللِّفافةَ الطويلةَ النموذجيةَ كانت تُصنع من لصق أوصال ما بين ١٠ إلى نحو ٢٨ فرخًا من الورق. وعادةً ما كانت بداية اللِّفافة تغطى بصفائحَ سميكةٍ، تُشبه البروتوكول (*protocollon*) -الذي كان بمثابة الغلاف الواقي لِلفافات البردي المصرية- وعمِلت تلك الصَّفائح على وقاية اللِّفافةِ، كما دُوِّنت عليها مُحتويات اللِّفافة في الآنِ نفسه؛ ورُبِطَ طرفُ نهايةِ اللِّفافةِ ببكرةٍ من الخشب. وجاء هذا الشَّكل للِّفافةِ الصينيةِ متميزًا للغاية: إذ إنَّ لفافة البردي في عالم حوض البحر المتوسط لم تحتوِ على بكراتٍ خشبيَّةٍ قط، باستثناء لِفافة التَّوراة عند اليهود، التي تميزت بوجود بكرتَين، لا بكرةً واحدةً فحسب.

وعلى أية حالٍ، فقد أضحى تصنيع الورق في عصر سلالة تانج (Tang) (٦١٨-٩٠٧م)، صناعةً شديدةَ التخصُّصِ بحيث صُنِعَت الأوراق من أنواعٍ مختلفةٍ لخدمة أغراض مختلفةٍ أيضًا. واستُغِلَّت بعض الخصائص التي اتَّسم بها الورق؛ فالورق المصنوع من لِحاءِ أوراق شجرة التُّوت، على سبيل المثال، الذي كان ينمو في المناطق الجبلية في شمال الصِّين وجنوبها، كان ورقًا أبيضَ ثلجيًّا، ويزداد نُصوعُه إذا كانت الشُّجيرة مزروعةً في تربةٍ غنيةٍ، وصُنِعَت الورقةُ نفسها في المياه النقيَّة. وصُنعت ورقة «هارت هول النقيَّة» (Pure Heart Hall paper)، التي امتدحها الكُتَّابُ الصينيُّون المعاصرون بوصفها أفضلَ ورقةٍ كانت تُنتَج آنذاك، وأُعِدَّت على هيئة لِفافات بلغ طولها أكثر من ٥٠ قدمًا (١٧ مترًا). وكشفت الحفرياتُ الأثريَّةُ التي أُجريت في معبد الأنوارِ المباركةِ (Ruiguang si) في سوجو (Suzhou) عن مجموعةٍ من أوراقِ الكتابة الخضراء الرَّائعة التي يعود تاريخُ صناعتِها إلى القرنِ العاشر الميلادي، وربما صُنِعت من لِحاء التُّوت. وصقَل صُنَّاع الورق ورقَهم بطبقة من الشَّمعِ لإعطائه اللَّمسة النِّهائية البراقة، التي كانت شعبيَّةً ومُحبَّبةً عند الخطَّاطين.

واستُخدِم ورق الرُّوطان الأبيض لمراسيم مكتَب الحاجبِ الدَّاخلي في حكومة تانج (Tang)؛ كما استُخدِمت ورقة الرُّوطان الخضراء المُشرَّبة بالزُّرْقَة، لكتابةِ النُّصوصِ الأدبيَّة. وصُنع ورق البامبو لأول مرة خلال عهد أسرة تانج (Tang)، وكان الخطَّاط ورسَّام المناظر الطبيعية مي فو (Mi Fu) يستخدمه في تكوين طبقةٍ رقيقةٍ من المداد ليعطي شكلًا انطباعيًّا من خلال تكوين تأثيراتٍ انسيابية وضبابيَّةٍ في خلفيات لوحاته.

واستُخدِم الورقُ المَصنوعُ من الجوت لأول مرة في عام ٧١٥م في مرسومٍ إمبراطوريٍّ صدَر عن الإمبراطور شوانزونج (Xuanzong)؛ وهكذا أصبحت المراسيم الإمبراطورية تعرف باسم (jutes) نسبة إلى ورق الجوت. كما استُخدم خشب الصَّندل (*Santalum album*) في تصنيع الورق. أما عن الورقةِ المصنوعةِ من خليطٍ من نوعين من لِحاء ورقِ التُّوتِ والخيزُران، أو الخيزُران والقُنَّب، أو القُنَّب وورق التوت فكانت سلعًا رائجةً آنئذٍ. وتوفَّر الورقُ المصنوعُ من العُشب، في كل مكان في الصين، وأقبل العوام على استخدامه.

وسَرعان ما اكتشَف الصينيون أن الورقَ مادةٌ مناسبةٌ للاستخدام في أغراض أخرى غير التَّغليف والكتابة والرسم. فاستخدموا قُصاصات الورق في الاحتفالات، كما استخدموه في صناعةِ المواد المنزلية، والملابس، والقلانس، والطائرات الورقية التي يعتقد الصينيون أنها اختُرِعَت في الصين. فقد قيل إن القائد هانشين (HanXin) (المتوفَّى ١٩٦ ق.م) طيَّر طائرةً ورقيَّةً فوق قصرٍ كان يُحاصره ليتمكَّن من تحديد طول النَّفق الذي كان ينبغي على رجاله حفره تحت أسوار القصر كي يشنَّ هجومًا مباغتًا على المُتحصِّنين داخله. بيد أن التاريخ المبكر الذي تدَّعيه تلك الرِّواية قد لا يعدو كونه مجرد أمانٍ. وعلى أية حال فبحلول أوائل القرن السابع الميلادي، كانت الطَّائرات الورقية تُستَخدَم بالتأكيد في الإشارات العسكرية، والتنبؤ بالطَّقسِ. ثم ما لبث النُّبلاء أن استخدموها وسيلةً للهو والتَّسلية، بعد أن أضافوا إليها قِنديلًا.

واستُخْدِم ورقُ المراحيضِ في القرن السَّادس الميلادي، أو هكذا يمكننا أن نستنتج من روايةٍ للعالم المشهور يان زهيدوي (Yan Zhidui). فقبل وفاته بعامين، أمرَ آل بيتِه وأتباعه ألا يستخدموا الورق الذي دُوِّنت عليه فِقراتٌ من شروحاتِ «الكُتبِ الخمسة القديمة» أو أسماء الحُكماء لأغراضِ النظافةِ بعد قضاء الحاجة. ويُشير أمره إلى أن بعض أنواعِ الورق -على الأقل- كانت من الرُّخصِ بحيثُ استُخْدِمَت في هذا الغرض. ويؤكد رحَّالةٌ عربيٌّ زار الصِّين في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي رواية يان زهيدوي، حيث عبَّر ذلك الرحَّالة -وهو الذي اعتاد على الطَّهارة على ما تقتضيه شريعةُ الإسلام- عن اشمئزازِه من عادةِ أهل الصِّين في الاستنجاء قائلًا:

«ليس لهم [يعني أهلَ الصِّين] نظافةٌ، ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا، بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصِّينيَّة»[1].

وربَّما كان أهم استخدامٍ للورق في الصِّين آنذاك هو الطباعة، والنَّسخ بالمدادِ من الصُّور العكسية أو السَّلبية. فقد استُخدِمَت الأختامُ المنحوتةُ من البرونز والحجر، التي طُبِعَت على الصِّلصال والحرير، في الصين منذ آلاف السِّنين. وربما كانت عملية الطِّباعة بالمدادِ من النقوش الحجريَّة والبرونزية حافزًا آخر لتطوير الطباعة في الصِّين في القرن السابع الميلادي.

ويُعْتَقدُ أن أقدم مثالٍ للطباعةِ على الورق باستخدام القوالب الخشبية الصينية هو تميمةٌ صغيرةٌ على هيئةِ لِفافةٍ، مصنوعة من ورق التوت السَّميك، يبلغ طولها نحو ٢٠ قدمًا، وعرضها ٢ $\frac{1}{4}$ بوصة (٦م× ٦٠سم)، وقد طُبعت باستخدام ١٢ قالبًا من الخشب (انظر: شكل ١٦). وتحتوي على كتاب «سوترا» (sutra) البوذي باللغة الصِّينية. واكتُشِفت تلك اللِّفافة في معبد باجودا (pagoda) في بولجوك (Pulguk) على مقربة من كيونج جو (Kyo-ngju) في كوريا في عام ١٩٦٦. ويُشير عددٌ كبيرٌ من خصائصها إلى أن النصَّ الأصلي كُتِبَ بالسِّنسكريتيَّة، ثم تُرجِم إلى الصِّينية نحو عام ٧٠٤م؛ وذاك لأن أسلوب الخط يشبه الخط المكتوب في المخطوطات الصِّينية العائدة إلى تلك الفترة، كما يُعتقد أن هذه العيِّنة طُبِعت في الصين في عصر أسرة تانج (Tang) في أوائل القرن الثامن الميلادي، ثم حُمِلت إلى كوريا في تاريخ لم يتعدَّ عام ٧٥١م، عندما أُمِرَ بحفظِها في المعبد.

أما أقدم كتابٍ مَطبوعٍ في العالم فهو نسخةٌ ورقيَّةٌ مطبوعةٌ لترجمة صينية لكتاب (Di-amond Sutra) مُؤرَّخ بعام ٨٦٨م، وعُثِر عليه في دونهوانج (Dunhuang)، وهو مَوقعٌ بوذيٌّ رئيسٌ كان يقع على طريق الحرير (انظر: شكل ١٧). حيث لُصِقَت سبع ورقات من الورقِ الأبيض، كل منها بقياس ٥, ١٠×٣٠ بوصة (٦, ٢٦×٢, ٧٦سم) معًا لتُشكِّلَ لِفافةٍ بلغ طولها ٥, ١٧ قدم (٣٣, ٥ متر). وتحتوي اللِّفافةُ على واجهةٍ مطبوعةٍ باستخدام قالبٍ من الخشب إضافة إلى خاتمة (*Colophon*) تُفيد بأن «وانج جي» (Wang Jie) طبَع

(١) الإيماءةُ إلى رحلةِ سُليمان التَّاجر، والنصُّ أعلاه من رحلته المسمَّاة **عجائب الدنيا وقياس البلدان**، نشرةُ سيف شاهين المريخي، (العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٥) ص ٤٣. (المترجم)



شكل (١٦): تفاصيلُ لِفافةٍ صَغيرةٍ مطبوعة تعود إلى أوائل القرن الثامن اكتُشفت في باجودة (pagoda) في بيونغجو (Pyongju)، كوريا، في عام ١٩٦٦. ويوضح هذا القسم كيف لُصِقت اللّفافة من عدَّةِ أوراق. طولها ٢٥, ١٦×٥, ٢بوصة (٨, ٦×٤١سم). إدارة المُمتلكات الثقافيَّة الحكوميَّة الكورية.



شكل (١٧): واجهةُ كتابٍ مطبوع بالقالب، وبداية النص من (Diamond Sutra)، اكتُشِفَت في كهف الألف بوذا في دونهوانج (Dunhuang)، ٨٦٨ ق.م. المكتبة البريطانية-لندن.

هـذا الكتـاب مؤخرًا ليُـوزَّع على الناس؛ ترحُّمًـا على والديه، في الثَّالث عشـر من القَمر الرَّابع للسنة التَّاسعة من شيانتونج (Xiantong).

وثَـمَّ مصنفـاتٌ أخرى من عهد أسـرة تانـج (Tang) لاحقًا، اتَّخذت هيئـة لِفافة مطوية على نحوٍ مُنتظمٍ، وهو شكلٌ غالبًا ما يعرفه الدَّارسون باسم «هيئة الأكورديون» (Accor-dion style). وعلى الرغم من استخدام ذلك الشَّـكل لجانبٍ واحدٍ فحسـبُ من الألواحِ للكتابة، إلا أنه كان مناسبًا لتسجيل نُصوصٍ طويلةٍ، وظل هذا الشكلُ مُستخدمًا في شرق آسيا حتى يوم الناس هذا.

وربمـا ابتكَـر الصِّينيُّون نوعًا من المطابـع من ذوات الأحـرفِ المتحرِّكةِ في مُنتصف القرن الحادي عشر الميلادي، إلا أنَّهم لم يستخدموها على نطاقٍ واسعٍ، وظلَّت الطباعة باستخدام قوالب الخشب هي الأداة السَّائدة للطباعة التقليدية في الصِّين. وربما لم يكن هذا النوع من الطَّابعات عمليًّا بحيث يوفر الكثير من عناء العمل عند الطِّباعة باستخدامه؛ إذ تكوَّن الخطُّ الصِّينيُّ من آلاف الأشـكال (*Ideograms*)، ونظرًا لأن الحاجة مسَّـت إلى عِدَّة نُسَـخٍ، أو أشـكالٍ من الحرفِ الواحدِ (عشرين أو أكثر للأشـكال الشَّائعة في الكتابةِ الصينيـة)، فقـد كان الطبَّاعون بحاجةٍ إلى ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ شـكلٍ، وهو أمر غير قابلٍ للتَّطبيق عمليًّا.

ولـم يكـن العمل فـي صُنعِ عددٍ كبيرٍ من الأحرفِ الفردية أقـل إرهاقًا من نحتِ قَالبٍ كاملٍ من الخشب بأشكالٍ معكوسة، ومع ذلك ظلَّت الطباعة باستخدام القوالب الخشبية مشهورةً لقرون. ولما أضحت الطِّباعة أكثر انتشارًا في عهد أسرة سونج (Song) (٩٦٠-١٢٧٩م)، اشـتدَّ الطلـبُ علـى الـورق لطباعةِ مزيدٍ من الكتـبِ عليه، مـا أدَّى بدوره إلى إيجاد حافزٍ لتطويرِ صناعةِ الورق. وعلى هذا النحو ارتبط تاريخ الطِّباعة والورق بالصِّين وأوروبا إلى الأبد، وأُهمِل العالم الإسلامي بالكُلِّيةِ في هذا السِّياق، كما سنرى فيما بعد.

انتشار الورق

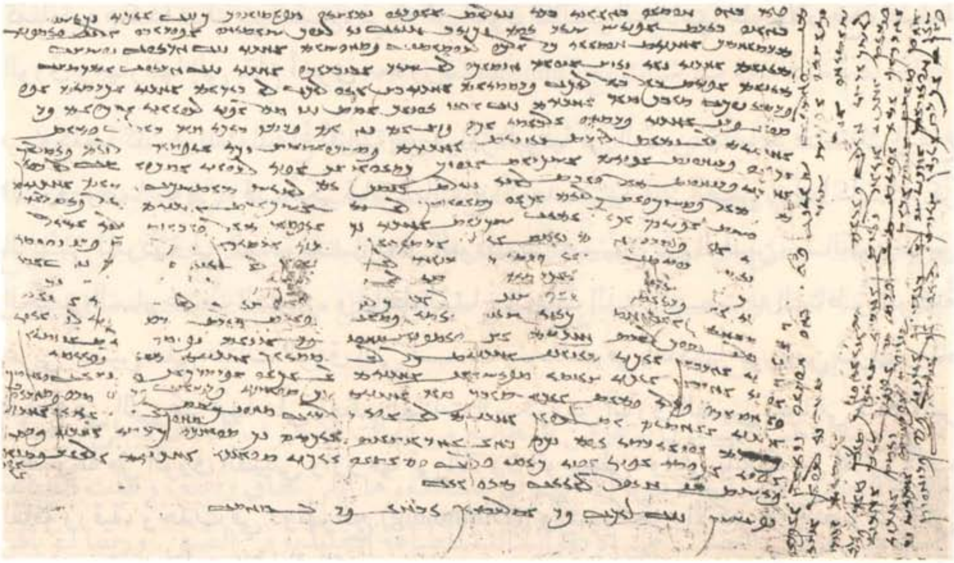
لعِبت الصينُ الدَّور الرئيس في انتشار البوذية في جميع أنحاء آسيا في الألف الأولى بعد الميلاد. وكان التَّبشير بالبوذيةِ هو الوسيلة التي انتشَر بها الورقُ أيضًا في جميع أنحاء آسيا، حيث سعَى جميع الطلاب الذين درَسوا الدِّيانةَ البوذيَّةَ إلى تعلُّمِ الحِرَف والصِّناعات الصينيَّـةِ التقليديَّـة مـن صُنْعِ الفُرُشِ والمداد والورق لنشـرِ تعاليم البوذيـة على نحوٍ أكثر

كفـاءة. وهكـذا صدَّرت الصِّين، في أوائل القرن الثَّالـث الميلادي على الأرجح، صناعة الورق ومهاراتِها إلى بقاعٍ أخرى مجاورةٍ.

وكلَّمـا كانـت تلك البقاعُ أقرب إلى مراكزِ البوذية في الصِّين، كلَّما عرفت تلك البقاع الـورق وصناعته في وقت أبكرَ قياسًـا بالبقاع الأبعد نسـبيًّا عـن الصِّين. ولما كان المركزُ الرئيـسُ للبوذيَّـة في الهند، فقـد ارتحل البوذيُّـون الصينيون بين البلدين، سـالكين طريقَ الحريـر المـار غـرب الصيـن. وحافظَ المُنـاخُ الجافُ الذي اتَّسـمت به المناطـقُ الواقعةُ غربي الصِّين على عيِّنات الورق التي فسَـدت وتحلَّلت في أماكن أُخَر. ومن ثم فإن هذه البقاع هي التي عُثِر فيها على مُعظم العيِّنات المبكرة من الورق الصيني، بما في ذلك أكبر مجموعة من الورق الصِّيني وأروعها في القرون الوسـطى، والتي تألَّفت من ثلاثين ألفَ لِفافةٍ ورقية، وُجدت في دونهوانج (Dunhuang). وكُتِب الجزء الأكبر من النُّصوص التي احتوت عليها باللُّغةِ الصِّينية، لكن بعضها كُتِب باللغة السَّنسكريتية والصُّغدية والفارسيَّة الوسـطى، والأويغورية، والتِّبْتِـيَّة، حيث أظهرت تلك الأوراق ذلك الارتباطَ الإقليمي القَوي في هذه الرَّقعةِ النَّائية من العالَم.

وصُنِعـت مُعظـم الأوراق التي عُثر عليها في دونهوانج (Dunhuang) من ألياف القُنَّب وأوراق التُّـوت، وصُنِـع عددٌ قليلٌ منها من ألياف شـجرتي الرَّامي والتُّوت. وعلى الرغم من أن المصادر الأدبية الصِّينية أشـارت إلى اسـتخدام الخيزُران، والرُّوطان آنذاك، فإننا لم نعثر على هذه المواد بين أوراق دونهوانج، ربما لأن هذين النَّباتَين لم ينموا في المناخ القـارس والجـافِّ الـذي تميز به الجناح الشَّـرقي من آسـيا الوسـطى. بيد أننا نسـتبعدُ أنْ تكون جميع أوراق دونهوانج قد صُنِعت محليًّا.

أمَّا عن الأوراق الأقدم تاريخًا في دونهوانج، ولا سـيَّما تلك التي صُنِعت في القرنين السَّـابع والثَّامـن الميلاديَّين، فهي رقيقةٌ بصفةٍ عامةٍ، وحتى السَّـميكة منها صُنِعت بإتقانٍ واضِـحٍ، ولا سـيما فـي المراحـلِ النِّهائيـة مـن صِناعتها، ولا بـأس بها من جهـة الحجمِ إطلاقًـا، كمـا كانت مَصبوغـةٌ باللَّونين الأصفـر أو البُنِّي. أما تلك التـي انتمَت إلى القرن العاشر الميلادي فهي ذات جودةٍ أقل، وغالبًا ما كانت خشنةً وباهتةَ اللون، وأسمك من أوراق (Tang) الأقـدم تاريخًا. وتعكِسُ هـذه التغيُّرات اضمحلالًا ألَمَّ بصناعةِ الورق في منطقـة دونهوانـج فحسـب، لا اضمحـلالًا فـي تقنيـاتِ صناعـةِ الـورق الصينيَّـة، والتي استمرَّت في التحسُّن آنذاك.



شكل (١٨): رسالةٌ مكتوبةٌ بالخط الصُّغدي على الورق في وقتٍ ما بين القرنين الرابع والسَّادس الميلاديين، اكتشفها السير مارك أوريل شتاين (Sir Marc Aurel Stein) بالقرب من دونهوانج (Dunhuang) . المكتبة البريطانية- لندن [Or. 8212/98, Plat, CLVII].

واكتشَف المُنقِّبان سفين هيدن (Sven Hedin) والسير مارك أورل شتاين (Sir Marc Aurel Stein) -في أوائل القرن العشرين- شذراتٍ من الورقِ مؤرخةٌ بالقرن الثَّالث الميلادي في منطقة لولان (Loulan) غربي الصِّين. وعثرت البعثات البُروسية واليابانيَّة على ورقٍ يعود إلى القرنين الرابع والخامس في منطقة توربان (Turpan) وجاوشانج (Gaochang). في هوتان (Hotan) (أو خوتان Khotan كما يُطلق عليها أحيانًا).

كما عثَر شتاين أيضًا على مخطوطاتٍ ورقيَّة كُتِبَت بالصينيَّة والتِّبْتِيَّة والسِّنْسِكريتيَّة، والخُوتانية القديمة، وهي جميعًا مؤرخةٌ بالقرن الثَّامن الميلادي. وعلى الرغم من أن بعض هذه الأوراق قد جُلِبت من أماكنَ أخرى في الصين، إلا أنَّ بعضها صُنِع محليًّا. ومن بين الوثائق التي عُثر عليها في توربان (Turpan) عام ١٩٧٢، ثَمَّ وثيقةٌ مؤرخةٌ بعام ٦٢٠م تحمل اسم (Zhishi)، أو صانع الورق. ووثيقة أخرى تذكر نبأ إرسالِ السُّجناء للعمل في مصانع الورق في مكانٍ لم تحدِّده تلك الوثيقة. ولا بد أن العملَ المرهقَ في ضربِ اللُّبِّ وترطيبه ورفع قوالبه من الأحواضِ كان عملًا شاقًّا مُضنيًا، وكان العاملون به عادةً ذوي مكانة اجتماعيَّة متدنيَّة، ومن ثَمَّ لا نستغربُ نبأ إجبار السُّجناء على العملِ في مصانع الورق.

اكتَشف شتاين أيضًا بعض الرَّسائل القديمة التي وُضِعَت في حقيبةٍ بريديةٍ، تحت أنقاض برج مراقبةٍ مدمَّرٍ كان يقع بين دونهوانج (Dunhuang) ولولان (Loulan) (انظر: شكل ١٨) كُتِبَت بالصُّغدية، وربما يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي على أقل تقديرٍ، أو إلى أواخر القرن السَّادس الميلادي، على الرَّغم من أن شتاين أرَّخها -مُتسرِّعًا- بالقرن الثَّاني الميلادي. ولكن أيًّا كان تاريخُها، فإنها تُشير إلى أنَّ التجار -فضلًا عن البوذيِّين الذين اجتازوا بطريقِ الحرير في جميع أنحاء الواحات الواقعة في مدن آسيا الوسطى- استخدموا الورقَ قبل انتشار الإسلامِ في المنطقةِ في أوائلِ القرن الثَّامن الميلادي. ووصَل التجارُ الصينيُّون، ومن ثم الورق، إلى أقصى الغرب، حيث اكتُشفت شذراتٌ من الورقِ العائدةِ إلى القرن الثامن الميلادي، وعليها كتاباتٌ صينيَّةٌ، تشتمل على رموزٍ للمُشتريات، في موقع «موشِشڤايا بالكا» (Moshchevaya Balka) في جبالِ القوقاز جنوبي روسيا.

وربما أدخل الصينيُّون الورقَ إلى كوريا في القرنِ الثَّالث الميلادي، إلا أنَّنا لم نعثر على عيناتٍ من الورقِ تعود إلى عصورٍ مبكرةٍ ثمة. ومن المعروف أن الجزءَ الشَّمالي من كوريا خضَع لحكمِ الصينيِّين منذ عام ١٠٨ ق.م، حتى عام ٢١٠م في أواخر عصرِ سُلالة هان (Han). وربما جلَب البوذيُّون الصينيُّون ورقةً دُوِّنَت عليها كتاباتٌ بوذيةٌ إلى كوريا خلال هذه السَّنوات. ولا نكادُ نقفُ على التاريخ الذي بدأ الكوريُّون فيه بتصنيع الورق بأنفسِهم على وجه التَّحديد؛ ولكنَّ الرَّاجح عندنا أن الرُّهبان والطلاب البوذيِّين الذين درَسوا في الصِّين، حمَلوا معهم صناعةَ الورق إلى كوريا، كما هو الحالُ في البقاع المحيطة بالصِّين كافةً.

واكتُشِفَت أقدمُ ورقة وصَلتنا من الورق الكوري -وهي ورقةٌ بيضاءُ مصقولةٌ، صُنِعت من ألياف القُنَّب- في موقع كوريٍّ شمالي يعود إلى عهد كوجوريو (Koguryo) (٣٧-٦٦٨م). ويظهر من خلالها أن صُنَّاع الورق الكوريِّين اتبعوا الأسلوبَ الصينيَّ في صناعة الورق حذو القُذَّة بالقُذَّة، وذلك باستخدام المواد الخام والأدوات والتِّقنيات نفسها. وكان الورق الكوري، المعروف باسم (Jilin zhi) أي «ورق مملكة سيلا»، يُشكِّلُ قسمًا من الجزيةِ التي فرضَتها الصِّين على تلك المملكة، ونالَ ذلك النَّوع من الورقِ إعجابَ الأدباءِ والفنَّانين الصِّينيِّين لصفاتِه، فكان ورقًا سميكًا وقويًّا، مائلًا إلى البياضِ، ومَصقولًا، وقدَّره الفنَّانون كثيرًا وفضَّلوا استعماله، ولا سيَّما في فنَّي الخطِّ والرَّسم.

ودخَـل الورقُ وصناعتُه إلـى اليابان عن طريقِ أهل كوريا، في النِّصف الثَّاني من القرنِ الرابع الميلادي. فقد قدَّم العالم الكوري وانـي (Wani)، الـذي كان مؤدِّبًا لولـي عهد الإمبراطـور الياباني، عـددًا من الكُتـبِ الصِّينيةِ، التي نفترضُ أنها كانت منسـوخةً على الورق، هديةً إلى البلاطِ الياباني. وخلال القرن السَّادس الميلادي واصَـل بعض ملوك كوريا إرسـالَ الكُتبِ إلى بلاط أباطرة اليابان -ونفتـرض أيضًـا أنها كانت منسـوخةً على الـورقِ- في عددٍ من المناسبات.

وفـي عام ٦١٠م سـافَر الراهبُ البُـوذيُّ الكـوريُّ «دامجينج» (Damjing) إلـى اليابـان، حيث عرَفه أهل اليابان باسـم «دونشـو» (Doncho). وكان دونشـو -مَثلُه فـي ذلـك مثَلُ جميـع الرُّهبـان البوذيِّيـن الذين تلقَّـوا تعليمَهم في الصِّين- قد تـدرَّب على صُنعِ الفُرَشِ والـورقِ والمدادِ. واتخذ اليابانيُّون من تاريخِ وصولِ هذا الرَّاهبِ إلى اليابانِ تاريخًا لبدايةِ صناعةِ الورق في اليابان. بيد أننا نعتقـدُ أن المُهاجريـن الكوريِّيـن إلـى اليابـان هـم الذيـن أدخلوا صناعـةَ الورقِ إلى اليابان بالفعل فـي وقتٍ ما من القرن الخامسِ الميـلادي. وكيفمـا كان الأمر، فقد طوَّر صُنَّاع الـورقِ اليابانيُّون، بمـرور الوقت، من تقنيـات صناعة الورق حتى أصبح يفوق ورقَ الصِّين جودةً.

ومـن قَبيل المحتملِ أيضًا أن تكـون صناعة الورق قد أُدْخِلَت إلى ڤيتنام، التي ارتبطَت بعلاقاتٍ سياسـيةٍ وثقافيَّةٍ وثيقةٍ بالصين، فـي وقـتٍ مبكـرٍ من القـرن الثالث الميـلادي، وفي الوقت نفسـه الـذي دخَلت فيه صناعة الورق إلى كوريا تقريبًا. ففي عام ٢٨٤م أرسـلت «مملكـة دا قيـن» (Da Qin) -ونفتـرض أنهـا هي نفسـها ڤيتنام الحالية- ٣٠ ألف لِفافةٍ من «ورقة شذى العسلِ» (mi xiang zhi) إلى الصِّين. وكان هذا النوعُ من الورق يصْنَعُ من لِحاء خشب

الورق الياباني

يستخدم صُنَّاع الـورقِ اليابانيون المُحدثـون تِقنيتيـن فـي صناعـةِ الـورق اليابانـي، تقنية تسـمى (tame-zuki) (الغمـر والتَّصريـف dip-and-drain)، وهـي تقنيـةٌ قديمـةٌ أُخِـذت مـن الصيـن، وتقنيـة (nagashizuki) (الغمـر والسَّـبك dip-and-cast)، والتي طوَّرها اليابانيون من تقنية (ta-mezuki) في القرن الثَّامن الميلادي، حتى أصبَحت -في التطور الأخير- التَّقنيـة الأكثر شيوعًا في صناعةِ الـورقِ اليابانـي. ووضَـع صنَّـاع الـورق اليابانيُّـون غطـاء القالـب، المصنـوع مـن شـرائطَ الخيـزران الرَّقيقـة المُثبَّتة بخيـوطِ الحريـر، بيـن إطاريـن خشـبيَّين مُستطيلين. وكان صُنَّـاع الـورق اليابانيـون -في تقنيـة الغمـر والتَّصريـف- يغمـرون القوالـبَ الخشـبية فـي وعـاء اللُّب، ومن ثم يسـمحون للماء بالتَّصريف، فـإذا تشـكَّلت الورقـة، تركوها حتى تجف. أما في تقنيةِ الغَمر والسَّـبك، فقـد أضاف صُنـاع الـورق اليابانيون مادةً مسـاعدةً مثل الصَّمغ، إلى اللب لجعلِه أكثر لزوجة، وأخَّروا تصريفَ المـاء قـدرَ المستطاع للتحكُّم فـي سُـمكِ الورقةِ النِّهائية. ومتى احتوى القالـبُ على كميَّـةٍ كافيةٍ مـن اللب، أُعيد الفائـضُ منه إلـى الحوضِ من خلال تحريك القالبِ بانتظامٍ بحركةٍ موجيَّةٍ. ومـن هنـا اكتسـبَت تلـك التقنيةُ اسـمها. وواصَل صانع الورقِ هـزَّ القالـبِ المملوء باللُّـبِّ حتـى تنتظـم الأليافُ وتتسـاوى الجوانب. وميَّـزت نتائـجُ تقنية الاهتـزازِ جميع الأوراق اليابانية والأسـلوب الياباني فـي صناعـة الـورق. وسـمحت =



شكل (١٩): أوراق نخيلِ التاليبوت (*talipot*) منقوشة بنص «أستساهاسريكا باجنابارامينا» (Astasahasrika Pajnaparamita). القرن الثَّاني عشر الميلادي ٢,٥×١٦بوصة (٦,٨×٤١سم). المكتبة البريطانية–لندن [Or. 6902].

الجاركو (Aquilaria agallocha)، وقيل إنها شُحِنَت على يد بعض التجَّار السَّكندريِّين. كما أرسلَت مملكة نان يوي (Nan-Yue) الواقعة جنوب الصِّين الحالية وشمال ڤيتنام، في وقتٍ ما بين عامي ٢٦٥–٢٩٠م إلى الصِّين جزيةً تضمَّنت أكثر من عشرةِ آلاف لِفافةٍ من «ورقة الخيوطِ المعقدة» (ce li zhi)، وربما صُنِعَت من السَّرخسِ أو بعض الأعشابِ البحرية.

وما انفكَّ الرُّهبانُ البوذيون الصِّينيون مهاجرين، سالكين طريقَ الحرير إلى الهندِ في القرون الأولى بعد الميلاد، ومع ذلك فمِمَّا يُستغرب له أنه ليس ثَمَّ دليلٌ على أن الهنودَ صنَعوا الورقَ بأنفسهم حتى أدخل المسلمون هذه الحِرفةَ إلى شبه القارة الهندية، ربما بعد عشرة قرون لاحقًا.

عُرِفت الكتابةُ في الهند منذ النصف الثَّاني من الألفِ الثَّالثة قبل الميلاد، وكتَب الهنودُ على المواد المُختلفة، بما في ذلك أوراقُ الأشجارِ، والألواح الخشبية، وألواح الخيزُران، والمعادن. وفضَّل أهل الهند أوراق نخيل التاليبوت (talipot)، الذي ينمو في

المادة الغرويَّة المضافة للبِّ الورق لصانع الورق بالضَّغط على سطح الورق المشكل دون الخشية من تشعُّث الألياف؛ لأن الألواح الرطبة لم تكن لتلتصق بالقالب. وبعد الضَّغط والتَّجفيف، لا تكون هناك حاجة لتغريةِ الورق، الذي تشبَّع بالمادة الغروية بالفعل أثناء مرحلة التصنيع.

وأقدم مخطوطة ورقية معروفة عُثِر عليها في اليابان هي شرح على كتاب لوتس سوترا (Lotus Sutra)، الذي قيل إن الأمير شوتوكو (Sho-toku) كتبه –أو بالأحرى شرَحه– بين عامي ٦٠٩–٦١٦م، ودوَّن شرحَه على الورق الصيني. وأقدم عيِّنات محفوظة من الورق الياباني في مُستودع شوسو–إن (Shoso-in) الإمبراطوري في نارا (Nara)، هي أجزاء من سجلَّات منزليَّة من ثلاث ولايات، مؤرخة بعام ٧٠١م. ونلحظ أن الورق الياباني المُستخدَم في كتابتها آنذاك، والمصنوع من ورق التُّوت، كان أقلَّ جودة من الورق الصيني المعاصر.

وأدَّى الطلبُ المتزايدُ على الوثائق ونسخ «السُّوترا» البوذية إلى توسُّع صناعةِ الورق اليابانية في القرنين السَّابع والثَّامن الميلاديين. وأنشئ مصنعٌ للورق بين عامي ٨٠٦–٨١٠م لتزويدِ البلاط في كيوتو (Kyoto) باحتياجاته من الورق. وتُشير نصوصُ القرن الثامن إلى بضع مئات من أنواع الورق: صُنِع مُعظمها من القُنَّب، الذي أنتج أفضلَ أنواع الورق الياباني، وكذلك بعض الألياف من نوعَين من ورق التوت (الكوزو *kozo* وورق =

جنوب الهند، لتَدوين الكتبِ، ومع ذلك التفضيلِ فإن أوراقَ الشَّجر العريضة عمومًا استُخدمت لذاتِ الغايةِ. بل كان الطلاب الهنود -حتى عهدٍ قريبٍ- يستخدمون أوراقَ الأشجار ولا سيما أوراق شجرة السالا (Sala) للكتابةِ في المدارسِ الواقعة في الرِّيف الهندي (انظر: شكل ١٩).

ولم نصِلْ بعد لحلٍّ مُرضٍ لأُحجيةِ استقبال أهلِ الهند الفاترِ للورقِ في بادئ الأمرِ، ولا سيَّما أن الموادَّ الخامَ اللازمة لصُنعِ الورق في شرق آسيا كانت وفيرةً ومتاحةً على نطاقٍ واسع في الهند. ومع ذلك، فإن المُناخ الحار والرَّطِب الذي ساد في أكثر أرجاء الهند، لم يساعد على حفظ الورق على المدى الطَّويل، كما وجَدت حشراتُ الأرَضَة المنتشرة هناك في السُّليلوز وجبةً لذيذةً، ومن هناك انتشر الدُّعاء المشهور «يا كبيكاج!»، الذي شاعَ في بعض المخطوطاتِ العربيَّةِ القُروسطيَّة، توسُّلًا لملكِ الأَرَضةِ ليمنَع «رعاياه» من الحشراتِ من أكلِ ورقِ الكتابِ.

وأنحى بعض العُلماء باللَّومِ على النِّظام الطبقي المرتبط بالتَّقاليد الهنديَّة، وحمَّلوه تبعات تثبيطِ أهلِ الهند عن تبنِّي تقنياتٍ جديدة، مثل صناعة الورق وتطويرها. فمن قَبيلِ المحتمل أن الأرستقراطيِّين الهنود، وهم أولئك الذين أظهروا ميلًا إلى تعلُّم القراءة والكتابة دون أهل الهند كافةً، ترفَّعوا عن ملامسةِ الورق المصنوع من الخِرق المُعاد تدويرها، خوفًا من نجاسةٍ قد تُصيبهم.

وعلى أية حالٍ يرجع تاريخُ أول استخدامٍ موثوقٍ للورق في الهند إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، عندما قام التجَّار اليهود -ونفترض أن تجارًا مُسلمين قد اضطلعوا بالدَّورِ نفسه- بتصديره من مصرَ والجزيرة العربية إلى نُظرائهم في كوجرات (Gujerat). وحتى اليوم، فإنَّ صناعة الورق يدويًّا

الكاجينوكي *kajinoki*) وورق جامبي *gampi* (*Wikstroemia sikokiana*). ثم أهمل صُنَّاع الورق استخدام القُنَّب في صناعة الورق لبعض الوقت بعد عام ٨٠٠م، وأقبلوا على استعمال أوراق نبات إيدجيورتيا (Edgeworthia paprifera) بحلول القرن السَّادس عشر الميلادي، ولم تزل أليافه هي الألياف الرَّئيسة المستخدمة في صناعة الورق اليابانية حتى يوم الناس هذا.

واستخدم التجَّار الهولنديُّون والتجَّار الأوروبيُّون الآخرون الذين نشطوا في شرق آسيا الورقَ اليابانيَّ لحفظ سجلاتهم، لكنهم لم يصدِّروه إلى أوروبا قط. وشحَنت شركةُ الهند الشَّرقية الهولندية، التي احتكرت الموانئ اليابانية بين عامي ١٦٣٩-١٨٥٤ الورقَ الياباني مرَّتين فحسب، وتحديدًا بين عامي ١٦٤٣-١٦٤٤م. وربَّما وصَلت إحدى هاتين الشُّحنتين إلى هولندا، وتضمَّنتا الورق الذي اقتناه رامبرانت (Rembrandt). رسَم رامبرانت -نحو عام ١٦٤٧م- لوحاتِه على أوراقٍ من أصل غير أوروبيٍّ، معظمها من الورق الياباني، والقليل منها كان من الورقِ الهندي. ومع ذلك، ظلَّ معظم الأوروبيِّين يجهلون جمالَ الورقِ الياباني حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما وجد فنَّانون مثل ج. أ. م. فيستلر (J.A. M Whistler)، وإدوارد مانيت (Edouard Manet)، وإدجار ديجاس (Edgar Degas) الورقَ الياباني يُباع في متاجر لندن وباريس.

ارتبطت تقليديًا بالمُسـلمين إلى حدٍّ كبيرٍ. وشُيِّد أول مصنعٍ لإنتـاج الورقِ في الهند في القـرن الخامس عشـر الميلادي، عندما اصطحب سُـلطانُ كَشـمير، فـي طريق عودته من سمَرقَنْد، بعض الحرفيِّين من هناك لمساعدته في إنشاء مصنعٍ لصناعة الورق في مملكته.

معرفة العالم الإسلامي بالورق وصناعته

إنَّ الرِّواية التي تقضي بأن العالم الإسـلامي عرَف الورق عندما سبَى جندُ المسلمين بعـض صُنَّـاع الـورق الصينيَّين فـي معركة «طلاس» فـي عام ١٣٤هـ/ ٧٥١م هي مجرد حكايةٍ. ويسعُنا التَّدقيق في بعض الحقائقِ التَّاريخيةِ ذات الصِّلة بمعرفة العالم الإسلامي بالورقِ في ضوئها.

دحَـر جيشُ القائـد العربـي زيـاد بن صالـح، الجيـشَ الصِّينيَّ الـذي كان يقـوده جاو شـيانزهي (Gao Xianzhi) في سـهوب آسيا الوسـطى. وطبقًا لتلك الرِّواية، عاد زيادٌ إلى قواعدِه في سـمَرقنْد مُصطحبًا أسـراه من الصينيِّين وفيهم واحدٌ أو أكثر من صُنَّاع الورق. وفي سـمَرقنْد اسـتغلَّ أولئك الأسـرى المواردَ المحليَّةَ من القُنَّب وخِرق الكتَّان، فضلًا عن توافر المياه في قنوات الرَّي بالمدينة التي يرفدها نهر ظرفشان (Zarafshan)، فأنشأوا مَصنعًا للورق، ومن ثم اشتُهرت المدينة بجودةِ الورق الذي أنتجته لقرونٍ عديدةٍ تاليةٍ.

تقـع مدينـة طـلاس (Talas) جنوبي كازاخسـتان الحاليـة، (وكانت تُعرف في السَّـابق باسم أولياء عطا، ودامبول (Dzhambul)، على نهر طلاس على طريقِ الحرير. وقد استغلَّ الصينيُّون حالةَ الفراغ في السُّـلطةِ في هذه المنطقة، ولا سـيَّما بعد انهيار الإمبراطوريتَيْن التُّركية الغربية والسَّاسانية الفارسية في القرن الأول الهجري/ السَّابع الميلادي، فوسَّعوا سُـلطانَهم حتـى ضمُّوا بلاد مـا وراء النهـر (Transoxiana)، واعتاد أمـراءُ وحُكام بلاد ما وراء النهـر إرسـالَ السِّـفارات إلـى الصِّيـن منـذ زمـنٍ طويلٍ، وحظـوا بألقاب التَّشـريف والتَّبجيـل مـن قبـل إمبراطـور الصِّيـن. وفـي عام ٣٩هـ/ ٦٥٩م دخـل الجيـش الصِّيني سمرقندَ، ثم واصَل تقدُّمَه حتى استولى على بُخارَى.

في هذه الأثناء كان الخُلفاء المسلمون يتطلَّعون إلى فتحِ بلاد ما وراء النَّهر. فقد تُوفِّي النبـيُّ [ﷺ] فـي عـام ١١هــ/ ٦٣٢م، فخلَفـه أربعةُ خلفـاءِ حكمـوا الدَّولة مـن الجزيرة العربيـة. ثـم اسـتطاع [مُعاويـة بن أبـي سُـفيان]، وكان واليًا على الشَّـام، الاسـتيلاء على

السُّلطة، فأسَّس الخلافةَ الأُمويةَ، واتخذ من دمشقَ عاصمةً له. وشكَّلت النجاحات العسكرية -التي حقَّقتها الدولة الأموية في المشرق في العُقود التالية، ولا سيما نجاحهم في استكمال فتحِ فارس وبلاد ما وراء النَّهر- حافزًا للمسلمين إلى التطلُّع -بعيدًا عن قاعدتهم المُتاخمة للبحر المتوسِّط- نحو آسيا الوسطى. واشتدت هذه الرَّغبة بعد أن شقَّ العباسيُّون -وهم من ذُرية العباس عمِّ النبيِّ [ﷺ]- عصا الطَّاعة على بني أُمية، وخرجوا على رأسِ جيشٍ من إقليم خُراسان، شمال شرق فارس، وقاتلوا الأمويِّين ودحروهم، ثم استولوا على الخلافة لأنفُسِهم. ولم تؤدِّ الثَّورة العباسية في عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩-٧٥٠م إلى سقوطِ بني أمية، ثم إلى نقل العاصمة الإسلامية من الشَّام إلى العراق فحسب، بل أدَّت أيضًا إلى نظرةٍ جديدةٍ إلى المَشرقِ، حيث أضحَت الولايات الهاشميَّة في خُراسان وبلاد ما وراء النَّهر ولاياتٍ مركزيةً على الصَّعيدين السياسي والثقافي في العصر العباسي.

وربما كانت الرِّواية العربيَّة حول سَبي الصِّين من صُنَّاع الورق -مثلها في ذلك مثل رواية كاي لون- مُصطنعةً لعدة أسباب: فكما ذكرتُ آنفًا في مدخلِ هذا الكتاب: ذُكرت هذه الرواية للمرة الأولى بعد ثلاثة قرون من تلك الحوادث -التي استعرضناها آنفًا- على لسانِ المؤرخ العربي الثَّعالبي، في كتابه المُسمى **لطائف المعارف**، حيث أفرَد الثَّعالبي فصلًا عدَّد فيه خصائصَ مختلفِ البقاع وصفاتِها وما تتفرَّد به. وفي هذا السِّياق ذكَر الثَّعالبي أن إحدى خصائص سمَرقنْد هو الورق (الكاغِد)، الذي يبدو أفضل، وأكثر مرونة، وأكثر سهولة في التَّعامل معه، وأكثر ملاءمةً للكتابةِ عليه من قراطيس مصر (يعني ورق البَردي المصري) أو الرَّق. ونقل الثَّعالبي عن صاحب كتاب **المسالك والممالك** -ولم يصلنا، وربما كتبه أحد وزراء السامانيِّين[1] في بلاد ما وراء النَّهر قبل قرنٍ من الزمان- قوله في سَبي زياد بن صالح من الأسرى الصِّينيين وعلاقتِهم ببدء صناعة الورق في سمرقند.

ينتمي كتابُ الثَّعالبي إلى نوع طريفٍ وشائعٍ من الأدب العربي، وهو ذكر خصائصَ الأقاليم وتفرُّدها بما لا يكاد يوجَد في إقليمٍ آخر، مع تعزيز هذه الخصائص برواياتٍ لا تُعوِزُها الحيوية. بيد أنَّ المؤرِّخين المسلمين الأوائل تجاهلوا معركة طلاس وتداعياتها،

(١) الإيماءةُ إلى أبي عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني (المتوفَّى ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م). (المترجِم)

وبـدلًا مـن ذلك ركَّزوا على الحوادث الأخرى التي شـهدتها الولاياتُ الواقعةُ في غرب آسيا. ومن ثم، فليس ثمَّة روايات عربيَّة معاصرة عن هذه المعركة، والتي تبيَّن للمؤرِّخين المسـلمين لاحقًـا أنها كانـت إحدى المعارك الفاصلـة؛ إذ إنها أسَّسـت لهيمنةِ الحضارة الإسـلامية على تُركسـتان. وذكَر المؤرِّخون العربُ المتأخرون مثل ابن الأثير (المتوفى ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، أن خسـائرَ الجيشِ الصِّيني في هـذه المعركة ناهزت ٥٠ ألف قتيل، و٢٠ ألف أسير سباهم المُسلمون. بيد أن هذه الأرقام بعيدةٌ تمامًا عن الحقيقة.

ونتبيَّـن في ضـوءِ الرِّوايات الصينية المعاصرة للمعركة، أن الرواياتِ العربيةَ لـم تتحلَّ بالدقَّـةِ، فوجـدت المبالغاتُ طريقها إليهـا بمرور الوقـت[1]؛ وذاك لأن المصادرَ الصينيةَ المعاصـرة قـدَّرت تعـداد الجيش الصيني الـذي قاتل على أرض طـلاس بنحو ٣٠ ألف جنديٍّ فحسب. ومع ذلك، فربما جنَّد الصينيُّون صُنَّاع الورق في جيشِهم قُبيل المعركة، وذلـك على الرغم من أن المصـادر العربية هي التي تذكرهم دون المصادر الصِّينية. فقد ذكَر مصدرٌ صينيٌّ معاصرٌ، هو دو هوان (Du Huan)، الذي وقع أسيرًا في قبضةِ المسلمين، إلا أنَّـه عـاد إلـى وطنِـه بعـد عَقدٍ من الزَّمـان من تاريـخ المعركة: النَّسـاجين والرسَّـامين وصائغـي الذَّهـب والفضَّـة من بين الصينيِّين الذين سـباهم المسـلمون، بيد أنـه لم يذكر صُنَّاع الورق قطُّ.

وعلـى أيـة حال، فقد انتشـرت صناعةُ الورق في جميع أرجاء آسـيا الوسـطى بحلول القـرن الثانـي الهجري/ الثامـن الميـلادي؛ ولا يجـب أن يُنسـب الفضـلُ إلـى الأسـرى الصينيِّيـن فـي تعريف سـكان آسـيا الوسـطى بالـورق وبصناعتـه؛ إذ استُخدم الورق في سـمَرقَنْد، وربمـا صُنِع هنـاك قبل عقود من معركـة طلاس. وبصرف النظر عن الرسـائل القديمـة، والتـي كانـت إحداها موجهة إلى سـمَرقَنْد قبل بضعة قرون، فقد اكتُشِـف عددٌ كبيرٌ من الوثائق المدونة على الورق في منطقة سَفحِ جبل موغ (Mugh)، في حصنٍ جبليٍّ بالقرب من بنديزيكنت (Pendzhikent) أو (بانش Panch) في طاجيكسـتان، حيث انحاز

(١) يرى المؤلِّف أن الرِّوايات الصينيةَ كانت معاصرةً للمعركة، وأُخِذَت من أفواه بعض من شارك بالقتالِ فيها من الجندِ الصينيِّين الأسرى الذين وقعوا في أسر المُسلمين، ثم افتدوا أو أعتقوا لاحقًا وعادوا إلى بلادهم، بينمـا دُوِّنَـت الروايات العربية المُتعلقة بهذه المعركة في عصرٍ متأخـرٍ، فكأنَّ الروايات الصينيَّة -من وجهة نظره- أوثقُ وأدقُّ من المصادر العربيةِ في هذا الصَّددِ. (المترجِم)

«ديڤاستيتش» (Devaštich)، «ملك الصُّغد وصاحب سَمرقند» إلى العربِ الفاتحين في عام ٧٢٢-٧٢٣م مُستجيرًا بهم.

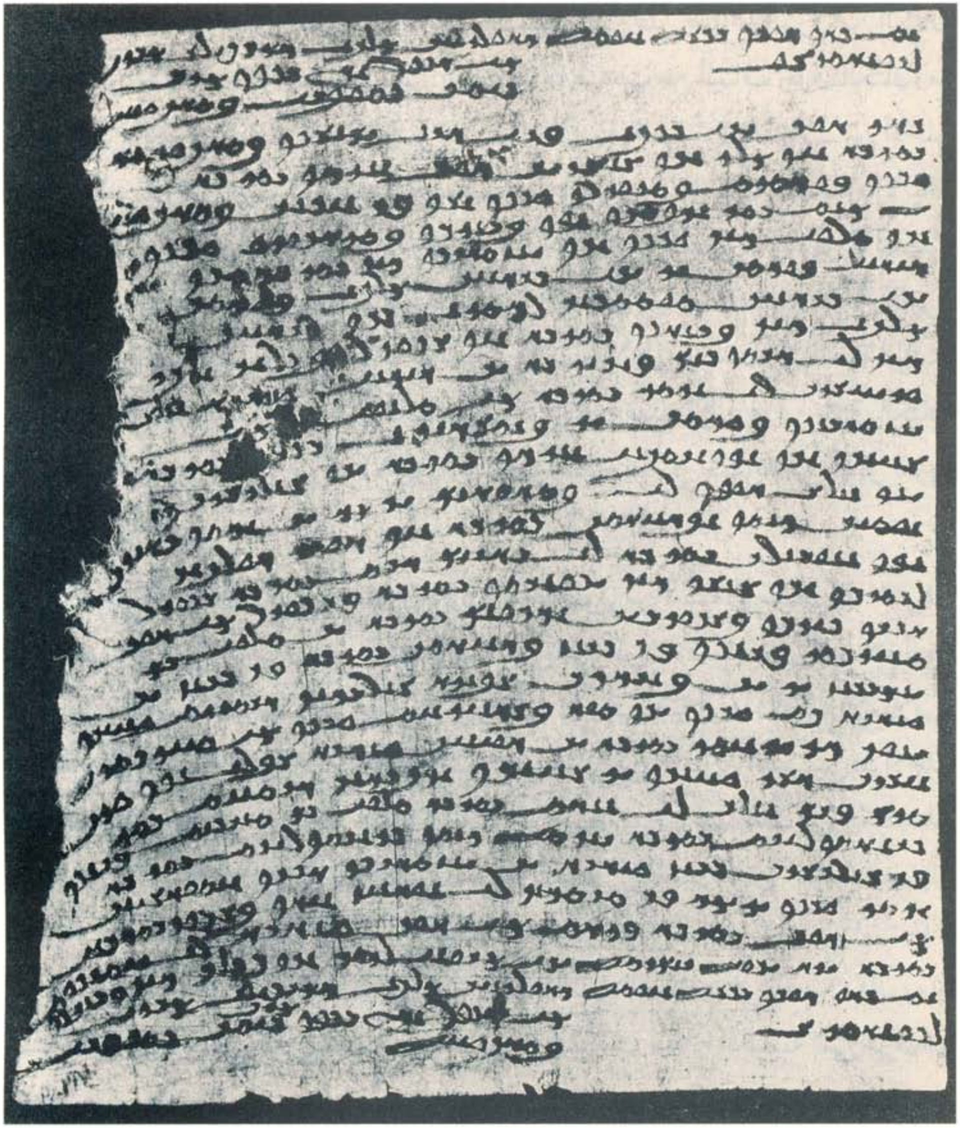
وفي عام ١٩٣٠ اكتشَف أحد رعاء الشَّاءِ كهفًا في سفح جبل موغ، ووجد فيه ٧٦ وثيقةً كُتِبَت باللغة الصُّغدية والعربيَّة والصِّينية على أنواعٍ مُختلفةٍ من حوامل الكتابة، مثل: الورق والقماش والجلود والخشب (انظر: شكل ٢٠). وعلى الرغم من افتقارِنا لوسيلةٍ نعرف بها أين صُنِعَت أوراقُ كهف جبل موغ، فليس هناك ما ينفي أن تكون محليَّة الصُّنع، وأن يكون الرُّهبان البوذيُّون -الذين نشطوا في المنطقة- قد أدخلوا صناعةَ الورق إلى بلادِ ما وراء النهر، قبل فتحِ المسلمين لها.

أمَّا ابن النَّديم البغدادي (من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، صاحب كتاب **الفهرست** الذي تناول فيه سِيَر المُصنِّفين وتصانيفهم، فقد جاءت رِوايتُه شبه المعاصرة -وهو الكاتب المُتقدِّم عن الثَّعالبي زمنًا- عن أصولِ الورق أكثر حذرًا، ومع ذلك اعتقد ابن النَّديم أن إقليمَ خُراسان، الواقع شمال شرقي فارس، والمُتاخم لبلاد ما وراء النَّهر، هو مهدُ صناعة الورق، فقال ما نصُّه:

> «فأمَّا الورق الخُراساني فيُعمَلُ من الكتَّان، ويقال: إنه أُحدث في أيَّام بني أُميَّة، وقيل: في الدَّولة العباسية، وقيل: إنه قديم العَمل، وقيل: إنه حديثٌ، وقيل: إنَّ صُنَّاعًا من الصِّين عملوه بخُراسانَ على مثالِ الورق الصِّيني».

قد تكون إشارة ابن النَّديم إلى صنَّاع الورق الصينيِّين تقليدًا لا أكثر؛ وذاك لأن الحِرفيِّين الصِّينيِّين هم الذين اشتُهِروا منذ فترةٍ طويلةٍ في العالم الإسلامي بصناعةِ الورق، وظلَّ الورق الصِّيني يتمتع بمكانةٍ عظيمةٍ في نفوسِ المسلمين لعدة قرون.

أمَّا الحُجَّة الأكثر إقناعًا في تفنيدِ الدَّور المفترض لصناع الورق الصينيِّين في تعريف سكان آسيا الوسطى بالورق، فهي حجةٌ تقنيةٌ، فقد صُنِع الورق في غرب الصين بحلول القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي في المقام الأول من أليافِ لِحاء-التُّوت، وورق التُّوت، والرَّامي مجتمعةً أحيانًا مع القنَّب، وخِرق الكتَّان، وخِرق الرَّامي. وكان صنَّاعُ الورق الصينيِّين يقدِّمون الأليافَ الخام دائمًا على الخِرَق، ولم تَعْدُ خِرق الكتَّان أن تكون مجرد مكمِّلٍ في هذه الصناعةِ، ولم تُشكِّل قطُّ المادةَ الخامَ الرئيسةَ.



شكل (٢٠): رسالةٌ تعود إلى أوائل القرن الثَّاني الهجري/ الثامن الميلادي كُتِبَت باللغة الصُّغدية على ورقٍ ينتمي لسجلَّاتٍ رسميةٍ لـ ديڤاستيش (Devas-tich)، ملك الصُّغد، اكتُشفت في جبل موغ. قياسها ٥,١١×١٠بوصة (٢٩,٥×٢٥,٥سم). معهد الدراسات الشَّرقية، أكاديمية العلوم، سانت بطرسبرج (Institute of Oriental Studies, Academy of Sciences, St. Petersburg)

وعلى الرَّغم من أن رواياتٍ مثل رواية ابن النَّديم تنصُّ على صناعةِ الورقِ من الكِتَّان، فإن فحصَ الأوراق «الإسلامية» يُبيِّن أنها غالبًا ما صُنِعت من أليـاف خِرق الكتَّان، مع خليطٍ من الألياف الخام أحيانًا. ولو كان صُنَّاع الورقِ الصينيُّون هم أوَّل من أدخلوا صناعةَ الورقِ في سمَرقَنْد، فلم يكن بمقدورِ أهل سمَرقَند إتقانُ استخدام الأليافِ المُستخرجةِ من الخِرق بهذه السُّرعة وفي هذه المدة الزَّمنية القَصيرة. والأقربُ للتصوُّرِ أن صُنَّاع الورقِ قد نشَطوا في آسيا الوسطى لبعض الوقت، حيث تعلَّموا استخدام الخرق بدلًا من الألياف الخام بوصفها موادَّ أساسيةً في المقام الأول. وكانت المُساهمةُ الرئيسةُ لصُنَّاع الورقِ الذين عملوا في ظلِّ حكم العرب هي إتقان صناعةِ الورق من خِرق الكِتَّان، من خلال تحسينِ تقنياتِ ضربِ الألياف، وتجهيز سطح الورقةِ للكتابة عن طريق تغريته باستخدام النَّشا.

إن ترجيحَ احتمال أن يكون صُناع الورق المجهولون من آسيا الوسطى قد اخترعوا ورقًا مصنوعًا من الخِرق قبل الفتح الإسلامي بفترةٍ طويلةٍ، فلمَّا دخل الإسلام آسيا الوسطى، انتقلت تقنيةُ صناعته -بهذه الكيفية نفسِها- إلى بقيَّةِ أرجاء العالم الإسلامي، لا يحتاج إلى تفنيدِ الرِّواية التي تزعم أن سَبي المسلمين من الأسرى الصينيِّين قد أدخلوا تقنيةَ صناعةِ الورق إلى سمَرقَنْد عام ١٣٤هـ/ ٧٥١م. بل ينبغي فهمُ تلك الرواية بمعناها المجازي الذي حملته في طيَّاتِها، وليس بمعناها الحَرْفي. فبالقدر الذي جسَّدت به روايةُ اختراع (Cai Lun) للورق الحقيقةَ الرئيسةَ القائلة: إن أهل الصين بدأوا في استخدام الورق بوصفه مادةً حاملةً للكتابةِ في أوائل القرن الثاني الميلادي في الصين، فإنَّ روايةَ صُنَّاع الورق الصينيِّين الذين سباهم المسلمون جسَّدت مجازًا الكيفيَّة التي عرَف بها العالم الإسلامي الورقَ من أهلِ آسيا الوسطى في العصر العبَّاسي، حيث لعبت هذه البُقعة -خاصةً- دورًا شديدَ الأهميَّةِ في الحضارةِ الإسلاميَّةِ.

الفصل الثاني

الفصل الثاني
انتشار صناعة الورق في العالم الإسلامي

«[فأشار الفضلُ بن يحيى] بصناعةِ الكاغد وصُنْعِه، وكتَب فيه رسائل السُّلطان وصُكوكَه، واتَّخذه النَّاس من بعده صُحفًا لمَكتوباتِهم السُّلطانيَّة والعِلميَّة. وبلغَت الإجادةُ في صناعتِه ما شاءت».

ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**.

توحَّد القسمُ الغربيُّ من آسيا تحت لواءِ الإسلامِ في القرن الثَّاني الهجري/ الثَّامن الميلادي. وما أن عرف مسلمو آسيا الوسطى الورق، حتى انتشرت مصانعه بوتيرةٍ مُتسارعةٍ في بلاد فارس والعراق والشَّام ومصر والمغرب حتى وصَل إلى الأندلس. ولعلَّك تلحظُ أن رحلةَ صناعة الورق من موطنها بالصِّين حتى وصلت إلى سمَرقنْد في آسيا الوسطى استغرقت نحو خمسة قرون، ولكن ما أن عرف مسلمو آسيا الوسطى الورق، حتى استخدمه مسلمو الأندلس، عند حافَّة أوراسيا -على ساحل المحيط الأطلسي- بعد قرنين من الزَّمان فحسب.

وكما كان الانتشار السريع للإسلام، في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، حدثًا غير مسبوقٍ في تاريخ البشرية، فكذلك كان إدخال الورق وصناعته في العالم الإسلامي في القرنين الثَّالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين إنجازًا تاريخيًّا وتقنيًّا رائعًا، عمِل على تغيير أوضاع المجتمع الإسلامي عُقَيب انتشاره.

لم تعرفِ الدَّولتان السَّاسانية والبيزنطيَّة -اللتان وقعتا على الحدودِ الغربيَّةِ لطريق الحرير- الورقَ قبل الإسلام قطُّ. وقيل إن الفُرس نسخوا كتاب **الأبستاق** (*Avesta*) -وهو الكتاب المقدَّس في الدِّيانةِ الزَّرادشتيَّة -وكانت الدِّيانةُ الرئيسةُ في فارس قبل

ظهورِ الإسلام- على ١٢ ألف لوحةٍ من الرَّق. كما لم يكن الورق معروفًا في مُستهل القرن الأول الهجري/ السَّابع الميلادي في شبه الجزيرة العربية، ولا سيَّما متى حكَّمنا الأدلةَ المُستقاةَ من القرآن والسِّيرةِ؛ إذ لا يُذكر الورقُ في كليهما قطُّ. ولمَّا وقَف العربُ على الورق في آسيا الوسطى في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أطلقوا عليه اسم «كاغَد»، وأحيانًا «كاغِد»، أو «كاغَذ»، وهي كلمات مُعرَّبةٌ عن الكلمة الفارسية «كاغاز»، التي أُخِذت بدورها من كلمةٍ صُغدية هي «كيغديه» (kygdyh). بيد أن جميع هذه الكلمات -فضلًا عن الكلمة اليوغورية المُستعملة عَلمًا على الورق (kägda) أو (kagda)- إنَّما هي كلماتٌ مأخوذةٌ من الكلمة الصينية «جوزهي» (guzhi) التي تعني «الورق المصنوع من [لحاء] ورق شجرة التُّوت»، وذلك على الرغم من أن هذا النَّوع من شُجيرات التُّوت المسمى «بروسونيتيا» (Broussonetia papyrifera) لم ينمُ في فارس وآسيا الوسطى قطُّ.

وأطلق العرب على الورق كلمة «قِرْطاس»، وهي كلمة استخدموها في الأصل علمًا على ورق البردي واللُّفافات البرديَّة، بل وعلى «الرَّق» نفسه. ووردَت هذه الكلمة في القرآن بهذا المعنى، إشارة إلى كتاباتٍ دُوِّنت على ألواحٍ مُنفصلةٍ. وربما كانت كلمة «الورق» أكثر الكلمات العربية التي استخدمت علمًا على «الورق» شيوعًا، وربما جاءت من قولهم: «ورَق قِرطاس». ومن هذه الكلمة، اشتُقَّت كلمة «ورَّاق»، وهو اصطلاحٌ شائعٌ في وصف كلٍّ من: الكاتِب وصانع الورق والمُتَّجِر فيه والنَّسَّاخ، إضافةً إلى كلمة «الوِراقة» بمعنى صناعة الورق، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من التَّعبيرات المُركَّبة التي أطلقها العربُ -بأخَرةٍ- على النُّقود الورقية، وأوراق اليانصيب، والسَّندات التجارية، والأوراق النَّقدية، وما أشبه بذلك.

العراق

على الرغم من انتشارِ الورق في آسيا الوسطى وبلاد فارس مُبكِّرًا قياسًا بالعراق، فإنه من قَبيل الخيارِ الأمثلِ أن نتناول العراق أولًا؛ وذاك لأنه كان الإقليم الذي احتضَن قصبةَ الخلافة؛ إذ كان لقرار الدَّواوين العباسية الذي قضَى باستخدام الورق بوصفه حاملًا للكتابة في السِّجلَّاتِ الرسمية وتدوين الوثائق دورٌ فعالٌ في قبول الورق، في بِقاع العالم الإسلامي كافةً. فقد أدَّت الضَّرورة بالمُسلمين إلى تدوين الدَّواوين، ومن ثم إلى استخدام الورق في تسييرِ أعمالِها في التطور الأخير.

أسَّس الخليفة الأُموي الثَّاني[1] عمر بن الخطاب (خلافته: ١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م) -الذي حكَم الدولة العربية من الجزيرة العربية- أوَّل دواوين للخَراج والجيش وبيت المال. وكانت أعمال تلك الدَّواوين بحاجةٍ إلى الدَّفاتر لمباشرة أعمالها. وكلمة «دفتر» مُعرَّبة من الكلمة اليونانية (Diphthera)، التي تعني «الجلد»؛ ولا سيما «جِلد الحيوان». والتي أُطلقت -في البداية- علمًا على ورقِ البردي دون مُسوِّغ لُغويٍّ منطقيٍّ. وعلى هذا النَّحو أضحَى البردي حاملَ الكتابةِ المُستخدَم في دواوين الخلافة بعد فتح مصر في عام ٢٠هـ/ ٦٤١م.

ووصلتنا شذراتٌ من أوراقِ البرديِّ الإسلامية المبكرة من مصرَ مثل: الكُتب، واللفائف، وبعض الأوراق المُفردة، بيد أنه يبدو لنا أن شكل الورقةِ المُفردة كان الشكلَ الأكثر شيوعًا آنذاك. وفي المقابل، استخدَم الموظَّفون البيروقراطيُّون البيزنطيُّون في مصرَ والشَّام لفائف البردي، وكان نظراؤهم السَّاسانيون في فارس قبل ظهور الإسلام يحتفظون بسجلاتهم على هيئة كُتبٍ (*Codices*) من الرَّق المُعالَج.

ووفقًا لرواياتٍ مُتأخرةٍ تناولت الدَّواوين العباسيَّة، فقد أمَر الخليفة العباسي الأول السفَّاح (خلافته: ١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥١-٧٥٤م)، وهو الخليفة الذي نقَل حاضرةَ الدَّولة من الشام إلى العراق[2]، وزيره خالد بن برمك باستبدالِ الأوراق المفردة بالسجلات على هيئة الكتب (*codices*). وربما صُنعت هذه الكتب من الرَّق، أُسوةً بعادةِ الفُرس في حفظِ سجلاتِهم، بيد أن الكتَّاب المُسلمين استمروا على عاداتِهم في استخدام ورق البردي في أعمال الدَّواوين في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ابن السفَّاح[3]، الذي شيَّد مدينة بغداد.

وإذا افترضنا أن تنظيمَ السِّجلات على هيئة الدَّفاتر كان أمرًا يفوق المادةَ التي سُجِّلَت عليه أهميةً، فإنَّ هيئة الكتاب الجديد -التي أمَر بها الخليفة- كشَفت عن نُقطتَين من أكبر نقاط الضَّعف في أوراق البردي -تمامًا كما حدث في تاريخ النصرانيَّة المبكر- فقد كانت حوافُّ ورقِ البردي سريعةَ التآكُلِ، كما تعرَّض الورق للتَّلفِ بسبب فتح الدَّفتر

(١) كذا في الأصلِ الإنجليزي، والصَّواب الخليفة الرَّاشد، لا الأموي. (المترجم)

(٢) الإيماءةُ هنا إلى الكوفة ثم الأنبار، لا إلى بغداد التي شيَّدها خلَفه أبو جعفر المنصور. (المترجم)

(٣) كذا في الأصل الإنجليزي، والصَّواب أنه أخوه وليس ولده. (المترجم)

وإغلاقه، بعبارةٍ أخرى: بسبب الطيِّ المُتكرِّر. وكان الورق في كِلا النقطتين أكثر مرونة من البردي على نحوٍ ملحوظٍ.

وذكر ياقوت [الحموي] (من أهل القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، أن الخليفة العباسي هارون الرَّشيد أسَّس أول مصنع للورقِ في بغداد عام ١٧٨هـ/ ٧٩٤-٧٩٥م، ومن ثم توفرت كمياتٌ كافيةٌ من الورق للكُتَّاب في الدَّواوين. وعلى هذا النحو حلَّ الورق محل أوراق البردي والرَّق جميعًا.

ولَّدت البيروقراطيَّة مزيدًا من البيروقراطيَّة، فإضافةً إلى أعمال الدَّواوين الاعتيادية من تسجيل المعلومات المُتعلِّقة بحيازاتِ الأراضي، وجباية الخَراج والجزية، والسِّجلات المُتعلقة بالجيش، أُنشئت مجموعةٌ من الدَّواوين الجديدة. فانقسم «ديوان الجيش» إلى فرعين، أُنيط بأحدهما تسجيل أسماء الجُندِ، وبالآخر تسجيل أُعطياتِهم ورواتبهم. وتعامل «ديوان النَّفقات» مع مطالب القصر الآخذة في التوسُّع آنذاك، فاشتملت في جزء منها على الرَّواتب، والمؤن، والميرة، ووضع الخطط للطوارئ، ونَسخِ الكُتبِ. وقدم الكُتَّاب في «ديوان بيت المال» حساباتٍ أسبوعيَّة، وأخرى شهرية للوزير. وخرج من «ديوان المُصادَرين» عددٌ كبيرٌ من الصُّكوك والرِّقاع. وأُنيطت بـ «ديوان الرَّسائل» أو «ديوان الإنشاء» كتابةُ الرسائل نيابةً عن الخليفة، وصَوْغ وثائق التَّعيين والتَّنصيب لأربابِ المناصب. وأشرف «ديوان البريد» على طُرق البريدِ وكذلك على عُمَّاله، ناهيك عن الإشراف على شبكةٍ واسعةٍ من الجواسيس الذين كانوا يرصدون الأوضاع العامة في الدَّولة ويرسلون تقاريرهم إلى عاصمةِ الخلافةِ. وتلقى «ديوان التَّوقيع» العرائضَ. ووضَع «ديوان الخاتَم» ختمَ الخليفة على مراسيمه وأوامره. وتلقَّى «ديوان الفَضِّ» مُراسلاتِ الخليفة الرَّسميَّة. وأُنيط بـ «ديوان الغِبطة»(١) صرف العُملات المعدنية وتغييرها وتلقِّي الغرامات، وجمَع «ديوان البرِّ والصَّدقة» الزكاة والصَّدقات.

ولم تصلنا وثيقةٌ واحدةٌ من الوثائق التي صدَرت عن هذه الدَّواوين تقريبًا، ومع ذلك لا ينتابُنا أدنى شك في أن تلك الدواوين استخدمت كمياتٍ هائلةً من حوامل الكتابة

---

(١) كذا في الأصلِ الإنجليزي، ولعله أراد «ديوان الجَهْبَذة». و«الجهْبَذُ» كلمة فارسية، كانت تُطلَق على الشخص الذي يُوكَّل باستلام النقودِ وامتحانها وفحصِها ليميز جيِّدها من رديئها، وقد تُطلق أيضًا على الصَّيرفي، وكان ديوانُ الجهبذةِ تابعًا لديوان بيت المال في العصر العبَّاسي. (المترجم)

وموادها في تَسيير أعمالها. ومن ثم فلا غرابةَ أن استُبدِل البردي المصري النَّادر، والرَّق المُكْلِف بالورق سريعًا، حيث كان يمكن إنتاج الورق بكمياتٍ غير محدودةٍ عمليًّا في أي مكان.

بيد أن الكُتَّاب المُعاصرين تجاهلوا سيادةَ الورقِ على ما عداه من حوامل الكتابة آنئذٍ. ولم يكترثوا إلا لتسجيل الأعمال المسؤولة للأفراد، لا لتسجيل التطورات الثَّقافية والتقنيَّة، مثلُهم في ذلك مثَلُ جميع المؤرِّخين المسلمين في القرون الوسطى. ومع ذلك فقد أدرك بعض المؤرِّخين المسلمين من ذوي البَصيرةِ أن شيئًا ما بالغ الأهمية قد حدَث في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وكان المؤرِّخ العراقي الجَهْشِيارِي (من أهل القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي)، أحد أولئك المؤرِّخين الأُوَل؛ إذ كان في مركزٍ سمَح له أن يقفَ على هذا التطورِ جليًّا؛ وذاك لأنه كان حاجبًا لوزيرٍ من وزراء بني العبَّاس، وصنَّف كتابًا في تاريخ الوزراء في العصر العباسي. وعلى أية حال فقد أشار الجَهْشِياري إلى أنَّ الخليفة أبا جعفر المنصور -(خلافته: ١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م)، وهو الخليفة الذي أسَّس بغداد- أمَر باستبدال حوامل الكتابة الأخرى بالورق. وعزا الفقيه العراقي الكبير أبو الحسَن الماوردي (٣٦٤-٤٥٠هـ/ ٩٧٤-١٠٥٨م) -وفقًا لما نقلَه عنه المؤرخ المصري المقريزي (من أهل القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)- ذلك الأمر الذي قضَى بإحلالِ الورقِ محل الرَّق والبردي، إلى الخليفة المَشهورِ هارون الرَّشيد.

وكان ابنُ خَلدون -المؤرِّخ والفيلسوف المغربي، وأحد شيوخ المَقريزي- أكثر تحديدًا عندما ذكَر أن الفضل بن يحيى البَرْمَكِي، وزير الخليفة هارون الرشيد، هو الذي أمر بصناعةِ الورق واستخدامه في الدَّواوين، وذلك لما أعوزَت حواملُ الكتابةِ الكُتَّابَ، وغدا الرَّقُّ عزيزًا. وقال ابن خلدون في **مقدِّمته** ما نصُّه:

> «[فأشار الفضلُ بن يحيَى] بصناعةِ الكاغِد وصُنعِه، وكتَب فيه رسائلَ السُّلطانِ وصكوكَه، واتَّخذه النَّاسُ -من بعدِه- صُحفًا لمكتوباتِهم السُّلطانيَّةِ والعِلميَّة. وبلغت الإجادةُ في صِناعتِه ما شاءت».

بيد أنَّ ابن خلدون أهمَل ذكرَ سببٍ مهمٍ من شأنه شرح انحياز كتَّاب الدَّواوين للورَق على حساب الرَّق أو أوراق البردي، وهو أن الورق كان يمتصُّ المِدادَ، فيصعُب محو

الكتابة من على سطحِه دون أن يترك ذلك المحوُ أثرًا، ولذلك كانت الوثائق المدوَّنة على الورقِ أقلَّ عُرضة للتَّزوير من تلك التي دُوِّنت على أوراق البردي والرَّق بما لا يُقاس؛ حيث كان يَسهُل محو الكتابةِ من على أسطح هاتين المادتين، إما بكشطِ البردي، أو بغسلِ الرَّق. وعلى أية حال فإن ربطَ ابن خلدون بين الورق وبين الوزراء البرامكة أمرٌ مثير للفُضول، حتى ولو لم يكن بوسعنا إثباته.

انحدر [الفضل بن يحيى] الوزير البَرْمَكي الكارِزمي من نسل بَرْمَك، وكان بَرْمَك هذا كبير كهنة معبدٍ بوذيٍّ كبير في بلخ، عاصمة باكتريا (Bactria) القديمة (الواقعة شمالي أفغانستان). وتوطَّدت علاقة تلك الأسرة بالفاتحين العرب في أعقابِ الفتح العربي لآسيا الوُسطَى، ويظهر أنَّ خالد بن بَرْمَك (المتوفى ١٦٣هـ/ ٧٨١-٧٨٢م) كان أول من دخَل في الإسلام من آل بيتِه، وخدَم الخليفةَ أبا العباس السفَّاح، وتولَّى النظرَ في ديوان الجيش والخَراج. وعلى الرغم من المؤامرات والمكائد التي حيكت ضده، فقد ظلَّ في منصبِه، فلم يعزله الخليفةُ قطُّ. وكان حفيدُه الفَضل بن يحيى أخًا في الرَّضاع لـ هارون الرشيد الذي تولَّى الخلافةَ بأخَرةٍ.

وأظهَر البَرامكةُ اهتمامًا بالرَّوائع الأدبية الكلاسيكية في فارس والهند، وكذلك بمظاهر العقائد الفلسفيَّة والدِّينية الشَّرقية على اختلافِها. وعُيِّن الفَضلُ واليًا على الولايات الغربية في فارس، ثم واليًا على إقليم خُراسان، وأرسله الخليفة على رأس جيشٍ لإخماد ثورةٍ اندلعت في منطقة كابول. وعلى الرغم من إنجازاتِ البرامكة، فقد نكَبهم الرَّشيدُ نكبةً عظيمةً في مُستهلِّ عام ١٨٧هـ/ ٨٠٣م حيث أمَر بقتلِ عددٍ كبيرٍ منهم، فاستأصل شأفتَهم أو كاد، مُنهيًا بذلك نصف قرنٍ من مجدِ آل بَرْمَك الذي بلغ ذُروتَه في عهدِه.

وربما وقَف البرامكةُ على فضلِ الورق على سائر ما عداه من حوامل الكتابة بفعل عوامل، مثل: خبرة أسلاف البَرامكة البوذيِّين من آسيا الوسطى بالورقِ، فضلًا عن خبراتِهم الإدارية التي اكتسبوها من حُكمِهم لإقليم خُراسان، وكذلك انشغالهم في إدارة شؤون الدَّولة عامةً. الأمر الذي جعل البرامكةَ يُقدِّرون الورقَ بوصفه حاملًا رائعًا للكتابة، وكذلك يستشعرون دوره المُحتمل في الدَّواوين العباسية المُزدهرة آنئذٍ.

وبغـضِّ النظر عمَّا إذا كان البرامكة هم الذين أمَروا باسـتبدال الـرَّق والبَـردي بالـورق، أم ينبغـي أن يُعزى الفضـلُ في ذلك إلى غيرهم؛ فإنَّ بغدادَ سرعان ما أصبحت مركزًا لصناعة الورق، وعدَّ بعـض النـاس الـورقَ البغـداديَّ أفضـلَ أنـواع الـورق، حتـى إنَّ المصـادرَ البيزنطيةَ أشـارت إلى الـورق أحيانًا باسـم «البغدادي» (*Bagdatixon*) فـي إشـارةٍ صريحـةٍ إلى الـورق المُنتـج في بغداد دون غيره من أنواع الورقِ كافةً. وذكرت المصادر الإسـلامية في القـرون الوسـطى أنواعًـا وقُطوعًا كثيـرةً للورق، إلا أنه لا يسـعُنا التعرُّف علـى سـمات كل نـوعٍ منهـا عن كثـبٍ، أو حتـى تحديد الموقـع الذي صُنعت فيه. فقد ذكَر العالِم الموسـوعي ابن النديم -على سبيل المثال- عدة أنواعٍ من الورق، منها: الورق السُّليماني الذي سُـمِّي باسـم سُـليمان، وكان صاحبَ ديوانِ بيت المال في خُراسـان في عهد هارونَ الرَّشـيد. والورق الطَّلحي والذي سُمِّي باسم طلحة بن طاهر صاحبُ خراسان. والورق النُّوحي نِسبةً إلى نـوح بـن نَصـرِ السَّـاماني الأمير فـي بلاد مـا وراء النَّهـر. والورق الجَعفـري نسـبةً إلى جعفر بن يحيى البرمكـي. والورق الطَّاهري نسـبة إلـى طاهر بـن عبـد الله، وهو أحـد ولاةِ خُراسـانَ. والورق الفِرعوني، الذي ربما اكتسب اسمه لوجه شَبهٍ كان بينه وبين ورق البردي.

وعلى أية حالٍ فقد ازدهرت صناعةُ الورق في بغداد، ومن ثم غـدَت «الوِراقـةُ» عمـلًا تجاريًـا متوسِّـعًا، فاكتظَّ سـوق الورَّاقين جنوبـي غـرب بغـداد، بأكثر مـن مئـةِ دُكَّان لبيع الـورق والكُتب. ووفَّـر سـكَّان العاصمـة -في الوقـتِ نفسـه- إمـداداتٍ كبيرةً من الخِـرق لمصانع الورق، وضخَّت أنهارها وقنوات الريِّ بها مياهًا كافيـة لإدارة الدَّواليـب فـي مصانـع الـورق، وكانـت دواليـبُ السُّـفن -وهـي الطَّواحيـن الطَّافيـة على مجـاري الأنهـار، والتي

المطاحن

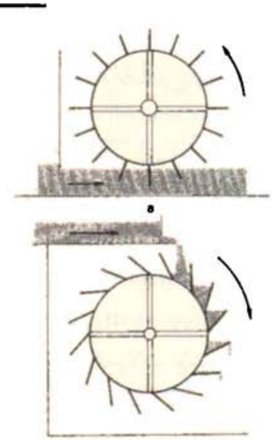
عُرِفَت ثلاثة أنواع رئيسة من دواليب الماء (waterwheel) في العالم الإسلامي في القرون الوسطى: دولاب الماء سُفلي الدَّفع (under-shot wheel)، ودولاب الماء عُلوي الدَّفع (overshot wheel)، ودولاب الماء الأفقي (horizontal wheel) أو ما نُطلق عليه الدولاب الإسكندنافي. ودولاب الماء سُفلي الدَّفع هو عجلة ذات مجاديف مثبتة عموديًا على محورٍ أفقيٍّ؛ وتستمد قوتها على نحو كاملٍ -تقريبًا- من سُرعة تدفق تيَّار المياه الذي يدفع المجاديف فتدور العجلة. وتتأثر الطاقةُ التي تنتجها العجلةُ بمستوى المياه وسرعة التدفق معًا. وكان دولاب الدَّفع العلوي يُثبَّت عموديًا على محورٍ أفقيٍّ، أي تمامًا مثل دولاب الماء سُفلي الدَّفع، بيد أنَّ العجلة كانت تحتوي على مقصوراتٍ أشبه بالدِّلاء بمواجهة الحافة التي يتم منها تصريفُ المياه من خزانٍ علويٍّ أعلى منسوب العجلة. ونظرًا لأن العجلة علوية الدَّفع لم تكن تتأثر بمستوى الماء أو بمعدَّل تدفق التيار، فقد نتج عنها طاقة تعادل ثلاثة أضعاف الطاقة التي كانت تنتج عن العجلة سُفلية الدَّفع، إلا أنها كانت أكثر كُلفةٍ في تشييدها إلى حدٍّ كبير، فإذا استُخدِمت لطحن الغِلال، كان ينبغي تركيب زوج من التُّروس التي تدور بزاويةٍ قائمةٍ على عجلةِ الماء لنقل الحركة إلى أحجار الرُّحى الأفقية. =

كانت تعمل بقوة تدفق تيار الماء- ترسو على نهرِ دجلة، أعلى بغدادَ في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وذلك على الرغم من أنَّ المصادر لم تُحدِّد المُنتجَ الذي عالجته تلك الطواحين، سواءً كان طحن الحبوب، أو خفق لُبِّ الورقِ على سبيل المثال.

ولعلَّ الرِّسالةَ المؤرخةَ بالقرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي التي أرسلها أعضاءُ الأكاديميَّة اليهودية البابلية إلى بني جلدتِهم في الفُسطاط بمصر -وهي محفوظةٌ الآن في مكتبة جامعة كامبريدج- هي أقدمَ عيِّنةٍ من الورقِ يمكن ربطها ببغداد رأسًا. وتُشير الورقةُ السَّميكةُ -إلَّا أنها مُستوية على نحو استثنائي- إلى إتقان صُنَّاع الورق البغداديِّين لصناعتِهم منذ وقتٍ مُبكر، فضلًا عن توافر الورق بأيدي النَّاس خارج نطاق دواوين الخلافة.

وثمَّة عيِّنة أخرى من الورق ربما صُنِعت ببغداد أيضًا، وهي مُصحف صغير الحجم، قياسه ٧×٥بوصة (١٧,٥×١٣,٥سم)، كتَبه الخطَّاط البغدادي المشهور ابن البوَّاب بعد مُضيِّ قرنٍ ونيِّفٍ من الرِّسالة المذكورة آنفًا. ويميلُ لون الورق المستخدم في كتابةِ مصحف ابن البواب إلى اللون البُنِّي الدَّاكن، كما لم يخلُ من بعض البُقع بفعل عوادي الدهر، إلا أنه يتسِّمُ بكونه أرقَّ وأكثر اتِّساقًا مُقارنةً بالورقةِ التي كُتِبت عليها الرِّسالة آنفة الذِّكر. ولا يُشير هذا إلى توافرِ الورق في الأسواق بجودةٍ مُتفاوتةٍ فحسب، بل يشير أيضًا إلى أن الورق الرَّقيق كان مُفضَّلًا عند الخطَّاطين عند نسخِ المصاحفِ خاصةً (انظر: شكل ٢١).

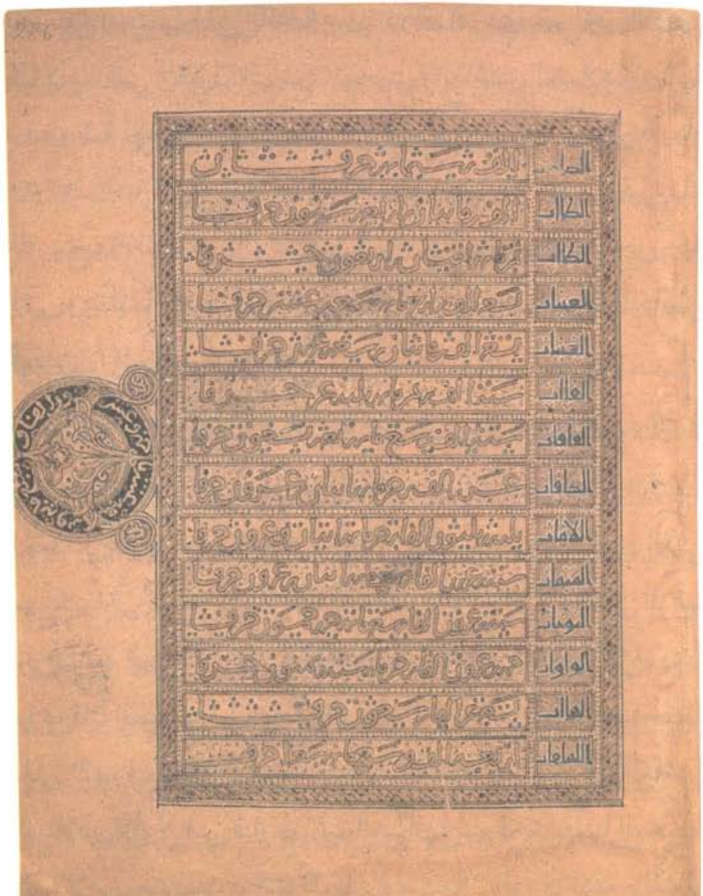
وقيل: إنَّ المحدِّث الكبير [أحمد] ابن حنبل (المتوفَّى ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) كان يُفضِّل الكتابةَ بـ «قلم القصب والمِداد على الرَّق»، ولكن بحلول منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع



دولاب الماء سُفلي الدفع، والدُّولاب علوي الدفع

وكانت الدَّواليب العمودية معروفةً للمهندس والكاتب الروماني ڤيتروڤيوس (Vitruvius) في القرن الأول قبل الميلاد. وكانت أكثر شيوعًا في منطقة حوض البحر المتوسِّط. وغالبًا ما كانت المطاحن التي تعمل بالدَّواليب ذات الدَّفع السفلي تُركَّب على ضفاف الجداول والأنهار سريعة الجريان، وربما جرى تركيبها على المسطحات المائية التي تحركت فيها المياه مدفوعة بالمد والجزر. ومن أشهر هذه الدَّواليب، تلك الدَّواليب الضَّخمة في حماة- سوريا، التي كانت ترفع المياه من نهر العاصي إلى بعض قنوات الريِّ الأعلى منسوبًا قياسًا بمجرى النهر، لريِّ الحقول المجاورة. ورُكِّبت الدَّواليب العائمة (floating mill)، وهي طراز مختلف من الدَّواليب سُفلية الدفع، على ظهور السُّفن الرَّاسيةِ في الأنهار للاستفادة من تيارات الماء سريعة الجريان. وكتَب المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (Pro-copius) أن الجنرال بيليساريوس (Belisarius) اختَرع الدُّولاب العائم=

الميـلادي -أي بعـد قرنٍ مـن الزمان تقريبًا منذ عرَف المسـلمون الـورق- كان عـددٌ كبيرٌ مـن العُلمـاء المسـلمين -إن لـم يكـن مُعظمهـم- وكذلك علماء النَّصارى واليهود، يسـتخدمون الورق فـي كتابـة الرَّسـائل، وحفـظ السـجلات، ونسـخ المُصنَّفـات في الأدب والعقيدة على حدٍّ سواء.



شكل (٢١): صفحةٌ مـن مُصحـفٍ بخطِّ ابـن البـواب، فـرَغ منـه فـي بغـداد عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠-١٠٠١م. وجـه الورقـة ٢٨٦. تُنشـر بـإذنٍ كريـمٍ من أمنـاء مكتبة شيستر بيتي-دبلن [Is. 1431].

لمـا حاصـر القـوطُ رومـا عـام ٥٣٧م وقطعـوا القنـوات. وبحلـول القـرن الرابـع الهجري/ العاشـر الميـلادي، كانت المطاحن المركَّبة على السُّـفن الكبيـرة ترسـو علـى ضفـافِ نهـري دجلة والفرات بين الموصـل والرَّقة وبغـداد، بيـد أننـا لا نعـرف مـا الذي كانت تَطحنه على وجه التَّحديد.

واحتـوى دولابُ المـاء الأُفقـي علـى مـراوح أو دوَّارات تخـرج مـن محـور عمـودي، صُمّمـت بحيـث تصطـدم بتيار مـاء يجـري حجزه في خزان صناعي فينطلـق بقوة ليصطدم بالمراوح فيتسبب في دوران العجلة. وقيـل: إن دولابَ المـاء الأفقـي كان اختراعًـا يونانيًـا، علـى الرغـم مـن أن الجغرافـي سـترابو (Strabo) ذكَـر -فـي القـرن الأول قبل الميـلاد- أن الملك البارثي (الفارسي) مثريداتس (Mithridates) كان أول مـن شـيَّد مثـل هـذا الدُّولاب في القصـر الذي أقامه فـي آسـيا الصُّغـرى نحـو عـام ٦٥م. واكتشَـف علماء الآثـار دواليبَ أفقيةً في منطقة شرق البحر المتوسط تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد.

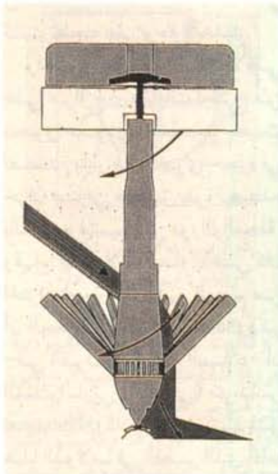
وكان محـور دوران الـدُّولاب الأفقـي فـي نفـس مسـتوى حجـر الرَّحـى، مـا كان يعنـي الاسـتغناء عـن التُّـروس الناقلـةِ للحركـةِ، على النَّقيـض مـن الدَّواليـب العموديـة التـي كانـت التُّـروسُ لازمـةً لنقـل مسـتوى الحركـة لأحجـار الرَّحـى الأُفقيـة. وتمتعـت الدَّواليـب الأفقية بميـزةٍ إضافيةٍ، لا سـيما في المشـرق الإسـلامي، حيث كانت أكثر شـيوعًا ثمة: فقد كان بوسـعها العمل اعتمادًا على الطاقـة الكامنـة لحركـة الميـاه البطيئـة المُتجمّعـة في الأحـواض أو الخزانـات. ومـن ثـم، كانت مناسـبة تمامًـا للعمـل فـي بيئـة تيـارات المـاء ضعيفـة الجريـان في قنـوات الري =

وكان البيزنطيُّون أبطأ في تبنّي الورقِ مقارنةً بالمُسلمين، بيد أنَّ الأقليات النَّصرانية الأخرى التي عاشت بين ظهراني المُسلمين تحت لواء الدَّولة الإسلامية لم تحذُ حذو البيزنطيّين. فقد استخدم النَّصارى السُّريان الورقَ في أوائل القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، وسرعان ما تأسَّى بهم النَّصارى الأشوريون في مصرَ، على الرغم من أن الأقباط المصريين أنفسَهم استمروا في الكتابةِ على أوراق البردي. ثم لَحِق الأرمنُ بالرَّكبِ في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فثَمَّ مخطوطةٌ أرمينيَّة مُدونة على الورقِ وصَلتنا، وهي مؤرَّخة بعام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م. وربما استخدم أهلُ جورجيا الورق قبل هذا التاريخ، وذلك على الرغم من أن أقدمَ المخطوطات الجورجية التي وصَلتنا -مما دُوِّن على الورق- مؤرخةٌ بالقرن الخامس الهجري/ الحادي عشَر الميلادي.

ويبدو لنا أن هذه المُجتمعات النَّصرانية المذكورة آنفًا، أظهرت شيئًا من التردُّدِ في استخدام هذه المادة في نسخ الكتاب المُقدَّس عليها. وربما حاكى النَّصارى المسلمين واليهودَ الذين استمروا في نَسخ كتبهم المقدَّسة على ألواحِ الرَّق. وعلى الرغم من صَرامة اليهود في مسألة وجوب نسخِ التوراة على الرَّق دون غيره، فإنَّ المسلمين لم يجدوا وجهًا للكراهةِ في نسخِ مصاحفهم على الورق بحلول منتصف القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي، أولًا في فارس ثم العراق، ثم لحق بهما المغرب الإسلامي بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ. ويبدو أن الورقَ تمتَّع بالقبول العام في المُجتمعات المسلمة عامةً، فنُسِخَت عليه جميع أنواع المخطوطات، وعلى رأسها المصاحف، في العراق وفارس والشَّام بحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وأفرد هلال [ابن المُحسِّن] الصَّابئ (وهو كاتب من أهل

والقنوات المائية الجوفية في فارس التي شكلت أساسَ نظام الرَّي ثمة. ومن ثم ركِّبَ عدد كبير من المطاحن الأفقية تحت الأرض للعمل ضمن منظومة قنوات ريِّ الأراضي الزراعية في آنٍ واحد.



الدُّولاب الأفقي

القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) فصلًا في كتابه المُسمَّى **رسوم دار الخلافة**، جاء بعنوان: «الطُّروس التي يُكتَبُ فيها إلى الخلفاء وعنهم، والخَرائط التي تحمِلُ الكتب صادرةً وواردةً فيها، والختومُ التي تُوقَّع عليها». ووصَف هلال في هذا الفصل الأعرافَ والعاداتِ المَرعيَّةَ في استخدام الورقِ لأغراضٍ بعينها؛ فأشار إلى أنَّ الورقَ المصريَّ -على سبيل المثال- كان يُستَخدَم في دواوين الخلافة حتى استولى الفاطميُّون على مصر في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. فلمَّا عَدِمت العراق هذا النَّوع من الورقِ، استُعيض عنه بالورق السُّليماني العَريض. وقد استُخدِم هذا النوعُ من الورقِ في كتابةِ رسائل التَّنصِيب والتَّلقيب، وكذلك في مُكاتبات ولاةِ الأمصار إلى الخلفاء. أما بالنسبة لرسائل الخلفاء أو العرائض والالتماسات المقدمة إلى الوزراء، فقد فضَّل الناس استخدام «الورق النِّصفي». ونفترض أن ذلك يعني نصف قَطع الفرخِ المُعتاد من الورق.

أضحَى الورق في القرونِ التالية، أكثر رقَّةً كما ازداد بياضًا، وتزايدت أعداد الكتب التي دُوِّنت عليه على نحو مُطَّرد، كما نلمس في المخطوطاتِ المُدوَّنةِ في العراق آنذاك. وعلى النَّقيض من المصحفِ الذي كتَبه ابن البواب، فإن النسخةَ التي طبَقت شهرتها الآفاق من **مقامات الحريري**، التي ربما تكون قد صُنِعَت في بغداد في عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، نُسِخت وصُوِّرت بالمُنمنمات على صفحاتٍ أكبر قطعًا وأكثر بياضًا؛ إذ بلغ قياسها ١٥×١١ بوصة (٣٧×٢٨سم)، وثمة نسخةٌ معاصرةٌ من هذا الكتاب نفسه، محفوظة الآن في مكتبة سانت بطرسبرغ (St. Petersburg)، تبلغ نصف هذا القَطعِ تقريبًا؛ فقد بلَغ قياسها ١٠×٥,٧بوصة (٢٥×١٩سم)، ومن ثم فهي أكبر حجمًا من مصحف ابن البواب المذكورِ آنفًا.

الطَّحن

استُخدِمت معظم الدَّواليب في العالم الإسلامي -التي كانت تعمل بقوة جريان المياه- في القرون الوسطى لطحنِ الغِلال. لكن ثَمَّ دواليب مائية أخرى كانت تعصِر قصب السُّكَّر، وأخرى تضرِبُ الخِرق لتحولها إلى اللبِّ اللازم لصناعةِ الورق. واعتمدت دواليبُ عَصر قصب السُّكر -المستخدمة في فارس والشام ومصر وصقلية، حيث زُرِع قصب السُّكر ثمة- على الحركةِ الدورانيَّة، وهي النوع نفسه من الحركة المُستخدمة في طحن الغِلال أيضًا. بيد أن الحركة الدورانية لم تكن لتخفق الخرق لتحولِّها إلى اللُّبِّ المناسب لصناعة الورق قط. ومن ثم كان لابد من ضَرب الخرق في الماء بمطارق ميكانيكيَّة، نعرفها اليوم بـ المَساحِق أو المِدقَّات (stampers). وعلى النَّقيض من أحجار الرُّحى، عمِلت هذه المطارق الميكانيكية عن طريق تحويل الحركة الدورانية للدولاب -سواء كانت من النوع الأفقي أو الرأسي- إلى حركة تردُّديةٍ لذراع محوريٍّ (مِطرقة) عن طريق ما نعرِفه اليوم باسم الحَدْبة (Cam). والحدبةُ: نتوءٌ بارز متَّصلٌ بعجلة دوارة أو بمحور، فإذا دارت أو تحرك المحور، سحَبت إحدى الحدبات عمود المطرقة (وهي ذراع محوريٌّ ثقيلٌ) معها إلى أعلى؛ ثم أفلتته عند نقطة معينة، فتسقط المطرقة بقوة الجاذبية ثم ترفعها حدبةٌ ثانية ثم تفلتها، وهكذا دواليك فتقوم بعملِها في الخفق أو الضرب. وتتم عملية الضرب أو الخفق كلَّما سقط الذِّراع العامل (أي المطرقة الخشبية الثقيلة) على الخِرَق الرَّطبة فتسحقها. وعُرِفت الحدبات منذ أوائل القرن الأول الميلادي، وقيل: إنها من=

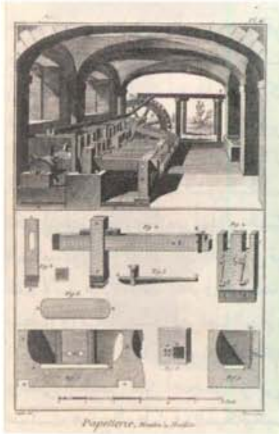
أما **كتاب الأغاني** ذي العشرين مجلدًا الذي نُسِخ في الموصل من أرض العراق، في أوائل القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي، فهو من قطعٍ أصغر قليلًا من المقامات، فقد بلغ قياس صفحاته ١٢×٩بوصة (٣٠×٢٢سم). بيد أن السَّعيَ الحثيثَ لإنتاج ورقة أكبر قطعًا استمر في القرنِ الأخير من العصر العبَّاسي، أعني أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديَّين، عندما وحَّد المغول الإيلخانيِّين العراقَ وفارس معًا في دولةٍ واحدةٍ.

أُنتج الورقُ بأحجامٍ مختلفة في بغداد، وعدَّد المؤرخ المصري القَلْقَشَندِي (المتوفَّى ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) تسعةَ أحجامٍ لقطعِ الورق، كان أكبر قَطعيْنِ منها هما: القطع البغدادي الكامل، والذي بلَغ طوله ذراعًا واحدًا على مقياس ذراع الكتَّان المصري، أي بعبارة أخرى: نحو ٩بوصات (٧٣سم)، وبعرض ذراعٍ ونصف، أي نحو ٤٣بوصة (١١٠سم)، ثم القَطْع البغدادي المُصغَّر، وقياسه ٦× ٣٩بوصة، (٦٥×٩٨سم).

وبلَغ قياسُ صفحات مخطوطةِ [مُصحفٍ] مؤرخةٌ بأوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي نَسَخها أحمد السُّهْرَورِدي نحو ٢٠×٢٨بوصة (٥٠×٣٥سم). وهذا يعني أنها كانت قبل أن تُطوَى من المُنتصف لتنتظمَ على هيئة الصفحات، من فرخٍ قَطْعُه ضِعف هذا الحجم، أي حوالي ٢٠×٥٦ بوصة (٥٠×٧٠سم)، أي بعبارة أخرى: بحجم نصف القطعِ البغدادي الكامل.

وصُنِعت نسخةٌ أكثر من رائعة من [المُصحف] خصِّيصًا للخان أولجايتو (Uljaytu) في عام ١٣٠٦-١٣٠٧م في ثلاثين مجلدًا، تكوَّن كل مجلدٍ منها في المتوسط من نحو ٦٨ صفحة،

اختراع هيرو السَّكندري (Hero of Alexandria)، لكن تطبيقاتها الميكانيكية لم تتطور حتى استخدم الأوروبيون -في القرون الوسطى- مطاحن المطرقة وغيرها، لتحويل الخِرق إلى لب الورق، وضرب الكتان، وضرب الصوف، وطرق الحديد والنحاس، وصناعة لحاء الدباغة (Tanbark).



الحدبات والمدقَّات في طاحونة الورق. المصدر: Denis Diderot and Jean d'Alembert, *Encyclopédie* (1765)

إن تاريخ دولاب المِطرقة في العالم الإسلامي مبنيٌّ على التكهنات إلى حدٍّ كبير. بيد أننا نعتقد أن نموذجها الأوَّلي هو الطاحونة الصينية التي كانت تعمل بقوة الماء لفصل قشور الأرزّ عن الحبوب، والتي استُخدِمت منذ القرن الأول قبل الميلاد. فمما لا شكَّ فيه أنها كانت تعمل عن طريق دولابٍ مائي عمودي.

وانتشرت زراعة الأرزّ ببطء من الصين إلى الهند ثم إلى فارس، ومنها إلى منطقة البحر المتوسط قبل ظهور الإسلام، واستمرت في=

وبلغ قياس الصفحات التي تقلَّص حجمها لاحقًا[1] ٢٦×١٩ بوصة (٦٦×٤٨ سم). أما قبل ذلك التَّقليص فقد كان قياسُ الألفي صفحة التي استُخدمت في نسخ هذه المخطوطة يبلغ ٢٨×٢٠ بوصة (٧٠ × ٥٠ سم). أي طُوِي ما يقرب من ألف ورقة بالقطع الكامل وبلغ قياسها ٢٨×٣٩ بوصة (٧٠×١٠٠ سم). ومن ثم ينبغي أن يكون حجم هذه الورقة هو القَطع البغدادي الكامل المذكور في المصادر المعاصرة.

ما انفكَّت الورقةُ البغداديةُ مُحتفظةً بصفاتِها النَّوعيَّةِ الجيدة، على الرغم مما أحدثه المغول من دمارٍ في بغداد عندما اجتاحوها في عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م، ومع تدهور أوضاع المدينة وتراجع مكانتها على مدار القرن التَّالي، انخفض إنتاج الورق البغدادي. وذكَر القلقشندي أن الورقَ البغداديَّ أضحى عزيزًا في أيامه، وأنه كان يُستخدَم حصرًا لنسخ الوثائق المهمة، مثل: المعاهدات، ووثائق التَّنصيب، ومكاتبات الأمراء. وفي وقت ما كانت جميع المُراسلات الأميريَّة تُكتب على هذا النوع من الورق دون غيره. كما ذكَر القلقشندي أن مصنعًا أُنْشِئ في دمشق، لإمداد الكتَّاب باحتياجاتهم من الورق، وأن ذلك المصنع أنتج ورقًا لا يقلُّ في جودتِه عن الورق البغدادي.

وتُصدِّق مخطوطةٌ كبيرةٌ للمصحف، نُسِخَت في بغداد عام ٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م لمالكٍ مجهولٍ -بخطِّ الخطاط المشهور أحمد السُّهْرَوردِي- على روايةِ القلقشندي بشأنِ الجودة العالية التي تمتَّع بها الورق البغدادي. وتبدو الورقةُ المُستخدَمةُ في كتابةِ هذا المصحفُ بيضاءَ ثلجيَّةً ملساء، وسمَح سطحها لقلم الخطاط

الانتشار بعده كذلك. وثم إشارات كثيرة في المصادر تُشير إلى زراعة الأرُز في الأندلس بحلول القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومع ذلك، فلم يتمتع الأرز قط بشهرة الحبوب الأخرى، مثل: القمح والذُّرة الرَّفيعة والشَّعير في معظم أنحاء العالم الإسلامي؛ ربما لأن البيئة الزراعية المناسبة لزراعتِه لم تكن متوفرة في معظم أرجاء العالم الإسلامي. ومع ذلك، كان خبز الأرُز المصنوع من طحين الأرز هو العنصر الغذائي الرَّئيس للفقراء في الأراضي السَّهلية المحيطة بالأنهار جنوبي العراق وجنوبي غرب فارس، وهي مناطق تمتَّعت بوفرةٍ في مياه الري. كما استُخدِم دقيق الأرز بوصفه عاملًا مُكثِّفًا للأطباقِ والحلوى في طبيخ القرون الوسطى في عددٍ كبير من الأقطار الإسلامية. ووصف عددٌ كبيرٌ من كتب الطَّبيخ العربية في القرون الوسطى أطباق الأرز التي تشبه طبق البيلاف (وهو طبق أرز -وأحيانًا كان يُصنَع من القمح- من أصول شرق أوسطية أو هندية، وكان يطبخ بالتَّوابل مع إضافةِ اللحوم أو الخضروات)، وكذلك كان الأرز المُقشَّر يُسلق أو يُطهى على البخار. من ثم ينبغي أن يكون الطِّراز الصيني من مطحنة المطرقة قد انتشر في أوراسيا جنبًا إلى جنب مع زراعة الأرز؛ وإلا فلن يكون تحضير أطباق الأرزِّ المُقشَّر عمليًا. ومع ذلك فلم يستوثق العُلماء بعد من وجود هذا النوع من المطاحن في العالم الإسلامي حتى الآن، ولا سيَّما في فارس قبل القرن السَّابع عشر الميلادي. بيد أن العالم الفارسي الموسوعي البيروني، أكد على نحوٍ قاطع، في ثنايا تناوله لعمليات تخليص الذَّهب من الحجر، أن =

(١) الإيماءةُ إلى تعرُّض المخطوطةِ لأكثر من عمليةِ جمعٍ وتجليدٍ من قِبل متملِّكيها بمرور الوقت، مما كان له أثرٌ على حجمِها النهائي. وسيُعاود المؤلف ذكر هذا. (المترجم)

بالانسياب على سطحِها دون إعاقةٍ. وأظهَر هذا الورق، عند تحليله مجهريًا، أليافًا بيضاءَ طويلةً ومخفوقةً جيدًا تحت سطح أملسَ مصقولٍ لم تشُبه شائبة (انظر: شكل ٢٢).

ودرَست آثار فن صناعة الورق منذ قرونٍ في معظم ديار الإسلام، وليس ثَمَّ دليلٌ يُوثَق به -اللهم إلَّا تلك الأوراق التي وصَلتنا نفسها- يُشير إلى الكيفية التي صُنِع بها ذلك الورق بالفعل. ومع ذلك فلا بد أن صُنَّاع الورقِ قد وجدوا صعوباتٍ بالغةً في صُنعِ ورقٍ فائق الجودة من القَطع الكبير، ولا سيما في رِزَمٍ كبيرةٍ تضمُّ أوراقًا على نفسِ القدر من الجودة. وتُظهِر المخطوطات التي وصلتنا من عهودٍ سابقةٍ أن صفحاتٍ بهذا القَطع لم تُصنع قطُّ قبل القرن السَّابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وبصرفِ النظر عن تلك الصُّعوبات التي واجهت صُنَّاع الورق -مثل: إعداد القوالب المناسِبة، والأغطية المناسبة لتلك القوالب التي كانت تُصنع من العُشبِ النَّاعم أو الكتان، إضافةً إلى شعرِ الخيل، ناهيك عن تجميع كميات كافيةٍ من اللُّبِّ لضمان اتِّساق الجودة على نحو معقول- فقد تطلَّبت صناعةُ الورقِ قوةً بدنيَّةً هائلةً؛ إذ كان ينبغي على صانع الورق الانحناء مرارًا وتكرارًا، وغمرِ قالبٍ مملوء باللب في الماء ثم رفعه مُجدَّدًا إلى ما يقرب من ياردة مُربَّعة دون مساعدةٍ من أحد، كي لا تَفْسد الورقة التي تشكَّلت من اللبِّ في القالَبِ للتو.

واحتوى القالبُ الذي بلغ قياسه ٢٨×٣٩×١بوصة (٧٠×١٠٠×٢سم) على ما يقرب من ١١٠٠ بوصة مكعبة (١٤,٠٠٠سم مكعب) من الماء واللُّب عند الامتلاء. وتَزِن هذه الكمية نحو ٣١ رطلًا (١٤ كيلوجرامًا)، ومع ذلك كان هذا الوزن يَخِفُّ سريعًا مع تصريف المياه من القالب إلى الراقود. وعلى هذا النحو طَوَّر صُنَّاع الورق الصينيون طُرقًا متنوعةً للتغلُّبِ على

مطاحن المطرقة التي تعمل بطاقة المياه كانت تعمل في سمَرقَند في أواخر القرن الرَّابع أو أوائل القرن الخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين. فقد كتب البيروني قائلًا:

«وربما كان الذَّهب مُتَّحدًا بالحَجر كأنه مسبوكٌ معه، فاحتيج إلى دقِّه، والطَّواحين تَسحقه، إلا أن دقَّه بالمَشاجن أصوب وأبلغ في تجويده، حتى يقال: إنه يزيده حمرة. وذلك إن صَدق مُستغربٌ عجيبٌ. والمشاجن هي الحجارةُ المشدودة على أعمدة الجوَّازات المنصوبة على الماء الجاري للدَّقِّ كالحال بسمرقند في دقِّ القُنَّب للكواغذ».

لا يوضح هذا النصُّ المهم استخدام مطاحن المِطرقة التي تعمل بالماء في آسيا الوسطى في نفس الوقت تقريبًا الذي ظهَرت فيه لأول مرة في غرب أوروبا (وبعد قرون من ظهورها لأول مرة في الصِّين) فحسب. بل إنه يمدنا بتفصيلاتٍ على قدر كبيرٍ من الأهمية، من أن هذا النَّوع مِن المطاحن خاصةً استُخدِم في صناعة الورق. ويبدو من المستبعد تمامًا أن يكون مثل هذا الجهاز الميكانيكي المعقد كان معروفًا في الصين وآسيا الوسطى وغرب أوروبا، دون أن تكون فارس والبلاد المطلة على البحر المتوسط -حيث كان الأرز يُزرع- قد عرفته أيضًا. ومن ثم فالراجح عندنا أن تكون مطحنة المطرقة التي تعمل بقوة الماء قد انتشرت في جميع أرجاء العالم الإسلامي مصاحبةً لزراعة الأرز ولمصانع الورق أينما وُجِدا.



شكل (٢٢): قسمٌ مُفصَّلٌ من (شكل ٤٥)، صفحة الخاتمة (colophon) من مصحف بغداد، خطَّه خطَّاطٌ لمالكٍ مجهولٍ، ويظهِرُ التَّفصيلُ الأليافَ الطويلةَ والسَّطح الأملسَ للورقة. متحف متروبوليتان للفنون *The Metropolitan Museum of Art*، نيويورك.

مشكلة الوزن عند رفع قوالبِ اللُّبِّ، لصنع أوراق ذات قطعٍ كبيرٍ عن طريق ربط القالب، منها نظامٌ من الرَّوافع والأثقال المُوازِنة، ما سهَّل على صُنَّاع الورقِ رفع القالب على نحو متكرِّرٍ.

وعلى أية حال، فإنَّ السُّرعة التي استؤنف بها إنتاج الأوراق من القَطع الكبير، في أعقابِ اجتياح المغول بغداد عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م تُشير إلى أن الأضرارَ التي قيل: إنَّ المدينة تكبدتها في أثناء اقتحام جحافل المغول للمدينة ربما شابها بعض المبالغة. ومع ذلك، فإنَّ صِلات المغول القوية بالصِّين ربما تكون قد شجَّعت صُنَّاع الورق البغداديين على تبنِّي بعض التِّقنياتِ الصينية في صناعة الورق، من شاكلة استخدام نظام الرَّوافع والأثقال المُوازِنة للمعاونة في رفع قوالب اللب. فنحن نعلم أنه في أوائل القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي كان لدى الوزير الإيلخاني رشيد الدين صُنَّاع ورقٍ استَقدمهم ذلك الوزير من الصِّين، وعملوا في خدمته في مدينة تِبْريز، الواقعة شمال غربي فارس، على سبيل المثال. وأيًّا كانت التِّقنية المستخدمة في إنتاج مثل هذه الأوراق الكبيرة، فإن صعوبةَ إنتاجِها جعلتها باهظة الثمن على نحو استثنائيٍّ، حتى في أوقات الرخاء، حيث دلَّت الصَّفحات العريضة -التي كُتِبَ في كلِّ صفحةٍ منها خمسة أسطر فحسب، مع التَّذهيبِ الرائع، والزَّخارف الذهبيَّة واللازوردية- على الفخامة التي اتَّسمَت بها المخطوطات التي وصَلتنا من ذلك العصر.

وبوسعنا الحكم على الكُلفةِ العالية للورقِ من القَطعِ الصغيرِ من خلال نسخةٍ من

المصحف نسَخها الخطاط الشَّهير ياقوت المُسْتَعصِمي عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٦م، فثَمَّ صفحة واحدة من مخطوطةٍ مُكونةٍ من ٢٠١ صفحة، قياسها ١٠×١٤بوصة (٥ , ٢٤×٥ , ٣٤سم)، نسِي الخطَّاطُ فيها إثبات كلمةٍ واحدةٍ في الآية الثانية عشَرة، في النِّصف الثاني من الصفحة تقريبًا. وعلى الرغم من أن الخطَّاط لم يكن قد سطَّر الهامش أو زَخرف الصَّفحة عندما اكتَشف خطأه، فقد اتَّخذ قرارَه بوضع «نجمة» (وهي علامة اللَّحَق)[1] وكتَب الكلمة التي نسِيها عموديًّا على الهامش الأيسر بدلًا من إعادة نسخ الصفحة بأكملِها (انظر: شكل ٢٣). وكذلك فعَل ابن البواب الشَّيءَ نفسه قبل ثلاثةِ قرونٍ تقريبًا. عندما كان الورق -من النَّاحية النَّظرية- سلعةً أغلى بكثيرٍ مما أصبحت عليه في عهد خلفِه العظيم ياقوت المُستَعصِمي.

ويبدو أن سوقَ هذه النُّسخ العظيمة قد كسَد، ولا سيَّما مع انهيار الدولة الإيلخانيَّة في عام ٧٥٦هـ/ ١٣٣٥م، فلم يعُد صنَّاع الورق في بغداد يُكلَّفون بإنتاجِ مثل هذه الأفرخ الكبيرةِ من الورق. ولما كان عددٌ كبيرٌ من المصاحف الكبيرة قد نُسِخ في دمشق أو القاهرة في الربع الثالث من القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فإن هذا قد يشي بأن بعض صُنَّاع الورقِ قد هاجروا من العراق قاصدين دمشق، كما ذهب القَلقشندي. أو ربما واصلوا طريقَهم إلى القاهرة.

وربما ينهض إقبالُ بعض المسلمين على استخدام الورقِ الأوروبي المستورد شاهدًا على اضمِحلال صناعةِ الورق في بغداد في منتصف القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وأقدم مخطوطةٍ معروفةٍ للمصحف نُسخت على ورقٍ أوروبيٍّ صُنِعت في أعقاب سقوط دولة المغول الإيلخانيين، على الأرجح في بغداد عام ٦٣٨هـ/ ١٣٤٠م، وهي تحمل علامةً مائيةً إيطاليةً تُصوِّرُ مفتاحًا مزدوجًا يعلوه صليبٌ (انظر: شكل ٢٤).

---

(١) اللَّحق: إشارةٌ كان النُّسَّاخ يضعونها في موضعٍ من السَّطر لتُشير إلى فواتٍ تراوح بين كلمةٍ إلى سطرٍ وأحيانًا فقرة كاملة في المخطوطات القديمة. ووضعها النُّسَّاخ غالبًا على شكل خطٍّ مستقيم ذي رأسٍ، بحيث أشار الرأس إلى موضع الفوات، وأشار الخطُّ المستقيمُ الصغيرُ إلى اتجاه الحاشية -سواءً كانت الحاشية اليُمنى أو اليُسرى- التي احتوت على النص الذي أشار النَّاسخ نفسه -أو الشخص الذي قابل المخطوطةَ على أصولٍ أخرى- إلى أنَّ الكلمةَ -أو ربَّما الفِقرة- التي وردت في الحاشيةِ جزءٌ من النص فلا يُقرأ دونه. (المترجم)



شكل (٢٣): صفحةٌ من مصحفٍ بخطِّ ياقوت المُسْتَعصِمي، فرَغ منه عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، والْخَط التصحيح الذي أجراه الخطاط على الهامش الأيسر. متحف إيران باسطان–طهران.

وبحلول منتصف القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي نُسِخ عددٌ كبيرٌ من الكتب العربيَّة والفارسيَّة والأرمينيَّة على الورق الإيطالي. وعلى الرغم من أنَّ الورقَ الإيطالي ربما لم يَفْضُل الورقَ المُنتَج محليًا، إلا أنه كان أرخصَ ثمنًا، لا سيما وأن التجار الإيطاليِّين أبدوا استعدادَهم لبيع أوراقِهم بأسعارٍ مُنافِسة، ولو كان في ذلك خسارةٌ لهم. وفوق ذاك، كان نهبُ تيمورلنك بغداد -(حكمه: ٧٧٢-٨٠٧هـ/ ١٣٧٠-١٤٠٥م)، الذي اشتُهر في الغربِ باسم (Tamerlane)- في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، وكذلك المذبحة التي أوقعها بسكَّانِها، بمثابةِ الضَّربة القاضية لثقافة المدينة وتُراثها، وعلى الرغم من الازدهار، الذي لم يدُمْ طويلًا، في العصرَين الجلائري والتُّركماني[1] في القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فإن بغدادَ لم تستعِدْ هيبَتها قطُّ. وعلى هذا النَّحو انتهى عهد بغداد خاصةً، والعراق عامةً، بصناعةِ الورق.

الشَّام

لم يكن الخليفة العبَّاسي هارون الرشيد يُطيق الإقامةَ في بغداد[2]، فتنقَّل بين مدينتي الرَّقة والرَّافقة الوقعتَين شمالي الشام قرب منتصف مجرى نهر الفرات، في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وكانت الرَّقة أكبر مدن الشَّام وشمال العراق، وازداد العمران فيها حتى نافست بغداد، وكانت بمثابة عاصمةٍ للخلافة حتى وفاة هارون في عام

(١) الجلائريُّون، أو بنو جلائر قبيلة مغوليَّة، كانت تستوطِن بلاد ما وراء النَّهر، ثم هاجروا إلى فارس منذ عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م. ثم زاد نفوذهم في ظل الإيلخانيِّين، وتقلَّد بعضهم مناصب عُليا في الدَّولة. ثم ما لبثوا أن استولوا على العراق وأجزاء من فارس، لا سيما بعد انهيار دولة الإيلخانات منذ عام ٧٢٦هـ/ ١٣٣٥م. أما التُّركمان فهم عشائر تُركمانيَّة سيَطرت على أجزاء واسعة من بلاد فارس والعراق والأناضول في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ومن أبرز تلك العشائر التُّركمانية القره قيونلو (أصحاب الشَّاء السَّوداء) وحكموا من تِبريز، والآق قيونلو (أي أصحاب الشاء البيضاء) وحكموا من آمد، واستطاع حسن الطويل (أوزون حسن) القضاء على التُّركمان القره قويونلو. ثم قضَى العثمانيون على كثيرٍ من هذه الإمارات التركمانية في أثناء توسُّعهم في الأناضول. (المترجم)

(٢) لم تكُن المسألة حبُّ الرَّشيد أو كراهته لبغداد، وإنما تمثَّلت القضية في نأي بغداد عن الحدود البيزنطية، حيث احتدمت المواجهات المُتكررة بين جيوش العباسيِّين والرُّوم البيزنطيِّين في عصرِه، واقتضى الأمرُ الرشيدَ أن يكون قريبًا من الحدودِ البيزنطية لردع الرُّوم عن اجتياحِ أعالي الشَّام، وقاد الرشيدُ بنفسه المعارك من هناك. ومن ثم اتخذ الرَّشيد من الرَّقة والرافقة عواصمَ مؤقتة، ونشَر قواتِه حولهما، واتخذ منهما قاعدتين للإغارة على المدن والقلاع الحدودية البيزنطيَّة. (المترجم)

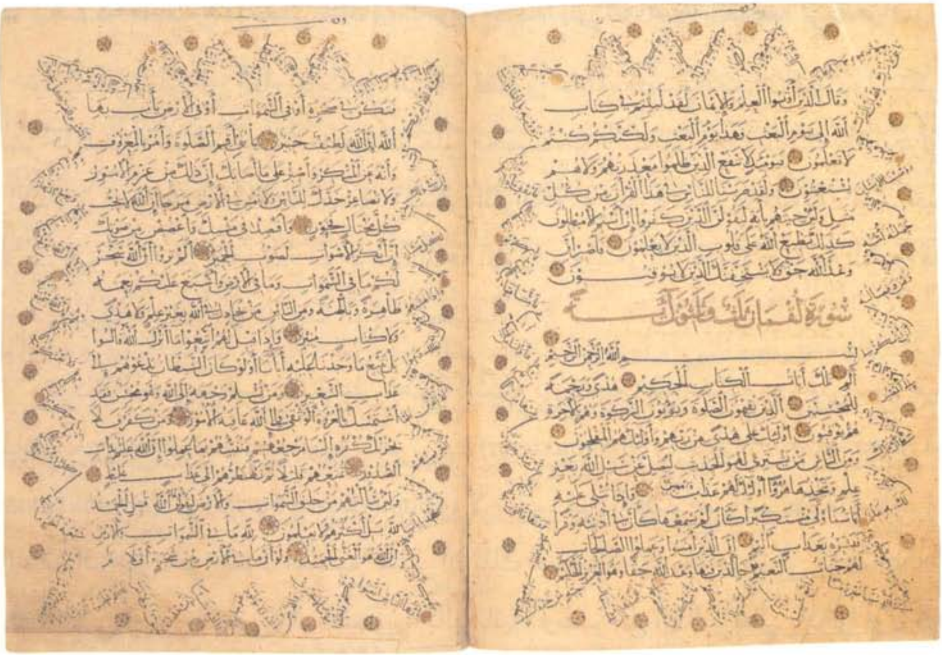
١٩٣هـ/ ٨٠٩م، عندما فضَّل خُلفاؤه العودةَ مجددًا إلى العاصمةِ القديمةِ في العراق.

وشيَّد الرشيدُ -في أثناء إقامته في الرَّقة- قصورًا هائلةً، فاتَّسع العمران فيها، ولـم تكن مسرحًا للحوادث السياسية العالمية المُتقلِّبة فحسب، بل أضحَت أيضًا المركزَ العسكريَّ والإداريَّ المؤقتَ للدولة العباسـية. وتمكَّن البَرامِكةُ من إدارة شـؤون الدولة -المُترامية الأطـرافِ- مـن الرَّقة، ومـن ثم عرفت الرَّقة الـورقَ، وينبغي أن تكون صناعـةُ الورقِ قد دخلت إليها من العراق في هذا الوقت تحديدًا.

وتؤكـد المصـادر البيزنطيَّـة على أهميَّة الشَّـام في تاريخ صناعة الـورق على نحو غير مباشـر مـن خلال تسـميتِها الورق العربي بــ(*Bambuxinon*) وأحيانًـا (*Bambaxeron*) أو (*Bombuxinon*)، أو (*Bambaxeros kartis*) ولا سـيَّما فـي النصـوص البيزنطيَّـة المتأخرة. واعتقد الباحثون في القرن التَّاسـع عشَـر أن تلك المصطلحات مأخوذة من كلمة (-bom bax)، التـي تعني «القطـن» أو «الحرير» باليونانية. ونفتـرض أن البيزنطيِّين كانوا أول من أوجـدَ بديـلًا لورق البردي من خلال صُنع ورقةٍ أطلقـوا عليها (bombycin) صنَعوها من أليـافِ القُطـنِ الخـام. وعلـى الرغم مـن أن أهلَ الشَّـام عرفـوا زراعة القُطن فـي القرون الوسـطى -وإن لـم يتوسَّـعوا في زراعتِه- فقد ظلَّ القطنُ عزيزًا نسـبيًّا في غرب آسيا حتى العصـر الحديـث. بيـد أن تحليل يوليـوس ڤيزنـر (Julius Wiesner) للأوراق الإسـلامية المُبكـرة أظهـر أن القطـنَ لم يلعـب دورًا ذا بالٍ فـي صناعةِ الورقِ في الإسـلام. وكانت أليافُ القطن القليلة التي وجدَها، قد أُدخلت عن طريقِ الخطأ في الرَّاقود الذي وُضِع فيه خليطُ اللُّبِّ، مَثلُها في ذلك مَثلُ ألياف الصُّوف التي أُدخِلت عرَضًا أيضًا.

وفـي واقـع الأمر فإنَّ الكلمة اليونانية (bambuxinon) وكذلك الكلمات التي اشـتُقَّت منها كانت تُشير إلى مدينة «مَنْبِج» في الشَّام، والتي عرَفها البيزنطيون باسم (Bambyke)، ومن ثَم فقد أشارت الكلمة اليونانية إلى المكان الذي صُنِع فيه الورق، لا إلى المادة التي صُنِع منها.

وتمتعت مَنْبِج -الواقعة في القلب من منطقةٍ امتازت بخصوبةِ التُّربة على نهر السَّاجور شـمال غـرب الرَّقة- بمـواردَ وفيرةٍ من المياه، ويبدو أنَّ صناعـةَ الورق قد بدأت ثمة منذ القـرنِ الرَّابـع الهجري/ العاشـر الميلادي على الأقـل، حيث ذكَر الجغرافي الفلسـطيني



شكل (٢٤): مصحفٌ نُسِخ على ورقٍ أوروبيٍّ ذي علامةٍ مائيةٍ. ولا تظهر العلامة المائية في الصورة. العراق أو فارس، نحو عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. ظهر الورقة ٧٢- وجه الورقة ٧٣. مجموعة ناصر د. خليلي للفن الإسلامي، لندن [QUR 561].

المقدِسي، وهو الكاتب المُعاصر آنذاك، الورق الذي صدَّرته طبرية ودمشق أيضًا إلى مختلف المُدن والبقاع. وارتبطت صناعة الأوراقِ الجميلةِ بالشَّام لعدة قرونٍ. بل إن الغرب اللاتيني، عرف الورق أحيانًا باسم «الورق الدِّمشقي» (charta *Damascene*). وكذلك لحَظَ بعض الجغرافيِّين في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي وجودَ مصنعٍ للورق خارج أسوار دمشق على أحد روافد نهر بَرَدَى. ووُجِدَت مصانع أخرى في مدينتي حماة وطرابلس، بيد أنه لم يكن هناك مصانعُ للورق في مدينة حلب الكبيرة؛ لأنه لم يكن ثَمَّ مجرى مائي به تيارٌ قويٌّ بما يكفي لتشغيلِ الدَّواليب.

وصدَّرت دمشق كمياتٍ كبيرةً من الورق الشَّامي إلى مصرَ، ولا سيما خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فقد علِمْنا أن تاجرًا مصريًّا دفَع مبلغ ٢٥٠ دينارًا -وهو مبلغٌ كبيرٌ بحق- مقابل ثمانية وعشرين حِمل بعيرٍ من الورق الذي كان

يحمل ما يشبه العلامة التجارية التي نعرفها في عصرنا هذا، وكانت تلك العلامة هي «ابن الإمام الدِّمشقي». كما عَلِمْنا أن هذا التاجر نفسه قد شحَن ثلاثين حِملًا من الورق الدِّمشقي بحرًا على متنِ سفينة أبحرت من ميناء صور[1]. ولما كانت هذه العلامة قد وُجِدَت قبل وقتٍ طويلٍ من اختراع العلاماتِ المائيةِ، فنفترضُ أن تلك «العلامة التجارية» لم تعدُ كونها ورقةً إضافيةً ألصِقَت على رأس رِزمة الورق، على نحو يشبه البروتوكول (*Protocollon*) إلى حدٍّ كبير، وهي ورقةٌ أكثر سُمكًا كانت تُلصق على رأس لِفافة البردي في العصور القديمة والإسلامية المبكرة وقايةً للِّفافة.

وأقدم مخطوطة وصَلتنا كُتِبت على الورق الشَّامي هي نصٌّ يونانيٌّ، محفوظ الآن في الفاتيكان، تشتمل على تعاليم مُتنوعة لآباء الكنيسة، ويُطلق عليها (Doctrin apatrum) (انظر: شكل ٢٥). واستنادًا إلى نصِّها، بوسعنا القول: إنها كُتِبت في دمشق في أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أما الورق المستخدم في نَسْخ هذه المخطوطة فهو ورقٌ بنيٌّ ضاربٌ إلى الصُّفرة، أملس بصفةٍ عامةٍ على الرغم من تكتُّلِ الألياف على سَطحِ بعض الصَّفحات أحيانًا. وتختلف الصفحات، رغم كونها مرنة وناعمة، في السُّمك من ورقةٍ إلى أخرى، ما يُشير إلى أن تحقيق الجودة في إنتاج الورق على نحوٍ متَّسق كانت إحدى المُشكلات التي واجهت صُنَّاع الورق آنئذٍ. وجاء قَطْع الورق متميزًا بقياس ١٠×٦بوصة (٢٦×١٥سم). ولا يبدو من صِغر قطع ورق المخطوطة أنَّ صُنَّاع الورق قد استخدموا قوالبَ صغيرة بهذا الحجم، بل الرَّاجح لدينا أن النَّاسخَ قصَّ الأوراقَ، ربما بغرض محاكاة القَطع القياسي للكتبِ المدونة على ورقِ البردي آنئذٍ.

كما اكتُشفت شذرةٌ تالفةٌ في مصر، بُنِّية اللون من الورقِ المصنوعِ من خِرق الكتَّان، مَطويَّةً طيَّةً واحدة من نفس القَطع تقريبًا، وهي محفوظ الآن في المعهد الشرقي (Oriental Institute) في شيكاغو (انظر: شكل ٢٦). وتحمل تلك الورقة نصَّ الصفحة الأولى من كتاب **ألف ليلة وليلة**، وهي مجموع الحكايات التي طبَقت شهرتُها الآفاق. إضافةً إلى عددٍ كبيرٍ من العبارات والنُّصوص والرُّسومات. ويُشير تنسيقُ الكتابةِ إلى أنَّ الورقة الأصلية قد شكَّلت الصفحات الأولى من أقدم مخطوطٍ معروفٍ لنا من كتاب **ألف ليلة**

---

(١) عن مصادرَ المؤلف ومراجعه تَفصيلًا، انظر الفصل المسمَّى «قضايا ببليوجرافية» وهو الفصل الخاتم من هذا الكتاب. (المترجم)

وليلة. ولمَّا تشعَّثت المَخطوطةُ الأصلية، استخدم أحدهم -ويدعى أحمد بن محفوظ- الصَّفحات الأربعة الأولى بوصفها قُصاصاتٍ، فنَسخ على حواشيها بعضَ الفوائدِ الفقهيَّة وأرَّخها بـ صفَر من عام ٢٦٦هـ/ أكتوبر ٨٧٩م.

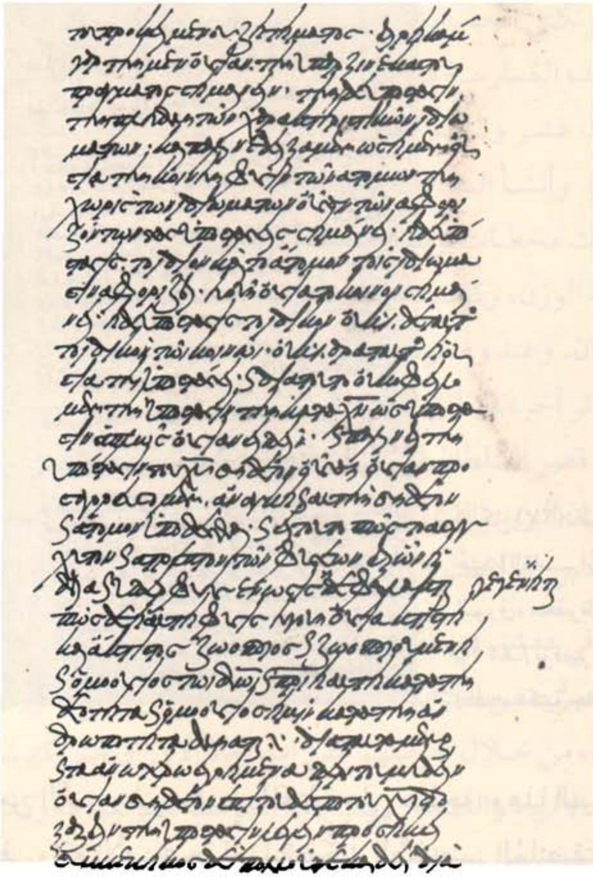
ونشَرت نبيهة عبود (Nabia Abbott)(١) هذه الشَّذرة للمرة الأولى، وفي ثنايا دراستها لها ردَّت أصولَها إلى الشَّام -استنادًا إلى أُسسٍ تاريخيَّة- ثم أرَّختها بالرُّبع الأول من القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، ما يعني أنها كانت معاصرةً للنصِّ اليوناني المذكورِ آنفًا، والمحفوظ في الڤاتيكان، والذي لم تكن نبيهة مُحيطةً به علمًا على ما يبدو، حيث وصَفت شذرة **ألف ليلة** التي نشَرتها بأنها أقدم شذرةٍ وصلتنا من كتابٍ عربيٍّ دُوِّن على الورق.

ويُعتقد أن أقدم كتابِ مخطوطٍ كامل بالعربية نُسِخ على الورق مؤرَّخ بعام ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م اكتشف مؤخرًا في مكتبة [بلدية] الإسكندرية الإقليمية بمصر مصادفةً، وهو تحتَ النَّشر حاليًا. ويُعتقد أن ثاني أقدم كتابٍ عربيٍّ دُوِّن على ورقٍ وصَلنا هو شذرات من مُصنف أبي عُبيد [القاسم بن سلَام] المسمى **غريب الحديث**، وهو مؤرَّخ بذي القعدة ٢٥٢هـ/ نوفمبر-ديسمبر ٨٦٧م، وهو محفوظٌ في مكتبة جامعة ليدن (انظر: شكل ٢٧)، ولا يحمل إشارةً دالةً على المكان الذي نُسِخ فيه. وقد تحوَّل الورقُ السَّميكُ إلى اللَّون البُنِّي الدَّاكن مع ميلٍ إلى الانشطارِ على طول الحواف.

وقد اقتَرح بعض الباحثين -استنادًا إلى هذه السِّمَة- أنَّ صفحات المخطوطات المبكرة قد تكون قد لُصِقَت معًا، ظهرًا إلى ظَهر، من صَفحتَين مُنفصلتَين صُنِعتا في القوالبِ العائمة؛ إذ أن صناعة الورقِ بهذه التِّقنية كانت تجعل أحد الجانبين أكثر خشونةً

---

(١) نبيهة عبود (١٨٩٧-١٩٨١) باحثةٌ أمريكيةٌ من أصولٍ عربيةٍ، وُلِدت لأسرةٍ كانت تقطُن بـ ماردين جنوب شرق الأناضول، ثم سافر والدها -الذي كان يشتغل بالتجارةِ- إلى الموصل، ثم استقر في بغداد، حيث نشأت نبيهة ودرَست اللغة العربية في مدارس بغداد. ثم سافر والدها إلى بومباي وهناك تعلمت نبيهة اللغة الإنجليزية. وفي عام ١٩٢٣ سافرت نبيهة مع أسرتها إلى الولايات المتحدة، حيث حصَلت على درجة الماجستير في عام ١٩٢٥ من جامعة بوسطن. ثم درَست الدكتوراه في المعهد الشَّرقي بجامعة شيكاغو (The Oriental Institute of the University of Chicago). ثم أصبحت أستاذةً للدِّراساتِ الإسلاميةِ في المعهد الشَّرقي حتى تقاعدت بأخرةٍ من عمرها. (المترجِم)



شكل (٢٥): شَذرةٌ من الورق من النص اليوناني المسمى Doctrina partum)، وهي أقدم ما وصَلنا من المُتون المُدوَّنة على ورقٍ عربي. دمشق، مستهل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وقياسُها ٦×١٠,٥ بوصة (١٥×٢٦,٤سم). مكتبة الڤاتيكان[Gr. 2200] .



شكل (٢٦): شَذرةٌ من الورقِ من القرن الثَّالث الهجري/ التَّاسع الميلادي، اكتُشِفت في مصر، تحتوي افتاحية **ألف ليلة وليلة** على اليَسار. أبعاد الطيّ ٥×٩,٥ بوصة (١٣×٢٤سم). تُنشر بإذنٍ خاصٍّ من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو (the Oriental Institute of the University of Chicago) [no. 17618].



شكل (٢٧): صَفحةٌ مِن مخطوطة **غريب الحديث** لأبي عُبيد [القاسم ابن سلَّام]، وهي أقدمُ متنٍ عربيٍّ كُتب على الورق، محفوظ في مكتبات أوروبَّا، مؤرَّخةٌ بـ ذي القعدة ٢٥٢هـ/ نوفمبر–ديسمبر ٨٦٦م. (Legatum Warneria-num، مكتبة جامعة ليدن، (Leiden University Library).

من الآخر وغير مناسبٍ للكتابة على سطحِه. وهذا الميل لانشطار الصفحات طوليًّا جاء في واقع الأمر نتيجة لعملية تفكُّكِ الصَّفحتين المُلتصقتَين –وهي حالةٌ شوهدت في عددٍ من الأوراق القديمة، مثل مخطوطة الڤاتيكان المذكورة آنفًا– فإذا لم يُخفق اللبُّ جيدًا في مرحلة تصنيع الورق، فإن الطبقات الخارجية من ألياف السليلوز لا تنفصل عن الطبقاتِ الدَّاخلية، بل تُشكِّل روابط فيزيائية وكيميائية مع الألياف الدقيقة الأقرب لها، ومن ثم فإن تماسك الورق الدَّاخلي يكون ضعيفًا. وتتفاقم هذه الحال إذا تَصلَّب سطح الورقة بعد عملية التَّغرية، عندئذ يميل الجزء الدَّاخلي الأضعف إلى الانشطارِ بسهولةٍ إلى قسمين، كاشفًا عن سطح داخلي خشن وصُوفي أشبه شيءٍ بالشَّعرِ.

وعلى أية حال، فقد باتت صناعة الورق صناعةً رئيسةً في الشَّام بحلول القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وصُنِع الورق في مجموعة متنوعة من القَطْع والأوزان. وربما كان الأكثر رقة منها هو الورق المُسمَّى «ورق الطير»، وهو ورقٌ رقيقٌ فاتح اللون، وصفَه القَلقَشنديُّ بأن عرضه «ثلاثة أصابع» فحسب، أي نحو ٢,٥ بوصة (٦–٧سم)، وربما بلغ طوله ٣,٥ بوصة (٩سم).

استَخدم الأمير نور الدِّين زنكي الحمام الزَّاجل في نقلِ الرسائل، خلال حقبة الحروب الصَّليبية، واستمرت هذه المُمارسة في عهودِ سلاطين المماليك في القرنَين السَّابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، عندما ضَمَّ المماليك الشَّام إلى مصر في دولةٍ واحدةٍ. وأنشأ المماليك محطاتٍ للحَمام الزَّاجل في الشام، بمعدل محطةٍ واحدةٍ لكل ثلاث محطات بريدٍ أرضيةٍ. وكُتِبَت الرسالةُ على أوراق صغيرةٍ من «ورقة الطير» خفيفة الوزن، وكانت تُلصَق بإحدى ريشات الطائر الجامدة حتى لا تُعيق الطائر عن الطَّيران. وعند وصول الطائر إلى إحدى المحطات، كانت الرسالة تُنزع منه لتربط بجناح طائر آخر، فينطلق بدوره إلى المحطةِ التالية. فإذا وصَلت الحمامة الأخيرة إلى وجهتها في قصر السُّلطان في قلعة القاهرة، أخذ الموظف الموكَّل بالطَّير الرِّسالة إلى صاحب ديوان البريد، الذي كان يفضُّ الرسالة ويقرأها. وعلى هذا النحو تلقى السُّلطانُ تقاريرَ يوميةً من الولايات الواقعة تحت سُلطانه.

ولم تزل صناعةُ الورق نشطةً في دمشق في القرنَين السَّابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. ويُصرُّ بعض الكتَّاب والمُصنِّفين على حرصِ صُنَّاع الورق على الحفاظ على أوراقهم نقيَّةً، من خلال حرصِهم على استبعاد الأوراق التي كُتِبت عليها نصوصٌ مُقدَّسةٌ أو أسماء الأنبياء والعُلماء. ويشبه هذا الموقف قلق اليهود، وكذا قلق أهل الصِّين، بشأن استخدام الورق في المَراحيض لأغراض النظافةِ. وأدَّى هذا القلق بشأن التخلص من الورق القديم إلى الحفاظ على عدد كبير من الوثائق العائدة إلى القرون الوسطى في القاهرة(١).

إلا أن الأمر آل بصناعة الورق في الشَّام إلى الاضمحلالِ، ولا سيما بعد الدَّمار الذي تسبب به الطاعون في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إضافةً إلى تردِّي الحالة الاقتصادية في ظلِّ سلاطين المماليك المُتأخِّرين ونوابهم، ثم لم تلبث أن انهارت صناعة الورق تمامًا بعد أن استولى تيمورلنك على دمشق في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، حيث أَمَر بجمع أفضلَ من وجَدهم من الحرفيِّين في دمشقَ، وأخَذهم معه في طريق عودته إلى عاصمته سمَرقَند. وفي هذا الوقت نفسه بدأ الأوروبيُّون في تصديرِ ورقِهم إلى منطقةِ الشرق الأوسط بكمياتٍ تجارية، ولم تتمكَّن مصانع الورق الشامية من منافسة

---

(١) الإيماءةُ هنا إلى وثائق الجنيزة التي عُثِر عليها في معبدٍ يهودي في الفُسطاط. وسيأتي. (المترجم)

الورق الأوروبي، حيثُ لم تقم لصناعة الورقِ في الشَّام قائمةً مرةً أخرى.

فارس وآسيا الوسطى

على الرَّغم من أن العالم الإسلامي عرَف الورقَ من خلال مسلمي آسيا الوسطى وبلاد فارس، إلا أن الأدلةَ المباشرةَ التي وصَلتنا بشأن استخدامه هناك في القرون الثلاثة، أو لنَقُل: الأربعة الهجرية الأولى، عزيزةً.

وضَعت اللغةُ العربيةُ -وهي لُغة الإسلامِ التي لا نظير لها بين اللُّغات، كما كانت لغة الحكَّام المسلمين الجُدد لفارس- حدًّا للغةِ الفارسيَّةِ الوسطى، التي استُخدمت في عهد ملوك بني ساسان بوصفها لغةً مكتوبةً، ولم تظهر اللغة الفارسية الجديدة -التي كُتِبت بالحرفِ العربي- بوصفها لغةً أدبيَّةً حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

واكتشف السِّير مارك أورل شتاين، في أوائل القرن العشرين، شَذرةً من الورق في داندان أُيلوق (Dandan Uiluq) في تُركستان الصِّينية، كُتِبت باللغة العبرو-فارسية، أي باللغة الفارسية بالحرف العبري، وهذه الشَّذرة مؤرَّخة بعام ١٠٠هـ/ ٧١٨م. بخلاف ذلك، يُعتقد أن أقدم مخطوطة دُوِّنت على الورقِ باللغة الفارسية وصَلتنا هي نسخةٍ كُتِبت عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م من رسالةٍ لـ مُوفَّق بن علي الهَروي، صنَّفها قبل قرنٍ من الزمان على التَّاريخِ الذي نُسِخَت فيه هذه النُّسخة[1]. إلا أنَّ الكُتَّابَ الفُرس استخدموا الورق في القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي -لا مِراء في هذا، بل وقَبله أيضًا- فدوَّنوا عليه الكتبَ والرَّسائلَ باللغة العربيَّة. فكتَب الخطَّاطُ علي بن شاذان الرَّازي أقدمَ مصحفٍ وصَلنا على الورق. ويُشير اسم ذلك الخطَّاط إلى أن مدينة الرَّي، الواقعة بالقرب من طِهران الحديثة، هي مسقط رأسه، والمُصحف مؤرخٌ بعام ٣٦١هـ/ ٩٧١-٩٧٢م، وكذلك نسَخ هذا الخطَّاط نفسه متنًا عربيًّا آخر بعد نحو خمسة عشر عامًا لاحقًا. وعلى الرغم من أن ذلك الخطَّاط -مجهول الحال- لم يذكر أين نَسخ هذا الكتاب، إلا أنَّنا علِمنا أنه نسَخ مُصحفًا آخر في أصفهان بوسط فارس، في شعبان من عام ٣٨٣هـ/ أكتوبر-نوفمبر من عام ٩٩٣م (انظر: شكل ٢٨).

(١) الإيماءةُ إلى الرسالة المُسمَّاة الأبنية عن حقائق الأدوية. (المترجِم)

وذكر المُصنِّفون الفُرس في القرون الوسطى أوراقًا من قُطوع مختلفةٍ وأنواع مُتباينةٍ، فضلًا عن المهن والمواقع المرتبطةِ بالورق وصناعته. ولحَظَ العالمُ العِراقي ابن النَّديم (من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، أن إقليمَ خُراسانَ كان مركزًا لصناعة الورق. وكذلك ذكَر الجغرافي الفارسي المجهول صاحب كتاب **حدود العالم** -الذي فرَغ منه في عام ٣٧١هـ/ ٩٨١-٩٨٢م- أنَّ الكهنةَ في أحدِ المعابد المانويَّة في سمرقند كانوا يصنعون الورقَ، ومن ثَمَّ كانوا يصدِّرونه إلى جميع أرجاء العالم الإسلامي. وذكر أحد المصادر الفارسيَّة[١] من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أن أوراقَ المخطوطات القديمة استُخدمت بِطاناتٍ للقلانسِ، أو لأغلفةِ الكُتبِ عند تجليدِها، وهو الأمر الذي يشير إلى أن الورقَ القديم كان يُعدُّ بدورِه سلعةً لها قيمة.

وكثُرت مصانع الورق بحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حتى إنَّ الشاعر الفارسي منوشِهري[٢] توقَّع أن يفهم النَّاس استعارةً له شَبَّه فيها الأرضَ المُغطاة بأوراقٍ رطبةٍ تُركت كي تجفَّ، بالصحراء التي غَمرتها الثلوج البيضاء، يقول منوشهري[٣]:

أمسَتِ الأرضُ من بلخٍ إلى خفران وكأنَّها مصنعُ سمَرقَنْد

أبوابُ المَصنع وسقفه وحيطانه أشبه بأبواب الرسَّامين أو صُنَّاع الورق!

وأنشَأ رشيد الدين [فضل الله الهمذاني][٤] -وكان وزيرًا للإيلخانيِّين المغول، حُكَّام

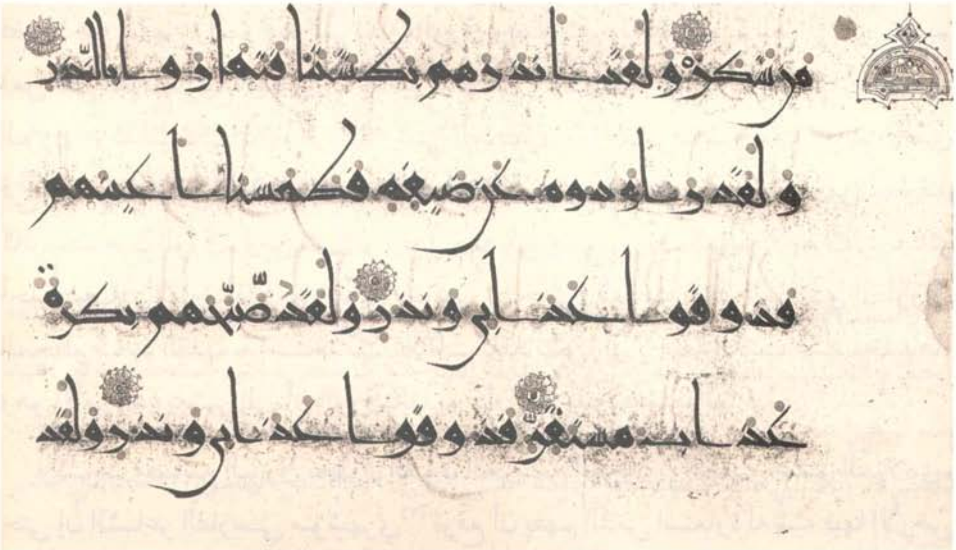
---

(١) عن مصادر المؤلف ومراجعه تَفصيلًا، انظر الفصل المسمى «قضايا ببليوجرافية» وهو الفصل الخاتم من هذا الكتاب. (المترجم)

(٢) هو الشَّاعر الفارسي المشهور أبو النَّجم أحمد بن قوص منوشِهري الدَّامغاني (المتوفَّى ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م). (المترجم)

(٣) البيتان من ترجمةِ المترجم المُباشرة عن التَّرجمة الإنجليزية للأبياتِ الفارسيَّة لـ منوشِهري. ولم أرَ الأصل الفارسي الذي تُرجمت تلك الأبيات عنه، وأخمِّن أنَّه ديوان منوشهري غالبًا، كما أنني لا أجيدُ اللغةَ الفارسيةَ. (المترجِم)

(٤) رشيدُ الدِّين فضل الله الهمذاني (٦٤٥-٧١٦هـ/ ١٢٤٧-١٣١٨م) وزير غازان خان الإيلخاني، وطَبيبه، وأعظم مؤرِّخي الفُرس، وصاحب الكتاب المسمى **جامع التواريخ**. كان له نفوذٌ عظيمٌ على خانات الإيلخانيِّين حتى قيل: إنه هو من حمَل الخان أولجايتو على اعتناق المذهبِ الشَّافعي. وعاش في ظلِّ الإيلخانيين كالملوك، وعظُمَت ثروتُه ونفوذُه. إلا أنَّه قُتل بعد أن اتُّهم بالتسبُّبِ في وفاة الخان خرابندا بعد أن أعطاه دواءً تسبَّب في موته. (المترجِم)



شكل (٢٨): صفحةٌ من مخطوطةٍ غير كاملةٍ للمصحف نُسِخَت على ورق، في أصفهان، وهي مؤرَّخة بـ شعبان ٣٩٣هـ/ أكتوبر-نوفمبر ٩٩٣م. متحف المتروبوليتان للفنون (*The Metropolitan Museum of Art*)، نيويورك، (*Rogers Fund*), *1940 (40.164.5r)*.

فارس والعِراق، وواحدًا من الرجال المُتنفِّذين في عصرِه- «كاغاز-خانة» أي مصنعٍ للورق على مجرى مائيٍّ كان يتدفَّق عبر أراضي شهرستان في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وأوقَف إنتاج ذلك المصنع من الورقِ على مكتبتِه التي كانت داخلةً بدورِها في وقفِ الرَّبع الرَّشيدي، في إحدى ضواحي تِبريز. وأراد الوزيرُ من إنشاء المَصنع تزويدَ المكتبة التي أسَّسها في تِبريز باحتياجاتها من الورق. وأنتَج ذلك المصنعُ الورقَ من نوع الورق البغدادي وقطعِه، وهو أمر لا يثير الدَّهشة؛ إذ إنَّ بغداد كانت إحدى العواصم الشِّتوية للدولة الإيلخانيَّة. ونصَّ رشيد الدِّين في كتاب الوقفِ، على أنَّ المصاحفَ التي ينسخها الخطَّاطون ينبغي أن تكون على الورقِ البغداديِّ دون غيره من أنواع الورق، وأن مُتونَ الحديثِ ينبغي أن تُنسَخ على النَّحو الذي يليق بها.

كان رشيد الدين مُطَّلعًا أيضًا على جوانبَ أخرى من تقنياتِ صناعةِ الورق، فقد علِمنا من خلال المعلومات التي عرَضها في رسالةٍ له أفردَها في الزراعة، أنه جلَب بعض صُنَّاع

الورق الصينيِّين للعمل في مصنعِه الذي أنشأه لصُنع الورق. ولم يكن استقدام الحرفيِّين الصِّينيِّين أمرًا صعبَ التحقيق كما قد يبدو لأوَّلِ وهلةٍ؛ وذاك لأنَّ سيطرة المغول على فارس عمِلت على تَيسير الاتصالات بين فارس والصِّين من خلال آسيا الوسطى. وعلى أية حال فقد تعلَّم رشيد الدين من الحرفيِّين الصينيِّين صناعةَ الورق من لِحاء شجرة التُّوت، والكتابة على جانبٍ واحدٍ فحسب من الورقة، وتغليف السِّلع باستخدام الورق.

وذكر [المُفضَّل بن سعد] المافروخي في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في ثنايا كتابِه الذي وضَعه في **محاسن أصفهان**، والذي تُرجم إلى الفارسية في القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أنَّ الورق من النَّوع الرَّشيدي -والذي نفترض أنه كان يُشبه الورقَ الذي صُنِع لـ رشيد الدِّين خصيصًا- قد صُنِع في أصفهان أيضًا. وامتدح المافروخي، أو ربما المُترجم الفارسي المجهول[1] هذه الورقة، التي كانت تُستخدَم في نَسخ كتبِ الأدب وكتب العُلماء من السَّلف:

> «فأمَّا من جهةِ بهاءِ الورق وقطعِه وشكلِه ورِقَّتِه ونظافتِه ومُرونتِه وتساويه وطلائِه، فإنك لن تجدَ مثل هذا الورق في أي مكانٍ في الدُّنيا سوى أصفهان»[2].

وغنيٌّ عن الذِّكر أنَّ المافروخيَّ، والمُترجم الذي ترجمَ كتابَه، كانا من أهل أصفهان. ولعمري، إنَّ الشُّوفينية (التعصُّب) سمةٌ أصيلةٌ في البشر.

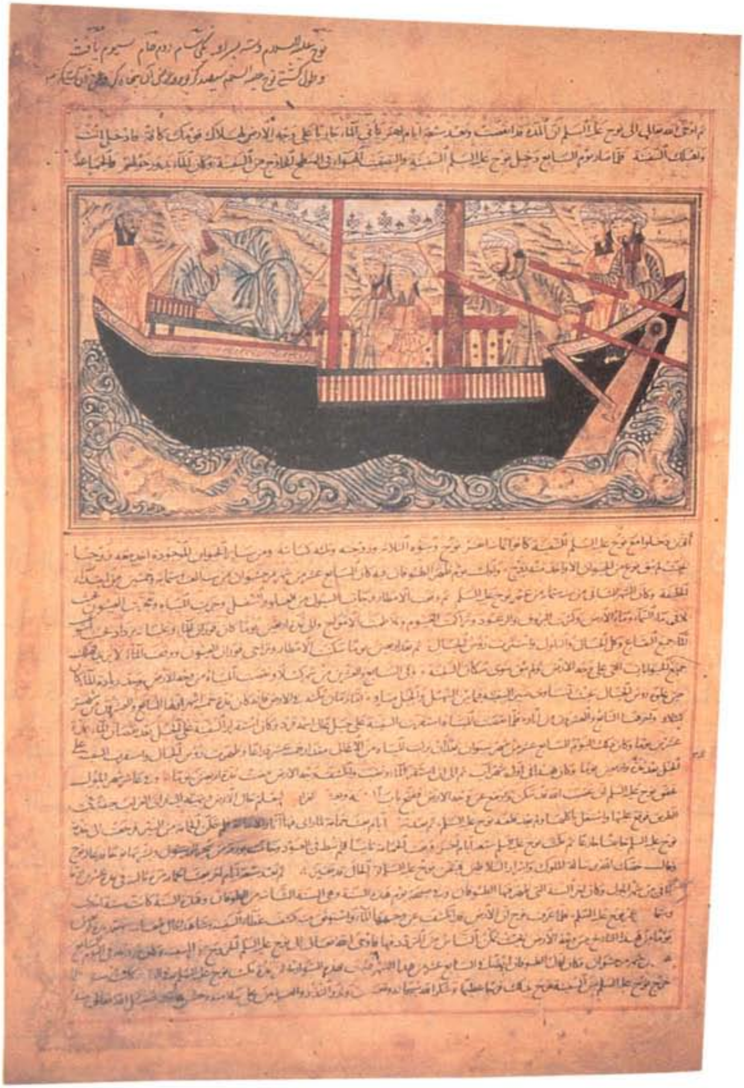
على أيَّة حالٍ، فقد كان الإسرافُ في استخدام الورق ذي القطعِ الكبير من سمات أصحابِ السُّلطان. وفضَّل كل من الخان أولجايتو ووزيره رشيد الدين أن يستخدما في كتاباتِهم ورقًا عالي الجودة من القَطع الكبير، وبكمياتٍ كبيرةٍ على نحوٍ لافتٍ للنظر، فضلًا عن تكليف الكُتَّاب بنسخِ المصاحف ومُتون الحديث؛ حتى إنَّ رشيد الدِّين أمَر ورَّاقيه الذين عمِلوا في خدمته أن يستخدموا صحائف كبيرةً من الورق البغدادي عالي الجودة لنسخ مُصنَّفه المسمى **جامع التواريخ**، باللغتين العربية والفارسية كل عام.

---

(١) يُعتقد أنه الحُسين بن محمد الأصفهاني العَلوي. (المترجِم)

(٢) تجدر الإشارةُ إلى أن النَّشرةَ العربيةَ من كتاب **محاسن أصفهان** للمافروخي تخلو تمامًا من هذه العبارة، وغالبًا هي من إضافاتِ المُترجم الفارسي. وبناءً على هذا، فالنصُّ أعلاه من ترجمتي عن ترجمة بلوم الإنجليزية للنص الفارسي الأصلي. شأنه في ذلك شأن جميع النصوص والأشعار الفارسيَّة المُقتبسة نصيًّا في هذا الكتاب. (المترجِم)

ووصَلنا عددٌ كبير من مخطوطاتِ رشيد الدين: منها جزءٌ واحدٌ مؤرَّخٌ بـ ذي الحجة من عام ٧١٤هـ/ أبريل-نيسان من عام ١٣١٥م من مخطوطةٍ لمُصحفٍ كان يتكون من ثلاثين مجلدًا، أمَر رشيد الدِّين بصُنعه، وقياسه ٢١×١٤ بوصة (٥٢×٣٧سم)، أي



شكل (٢٩): مُنمنمةٌ تُصوِّر «سفينة نوح» من كتاب **جامع التواريخ** لـ رشيد الدِّين فضل الله الهمذاني، وجه الورقة ٢٨٥. تِبريز، ٧١٤هـ/ ١٣١٤م، مجموعة ناصر د. خليلي للفن الإسلامي-لندن [Ms. 727].

بالحجم نفسه الذي كان للمُصحف الذي نسَخه الخطاط أحمد السُّهروردي في بغداد قبله بعَقدٍ من الزَّمان، والذي يُعادل ورقه قطع «نصف البغدادي». أمَّا قياس صفحات النُّسخة العربية من **جامع التواريخ** فهي ١٧×١٢ بوصة (٤٣×٣٠سم)، ولكن أحدهم قصَّ الهوامِش، ربما بمقدار ١,٥ بوصة (٣سم) من كل جانب (انظر: شكل ٢٩). فأضحى قياس الصَّفحات الأصليَّة بعد تهذيب الصَّفحات ٢٠×١٤ بوصة (٥٠×٣٦سم)، وهو ما يقابل قطعَ نصف البغدادي.

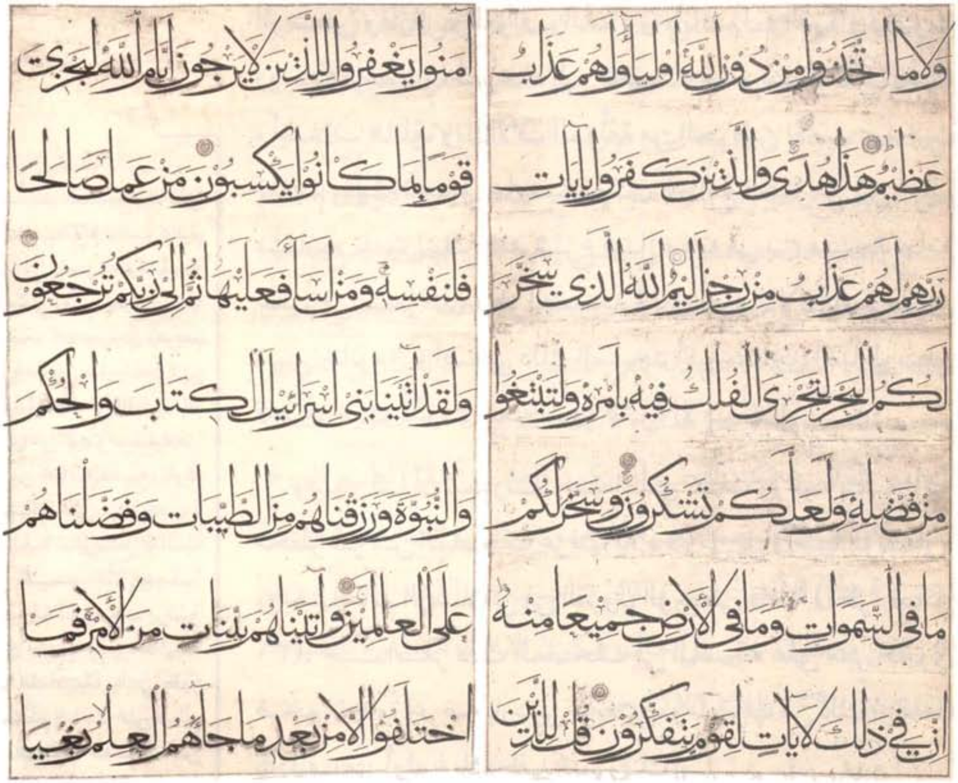
ونُسِخت التَّرجمة الفارسيَّة للكتاب نفسه -المحفوظة في إستانبول- على صفحات قياسها ٢٢×١٥ بوصة (٥٤-٥٦×٣٨-٣٩سم). وتُشير تلك الأبعاد الأكبر قليلًا إلى أن تلك المخطوطة قد أُعيد تجليدها لمراتٍ أقل قياسًا بالنُّسخةِ العربية، حيثُ قُصَّتْ أوراقها بمقدارٍ أقل. وثَمَّ نسخة من رسائل رشيد الدين في الفقه، يُطلَق عليها **المجموعة الرَّشيدية**، قياس صفحاتها في الأصل ٢٠×١٤ بوصة (٥٠×٣٧سم)، ومُنتخبات من الشِّعر نُسِخت في المكتبة الرشيدية، على الأوراق ذات القَطع الكبير نفسها.

واستمر ذوقُ الإيلخانيِّين في تَفضيلِ الورق من القطع الكبير الفاخر بعد وفاة رشيد الدين في عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م. وكانت صفحات الكتاب **شاهنامة المغول العظام** أو **كتاب الملوك** من القطع الكبير على نحو مُماثلٍ. ونُسِخ هذا الكتاب برعاية غِياث الدِّين بن رشيد الدِّين بعد نحو عقدين من الزمن في دار النَّسخ بالمكتبة الرشيدية المُستحدثة (انظر: شكل ٣٠). وجرَى ترميمُ المخطوط على نطاقٍ واسعٍ، حيث استُبدلت الهوامشُ، ربما في القرن التَّاسع عشر. ولكن نظرًا لأن المُنمنمات نفسها قياسها ١٥×١١ بوصة (٤٠×٢٩سم)، فربما بلغ حجم الهوامش الأصلية ٤ بوصات (١٠سم) على ثلاثةِ جوانب على الأقل، ومن ثم ينبغي أن يكون قطع الصفحات الأصلية، قبل عملية ترميم المخطوطة، من قطع نصف البغدادي على الأقل، إن لم تكن من قطعٍ أكبر إلى حدٍّ ما.

وكان انهيارُ دولة الإيلخانيِّين في فارس والعراق -قرب منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي- إيذانًا بانتهاء حقبةٍ من رعايةِ الكتابِ وفنونِه، فلم يعُد هناك من يُكلِّف صُنَّاع الورق والخطَّاطين بصناعة مخطوطات من هذا القَطع الكبير. وربما هجَر بعضُ صُنَّاع الورق فارس، إلى جانب الخطَّاطين وغيرهم من الفنَّانين، وارتحلوا إلى مراكزَ فكريةٍ أخرى مثل القاهرة ودمشق. ومع ذلك، استمرَّ صُنَّاع الورق



شكل (٣٠): «سالمٌ وطور يذبحان إيراج» من **شاهنامة المغول العظام**. تِبريز، نحو عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م.
تُنشر بإذنٍ كريمٍ من أمناء مكتبة شيستر بيتي-دبلن [Pers. Ms. 111.3] .



شكل (٣١): صفحتان مُتقابلتان من المصحفِ العظيم، يُفترض أن تيمور قد أمر بنسخِه ووقفِه على مسجدٍ بناه في سمَرقنْد بين عامي ٨٠٢-٨٠٧هـ/ ١٣٩٩-١٤٠٤م. (Art and History Trust)، بإذنٍ من معرض آرثر م. ساكلر *Arthur M. Sackler Gallery*، معهد سميثسونيان (*Smithsonian Institution*)، واشنطن العاصمة [LTS1995.2.16.2, LTS1995.2.16.1].

الفُرس في إنتاج أوراق رائعة، وإن كانت أصغر قطعًا، أو هكذا يمكننا الحُكم على الورقِ المُستخدم في المخطوطات المُصوَّرة التي نُسِخَت في مدن إقليميَّة مثل شيراز. والواقع أن جودةَ الورقِ قد أخذت في التحسُّنِ تدريجيًّا خلال النصف الثاني من ذلك القرن عينِه.

وأصابت صناعةَ الورق -إضافةً إلى جميع فنونِ صناعة الكِتابِ الأخرى- تحولاتٌ كبيرةٌ، بعد أن شرَع تيمورلنك في لمِّ شَعثِ إمبراطورية جنكيزخان المغولية في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. فقد اجتاح تيمورلنك آسيا

الوسطى وفارس والعراق والشَّام والأناضول والقوقاز وجنوب روسيا كإعصارٍ، ثم عاد إلى عاصمته سمَرقنْد مُحمَّلًا بغنائمَ وأسلابٍ هائلةٍ، وبالآلاف المؤلَّفة من الحرفيِّين الأسرى، حيث كلَّفهم بمهمَّةٍ تجميل عاصمته. وكان الجامعُ الكبيرُ من بين أعظم مشاريع تيمورلنك؛ فقد شرَع قبيل وفاته في بناء مسجدٍ جامعٍ عظيم في سمرقند، وهو المسجد الذي يعرف الآن باسم مسجد «بيبي خانوم». وأضحى ذلك المسجد أكبر مساجد آسيا الوسطى قاطبةً، حيث قُدِّرَت سعتُه بنحو عشرة آلاف مُصلٍّ.

ويبدو لنا أنَّ تيمورلنك هو الذي كلَّف ورَّاقيه بنسخ أكبر مخطوطةٍ من المُصحف عرفتها بلاد فارس بل وآسيا الوسطى، وربما العالم الإسلامي في القرونِ الوسطى قاطبةً (انظر: شكل ٣١). حيث استقرَّ ذلك المصحف في المسجد على منبرٍ حجريٍّ ضخمٍ، تجاوز عرضه ياردتين مربَّعتين، وما يقرب من ذلك ارتفاعًا، بتكليفٍ من أولوغ بك حفيد تيمورلنك.

وإذا حكَّمنا الصَّفحات التي وصَلتنا، والشَّذرات المحفوظة من هذا المصحف العظيم، فإن كل صفحةٍ من صفحات هذا المصحف بلغ قياسها أكثر من ٧×٥ أقدام، أي (٢,٢×٥٥,١م)، أي بعبارة أخرى: بلغ قطع الصفحة الواحدة ثمانية أضعاف حجم الورقة البغدادية من القَطع الكامل. وتطلَّب ذلك الحجم الهائل للأوراق أن يكونَ الورق أثقلَ وأقوى وأكثر مرونةٍ من الورق المعتاد، بحيث لا يتمزَّق عند تقليبِ صفحات المُصحف. وبما أنَّ الصفحات التي وصَلتنا مسطرتها سبعة أسطر فحسب، فإننا نتصوَّر أن المُصحف الكامل تطلَّب ما يقرب من ١٦٠٠ ورقة، وهو ما يعادل ٢٩,٠٠٠ قدم مربع، أو نحو ٢٧٠٠ متر مربع من الورق، أو بعبارة أخرى نحو ثُلثي فدَّان من الورق.

ونجد من الغريب أن أيًّا من الصَّفحات التي وصَلتنا لا تحتوي

القوالب:
ربما تشكَّلت الصفحات الأولى من الورق باستخدام قالبٍ عائم من قطعة قماش منسوجة ومشدودة على إطار خشبي. وكي يُصْنَع الورق بهذه الطريقة، كان يجري تعويم القالب في وعاء في ماءٍ ضحلٍ، ثم يُصبُّ اللب المُحضَّر في القالب. ثم يُرفع القالب من الحوض، فيتدفق الماء ببطء من خلال النسيج، تاركًا الألياف متشكِّلة على هيئة حصيرة رقيقة ورطبة. ثم يوضع القالب بأكمله في الشمس حتى يجف. ومتى جفَّ القالب، كان بوسع صنَّاع الورق فصل حصيرة الألياف عن الشاشة القماشية، والتي يظهر انطباعها المنتظم الباهت على سطح واحد من الورقة. عندئذ يمكن استخدام القالب مرة أخرى لصنع ورقة جديدة.



امرأة من غرب نيبال تصنع الورق باستخدام القالب العائم. المصدر: *Silvie Turner*, The Book of Fine Paper, *pl. 13*

=

على نصوصٍ كُتِبت على ظهرها، كما أن ظهر الأوراق خشِنٌ على نحو لا يُناسب قلمَ الخطّاط. ولا يشير خُلو ظهور الأوراق من النصوص، ولا سيَّما متى قورن بالسُّمكِ الاستثنائي للورق، إلى أن صنّاع الورق قد كُلِّفُوا بصُنْع ضعف عدد الورق اللازم لنَسخ المصحف فحسب، بل يُشير أيضًا إلى أنهم قد استخدموا تقنيةً مختلفةً في صُنع ذلك الورق. فإن افترضنا أن صُنَّاع الورق استخدموا التقنية الاعتيادية التي تقتضي غمرَ قوالبَ من قطعتين بحجمٍ مُناسبٍ في وعاءٍ مملوءٍ باللب، ثم إزالة الصَّفحة المشكلة للتو من القالب، فكان ينبغي أن يكون القالب أعمق لصُنع الورقة السَّميكة. فإن افترضنا أيضًا أن عمقَ القالبِ كان نحو ٢ بوصة (٥سم) على الأقل لجمع مقدارٍ مناسبٍ من اللُّب الكافي، وهو افتراض معقول على كل حالٍ، فيكون القالب المملوء باللب قد وزَن نحو ٣٩٠ رطلًا (١٧٢كجم)!

لذا؛ لا بد أن صُنَّاع الورق قد لجأوا إلى التِّقنيةِ القديمةِ المُتمثِّلة في غمرِ اللُّبِّ وتركه في قوالبَ عائمة استقرت في حوض الماء. وتطلَّبت صناعة الورق بهذه الطريقة مزيدًا من القوالب، حيث كان على صُنَّاع الورق ترك كل ورقة تجف على حِدةٍ أولًا قبل إزالتها من القالب لاستخدامه في تشكيل ورقة جديدة. وهكذا استغنى صناع الورق عن تقنية الغمر، ورُفع قالب مُمتلئ باللبِّ من وزنٍ تنوء بحمله العُصبةُ من أُولي القوة. ولا نتصوَّر تقنيةً أخرى غير هذه التِّقنية القديمة، كان بمُكْنَةِ صُنَّاع الورق في سمَرقَنْد استخدامها لصُنع هذه الأوراق ذات الحجم الهائل، التي أمَر الرَّاعي بصنعها آنذاك.

وعلى الرَّغم من شُهرة ورق سمَرقَنْد وجودته التي طبقت الآفاقَ منذ عهدٍ طويلٍ، إلا أنه يُغرينا أن نتخيَّل أن صُنَّاع الورق الذين أُنيط بهم القيام بإنتاج هذه الأوراق ذات القطع الهائل،

وعلى الرَّغم من أن هناك نوعًا ثانيًا من القوالب، وهو قالب الغمر، ويبدو أنه قد طُوِّر في وقت مبكر من القرن الثالث قبل الميلاد، إلا أن صناع الورق استمروا في استخدام القالب العائم، ولا يزال هذا النوع من القوالب مُستخدَمًا في أجزاء من الصين وجنوب شرق آسيا.
ووصَف الأمير المغربي المُعزُّ بن باديس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي استخدام القالَب العائم لصناعة الورق، على الرغم من أنَّ الفحص المادي للورق الذي صُنِع في المغرب والأندلس أظهَر أن صنَّاع الورق اعتمدوا على قالب الغمر الذي كان أكثر شيوعًا. وقد يُفسِّر استخدام الألياف القصيرة المستخرجة من الخِرق -بدلًا من الألياف الطويلة المستخرجة من اللِّحاء- تفضيل قالب الغمر في العالم الإسلامي وأوروبا في التطور الأخير، ربما بسبب خصائص التجفيف المختلفة في كل منهما. ولم يمنع استخدام أحد نوعي القوالب من استخدام النوع الآخر. وربما فضَّل بعض صُنَّاع الورق استخدام القالب العائم، على سبيل المثال، لأنَّ القالب لم يحتج إلى الغمر والرَّفع، بل تُركت الورقة في القالب حتى تجف، بينما كانت الورقة تُنزع رطبةً فور تشكلها في قالب الغمر، ومن ثم كان لكل منهما مزايا وعيوبٌ. وتعتمد آلة تصنيع الورق (*Fourdrinier*) الحديثة على تقنية القالب العائم، حيث يُسكب اللُّبُّ على حزام دوَّار، وخلال دورانه تُصرَّف المياه الزائدة.
وأدى اختراع قالب الغمر إلى تسريع عملية صناعة الورق؛ وذلك=

كانـوا من الدِّمشـقيّين الذين وقعوا في أسـرِ تيمـور، وأخذهـم معه إلى سمَرقنْد.

وعلـى صعيدٍ آخـر؛ طوَّر صُنَّاع الورق الصينيِّيـن تقنيةً مختلفةً لصُنـع أوراقٍ هائلـة الحجـم فـي القـرن الرابع الهجري/ العاشـر الميلادي، ولكن هذه التِّقنيات لم تُعرف قطُّ في فارس في العصر الإيلخانـي؛ وذلك لأن تيمورلنك لم يكـن قد غزا الصِّين بعد، إذ اختَرمتـه يدُ المنونِ بينما كان فـي طريقِه لاجتياحها في أوائل عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م. لذا بمقدورنا القولُ: إن هذه التقنيات لم تكن معروفةً في سمَرقنْد قط.

ووصـف سـو يجيـان (Su Yijian) صاحـبُ الكتاب المسـمَّى (Wen fang si pu) -فـي القرن العاشـر الميـلادي، وهو أقدم متنٍ صينـيٍّ في الـورق وصناعته- الكيفية التي صنَع بهـا صُنَّاع الورق فـي هويـزو (Huizhou) فرخًـا من الورق بلغ طولـه نحو ٥٠ قدمًا (١٧ مترًا)، حيث استُخدِمت إحدى السُّفن بوصفها راقودًا للب، وقـام خمسـون عامـلًا -أو يزيـدون- برفـع القالـب الضَّخـم في الوقت نفسـه، بخطواتٍ رُتِّبَت على دويِّ قرعِ الطبل كي لا تَختل أبعـادُ الورقة في أثناء رفع القالب. وجُفِّفَت هذه الورقة أفقيًا فوق مدخنةٍ كبيرةٍ، بدلًا من وضعها على الحائط كالمعتاد.

ويُشـير الجانبان -المصقول والخشـن- فـي أوراق مخطوطةِ المصحـفِ التَّيمـوري العظيم إلى أن صنَّاع الـورق التيموريِّين لم يستخدموا هذه التقنية قطُّ. وحتى لو افترضنا أنهم كانوا يعرفونها، فإنهـا لم تكـن مُلائمةً لأهدافِهـم؛ وذاك لأن القالـبَ الصِّينيَّ كان طويلًا وذا عرضٍ محدودٍ للغاية، وقد خُصِّص -على نحوٍ مثاليٍّ- لصُنع شريطٍ طويلٍ من الورق لاستخدامه على هيئة لِفافة، ولكنه لم يكن يُناسب قط صُنع كتابٍ (codex).

لأن صنَّـاع الـورق تمكَّنـوا مـن إزالة الورقة المشكَّلة للتو من المنخل أو المصفاة بينما لا تزال رطبة، ومن ثم تشكيل أوراق أخرى أثناء تجفيف الورقـة الأولى. وفـي بعض الأماكن وُضِعـت الصفحـة الرطبـة عموديًـا على جـدارٍ أملـسَ وتُركـت لتجف؛ أما فـي أوروبا خاصـةً، فقد وُضِعت الأورق الرطبة بعضها فوق بعض في طبقاتٍ، وفصل اللباد بينها، ثم وُضِع الجميـع تحـت مِكبسٍ كـي يُعصـر المـاء الزَّائد منها. ثـم كانت الأوراقُ الرَّطبـةُ تؤخـذ وتُوضع علـى الحبال كي تجفَّ تمامًا.

وقالـب الغمـر: هـو إطارٌ خشـبيٌّ مسـتطيل الشـكل، وإذا صُنـع بحجم كبيـر، كان يضـاف إليـه أضـلاع تكميليـة، وتربـط الجوانـب الأطول أحيانًـا لإعطاء القالـب ثباتًـا مـن حيـث الأبعـاد ولمنعِـه مـن الالتواء. وتَدعَـم حـواف القالـب (والضلوع) الغربال أو الشَّاشـة، والذي قد يكون مصنوعًـا من العُشـبِ أو شـرائح من الخيزران المُستدير المصفوف جنبًا إلـى جنـب. وأيًـا كانـت المـادة التي صُنِع منها، كانت الشَّـرائط تثبت معًا علـى مسـافاتٍ مُنتظمـةٍ باسـتخدام خيـوط من الحرير أو الكتَّان أو شـعر الحيوانـات. وربمـا صُنِعت الشاشـة مـن أليـافِ الكتـان في بعـض مناطق العالـم الإسـلامي، حيـث لـم يكـن الخَيـزران متاحًـا. وعزَّزهـا صانـعُ الورقِ عن طريق قليِها في الزَّيت. بيد أن شاشـات الألياف كانت تترهَّل مع كثرة الاسـتخدام، ما يؤدي في النهاية إلـى عدم اتِّسـاقِ الورقـة. وعلى هذا النحو طـور الأوروبيُّـون تقنيةً لصنع الشَّاشـات مـن الأسـلاك الدَّقيقة، =

ولـم تزَلْ مخطوطةُ مصحف تيمور العظيمة مشهورةً بين الناس حتـى بعد قرنيـن تقريبًا من نسـخِها؛ وذاك لأن المُـؤرخَ الصَّفوي قاضي أحمد كان على علمٍ بها، ونسَـب كتابتَها إلى الخطَّاط عمر الأقطـع، الذي كانت يُمنـاه مقطوعةً، فكتَب هـذا المصحفَ بيده اليُسرى، قال قاضي أحمد:

«خـطَّ [يعني عمـر الأقطـع] مُصحفًا غُباريًّـا [يعني صغيـرًا]؛ وكان مـن الصِّغر بحيث يُمكـن وضعُه تحت فـصِّ الخاتم، ثم قدَّمـه إلى ملك الزَّمـان. ولكن تيمور أنكَـر عليـه كتابـةَ كلام الله العزيـز في مثل هـذا الحجمِ الصَّغيرِ، ولم يرضَ به ولـم يقبله، ولم يَجْزِ الخطَّاط عنه شيئًا. فـكان أن كتَـب عُمَـر مُصحفًا آخر عظيمًـا، فكلُّ سَـطرٍ مـن أسـطُره ذراع أو أطول. فلمَّا انتهـى من خطِّه وزخرفتِـه وتجليدِه، حمَلـه على عربةٍ، وأخَذه إلى قَصرِ ملك الزمان. وما أن سـمِع السُّـلطان بأمرِه، حتى خرَج للقائـه برفقةِ العُلمـاء والأمراء والأعيـان وأهل الدَّولة، فلمَّـا رأى السُّـلطانُ المصحفَ أعظَمـه، وكافأ الخطَّاط وخَلـع عليه الخِلعَ العظيمـةَ، وكرَّمه ورفع مرتبتَه، وأمَر له بالأموالِ والعطايا الجليلة»(١).

وعلى الرغم من أن روايةَ قاضي أحمد لا تخلو من طرافةٍ، فإنه يصعـبُ علينـا أن نتصوَّرَ أن خطاطًـا تيموريًّا كان يسَـعُه أن يطلب آلافًـا مؤلَّفـة مـن هـذه الأوراق الكبيـرة من تلقاء نفسـه. بل يُشـير الحجم الهائل لهذا المشروع إلى أنَّ الإشراف عليه أُوكِل إلى هيئةٍ ملكيَّـةٍ منذ البدء، وهو الأمر الـذي تطلب تخصيصَ جزءٍ كبيرٍ من الموارد المتاحة لصُنَّاع الورق من ذوي الخبرة في سمَرقند. ولكن هـذه المخطوطة العظيمـة، على ما يبدو، كانت فريـدةً من نوعها،

(١) تجـدرُ الإشـارةُ إلـى أن النصَّ المنسـوبَ إلـى قاضي أحمد مـن ترجمتي عن ترجمةِ بلوم الإنجليزية للنَّص الفارسي. (المترجم)

فنُسِـجت الشَّاشـة عـادةً مـن سِـلك برونزيٍّ غير قابلٍ للصَّدأ.

ويتكـون قالـبُ الـورق الحديـث من شاشـةٍ دقيقةٍ موضوعة على إطار ويعلوهـا إطـارٌ ثـانٍ قابـل للإزالـة. ويسـاعد الإطـار الثانـي، المسـمى (deckle)، علـى تنظيـم كميَّـة الألياف التـي يتـم جمعها علـى الشَّاشـة. ثم يدخـل القالب المُـزدوج عموديًا في وعـاء يحتـوي علـى اللب ويُسـحَب أفقيًـا، مـا يسـمحُ لـه بالمـلء بكميةٍ محسـوبةٍ مـن الأليـاف والمـاء. ثـم تصـرف الميـاه من خـلال الشاشـة، تـاركًا حصيـرة مـن الأليـاف. ونظرًا لأنَّ الشاشـة ناعمـة وثابتـة، فبمجرد إزالة الغطاء، تتحرَّر حصيرةُ الألياف الرَّطبـة، وتوضع الورقة حتى تجف، ويُعاد استخدام القالب بالكامل على الفور.



قالب صناعة الورق الياباني. ينطبق الغطاء (*deckle*) على القالب المُضلَّع ليُثبِّت الشَّاشة المصنوعة من الخيزران في مكانها. المصدر: *Sophie Dawson,* The Art and Craft of Papermaking, *p. 20*.

حتى بالنِّسبة للملوك والرُّعاة الآخرين في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. بل إنَّ المولَعين بالكتب، اختاروا ألا يحاكوا نماذج الحكام، بل شجعوا صُنَّاع الورق على إنتاج أوراقٍ من قَطعٍ أصغر حجمًا، إلا أنها ذات جودة عالية للغاية.

ونجَحت مصانع الورق في فارس في تحسين فنِّ صناعة الورق بحلول القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فكان يسعُهم صُنع ورقٍ من أي قطع أو قوةٍ أو قَوام. وصنَّف الخطَّاطون والرسَّامون الأوراق المختلفة التي استخدموها في إنتاج بعض المخطوطات الأكثر أناقة وروعة من تلك التي صُنِعت في أي مكانٍ آخر في العالم الإسلامي، وفقًا لسماتِها.

وكانت السَّنوات التي حكَم فيها خُلفاء تيمور آسيا الوسطى وفارس هي الحقبة الكلاسيكيَّة لفنونِ الكتابِ الفارسي[1]، مثل الكتاب المُصوَّر الذي جمَع على نحو لا تُعوِزه الروعة مجموعة مُتناغمةٍ من الفنون، مثل: صناعة الورق والخط والزَّخرفة والتَّجليد. ويُظهِرُ الفحصُ الفنِّي أنَّ صُنَّاع الورق قد تمكَّنوا من إذابةِ اللُّبِّ تمامًا، حتى إنَّ الورقَ النَّاتجَ كان بالكاد يحتوي على عددٍ قليلٍ للغاية من الأليافِ المرئيَّة. وسمَحت معالجاتهم المُحسَّنة للبِّ تدريجيًّا بصُنع أوراقٍ جميلةٍ ورقيقةٍ دون التنازل عن عُنصري القوة والمرونة اللازمتين في الورقة. وعلى الرغم من أن الاتساق في الحجم والسُّمك في رِزمة الورق كان قيمة مُقدَّرةً عند الخطاطين والرسَّامين آنذاك، إلا أنهم لم يروا بأسًا في استخدام أوراق من سُمكٍ مُختلف إلى حدٍّ ما في المجلَّد نفسه الذي عملوا عليه.

وكان ينبغي أن تكون الورقة المثالية للخط والرسم رقيقة وقوية وقد ورَد ذكر عملية تغرية الورق (*Sized*) باستخدام نَشا الأرُزِّ في كتاب جمال اليَزدي المُسمَّى **فرخ نامة جمالي**، الذي وضَعه قبل قرون، أي نحو عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤-١١٨٥م. ووصَل الخطَّاطون في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بفنونهم إلى آفاقٍ جديدةٍ، وذلك بفضلِ التَّحسينات التي جرَت على الخامات، فرسموا لوحاتٍ تكاد أن تأخذ بلُبِّ العاقلِ.

---

(١) يعني مُصطلح فنون الكتابِ: نوع الورق والخط والزَّخرفة والتَّذهيب والتَّزويق والمنمنمات (إن وُجِدت) والتَّجليد، وكل ما يندرج تحت مصلح فنِّ صناعة الكتاب الإسلامي من عناصر فنِّيةٍ وجمالية قائمة بذاتها، ومتناغمة في الوقت ذاته في عمليةِ صُنع الكتابِ الإسلامي الكلاسيكي الفخم من وجهة نظر مؤرِّخي الفنون. (المترجم)

وفضَّل الخطَّاطون صقلَ ورقِهم بأنفسِهم، لإنشاء سطحٍ أملسَ لا يعوق قلمَ المِداد عليه عائق، وذلك من خلال الإمعان في صقلِ سطح الورقة إلى أقصى حدٍّ ممكن باستخدام حجَرٍ صلبٍ أملسَ. وذكَر الخطاط البارز سُلطان علي المَشهدي (المتوفَّى ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) عدة أبياتٍ من الشِّعر الفارسي في رسالتِه التي أفردها لفنِّ الخط، ذكَر فيها فنَّ صقل الورقِ وتغريتِه يدويًّا، قائلًا:

ذِكرُ طلاء الورق

اصنع الغِراءَ من النَّشا
واحفظ هذا الكلامَ من شيخٍ هَرِم يروي ما تعلَّمه من أسلافه
اصنَع عجينةً أولًا، ثم صُب الماءَ عليها
ثم اغْلِها من فورِك على نارٍ حاميةٍ
ثم أضف إليها النَّشا وبعض الغِراء
وقلِّب الخليطَ [بحيث لا] يخفُّ قوامه ولا يغلظُ
ثم انشره على صفحةِ الورقِ وانْظُر
ولا تُحرِّكِ الورقةَ من مكانها ولو قيد أُنملة
ومتى انتهيتَ من طلاءِ ورقتِك
رطِّبها بقليل من الماء، واحْرِصِ

ذِكرُ صقل الورق

ينبغي أن تكونَ الورقةُ مَصقولةً كذلك
فلا يظهرُ بها تجعيدٌ ولا تشَعُّثٌ
لذا اصقِلها على طاولةٍ نظيفةٍ
بيد قويَّةٍ، في غيرِ عُنفٍ، ولا رقَّةٍ؛
ولكن توسَّط في ذلك، تُحسِنُ(١)

(١) تَرجمت الأبياتَ الفارسيةَ المذكورة أعلاه من خلال ترجمة بلوم الإنجليزية، ولم أطَّلع على الأصل الفارسي. (المترجم)

كان هنـاك كثيـرٌ من أعمالِ الصِّباغةِ والتَّلوين، إضافةً إلى صقلِ الورق المسـتخدم في فـنِّ الخـطِّ. وكان ذوق الخطَّاطين يميلُ إلى اسـتخدام الورقِ الملـون منذ فترة طويلة في المشرق الإسلامي. وكتب سيمي النَّيسابوري (من أهلِ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشـر الميلادي) -وكانَ خازن مكتبةٍ في مدينةِ مشـهد من أرضِ فارس- كما كان خبيرًا في فنونِ الكتابِ، قائلًا:

«إن رأيتَ أن تَصبغَ الورق لونًا خفيفًا تُحسِـن صُنعًا؛ فالورقُ الأبيضُ تمجُّه العيـون، وقـد رأينـا أئمـةَ الخطَّاطيـن وشـيوخهم كتَبـوا خطوطَهـم علـى ورقٍ مَصبوغٍ»[١].

وعرَض النِّيسابوري مجموعةً من الوصفات المُختلفةِ للأصباغ المُستخدمة في تلوين الورق. وكانت الألوان الأكثر شيوعًا -عنده- هي الأصفر والبرتقالي الضَّاربيْنِ للحُمرة، والحِنَّائي والأخضر الليموني، والفُستقي والبرتقالي.

وعلى الرغم من أن صُنَّاع الورق كانوا يتباهون بقدرتهم على صُنع ورقٍ أبيضَ ثلجيٍّ -في حقبةٍ سـبقت اكتشـاف عمليات التَّبييض الكيميائي- فإنه يبدو أن الخطَّاطِين فضَّلوا الكتابـةَ علـى الورقِ الملوَّن. وربما يعكس اللون البُنِّي الفاتح أو الدَّاكن المُميِّز لكثيرٍ من المخطوطـات الفارسـية فـي القرون الوسـطى حرصَ الخطَّاطيـن على تجنب أثـر البِلَى الذي قد يصبغ الورقَ بهذا اللون بمرور الوقت.

وتضمَّنت المخطوطات التي وصَلتنا من القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشـر والسَّـادس عشر الميلاديين الأوراق في مجموعةٍ واسـعةٍ من الألوان، بما في ذلك اللون الأزرق والوردي ولون السَّلمون والأخضر الباهت، بالإضافة إلى اللونِ الضَّاربِ إلى السُّمرة، والبُنِّي الفاتح الذي كان أكثر شيوعًا.

وعدَّ كثير من الخطَّاطين الفُرس الورقة الصينية (khitai) أفضل أنواع الورق وأجوده. والتقـى ابـن النَّديم في القـرن الرابع الهجري/ العاشـر الميلادي برجـلٍ جمَّاعةٍ للكتب، وذكَـر عنـه أنه كان يتتبَّع الورقَ الصِّيني، ويحرص علـى اقتنائه متى وجَده. وذكر الأديبُ وقاضـي القُضـاة هندوشـاه الناخشـفاني (مـن أهل القـرن الثامـن الهجري/ الرابع عشـر

(١) الملحوظة السَّابقة عينُها. (المترجم)

الميلادي)، ستِّين ورقةً من الورق «الصِّيني» في قائمة الهدايا في مجموعةٍ من الرسائل الخاصة والرسمية التي جمَعها للحاكم الجلائري عويس. وكان الخطَّاط سُلطان علي المَشهدي يعتقدُ أن الورقةَ الصينيَّة أفضل جودةً ولونًا، وكرَّر عددٌ كبيرٌ من الشُّعراء المُعاصرين هذه الملحوظة لاحقًا.

ومثلما أصبَح مصطلح «الورق البغدادي» مُصطلحًا عامًا أُطلق على الأوراق الجميلة والكبيرة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فإن مُصطلح «الورق الصِّيني» ربما كان له معنى عام أيضًا. ومع ذلك، كانت الورقةُ الصِّينيةُ باهظةَ الثمن. ولدينا فكرة عن قيمتها استقيناها من وثيقةٍ حمَلت اسم الشَّاه حسين ميرزا، صاحب هَرات في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وتحتوي هذه الوثيقة على تقديرٍ لكُلفة نَسخِ مخطوطة كتاب **الشَّاهنامة** والتي بلغت ٤٢,٤٥٠ دينارٍ، منها ١٢ ألف دينار (٢٨٪) خُصِّصت لشِراء الورقِ «الصِّيني»، بسعر ٢٠ دينارًا للورقةِ الواحدةِ. ونحو ١٥,٥٧٠ دينارًا (٣٧٪) دُفِعَت للخطَّاط، بسعر ٢٥ دينارًا لكلِّ ألف بيتٍ. أما بقيَّة المال فقد خُصِّصَت للرسَّام والمُزوِّق.

ولا يسعُنا الوثوقُ بالأرقام الدَّقيقة الواردة في هذه الوثيقة؛ لأنها ربما زُوِّرَت بهدف زيادة قيمة المخطوطة عند عرضِها للبيعِ مجددًا في القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي، بيد أنه كان ينبغي أيضًا أن تكون النِّسبُ معقولةً بما يكفي لخِداع المُعاصِرين. وتُشير هذه النوعيَّة من الورق، التي تمثل كُلفتها (٢٨٪) من التكلفة الإجمالية للكتاب، إلى أنَّ الورق كان سلعةً أغلى بكثيرٍ مما هو عليه اليوم، حيث لا يلقي النَّاشرون بالًا للورقِ عادةً عند حساب التَّكلفة الإجمالية لصناعة الكتابِ في أيامنا هذه.

وصُنِع الورقُ الصِّينيُّ من أليافٍ مُختلفةٍ تمامًا عن تلك المُستخدَمة في بلاد فارس، وقد أُضْفيَت عليه لمسةٌ نهائية أكثر نعومةً ومَلاسةً؛ وذاك لأنه كان مُعَدًّا -في الأساس- للكتابة باستخدام الفُرشاة النَّاعمة لا أقلام القصبِ الصَّلبة. ولم يقتصر الأمر على تقدير النَّاس للورق الصِّيني لجودته العالية فحسب، بل قدَّروه أيضًا بسبب الزَّخارف التي طوَّرها صُنَّاع الورق الصينيُّون على مرِّ القرون، ومن ذلك أعمال: الصِّباغة والتَّرخيم والرَّش والتَّذهيب. وتَظهر بعض هذه التقنيات في أقدمِ الأمثلة التي وصَلتنا من الورق الصِّيني المألوف المُستخدم في كتابة إحدى المخطوطات الفارسية، أعني **ديوان فريد**

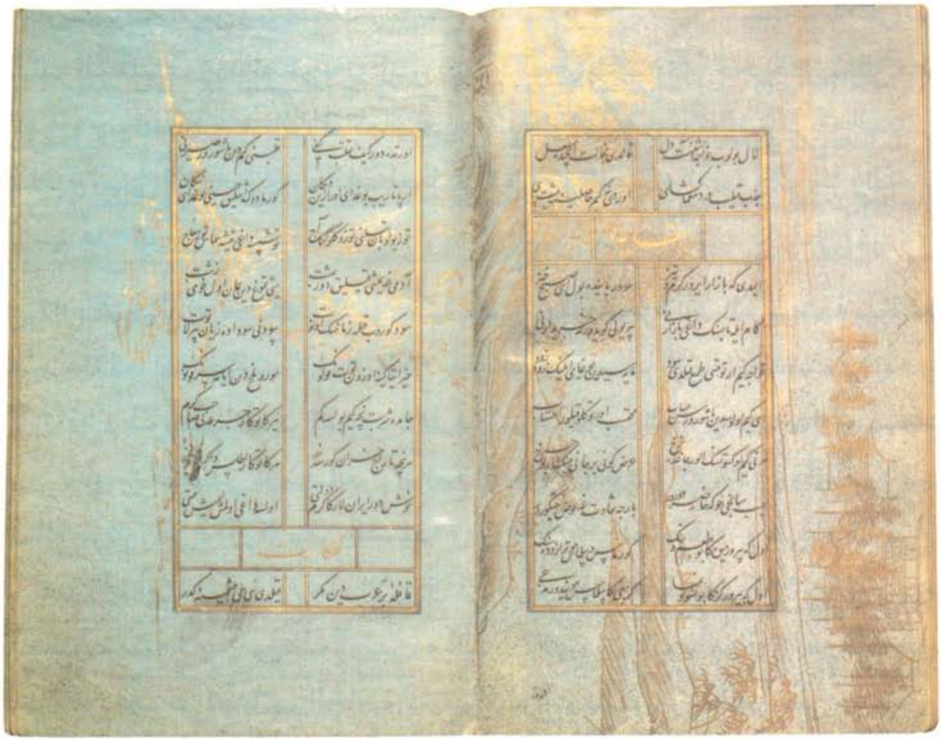
الدِّين العطار، في مجلَّدين نُسخا في هَرات عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م خصِّيصًا للخان التَّيموري شاه رُخ. ونُسِخَ كلا المُجلَّدين على ورقٍ صينيٍّ رقيقٍ مَصبوغٍ بألوانٍ مختلفةٍ، وزخارف ورُسومات من الذَّهب.

وثمَّ مخطوطٌ فارسي آخر، وهو نسخةٌ مُصغرةٌ من كتاب مير حيدر خوارزمي المسمَّى **مخزن الأسرار**، نُسخت في تِبريز عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م بخطِّ الخطاط سُلطان علي المشهدي، على صفحاتٍ مقطوعةٍ من لِفافاتٍ صينيَّة. وفحَص العلماء تلك المخطوطة فحصًا دقيقًا، وبناءً على ذلك تمكَّنوا من إعادةِ بناء اللِّفافات التي قُطِعت تلك الصَّفحات منها. وكانتا لِفافتَين، بلغ قياس عرضهما ١٧ بوصة (٤٤سم)، لكن إحداها كانت ضِعف طول الأخرى، حيث بلغ طولها ١١٠ بوصة (٢٨٠سم)، مقابل ٥٧ بوصة (١٤٤سم) للِّفافةِ الأقصر. وكانت هاتان اللُّفافتان مَصبوغتَين باللون الأزرق الفاتح، ومذهَّبتَين بأشكالٍ على هيئة الزُّهور والطيور، والمناظر الطَّبيعية (انظر: شكل ٣٢). ومن المُفترض أن الخطاطَ الفارسيَّ هو الذي قصَّ الأوراق الصينية من اللِّفافتين، وغرَّاها بالنَّشا قبل أن يخطَّ الأبياتَ الفارسية عليها باستخدام قلمٍ من القصبِ، اللَّهم إلا إذا كان النَّشا قد استُخدِم أصلًا من قبل صُنَّاع الورق الصينيِّين لتسهيلِ التصاق جزيئاتِ الذَّهب على الورقة.

وربما جُلِبت مثل هذه الأوراق الصينيَّة المذهَّبة إلى فارس بصفةِ هدايا خلال السِّفارات العديدة المتبادلة بين تيمورلنك وخُلفائه وأباطرة سلالة مينج (Ming) في الصِّين آنذاك. حيث وصَلت إحدى قوافل التجَّار قادمةً من الأراضي التيمورية إلى نانجينج (Nanjing) عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م تحمل هدايا لإمبراطور يونجلي (Yongle)، فردَّ الإمبراطورُ الهديةَ بأحسَن منها. وعادت تلك القافلة إلى سمَرقنْد في العالم التالي ٨١٧هـ/ ١٤١٤م، حاملةً معها الهدايا من الحرير السَّاذَج[1] والمُزوَّقِ. وتذكرُ المصادرُ الفارسيَّةُ سفارةً صِينيةً أخرى وصلت إلى سمرقند عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م تحمل هدايا من الصُّقورِ والأقمشةِ المُطرَّزةِ والخزفِ الصِّيني والورق.

وسَرعان ما طوَّر الحرفيُّون الفُرس تقنياتهم الخاصة في الرشِّ والتَّذهيب، أو ما يطلقون عليه بالفارسية فن «الظرفشان» (Zarafshan)، وأضَحت هذه اللَّمسات الفنيَّة

(١) السَّاذج (السَّادة كما تجري ألسِنة العوام) وهو الطَّبيعي الذي لا نقشَ ولا رسمَ ولا تزويقَ ولا صنعةَ فيه. (المترجم)



شكل (٣٢): ورقٌ صينيٌّ أزرقُ مُذهَّبٌ يمثل منظرًا طبيعيًّا لنهرٍ متدفقٍ وتلالٍ وطائرَين يقفان على شجرةٍ مورقةٍ. كتبه الخطَّاط سُلطان علي المَشهدي بخط النَّسخ-تعليق، والنص «قصيدة حيدر الجغطائي» من ديوان **مخزن الأسرار**. تِبريز ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م. مجموعة سبنسر (*Spencer Collection*)، مكتبة نيويورك العامة (*The New York Public Library*، أستور(Astor)، مؤسسة لينوكس وتيلدين (*Lenox and Tilden Foundation*) [Pers. Ms. 41].

شائعةً للغاية عندما تطوَّر لدى جمَّاعة الكُتبِ ذوقٌ خاصٌّ لجمعِ خطوطِ كبار الخطَّاطين في مُجلَّدٍ واحدٍ، ثم جمع المُنمنمات في سجلاتٍ خاصَّةٍ (ألبومات) في التطور الأخير. وركَّب هواةُ جمع الخطوطِ والمُنمنمات العيِّنات ذات الأحجام المختلفة على أوراقٍ من قطعٍ قياسيٍّ من الورق المُزخرفِ قبل جمعها وتجليدِها. ومال عددٌ كبيرٌ من كتَّابِ القرون الوسطى لزخرفة الورقِ بأنماط في أحجام تراوحت من «الغُبار» (أي الزَّخارفِ الخفيفة) إلى «البُقع» الكبيرة. فقاموا أولًا بتغريةِ الورقِ باستخدام النَّشا، ثم تذهيبه بالرشِّ بحُبيباتٍ ذهبيةٍ -صُنِعت من خلالِ طحنِ أوراقِ الذَّهب الخالص، وتوزيعها على الورقِ باستخدام فرشاةٍ من شَعر الخيل أو من النَّسيج المُستخدم في صناعة المناخلِ الدَّقيقةِ.

وتفاوتت تلك الفُرش بين اللُّطف والغِلظة، وتوقَّف نوع الفرشاة المُستخدمة على نمطِ التَّأثير المطلوب إحداثه. ثم بعد ذلك، صقَلوا الورق باستخدام حجرٍ صَلبٍ للتأكُّد من التصاق حُبيبات الذَّهب بالورقة كما ينبغي، وكذلك تجليته وجعله يُشعُّ ببريقِه المعدني. كما قدَّم سيمي النَّيسابوري وصفاتٍ لعملِ تراكيب من الذَّهب والفِضَّة والبرونز والنُّحاس للرسم على الورق المُزخرف.

كان التَّرخيم (*Marbling*) تقنيةً صينيةً أخرى تبنَّاها الحرفيُّون الفُرس، وعمِلوا على تطويرها، كما استُخدِمت الأوراق المُرخَّمة بالطريقةِ نفسِها التي استُخدِمت في تذهيبِ الأوراق. وطوَّر الحرفيُّون الصِّينيون طرقًا مُتنوعة لتزيين الورقِ باستخدام تصميمات مُرقَّشة أو مرخَّمة في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأطلقوا عليها أسماءً طريفةً، مثل: «ورقة بيض السَّمك» و«ورقة الرِّمال المُنجرفة». وعلى الرغم من أنه لم تصلنا أية أمثلةٌ مبكرةٌ من هذه الأوراق في فارس، فإننا نُرجِّح أن يكون بعض منها قد قُدِّمت بصفة هدايا إلى التَّيموريِّين؛ وذاك لأن ظهورَ تلك الأوراق تزامن مع تطويرِ الحرفيِّين الفُرس لتقنياتهم الخاصة لتحقيق تأثيراتٍ مشابهة، وأطلقوا على هذه الورقة اسم «المُغبَّرة» أو «المُرقَّشة» (kaghaz-i abri).

واستَند أسلوبُ التَّرخيم الفارسي على صنع مُركَّب من الألوانِ الأرضيَّة في وسطٍ أخفَّ كثافةٍ من الماء، وعادةً ما اختار الفنَّانُ الزَّيتَ ليكون قاعدةٍ لهذه الألوان، وعلى هذا النَّحو كانت تلك الألوان تَطفو على سطح الماء الموضوع في وعاءٍ كبيرٍ بما فيه الكفاية لاستيعاب الورق، ثم يُوقَد على الماء حتى يغلي، ثم تُضاف إليه مادة صَمغية تعمل على تكثيفِه. ثم تُسكبُ الألوان في الوعاء بلطفٍ خبطَ عشواءٍ، أو على نحو مدروسٍ، فتتوزَّع على سطح الماءِ المتكثِّف، ثم يَضع الفنانُ بلطفٍ ورقةً مصقولةً وجاهزةً على سطح الماء بعناية ثم يسحبها، فإذا الشَّكل الذي رسمَه على سطح الماء مُنطبعٌ على الورقة.

وكان يسعُ الحرفيِّين تعديلَ تصميماتِهم على نحوٍ لا نهائيٍّ، بمساعدة قضبانٍ خاصَّةٍ أو أمشاطٍ لمعالجة وضعية الألوان على سطح الماء. وامتازت تلك التَّأثيرات في البدايةِ بالبساطة، لكن الألوان والأنماط المستخدمة مالت إلى التَّعقيد شيئًا فشيئًا بمرور الوقت. وانتقل أسلوب التَّرخيم من فارسَ إلى الهند، ثم إلى الدَّولة العثمانية حيث عُرِف هناك باسم فن الإبرو (Ebru)، وفي التطور الأخير انتقل إلى أوروبا، حيث تمتَّع بشعبيةٍ جارفةٍ

في أوساط الفنَّانين الأوروبيِّين، ولا سيَّما في القرنِ التاسع عشر.

وإجمالًا؛ يمكن القولُ إن صِناعةُ الورقِ الفارسيَّةِ قد تحسَّنت على نحوٍ ملحوظٍ من حيث الجودة والقَطع والزَّخرفة بين القرنين السَّابع والعاشر الهجريين/ الثالث عشر والسَّادس عشر الميلاديين. وقبل ذلك، كانت الكتبُ المُدوَّنةُ على الورقِ صغيرةً نسبيًّا، ومن المُحتمل أنها صُنِعَت من أوراق ذات قطع صغير؛ وذاك لأنَّه لم تكن هناك ميزة اقتصادية ما من صُنع أوراق من قطعٍ كبيرٍ ثم قصِّها إلى صفحاتٍ صغيرةٍ قبل ظهور تقنيات الطباعة. وإضافةً إلى ذلك، فإن الأوراقَ القديمةَ عادةً ما كانت أكثر سُمكًا ونعومةً ورِقَّةً، بيد أن تماسكها الدَّاخلي كان ضعيفًا نسبيًّا. وعادة ما كانت بُنِّيَّةً أو سمراءَ داكنةً، ليس عن صباغةٍ مُتعمَّدةٍ، بل من الصعوبات التي واجهت صُنَّاع الورق في تبييض الألياف.

وعلى مدار القرنين السَّادس والسَّابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أضحَت الأوراق من المشرقِ الإسلامي أكثر بياضًا وجمالًا، وصُنِعت، أو قُل: كان بمُكنةِ صُنَّاع الورق صُنعها من قَطعٍ أكبر. أمَّا الورق الأعلى جودة الذي صُنِع في غضونِ القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين فكان أرقَّ وأقوى، واستخدم لأرقَى فنونِ الخطِّ والرَّسمِ، كما كان مصقولًا عادة.

وكانت الأوراقُ المستخدمةُ في الكتبِ الفارسيَّة، بحلول القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، من أفضلِ ما أنتجه صُنَّاع الورق الفُرس في تاريخهم قاطبةً: فقد تميَّزت بالرقَّةِ والقوةِ واللِّين وشدة الصَّقل. ما سمَح للفنَّانين باستخدامها لروائع فنِّ الخطِّ، ورسم المُنمنمات، واللوحات التي تميَّزت بها تلك الحقبة.

وعلى الرغم من أن بعض هذه التَّحسينات الفنِّية نتجت عن إضفاءِ صُنَّاع الورق الفُرس لتقنياتهم الخاصة، إلا أن جودةَ الورقِ التي تحسَّنت على نحوٍ ملحوظٍ في المشرق الإسلامي خلال هذه الحقبة ينبغي أن تُعزى للاتصالاتِ المُباشرة والمُتكررة مع الصِّين، لا سيَّما بعد أن أضحَت فارس جزءًا لا يتجزَّأ من عالمِ المغولِ.

ولم يلعب الورقُ وصُنَّاع الورق الصينيُّون دورًا يُذكر في إدخالِ صناعة الورق في العالم الإسلامي في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ولكن يبدو أنهم لعبوا دورًا

أكبر بكثير منذ القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث لم يُصبِح صُنَّاع الورق والفنَّانون على درايةٍ بالورقِ الصِّيني فحسب، بل بأساليب صُنَّاع الورقِ الصينيِّين وتقنياتهم الخاصة أيضًا في صناعةِ الورقِ.

أما عن تقنياتِ صناعة الورقِ الصِّيني نفسها، فقد تحسَّنت إلى حدٍّ كبير بين القرنَين الثاني والسَّابع الهجريين/ الثامن والثالث عشر الميلاديَّين؛ وذاك لأن المطبعةَ التي اخترعها الصينيُّون، في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أدت -في التطوُّرِ الأخير- إلى زيادةِ الطلبِ على الورق. واستجابةً منهم لذلك التحدِّي، طوَّر صُنَّاع الورق الصينيُّون أساليبَ جاءت أكثر تطورًا لإنتاج كمياتٍ أكبر من الورق. وهكذا وفَّر اتصال صُنَّاع الورقِ الفُرس بنظرائهم الصينيِّين حافزًا لصُنَّاع الورقِ الفُرس لتحسين إنتاجِ أوراقِهم من حيث القطع والرِّقة والقوة والزَّخرفة والتَّزويق. واستمر المُستوى الرَّاقي لصناعة الورق الفارسي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حيث واصل الرُّعاة الصَّفويُّون اهتمام أسلافِهم بفنونِ الكتاب المُصوَّر.

ومع ذلك مرَّت صناعةُ الورقِ في فارس بأوقاتٍ عصيبةٍ، ففي القرن الثامن عشر الميلادي، دخل الورقُ الهنديُّ أسواقَ فارس، ونافس الورق الفارسي مُنافسةً شديدةً. حتى إنَّ كتَّاب الدَّواوين الصَّفويِّين أثبتوا نحو عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م أن كاتبَ قاضي القُضاة تسلَّم ثلاثين رِزمة من الورقِ المستورد من دولت آباد -الواقعة غربي الدكن- والتي أضحت مركزًا مهمًّا لصناعة الورق في المشرق الإسلامي. وبحلول القرن التَّاسع عشر الميلادي كانت مصانع الورق الرُّوسيَّة تُزوِّد بلاد فارس أيضًا باحتياجاتها من الورق، بل إن عددًا كبيرًا من المخطوطاتِ الفارسيَّةِ القديمةِ جرى ترميمُها باستخدام الورقِ المُستورد من روسيا.

ويمثل ما استعرضناه آنفًا من تقاليد صناعةِ الورق في فارس الكُبرى بين القرنَين الثالث والحادي عشر الهجريين/ التاسع والسابع عشر الميلاديين أطولَ فصولِ قصة الورقِ في الإسلامِ، قياسًا بأيَّةِ بقعةٍ أخرى من العالم الإسلامي. وبوسعنا القول: إن صِناعةَ الورق هناك وصَلت إلى أعلى مستويات صناعة الورق في ديار الإسلام تقدُّمًا ورُقِيًّا. وكانت الأوراق التي صُنِعَت ثمة، ولا سيما منذ أواخر القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حتى أواخر القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي، ذات

جودةٍ عاليةٍ على نحوٍ استثنائيٍّ، وصُنِعت حسب الطَّلب، ومن قطعٍ كبيرٍ. وصُنِع أفضل ما أنتجه صُنَّاع الورقِ في فارس بين القرنين التَّاسع والعاشر الهجريَّين/ الخامس عشر والسَّادس عشر الميلاديين، وكانت أوراقًا ملساءَ وقويةً للغاية، وأحيانًا رقيقةً على نحوٍ ملحوظ، ولعِبَت دورًا رئيسًا في ازدهار الكِتابِ المُصوَّرِ الفاخرِ بوصفِه فنًّا رئيسًا من جُملة الفنونِ الفارسيَّة.

وتداخلت الفُنون الورقيةُ -المُتمثِّلة في: الخطِّ، وزخرفة الهوامش، ونَظم الأعمدةِ، والتَّذهيب، والإضاءة، ورسم المُنمنمات، والزَّخرفة المزدوجة على بطانتَي غلافي الكتابِ، والتَّجليد- على نحوٍ مُتناغمٍ، بحيث شكَّلت مُجتمعةً مظهرًا بهيًّا للكتاب كُكل، فكان المُنتَجُ النهائيُّ أروعَ بما لا يقاسُ متى نُظِر إلى كلِّ عنصرٍ من هذه العناصر الفنيَّة مُستقلًا عن العناصرِ الأُخرى.

مصر

عرَفت مصرُ الورقَ عن طريق بلاد الشَّام في القرن الثالث الهجري/ التَّاسع الميلادي، وأضحى الورق يُصنَع بمصرَ بحلول القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وعلى الرغم من أن مصر استمرَّت في صناعةِ أوراق البردي -الذي اشتُهرَت بإنتاجه منذ أكثر من أربعة آلاف عام- في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إلَّا أنَّ الجغرافي ابن حوقل -الذي زار مصر عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م- لم يُشِر إليه بوصفِه من حواملَ الكتابة التي استخدَمها المصريون آنئذٍ. وذكَر الجغرافيُّ المقدسي -الذي وضَع كتابَه نحو عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥-٩٨٦م- الورقَ بوصفِه إحدى السِّلع التي كانت تُصنَع بمصر آنذاك.

وتؤكِّد الشَّواهد الأثرية أن المصريِّين قد هجروا البردي وانحازوا للورقِ. فعلى سبيل المثال عثَر الآثاريُّون خلال موسم الحفريَّاتِ الأثرية الذي أُجرِي في الفُسطاط عام ١٩٨٠، على ٤٤١ وثيقة يرجع تاريخها إلى ما بين عامي ٣٢٩-٤٤٢هـ/ ٩٥٠-١٠٥٠م؛ منها ٣٩٩ وثيقة (٩٠٪) كُتِبَت على الورق، ٣٥ وثيقة (٨٪) كُتِبت على الرَّق، ٧ وثائق (٢٪) كُتِبت على ورقِ البردي. وفي عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م ذكر أحد الرحَّالة[1] الذين زاروا مصر صراحةً أن تصنيع الورقِ من نبات البردي قد أضحَى شيئًا من الماضي.

---

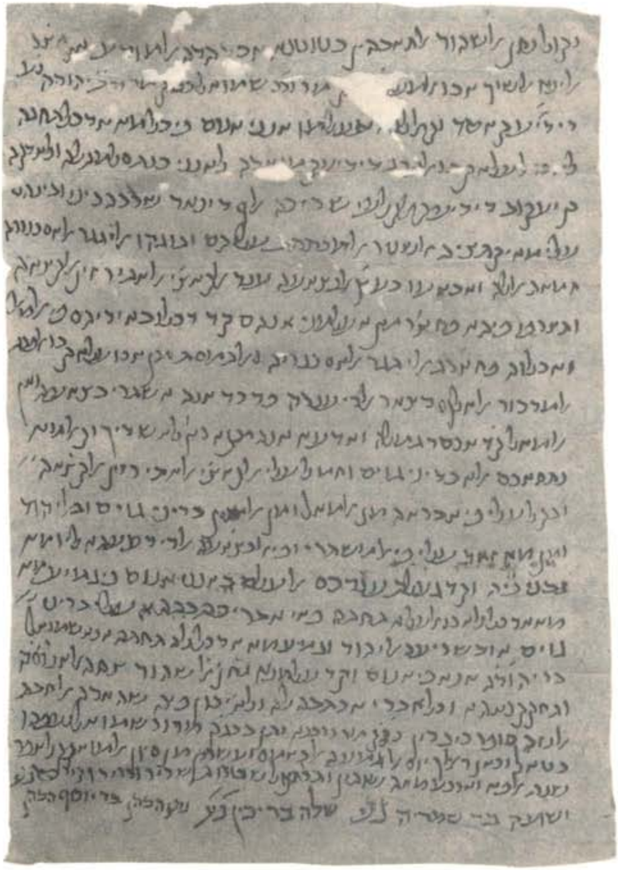
(١) الإيماءةُ إلى الفقيه والرحَّالة العراقي عبد اللطيف البغدادي (المتوفى ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، وهو صاحب الكتاب المسمى الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. (المترجم)

حفِظ مناخُ مصر -الذي اتَّسم بشدة الجفاف، مَثَلُه في ذلك مَثَلُ المُناخ في غرب الصِّين- مجموعةً كبيرةً من الأوراق من العُصور الإسلاميَّة في القرون الوسطى، وذلك على النَّقيض من مناطقَ أخرى من العالم الإسلامي، حيث نفتَقِر إلى الأدلة المادية للتَّاريخ المُبكر للورق. فقد عُثر على ما يقرب من ١٠٠ ألف وثيقةٍ، منها عشرين ألف شذرة من الورقِ تعود إلى الفترة ما بين القرنين الثَّالث والثَّامن الهجريين/ التاسع والرابع عشر الميلاديين، في الحفريات الأثرية التي أُجريت في الفيوم بين عامي ١٨٧٧-١٨٧٨م. واستأثر الأرشيدوق راينر (Archduke Rainer) النِّمساوي لنفسِه بهذه الأوراق في عام ١٨٨٤م، وضمَّها إلى مجموعتِه من البردي، وتوفَّر على فحصها جوزيف ڤون كاراباتشيك (Josef von Karabacek) ويوليوس ڤيزنر (Julius Wiesner) في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

وصُنِعت الأفرخ الورقيَّة على نحوٍ كامل تقريبًا من خِرق الكِتَّان في قوالب، وغُرِّيت بالنَّشا لجعلها مناسبةً للكتابة. ووفقًا لتحليل كاراباتشيك فإن أقدمَ ورقةٍ عُثر عليها كانت رسالة مؤرَّخة بعام ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م، وعلى الرغم من أنه ادَّعى أن رسالتين كُتِبتا على الورقِ يمكن أن يرجع تاريخُهما إلى قرنٍ قبلهما، وهو احتمالٌ مرجوحٌ، إن لم يكن الاحتمال الرَّاجح بالفعل. بيد أنه يستحيلُ علينا تحديد المكان الذي صُنِعت فيه تلك الأوراق على وجه الدقة، أو أين كُتِبت هذه الرسائل؛ ويبدو من المرجح أن بعضًا من أقدمها، مثل شذرة مخطوطة **ألف ليلة وليلة** المحفوظة في شيكاغو، قد جُلِبت من الشَّام.

وثمَّ مجموعة أخرى من الوثائق، هي وثائق الجنيزة (Geniza) التي عُثِر عليها في الكُنيِّس اليهودي في الفسطاط (انظر: شكل ٣٣)، وتُقدَّر بنحو ٣٠٠ ألف وثيقة إضافية كُتِبَت على الورق، وتضمَّنت قوائم لجهازِ العروس، فضلًا عن عددٍ لا يُحصى من الوثائق التجارية، والرَّسائل الشَّخصية المتعلِّقة بالمجتمع اليهودي، ويرجع تاريخها من منتصف القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى مُنتصفِ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

كُتِبَت معظم أوراقِ الجنيزة بالعربيَّة العامية القروسطيَّة التي تحدَّث بها أهلُ القاهرة آنذاك، وبالحرف العِبري. ووضع اليهودُ الوثائقَ في مخزنٍ ملحقٍ بالمعبد تمهيدًا للتخلص منها على نحو سليم بالدَّفن؛ وفقًا للاعتقاد اليهودي الذي يقضي بأنَّ الأوراق



شكل (٣٣): إحدى وثائق الجنيزة المُدوَّنة على الورق. مصر ٥٤٦هـ/ ١١٥١م. معرض فرير للفنون (*Freer Gallery of Art*)، مؤسسة سميثسونيان (*Smithsonian Institution*)، واشنطن العاصمة [F1908.44–7].

المكتوبة لا ينبغي أن تُدنَّس، إذا كانت تحملُ اسم الله. وشيئًا فشيئًا، أضحَى أمرُ المخزنِ والأوراق التي احتوى عليها نسيًا منسيًا حتى القرن التَّاسع عشر الميلادي، عندما حظِيَت باهتمامٍ بالغٍ من قِبل الدَّارسين؛ لأهمِّيتها للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي في القرون الوسطى.

وثَمَّ قليل من وثائق الجنيزة يسبِق سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، ولكن هناك المئات، إن لم يكن الآلاف من الوثائق مؤرَّخة بكل عامٍ تقريبًا في الحقبةِ الممتدَّة بين عامي ٣٩٣-٦٦٥هـ/ ١٠٠٢-١٢٦٦م، ثم بدا الأمرُ وكأن يهودَ القاهرة لم يعودوا يكترثون لعادةِ التخلص من الأوراق -التي فقدَت قيمتَها عمليًّا بالتقادم- في مخزن المعبد.

وتحظَى وثائقُ الجنيزة، ومجموعة الأرشيدوق راينر في ڤيينا بأهميَّةٍ خاصةٍ، وذاك

لأنه من قَبيل المُفارقات أن عددًا قليلًا للغاية من الكُتب التي نُسِخَت في مصر قد وصَلتنا من هـذه الحقبةِ نفسِـها، على الرغم من أننـا نعلم أن مكتبات الخُلفـاء الفاطميِّين، الذين حكموا البلاد في هذا الوقت، قد احتوت على مئات الآلاف من الكُتبِ.

فُحِصَت وثائق الأرشيدوق راينر في ڤيينَّـا، من حيث الورقِ والمحتـوى الذي كُتِبَ عليه على حدٍّ سواء، بينما لم تُحلَّل وثائق الجنيزة حتى الآن، اللَّهم إلا من حيث محتواها الأدبي والتاريخي فحسب. ومع ذلك، فإنَّ تواريخها الدَّقيقة في أغلب الأحيان، والمواقع المحـدَّدة بهـا ينبغي أن تسـمح للدَّارسين بفهمٍ أفضلَ لتطـورِ صناعة الـورق في القرون الوسطى، وكذلك الإحاطة بالاستخدامات المُختلفة للورقِ آنذاك.

ويُشـير الفحـصُ المبدئيُّ لبعـض وثائق الجنيزة إلى بعـضِ التَّعميمات الأوَّلية. فنحن نـرى اللـونَ البُنِّي بدرجاته من الفاتح إلى الدَّاكن، ما يُشـير إلى عمليةِ تبييضٍ غير مكتملةٍ للأليـافِ المُسـتخدَمة في صُنـع الأوراق الرَّخيصة، ناهيك عن تغيُّـر اللون الطبيعي بفعل عامل الزَّمن. أما الأوراق الإسـفنجية والأوراق المرنة نوعًا ما فتميل إلى أن تكون داكنة اللونِ إلى حدٍّ ما، ويظهر النَّدفُ واضحًا عندما يُسلَّط الضَّوء عليها، نتيجة للألياف الناتجة عـن عمليـة خفقٍ غير مكتملةٍ للُّـبِّ أثناء مرحلة التَّصنيع. وتحتـوي إحدى الوثائق، وهي مؤرَّخة بعام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م، على شَذرةٍ يسيرةٍ من القماش المنسوج، ما يُثبِتُ أن اللبَّ كان يُصنَع من الخِرق.

وذكـر ابن سـعيد الأندلسـي -الشَّـاعر والمؤرخ والجغرافـي الذي زار مصرَ في عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م- أن مصانـع الورق كانـت تقتصر على الفُسـطاط دون القاهرة. وهذه ظاهرةٌ تُعلَّلُ بتوافر المياه الجارية لمصانع الورق على ضفاف النِّيل في الفسطاط، ولكن ليس في القاهرة نفسها، التي شُيِّدت على تبةٍ أكثر جفافًا.

وكانـت مصانـع الورق بحاجـةٍ إلى كميَّاتٍ وفيـرةٍ من الأليـاف. وكان الكِتَّان (Linum usitatissimum) أحـد المنتجـات الزراعيَّـة الرَّئيسـة في مصر منذ عصور مـا قبل التاريخ. حيث احتل مكانةً رفيعةً عند أهل مصر، ليس لأليافِه فحسـب، بل لبذوره التي اسـتخلَص المصريـون منهـا زيـتَ الكتان أيضًا. غيـر أن الغِلالَ والحبوبَ الغذائيـةَ كانت المحصولَ الرَّئيـسَ فـي العصـور الفرعونيـة والرُّومانية والبيزنطيـة؛ وذلك لأن تلـك الإمبراطوريات اعتمدت على فائضِ الغلال التي زرَعها الفلاحون المصريون. واستبدل الخلفاءُ وولاتُهم

في العصر الإسلامي القمحَ بالكِتَّان بوصفِه محصولًا نقديًّا رئيسًا في مصر. وعلى هذا النحو أضحت صناعةُ منسوجات الكتَّان الصناعة الرئيسة في مصر في القرون الوسطى، وهكذا حلَّ الكِتَّان محلَّ الغِلال بوصفه أهمَّ صادرات مصر بالكُلِّية، حيث شكَّلت صادراتُ مصر منه إمداداتِ مصانع النسيج في المغرب وغرب آسيا بل وأوروبا أيضًا. وأدَّت هذه السياسةُ قصيرةُ النَّظر إلى نقصٍ عامٍّ في الأغذية وتفشي الأوبئة والمجاعات في مصر. وألقى الكُتَّاب المعاصرون باللَّوم فيها على شُح مياه النِّيلِ وضعف فيضان النَّهر عن إغراق الأرضِ الزراعيَّة، لا إلى السِّياسات الجشعةِ التي اتَّبعها ولاتُهم في حكم البلاد.

وعلى الرغم من أنه كان بمقدورِ صُنَّاع الورق صناعة الورق مباشرةً من ألياف نبات الكتان، إلا أن صُنعه من ألياف الخِرق كانت عمليةً أسهل نسبيًا، ولا سيَّما صُنع الورق الخشن والورق القديم، الذي جُهِّز بالفعل وبُيِّض بتركه يتعرَّض مباشرةً لأشعة الشمس.

وربما لم تكن أكوام الورق والمنسوجات -التي أسفَر التنقيبُ عنها في الفُسطاط- إلَّا أكوامًا من النُّفايات التي جمَعها القمَّامون لمصانع الورق خصِّيصًا، تمهيدًا لإعادة تدويرها. فقد أسفَرت الحفريات التي أُجريت عام ١٩٨٠ في الفُسطاطِ -على سبيل المثال- عن العثور على نحو ثلاثة آلاف قطعةٍ من النَّسيج، وُجِد مُعظمُها في أكوامِ النُّفايات بالقرب من قمَّة التلَّةِ، وأُرِّخت بالقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وبلغ حجمُ المنسوجات المصنوعة من الكتَّان الخشن نسبيًّا، ما يقرب من ٧٠٪ من المنسوجات التي عُثِر عليها، وكانت ساذجةً غير مَصبوغةٍ، وهو ما يمثل أكثر أنواع النَّسيجِ شيوعًا آنذاك. مقابل نحو ١٢٪ من المنسوجاتِ الكتَّانية المصبوغة باللونِ الأزرقِ المتوسِّطِ مع النِّيلي، وثَمَّ ٥٪ أخرى كانت مُقلَّمة أو مربعة أو كتَّانًا منسوجًا ومصبوغًا باللَّونين الأزرق والأبيض. ونحو ٨٪ من الأقمشة الثقيلة المصنوعة من القُنَّب أو القصب المنسوجة مع الكتان غير المصبوغ. وشمِلت نسبة الـ ٥٪ المتبقية منسوجات من الصُّوف والحرير والقطن والقُنَّب والقَصب. وجميع هذه المنسوجات تقريبًا -باستثناء الصُّوف والحرير- كانت تشكل مادةً خامًا مناسبةً لمصانع الورق في الفُسطاط.

وأظهر الفحصُ المجهري للأوراق الإسلاميَّة في القرون الوسطى الوجودَ العَرضي للألياف المُلونة، وكانت زرقاء اللونِ غالبًا، ونشأت على الأرجح من خِرق الكتان المصبوغة باللون النِّيلي التي وجدت طريقَها إلى الرَّاقود وأوعية خفق اللب.

وأعاد صُنَّاع الورقِ في مصر تدوير الخِرقِ المجموعة من نُفايات الأحياءِ من سُكَّان القاهرة والفُسطاط. وقيل إنهم صنَعوا ورقًا خشنًا للتَّغليف للاستخدام في دكاكين البِقالة من خلال إعادة تدويرِ الأكفانِ التي جمَعها نابشو القبور. وقد زار العالم العراقي عبد اللطيف البغدادي القاهرة في أواخر القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وروى أن نابِشِي القبورِ هناك نهبوا القبور وسطَوا على أكفانِ الموتى المصنوعةِ من الكتَّان. ولكن يبدو لنا أن هذه الرواية من حديث مُرافقٍ ثَرثارٍ ذي خيالٍ واسع ألقاه إلى رحَّالةٍ ساذَج لم يجد صعوبةً في تصديقِ حديثه. ووفقًا للبغدادي، فإن أطوال الأكفان تجاوزت أحيانًا الألف ذراع، وهي مُبالغةٌ واضحةٌ بلا شك. كما ذكَر البغدادي أن نابشي القبور، أزالوا الأكفان عن جُثث الموتى وباعوا الأكفان التي كانت في حالةٍ جيدةٍ للفُقراء، الذين صنَعوا ملابسهم منها. وما تبقَّى من الأكفانِ الرثَّةِ البالية، باعوها لصُنَّاع الورق. ولعل هذه الرِّواية -المُخيفة حقًّا- كانت مصدرَ إلهام لـ أغسطس ستانوُد (Augustus Stanwood)، وهو صانع ورقٍ عاش في القرن التاسع عشر في مدينة ماين Maine، فقد صنَع ورقًا بنيًّا خشنًا من مزيجٍ استصفاه من مومياواتٍ مصريةٍ، استوردها من مصر خصيصًا لهذا الغرض.

وكما جرَت الحال خارج مصر، فقد تداول المصريُّون الأوراق المصنوعة محليًّا، واستخدموها بأحجامٍ مختلفةٍ. إن سجلاتِ المحكمة من وثائق الجنيزة متجانسةٌ في الحجم إلى حدٍّ كبيرٍ، مما يشير إلى أن اليهود، مثْلهم في ذلك مثَل نظرائهم المسلمين، استخدموا أحيانًا أوراقًا من أحجامٍ مختلفةٍ لأغراضٍ بعينها. ومع ذلك فغالبًا ما قصَّ الكتَّاب الورق وفقًا لاحتياجاتهم.

ونادرًا ما تضمَّنت أوراق الجنيزة أوراقًا بيضاءَ فارغةً تُركت على حالها. واعتقد شلومو د. جوايتين (S. D. Goitein) -وهو العالِم الذي كرَّس حياته كلها لدراسة أوراق الجنيزة- أن هذه المُمارسة كانت جماليَّةً في جزءٍ منها. فوفقًا له عدَّ كتاب القرون الوسطى مساحاتِ البياضِ في الورقة بمثابة جريمةٍ في حقِّ العين، فملأوا الهوامش على جانبي الورقة بالكتابة قبل أن يملأوا قلبَها، ويبدو أنه من المرجَّح أيضًا أن الاقتصاد في استعمال الورق لعب دورًا في هذه الظاهرة، وأن كُتَّاب القرون الوسطى عدَّوا المساحات الفارغة في الأوراق بمثابةِ جريمةٍ في حقِّ الجيبِ أيضًا. فقد استُخدمت شذرةٌ من الورق،

ثم أُعيد استخدامها لأغراض مهمةٍ مثل صكِّ السَّداد النموذجي في أوراق الجنيزة الذي بلغ نصف حجم «الشِّيك» الحديث، أي أقل من ٣×٥,٣ بوصة (٥,٧×٩سم).

وثَم وثيقةٌ واحدةٌ عبارة عن ورقةٍ كبيرةٍ تُركت للاستعمال عند الضرورة، مؤرَّخة بعام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، قياسها ٧٥,٢٨بوصة (٧٣سم)، وهو على ما يبدو يمثِّل القطع الكامل للورقةِ الأصليَّةِ. وثَم وثيقة أخرى، تمثل فتوى (أي رأي شرعي يهودي غير ملزم، تُعادل الفتوى في الإسلام) مؤرَّخة بنحو عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م. ووثيقة أخرى مؤرخة بعام ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م، كُتِبَت على صفحات طويلة تجاوز طولها نحو الياردة، ولكنها محدودة العرض، قياسها ٥,٧×٢٨بوصة (١٩×٣٥سم)، وهي مكونةٌ من عدة أوراق لُصِقَت أوصالُها ورقة إلى أُخرى. وسبيلًا لمنع التزوير كَلصْقِ المزوِّرِ أوراقًا مُصطنعةً على الأوراق الأصليَّة، أو الحذف بقصِّ جزءٍ مُعيَّن من الورقة، كُتِبَت وثائق الجنيزةِ عادةً على ورقةٍ واحدةٍ فحسب، فإذا ألجأت الضرورةُ الكاتبَ، كان يعمَدُ إلى لصقِ عدة أوراقٍ معًا، ثم كان الكاتب ينظم كتابتَه بحيث يتوسط سطرٌ من أسطره موضع الالتصاق بين الورقتين، وكأنه يؤكِّد بهذه الوسيلةِ صحَّةَ ما جاء في الورقةِ المُضافة، أو ربما أضاف أحيانًا كلمة مثل «إميث» (Emeth)، أي «صَحَّ» بالعِبريَّة على منطقة التحام الورقتَين.

وتُشير القطوعُ المختلفةُ والجودةُ المتباينةُ لوثائق الجنيزة إلى أنَّ الورق آنذاك، -ويصدُقُ ذلك على الورق في يومِنا هذا- قد استخدم من أنواعٍ مختلفةٍ لأغراضٍ متنوعةٍ. وما كان للرسائل والوثائق المُماثلة عادةً أن تُكتَب على ورقٍ مصقولٍ وأملسَ، والذي كان مُكلفًا بلا شك بسبب زيادة المعالجة. ومع ذلك فقد ضاق بعض النَّاس ذرعًا برداءةِ الورق، حتى إنَّ أحدَ الكُتَّاب اعتذر عن استخدامه ورقةً رديئةً بقوله: إنَّ الضَّرورة ألجأته إلى ذلك. ولم يكن معظم ورق الكتابة المصري مُغرًّى ولا مصقولًا، ويمكن رؤية هذا النَّقصِ في مُعالجة الورق في الطريقةِ التي عمل فيها المداد على الورق؛ إذ كُتِبَت بعض الوثائق مرتين، الأولى بالمداد البُنِّي من النَّوع الذي كان يُستخدَم عادة في الكتابة على الرَّق، ثم بمدادٍ أسودَ كربوني؛ حيث عمِلت أحماض الحبر البُنِّي على تآكل الورقة في نهاية الشوط، في حين أنَّ المداد الكربوني لم يفعل ذلك.

وتُشير الرَّسائل والصُّكوك التي عُثِر عليها في وثائق الجنيزة إلى أن المصريين صدَّروا

أوراقهم إلى المغرب واليمن والهند، بينما استوردوا الورقَ من الشَّام. كما صُدِّر الورق المصري إلى العراق، ووفقًا لوثائق الجنيزة، فقد طلَب أحد التجَّار من تونس خمسة آلاف ورقةٍ من الأوراق النَّاعمة، وألف ورقةٍ من النَّوع الطَّلحي، الذي يبدو أنه كان يُصنَّع في مصر آنذاك.

وتُظهِر مُكاتباتُ بن ييجو (Ben Yiju) في الجنيزة -وهو تاجرٌ يهوديٌّ من أهلِ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من تونس، وكان مقيمًا في الهند- أن أهم وارداته من مصر وعدن كانت رِزَم الورق. وكانت أوراق النَّخيل أكثر حاملاتِ الكتابة شيوعًا على طول ساحل المليبار -كما كان هذا هو الحال في أي بقعةٍ أخرى في الهند- وكان الورقُ عزيزًا هناك. فلمَّا سافر بن ييجو إلى الهند، أمدَّه شركاؤه المصريون بشحناتٍ جيدةٍ من الورق، بما في ذلك رِزَم في كل شحنة أُرسِلت إليه من عدن. حيث زوَّده شركاؤه -سواءً في مصر أو عدن- عادةً بما تراوح بين ١٢ إلى ٣٦ رِزمةً من الورق في كل شُحنةٍ أرسلوها إليه.

واستَخدم الخلفاءُ الفاطميُّون في مصر الورقَ بإسرافٍ لمراسيمهم ووثائقهم، مثلُهم في ذلك مثَلُ الخلفاء العبَّاسيِّين في بغداد. بيد أنه في مصر -وعلى النَّقيض من العراق- وصَلنا عددٌ من مراسيم الخلفاء الفاطميين سليمةً لم يمسَسْها سوءٌ. فالمراسيم المحفوظةُ في دير سانت كاترين في سيناء، هي لِفافات يبلغ طولها ٣٣قدمًا (١٠أمتار)؛ ويتراوح عرضها بين ٨-١٨ بوصة (٢١-٤٥سم). وتكوَّنت كل لِفافةٍ من عدَّةِ أوراق لُصِقَت أوصالها ورقة إلى أخرى حتى نهاية اللِّفافة. وعلى النَّقيض من وثائق الجنيزةِ المكتوبة في أسطرٍ كثيفةٍ، تُظهر هذه المراسيم استخدامًا مُسرفًا للمساحةِ بين خطوطِ الكتابة (انظر: شكل ٣٤). وكانت المسافات الواسعة بين الأسطُرِ من سمات الوثائق التي كُتِبت في الدَّواوين الفاطمية والعباسيَّة: وكان إهدارُ كثيرٍ من الأوراق باهظة الثَّمن سمةً من سِمات السُّلطانِ وعلامة من علامات السُّؤدد؛ إذ نفترض منطقيًّا أن الرسائل والالتماسات المرفوعةَ إلى الخليفة بلغ تباعُدُ الأسطرِ فيها المعدلات المعتادة، دون مغالاة بتركِ مثل هذه المسافات من الفراغ بين الأسطر.

وتميَّزت الخطابات والمراسيم الصَّادرة عن الدَّواوين الأيوبيَّة والمملوكيَّة أيضًا بالطول، ومحدودية العرض، وتباعدت الأسطر فيها على نطاقٍ واسعٍ. فثمة رسالة إلى

ملك أراغون (Aragon) على سبيل المثال، وهي مؤرخة بغُرَّة صفَر من عام ٦٩١هـ/ ٢٩ يناير ١٢٩٢م، وهي عبارة عن شريطٍ ضيِّقٍ طويلٍ قياسه ٥× ٧٩بوصة (١٣×٦, ٢٠١سم) لُصِقَت من صفحاتٍ مصنوعةٍ من القُنَّب الأصفر غير المُغرَّى، قياس كل منها ٥×١٣ بوصة (١٣×٣٢ سم). وهناك ستُّ رسائل أخرى جاءت من مصر ويحتفظ بها أرشيف أراغون ويرجع تاريخها إلى ما بين عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م إلى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وهي أيضًا على هيئة لِفافاتٍ طويلةٍ بلغ طول أكبرها ٧٩بوصة (٢٠٠سم)، وعرضها ١١بوصة (٢٨سم)، وهي لِفافة مكونة من أوراقٍ مُماثلةٍ لُصِقَت بعضها إلى بعض بلغ طولها ١٨-١٩بوصة (٥, ٤٦-٥, ٤٨سم). واستمرَّ استخدامُ هذا الشَّكل في عصري الصَّفويِّين والعُثمانيِّين، ولكن مثاله لم يُحتذَ في أماكنَ نائيةٍ على أطراف العالم الإسلامي، كالمغرب أو الأندلس، حيث كانت الوثائق الصادرة عن الدِّيوان بحلول القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تُكتَبُ على ورقةٍ واحدةٍ فحسب.

كان الورقُ أرخصَ بالفعل من أوراق البردي في مُنتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في مصر، بيد أن ذلك كان نسبيًّا؛ إذ لم يكن الورق رخيصًا في أعيُنِ الجميع، وظلَّت موادُّ الكتابةِ مُكلفةً نسبيًّا. وأعاد سوادُ الناسِ في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي استخدامَ شذراتِ المخطوطات القديمة، مثل شذرةِ **ألف ليلة وليلة** المحفوظة في شيكاغو، التي استُخدِمت بوصفها قُصاصةً. وهناك عددٌ كبير من الشَّذرات التي عُثِر عليها في نُفايات الفسطاط، لوحِظَ أنها استُخدِمت مرارًا وتكرارًا بإعادة الكتابة على مساحاتِ الفراغ فيها. وليس هذا مدعاةً للاستغرابِ قطُّ، فنظرًا لأن الورق كان يُعدُّ مادةً مستوردة آنذاك، فقد كان ثمنه باهظًا، وحتى بعد أن بدأ تصنيع الورق محليًّا في مصر، فما زلنا نرى حرصَ الناس على إعادةِ استخدامه وإعادة تدويره. فلدينا -على سبيل المثال- ورقة من أوراق الجنيزة كُتِبَ عليها للمرة الأولى في ١٩ من ذي الحِجة من عام ٣٧٦هـ/ ٢٦ من أبريل (نيسان) من عام ٩٨٧م، ثم بعد قرنٍ ونيفٍ، وتحديدًا في ٢٥ من شعبان من عام ٤٧٨هـ/ ٢١ من ديسمبر (كانون الأوَّل) ١٠٨٥م أُعيدَت الكتابة عليها مجددًا. ووفقًا لمصدرٍ من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[1]، فإن ثمن ١٢٥ فرخًا من الورق كانت تُكلِّف ٦ دنانير وثلثي الدِّينار، وهو

(١) نصَّ المؤلفُ على مصادرِه في فصلٍ أسماهُ قضايا ببليوجرافية، وهو الفصل الخاتم لهذا الكتاب. (المترجم)



شكل (٣٤): مقطعٌ من مرسوم صادر عن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٤م. كنيسة القدّيس يوحنا، إستانبول. المصدر: *S. M. Stern,* Fatimid Decrees, pl8.

مبلغ يكفي لإعاشةِ أسرةٍ من الطبقة المتوسِّطة-الدُّنيا لأكثر من ثلاثةِ أشهر. وكما هو الحال في فارس، استُخدِمت نُفايات الورق بطانةً للقُبَّعات والملابس، ولُصِق الورقُ القديمُ معًا لصُنع الورق المُقوَّى الذي استخدمه المُجلدون في تجليدِ الكتب.

واستمرَّت مثل هذه المُمارسات في العصور الحديثة، وفقًا لما ذكره أمين الرِّيحاني عن كيفية التعامل في الشؤون اليومية باليمَن في أوائل القرن العشرين، وهو استطرادٌ طويلٌ إلا أنه كاشفٌ للغاية. وترجمته نبيهة عبود إلى الإنجليزية في كتابها عن نشأة الخطِّ العربي، مشيرةً إلى أن العرب لم يكترِثوا للاحتفاظِ بسجلاتٍ مكتوبةٍ «بحُكم طبيعتِهم». وعلى الرغم من أن هذا المفهوم يبدو الآن مفهومًا كلاسيكيًا على نحوٍ واضحٍ، فإن من شأنِ هذه الرِّواية التَّذكير بالكيفية التي ظل الورقُ بها يُعدُّ سلعةً ثمينةً لقرونٍ عديدةٍ. قال أمين الريحاني:

«إنَّ أوَّل ما شاهدت من مظاهر الاقتصادِ المُدهشةِ في اليَمنِ طريقتَهم في المُراسلة ورفع العرائض. فلم أدرِ ما تلك القُصاصات المُكردسة التي رأيتها

لأول مرة... فالإمام يحيى الذي غنِم من التُّركِ المدافعَ والسِّلاحَ احتفظ بما تركوه من الأوراق والدفاتر والكابونات والمعاريش، ولم يأمر بتقطيعِها وباستخدامها في إدارةِ السِّلك فقط، بل في دوائر الحكومة كلها، حتى وفي المُخيم المنصور[1].

إنه لينذر استعمال الغلاف [يعني المَظروف] في اليمنِ إلَّا في المُراسلات الرسميَّة الخارجيَّة. أما في البلاد، وبين أهلها، فالغلافُ هو الرسالة، والرسالةُ هي الغُلاف. يجيئك الرسولُ بِلفافةٍ صغيرةٍ مثل السيجارة، فتفكُّها فإذا هي رسالةٌ من حضرةِ الإمام، وقد تكون بخطِّه الشَّريف؛ فتقرأها ثم تنظرُ فيما لها من هامش فتقطَعه وتجاوب عليه، وتلف الجواب سيجارةً وتُعيدها مع الرَّسول. وإذا أسرفت في الورق وأضعت مقدارَ خَتم منه دون أن تُسوِّده تُوبَّخ على ذلك، وقد تُعزل إذا كنت موظفًا في الحكومة. أما إذا جاءك كتابٌ في غلافٍ فتشقُّه وتستعمل ظهره للمُراسلة، وإذا كانت الرسالة من صنوٍ وهي على قدر بطاقة الزيارة تُعيدها إليه والجواب في المكان الأبيض منها، سطرًا كنعلةِ الفرس، أو سطرين كخطِّ المابين.

ومن المُستغرب المُستعذبِ أن بعضَ النَّاس يرفعون شكاياتهم نظمًا في بيت أو بيتين من الشعر... جاء السيد علي زبارة ذات يوم رسميًّا وقد كان يزورنا كل يوم كمديرِ التَّموين. فاغتنم فرصةَ وجوده عندنا ليراجع ما تكردَس على رأسه من الرَّسائل والحسابات. فنزَع عِمامته البيضاء وشرَع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة، فيقطع القسم الأبيض منها ثم يمزق الباقي... ثم أطلعنا على قُصاصةٍ من حضرة الإمام يأمره بدفع مئتي ريالٍ إلى أحد العمال، فقلت له أتمُزِّقُ هذه أيضًا؟ فكان جوابه أن مزَّقها وهو يقول: «إذا دفعتُ الألفي ريال لا أُسأل عنها»، فقلت: وقد ينسى الإمام فيسألك أن تُبرز الأمر! فأجاب قائلًا: «لا ينسَى ولا يسأل»[2].

بادرته بالسؤال: «ألا تحتفظ الحكومة بسجلاتٍ على الإطلاق؟» فرمقني

---

(١) كذا كما جاء عند الرِّيحاني، وربما يعني خيامَ الإمام يحيى وحاشيته عند التِّرحال بين المُدن اليمنية، أو كان اسمًا يُطلق على ديوانه. (المترجم)

(٢) إلى هنا انتهى النصُّ العربيُّ كما ورد في كتاب **ملوك العرب** لأمين الريحاني، وبقية النصِّ ترجمةٌ عربيةٌ لما ورَد بالأصل الإنجليزي، ولم أقف على مصدر ذلك القِسم. ولعل نبيهة عبود -التي نقَل عنها بلوم تلك الأسطر- قد عاودت مصدرًا آخر للرِّيحاني غير كتابه المذكور آنفًا، وورد فيه هذا النصُّ مُكتملًا. بيد أنني لم أقف على هذا النص مُكتملًا على النحو الذي وردَ به أعلاه. (المترجم)

> السيد علي، وهو لا يزال مُنهمكًا في تمزيقِ أوراقه الخاصة منها والعامة، وقال: «هناك القليل منها مما يستحق الاحتفاظُ به». ثم جاء جنديٌّ برسالةٍ من الإمام مكتوبة على قُصاصة بحجم ٣ بوصات مربعة، فردَّ عليها السيد علي على قصاصةٍ صغيرة أيضًا. وكان الإمام يوجِز إذا خاطَب أعوانه، فإذا نهض أعوانه بما أمرهم به، اقتدوا به في الإيجاز في الخِطاب. والنموذج المعتاد في المُكاتباتِ هو القُصاصة بحجمِ ورقة السيجارة، معِ الحرصِ على إبقاء هامشٍ فارغ على كلا الجانبين. وكان من طبْعِ الإمامِ الكتابةُ في دوائر يرسمها في معرض ردِّه على الرسائل».

ويبدو أنَّ استخدام الورق في مصر في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كان ما يزال مرتبطًا بذوي السَّعة من النَّاس. ووفقًا لابن بطوطة، الرحَّالة المغربي الذي زار مصر في عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، لم يكن يُسمح بدخول دِمياط دون إذنٍ مختومٍ من الوالي. وكان ذوو السَّعة يأخذونَ الختم على شذراتٍ من الورق، ومن ثم يُبرزونَها لحراس البوابة؛ أما غيرهم من سواد الناس فكانوا يفضِّلون أن يُختَم على سواعدِهم.

وعلى الرغم من توافر الورق على نحوٍ متزايدٍ في مصر في القرون الوسطى، لم تنتفِ الحاجة إلى مواد الكتابة الأخرى. واستمرَّ اليهود في استخدام الرَّق لنسخ مخطوطات التوراة، كما فعَل النَّصارى الأقباط في نسخِ أناجيلهم. وتُظهر قوائمُ الكتب التي اشتملت عليها وثائق الجنيزة وبعض المخطوطات الأخرى التي وصَلتنا أن اليهود استخدموا الرَّق أيضًا لنَسخِ عددٍ كبيرٍ من المُصنَّفاتِ الدِّينيَّةِ والعلميَّةِ والأدبيَّة الأخرى.

وكثيرًا ما كُتِبت أنواعٌ معينةٌ من الوثائق، مثل عقود الزَّواج وقسائم الطلاق ووثائق العِتق على الرَّق، وكذلك الرسائل والفتاوى من السُّلطات الدينيَّة، التي كان من المفترض أن تُسلَّم لجمهورٍ عريضٍ، ومن ثم كان يُفترَضُ تدوينها على مواد أكثر احتمالًا، وأطول عُمرًا من الورق. أما في أوساط المسلمين، فلم تكتب وثائق مثل عقود الزواج على الرَّق فحسب، بل وعلى الجلود والحرير. وثَمَّ مثالٌ رائعٌ هو عقدُ زواج مكتوب على الحرير الأبيض وصَلنا من عهد الخليفة الفاطمي المُستَنصِرُ بالله، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وكما جرَت الحال في فارس في العصر الإيلخاني، انتَعشت فنونُ الكتابِ في مصر

فـي القرنِ السَّـابع الهجري/ الرابع عشـر الميلادي، على الرغم مـن أنَّ معظم الجهود قد بُذِلَت في صُنعِ مخطوطاتٍ كبيرةٍ من المصاحف للمؤسَّسات الوقفية والخيرية في العصر المملوكـي بـدلًا من إخـراج الكُتِب المُصـوَّرة مثل الملاحم ودواوين الشِّعر. وتسـرَّب الذَّوقُ الإيلخاني فيما تعلَّق بمخطوطات المصاحِف الكبرى إلى مصر، وحاكى المماليكُ الإيلخانيِّيـن فـي العـراقِ وفـارس -على الرغم مـن أن الحـروبَ لم تتوقـف بينهم قطُّ- وقلَّدوا أحدثَ أساليبَ الفنِّ الفارسي.

ووقَف السُّلطانُ المملوكي بيبرس الجاشنكير مُصحفًا من سبعةِ مجلدات على خانقاه (تكيَّة) للصُّوفيَّةِ كان يجري تشييدها في القاهرة في عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م. واحتوي كل مجلد على ١٥٥ ورقة، وبلَغ قياسه ٥, ١٢×١٩ بوصة (٣٢×٤٨سم)، وهو الحجم نفسه للـورق مـن قطعِ نصـف البغدادي المُسـتخدم فـي كتاب **جامـع التواريخ** [لرشـيد الدِّين فضـل الله الهمذانـي]. ووفقًـا لمصـدرٍ متأخِّرٍ، نُسِـخ المصحـفُ على الورق مـن القطع البغدادي. وكان الخطَّاط المُكلَّفُ بنسخ المصحف يدعى ابن الوحيد، وكان قد تدرَّب فـي بغداد على يـد الخطَّاط العظيم ياقوت المُستعصِمي، وتولَّى زخرفتـه وتزويقه ثلاثة مساعدين له.

إن الحجـمَ الاسـتثنائيَّ الكبيـرَ، فضلًا عن تعدُّد أجزاء هـذا المصحف، إضافةً إلى فن الخطِّ والزخرفة الرائعين، قد جعَل هذه المخطوطة محل اهتمام المعاصرين. وعلى حدِّ علمنـا، لم يُنسَـخ مُصحفٌ بحجم مصحف بيبـرس بعد ذلك في القاهرة، على الرغم من أنـه في عـام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م وقـف أميرٌ مملوكـيٌّ(١) مصحفًا ضخمًا مكونًـا من ثلاثين جزءًا، صُنِع من أجل الخان المغولي أوليجايتو (Uljaytu) في عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م على ضَريحٍ بالقاهرة.

ووصَـل إنتـاجُ المخطوطـات الكبيرة إلـى ذُروته فـي المناطق التي خضَعت لسيطرة المماليـك فـي منتصـف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشـر الميلادي في عهد السُّـلطان حسـن وزوجتـه خوند بركـة، وابنهما الأشـرف شـعبان. وكانت جميـع المصاحفِ التي أُعِـدَّت لهـم مـن القطع الكبيـر -وبعضها يستحق الوصـفُ بالضَّخم- حيـث بلغ قياس

(١) الإيماءةُ إلى الأميرِ بكتمُر بن عبد الله. (المترجم)

أوراقِ بعض تلك المصاحف نحو ٢٠×٢٧-٣٠ بوصة (٥٠×٧٠-٧٥سم)، وكانت أوراق تلك المصاحف بحجم القطعِ البغداديِّ الكامل، مطويةً عند المنتصفِ تمامًا.

وكانَت القدرةُ على طلبِ مخطوطاتٍ بمثل هذه الأبعاد من امتيازات أصحاب الثَّروات دون غيرهم. أما بالنِّسبة للسُّلطان [النَّاصر] حسن، فلم يكن أهلًا للسَّلطنةِ، بيد أنَّ الطَّاعون (الموت الأسود) ساعده كثيرًا على تحقيق ما وصَل إليه من مجدٍ، حيث انتقلت عقارات أولئك الذين لقَوا حتفهم في الوباء دون وارثٍ أو وصيَّةٍ إلى ملكية الدَّولة.

وعلى أية حال فقد تركَّز الكُتُبِيُّون في القاهرة على مرمى حجرٍ من الجامع الأزهر -وكان مركزَ الحياة الفكرية في القاهرة آنئذٍ- ووفقًا للمقريزي والسَّخاوي، كان سوقُ الوارَّقين في القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي قريبًا من المدرسة التي أسَّسها السُّلطان الأشرف برسباي. وذكر المقريزيُّ أيضًا خان الوِراقةِ الذي كان يقع قُرب باب الفتوح -أحد أبوابِ القاهرة- ولكن ربما لم يُصنع الورقُ في هذه البُقعةِ، البعيدة عن النِّيل. ووفقًا لابن إياس في القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي، حلَّ تجار النَّسيج محلَّ الورَّاقين في سوق الكتُبِيِّين، الأمر الذي يعدُّ أمارةً قويةً على اضمِحلالِ صناعةِ الورقِ في مصر.

وكان الورق دائمًا باهظَ الثمن نسبيًّا في مصر، ولكن الغلاءَ وارتفاعَ تكاليفَ المعيشة ازدادا على نحوٍ كبيرٍ في البقاع الخاضِعة لحكم المماليك بصفةٍ عامةٍ منذ بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وأثقلت كُلفةُ شراء الورق الشَّامي أو المصري من نوعيَّةٍ جيدةٍ كواهِلِ المُتعلِّمِين، ومن ثم اضطروا إلى شراءِ الورق الإيطالي، المصنوع من خِرق الكتَّان، والذي أصبح متاحًا على نَحوٍ مُتزايدٍ في أواخر القرون الوسطى.

واستمر أهلُ مصرَ في إنتاج كمياتٍ كبيرةٍ من الكِتَّان، ولكن عادات المصريِّين في اللِّباس أخذت في التغيُّر منذ بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي؛ إذ كانت صناعةُ النَّسيج المصرية تمرُّ بوقتٍ عصيبٍ، ويعود ذلك إلى تراجع أعدادِ السكان في أعقابِ الطاعونِ إلى حدٍّ كبير. كما زادت حالة الجمود التِّقني في مجال صناعة المنسوجات، وسوء إدارة المماليك للاقتصاد الطينَ بلةً. وأضحى الكِتَّانُ المصريُّ

الأصلي مُكلفًا على نحو متزايد، وللمرة الأولى ارتدى المسلمون من الطبقةِ العُليا الملابسَ المصنوعةَ من نسيج الجوخ الأوروبي، بدلًا من الكتَّان المحلِّي.

وكان بوسع الأوربيِّين إنتاج الصوفِ الرَّخيصِ، ليس لأنهم استطاعوا تأمين كمياتٍ كبيرة من الصُّوف الإنجليزي فحسب، بل لأنهم أدخلوا عددًا كبيرًا من الابتكاراتِ التقنية، ومن ذلك: دولاب الغزل، والنَّول ذي الدوَّاسة (Treadle loom)، وآلة دعك الصُّوف التي تعمل بقوة الماء (Fulling mill waterpowered)، ما عمِل على خفضِ تكاليف إنتاج الجوخ. وبينما زاد توفُّر الصُّوفِ الأوروبي في الأسواقِ المصرية، انخفض الطلبُ على الكِتَّان، وترتَّب على هذا أن عددًا أقلَّ من خِرق الكتان اللازمةِ لصُنعِ الورقِ كانت متاحةً لصُنَّاع الورق المصريِّين. ومن ثم تمكَّن صُنَّاع الورقِ الإيطاليِّين من إغراق السوق بأوراقهم، وبأسعار أرخص مقارنةً بأسعار المنتج المحلي في البلاد.

وعاد التجَّار الإيطاليُّون الذين جلَبوا الورق إلى مصر المملوكية إلى أوروبَّا ببطاقاتِ لعبِ الورق، التي أُدخِلت إلى مصرَ والشَّام من آسيا في القرون الوسطى. وقد استُخدِمت بطاقات اللعب في الصِّين قبل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ثم انتشرت في معظم أرجاء آسيا قبل عصر الحروب الصليبية. ثم ما لبِث أن انتشرت سريعًا في جميع أنحاء أوروبا بعد أن جلبها التجَّار الإيطاليُّون معهم عند عودتهم إلى بلادهم.

وأقدمُ بطاقةِ لعبٍ معروفة وصَلتنا من غربِ الصين عبارة عن شذرة مزينةٍ بِمدادٍ أسودَ وأزرقَ وأحمرَ وذهبيَّ، قيل: إنها وُجِدت في نُفايات الفسطاط، ويعود تاريخها إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وعلى الرغم من بقاء النِّصف الأيمن فحسب من البطاقة، إلا أنها تُصوِّر على نحوٍ واضح أربعة كؤوس

إزارُ الكِتَّان

تغيَّرت عاداتُ الناس في اللِّباس في معظم أنحاء أوروبَّا خلال القرنين الثالث عشر والرَّابع عشر الميلاديين، حيث أضحى الكتَّان يُستخدَم على نطاق واسع في صناعةِ الألبسةِ، ما أتاح كمياتٍ أكبر من خِرق الكتان لصُنَّاع الورق الأوروبيِّين. واستبدل الأوروبيُّون ملابسهم الداخلية الصُّوفية التقليدية بالبياضات، ليس لأن الكِتَّان كان أكثر راحة في ارتدائه قياسًا بالصوف، ولكن أيضًا لأنه كان أسهل في غسله. وهي خاصيَّةٌ يبدو أنها شجَّعت على تحسين النظافة الشخصية، ومن ثم تحسَّنت الصحة العامة. بيد أن البريطانيِّين استمروا في ارتداء الملابس الدَّاخلية المصنوعة من الصُّوفِ لفترةٍ أطول قياسًا بغيرهم من شعوبِ أوروبا. وحفز اختراعان تقنيَّان الأوربيِّين على ارتداء الملابس الداخليَّة المصنوعة من الكتَّان في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلاديين. وكان أولهما آلة تكسير الكتان، التي ربما اختُرِعت في هولندا. فحتى القرون الوسطى المتأخرة، كان لابد من فصل ألياف الكتان العطنة (المنقوعة والمخمرة) عن سيقان الكتان الجافة طريق دقِّها بمطرقةٍ خشبيةٍ. ومع اختراع جهاز تكسير الكتان الجديد -وهو آلة مركبة من لوحين خشبيَّين متوازيين في الأعلى، ينطبقان تَعشيقًا على لوح ثالث محوري يتوسطهما- كان بوسع صنَّاع النسيج من الكتان معالجة كمياتٍ أكبر من الكتان وبوتيرةٍ أسرع. =

أو أقداح (انظر: شكل ٣٥). وعلى الرغم من هشاشة الورقة، فمن المحتمل أنها بطاقة لعبٍ فعليَّةٍ، وليست مجرَّد تصميم بقصد محاكاتها في صُنع ورق اللعب؛ إذ من غير المنطقي أن تُرسَم ورقةٌ ثم تُلوَّن بوصفها تصميمًا لنَسْخِ أوراقٍ أخرى يدويًّا قبل ظهورِ عمليات النَّسخ الميكانيكي للتَّصميمات. وبسبب خُلو ظهرِ الشَّذرة من أي كتاباتٍ أو رسومات، فربما كان من المُفترضِ أن تُلصق تلك الورقة على ظهرٍ أكثر صلابة من الورقِ المقوَّى، أو مَن يدري؟ لعلها كانت مُلصقةً يومًا ما بالفعل على دِعامة من هذا القَبيل.

وثمة مجموعةٌ مُكتملةٌ من البطاقات المُلوَّنة العائدة إلى القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي محفوظة ضمن المجموعات الاستثنائية التي يحتفظُ بها متحف قصر طوب قابي

أمَّا الاختراع الثاني فهو دولاب الغزلِ، والذي عمِل على تسريع وتيرة تحويل الألياف إلى خيوط. فقبل ظهوره كانت الخيوط تُنسَج يدويًا باستخدام مِغْزَلٍ. وربما اختُرع دولابُ الغزل -الذي شاع استخدامُه في جميع أنحاء آسيا- في الهند ووصَل إلى أوروبًا عن طريق الشَّرق الأوسط. حيث ذُكِر نحو عام ١٢٨٠م في مرسوم ألمانيٍّ سمَح باستخدام الخيوط المغزولة على دواليب الغزل في حياكة السُّدى -وليس اللُّحمة- في المنسوجات.
وعلى كل حال أدَّى هذان الاختراعان إلى زيادة إنتاج القماش والملابس، ولا سيَّما الكتَّان الأكثر اقتصادًا. ومع ازدياد أعداد الأشخاص الذين ارتدوا الكِتَّان، أضحى المزيدُ من خِرق الكتان متاحًا لصنع الورق. ولمَّا أصبحت الخِرقُ أرخصَ ثمنًا، فكذلك أصبح الورق نفسه. وعادةً ما كان صُنَّاع الورق يقيمون متجرًا بالقرب من المراكز الحضرية لجمع إمدادات الخِرق من جامعي القمامة، أو بالقرب من الموانئ، حيث يمكنهم جمع أشرعة الكِتَّان المُهملة وحبال القُنب والشِّباك لاستخدامها في صُنعِ الورق.

شكل (٣٥): شذرةٌ من ورقةِ لعب (أربعة كؤوس). مصر، مُنتصف القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. تُنشر بإذن من مجموعة كير *Keir Collection*-إنجلترا [I.27].



سراي بإستانبول. وتتكون المجموعة من اثنين وخمسين بطاقةَ لعبٍ، انقسمت إلى أربع مجموعـات: السُّـيوف والعصي والكؤوس والنقود. وتتكـون كل مجموعة من أرقام من واحـد إلى عشـرة، وكذلـك من بطاقـات البلاط تحمل اسـم «ملك»، و«نائـب الملك»، و«ثانـي نائـب» أي «النَّائـب الثاني». وهـذا التَّرتيب مُطابـقٌ تقريبًا للصِّنـفِ الإيطاليّ من عُبوات بطاقاتِ اللعبِ اللاتينيةِ، ومن شـأن التاريخ المبكّر لشذرةِ الفسطاط إثبات الرَّأي القائـل: إن البطاقـات وصَلت إلى أوروبا من خلال مصر. وفوق ذاك، فإنَّ الكلمة العربية «نائـب»، هـي مصـدر كل مـن الكلمـة الإيطاليـة (Naibbe) فضلًا عـن الكلمة الإسـبانية (Naipes) المُسـتخدَمتين فـي اللعبـةِ المعروفـة في أوروبا باسـم لعبة النـواب (Game of Deputies).

وكان الورق الذي صُنِع في مدنٍ إيطالية، مثل: تريفيزو (Treviso) وفابريانو(Fabriano) من السِّلع الأوروبيَّة التي كان التجَّار الإيطاليون يبادلونها بالتَّوابل الشَّرقية والحرير الذي اشـتروه من أسـواقِ القاهرة. وادَّعى أحدهم ويدعى يوهان ليو (Johann Lio) في دعوى قضائيـة اختصَـم فيها أرملة لورنزو بيمبو (Lorenzo Bembo)، وكيله في الإسـكندرية في عـام ٨١٥هــ/ ١٤١٢م أنه أرسـل إلى المُتوفَّـى وكان يدعى كارلة دا سـكريفر (carla da scriver) ورقًـا صالحًـا للكتابـةِ؛ وبين عامـي ٨٢٠-٨٢٢هــ/ ١٤١٧-١٤١٩م عهِد هذا الرجـل نفسُـه إلـى جياكومـو دي زورزو (Giacomo di Zorzo) ببيـع كميةٍ مـن الورقِ قام بشـحنِها إلى الإسـكندرية. واختصَـم ميشـيل ميشـيل (Michiel Michiel) التاجر البندقي نيكولـو دي نانـي (Nicolo de Nani) فـي عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، وادَّعى أنه أرسـل إليه ٦ بـالات تحتـوي علـى ٨٨ رِزمة مـن الورق، أي مـا مجموعـه أربعة وثلاثين ألـف ورقة، ليُبادلها في مصر بالتَّوابل.

كما شُحِن الورقُ الأوروبي إلى طرابلس وكذلك إلى مُدنٍ شاميةٍ أخرى، حيث بودِل هنـاك بالقُطـن المحلِّي. وكانـت الأوراق الأوروبية ذات الجودة العاليـة في البداية أغلى سعرًا من تلك المُنتجة محليًا في الشَّام أو في مصر، لكن معظم التجار الإيطاليِّين صدَّروا الورقَ الرخيـصَ إلى تلك البلدان الإسـلامية؛ وذاك لأن الورق كان يُصنع هناك بالفعل؛ وفي أسـواق أُخر، صدَّروا نوعياتٍ أفضلَ من المنتج المحلِّي السَّائد من الورق. وبالنظر إلى خيار المسـلمين في اسـتخدام الأوراق الأوروبية، فربما استخدم الكتَّابُ المسلمون

هذه الأوراق الأرخص ثمنًا للمُسوَّدات والرسائل والصُّكوك التي لم تصلنا قط، بيد أنهم لم يستخدموها في الكتبِ والمخطوطات، التي وصَلتنا بأعدادٍ كبيرةٍ نسبيًّا. وادَّعى القَلقشندي -الكاتب المصري المعاصر- أن الورقَ الأوروبي المُصدَّر إلى مصر كان «رديئًا جدًّا» على حدِّ قوله.

واستمرت مصر في صُنعِ الورقِ حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السَّابع عشر الميلادي، ولكن في القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي كان الورق الفرنسي والإيطالي هو السَّائد في الأسواق المصرية. فعلى سبيل المثال، كُتِبَت الوثائق القليلة التي تشتملُ عليها وثائق الجنيزة والمؤرَّخة بالرُّبع الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، على الورق الأوروبي، لا المحلِّي. وبحلول القرن الثامن عشر الميلادي، اضمحلَّ دورُ القاهرة في صناعةِ الورق إلى حدٍّ كبيرٍ، ولم تعدُ كونها مجرد سوقٍ لإعادة تصدير الورق الأوروبي إلى الجزيرة العربية.

وباع سوقُ الورَّاقين -الواقع في حيِّ الأشرفيَّة المُنتجات الأوروبيَّة فحسب تقريبًا في القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الهجريين/ السَّابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وعلى مقربةٍ من سوق الورَّاقين كان هناك «سوق الحبَّارين» وسوق الكُتُبيَّة، وهم تجار الكُتبِ من الربَّاطين، والمُجلِّدين، وصُنَّاع الورق المقوَّى، وبائعي الكُتبِ. ولم يذكر الرحالةُ العُثماني أوليا جلبي في القرن الحادي عشر الهجري/ السَّابع عشر الميلادي سوى ثلاثين كُتُبِيًّا ظلُّوا يعملون في عشرين دكانًا، وهي إمارةٌ دالةٌ على الوضعِ البائسِ، واضمحلال الحياة الفكريَّة في القاهرة العُثمانيَّة. فضلًا عن تراجع صناعة الورق في مصرَ.

المغرب والأندلس

استمرَّ الكُتَّابُ في مُعظم أنحاء المغرب في استخدام الرَّق، بخلافِ جميع الأقاليم الأخرى في العالم الإسلامي. وفي بعض بقاع المغربِ استخدم الكُتَّاب الورقَ منذ وقتٍ مبكرٍ نسبيًّا قياسًا بمناطقَ أخرى في الإقليم نفسِه. ويُعزَى السَّببُ في ذلك إلى أنَّ ولايات إفريقية المقابلة لتونس الحديثة وصِقلية كانت مراكز للرَّعي وتربيةِ الأغنام، وظلَّت صناعة الجلود والرَّق، وكذلك تصدير الجلود، صناعاتٍ مهمَّةً ثمة.

وأقدم مخطوطةٍ وصَلتنا مدونة على الورقِ من المغرب هي مصحفٌ مؤرَّخ بعام ٥٣٤هـ/ ١١٣٩-١١٤٠م. لكن الكتَبَةَ استخدموا الرَّق على نحو موثَّق بين القرنَين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشَر الخامس عشَر الميلاديين. كما استمرُّوا في استخدام الرَّق في كتابة أنواعٍ أخرى من الكُتبِ بعد فترةٍ طويلةٍ من انتشار الورق في بقاع أخرى من العالم الإسلامي. فعلى سبيل المثال، قام محمد بن الحكَم بن سعيد بنَسخِ كتاب أبي حاتم السجستاني المسمى **كتاب النَّخل** بخطٍّ مغربيٍّ جميلٍ على سبعة وعشرين لوحة صغيرة من الرَّق؛ وفرَغَ من نسخه في ٢٦ من جمادى الأولى من عام ٣٩٤هـ (الموافق ٢٦ مارس/ آذار ١٠٠٤م)، وفي هذا التَّاريخ نفسه كان غيره ينسخُ هذا الكتاب نفسَه في أماكن أُخر من العالم الإسلامي على الورقِ فحسب.

وكُتِبَت الرَّسائل والحسابات الخاصة الواردة من تونس والتي عثر عليها ضمن وثائق الجنيزة على الرَّق حتى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وكان الكُتَّابُ المصريُّون قد هجَروا استعمال الرَّق وفضَّلوا استعمالَ الورقِ قبل قرنٍ من الزمان. وتشير وثائق الجنيزة أيضًا إلى أن أهلَ تونس حصلوا على الورق الذي كتبوا عليه من مصر تحديدًا. ومع ذلك، كان الورق معروفًا في المغربِ ربما في بواكير القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، وكانت صناعةُ الورقِ تُمارَس فيها منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إن لم يكن في وقتٍ أبكر من هذا التَّاريخ.

ومن قبيل المُفارقاتِ أن الرِّواية الوحيدة التي وصَلتنا عن صناعة الورق العربي في القرون الوسطى في العالم الإسلامي قاطبةً، هي رسالة مؤرَّخة بالقرنِ الخامس الهجري/ الحادي عشر حول صناعة الكتب وضَعها الأمير الزيري تميم بن المُعز بن باديس، الذي حكَم إمارةً صغيرةً في شمال شرق الجزائر الحالية. ولم يُشِر إلى إعدادِ الرَّق، على الرغم من أنه وضَع بضعَ وصفاتٍ لصُنع أحبارٍ مُلونةٍ كانت تُستخدم في صباغة الرَّق. وعلى كل حال فقد وصَف ابن باديس صناعة الورقِ على هذا النحو:

> «تأخذ القُنَّب الجيد الأبيض، فتنقيه من قصبِه وتَبُلّه، وتُسرِّحه بمُشطٍ حتى يلين، ثم تأخذ الجيرَ فتنقع فيه ليلة إلى الصباح. ثم تَفرك باليد، ويُبسط في الشَّمس حتى يجف نهاره كله. ثم يُعاد في ماء الجير غير الماء الأول الليلة المُقبلة إلى الصباح، ثم تفركه كفركِك الأول ليلةً، ويُبسط في الشَّمس. افعل به

ذلك ثلاثة أيام أو خمسة أو سبعة. وإن بدَّلْتَ ماء الجير كل يوم مرتين كان أجودَ، فإذا تناهى بياضُه قطَّعته بالمِقراضِ صِغارًا صِغارًا، ثم انقعه سبعةَ أيام في ماء عذبٍ أيضًا، وتُبدِّل له الماء كل يوم. فإذا ذهَب منه الجير دقَقْتَه في الهاون دقًّا ناعمًا وهو ندي، فإذا لانَ ولم يبقَ فيه شيء من العُقد أخذت له ماء آخر في إناء نظيفٍ فحللته حتى يصير مثل الحريرة. ثم تعمد إلى قوالب على قدرِ ما تريد، وتكون معمولةً من السل الساماني والمسمار وتكون مفتوحة الحيطان، ثم تعمد إليها فتنصب تحتها قصرية فارغة وتضرب ذلك القُنَّب بيدك ضربًا شديدًا حتى يختلط، ثم تقذفه بيدِك وتطرحُه في القالب وتعدله لئلَّا يكون ثخينًا في موضعٍ، رقيقًا في موضع. فإذا استوى وصَفي ماؤه أقمته منصوبًا بقالبه، فإذا أتيتَ على ما تُريد منه نَقضته على لوحٍ ثم أخذته بيدك وألصقته على حائط مشرح، ثم عدله بيدك واتركه حتى يجفَّ ويبدي ويسقط».

ويُشير ما تبقَّى من وصفِ المُعزِّ إلى تغريةِ الورق بكمياتٍ مُتوازنةٍ من الجير والنَّشا، أو باستخدام نَشا الأرُز، وصَبغ الورق بألوان مختلفة.

وإذا أخذنا هذا الوصف مُجملًا، فإنَّ وصفَ ابن باديس ينطبق على تقنيةٍ قديمةٍ كان صُنَّاع الورقِ قد هجروها آنذاك، كما أنه تجاهل ذكرَ استخدام الخِرق، التي نعلَمُ علمَ اليقينِ أنها كانت المكون الرئيس في وعاءِ اللُّبِّ في عملية صناعة الورق. وعلى أية حال فقد وصَف ابن باديس صناعة الورق في القوالب العائمة، التي هجَر معظم صنَّاع الورق استعمالها منذ فترة طويلة، اللهم إلا عمليات إنتاج أوراقٍ لأغراضٍ خاصةٍ. ولكن بما أن هذا النصَّ فريدٌ من نوعه، فقد تعامل معه الدَّارِسون بإجلالٍ. ولكن جهل ابن باديس بالعمليَّات الأساسيَّة في صناعةِ الورق تثير بعض التَّساؤلات حول مصداقيَّة معلوماته. وإجمالًا، فإن كتابَ ابن باديس لا يخرج في كثيرٍ أو قليلٍ عن صفةِ كثيرٍ من المتونِ التعليميَّة الهادية في الحِرفِ والصِّناعات في العالم الإسلامي في القرون الوسطى: فالكلامُ كثيرٌ، إلا أنَّ الفائدة قليلة(١).

(١) يرى بلوم أن المتونَ العربيةَ الكلاسيكية -باستثناء قلَّةٍ قليلة منها- التي تناولت موضوعات مُتعلِّقة بالزراعة والصناعة وفنون البناء والتَّشييد، كانت محاولات من النُّخبة المُتعلمة لتهذيبِ ما بدا لهم أنها ممارسات فوضوية من قبل الحرفيِّين والصنَّاع والبنَّائين. أي كانت من باب الفضول الفكري ليس إلا، ولم تكون متونًا تعليميَّة حقيقية كما قد تبدو من عناوينها، وسيكرر حُكمه هذا بأساليب متنوعة على امتداد هذا الكتاب. (المترجم)

وذكر ابن أبي ذَرٍّ (من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، أنه بحلول نهاية القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي -أي في حياة ابن باديس- كان هناك بمدينة فاس، في المغرب، ٤٧٢ مصنعًا لإنتاج الورق. ولا تشغلنا دقةُ العددِ في هذا الصَّدد قط، فقد شجَّعت سرعة جريان تيار الماء، الذي لا يزال يتدفق في فاس عبر المركز الصِّناعي للمدينة، على إنشاء مصانع الورق ثمة، وحتى يومِ النَّاس هذا ما يزال هذا التيار يُزود الصبَّاغين والدَّباغين بالمياه الجارية.

وتُظهر الوثائقُ أنه في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي شحَنت فاس نوعًا رائعًا من الورق إلى ميورقة (Majorca) وأراغون (Aragon). ومع ذلك، بدأ أولو المناصبِ في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي في استخدام الورق الأوروبِّي، كما جرَت الحال في مصر. فهناك رسالة مؤرخة بـ ٣٠ من رمضان من عام ٧٥١هـ/ ٨ ديسمبر (كانون الأوَّل) من عام ١٣٥٠م من سُلطان تونس إلى بيتر الرابع (Peter IV) من أراغون-في كاتالونيا (Catalonia) كُتِبَت على ورقةٍ حمَلت علامةً مائيةً مثَّلت حيوانًا خرافيًّا (Griffin)[1]، وهي علامةٌ دالةٌ على الأصلِ الأوروبيِّ للورقة. ولأنَّ العلامات المائية قد اختُرِعَت في إيطاليا في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فمن المُحتملِ أن تكون هذه الورقة قد صُنِعت في إيطاليا، والرَّاجح عندنا أنها صُدِّرت إلى تونس في أثناء حركة التبادل التجاري.

وأقام التجَّار من جُنوة، في تونس طيلة القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كما حذا كثيرٌ من التجار من أماكن أخرى

الزجزاج

رُسِم الزجزاج على الورقة عندما كانت رطبة لم تجف بعد، كما هو الحال مع تقنيةِ العلامة المائية الصينيَّة، التي تركت أنماطًا تُشبه الموجة في الورق. وقد يأخذ الزجزاج شكل خطٍّ متعرج تمامًا كما يشير اسمه، أو قد يشبه أسنان المُشطِ، وتارةً يشبه سلسلةً من شكل حرف x اللاتيني، وتارةً أخرى يكون خطوطًا عشوائيةً، ونقاطًا كبيرةً أحيانًا. وهذه السِّمة تُميِّز الأوراق المغربية والأندلسية التي وصَلتنا وكذلك في معظم الأوراق الإسبانية التي صُنِعَت قبل عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م. وأقدم مثالٍ مؤرخ هو مخطوطة أندلسية نُسِخَت عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م؛ وأحدثها وثيقة كُتِبَت عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، وهي تحمل أيضًا علامةً مائيةً. والغرض من دمغ الورق بالزَّجزاج ليس واضحًا لنا بعد: ربما كانت مقدمةً لظهور العلامات المائية، أو إظهار حُبيبات الورق، أو للمُساعدة في طيِّه. بيد أن هذه الاحتمالات كلها مرجوحة، وربما يكون التَّفسير الرَّاجح هو أن صُنَّاع الورق قلَّدوا العلامات التي تركها الدبَّاغون على الجلد، والتي تُرى أحيانًا على الرَّق.

=

(١) حيوانٌ خرافيٌّ برأس وجناحي نسر وجسم أسد. (المترجم)

حذوهم. وعاش التاجر البيزي ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) هناك قبل أن يضع رسالته حول الأرقام العربية في عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م. وكُتِبَت وثيقةٌ أخرى، بتاريخ ٢٧ ربيع الأول من عام ٧٦١هـ/ ٢٣ فبراير ١٣٦٠، على ورقةٍ تحمل علامة مائية وزجزاج، والعلامة الأخيرة هي علامةٌ مميزةٌ للورق المصنوع في الأندلس، وربما صُنِعت في إيطاليا لأسواق المغرب أو لأسواق كاتالونيا خاصة.



زجزاج يجري أسفل منتصف الورقة الإسباني من القرون الوسطى.
المصدر: Lucien X. Polastron, Le papier, p. 111.

وأظهَر المسلمون القلقَ بشأن استخدام هذه الأوراق الأوروبية، إذ حمَل بعضها صورًا أثارت حميَّة أصحاب الدِّيانةِ من المحافظين. ففي تِلمسان -وهي مدينة تقع الآن غربي الجزائر- لحَظَ فقيه يُدعى أبو عبد الله بن مرزوق هذه الظَّاهرة، وأفتى بفتوى طويلة في هذه المسألة، وهي فتوى مؤرَّخة بغُرَّة ربيع الثاني من عام ٨١٢هـ (الموافق ٢١ أغسطس/ آب من عام ١٤٠٩م)، تحت عنوان: **تقرير الدَّليل الواضح المعلوم على جواز النَّسخ في كاغد الروم**. وتُشير تلك الفتوى إلى أن الورق الإيطالي كان قد حلَّ -على نحو كاملٍ- محلَّ الإنتاج المحلِّي في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ووفقًا لما جاء بالفتوى، فقد كان الورق يُصنع في تِلمسان، وكذلك في فاس والمدن الإسلامية في الأندلس، لكنه لم يَعُدْ كذلك. ومن ثم اضطر عامة المسلمين وخاصَّتهم إلى الكتابةِ على الورق الأوروبِّي الذي كان يحمل علاماتٍ أثارت حميَّتهم؛ وذاك أن هذه العلامات غالبًا ما احتوت على صُلبانَ أو صورٍ لبعض الحيوانات.

وبحسب فتوى ابن مرزوق -الذي نظَر إلى المسألة من زاوية الطَّهارة[1]- فإنَّ الكتابة بالعربية على تلك التَّصميمات الوثنية

(١) كانت المسألة التي استُفتي فيها ابن مرزوق هي: هل ينجس مسُّ الورق الرُّومي المسلم، لأنهم (أي الإيطاليِّين) يعملون الورق وأيديهم مبلولة نجسة. (المترجِم)

تطمسـها. ورأى ابـن مـرزوق أن مجـرَّد كتابـة اسـم الله على هذه الأوراق، تستبدلُ الباطـل بالحـق، وقاسَ المسـألةَ علـى تحويلِ كنيسةٍ نصرانيَّةٍ إلى مسجد.

ودخَـل الـورقُ إلـى شـبه الجزيـرة الإيبيريَّة فـي القـرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ربما نتيجةً لعمليات التَّبادل التجاري التـي تشـهد وثائـق الجنيـزة القاهرية علـى عُمقِها. وكان الشَّـاعر والموسـوعي الأندلسـي ابـن عبـد ربـه أول كاتـبٍ أندلسـيٍّ ذكَر الـورق. ففـي كتابـه المُسـمَّى **العِقْـد الفريـد**، تنـاول ابن عبـد ربِّه الأنـواعَ المختلفـةَ من أقلامِ القصـبِ الأكثر ملاءمـةً للكتابة على الرَّق والبردي والورق. فإذا دقَّقنا في التَّاريخ الذي وضَع فيه كتابه -أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي ومُستهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي- فربما رأى ابن عبد ربِّه الورقَ أثنـاء رحلتِـه للحـج إلـى مكـة؛ لـذا نسـتبعدُ أن يكون قـد رآه في الأندلس نفسها في هذا التاريخ.

ومـع ذلـك، ففـي منتصـفِ القـرن الرابـع الهجري/ العاشـر الميـلادي، كان الـورقُ متوافـرًا في الأندلس بكمِّيـاتٍ كبيرةٍ، إلى حـدٍّ أن اللغـويَّ ابـن هانـي الأندلسـي كان يعطـي طلابَـه أوراقًـا لينسَـخوا الكُتـبَ مـن مكتبتِـه الخاصة. وقيـل: إن مكتبـةَ الخليفة الأموي والعالـم الحكم المُستنصر، كانت تحتوي على ٤٠٠ ألف مجلَّـدٍ، وربما أنفـق المبالغَ الطائلـةَ على اقتنائهـا. وثَـمَّ مخطوطةٌ واحدةٌ فحسـب من مكتبة الحكم يُعرف أنها وصَلتنا، وهـي نسخة مـن كتـاب **المُختصَر** لأبـي مُصْعَب أحمـد بن أبي بكـر الزُّهري، وهي محفوظةٌ الآن في مكتبة جامعِ القرويِّين في فاس. وورَد في حردِ متنِها أنها نُسِخَت على يد ناسخٍ كان يُدعى حسين بن يوسف في شعبان من عام ٣٥٩هـ/ يونيو- يوليو من عام ٩٧٠م.

لم يقف الدِّين حجرَ عثرةٍ أمام استخدام الورق في الأندلس،

العلامات المائية

تشهد مجموعةٌ من المخطوطات اليونانيـة المؤرَّخـة التـي دُوِّنت على ورق صُنِـع فـي فابريانـو (Fabria-no)، علـى التطوّر السـريع الذي طرأ على صناعـة الورق الإيطاليَّـة في النصـف الثانـي مـن القـرن الثالـث عشـر الميـلادي. كمـا هـو الحال فـي بلنسـيَّة (Valencia)، فقـد حلَّـت الأسـلاكُ النحاسـيةُ أو الصُّفـر محل الخَيزُران الهش أو الكتَّان المُشـرَّبِ بالزَّيـت، الذي صُنِعت منـه القوالب تقليديًـا في العالم الإسـلامي. ومن ثـم أضحـت الخطـوط التي رسـمَتها الأسـلاك فـي ورق فابريانـو، أدق وأكثـر تباعـدًا، وأصبـح اللُّـبُّ يُخفق جيدًا على نحو متزايدٍ، كما أصبَحت الورقة أكثـر بياضًـا. واكتَشـف صُنَّاع الورق الإيطاليُّـون في أواخـر القرن الثَّالث عشـر، أيضًا أنَّ بوسعهم وضع علامـاتٍ مائيَّـةٍ باهتـةٍ، أو علامـات ورقيـة، علـى المُنتـج النهائـي مـن الـورق. ودرسَ العلمـاء مؤخرًا آلافًا مؤلَّفـةً مـن هـذه العلامـات المائيـة وفهرسـوها، مـا سـمَح لهـم بتأريخ الـورقِ الـذي يحمـل علامـةً مائيـةً بسهولةٍ نسبيةٍ. =

كما لم يكن كذلك أي مكان آخر في العالم الإسلامي. ويُعتقَد أن أقدم مخطوطة نصرانيَّةٍ أندلسيَّةٍ دُوِّنت على الورقِ هي كتاب **الأدعية بلسان المُسْتَعْرِبةِ والصَّلوات في البِيع** (Mozarabic Breviary and Missal in Silos)، والتي أُرِّخت استنادًا إلى الخطِّ الذي كُتِبت به (*Paleographic*) بالنِّصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومن بين الأوراق الـ ١٥٠ قوام تلك المخطوطة، فإنَّ آخر ٣٨ ورقة منها كانت من ورقٍ قويٍّ وسميكٍ مَصنوعٍ من الكتَّانِ الخشن المُغرَّى بنَشا الأرز. أما بقية الكتاب فكان مِن الرَّق. ويبدو لنا أن الرَّق قد نفَد من الكاتبِ، فكأنه لم يجِدْ بُدًّا من أن يكملَ كتابه بما عدَّه مادةً أدنى من الرَّق شأنًا. ويُشير فهرست المخطوطات القديمة في الدَّير في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى هذا الكتاب باسم **الصلوات التطيليَّة** كُتِبَ على «ورقِ خِرق» (pergamino de trapos).

وتأسَّست مصانعُ الورق في جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيبيريَّةِ في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وأول ذكرٍ مُحدَّدٍ لمصنعٍ للورق يعود إلى عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، عندما ورَد ذكر شخصٌ يدعى «أبو مصافية Masafya» أو مَسقوفة (Mescufa)[1] بوصفِه صاحبَ مصنعٍ للورقِ كان يقع «بجوار قناة الرَّي القديمة» بالقرب من مدينة شاطبة (Játiva)، الواقعة جنوب غرب بلنسية (Valencia).



علامةٌ مائيةٌ تمثل عنقودًا من العنب على نسخةٍ مطبوعةٍ من الكتاب المقدَّس المكون من اثنين وأربعين سطراً الذي طبعه جوتنبرج.
المصدر: *Dard Hunter,* Papermaking *(1947), fig. 217*

وتُشير العلاماتُ المائيَّةُ على الأوراقِ المُنتجةِ على طولِ ضفتي البحر الأدرياتيكي إلى أن أصلَها هو مصانع الورق في فابريانو أو حولها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. والعلامات المائية -ويجدر بنا أن نطلق عليها علاماتِ الورق؛ لأنَّ رسم تلك العلامات لم يكن له علاقة بالماء قطُّ- هي غيضٌ من فَيضٍ من التطوراتِ التقنية التي تُنسب إلى صنَّاع الورق الإيطاليِّين الأوائل. وربما ابتكرها صُنَّاع الورق في فابريانو في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي؛ لأنَّ أقدم مثال باقٍ يعود إلى عام ١٢٨٢م.
وعلِم جميعُ صُنَّاعِ الورقِ أن القالبَ كان يترك بصماتٍ على=

(١) كذا بالأصل الإنجليزي! ولم أدرِ ما الوجه فيهما. وقد راجعت المؤلِّف في هذين الاسمين وطلبت منه أن يرسُمَهما لي بالحرفِ العربي، فأفاد أنه لم يرَ هذين الاسمَيْن بالعربية من قبل قطُّ، وأنهما وردَا هكذا في جميع المصادر الإسبانيَّة التي عاودها. كما أفاد بشكوكِه حول تلك الرِّوايةِ إجمالًا، إلَّا أنها متواترةٌ في المصادر الإسبانية المُعاصرة. ولعل الاسمين تحرَّفا على نحوٍ ما، أو ربما كان صاحبُه نصرانيًّا أو يهوديًّا مُستعربًا، وليس عربيًّا قحًّا. وعلى كل حالٍ فقد نقَلت الاسم بالحرف اللاتيني كما أثبتَه المؤلف. (المترجم)

واشـتُهِرَت مدينةُ شـاطبةَ في العصر الرُّوماني بصناعةِ القماش مـن الكِتَّان النَّاعم الـذي كان يزرع في الحقول المروية من خلال شـبكةٍ مـن الأنهار التـي تدفَّقت فـي تلك المنطقـة. ووفرت تلك الأنهار نفسـها المياه الغزيرة اللازمة لإعداد أليـاف الكتَّان، وفي التطـور الأخيـر، لمصانـع الـورق. وأشـاد الإدريسـي -نحو عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م- بـورقِ شـاطبةَ الرَّائـع، الـذي بلَـغ الغايـة في الجودة، فلم تُنافسها فيه مدينة أخرى، قال الإدريسي:

«ويُعمَل بها من الكاغَذ ما لا يوجد له نظيرٌ بمعمورِ الأرضِ ويعمُّ المشارق والمغارب».

واشـتُق اسـم الورق الشَّاطبي من الاسـم العربي للمدينةِ، التي اشتُهِرت في جميع أنحاء حوضِ البحر المتوسـط لوزنها، فضلًا عن سطحها الأملس والمصقول.

وفي عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م -بعد ما يقرب من أربعين عامًا من ذِكـرِ مصنـع أبي مصافيـة (؟!) في شـاطِبة- هرب ابنـه ماتمومين (مُؤتَمـن؟) (Matumin) إلـى بلنسـية (Valencia) ليؤسِّـسَ مصنعًا آخـر للورق في الرُّصافة. وفي عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م -وهو العامُ نفسُـه الذي اسـتولى فيه النصارى على مدينة طليطلة (Toledo)- ورَد ذكـر «مطاحـن ورق الخِـرق» هنـاك، وشـدَّد ابـن عبـدون المُحتسِـبُ -وهـو المُشـرفُ علـى أسـواق إشـبيلية فـي عصـرِ المرابطِين نحو عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م- في كتابه الذي وضَعه في الحِسْـبَةِ علـى أنـه: «يجـب أن يُـزاد في قالَـب الكاغَد وفـي دلكِه قليـلًا»، الأمـر الـذي لا يُنبـئ عـن أنَّ الـورقَ قـد صُنِع هنـاك آنئذٍ فحسـب، بـل يشـي أيضًا بأن صُنَّـاع الورق -مثلُهم فـي ذلك مثلُ كثيرٍ من الحرفيِّين الآخرين- حاولوا خفضَ تكاليف الإنتاج.

حظِـي الـورقُ الأندلسـي بتقديـرٍ كبيرٍ، ولا سـيَّما فيمـا يتعلق

الورق النهائـي، وحتى بضع قطرات مـن المـاء كان يمكن أن تتـرك عيوبًا تُشـوِّه الورقـة المُكتملـة الصُّنـع. واسـتخدم صانعـو الـورق الإسـبان هـذه المعرفـة بالفعل لصُنـع زجزاج فـي أوراقهـم. ومـا أن أضحـت القوالـب تُصنَـع مـن الأسـلاكِ النحاسية، حتى أدرك صُنَّـاع الورق أنـه يمكنهم عمـل تصميم وتثبيته في القالـب بحيـث يتـرك انطباعًـا خافتًا علـى الـورق النهائـي. قد تُشـير هذه الانطباعـات إلـى مَـنْ صنَـع الورقة، ومـن ثم قد تكـون بمثابة علامة على الجودة. فـي المقابل، يبدو أن صنَّاع الـورق المسـلمين قـد تعرَّفـوا علـى جـودة أوراقهم من خـلال لصقِ نوعٍ مـن العلامـات التجاريـة علـى رأسِ الرِّزمـة. وكانـت العلامـات المائيـة الإيطالية الأولى تصميماتٍ بسـيطةً، لأن السِّـلك لـم يكـن يسـمح بكثيـر من الالتواء، ثم تطورت إلى أشـكالٍ خياليةٍ، بيد أن التَّصميمات أصبحت أكثـر فخامـةً، ولا سـيما بعـد إنتـاج أسلاك دقيقةٍ ومرنةٍ وقابلةٍ للانثناء.

بنسْخِ الكتب، وصُدِّر إلى جميع أنحاء البحر المتوسط. ووفقًا لمُراسلات الشاعر اليهودي الأندلسي يوده ها-ليڤي (Judah ha-Levy) (من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، المحفوظة في وثائق الجنيزة، فقد أرسل ٥٠٠ ورقة من الورق التُّطيلي إلى صديقه هالفون بن ناثانيل (Halfon Ben Nethanel) في مصرَ نحو عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م. وثَمَّ رسالةٌ أخرى من وثائق الجنيزة القاهرية، كُتِبَت في غَرناطة في عام ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م على ورقٍ أبيضَ شديدٌ بياضُه، وامتاز بالقوة والرِّقة على نحو استثنائيّ. واستنادًا إلى تلك الورقة، بوسعنا أن نتفهَّم سببَ الطلبِ الكبيرِ على الورق الأندلُسي.

وكما هو الحال في فارس، اشتُهِرَت الأوراقُ المصبوغةُ في المغرب. وقدَّم [المعزُّ] ابن باديس وصفاتٍ لصباغةِ الورق في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان ملوك بني نصرٍ في غَرناطة يستخدمون أوراقًا مُلوَّنة غلب عليها الأحمر القِرمزي أو الأرجواني أو الوردي الباهت في مكاتباتِهم. وعُرف هذا الورق باسم الورق النَّصري بعد انقضاء عصر بني نصرٍ -الذين صدَّوره أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي- وزوال سُلطانهم. وكان الورقُ النَّصريُّ أصغرَ في القطع من ورقِ شاطبةَ، وقياسه نحو ١١× ١٤ بوصة (٢٧×٣٦سم).

ولعل المثالَ الأبرز على الورق النَّصري في أرشيف أراغون هو ورقةٌ حمراءُ قانيةٌ مصنوعةٌ من الكتَّان والقنَّب بالتساوي، وتحمل رسالةً مؤرَّخة بعام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م من محمد الثَّامن[1] صاحب غرناطة إلى ألفونسو الخامس (Alfonso V). ورأى بعض الباحِثين أنَّ اللونَ الأحمر القاني كان يرمزُ إلى غضبِ صاحبِ غَرناطة، على الرغم من أن ملوك بني نصر وملوك أراغون لم يشتركوا -بالضرورةِ- في لُغةٍ رمزيةٍ مُشتركةٍ في الألوان.

ونظرًا لأهميَّة الورق في الأندلُس، فمن قَبيلِ المدهش أن يُعادَ بناءُ تاريخه هناك -كما هو الحال في مصر أيضًا- إلى حدٍّ كبيرٍ من خلال الوثائق الرسميَّة بدلًا من الكُتبِ. وفي حين أن الافتقار إلى الكُتبِ المصرية من العصر الفاطمي لم يزلْ لغزًا مُستعصيًا على الحلِّ، فإن غيابَ المخطوطات العربية الأندلُسية هو نتيجة مباشرة من نتائج حرب

(١) محمد المُستَمسِك ابن يوسُف الثَّالث (٨٢٠-٨٤٨هـ/ ١٤١٧-١٤٤٤م [على فتراتٍ ثلاث]). (المترجِم)



شكل (٣٦): «صورةُ السيِّدةِ تُكلِّم العجوزَ في أمر رياض، ورياض واقفةٌ على الصِّهريج ودمها يسيل على وجهِها». من الحكايةِ الشَّاعرية المسماة **بياض ورياض**. وجه الورقة ١٣. مكتبة الفاتيكان [*Vat. Ar. 368*.].

الاسترداد (Reconquista). فقد أمرت الكنيسةُ والدَّولةُ الكاثوليكيَّة بالقضاء على أي أثرٍ للمصاحفِ من المدن والقرى الإسلامية التي استولى عليها النَّصارى الإسبانُ في شبه الجزيرة بمجرد طرد المُوريسكيِّين -وهم مسلمو الأندلس- منها، وإبادة جميع المخطوطات العربية عن بكرةِ أبيها. وكان نجاحُ محارقِ الكتبِ شبه كاملٍ، وما وصلنا من المخطوطاتِ العربية في الأندلس هي تلك المخطوطات التي نُقِلت إلى ملاذاتٍ آمنةٍ فحسب.

ومن بين الأعمالِ الأدبيَّةِ القليلة التي نجَت من ألسنةِ اللهب، المخطوطة الشَّاعرية المُصوَّرة المُسمَّاة **بياض ورياض**، التي نُسِخَت على الأرجح في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في إشْبيليَة (Seville). وقياس تلك المخطوطة، التي نُسِخَت على الورق ١١×٨بوصات (٢٨,٢×٢٠سم). والظَّهريةُ والغاشيةُ مفقودتان، ولكن المخطوطةُ نفسها تشتملُ على أربعة عشر مُنمنمةٍ رشيقةٍ رُسِمت بأسلوبٍ فريدٍ من نوعه، وتشهد على الثراء الاستثنائي للثَّقافةِ الزَّائلةِ للكتابِ في الأندلس (انظر: شكل ٣٦).

وإجمالًا، على الرَّغم من أن الورق قد استُخدِم في آسيا الوسطى وفارس قبل

استخدامه في العراق، حيث عاصمة الدَّولة، فإن قرار «الدَّواوين العباسيَّة» في العراق الذي قضَى باستخدام الورق لعِب دورًا أساسيًّا في قبولِه في كل مكان آخر من العالم الإسلامي. وظلَّت بلادُ فارس -التي احتوت أحيانًا على أجزاءٍ من العراق وآسيا الوسطى على حدٍّ سواء- في طليعةِ أقاليم العالم الإسلامي فيما تعلَّق بتقنيةِ صناعة الورق، بسبب الانفتاحِ على الصِّين، ولا سيَّما في القرون الوسطى المتأخِّرة.

وعلى صعيدٍ آخر، أظهَر المغرب الإسلامي فتورًا في البدايةِ في قبولِ الورق. ولكن ما إن قبِله أهل المغرب حتى نقَلوا تقنياتِ صناعتِه إلى أوروبا في التطوُّرِ الأخير. لكنهم نقَلوا تقنيةَ صناعة الورق فحسب، وليس الطِّباعة. ووصَل فنُّ صناعة الكتب المنسوخة يدويًّا إلى مستوياتٍ عاليةٍ من الإبداع في العالم الإسلامي.

الفصل الثالث

الفصل الثالث
الورق والكُتب

«كان للحكاياتِ التي دُوِّنت كتابةً مكانةٌ أعلى ولا شك من تلك التي استمرت تُحكى روايةً. واستحقَّت روائع الحكاياتِ شيئًا أفضل من مجرد الحكي والنَّقل مُشافهةً. إن كونَ الحكايةِ رائعةً إلى حدٍّ أنه ينبغي تدوينها كتابةً هو -في الواقع- أحد الموضوعات المُتكررة في حكاياتِ **ألف ليلة وليلة**، فيتكرَّر قول القاصّ: «لو كُتِبَت بالإبر على آماق البَصرِ؛ لكانت عبرةً لمن اعتَبر». فالكتابةُ وحدها هي الضَّامن للخلودِ إذًا، وهي أفضل وسيلةٍ لتجسيدِ العِبرة لمن يعتبِر، أو استخلاصِ العِظةِ لمن يتَّعِظ مما وقَع في هذه الحكايات».

Robert Irwin, *The Arabian Nights*.

كثيرًا ما جادَل المؤرِّخون الغربيُّون بأن الحضارة الإسلامية ارتكبَت خطأً فادحًا عندما رفَضت قبولَ المطبعة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي؛ وافترضوا أنَّ تبعاتِ هذا الخطأ أدَّت إلى عزلِ الحضارةِ الإسلاميةِ عن التيَّار الرَّئيس للمعرفة. ولكن على الرغم من أنَّ المسلمين شرعوا في استخدام المطبعة في القرن الثامن عشر الميلادي، إلا أنَّهم امتلكوا وسائل أخرى لنقلِ المعرفةِ بفعاليةٍ وعلى نطاقٍ واسعٍ. أمَّا عن القرون الثَّمانية السَّابقة، فكان سكَّان العالم الإسلامي -ولا نعني بحديثنا المسلمين فحسب، بل نعني أيضًا النَّصارى واليهود ممن ساكنوهم- يتحكَّمون في نهر المعرفة نفسه، الذي كان الأوروبيُّون العطشَى ينهلون منه، ما وسِعَهم ذلك.

وربما ألجأت ضروراتُ البيروقراطيَّة الكُتَّابَ المسلمين في الدَّواوين إلى قبول الورق، بيد أنَّ توفر الورق في العالم الإسلامي شجَّع أيضًا على ازدهار الكتب والثقافة المكتوبة على نحوٍ لا يُقارن بازدهار الكتب الذي عرَفته أوروبا قاطبةً بعد اختراع المطبعة من طِراز الأحرف المُتحرِّكة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

وعلى الرغم من أن العالم الإسلامي لم يعرف الطِّباعة، فقد كان مستوى انتشار المعرفة المُدوَّنة قابلًا للمقارنةِ مع غيره في الحضارات التي عرَفت الطباعة واستخدمتها على نطاقٍ واسعٍ، مثل الصِّين ولا سيَّما بعد أن عرَفت الأخيرة الطباعة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وحتى بعد أن عرَف أهلُ الصِّين الطباعة، نُشِرَت الكتب الصينية في طبعاتٍ صغيرةٍ نسبيًّا، ربما في حدود ١٠٠ نسخة من الكتاب الواحد، وهو معدلٌ كان يسَع المسلمين بلوغه بسهولة من خلال النِّظام الفريد الذي طوَّروه لنقل المعرفة. ولا يكمن التَّمييز الحقيقي بين كل هذه الثقافات في التِّقنية المستخدمة في نشر الكتبِ فحسب، بل يكمن في موقفِ تلك الثَّقافات من الكُتبِ ومن التَّعلُّم من خلال الكتبِ، وفي الأدوارِ المختلفةِ التي لعبتها الكتابة والكلمة المكتوبة في ثقافاتِ هذه الحضارات في الأخير.

وعادةً ما تُنْسَب أهمية الكتابة في الحضارةِ الإسلاميَّة إلى الدَّور المركزي للقرآن، الذي حظِي -ولم يزل يحظى- بالتَّقديس بوصفه كلام الله الذي أنزله على قلب نبيه [ﷺ] بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، في مُستهل القرن الأول الهجري/ السَّابع الميلادي. ولما نشَر المسلمون الإسلام والقرآن في الأراضي التي فتحوها لاحقًا، أضحَت العربيةُ هي اللغة المُشتركة في المناطق الممتدَّة من إسبانيا غربًا إلى آسيا الوسطى شرقًا، فتوحَّد بذلك عددٌ هائلٌ من ساكنةِ المعمورةِ في «أُمَّةٍ لُغويَّةٍ» واحدةٍ. حتى إنَّ غير المسلمين الذين ساكنوا المسلمين تكلَّموا بلسان العرب، فتكلَّم التجَّار اليهود في مصر والمغرب اللغة العربية -مثلُهم في ذلك مثَلُ أقرانِهم من المسلمين- على الرغم من أنهم كتَبوها بالحرفِ العبريِّ.

وكان الخط العربي قويًّا للغاية، إلى حدٍّ أن اللغات التي لم يربطها بالعربية رابطٌ قط، والتي تحدث بها أولئك الذين عاشوا تحت رايةِ الإسلام، مثل الفارسيَّة والتُّركية، أضحَت تُكتَب بالحرفِ العربي مع إجراء بعض التَّعديلات الصوتيَّة.

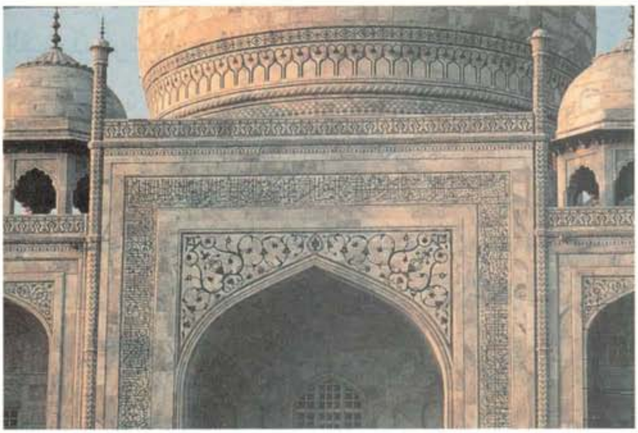
وكان الاستخدامُ الكثيفُ للكتابةِ العربية أحد السِّمات المُميِّزة للثَّقافة البصرية الإسلامية، فلم تُستخدَم الكتابة لإنشاء الوثائق والكُتبِ فحسب، بل استُخدِمت لتزيين كُل شيءٍ تقريبًا، من أبسط الأمتعةِ اليوميَّةِ إلى الصُّروح العُظمى الأكثر تطورًا (انظر: شكلي ٣٧-٣٨). ولم يعرف العالم ثقافةً احتلَّت فيها الكتابةُ الموقع الذي احتَّلته من الإسلام، اللهم إلا باستثناء

قليلٍ من الثَّقافات الأخرى. ويُشير انتشار الكتابةِ في الحضارة الإسلامية إلى أن مُسلمي القرون الوسطى كانوا أكثر ميلًا إلى التَّعليم، أو فلْنَقُل: إلى الإلمام بالكتابةِ على الأقل، ولا سيَّما قياسًا بغيرِهم من المجتمعاتِ التي عاصرتهم في أماكن أخرى.

وسَرعان ما أضحت اللغةُ العربيةُ -في ظلِّ حكم المسلمين- لغةً للإدارةِ الإمبرياليَّة، مثَلُها في ذلك مثَل اليونانيَّة واللاتينيَّة من قبل- وتطلَّبت الإدارة البيروقراطيَّة التي أنشأها الحكامُ المسلمون كمياتٍ هائلةً من مواد الكتابةِ؛ فاستعمل كُتَّابُ الدَّواوين المسلمون أوراق البردي والرَّق في بادئ الأمر، ثم تحولوا إلى استخدام الورقِ، لحفظ سجلَّاتهم بأخَرةٍ. وبغضِّ النظرِ عن الوثائق المكتشفة سواءً من صحراء مصر، أو وثائق الجنيزة



شكل (٣٧): قنديلٌ زيتيٌّ مكتوبٌ عليه «... لا تُطفَأ، وبيِّنْ لصَاهِدِ». صُنِع من الخزفِ المَصبوبِ المُزجَّج. مصر، بين القرنَين الثاني والخامس الهجريين/ الثامن والحادي عشر الميلاديين. طوله: ٣بوصات (٩,٨سم). متحف بيناكي (Benaki Museum)، أثينا [*inv. no. 12275*].



شكل (٣٨): نقشٌ قُرآنيٌّ على واجهةِ تاج محل، أجرا، اكتمَل بناؤه عام ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م.

القاهريَّـة، أو وثائـق ديـر سـانت كاترين، أو أرشـيف تاجِ أراغـون، فلم يصلنـا من العالم الإسلامي إلَّا بعض الوثائق القليلة نسبيًّا من الفترة التي سبقت عام ١٥٠٠م، ومن ثم فقد رسَمت الكتبُ ملامِحَ الصورةِ العامَّةِ لتاريخ الكتابة في هذا العصر، لا الوثائق.

ويـكاد يدخـل فـي عدادِ المُسـتحيلاتِ تحديـدُ ما إذا كانـت الحضارة الإسـلامية في القرون الوسطى قد استخدمت المزيد من الورق للوثائق أو الكُتب، لكن الإسلامَ أصبح -بكل تأكيدٍ- ثقافةَ الكتبِ، لا سيما متى قورن بالدَّولة البيزنطيَّة وأوروبَّا الغربية في ذلك الوقت. ويقدِّر بعض الباحثين -على سبيل المثال- إجمالي ما وصَلنا من الكتاب العربيِّ المخطـوط من الحقبة التي سبَقت ظهور الطباعـة يُناهز ٦٠٠ ألف كتابٍ مخطوطٍ، ومن قَبيل البديهي أن هذا الرقم لا يمثِّل إلا نسبةً تكاد لا تُذكر من إجمالي الكُتبِ التي صُنِّفت في ظلِّ هذه الحضارة.

وكان القُـرآن الكتـابَ الأكثـرَ أهميَّـةً وإعظامًـا فـي المجتمعـاتِ الإسـلاميَّة في تلك الحقبة، ولـم يزل كذلك. وعليه فإن كثيرًا من أوجُه معرفتنا بالكتابِ الإسلاميِّ في القرون الوسطى وصناعة الكُتب مُستقى من النُّسخِ المَخطوطةِ التي وصَلتنا من المصاحف.

نزَل الوحيُ على النبيِّ [ﷺ] بآي القرآنِ، ثم تلاها النبيُّ [ﷺ] مُشـفاهةً على مسـامع أصحابه، ثم سَرعان ما دُوِّن الوحي على الرَّق، ونُسِخ بدقَّةٍ خوفًا من دخولِ الفساد عليه، وكـذا فعَل المسـلمون بحديثِ النَّبي [ﷺ] لاحقًا. وعلى الرغـم من أنَّ المصاحف التي وصَلتنا لا تمثل سـوى نطاق واحدٍ من نطاقات إخراج الكتاب الإسـلامي المخطوطِ في القـرون الوسـطى؛ فإنَّهـا كانت تُكتب عادةً بعنايةٍ أكبر، كما اسـتُخدِمت في نسـخها موادُّ أكثـر تكلفـة من تلك المُسـتخدمة في تدوين معظـم الكتبِ الأخرى. ويُفتـرض أيضًا أن المسلمين احتفظوا بالمصاحف، وأنهم اعتنَوا بها العنايةَ كلَّها.

وعـزَّزت الأهمية الاسـتثنائيَّة للكتابةِ في الإسـلام، إضافةً إلى أفضليَّـة القرآن بوصفه نصًّا مكتوبًا من الانطباع القائلِ: إن الإسلام كان -ولم يزل- ثقافةً قائمةً على النصِّ. ولا يسـع أحـدٌ إنـكارَ أهميـة الكلمةِ المكتوبـة في الإسـلام، ولكن منذ ظهـور الوحي، حفِظ المسـلمون القـرآن، وعبَّـروا عنـه في المقـام الأول روايـةً -وليس بوصفه نصًّـا مكتوبًا-

واستمرت الذاكرة والإيماءة[1] وسيلةً لا تقلُّ أهميَّةً عن الكتابة في نقلِ الثَّقافةِ الإسلامية، وتظلُّ تلك حقيقةً، ولو أبى المُستشرقون الاعترافَ بها.

وتشوَّهت الانطباعات الحالية عن الماضي أيضًا بسبب إعادة التَّفسيرِ لاحقًا؛ إذ عاش المسلمون الأوائل في بيئة مُفعمةٍ بالحيويَّةِ والفكرِ، وانقسموا فرقًا وشيعًا في التَّفسير ومدارس الفكر. ثم ساد أهل السُّنة -الذين ركَّزوا على النصِّ تحت رعاية الخلفاء العباسيِّين في بغداد في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي- على سائر الفِرقِ، وشجَّعت هذه السيادةُ العلماءَ على رسم صورةٍ ذهنيَّة مُتجانسة للإسلام في طورِه الأول، وإن تعارضت هذه الصورة مع الأدلَّةِ المستقاةِ من مصادر أخرى.

وبالمثل، فإنَّ الكتب المطبوعة التي تُركز على النص، والتي تتميز بها ثقافة الشرق الأوسط في يومنا هذا ربما تقودنا إلى المبالغةِ في التَّركيز على الجوانب النصيَّة للثقافة الإسلامية على حسابِ جوانب الرِّواية والحفظ وانتقال المعرفة عَنْعَنَةً[2] ومُشافهةً، ولا سيما أنَّ معظم السجلَّات التاريخية -على الأقل في نظر المؤرِّخين التقليديِّين- إنما هي وثائق مكتوبة. ومع ذلك، ونظرًا لانتشار أنماط من الرُّسومات والمخطَّطات والتَّرميزات في الوثائق والكتب -والتي مثَّلت جميعًا طرقًا جديدةً مميزةً للتفكير- في المجتمعات الإسلامية، فلا ريبَ أنَّ توفُّر الورقِ شجَّع عملية انتقال الثقافة الإسلامية في القرون الوسطى من ثقافةٍ قائمةٍ على الحفظِ، إلى ثقافةٍ تستندُ إلى السجلِّ المكتوبِ.

القرآن وثقافة الرِّواية

كانت ثقافة الجزيرةِ العربيةِ قبل ظهورِ الإسلام ثقافةً قائمةً على السَّماع والحفظ والمُشافهةِ إلى حدٍّ كبيرٍ. وعلى الرغم من أن العربَ عرَفوا الكتابةَ، إلا أنها لعبت دورًا

(١) وسيلةٌ يوقِف بها الحافظ تلميذَه على خطإٍ ارتكبه أثناء الرِّواية، دون أن يتلفَّظ بحرفٍ واحدٍ كأن يطرق أثناء التلاوةِ فإذا أخطأ الطالبُ في التلاوةِ رفَع الشيخ عينه ونظر إلى وجه الطالبِ على سبيل المثالِ. وهي قسمٌ من لغةِ الجسدِ، تُستخدَمُ عادةً من جانبِ الشَّيخ أو الأُستاذِ أو الحِرفيِّ عند تحفيظِه لتَلامذته أو تعليمِهم ممارسةَ فنٍّ من الفنونِ عمليًا. وسيكرِّرُها المؤلفُ كثيرًا مقرونةً بالحِفظِ والتَّعليم بالمُمارسةِ القائمة على التَّجريبِ، لا على الدِّراسة النَّظريَّة من خلال القراءةِ والكُتب. (المترجم)

(٢) العنعنة: الرِّوايةُ إسنادًا: أي يستهلُّ الرَّاوي روايتَه بقوله: «سمعت فُلانًا عن فلان عن فلان ... إلخ». (المترجم)

هامشيًّا نسبيًّا. وكان الشِّعر أعلى شكلٍ من أشكال الفن، وكان الشَّاعر غالبًا بمثابة النبيِّ أو الملك[1]، كما كان الشِّعر ذروة سَنام البلاغةِ في العربيَّة، ومثَّلت القصيدة، الشَّكل الأسمى للكلمةِ المسموعةِ في الثَّقافة العربية قبل ظهورِ الإسلام.

وتحدَّث العربُ -قبل الإسلام- عددًا كبيرًا من اللَّهجات العربيَّةِ، بيد أن كل قبيلة استخدمت لغةَ الشِّعرِ نفسها، والتي تميَّزت بقواعدَ ومفرداتٍ بلَغت الغايةَ في الدقَّةِ، كما فهمت تلك القبائل -على اختلافها- تلك اللغةَ الشِّعريَّةَ حقَّ الفهم. واحتفلت القصائد العربية بالأصنام، وشؤون القبيلة الاجتماعيَّة، ومآثرها، بما فيها: أيَّامها ومعاركها وأنسابها. وكانت القصائد عادةً قصيرةً، ولا سيما إذا قورنت بتلك التي كتبها هوميروس (Homer) أو شوسر (Chaucer). وكانت القصيدة تُنظَم كي تُنشَد علنًا، إمَّا من قِبلِ الشَّاعر نفسه أو من قبل الرَّاوية، الذي كان يضيفُ إليها تفاصيلَ وخلفياتٍ مُتصلةً بالظروف التي نُظِمَت فيها.

ولم يكن مفهومُ وجودِ نُسخةٍ واحدةٍ أصيلةٍ من عملٍ بعينِه واردةً على الأذهان إذ ذاك؛ لأنَّ القصائد كانت تُعاد صياغتُها على نحوٍ مستمرٍّ، ولم يخلُ الأمر من تركِ الرُّواة -الذين اعتمدوا على ذاكِراتهم المُذهلة- لبصماتهم الخاصة على روايتها. وعلى هذا النَّحو لم تُكتَبِ المُعلَّقات وقصائد الشِّعرِ الجاهلي العظيمة إلَّا بعد بضعةِ قرونٍ من نظمِها.

بيد أنَّ العربَ استخدموا الكتابةَ قبل الإسلام، فقد عثَر الآثاريون في اليمنِ على نقوشٍ عربيةٍ جنوبيَّةٍ تعود إلى تاريخٍ موغلٍ في القِدم قبل الميلاد. وفي شمال غرب شبه الجزيرة العربية والشَّام، وُجِدت نقوشٌ عربيةٌ دُوِّنت بأحرفٍ مأخوذةٍ من أبجديَّات لغات أخرى. فثَمَّ نقشٌ على شاهدِ قبرٍ يعود تاريخه إلى عام ٣٢٨م من النمارة-سوريا، يحتوي على كلماتٍ عربيةٍ كُتِبَت بالحرفِ النَّبطي المُستخدَم في البتراء-الأردن. بيد أن أقدم أمثلةٍ على النُّصوص العربية المدونة بالخط العربي هي ثلاث نقوشٍ تاريخيةٍ موجزةٍ،

---

(١) لا شك أنَّ هذه الفقرةَ بها مبالغةٌ واضحةٌ. ومع ذلك ربما تكون مُستلهمةً من قول الأصمعي: «كانت الشُّعراء عند العرب في الجاهليَّة بمنزلة الأنبياء في الأمم، حتى خالَطهم أهلُ الحضَر فاكتسبوا بالشِّعرِ فنزلوا عن رُتَبِهم، ثم جاء الإسلامُ ونزل القرآنُ بتهجينِ الشِّعرِ وتكذيبِه، فنزلوا رُتبةً أخرى». (المترجم)

يعود تاريخها بين عامي ٥١٢-٥٦٨م، عُثِر عليها قرب دمشقَ، فضلًا عن نقوشٍ أخرى كُتِبَت بثلاث لغات: اليونانيَّة والسُّريانيَّة والعربيَّة، وُجِدت بالقرب من حلب.

وانخرط أهلُ مكَّة في ممارسةِ التجارة، وسافروا بعيدًا عن ديارِهم قبل ظهور الإسلام، وكانت الكتابة ضرورةً حيويةً لتسجيلِ الدِّيون والأماناتِ، ومراقبة المخزونِ من البضائع، وتوجيه الوكلاء بعيدًا عن الدِّيار. واستخدم التجَّار موادَّ مثل سعف النَّخيل والخشب والعِظام والفخَّار والحجر لتدوين ملحوظاتهم وانطباعاتهم، بيد أنهم كانوا يجدون ورَق البردي أو الرَّق أو الجلود أكثر ملاءمةً وأطول عمرًا للمُكاتبات المتعلِّقة بالتجارة. وكما ذكرنا آنفًا، فإنَّ اليهود والنَّصارى في شبه الجزيرة العربية الإسلامية دأبوا على نسخِ نصوصِهم المقدَّسةِ على الرَّق. ومع ذلك، لم تلعبِ الكتابةُ دورًا مهمًّا في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام.

افتتح اللهُ وحيَه لنبيِّه [ﷺ] بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١](١). وظلَّت تلاوةُ هذا الوحي في القلبِ من الصَّلوات وسائر مظاهر العبادات في الإسلام من حيث المبدأ. ونظرًا لطبيعة الأدبِ الجاهلي الشَّفهية في شبه الجزيرة العربية، والطبيعة الشَّفهية للوحي، تمثَّلت وسائل الفهم الرئيسة في نقلِ الوحي وحفظِه -تلقائيًّا وكما جرَت عادةُ العرب- سماعًا ثم حفظًا. بيد أنَّ كلمة القرآن نفسها، تُشتق من جذرٍ عربيٍّ يعني أساسًا «التِّلاوة والقِراءة بصوت جهوريٍّ مسموعٍ». ومن ثم تصوَّر المعاصرون الوحيَ على أنه نصوصٌ تُؤخذُ روايةً وتُتلى، ولا تُقرأ من كتابٍ قطُّ.

وطوَّر المسلمون -الذين أرادوا حفظَ نصِّ القرآن سليمًا- علمًا عُرِف بالعربية باسم «علم القِراءات» في التطوُّر الأخير. بيد أن التَّسميةَ الأكثر دقة ينبغي أن تكون «علم التِّلاوات» لا «علم القِراءات»؛ وذاك أن هذا العلمَ ظل في الأساس تقليدًا شفهيًّا يعتمدُ على الذَّاكرةِ حتى يوم الناس هذا. بل ظلَّ التَّقليد الشَّفوي -مدعومًا بالأدبياتِ المتعلِّقة بعلم التلاوة- بمثابة المرجع لتحديد النصِّ المكتوبِ حتى بعد صدور «الطبعة المصرية» من المُصحف في عشرينيَّات القرن الماضي. ومن ثم اختلفت دراسة القرآن بالكُلِّيةِ عن دراسات الكتاب المقدَّسِ، التي اعتمدت على تجميع أقدمِ المخطوطات ومُقارنتها.

---

(١) كذا في الأصل الإنجليزي (العلق: ١-٢)! والصَّواب الآية الأولى فحسب من سورة العلق. (المترجم)

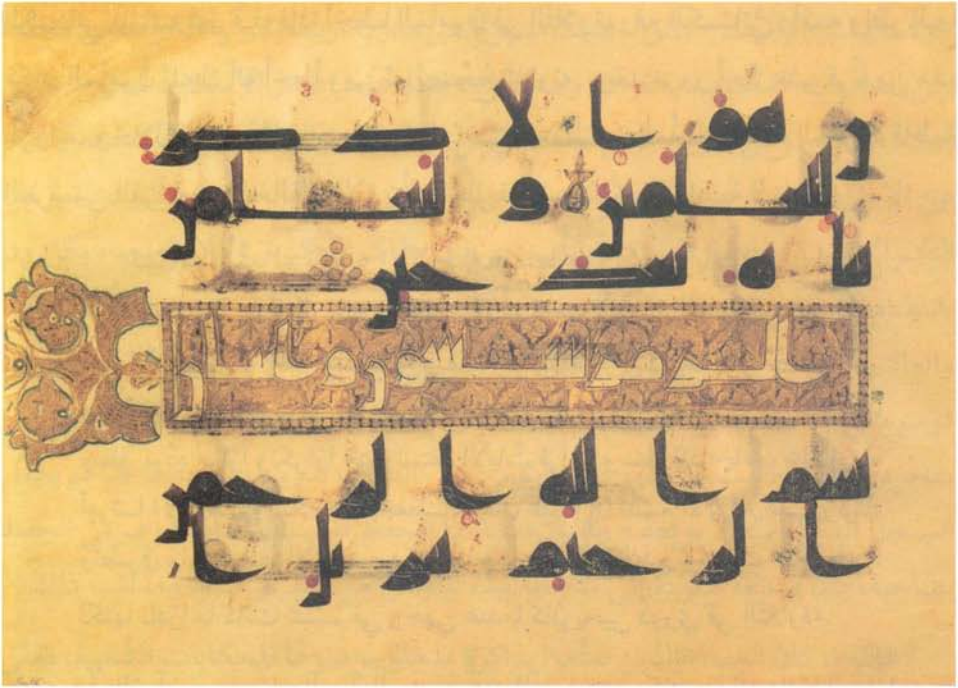
وتعدُّ القراءة نشاطًا عقليًّا صامتًا بالكليَّة في مفهومِ المُتعلِّمين المُحدَثين في أيامنا هذه، وأينما وُجِدوا. ولكن حتى وقت قريب كانت القراءة في جميع الثَّقافات نشاطًا صوتيًّا وبدنيًّا، كما كان الاستماع إلى القراءةِ بصوتٍ جهوريٍّ وسيلة الأُميِّين أيضًا للوقوف على النصِّ المكتوب. وكان معظم المُتعلِّمين يفضلون الاستماعَ إلى النصِّ بدلًا من قراءته مكتوبًا. وتؤكِّد الوثائق العربيَّة العائدة إلى القرون الوسطى استمرارَ وجود الرِّواية الشَّفوية في المجتمع الإسلامي آنئذٍ. وثم أربع وثائق مصرية تعود إلى القرنِ الرابع الهجري/ العاشر الميلادي -أي بعد أكثر من ثلاثة قرونٍ من نزول القرآن- تتعلق ببيع بعضِ العقار في بعض قُرى الفيوم. وتنصُّ تلك الوثائق صراحةً على أنَّ العقدَ المذكورَ «قُرِأَ على البائعِ بالعربيَّة، وشُرِح له بلغتِه الأعجميَّةِ، وأُشهِدَ على أنَّه فهِمَه ووعاه»[1]. ويومئ الكُتَّابُ إلى القِبطيَّة -وكانت لغة الفلاحين المِصريِّين- بطبيعة الحال. لقد كُتِبَت الوثيقةُ الشَّرعية -لا مِراء في هذا- ولكن لم تُفعَّل قوة الكتابة إلا من خلال قراءتها بصوتٍ جَهوريٍّ فحسب.

لم يكن النصُّ المكتوب، في المجتمعِ الإسلامي في القرون الوسطى، يمثل غايةً في حدِّ ذاته، بل خدَم في المقام الأول بوصفِه عاملًا مساعدًا للذَّاكرةِ. فإنْ توفَّر مُستشرق محدَثٌ على قراءةِ صفحةٍ من مُصحفٍ عتيقٍ كُتِب بالخط الكوفي الزَّاوِي، بوسعِه أن يستخلَص الأحرف والكلمات كلًّا على حدة ليتضح له نصُّ الآيات في الأخير (انظر: شكل ٣٩)، على النَّقيض من المسلم الذي تلقى تعليمًا تقليديًّا، والذي حفِظ في طيَّات ذاكرتِه أجزاءً كثيرةً من القُرآن منذ نعومةِ أظافِره، ولم يعتد على الخطوطِ العتيقةِ للمَصاحف القديمة، فإنه لا يحتاج إلا إلى التعرُّف على بضعِ كلماتٍ من نصِّ الآية ليتعرَّف على النصِّ بأكملِه.

لا يُقرأ القرآن -في واقع الأمرِ- عادةً كما يُقْرَأ النَّثر العادي، لكنه يُرتَّل أو يُتلى بتقنياتٍ تُعرف باللغةِ العربية باسم «التِّلاوة» و«التَّجويد»، والتي تتراوح بين أسلوبٍ مُعينٍ في الأداء الصَّوتي والإلقاء والغناء الفنِّي. ولطالما كان ترتيلُ القرآن تقليدًا ينتقلُ شفهيًّا من

---

(١) بطبيعةِ الحال لم أطَّلع على هذه الوثائق، والعبارة التي بين علامتي التَّنصيص ليس اللفظ المُستخدم في الوثائق التي أشار إليها المؤلف. وإنما هي ترجمةٌ عن ترجمةِ المؤلِّف الإنجليزية للنص العربي الذي ورَد في هذه الوثائق. (المترجم)



شكل (٣٩): صفحةٌ من مُصحفٍ كُتِبَ بالخطِّ الكوفي، مؤرَّخٌ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(؟)[1]. بالحبر والذَّهب على الرَّق. معرض فرير للفنون (Freer Gallery of Art)، مؤسسة سميثسونيان (*Smithsonian Institution*)، واشنطن العاصمة [F1930.60] .

المُعلِّم إلى تلميذِه، ما أدَّى إلى تطور عددٍ لا يُحصى من الاختلافاتِ الشخصيَّةِ والإقليميَّة في أسلوبِ تلاوةِ القرآن. كذلك أفتى عُلماء الجامع الأزهر في القاهرة -وهو المركز الدِّيني البارز للإفتاء عند أهل السُّنَّةِ- بحُرمةِ تحويلِ تلاوة القرآن إلى نوتةٍ موسيقيةٍ موحَّدةٍ.

وتُعدُّ تلاوةُ القرآنِ حجرَ الزَّاويةِ في التَّربية الإسلامية، وثم عددٌ لا يُحصى من الرِّوايات، التي توضِّح الكيفيَّةَ التي حفِظ المسلمون بها -من جميع العصور، ومن جميع طبقاتِ المجتمع- القرآنَ من خلال الرِّواية شفويًّا. فقد أمَر الخليفةُ العبَّاسي هارون الرَّشيد ولدَه المأمون بقراءة القرآنِ على الكِسائيِّ. فلمَّا شرَع المأمون في التِّلاوةِ جلس

(١) وضع المؤلفُ علامةَ الاستفهام، ربما تعبيرًا عن رفضِه لتأريخ هذا المُصحف (تقديرًا) بهذا التاريخ. (المترجِم)

الكِسائي بإزائه مُطرِقًا، فإذا أخطأ المأمون في التِّلاوةِ، رفَع الكسائيُّ رأسَه ونظَر إليه، فكان المأمون يُدرك أنه أخطأ ومن ثم يُصحِّحُ تِلاوته. وبعد مرور أحدَ عشر قرنًا من هذه الرِّواية، وخلال الأربعينيَّات من القرن الماضي، حفِظَت عالمةُ الاجتماع المغربية فاطمة المِرنيسي القرآنَ من الخالةِ «لالا» بهذه الطَّريقةِ نفسها، تقول فاطمة المرنيسي:

> «كما أسلفتُ، لم تُكلِّف «لالا طَم» نفسَها عناءَ تفسيرِ آيات القرآن لنا. بل أمرَتنا بنسخِها على اللَّوحِ يوم الخميس، ثم كانت تأمُرنا بحفظِها عن ظهرِ قلبِ يوم السَّبت. وأيام الأحد والاثنين والثُّلاثاء كانت كل واحدةٍ منَّا تجلس على وسادة، وقد وضعت لوْحَها على رُكبتيها، ثم نقرأ منها جميعًا بصوتٍ جهوريٍّ، ونظلُّ نردِّد مرارًا وتكرارًا حتى تستقرَّ الآياتُ في رؤوسِنا. فإذا جاء يوم الأربعاء أمرتنا «لالا طَم» بتلاوةِ ما حفظنا، وكان علينا أن نضع الألواح على رُكبنا، ونُطرق ونحن نتلو الآيات من حفظِنا غيبًا، فإذا لم نُخطئ تبسَّمَت «لالا طم»، لكنها نادرًا ما كانت تتبسَّمُ في وجهي عندما كان يحينُ دوري في التِّلاوة».

يَعدِلُ القرآن -حجمًا- العهدَ الجديدَ عند النَّصارى، وكان حفظه دائمًا إنجازًا يدعو للفخر، ويحظَى حاملُ القرآنِ بمكانةٍ رفيعةٍ بين المسلمين. فالحافظ هو الذي «يحفظ القرآنَ عن ظهر قلبٍ»، شابًّا كان أو شيخًا، وذكرًا كان أو أُنثى، عاميًّا كان أو عالِمًا. فعلى سبيل المثال كان الشَّاعر الفارسي شمس الدين محمد الحافظ الشِّيرازي (من أهل القرنِ الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، أعظم من أنجبت نساءَ الفُرس من الشُّعراء الغنائيِّين قاطبةً، وقد تلقَّى تعليمًا تقليديًّا، وحفظ القرآن في سنٍّ مبكرةٍ، ما أكسَبه لقب «حافظ»، والذي استمرَّ الناسُ في تلقيبِه به حتى يومنا هذا.

وكان من المفترض -وفي جميع المجتمعات الإسلامية- أن يكون حفظُ القرآنِ شرطًا رئيسًا للتَّعليم العالي، ومن ثم، كان ترويض الذَّاكرة سمةً ثابتةً للتعليم في الإسلام في القرون الوسطى، ولم يتطلَّب الأمر مجرد حفظ القرآن فحسب، بل حفظ حديثِ النبي [ﷺ] أيضًا، وكذلك الشَّريعة وتفاسير العُلماء للقرآن والسُّنَّة.

واشتمَل الحديثُ التقليديُّ على هذه الصيغة: «حدَّثنا فُلان، عن فُلان، عن فُلان، أن النبيَّ [ﷺ] فعل كذا (أو قال) كذا وكذا». ويتكوَّن الحديثُ من جزأين: سِلسلة الرُّواة الذين نقلوا الحديث كابرًا عن كابرٍ (الإسناد)، والنَّص نفسه (متن الحديث). وفي البداية

-وكما يُشير الإسنادُ- كان الحديثُ شفويًّا غير مدونٍ، ربما بسبب الخوفِ من الخلط بين الحديثِ المكتوبِ والقرآن. ومع ذلك، فمنذ عصر صدر الإسلام، لم يجد بعضُ العلماء مندوحةً عن تدوين صحيفةٍ مكتوبةٍ من الحديث؛ وذاك أنَّ متونَ الحديثِ -فضلًا عن الإسناد- كانت عُرضةً للوضع. وكان على الطلَّاب حفظ الحديث متنًا وسندًا، وكان التكرارُ أفضلَ طريقةٍ لاستقرارِ النُّصوص في طيَّات الذَّاكرة. وكان العلماء يكرِّرون بانتظام النُّصوص المحفوظة خمسين أو سبعين أو حتى مئة مرة. حتى إنَّ المحدِّث والعالم الموسوعي المشهور الخطيب البغدادي نصَح طلابَه أن يُسمِعوا لبعضهم ما درَسوه في المجلس من حفظِهم، وأن يختبرَ بعضُهم بعضًا في ذلك. ثم أردَف قائلًا: إنه بمجرد حفظ الحديث عن ظهر قلبٍ، ينبغي على الطالب تدوينه ممَّا حفِظ؛ لذا لم يعملِ السجلُّ المكتوبُ إلا بوصفه عاملًا مساعدًا للحفظِ فحسب، فإذا كبا فرَسُ الحِفظِ بصاحبِه، كان بوسعِه العودةُ إلى ما خطَّه بيده ليتحقق من لفظٍ أو ضَبطٍ وما أشبه ذلك.

وغالبًا ما كان العلماء الذين تمتَّعوا بذاكرةٍ مذهلةٍ موضوعًا للحكايات الشَّعبية، فعلى سبيل المثال ظفَر الشَّاعر الشاب المُتنبِّي برسالةٍ من ثلاثين ورقةً من تصنيفِ الأصمعي دون أن يدفَع فيها فِلسًا واحدًا بعد أن حفظَها من قراءةٍ واحدةٍ. وقيل إنَّ الغزَّالي بعد أن سُرقت منه كتُبه أثناء سفره ناشد السَّارقَ أن يأخذ كل ما معه من متاعٍ وأن يترك له كتبَه، فردَّ عليه اللصُّ قائلًا:

«كيف تزعمُ أنك عرَفت عِلمَها، وعندما أخذناها منك أصبحتَ لا تعلم شيئًا، وبقيتَ بلا علمٍ»؟!.

عدَّ الغزالي حادثَ السَّرقة هذا بمثابةِ إنذارٍ إلهيٍّ، فأمضى السَّنوات الثَّلاث التَّالية يحفظُ ما خطَّه بقلمِه في دفاتره. وقيل إنَّ كبارَ علماء الحديث مثل أحمد بن حَنْبل، والبُخاري، ومُسلِم كانوا يحفظون مئات الآلاف من الأحاديث بأسانيدِها. وكان أبو حنيفة الصَّغير[1] يحفظ الرِّوايةَ [الأحاديث]، بحيث إذا طلَب منه المُتفقِّهةُ الدَّرسَ، قرَأ أبو حنيفة الصَّغير عليهم، من أيِّ موضعٍ أرادوه، من غير مُطالعةٍ ولا رجوعٍ إلى كتابٍ.

---

(١) المعنيُّ هنا هو شمسُ الأئمةِ أبو الفضائل بكر بن محمَّد بن علي بن الفضل بن الحسَن (المُتوفَّى ٥١٢هـ/ ١١١٨م)، من أهل بُخارى، وكان يُضرب به المثلُ في حفظِ مذهبِ أبي حنيفةَ. وليس أبو جعفر محمد بن عبد الله الهِندواني (المتوفَّى ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) المُلقَّب أيضًا بـ «أبي حنيفةَ الصَّغير». (المُترجم)

وعلى الرغم من أنَّ العلماءَ المُسلمين أكَّدوا على أهمية الحفظ، إلا أنهم كانوا يعتقدون أيضًا أن للكتابةِ دورًا مهمًّا في نقل المعرفة والحفاظ عليها. ومع ذلك، لم يرَ بعض العلماء جواز الرِّوايةِ من الكتبِ، واستشهدوا بأحاديث نبويةٍ لدعم آرائهم، فاحتجُّوا بقول النبي [ﷺ]: «لا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ».

ولم تعنِ الإشارةُ في الأدبيَّاتِ العربيَّة القديمة إلى «الكُتب» المعنى الأدبي الاصطلاحي المُحْدَث، بل كانت تُشير أيضًا إلى «الدَّفاتر» أو ملحوظاتِ الطلاب، أو مجموعات الرِّوايات التي دوَّنها الطلاب طلبًا للدقَّةِ في نقلِ اللَّفظِ. وفي العصور المُتأخِّرة، عُدَّت الكُتب وسيلةً لا غنى عنها لإسعافِ ذاكرةِ المرء، لكن تعلُّمِ الحديث من كتابٍ ما كان أقل مرتبةً من سماعِه من راوٍ عَيانًا وكفاحًا، ولو قُرئ بصوتٍ جهوريٍّ من كتابٍ. وتتعلَّق إحدى الرِّوايات النادرة بالعالم اللغوي ابن دُرَيْد[1]، الذي لم يُملِ على طلابه من كتابٍ ولا مما يحفظُ مباشرةً. بل كان يكتبُ من حفظِه بخطِّه ثم يُعطي نسختَه لطلابِه لينسخوا منها في دفاترهم. فإذا فرَغوا من النَّسخِ، مزَّق نُسخَته وألقى بها بعيدًا؛ لاستغنائه عنها بما يحفظ.

وأكَّد المؤرِّخ والفيلسوف الكبير ابن خلدون (من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) في مُقدِّمته لكتابه في التاريخ، على قيمةِ الكتابةِ في المجتمع الإسلامي، وذكَر أنَّ العلماء والكُتَّاب ركَّزوا على الدِّقة في المنقولِ كتابةً، من خلال أسانيد الكتب التي انتهت بمُصنِّفيها، وذلك لأن:

> «هكذا كان شأنُ أهل العلم وحمَلته في العصور والأجيالِ والآفاق؛ ضبط الدَّواوين العلميَّة وتصحيحها بالرِّواية المُسندة إلى مؤلِّفيها وواضعيها؛ لأنَّه الشَّأن الأهمُّ من التَّصحيح والضَّبط، فبذلك تُسنَد الأقوال إلى قائلها، والفُتيا إلى الحاكمِ بها المُجتهد في طريق استنباطِها. وما لم يكن تصحيح المتونِ بإسنادها إلى مدوِّنها فلا يصحُّ إسناد قولٍ لهم ولا فُتيا. وهكذا كان شأنُ أهل العلم وحمَلتُه في العصور والأجيال والآفاق. حتَّى لقد قصرت فائدة الصِّناعة الحديثيَّة في الرِّواية على هذه فقط إذ ثمرتها الكُبرى من معرفةِ صحيحِ الأحاديث وحسنِها ...».

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسَن بن دُريد (٢٢٣-٣٢١هـ/ ٨٣٧-٩٣٣م) أحد كبار أئمة العربية، وُلِدَ بالبصرة، وأتقن الشعر وعلوم اللغة، حتى قيل فيه «أعلم الشعراء، وأشعر العلماء». واشتهر بقوة حافظتِه، ومن أشهر كتبه كتاب **الجمهرة في اللغة**، وكتاب **الاشتقاق**. (المترجِم)

وعلى الرَّغم من هذا التَّركيز على الدِّقةِ والقيمةِ الواضحةِ للوثائق المكتوبة، إلا أنَّ الشريعةَ الإسلاميَّةَ اتَّخذت موقفًا مُتناقضًا تجاه الوثيقةِ المكتوبةِ. وثمَّ آيتان في القُرآن (البقرة: ٢٨٢- النور: ٣٣)(1) تحضَّان على كتابةِ الوثائقِ في حالاتٍ عيَّنتاها. بيد أنَّ الفقهاء فسَّروا هاتين الآيتَين على أنهما تُوصيانِ بذلك فحسب. وبصفةٍ عامَّةٍ تجاهل الفقهاءُ الوثائقَ المكتوبةَ وعدُّوها مجرد أدواتٍ مساعدةٍ للذاكرةِ، أو مجرد أدلةٍ وقرائنَ، وتوقَّفت مصداقيةُ الوثيقةِ على تأكيدها من خلال الرِّواية الشَّفوية لشهودِ العَيان. ولم يثقِ الفقهاءُ المسلمون بالوثائقِ المكتوبةِ إلى حدٍّ كبيرٍ، ويعود ذلك في المقام الأول إلى أنَّ الوثائق كانت قابلةً للتَّلاعب بها بطرقٍ عديدةٍ، في الوقت الذي لم تكن تلك الطُّرق نفسُها صالحةً في حالة الشهادة الشَّفوية للشُّهودِ العُدولِ؛ فعلى سبيل المثال، ربما تعرَّضت الوثيقة للخَرْم في موضع بعض البُنود المُهمَّة عَرضًا، وليس عَمدًا بالضَّرورةِ. وهكذا، قضَتِ الشَّريعةُ أن الصكَّ الشَّرعيَّ الفعَّالَ هو الاتفاقُ الشَّفهيُّ الذي دُوِّن ووقَّع عليه شهودُ العيان الذين حضروا الاتِّفاقَ، ويمكنهم -إذا ما دعَت الضَّرورة إلى ذلك- إعادةَ تأكيدِ ما شهِدوا عليه، فيقفُ القاضي من خلال شهاداتِهم على جليَّة ما وقَع بالضَّبط.

ومع ذلك، كان القاضي يحتفظُ بسجلاتٍ مكتوبةٍ، وكان القانون التِّجاري العُرفي يعتمدُ على الوثائق المكتوبة. لقد برهنَت الوثائق على أنها أداةٌ لا غنًى للتجارِ عنها، وعلى هذا النَّحو نُحِّيَت الوثائق التِّجارية جانبًا من النظرية، وظلَّت مُستخدمةً على الدَّوام، وأصبحت من الأهمية بمكان في كل معاملةٍ تجاريةٍ ذات بال، ومن ثم شكَّلت فرعًا مُتطورًا للغايةِ من القانون العملي.

---

(1) الإشارة إلى الآية الأولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾. [البقرة: ٢٨٢]. أمَّا الآية الثانية: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. [النور: ٣٣]. (المترجم)

خصائص الكتابة بالعربية

لعِبَت الكتابةُ دورًا محوريًّا في جميع الأديان في غرب آسيا منذ أقدم العصور. فبالنِّسبة لليهود، فإنَّ التَّوراة، أو الشَّريعة المُدونة، كانت مُشبَّعةً بمفهوم «قدسية الذَّات الإلهيَّة» وذلك إلى حدٍّ أنَّ اليهودَ عاملوا أدنى قُصاصةٍ من الشَّريعة -بل النصَّ العاديَّ الذي يحمل اسم الله- بتقديسٍ بالغ. وكان هذا الموقف من الكلمة المكتوبة هو السَّبب الكامن في حفاظِ اليهودِ على مخطوطاتِ البحر الميِّت، ثم على وثائق الجنيزة من بعد.

ويؤكد القرآنُ -على الرغم من طبيعتِه الشفهيَّة- على الطَّبيعة المَوثوقة للكلمة المكتوبة. فقد جاء في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]. وفي آيةٍ أخرى خاطَب الله النبي [ﷺ] قائلًا: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧]. ولا ينفكُّ القرآن واصفًا نفسَه، في مواضعَ كثيرةٍ، بـ «الكِتاب» (من الجذر العربي «ك.ت.ب»)، ويعتقدُ المُسلمون أن المصحفَ إنما هو مظهرٌ من مظاهر الكتابِ المُقدَّس الذي تكفَّل الله بحفظِه إلى أن يرثَ الأرضَ وما عليها. كما تؤكد أولى آيات الوحي للنبيِّ [ﷺ] على أهمية القراءة، ومن ثم توضح الدَّورَ المركزيَّ للكتابة في الإسلام، حيث ورَد في الآيات: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]. وورَد ذكرُ القلم عدة مرات في القرآن، وفسَّره بعض المُفسِّرين المتأخِّرين على أنه قلمٌ حقيقيٌّ من القَصبِ، وقال بعضهم: إنه رمزٌ مجازيٌّ للنور. بيد أنهم أدركوا أنه يجب أن يكون القلمُ أوَّلَ ما خلَقه الله؛ وذلك ليتمكَّن من تسجيلِ الحوادث والوقائع.

وشرَع المسلمون في كتابة الوحي خِشْيةَ دخولِ الفساد عليه، وهو خطرٌ دائمٌ كان يتهدَّد الرِّواية متى اقتُصِر عليها وحدها. وربما كان النصُّ المكتوبُ للقرآن في البداية عاملًا مساعدًا للحفظ. ولكن جميع الثَّقافاتِ عامَّةً -وليس الإسلاميَّة خاصة- تميل إلى استبدالِ الحفظِ بالاعتماد على وثائقَ مدونةٍ، لذا سَرعان ما ظهَرت ثقافةُ الكتابة في السَّنوات التي أعقبت وفاة النبي [ﷺ] في عام ١١هـ/ ٦٣٢م.

وقيل إنَّ سبعة عشر فقط من أهل مكَّةَ كانوا يعرفون الكتابةَ في عهدِ النبي [ﷺ].

وتؤكـد الرِّوايـات الإسـلامية على أن النبيَّ نفسـه كان أميًّا؛ وفسَّـر المفسِّـرون ما جاء في القرآن في وصْف النبيِّ [ﷺ] بـ«النَّبي الأُمِّي» بأنَّ النبيَّ [ﷺ] ما كان يقرأ ولا يَخطُّ بيده. وعلـى هـذا النحو، كان النبيُّ [ﷺ] يتلو ما نـزَل عليه من الوحي على أتباعه من الأُمِّيِّين، الذيـن كان عليهم حفظ الآيات. ثم كان الأمر يَسـعُ العـدولَ الثِّقاتِ لاحقًا بكتابة الوحي على موادَّ تراوحت من سـعفِ النَّخيل إلى شُـقف الفخَّار والحجارة الرَّقيقة (اللِّخافِ). بيـد أن المُستشـرقين حمَلـوا آيـة «النبيِّ الأُمِّي» نفسـها على تفسـيرِ مختلفٍ إلـى حدٍّ ما، وفهموهـا علـى أنهـا تعني «نبي الأمـة». ولـم يَستسـيغوا رواياتِ عدم معرفـة النبيِّ [ﷺ] القـراءة والكتابـة، فتسـاءلوا متعجِّبين كيف لـم يعـرفِ النبيُّ [ﷺ] القـراءة والكتابة، وهو الذي قضى شطرًا من عُمرِه تاجرًا؟!

درَس العلماءُ -على مدى أربعة عشر قرنًا- نصَّ القرآن، لكنهم لم يجدوا تنوعًا كبيرًا فـي صياغةِ نصوصِه كما أدَّاهـا الرُّواةُ على اختلافِهم، على الرغم من أن الحفَّاظ الأوائل لـم يحـدِّدوا التَّرتيب الذي رتَّبوا الوحـي به. ومع ذلك، فقد نَتجـت اختلافاتٌ طفيفةٌ في القِراءات وفي التَّفاسير بعد ذلك، نشأت عن غموضِ الخطِّ العربي المبكِّر الذي نُسخ به النصُّ.

اشـتُق الخطُّ العربي من الخط النَّبطي أو السُّـرياني، واستخدَم نمطًا من الأحرف التي ترتبـط معًـا بروابـطَ تجعلهـا مُتصلـة عند الكتابـة. وعلى النَّقيـض من كثيرٍ مـن الخطوط الأخـرى، لا يمكـن كتابـة العربيَّـة بأحـرف مُنفصلـةٍ عن بعضها قـطُّ، كما هـو الحال في اليونانيـة سـواء التي اسـتخدمت للكتابـة علـى النُّصـب أو «المطبوعـة»، أو اللَّاتينية، أو العِبرية، أو الرُّوسية، أو الإنجليزية.

وقد تتغير أشـكالُ الأحرفِ نفسـها استنادًا إلى موضعِها في الكلمة. ومن ثم يمكن أن يكون للحرفِ نفسـه شـكلٌ إذا كان مُسـتقلًا، وشـكلٌ ثانٍ في بداية الكلمة، وثالثٌ له في مُنتصـفِ الكلمـة، ورابـع فـي نهايـة الكلمـة. وقد تحـدُث الفواصـل بين أحـرف الكلمة الواحـدة كمـا تقع بيـن الكلماتِ لعدم قابليَّة بعـض الأحرفِ للاتِّصال. ومـن ثم لم يميِّز الكتـابُ الأوائـل المسـافةَ بين الأحرفِ غيـر المُتصلة من تلك الموجـودة بين الكلمات، وفـي النُّصـوصِ المنتشـرةِ على عدة أسـطر، تحدُث الفواصـل في كثيرٍ مـن الأحيانِ بين أحـرف الكلمـة بالقـدرِ نفسـه الـذي تقع بـه بين الكلمـات نفسـها. كل هـذه الخصائص

المُميزة، جعلت من قراءةِ الخطِّ العربيِّ الأوَّل أمرًا صعبًا للغايةِ، وعملية بطيئةً كذلك، ومن ثم كان يُفترض أن تُقرأ جميع النصوص العربية القديمة بصوتٍ عالٍ من قِبل القُرَّاء الذين كانوا على علمٍ بمُحتوياتها مُسبقًا.

وثمَّة صُعوبةٌ أخرى في الكتابةِ العربيةِ وهي أنها تُمثِّل على نحو غير تام الأصوات في اللغة العربية. تحتوي اللغة على ثمانية وعشرين صوتًا، ولكن الخطَّ العربيَّ استخدَم ثمانيةَ عشر شكلًا فحسب لتمثيلها. ومنذ وقتٍ مبكرٍ، استُخدمت النِّقاط أحيانًا للتَّمييز بين الأصوات التي تشاركت في أشكال الحروف نفسِها. على سبيل المثال، تتشارك الأحرف: ب- ت- ن- ي، في شكل الحرف نفسه في وسط الكلمة، «سِنَّة واحدة» في وسط الكلمة. إلا أنه يمكن تمييز بعضِها عن بعض باستخدام نُقطةٍ أو نُقطتين أو حتى ثلاث نقاط أعلى أو أسفل منسوب الحرف. وكما هو الحال في العِبرية، ليس في الخط العربي إلا ثلاثة أحرف عِلة للحركات الصَّوتية الطويلة؛ وثلاث حركات للأصواتِ القَصيرة، ثم السُّكون للوقوف على الحرف دون تحريكه. ويُحدد القارئ الحركاتِ الضَّابطةِ لأواخر الكلمات التي تحدِّدُ وظيفتها النحويَّة في الجملة، من خلال السِّياق، كما لم يستخدم الكتَّابُ العربُ علاماتِ الترقيم إلَّا مؤخرًا. كل هذه الخصائص جعلت من الصعوبةِ بمكانٍ إعادة صياغة الرِّواية الشَّفهية من نصٍّ مكتوبٍ دون معرفة ما يقوله ذلك النَّص مسبقًا، وهكذا كان من الممكن أن يكون نسخُ المصحف بمثابة ذاكرةٍ مساعدةٍ فقط لأولئك الذين سبَق لهم أن حفظوا القرآن فحسب.

قد تكون النُّسخ الكاملة الأولى للمصحف قد كُتِبت في عهد النبي [ﷺ] نفسه، لكن الخليفة الثَّالث عثمان [بن عفَّان] (خلافته: ٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م) أمر بجمع الوحي وترتيبه من أجل إخراج المُصحف الإمام. وقد نُسِخ هذه الوحي على ألواحٍ (صُحُف) متساويةٍ في الحجم، ونفترض أنها كانت من الرَّق، والتي جُمِعَت بعد ذلك في هيئة كتاب (*Codices*). ووزِّعت نُسَخٌ من هذا المصحف الإمام على المساجد في المُدن الرئيسة في العالم، حيث حُفِظت بوصفها مرجعًا للمُسلمين ثمة.

وكثيرًا ما ادَّعى الناسُ، منذ القرون الوسطى، أن بعضَ أوراقِ الرَّق العتيقة المحفوظة في هذا المسجد أو ذاك إنما هي شذراتٌ من أحد مخطوطاتِ مُصحف عثمان، بيد أننا لم نتوثَّق بعدُ من أن أيَّها كان كذلك، وما زال تأريخ المخطوطاتِ المُبكرةِ للقرآن يمثِّل

مُعضلـةً علميَّـةً حقيقيَّةً. وإذا نحَّينا جانبًا هـذه «المصاحف العُثمانية المزعومة»، فإن أول تاريـخ مقتـرحٍ لمصحـفٍ وصَلنا هـو أواخر القـرن الأول الهجري/ السَّـابع الميلادي أو أوائـلِ القـرن الثَّامـن الميـلادي[1]. ومـن المؤكد أنَّ المصاحـفَ كانت موجـودةً في هذا العهـد، لكـن أقـدم مخطوطاتٍ مؤرَّخةٍ -أو فَلنَقُـل: قابلةً للتَّأريخ علـى نحوٍ موثوقٍ- لم تُنْسَخ حتى مُستهل القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي.

وينبغـي ألا نبالـغ فـي أهميـة جمع عُثمـان للقـرآن؛ وذاك لأنَّ المعرفة بالقـرآن كانت مسـألة حفـظٍ أكثر منها قِراءة. وحتى في أحسـن الأحـوال، كان النَّـصُّ المكتوبُ بالخط العربـي المُشـوِّش و«المَعيب» آنذاك بمثابة وسـيلةٍ مسـاعدةٍ للذَّاكرة عنـد الحُفَّاظ الذين كانوا يحفظون القرآن بالفعلِ عن ظهر قلبٍ، ويعرفونه كما يعرفون خطوطَ أكُفِّ أيديهم. ولا تُعـرَف أي مخطوطـاتٍ للقرآن في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السـابع والثامن الميلاديـيـن قد وصَلتنا، ولكن تُشـير المصـادر -المُتأخرة إلى حدٍّ ما- إلى أنه في غضونِ عقودٍ من وفاة النبيِّ [ﷺ] نظَّم الكُتَّاب أنماط الخطِّ في الجزيرة العربية وعدَّلوا فيها من أجـل نَسـخِ المُصحـف. فضلًا عـن ذلك أمَـر الخليفةُ الأُمـوي عبد الملك [ابـن مروان] بجعـلِ العربيَّـةِ اللغـةَ الرسـميَّةَ للدَّواويـن فـي العالم الإسـلامي، وهكـذا كُتِبَـتِ الوثائق بالعربية، وسُكَّتِ النقودُ حاملةً النقوشَ بالعربية وفقًا لما أمر به الخليفة.

وبحلـول أواخـر القـرن الأوَّل الهجري/ السـابع الميـلادي كانـت المدينـة موطنًـا لمجموعـة مـن الخطَّاطين المُحترفين الذين نسَـخوا نسـخًا جيدةً مـن المصاحف، على الرغـم مـن أن أوصاف أسـاليب الكتابة التي اتبعوهـا غامضةً تمامًا، بحيث لا تسـمح لنا المعلومـات المتوفرةِ عنها بإعـادة بنائها أو تصوُّرها. وذكر ابن النَّديم -الذي وضَع كتابه المسـمَّى **الفهرست** في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي- أن خالد بن أبي الهيَّاج -وكان خطَّاطًا وكاتبًا للخليفة الأُموي الوليد [ابن عبد الملك] الذي تولَّى الخلافة

(١) فرَغ بلوم من هذا الكتاب عام ٢٠٠١، وكانت الحالُ على ما وصَف بالضبط في تلك الأسطر أعلاه. ولكن مؤخرًا أعلنت الدكتورة ألبا فيديلي (Alba Fedeli) من جامعةِ برمنجهام أن شذرةً من مصحفٍ من لوحتين تحتفـظ بهـا مكتبة الجامعة منذ قرنٍ من الزمان تقريبًـا قد تكون -بزعمها- المُصحف الأقدم على الإطلاق فـي مكتبـات العالـم. فحَصـت فيديلـي المخطوطةَ بتقنيـةِ الكربون المُشـع، وتبيَّن لها من هـذا الفحص أن لوحتي المخطوط قد خُطَّت بين عامي ٥٦٨- ٦٣٢م، أي في حياة النبي [ﷺ]، أو بُعيد وفاتِه. (المترجِم)

في أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي- هو أوَّل مَنْ خطَّ المُصحفَ، كما كان صاحب النَّقش الذي احتوى على آيةٍ من القُرآن زيَّنت المحراب في المسجدِ النَّبوي بالمدينة.

وعلى الرغم من أن الطبيعةَ الفنيَّةَ الدقيقةَ لخطٍّ خالد لم تزل غامضةً، فإن بعض النقوش العربية المبكرة، مثل تلك التي عثرنا عليها على النقودِ المعدنيَّةِ، وكذلك تلك التي تُطوق قبة الصَّخرة من الداخل في القُدس (٧٣هـ/ ٦٩٢م)، تُظهر الخط السَّائد آنئذ وما اتِّسم به من سماتٍ فنِّيةٍ. فكما هو الحال مع الخطِّ الأحدث، كُتِب النصُّ في مجموعات من الأحرفِ المُتَّصلة مَفصولةً بمسافاتٍ؛ وتعامل الخطَّاط مع الأحرف غير المُتَّصلة تعامله مع المسافاتِ الفاصِلة بين الكلمات من جهةِ حجم الفراغ، فقد سبَقها وأتبعها بفراغٍ من نفسِ الطول.

وأظهر الفحصُ الدَّقيق للنَّقش الفُسيفسائي على قبة الصَّخرة عرضًا متغيرًا للكلمة



شكل (٤٠): تفصيلٌ من شريطِ النقش الفُسيفسائي المزجَّج المنقوش على قبة الصَّخرة من الدَّاخل، القُدس ١١٥هـ/ ٦٩٢م.



شكل (٤١): شذرةٌ من وثيقةٍ تُسجِّل إيصال سدادٍ. مصر، ١٠٥هـ/ ٧٢٣م، كُتِبَت بالمدادِ الأسود على البردي. مجموعة ناصر د. خليلي للفن الإسلامي، لندن [PPS 185].

انعكَست في العرضِ المُتفاوت للأحرفِ، والتي احتلَّت عرضًا تراوح من ثلاثة إلى خمسة -وأحيانًا ستة- فصوص فُسيفساء (مكعبات). وفوق ذاك، امتدَّت بعض الأحرفِ أفقيًا لملء الفراغ العُلوي المتاح، ما يدلُّ على استخدام باكرٍ لـ «المشَق»، أي المبدأ الجمالي لاستطالةِ الأحرُف (انظر: شكل ٤٠). ومن ثم ينبغي أن يكون الخطَّاط قد رسَم النَّقشَ على طبقةِ الجصِّ التي شكَّلت الأساس باستخدام فرشاةٍ لم تكن عريضةً بما فيه الكفاية. ولم يكن الخطَّاطون مُتعلِّمون بالضَّرورةِ، بل ربما كانوا من النَّصارى النَّاطقين باليونانيَّة من أولئك الذين احترفوا العمل في تزيين الكنائسِ وزخرفتها. ثم بات من المُمكن بعد ذلك أن تُلصق الفُسيفساءُ المُزجَّجَةُ المُذهَّبةُ على الأحرفِ المكتوبة بالفُرشاة، ثم عمِل المُزوِّقين على زيادةِ عرضِ الخطِّ باستخدام مزيدٍ من الفُسيفساء المُزجَّجةِ المُذهَّبةِ. وأخيرًا ملأوا الخلفيَّةَ حول الكتابةِ بالفُسيفساء الزَّرقاء.

كان الخطُّ العربيُّ القديم مختلفًا تمامًا في الأسلوب عن الكتابةِ الفنيَّة المستخدمة في المبانـي والعُملات، ونفترض أيضًا علـى مخطوطات المصاحف. ويمكننا أن نرى ذلك واضحًـا جليًّـا من خلال وثائق المعاملات المكتوبةِ على أورق البردي العائدة إلى القرن الثانـي الهجري/ الثامـن الميـلادي والتـي عُثِـر عليها في مصـر (انظر: شـكل ٤١). فقد عكَسـت الكتابـةُ المسـتخدمة فـي هـذه الوثائـق المواقف المُحـدَّدة التي كُتِبَـت في تلك الوثائق على نحوِ أكثر عفوية، ومن ثم خلَت تلك الوثائق من التكلُّفِ في الخط. وكانت -في معظمها- رسـائل وحسـابات خاصَّة وتجارية، فضلًا عن عددٍ قليلٍ من المُصنَّفات فـي الأدب أو الفقـه. ولـم تَعْدُ شـذرات البَردِي القليلة التي حمَلـت آياتٍ قرآنيَّةً أن تكون اختيـارات شَـخصيَّة لآيـات بعينِها وليس نصَّ المصحف كاملًا، والذي كان يُنسـخ دائمًا علـى الـرَّق، على الأقل حتـى القرن الرابع الهجري/ العاشـر الميـلادي. ومع ذلك، فإن الخطَّ الذي دُوِّن به على البرديَّات العربية -سواء كانت وثائق أو نصوصًا أدبية- كان خطًّا مُتصِّلًا استُخدم لأغراضٍ عمليَّةٍ، واختلف على نحو ملحوظٍ عن الخطِّ الفنِّي المُستخدم في مخطوطات المصاحف ووثائق الدَّولة بطبيعة الحال.

نُسِخَت المصاحفُ الأولى -والتي يمكن تأريخها ببعض اليقين على ألواح الرَّق التي نُظِّمَت على نحوِ أفقي (عَرْضِي) بإحدى تجليَّات الخط الزَّاوي، والذي يُطلق عليه عادةً اسـم الخط الكوفي -وهي تسـميةٌ خاطئةٌ من ابتداع المُحدَثين، إلا أنها تسميةٌ مُريحةٌ مع ذلك- خلال منتصف القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، وتميَّزت هذه النُّصوصُ المبكرةُ بأشكالٍ هندسيَّةٍ بسيطةٍ نسبيًّا ومُتجانسةٍ في النِّسب، وكذلك بالتباعُدِ الواسع بين مجموعات الأحرف.

واتخـذت ألـواحُ الرَّقُّ فـي معظم المصاحـفِ المبكرة الشَّـكلَ الأفقـيَّ، حيث يكون عرض الصفحة أكثر اتساعًا من طولِها، وعلى الرَّغم من وجود عددٍ قليلٍ من المصاحفِ اتخذت فيها ألواح الرَّق الشَّـكل الرَّأسـي، فليس ثمة مصدرٍ معاصر فسَّـر لنا سِـرَّ تفضيل الكتابةِ على لوحةِ الرَّق أفقيًّا، لا رأسيًّا، على الرغم من أن العلماء المُحدَثين لاحظوا أن الشـكل العـام المُميِّـز غالبًا مـا خدَم -بصريًـا- في التَّمييـز بين مَصاحف المسـلمين من أناجيـل النَّصـارى (التـي كُتِبـت على نحـوِ رأسـيٍّ) واليهود (الذيـن اسـتخدموا اللفائف الأفقية) بمجرد النَّظر.

ويظهَر الطَّابعُ المُحافظُ في الخطِّ المُستخدمِ في نسخ المصاحفِ في القرون الهجرية الثلاثة الأولى ملحوظًا في مُصحفٍ نُسِخَ خِصِّيصًا لـ أماجور -وكان واليًا على دمشقَ في العصر العباسي بين عامي ٢٥٧-٢٦٥هـ/ ٨٧٠-٨٧٨م- ويُشكِّل هذا المُصحف إحدى الرَّكائز القليلة الثَّابتة لتأريخ المصاحف المُبكِّرة (انظر: شكل ٤٢). وتتكوَّن المخطوطة في الأصل من ثلاثين جزءًا، بمعدل ناهز ٢٠٠ لوحة من الرَّق لكل جزءٍ (وتطلبت تلك النُّسخة جلود نحو ثلاثِمئة رأس من الماشيةِ لكتابة نصِّ المُصحف كاملًا)، وقد وُقِفَ هذا المصحفُ على أحد المساجد في صور-لبنان في عام ٢٦٢هـ/ ٨٧٥-٨٧٦م. واشترك الخطُّ المُستخدم في هذا المصحفِ في عددٍ كبيرٍ من السِّماتِ المُشتركةِ مع خطِّ النَّقش الذي على قُبَّة الصخرة، والذي نُقِش قبل أكثر من ١٥٠ عامًا، وعلى الأخصِّ فيما تعلَّق بالتباعدِ المُتناسقِ بين مجموعات الحروف لا الكلمات.

في الوقت الذي نُسِخَت فيه هذه المخطوطة، كان الورَّاقون يعملون على تطوير خطوطٍ جديدةٍ لأغراضٍ مختلفةٍ. وأقدم أسماء هذه الخطوط المعروفة قد تُصيب المرء بالحيرةِ حول أصل الاسم، مثل: القَرمطي، والكوفي، والكوفي المكسور، والكوفي المَشرقي، والكوفي النَّسخي، والورَّاق، أو الخطِّ الليِّن المكسورِ (Broken cursive)[1] وكان له طابعٌ زاويٌّ بارزٌ وتناقضٌ مدروسٌ بين فواصلَ الأحرفِ السَّميكة والرقيقة؛ وفي بعض العيِّنات من هذا الخط، رُسِم الخط عموديًا وممدودًا تمامًا، مع ميلٍ لتَمييز الفراغ بين الأحرف غير المتَّصلة في الكلمة عن الفراغ بين الكلمات، كما ميَّز الأحرفَ المختلفة التي اشتركت في الشَّكل نفسِه من خلال استخدام النِّقاط.

وعلى النَّقيض من الخطِّ الكوفي، الذي استُخدِم في كتابةِ المصاحف فحسب، فقد استُخدم خط الورَّاق الجديد لكتابةِ مجموعةٍ متنوعةٍ من النُّصوص الدُّنيوية والدِّينية،

(١) اصطلح المُستشرقون على تسميةِ الخطِّ المُطوَّرِ من الخطِّ الكوفيِّ الزَّاوي العتيقِ الذي استُخدم في كتابة الوثائق ونسخ المخطوطاتِ العربية المبكِّرة بـ الخطِّ الليِّن المكسور، وأبرز أمثلته مخطوطة ليدن من كتابِ **غريب الحديث** لأبي عُبيد القاسم بن سَلام (المتوفى ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م). وكانت إستل ويلان (Estelle Whelan) -التي كرَّست حياتها لدراسةِ الخطوطِ العربية المبكرة- قد اقترحت قُبيل وفاتها عام ١٩٧٩ على جمهور المُستشرقين تَسمية هذا الخط بـ «خط الورَّاق»، تكريمًا للورَّاقين والنسَّاخين الذين رأت ويلان أنهم هم الآباء الحقيقيُّون لهذا الخطِّ المُتطور سهلِ القراءةِ الذي تفرَّع عنه خطُّ النَّسخِ في أعقابِ ظهور الخطوط المنسوبةِ. (المترجم)

الإسلاميَّة والنصرانيَّة، وعلى مساحةٍ جغرافيةٍ هائلةٍ، منذ القرنِ الثالث الهجري/ التاسع الميلادي -كما يتضح من مخطوطة **غريب الحديث** [لأبي عُبيد القاسم بن سلَام] المحفوظة في ليدن (انظر: شكل ٢٧)- حتى أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وذهب معظمُ الباحثين في شَرحِ مظهر الخط الجديد على أنه كان ثمرةً منطقيَّةً للخطوطِ الكوفيَّة السَّابقة التي استُخدمت في نَسخِ المصحف. بيد أنَّ الأرجح عندنا أنه تطوَّر على أيدي كتَّابٍ مُحترفين ونُسَّاخ قاموا بتنظيم أنماط الخطِّ التي استخدموها لنَسخ الوثائق على الورقِ إلى خطٍّ جديدٍ جاء أكثر وضوحًا ومناسبًا لنَسخِ الكتب، التي باتَت تُدوَّن -في توقيت ظهور هذا الخطِّ- على الورقِ أيضًا وفق ما استعرضناه آنفًا. وبوسعنا ربط ظهورِ هذا الخط الجديد باعتياد الكُتَّابِ الكتابةَ على الورق بوصفه الحامل الرئيس للكتابة آنئذٍ.

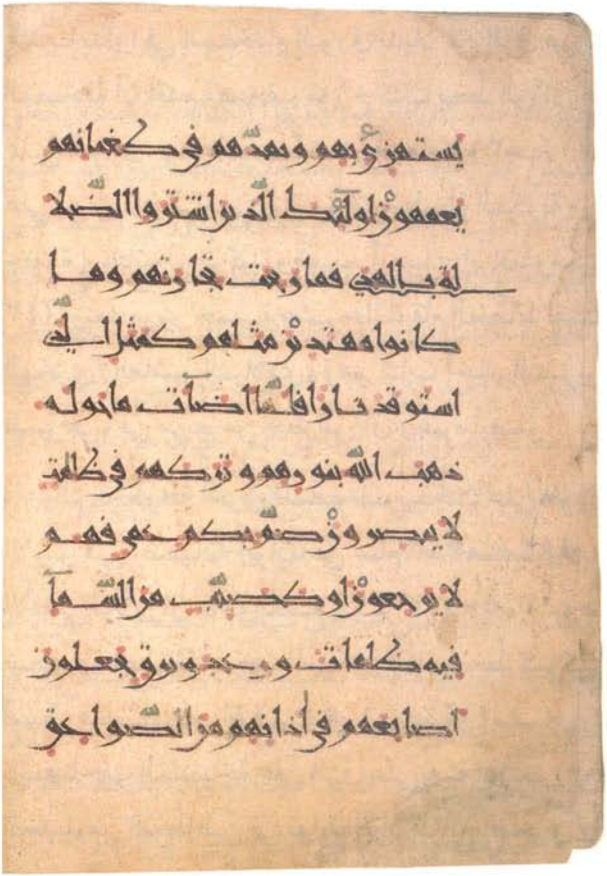
ومع نُموِّ الدولة العباسية في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، ازدهرت الدَّواوين، وأضحى الكُتَّابُ شخصيَّاتٍ مُهمَّةً تمتَّعت بالقوة وبالنفوذ، وكان بعضهم أصحاب دواوين، وبعضهم الآخر علماء في اللغة، كما استوزر الخلفاءُ عددًا منهم، ومن ثم عمِل الجميع على منحِ الوثائق المكتوبة الشكلَ الملائمَ لها. وفي هذا العالَم البيروقراطي، لم يقتصر الحكمُ على الوثائق الرسمية على محتواها فحسب، بل أيضًا على الجزالةِ في اللُّغة، والذَّكاء في التَّورية في النصِّ أيضًا.

وكان ينبغي على كبار الكُتَّاب في الدَّواوين أن يكونوا على علمٍ بالنَّحو والمعاني، والأمثال والرِّوايات، والمنثور والمنظوم، وكذلك على درايةٍ جيدةٍ بشؤون إدارة الدولة، إضافةً إلى حفظِ القُرآن والحديث، والمعرفة بالعَروضِ ونظرية الشِّعر. وأخيرًا كان ينبغي نقل كل هذه المعرفة بخطٍّ جميلٍ لا تُعوِزه الأناقة، وعلى هذا النَّحو انتقل فنُّ الخطِّ من المجال الضيِّقِ للخطَّاطين المُحترفين العاملين في كتابةِ المصاحفِ ليصبحَ جزءًا لا يتجزَّأ من مكاتبات الدَّولة ووثائقها، بل والكتب التي تدفَّقت كنهرٍ جارٍ.

من شأن هذا أن يُفسّر سببَ استخدام خطِّ الورَّاق في كثير من النُّصوص الأخرى قبل أن يعتمده نسَّاخو المصاحفِ في نسخ مصاحفهم في التطور الأخير. وكان خطُّ الورَّاق



شكل (٤٢): صفحةٌ من مصحفٍ كُتِبَ لـ أماجور، أحد ولاة دمشق في العصر العبّاسي، ٢٥٧- ٢٦٥هـ/ ٨٧٠- ٨٧٨م. بالحبرِ البُني على الرَّق، ٥ × ٧بوصة (٧,١٢ × ٣,١٩سم). متحف الآثار التُّركية والإسلامية-Türk ve Is) lam Eserleri Müzesi، إستانبول .Inv] .SE 5643]



شكل (٤٣): صَفحةٌ من مُصحفٍ بخطّ علي بن شاذان الرَّازي على الورق. فرَغ منه ٣٦١هـ/ ٩٧١-٩٧٢م. كُتب بالمداد الأسود على ورق ١٠¼×٧ بوصة (٢٦×٨,١٧سم)، وجه الورقةِ الرَّابعة. يُعاد نشرها بإذنِ كريم من أمناء مكتبة شيستر بيتي-دبلن [CBL Is. 1434].

-على سبيل المثال- هو الخطُّ المُستخدَمُ في كتابةِ واحدة من أقدم المخطوطاتِ التي وصَلتنا، ونُسِخَت على الورق بالخط العربي، وهي شذرةٌ مؤرخةٌ بعام ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م من مُصنَّف أبي عُبيد المسمى **غريب الحديث** (انظر: شكل ٢٧) حيث اتَّسم الخط بنظام مُحكمٍ للتباعُدِ بين الكلمات، صُمِّمَ تيسيرًا للقراءة، كما اتَّسم بحروفٍ حادةِ الزَّوايا، جاءت أكثر وضوحًا بما لا يقاس مقارنةً بالخطِّ الكوفيِّ العتيقِ. وكانت سهولةُ القراءة مصدرَ قلقٍ رئيسٍ عند نسخ النُّصوصِ الأدبيَّةِ، فعلى النَّقيض من المُصحف، لم يسع كُتَّاب النُّصوص الأدبية أن يفترضوا أن القارئ يعرفُ مُسبقًا النصَّ بالفعل.

ولما استخدم الخطَّاطون في النِّهاية الخطَّ الجديدَ لنَسخ المصحف، فعلوا ذلك عندما بدأوا في استخدام الورقِ بديلًا عن الرَّق في نسخ المصاحفِ. وليس من قَبيل المصادفةِ أن أقدم مُصحفٍ مؤرَّخ كُتِبَ بخطِّ الورَّاق هو أيضًا أقدم مصحفٍ مؤرخ نُسِخ على الورقِ. وهو مُصحفٌ مؤرَّخٌ بعام ٣٦١هـ/ ٩٧١-٩٧٢م كتَبه الخطاطُ الفارسيُّ علي بن شاذان الرازي. وتنقسم المخطوطة المكونة من أربعة مجلدات مُوزعةٌ بين مكتبة جامعة إستانبول-تركيا، وضَريح أردبيل-إيران، ومكتبة شيستر بيتي-دبلن (انظر: شكل ٤٣). وبعد مرورِ خمسة عشَر عامًا، قام الخطَّاط نفسه بنسخ نصٍّ أدبيٍّ في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو كتاب أخبار النصرين البحرين[1] لأبي سعيد الحسن السِّيرافي، في مزيجٍ من خطِّ الورَّاقِ وغيره أيضًا.

وثمَّ مخطوطةٌ أخرى للمصحف نُسِخَت على الورق (انظر: شكل ٢٨) بخطِّ الورَّاقِ الأنيق في أصفهان-إيران، في عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م. ويتميز ذلك المُصحف بالشَّكل الأُفقي للأوراق ذات القَطع الكبير ٥, ٩×٥, ١٣بوصة، أو (٩, ٢٣ × ٨, ٣٣سم) أي ضعف حجم المُصحفِ المذكور آنفًا، وبخطٍّ كبيرٍ كبيرٍ، فكل صفحةٍ تحتوي على أربعة أسطر فحسب بفراغ قدره ٥, ١ بوصة (٤سم)، وكلها عناصر جاءت مرتبطةً عادةً بالمصاحفِ المنسوخةِ على الرَّقِ على هيئة الكتب (*Codices*)، كما أنها توضح أن الجيلَ الجديد من الخطَّاطين في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كانوا قد تعلَّموا بعضَ الدروسِ من نُسَّاخ المصاحف المُحافظين الذين استمروا في نَسخ المصاحفِ بالخطِّ الكوفي وعلى ألواح الرَّق.

---

(١) كذا في الأصل، والصَّواب: **أخبار النحويين البصريين**. (المترجم)



شكل (٤٤): صفحتان من مُصحفٍ كُتِبَ على الرَّق بخطِّ الورَّاق. باليرمو، ٣٧٢هـ/ ٩٨٢-٩٨٣. ظَهر الورقة ٨- وجه الورقة ٩. مجموعة ناصر د. خليلي للفن الإسلامي، لندن [QUR 261].

كانت مزايا هذا الخط الجديد عديدةً، فقد كان مقروءًا وسهل الكتابة، ما جعله يحظى بشعبيةٍ واسعةٍ بين النَّصارى والمسلمين على حدٍّ سواء. فاستخدمه النَّصارى أيضًا لنَسخ أناجيلِهم لما يقرب من قرنٍ من الزَّمان قبل أن يُنسَخ أقدمُ مُصحفٍ وَرقيٍّ وصَلنا على الإطلاقِ- والدَّليل على ذلك، مخطوطةٌ مؤرخةٌ بعام ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م محفوظةٌ في مكتبة دير سانت كاترين، بجبل سيناء. وتُظهر شذرات من مخطوطة أفقية على الرَّق للمصحف نُسخت في باليرمو-صقلية، في عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٢-٩٨٣م السُّرعةَ التي غزا بها خطُّ الورَّاق أراضي حوض البحر المتوسط، فوصَل إلى المناطق التي كانت ما تزال تحتفظ بتقاليد الكتابةِ على الرَّق. غير أن الطابع الانتقالي لهذه المخطوطة واضحٌ في المداد الأسود الكربوني، والذي نُسِخ به هذا المصحف (انظر: شكل ٤٤).

كان المدادُ الأسودُ -الذي حضَّره الكتَبةُ من محلولِ سُخام المصابيح المربوط بالصَّمغ النَّباتي والمعروف بالعربية باسم «المداد»- مناسبًا للكتابةِ على سطح ورق البَردي، بيد أن سطح الرَّق كان أمنع من أن يخترقه هذا النَّوع من المِداد، فكان يميل إلى التكتُّل ثم إلى التقشُّر من على سطح الرَّق. وكانت المصاحفُ العتيقةُ بالخط الكوفي تُنسخ على نحو طبيعي على الرَّق بالحبرِ البُنِّي، وكان يُعرف بالعربية بـ«الحِبر»، وكان مصنوعًا من أحماضِ التَّانات المعدنيَّة (metal tannates)[1] المخلوطة بالعفص -gall)

(١) كان العربُ يطلقون عليها اسم «الزَّاج الرُّومي». وأمَّا العفص فهو ثمارُ شجرة البلوط، وكانت مُرَّة الطعم، واستُعمِلت لبعض العقاقير القابضة والمطهرة. (المترجم)

nuts). وكان حبر العَفص يخترقُ فعليًا سطحَ الرَّق كما تفعل الصَّبغة. ولكن إن استُخدِم هذا الحبر على الورق، نتَج عن الخليطِ من الأملاح المعدنية والتّانات والعفص أحماضًا كانت تؤدِّي في النِّهاية إلى تآكل الورق. وعلى النَّقيض من ذلك، لم يكن للمدادِ المصنوع من الكربون تأثيرٌ كيميائيٌّ يُذكَر على السَّطح الذي يُكتب به عليه، أيًا كان. وكان المداد الكربوني هو مادة الكُتَّاب والنُّسَّاخ المستخدمة عادةً في الكتابة على ورقِ البردي والورق. أمَّا مصحف باليرمو -فمثَلُه مثَل معظم المخطوطات المعاصرة- فقد كُتِبَ بخط الورَّاق، ولكن بالمداد الكربوني على الرَّق.

لم يكن لدى الورَّاقين والنُّسَّاخ الذين كتَبوا المصاحف بخطِّ الورَّاق سببًا يدعوهم لتجنُّب محاكاةِ بعض السِّمات الجذَّابة في المصاحفِ المكتوبةِ بالخط الكوفي العتيق وتطويعها، سواءً في المادة أو الشَّكل. وفي المقابل أظهر الخطَّاطون المحافظون الذين عمِلوا في نسخ المصاحفِ إعراضًا عن محاكاة الورَّاقين، فلم تصلنا مصاحف نُسخت بالخط الكوفي العتيق على الورقِ قطُّ، كما لم يكن المداد الأسود الكربوني يُستخدَم عادةً في الكتابة على الرَّق. ومع تلاشي حبر العفصِ البُنِّي على بعض المصاحف، أعاد بعض الخطَّاطين المتأخرين إظهار الكتابة مجددًا باستخدام المداد الأسود الكربوني.

وإجمالًا، جاء تطويرُ خطِّ الوراقِ الجديد متزامنًا مع اعتماد النسَّاخِ والكتَبَةِ على الورق والمداد الكربوني الأسود. وشجَّعت هذه الميزاتُ الثلاثُ على انتشار الكتب منذ القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ إذ كان الورق أرخص ثمنًا وأكثر توافرًا من الرَّق أو أوراق البردي. وكان المداد الكربوني أسهل في التَّحضير ولم يتسبب في تآكل الورق. وكان خطُّ الورَّاق الجديد مقارنةً بالخطوط الكوفيَّة العتيقة -بصرف النَّظر عن المُتغيِّرات المُنمَّقة المستخدمة في النُّسَخ الأكثر روعة من المصاحف والمُصنَّفات الأدبية- حرًّا نسبيًّا، وأسهل وأسرع في الكتابة.

وعلى الرغم من استمرارِ استخدام خطِّ الورَّاق لعدة قرونٍ في بعض الكتابات، إلا أن نجاحَه مهَّد الطريقَ لتطوير أنماطِ انسيابيَّةٍ من الخطِّ العربي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وهذه المجموعة من الخطوط المُتفرِّعة عنها، وعلى رأسها خط النَّسخ، الذي ظلَّ شائعًا حتى يوم الناس هذا، حيث إنه الخط الأكثر شيوعًا والقابل للقراءة بالنسبة لعامة القراء في العالم العربي. واتُّخذ خطُّ النَّسخِ خطًّا نموذجيًا

للمطبوعـاتِ العربيـةِ الحديثـةِ. وكما هـو الحال مع خـطِّ الورَّاق، فإنَّ أصول الأسـلوبِ المُسـتديرِ غامضة نسـبيًّا، لكن الروايات العربية تشـير إلى أن الكاتبَ العبَّاسـي -والوزير لاحقًا- ابن مُقْلَةَ قدَّم طريقةً جديدةً لكتابة الخطِّ العربي، عُرِفت باسم «الخط المنسوب».

كان ابنُ مُقلةَ جابيًا للخَراج في بعض أعمالِ فارس، ثم عمِل كاتبًا في الدِّيوان، وأُنيط به فضُّ الرسائل الرَّسمية وإرسالها، وفي مُستهلِّ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أضحـى وزيـرًا لثـلاث خُلفاء من بني العبَّاس[1]. واشـتُهِر ابـن مُقلةَ بخطِّه الـذي وصَلتنا نماذج منه، كما طوَّر أيضًا نظامًا لحسـاب حجم الحروفِ على أسـاسِ نُقطةٍ على شـكل مُعيَّنٍ، كانت تُخَطُّ إذا لامَس قلمُ القصبِ سـطح الورقة بكيفية مُعيَّنة. وحسَـب ابن مقلة ارتفـاع الألـف -وهو أولُ حرفٍ من حروف الأبجديةِ العربية- من حيث هذه النِّقاط، ثم حسَب حجم الحروف الأخرى قياسًا بالألف، وكان الخط الأول الذي قام بتهذيبِه يدعى بـ «المُحقَّق»؛ وبلغ قياسُ حرفِ الألف فيه تِسع نقاط.

وانتقلت مهارةُ ابن مُقلة في فنِّ الخط إلى الجيل التالي من الخطَّاطين، ولا سيَّما علي ابـن هـلال المعروف باسـم ابن البـوَّاب، الذي بـدأ حياته المهنيَّـة بوصفه نقَّاشًـا، إلا أنه سـرعان مـا تحـول إلى الخِطاطة، حيـث أضفى أناقةً علـى نظامِ الخطوط المنسـوبةِ التي طوَّرهـا سـلفُه. وكان ابـن البواب مُقرَّبًا من دوائـر البلاط في بغداد، وعُيـن خازنًا لمكتبة الأمير البويهي صاحب شيراز[2]. وقيل: إنه نسَخ المصحف ٦٤ مرةً، لكن مصحفًا واحدًا فحسـب مـن تلـك المصاحف هو الذي قُـدِّر له أن يصِلنـا، وهو مصحفٌ صغيرٌ، قياسـه ٧×٥بوصة (١٧,٥ × ١٣,٥ سم)، ويتكون من ٢٨٦ ورقة، فرَغ منه ابن البوَّاب في بغداد في عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠-١٠٠١م (انظر: شكل ٢١). ومسطرة صفحات هذا المُصحف ١٥ سـطرًا، إلا حيـث كانت العناوين والتَّرويسـات التي احتلَّت مسـاحةً أكبـر. وكتَبه ابن البـوَّاب بخط النَّسـخِ المستدير المنسـوب، ولا يزال خطه -الذي يُعـدُّ تنقيحًا أنيقًا لخط النَّسـخِ المُعتـاد- مقروءًا تمامًا للقارئ العربي المُحدَث بعـد مرورِ ألف عام على كتابته. وفي المقابل، يجد القراء الأوروبيُّون عادةً صعوباتٍ في قراءة أي نصٍّ مكتوبٍ بخط اليد ويرجع إلى أكثر من قرنين أو ثلاثة قرون خلَت.

---

(١) الإيماءةُ إلى المقتدر بالله، والقاهر بالله، والرَّاضي بالله. (المترجم)

(٢) الإيماءةُ إلى الأمير البويهي بهاء الدولة. (المترجم)

ونُسِّقَت الأساليبُ المختلفةُ من الخطوط في حياة ابن مُقلة (٢٧٢-٣٢٩هـ/ ٨٨٥-٩٤٠م)، وانقسَمت إلى سِتِّ خطوطٍ مُستديرةٍ، تكوَّنت من ثلاثة أزواج من الخطوطِ الكبيرةِ والصغيرةِ وهي: الثُّلث والنَّسخ والمُحقَّق والرَّيحان والتَّوقيع والرُّقعة، والمعروفة اصطلاحًا بـ «الأقلام السِّتة».

ومثلما وقَع التنظيمُ الأول لقواعد الخطِّ العربيِّ في أواخر القرن الأول الهجري/ السَّابع الميلادي، نُظِّمت الأقلامُ السِّتة بالتَّزامن مع الاستخدامِ المتزايدِ للورق في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ثم أُعيد تنظيمُها في العراق وفارس في القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي تزامنًا مع التحسُّن الاستثنائي في تقنيةِ صناعة الورق -كما استعرضنا آنفًا- في عصر المغول الإيلخانيِّين. وكان ياقوت المُستَعصِمي الخطَّاط الرَّئيس في تلك الحقبة، وهو كاتبٌ خدم الخليفة العباسي الأخير المُستعصِم، وقيل: إنه نجا من اجتياح المغولِ لبغداد عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م عندما لاذ بإحدى المآذن مُختبئًا.

اشتُهر ياقوت المُستعصِمي بإتقان خطِّ ابن مقلة من خلال استبدالِ سِنِّ القلم المُستقيم بآخر مقطوعٍ بزاويةٍ مائلةٍ، ومن ثم خلَق قناةً للكلمةِ جاءت أكثر أناقةً، وما زال المُستعصميُّ يخطُّ حتى لُقِّبَ بـ «السُّلطان»، وبـ «قبلة الخطَّاطين»؛ واللقبُ الأخيرُ كان يشيرُ إلى أن ياقوتًا كان للخطَّاطين كمكَّة للمُسلمين. وهو ما يعادل وصفنا لشخصٍ ما بالقطب (Polestar) في ثقافتنا الغربية.

وتميَّزت مخطوطاتُ المصحفِ عند ياقوت -وإن كانت صغيرة الحجم- برحابة تصميمها، وهو الأثر الذي حقَّقه الخطَّاط باستخدام خطٍّ دقيقٍ للغاية (انظر: شكل ٣٣). ولم يكن من الممكن الحصول على خطوطٍ بهذه الرِّقة إلا على الورق الأكثر ملاسةً، والأعلى جودةً من بين جميع الموادِّ التي كانت تصلُح بوصفها حوامل للكتابة. وتمكَّن صُنَّاعُ الورقِ المعاصرون من تلبيةِ طلبِ الخطَّاطين من خلال إنتاج ورقٍ أبيضَ قويٍّ للغاية، ذي سطحٍ أملسَ خالٍ من التَّجاعيد والشَّوائب بمجرَّدِ الانتهاء من صَقله. ولم يكن مثل هذا الخط مُمكنًا على الأوراقِ البُنِّيةِ الخشنةِ في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وكان لدى ياقوت المُستعصِمي نفسه ستة تلاميذ مشهورين؛ واختلفت أسماؤهم

باختلاف المصادرِ، بيد أن أشـهرهم: يحيى الصُّوفي، وحَيْدَر، وأحمد بن السُّـهرَوَرْدِي، وهو الخطاط الذي خطَّ مصحفَ بغداد لمالكٍ مجهولٍ (انظر: شكل ٤٥).

ومثلما شـجَّع اسـتخدام الورقِ على نطاقٍ واسـعٍ في القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي رُوَّادًا مثل ابن مقلة وابن البوَّاب على تهذيبِ الخطِّ في الكتبِ في القرن الرابع الهجري/ العاشـر الميـلادي، فكذلك عمِل التحسُّـن فـي جودةِ الورق في القرن السـابع الهجري/ الثالـث عشـر الميلادي، لا سـيما في البِقـاع التي كانت تحتَ سيطرةِ المغول على تشجيع أساتذة -مثل ياقوت وتلامذته- على الارتقاء بفنِّ الخطِّ العربي، والتَّحليق به إلى آفاقٍ جديدةٍ. إلا أن التَّحسُّـن المستمر في جودةِ الخط، وتحسـن خطوط النَّسْـخِ الأكثر شعبيَّةً، ليسا سوى جزءٍ يسيرٍ من القصَّةِ. لقد تزامن هذا كله مع زيادة الطَّلب على الكتبِ زيادةً عظيمةً.

عصر التَّدوين

تُشير عبـارةُ ابـن البوَّاب -في حـردِ متنِ مصحف شسـتر بيتي- إلى أنه لـم يخُطَّ هذا المصحف لشَخصٍ أو لمؤسَّسةٍ ما خصِّيصًا. فإذا قرَنَّا ذلك بوضوح الخطِّ، وصغِر حجم المُصحفِ، وجمعِه في مجلدٍ واحدٍ فحسب، فإن هذا كله ينهض شاهدًا على أن الخطَّاط إنَّما نسَخ هذا المصحف ليبيعَه لاحقًا. والفرضيةُ التي تقضي بأن شخصًا ما في بغداد في أوائل القرنِ الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان يرغب -أو تمكَّن من- شراء مخطوطـة مـن مُصحفٍ خطَّه خطَّاطُ العصر، إنَّما هي شـهادةٌ بليغةٌ علـى عصرِ التَّدوين، والدِّراسـة مـن خلال الكتب الذي نتَـج عن الاعتماد على الورقِ فـي أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وما صاحب ذلك من تطوير خطوطٍ جديدةٍ أسرع في الكتابةِ وأكثـر وضوحًـا في القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي، مـع زيادة معدلات دخول النَّاس في الإسلام وانتشار اللغة العربية في البقاع التي انتشَر فيها الإسلام.

أدَّى دخول الناس في الإسلام أفواجًا إلى زيادةِ أعداد أولئك الذين شاركوا في الثَّقافة السَّـائدة، أو كان يُتوقع منهم أن يشـاركوا فيها. وقدَّر الباحثون -على سـبيل المثال- أن نصفَ سكان فارس قد دخلوا في الإسلام بين عامي ٢٠٥-٢٤٦هـ/ ٨٢٠-٨٦٠م؛ وفي العراق ومصرَ والشَّـام، بحلول عام ٢٤٦-٣٤٩هـ/ ٨٦٠-٩٦٠م؛ وفي الأندلس بحلول



شكل (٤٥): صفحةُ حردِ المتنِ (*Colophon*) من مُصحفٍ بخطّ أحمد السُهروردي [البكري].
بغداد، ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م. متحف المتروبوليتان للفنون (*The Metropolitan Museum of Art*)،
نيويورك، صندوق روجرز (*Rogers Fund*)، ١٩٥٥، [55.44].

عام ٣٤٩-٤٩٤هـ/ ٩٦٠م-١١٠٠م. وتتَّسقُ هذه التواريخُ على نحوٍ مثاليٍّ مع ازدهار الثقافة الأدبية الإسلاميَّة في القرون الوسطى، في البقاع المذكورة آنفًا.

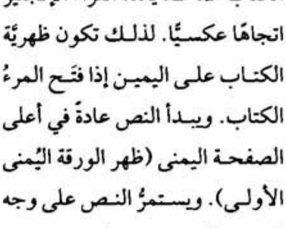
وقد شجَّع الخلفاء من بني أُمية بعض أنواع الآداب والعلوم، لا سيَّما الحديث

والشِّعر، ولكن مع استيلاءِ بني العبَّاس على الخلافة في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أضحَت الكتبُ والمعرفةُ المُستمدةُ منها هدفًا عامًّا للمجتمع الإسلامي. وجرى تَشجيعُ أنواع جديدةٍ من الأدب؛ ففضلًا عن علومِ القرآن، كتَب العلماءُ في العقيدةِ والحديثِ والفقه، وكانت الشَّريعةُ الإسلاميةُ -في طورِها الباكر- مُستندةً إلى الرِّواية الشَّفوية، وجمَعت بين أحكام القرآن مع أعرافِ العربِ قبل ظهور الإسلام. وحاول ابن المُقفَّع، وزير الخليفة أبي جعفر المنصور -عبثًا- تأكيدَ سُلطةِ الدَّولة العباسية الجديدة من خلال توحيد التَّشريع في الإسلام ليحكُم القضاةُ على مذهبٍ واحدٍ لا يشذُّون عنه. وعلى الرغم من أنَّ ابن المُقفَّع لم يتمكَّن من وضعِ مثل هذا التَّشريع قبل أن يُؤمَر بقتله في عام ١٤٢هـ/ ٧٥٦م، فقد توالتِ الكتبُ في الشَّريعةِ الإسلاميةِ تترى في النِّصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ثم ازدهرت في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي عندما وضَع العُلماء من أمثال: أبي حنيفةَ ومالك بن أنس والشَّافعي وأحمد بن حنْبَل الرَّسائل والكُتبَ في الفقه، والتي لا تزال تشكِّل أساس الشَّريعةِ الإسلاميةِ حتى يومنا هذا.

وأدَّت الاختلافات العقائدية بين السُّنةِ والشِّيعةِ والإباضيَّة وغيرهم من الفرق الإسلامية إلى كتابة المُصنَّفات في العقيدةِ والتفسيرِ والأدبِ المشوبِ بالفلسفةِ. وكانت الرَّغبة في فَهمِ معاني المُفردات، والكيفية التي نُظِمت بها المعاني في القرآن حافزًا للعُلماء على الكتابة في فقه اللغة العربية، وعِلْمَي المعاني والنَّحو. كما أدَّت الحاجةُ الماسَّةُ إلى التعرُّفِ على الرُّواة الذين نقَلوا الحديثَ، والتأكُّد من أنهم تلقَّوا الرواية عيانًا وكفاحًا، إلى تحقيق طفرةٍ في كتابةِ السِّير والتَّراجم. وسوَّغ المؤرِّخون لأنفسِهم كتابةَ التَّاريخ بطريقةٍ جديدةٍ مبتكرةٍ، فبدأ كثير منهم التأريخ منذ

الكتاب الإسلامي

نظرًا لأن النصَّ العربيَّ يُقرأ من اليمين إلى اليسار، فإنَّ التنسيقَ النموذجيَّ للكتابِ الإسلامي جاء على النَّقيض من النُّصوصِ التي تُقرأ من اليسار إلى اليمين، مثل الإنجليزية على سبيل المثال. ويُفتح الكتاب مما قد يعدُّه القُرَّاء الإنجليز اتجاهًا عكسيًّا. لذلك تكون ظهريَّة الكتاب على اليمين إذا فتَح المرءُ الكتاب. ويبدأ النص عادةً في أعلى الصفحة اليمنى (ظهر الورقة اليُمنى الأولى). ويستمرُّ النص على وجه الورقة اليسرى. وغالبًا ما ينتهي المتن، وأحيانًا الجُزء منه، بحردِ المَتن، أو قيد الفَراغ، أو ما نطلق عليه (*Colophon*)، الذي يوضِّح اسم النَّاسخ، والمكان الذي نُسِخ فيه الكتاب، وتاريخ الفراغ من النَّسخ.



أجزاء من الكتاب الإسلامي النموذجي

ونُسِخت المخطوطات المبكرة، ولا سيما المصاحف، على ألواح رَقٍّ مطوية. وجُمِعت إمَّا بشكل فضفاض في أغلفةٍ جلديَّةٍ ناعمةٍ، أو صناديق واقية أو خِيطت معًا في مجموعات، واحتُفظ بها داخل =

بدء الخليقة، تأسِّيًا بالقرآن الذي أعاد صياغةَ مفهوم التاريخ حيث ردَّه إلى بداية الخلقِ.

ولم ينحصرِ التَّعليم في العلوم الدينيَّة والشَّرعية فحسب، فقد شجَّع توسُّع الدَّولة المؤلِّفين على التَّصنيفِ في إدارة شؤون الدَّولة من منظورٍ شرعيٍّ، كما دفَعهم الفضولُ العام أيضًا لوضع مصنفاتٍ في الشِّعر والفلسفة والجغرافيا والملاحة والرياضيَّات والعلوم التطبيقيَّة، فضلًا عن علوم الفلكِ والتَّنجيم والطبِّ والكيمياء.

وفي الوقت نفسه شهِدت تلك الحقبة إقبالًا عظيمًا على تجميع مجموعاتٍ من القصص وغيرها من أساطير الأقدمين باللغة العربية. وأول دليلٍ مكتوبٍ على حكايات **ألف ليلة وليلة** -على سبيل المثال- هي شذرةٌ دُوِّنَت في أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في الشَّام، وهي محفوظة الآن في شيكاغو (انظر: الشكل ٢٦)، وينبغي أن تُمثل تلك الشَّذرة -التي وصلتنا اتفاقًا- جزءًا فحسب من كلِّ ما دُوِّن ثم فُقِد من بعد.

وثَمَّ نوعٌ آخر غير اعتيادي تمتَّع بشعبيَّةٍ كبيرةٍ، وهي الكُتب التي وُضِعت في فنِّ الطبيخ. وعلى الرغم من وجودِ الكُتب في فنِّ الطَّبيخ في العصورِ القديمةِ، إلا أنها شهدت زيادةً نوعيةً وكمِّيةً في القرنَين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، وكأن الهمداني (المتوفى ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) قد ألمَح إلى وجودِ مُصنفاتٍ أدبيةٍ معقَّدةٍ في فنِّ الطبيخ بقوله:

«وبلدُ همَدان ومشرق خولان وحزيز وجهران أثخن من الزُّبد في غير اليمن مع الغذاء واللذَّة والطِّيبِ».

أمَّا ابن النَّديم (من أهل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، فذكر في كتابه **الفهرست** وجود عددٍ كبيرٍ من الكتبِ

صندوق أو غلافٍ واقٍ، غالبًا ما كان مصنوعًا من الجلدِ المصبوب على لوحة. وبعد استبدال الرَّق بالورق، سادت طريقة أخرى: حيكت الصفحات معًا في مجموعات، تكونت من مجموعات من الأوراق المطوية: عادةً ما كانت ثلاث ورقاتٍ (*Trinions*)، أو أربع ورقاتٍ (*Quaternions*)، أو خمسة (*Quinions*).

ونظرًا لأن إنتاجَ الأوراق ذات القَطع الكبير كان أكثر صعوبةً، وأكثر كُلفةً من إنتاج الأوراق ذات القطع الصَّغير، فقد كان من قَبيلِ الإجراء العملي والاقتصادي أن يُنسخ الكتابُ على أوراق من القطع الكبير، بحيث تقطع إلى نِصفين أو إلى أرباع. وعلى هذا النَّحو، فإنَّ حجم الورقة التي نُسخ عليها الكتاب عادةً ما كان يقارب ضعف حجم الصَّفحة الفردية. وكانت أكبر الأوراق المُستخدمة في المخطوطات الإسلامية في القرون الوسطى تُعرف أحيانًا باسم الورق البغدادي الكامل. وكانت هذه النَّوعية من الورق باهظة الثمن، وهي التي استخدمت -على حدِّ علمنا- في نسخ المصاحف من قياس بلغ ٢٨×٣٩ بوصة (٧٠×١٠٠سم) وأنتجت صفحةً بلغ قياسها ٢٠×٢٨ بوصة (٥٠×٧٠سم). ولما كانت حواف الورقة مُعرَّضة باستمرار للتآكل، فغالبًا ما كانت تُهذَّبُ=

في الطَّبيخ، إضافة إلى عددٍ مساوٍ من الكتب التي أُفردت للسُّموم والعقاقير والتَّمائم والسِّحر. ولم تصِلْنا أيٌّ من هذه النُّصوص المبكرة، ولكنَّنا نعرف أنها لم تُصنَّف على أيدي طُهاةٍ احترفوا الطَّبخَ على سبيل المثال، بل كانوا في جملتِهم من النُّدماء والموسيقيِّين والشُّعراء وخَزنة المكتبات، ما يدلُّ على أهميَّة هذا النَّوع الأدبي، وعلى طبيعتِه الأدبيَّة كذلك.

إن أقدمَ كُتبِ الطبخِ العربية التي وصَلتنا يعود تاريخُها إلى القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث فرَغ محمد ابن حسن بن محمد بن الكريم البغدادي الكاتب من تصنيفِ كتابِه المُسمَّى **كتاب الطَّبيخ** عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م. وقسَّم هذا الكاتبُ المُتعَ الحِسِّيَّةَ إلى ستَّة أنواعٍ، هي: المطعَم والمشرب والملبَس والجِماع والرَّائحة والصَّوت. وكان الطَّعامُ في رأيه هو أكثر هذه المُتع أهميةً، حيث قسَّم تناوله له إلى عشرة فُصولٍ، اشتَملت على: الحوامضِ وأنواعِها (ستة أطباق كانت تُصنَع من الحليبِ)؛ والأطباق السَّاذجة، ثم المقليَّات، والهرائس والعصائد، ثم المخبوز وفنونه؛ ثم السَّمك بأنواعه، ثم المُخللات والمقلوبة؛ ثم الجوذاب والأخبصة؛ ثم الحلوى والمُعجنات. ووصَف المُصنِّف إعدادَ تلك الأطباق تفصيلًا، بما يكفي ليتتبَّع طاهٍ مُحْدَثٍ مثالَها. ونَسوق منها وصفتَه لعمل حَساء «المشمشية»، التي جاءت على النَّحو التالي:

«يُؤخذ اللَّحمُ السَّمين، يُقطَع صغارًا ويُجعَل في القدرِ، مع يَسير ملحٍ وغَمرة ماء. ثم يُغلى وتُؤخذ رَغوته. ثم يُقطع البَصلُ ويُغسل ويُلقى على اللحم. وتُطرح عليه الأبازير: الكُسفرة والكمُّون والمُصطكي والدَّارصيني والفُلفل والزَّنجبيل المدقوقة ناعمًا. ويُؤخذ المشمش اليابس، يُنقَع في ماءٍ حارٍّ ثم يُغسل ويُطرح في قدرٍ أخرى ويُغلى غليةً خفيفةً ثم يُحطُّ، ويمرَّسُ باليد ويُصفى على منخل ويُؤخذ ماؤه فتُمرَّق به القِدر.

بالمِقصِّ عند ربطِ المخطوطة أو عند إعادة حياكتها قبل تجليدها مجدَّدًا. ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان -إن لم يكن داخلًا في عداد المُستحيلات- تحديد الحجم الأصلي للورقة التي هُذِّبت مرارًا على وجه اليقين. وكان من تقاليد التَّجليد الإسلامي -غالبًا- صُنع امتدادٍ يُثبَّت عند الحافة الخارجية للغلاف الخلفي ثم يُلحق به لسانٌ مدبَّبٌ خُماسيُّ الأضلاع ينطبق عند غلقِ الكتابِ فوق قسمٍ من الغلاف الأمامي وقايةً لكتلةِ الورقِ. وغالبًا ما نُقِش عنوان الكتاب على ظهرِ الغلافِ. وعادةً ما احتُفِظ بالكتب بشكل أفقيٍّ على الرُّفوف.

ثم يربى اللوز الحلو المدقوقُ ناعمًا بشيءٍ من ماء المشمش ويُطرح عليه. ومن النَّاس من يصيغها بيسيرِ زعفران، ثم يُرَشُّ على رأسِ القِدرِ قليل ماء ورد، وتُمسَح جوانبها بخرقةٍ نظيفةٍ، وتُترك حتى تَهدأ على النَّار وتُرفع».

وثَمَّ كتابُ طَبيخٍ آخر من الشَّام كُتِب في القرنِ السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي، وهو كتاب **الوسيلة إلى الحبيب في وصفِ الطيِّبات والطِّيب**، وصَلنا منه ما لا يقلُّ عن عشرِ نُسخٍ مخطوطةٍ، ونلحظُ أن أكثر هذه النُّسخ كان مُقابلًا على نُسخٍ أخرى (*Rescen-sions*)، ما يدلُّ على شعبيَّتِها الواسعةِ في القرون الوسطى. وفسَّر المُستشرقُ الفرنسي ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) -الذي درَس هذا النص وحقَّقه- وجودَ مثل هذه الكتب على أنه علامةٌ على وجود نمطٍ استهلاكيٍّ واضحٍ في العصر العباسي المُتأخِّر، نشأ في مجتمعٍ فاحشِ الثَّراء، حيث أُعيد تنظيم جميع الأَنشطة بقواعدَ لم تخلُ من تعقيدٍ.

وعلى الرغم من أن كتب الطَّبيخ -وغيرها- تُشير بكل تأكيدٍ إلى التَّعقيد الاجتماعي والثقافي لحياة العرب في القرون الوسطى، إلا أنها يجب أن تُفهم أيضًا على أنها كانت نتاجًا عمليًّا لعقليَّةٍ أخرى بدأت في التشكُّلِ، مدفوعةً بانتشار الورقِ في العالم الإسلامي في القرون الوسطى. بعبارة أخرى: فإنَّ تدوين شيءٍ ما كتابةً كان وسيلةً للبقاء والخلود.

وعزَّز المجتمعُ المسلمُ هذا الاحترام للتعلُّم من خلالِ الكُتب والحرص على التَّعليم، حيث فتَح الحكامُ والأثرياءُ أبوابَهم للعلماء وأغدقوا عليهم العطايا، ولم يبخلوا عليهم بالأموال. ورعَى الخلفاءُ والولاةُ ورجالُ الحاشيةِ كبارَ العلماءِ والأطباءِ، والكُتب الجديدة وكذلك ترجماتِ المُصنَّفات النصرانيَّة واليهودية المكتوبة باللُّغتين السُّريانية واليونانيَّة. واتَّخذ المترجِمون أنفسهم التَّلاميذَ والورَّاقين والنُّسَّاخ.

وألَّف الناسُ الكتبَ لمجرَّد أنهم أرادوا ذلك؛ أو لأنَّ الرُّعاة أو الحُكَّام كلَّفوهم بتصنيفِها. وتوقَّع الكُتَّابُ أن يُجزوا عن جهودِهم خيرًا مع الخِلَع والعطايا، وفي كثيرٍ من الأحيان الأموال والهِبات. وكتَب آخرون -مثل الكتَّاب والقضاة في دواوين الدولة الكُتُبَ- في أوقاتِ فراغِهم. وعلى النَّقيضِ من المؤلِّفين المعاصرين، نادرًا ما سجَّل الكتَّابُ في العالم الإسلامي في القرون الوسطى اكتشافاتِهم الشخصيَّة. بل عرضوا عادةً

سِلسـلةً مـن الآراء والتَّقاليـد في موضـوعٍ معيَّنٍ رتَّبوها من مصدرٍ إلـى آخر. وعندما كان المؤلِّـف يعرض مقاطعَ مختارةً عرَضت وجهـاتِ نظرٍ مختلفةً، كان يختَتِم حديثَه بقوله: «والله أعلم».

ولـم تـزلِ الكتـب -آنذاك- تمثِّـل التقليدَ الشَّـفهيَّ المسـتمر وغيـر المنقطـع للرِّواية الشَّـفهية، مثلُها في ذلك مثَلُ تدوين الحديث؛ وذاك لأن الرواية عدَّت أعلى مرتبة بما لا يُقاس من الوِجادة، وهي رواية ما أُخِذَ من الكتبِ قِراءةً، لا سماعًا وروايةً.

وسـافَر النـاسُ زرافاتٍ ووحدانًا لسـماع كبـارِ العلماء يروون عن غيرهـم أو يقرأون مُصنَّفاتهم في مجالسِهم. فإذا تعذَّر على الطلابِ حضور مجالسِهم، لم يكن ثمَّ بأس من مُطالعة كُتبِ أولئك العلماء. فقد يجتهد المؤرِّخ في البحثِ عن نُسخةٍ من مُصنفٍ تناول الفترة والموضوع اللذين يَشغلانه على سبيل المثال.

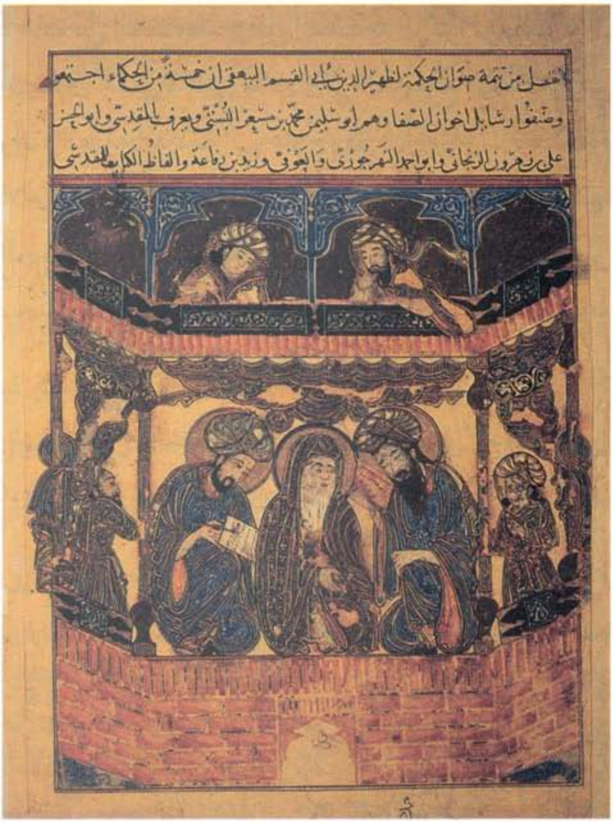
وكان نشرُ الكتبِ في حدِّ ذاته يمثل رواية شفهيَّةً على نحوٍ أو آخر، حيث قُرِئ الكتابُ على المُصنِّف وكُتِب من إملائه، عادةً في المسـجد. وظل المسـجد مركزًا لمعظم ألوان النَّشاط الأدبي، على الرغم من أن نطاقَ المعرفة التي سادت في المجتمع الإسلامي في القُـرون الوسـطى تجـاوزت القرآن والعلوم الدينيَّـة إلى علومٍ وفنون أُخَر. ولم تُستَخدم المسـاجد منذ عصرِ صدرِ الإسـلام للصلوات الخمس وصلاة الجمعة فحسـب، ولكنها استُخدمت أيضًا وسيلةً لإعلام الجمهورِ، وعقدِ مجالس القضاء، والدروس والمجالس العلميَّـة. لذا فقد اسـتُخدمَ المسـجدُ بوصفه مركزًا لنشـرِ الكتب، ومكانًا مناسـبًا لنشـاطٍ علميٍّ كهذا.

وقضَـى الوزيـر الإيلخانـي رشـيد الدين فضـل الله الهمذاني (مـن أهل القـرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، في كتابِ الوقفِ الذي نظَّم شؤون أوقافه بـ تبريز[1] أن

(١) الرَّبـع الرَّشـيدي فـي تِبريـز، وهـو مجمعٌ اشـتمل علـى مدرسـةٍ ومكتبـةٍ وجامع وبيمارسـتان (مستشـفى) وحمَّامات ومنازل لإقامة المدرِّسـين والطلاب، ومصانع للنَّسيج والورق، وورشٍ لنَسخ الكتب وتجليدها وتذهيبها، واتَّسع الرَّبعُ لإقامة سبعة آلاف نسمة من المدرِّسين والطلاب، فضلًا عن الفقهاء والقراء، وكان لـكل فئةٍ من سـكان الرَّبع حيٌّ خاصٌّ بها، وأوقف رشـيدُ الدِّين الأراضي والضِّياع لتصرف عوائدها على طعام المقيمين فيه وكسـوتهم. وآل حال الرَّبع إلى الخراب بعد مقتل رشـيد الدِّين، إلا أنه اسـتعاد شيئًا من نشاطِه في وزارة ابنه غِياث الدِّين حتى قُتِل بدورِه، فآل أمرُ الرَّبع إلى الخرابِ. (المترجِم)

مصنَّفاته التي نَسَخها الخطاطون بخطوطٍ جيدةٍ، ينبغي أن يحملوها إلى «الصُفَّةِ الكَبيرةِ» في جامع الرَّوضة ما أن يفرغوا منها، حيث تُوضع كل منها على منصَّةٍ مُرتفعةٍ بين المنبر والمِحراب، وتُقرأ بين الصَّلوات صدقةً جاريةً للواقفِ. وكان على المُشرفِ على الوقفِ أن يُسجِّل كل كتابٍ بشهادةٍ، وأن يُطلِعَ قضاةَ تِبريز على النُّسخ، فيُسجِّلوا بدورِهم الحالةَ الماديَّةَ لكل مخطوطةٍ على حدة.

وأنشَـد الشُّـعراءُ قصائدهم في المسـاجد، وحتى أولئك الذين كُلِّفوا بتصنيفِ الكُتبِ جلسـوا لإملائها هناك. وكان المُصنِّفُ يجلس بإزاء جمهورِه الذين يجلسـون على هيئة الحلْقةِ أمامه. وعلى مقربةٍ منه مُعيده أو تلميذه (مُستمليه) ليكون وسـيطًا بينه وبين سائر طلابه. وصُوِّرت مثل هذه النَّشـاطات في مقدمة **رسـائل إخوان الصفا**، التي نُسِـخَت في بغداد عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م (انظر: شكل ٤٦).



شكل (٤٦): المؤلفون والكتَبة والحضور. الصَّفحةُ اليُمنى من واجهةِ مخطوطةِ **رسائل إخوان الصَّفا**، ظهر الورقة الثَّالثة، العراق ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م. مكتبة السُّليمانيَّة، أسعد أفندي، إستانبول [٣٦٣٨].



شكل (٤٧): طالبا علمٍ يعرضان كتاباهُما على المؤلّف للقراءةِ عليه. الواجهةُ الكاملةُ للتَّرجمةِ العربيةِ لكتاب ديسقوريدس المُسمَّى الأدوية المُفردة (*De materia medica*). ظهر الورقة الأولى، ووجه الورقة الثَّانية. شمال العراق أو الشَّام، ٦٩٩هـ/ ١٢٢٩م، أحبارٌ وأصباغٌ مُعتمةٌ على الورق. مكتبة طوب قابي سراي، إستانبول [مخطوطات أحمد الثالث، ٢١٢٧].

وعادةً ما كان المُصنِّفُ يكتبُ كتابَه بخطِّ يده، ثم يُملِيه في جلسات الأمالي من محفوظِه. ويركز عددٌ كبيرٌ من الرِّوايات على قُدرةِ بعض العلماء الهائلة على الحفظِ. فقيل: إنَّ المُحدِّثَ أبا بكرٍ ابن الأنباري (من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) قد أملَى ٤٥ ألف صفحة من محفوظِه. وأملَى معاصره الفيلسوف البواردي ثلاثين ألف صفحةٍ في علومِ اللغة وفنونِها مما يحفظُ. وربما توقَّف بعض المؤلِّفين عن عقدِ مجالس الأمالي وقد بلغوا مُنتصفَ الكتاب لسَببٍ أو لآخر، وكان على طلابِه ألا يُبدوا تبرُّمَهم من انصرافِ المؤلِّفِ عن إتمامِ كتابِه قطُّ.

ولم يكن من المُمكن عدُّ نسخةٍ من الكتابِ نفيسةً ما لم يكن صاحبها مجازًا من قبل المؤلفُ. وكما استندَت صحَّةُ الحديثِ إلى سِلسلةِ رُواتِه، فإن صِحَّةَ نسخة الكتابِ

استندَت إلى سلسلةٍ من الإجازات كانت تعود إلى المُصنِّف نفسه رأسًا. وقد يتفق أن يُخرج المُصنِّف بنفسه عدة إبرازاتٍ من كتابه، لكنه عادة ما يجيز نُسَخًا من القراءاتِ العامَّة من خلالِ جعل بعض الطلاب يقرأون عليه الكتابَ للتأكُّد من دِقَّة النُّسخِ التي بحوزتهم من مصنَّفه.

وتغصُّ تراجم العلماء بعبارة «سمع [كتابًا بعينه] من فلانٍ وفلانٍ»، ليس هذا فحسب، بل تذكر أيضًا أنه «قرأ كتابَ كذا على فلان وفلان». وكان على النَّاسخ أن يقرأ النُّسخة التي بحوزته بصوتٍ جهوريٍّ من أجل الحصول على الإجازة بروايةِ الكتابِ، وقد يُوفِّر المُصنِّف الوقتَ من خلال تجميع جمهورٍ لمراجعة القراءة بالطريقةِ نفسها التي جمَع بها جمهورًا للإملاء.

وعادةً ما يُفسر الباحثون الصَّفحتَين المشهورتَين في واجهةِ مخطوطة الترجمة العربية لكتاب ديسقوريدس المسمَّى الأدوية المُفردة (De materia medica)، والمؤرَّخة بالقرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على أنها عرضٌ إسلاميٌّ لصورةِ المؤلف الكلاسيكية، باستبدال المؤلف المُلْهَم المُستغرق في التفكير، بالمؤلِّف الذي يوجه طُلَّابه ويُجيزهم بروايةِ ما صَنَّف (انظر: شكل ٤٧).

وقد يستبينُ للمرء -في ضوءِ حرصِ المسلمين على قراءةِ النُّسخ ومعارضتها على نُسَخٍ أصيلةٍ- سبب احتواء المخطوطات الغربيَّة في القرون الوسطى -متى قِيسَت بنظيرتها الإسلامية- على هذا الكمِّ الهائلِ من الأخطاء التي وقعَت من قبل الأجيالِ المُتعاقبة من النُّسَّاخ.

وربما تكمُن أصولُ هذه الظاهرة في تقليدِ نقل القرآن روايةً، على الرغم من أن الإملاء على مجموعة من الكتَبةِ كان عادةً شائعةً للغاية في العالم القديم. وأدَّى هذا النِّظام في العالم الإسلامي في القرون الوسطى -وبمجرَّد توفُّر المواد والنُّصوص اللازمة- إلى ظاهرةِ انفجار الكتب. وعلى النَّقيض من الوضع في العالم النَّصراني القروسطي، حيث قام مُصنِّفٌ واحدٍ بنَسخِ نُسخةٍ واحدةٍ من كتابه على مخطوطة من الرَّق على المنضدةِ أمامه، كان يسعُ نظيره في العالم الإسلامي أن يستخرجَ عشرات النُّسخ المدوَّنة على الورق في قراءةٍ واحدةٍ فحسب، وكل واحدة من تلك النُّسَخ المُجازة

يمكن أن تُولِّد عشرات النُّسخ الأخرى في جلسةِ قراءةٍ واحدةٍ أيضًا. وفي خلال جيلين من القِراءة، يمكن أن يتجاوز عدد النُّسخ المُجازة مئة نُسخةٍ من الكتاب نفسِه أو تزيد. وكان هذا النِّظام العبقري فعَّالًا على نحوٍ استثنائيٍّ في زيادة تداول الكتُبِ، بل إنه يشرح لنا كيف أمكن للمكتباتِ الإسلامية في القرون الوسطى أن تحتوي على عددٍ هائلٍ من الكتبِ في مُجتمعٍ لم يعرفِ الطباعة قط.

وأدَّى انفجار الكتب -إلى جانب زيادة الاهتمام بالتعلُّم من خلالها- إلى ظهورِ مهنٍ جديدةٍ؛ إذ ارتزق الناس من نَسْخِ الكتبِ تجاريًا في أسواق الورَّاقين، والتِّجارة في الورقِ أو الكُتب، أو التَّجليد وما يجري مجرى ذلك. كما أدَّى تكاثر الكتُب إلى إنشاءِ المكتبات العامة والخاصة على حدٍّ سواء؛ وذاك أنَّ المكتباتِ لم تكن مُقتصرةً على المدارس والمؤسَّسات التَّعليمية فحسب، بل انتشرت على نطاقٍ واسعٍ. فثم نسخة من مصحفٍ صغيرٍ، ولكن بولِغ في تذهيبِه وتزويقِه، وتتكون تلك النُّسخة من ثلاثين جزءًا، صُنِعت خصِّيصًا لخزانة قطب الدين محمد زنكي صاحب مدينة سنجار الصغيرة الواقعة شمال بلاد ما بين النَّهرين (٥٩٥- ٦١٦هـ/ ١١٩٨- ١٢١٩م)، وهناك أيضًا عددٌ كبيرٌ من الكتب التي وصلتنا من المخطوطاتِ المُصوَّرة في الوقت نفسه تقريبًا، صُنِعت خصِّيصًا لبني أُرتُق في مدينة ديار بكر المجاورة، ما يدل على وجودِ مكتبةٍ مُماثلةٍ هناك.

لقد تغَلغَلت الكتبُ والتَّعليمُ من خلال الكتبِ، في المُجتمع الإسلامي في القرون الوسطى حقًّا.

المجموعات والمكتبات

تستبعد المصادرُ الغربيَّة -بصفةٍ عامةٍ- الأرقامَ المهولةَ من الكتبِ التي قيل: إن المكتبات الإسلامية في القرون الوسطى قد اشتمَلت عليها بوصفها أمثلةً على «المبالغة الشرقية» (Oriental exaggeration)، على الرغم من أنها تقبل -في الآن نفسِه- الرِّوايات التي تقضي بأن مكتبةَ الإسكندرية القديمة اشتملت على عددٍ تراوح بين ١٠٠ ألف إلى ٧٠٠ ألف كتابٍ في وقتٍ ما.

وتتفق جميع المصادر على أن مكتباتِ العالم النَّصراني في القرون الوسطى كانت صغيرةً بصفةٍ عامَّةٍ. فقد اشتَملت مكتبة دير سانت غال (monastery of St. Gall) في

سويسرا على نحو ٤٠٠ مجلد في عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م. وكانت مكتبة دير بوبيو (monastery of Bobbio) في إيطاليا، في مُستهلِّ القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تحتفظُ بـ ٦٥٠ مجلدًا فحسب؛ وكان دير كلوني (monastery of Cluny) في فرنسا في أوائل عام ٤٠١هـ/ ١١١٠م، يشتملُ على نحو ٥٧٠ مجلدًا في مكتبتِه الرَّئيسةِ. وسرَد جَردٌ أُجرِي على مكتبة دير ميشيل أتاليتس (Michael Attaleiates) البيزنطي في عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، ٨ كتبٍ دُوِّنت على الورق و٦ دُوِّنت على الرَّق، فيكون مجموع الكتبِ في مكتبةِ الدَّير ١٤ كتابًا فحسب. وفي القرن الرابع عشر الميلادي كانت المكتبة البابوية في أفينيون (Avignon) تحتفظ بـ ٢٠٠٠ مجلد.

بل إنَّ الحال استمرَّ يجري على المنوال نفسه في أعقابِ اختراع المطبعة، فظلَّت الكتبُ نادرةً أيضًا فقد سجَّل جردٌ أُجري في دير كليرڤو الكبير (monastery of Clairvaux) في عام٩١٢ هـ/ ١٥٠٦م وجود ١٧٨٨ مخطوطة، وثلاثة كتب مطبوعة فحسب. وقيل: إنَّ أغنى مكتبة في أوروبا النَّصرانية كانت مكتبة السُّوربون (Sorbonne) في باريس. وبلَغ عدد الكتب التي تحتفظ بها، في عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م، ٣٣٨ كتابًا للاطلاع، مربوطة بالسَّلاسل إلى مناضد القراءة، و١٧٢٨ كتابًا للإعارة مُسجَّلة في سِجلَّاتها، منها ٣٠٠ كتاب وُصِفَت -في تلك السجلات- بأنها مفقودة. ولم تشتمل مكتبات الكليَّات الأوروبيَّة المُناظِرة الأخرى في هذه الفترة على أكثر من ٣٠٠ كتاب، مثَّلت أُمهات الكُتبِ في العقيدةِ والفلسفةِ.

في المقابل، انتشرت المكتبات الخاصة والعامة في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وباعت الدَّكاكين في سوق الورَّاقين في بغداد -الذي احتل شارعًا- الورق والكتب، كما كانت بمثابة مكتبات للأبحاث الخاصة كما نعرفها في الغربِ اليوم. واعتاد العالم الموسوعي الجاحظُ استئجارَ بعض دكاكين الورَّاقين ليومٍ واحدٍ لقراءة الكتبِ التي تحتفظ بها تلك الدكاكين في مخازنِها.

وكان الورَّاقون من أمثال أحمد بن أبي طاهر، وكان مؤدِّبًا وكاتبًا وتاجرَ ورقٍ، من أهل العلم. واستخدم أبو الفرج محمد بن إسحاق، المعروف أيضا باسم ابن أبي يعقوب النديم الورَّاق معرفته المهنيَّة الواسعة لتأليف كتابه المسمَّى **الفهرست**، وهو موسوعةٌ في أسماء الكتب والكُتَّاب المعاصرين. ولم يزل هذا الكتاب محتفظًا بأهميتِه بوصفِه مصدرًا

رئيسًا للمعلومات حول الكتابةِ وأسماء الكُتبِ والمُصنِّفين في القرون الوسطى.

وحدَّث اللُّغويُّ الأزهريُّ أن جدَّ اللغويِّ الأندلسيِّ أبي عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن هاني الأندلسي، كان لديه مكتبةٌ خاصةٌ كبيرةٌ، إلى حدٍّ أن ابن هانئ أفرَد لها دارًا مُستقلةً. واستضاف فيها طلابَه وأعطاهم الورق ليَنسخوا لأنفسِهم ما شاءوا من مجموعته الرَّائعة من الكُتب. فلما تُوفِّي بيعَت كتُبه بمبلغ ٤٠٠ ألف درهم، الأمر الذي يشير إلى أنَّ عددَ الكتب تراوح بين ٤٠٠: ٤٠٠٠ كتاب؛ إذ بلَغ سعر الكتاب العادي نحو ١٠ دراهم، فإذا كان قيِّمًا ربما تجاوز ثمنُه عشرة أضعاف هذا المبلغ.

وجُمِعت المجموعات العامة الأولى من الكُتبِ بإشراف الخلفاءِ من بني العباس؛ إما في عهد المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م)، وهو مؤسِّس بغداد، أو في عهدِ حفيدِه هارون الرَّشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م). وعلى الرغم من أن خُلفاء بني أُميَّة في السَّابق كانوا قد جمَعوا كتاباتٍ في فروع المعرفة الرئيسة، مثل: الحديث والشِّعر، إلا أنها لم تكن أكثر من مجرد مجموعات من الدَّفاتر والأوراق المُفردة المحفوظة في أغلفةٍ واقيةٍ أو في أوعية. وفي عصر الخلفاء العباسيِّين الأوائل، ومع زيادة نفوذ البَرامِكة، أضحت ترجمة الأعمال اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية نشاطًا مُنتظمًا للدَّولة، حيث اهتمَّ البرامكةُ بالأدبِ اهتمامَهم بالإدارةِ، فضلًا عن معرفةٍ واسعةٍ بحضارات الأمم الأخرى. وغنِم العباسيُّون مجموعاتٍ من المخطوطات المهمة في الانتصارات التي أحرزوها على البيزنطيِّين، ولا سيما في أنقرة (١٩١هـ/ ٨٠٦م) وعمورية (Amorium) (٢٢٣هـ/ ٨٣٨م).

وأرسَل الخليفةُ أبو جعفر المنصور إلى الإمبراطور البيزنطيِّ يطلبُ نُسخًا من كُتبِ إقليدس (Euclid) وبعض الكتب اليونانيَّة في العلوم الطبيعية. وغدَت مكتبةُ الخلفاء في بغداد مركزًا للأطباء والفلكيِّين؛ وعيَّن هارون الرشيد الفضل بن نَوبَخْت -وكان ابن المنجِّم الفارسي الذي عاون المنصورَ في تأسيس بغداد- خازنًا لمكتبته ومترجِمًا للكتب من الفارسية إلى العربية.

وبلغت مجموعاتُ كتبِ الخلافة ذروة تطورها لمَّا أنشأ الخليفة المأمون بن هارون الرشيد «بيتَ الحكمة» الذي كان بمثابة مؤسَّسة رسميَّة للترجمةِ في بغداد. وأُنشِئت

الـدّار والمكتبـة المرتبطـة بهـا، «خِزانـة الحكمة»، علـى غـرارِ الأكاديميةِ الفارسـيةِ التي ازدهرت في جُندَيْسـابور قبل الإسـلام، والتي كان النَّصراني جرجيس بن بَختَيشـوع (أو بُخْتَيشـوع) خازنًـا لها، وخدَمت ذرِّيته الخلفاء بوصفهم أطباءَ. وأرسـل الخليفةُ سـلمانَ الحرانـيَّ الصَّابـئ -خـازن بيـت الحكمـة، ومترجم كتب أرسـطو الـذي كان ملمًّـا أيضًا بالفارسـية الوسـطى- علـى رأسِ وفـدٍ من العلماء لشـراء مخطوطات من كتبِ الفلسـفة وسائر العلوم وجلبِها من القُسطنطينيَّة.

وفيما يُحاكي نظام استقطاب الكفاءات العلمية للمؤسَّسات العلمية (Academic star system) في أيامنا هذه، بذَل الخليفةُ المأمونُ وسـعَه في إقناع عالمِ الرياضيَّات البيزنطيِّ الموسـوعي المرمـوق ليـو الرِّياضي (Leo the Mathematician) -بعـد أن حدَّثه عنه أحد طلابه السَّابقين الذي كان قد وقَع أسر العرب، وعمل في بيت الحكمة- بتركِ القُسطنطينيَّة والهجـرة إلـى بغـدادَ، والعمل في بيـتِ الحكمة، ولكن دون جدوى. فلمَّـا أيس الخليفةُ منـه، طلَـب من الإمبراطـور ثيوفيلـوس (Theophilos) منـحَ عالـم الرياضيـات منصِبًا في القسطنطينية، ومن ثم عُيِّن ليو في الأخير مديرًا لمدرسةٍ فلسفيَّةٍ خاصةٍ تأسَّست نحو عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م.

وتُرجِمَـت النُّصوصُ العلميَّة اليونانيَّة بإشـرافِ المأمـونِ وتحت رعايته، بما في ذلك كتاب بطليموس المُسـمَّى **المَجِسْـطِي**، إلى اللغةِ العربيةِ، وكُتِبَت أقدمُ رسـالةٍ عربيةٍ عن الاسطرلاب في بلاطِه. ثم أُلحِقت المراصد الفلكية في بغداد والواقعة قرب تدمر (Pal-myra) ببيـت الحكمـةِ. وكُلِّف العلماءُ بوضع زيجات (جـداول فلكية جديدة) لتَصحيح قيم الزِّيجات التي وضَعها بطليموس الجُغرافي.

ويبـدو أن بيـتَ الحكمـةِ قـد دُمِّر خـلال ردَّةِ الفعـل الأُصوليَّة المُتشـدِّدة تحت حكمِ الخليفـة المتـوكِّل (خلافته: ٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م)، لكـن علي بن يحيى المنجِّم -وكان أديبًـا مُترسِّـلًا ونديمًـا للمُتوكِّل، وخليفته المُعتمِد- شـيَّد مكتبتَـه الخاصة، وفتح أبوابها للعلماء من كلِّ حدبٍ وصوبٍ. ثم أُنشـئت مكتباتٌ مماثلةٌ في الموصلِ والبصرةِ والـرَّي. وفـي القـرن الرابع الهجري/ العاشـر الميـلادي أضحَى البويهيُّـون -وهم أمراء شـيعةٌ كان أصلهم من الجند المرتزقة (*Condottieri*) من شمال فارس- «حُماةً» للخلفاء العباسيِّين، وشيَّد عددٌ كبيرٌ من أمراء بني بويه مكتباتِهم الخاصة.

وفي شيراز -عاصمةُ البويهيّين في فارس- رأى الجغرافيُّ المقدسي بعيني أمِّ رأسه مكتبةً عظيمةً أمر ببنائها الأمير البويهي عَضُدُ الدولة. وكانت في مبنى كبيرٍ قائم بذاتِه، تتكون من قاعةٍ طويلةٍ معقودةٍ من ثلاث جهات، وفي كل قاعةٍ منها عددًا من الغرفِ. ووفقًا لأحدِ أعيانِ المدينة، الذي اصطحب الجغرافيَّ في جولةٍ هناك، ضمَّت تلك القاعات ٣٦٠ غرفة، «واحدة لكلِّ يوم من أيام السَّنة». واحتوت القاعةُ الرَّئيسةُ والغُرف الجانبيَّة على خزائنَ خشبيةٍ للكتبِ منحوتةٍ بأبواب؛ ووضِعت الكتبُ على الأرفف، الكتابَ فوق الآخر.

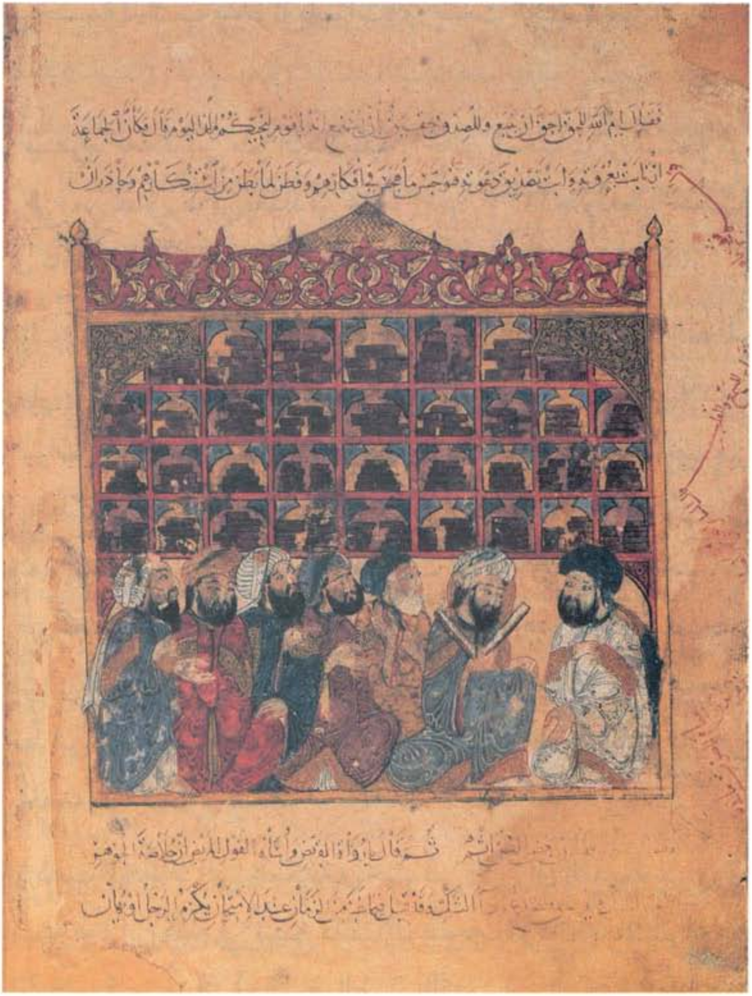
وصوَّر يحيى الواسِطي -بعد قرنين من الزمان تَليا- إحدى المكتبات في نُسخةٍ من **مقامات الحريري** التي فرَغ من تصويرها في بغداد في عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، وتُعطينا مُنمنمتُه فكرةً عن الشَّكل الذي كانت المكتبة العربية القُروسطيَّة تبدو عليه (انظر: شكل ٤٨).

ولم تجمَع المكتباتُ الكُتبَ فحسب؛ بل دُوِّنت الكتُبُ فيها أيضًا؛ إذ قام بهاءُ الدَّولة، صاحب شيراز البُويهي في أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بتعيين الخطَّاط ابن البواب ليكون خازنًا لمكتبتِه. وهناك عثَر الخطَّاطُ على مصحفٍ من تسعة وعشرين جزءًا بخط ابن مُقْلَةَ العظيم، وذهبت جهودُه أدراجَ الرِّياح في العثور على الجزء الثَّلاثين، المُتمم لهذا المصحفِ النَّفيس، بعد بحثٍ طويلٍ ودقيقٍ في محتويات المكتبة. فلمَّا أيِس من العثورِ عليه عاتَب ابن البواب الأميرَ على إهمال هذا المصحف النَّفيسِ، حتى آل الأمرُ إلى ضياع جزءٍ منه. فطلَب الأمير من ابن البواب أن يخطَّ المجلَّد المفقود بخطٍّ يُشبِه خطَّ ابن مُقلَةَ، ومنَّاه الأميرُ إن هو أخفَق في تمييزِ الجزء الذي كان ابن البواب يعتزمُ كتابته بخطِّه، بمئة دينار وخِلعَةٍ.

وعلى هذا النَّحو ذهَب الخطَّاط إلى المكتبةِ وبحثَ في الأوراقِ القديمةِ عن ورقٍ يُشبه الورقَ الذي استخدمه ابن مُقلَة في نَسخ ذلك المصحف، وكان هناك أنواع من الورقِ الفاخرِ سواءً من ورقِ سمرقند أو الورق الصِّيني القديم في المكتبة. وعند هذا الحدِّ فلنَدع ابنَ البواب يُكملُ قصَّته مع مُصحفِ ابن مُقلَة النَّفيس بلِسانه، قال ابن البوَّابُ:

«فأخَذتُ من الكاغِد ما وافقني، وكتَبتُ الجزءَ وذهَّبتُه، وعتَّقتُ ذهبَه وقلَعتُ

جلـدًا مـن جُزءٍ من الأجزاء فجلَّدته بـه، وجلَّدت الذي قَلعتُ منه الجلد وعتَّقته. ونَسِـي بهاءُ الدولة المُصحفَ، ومضَى على ذلك نحو السَّـنة. فلمَّا كان ذات يوم جرَى ذكر أبي علي ابن مُقلةَ فقال لي: ما كَتَبْتَ ذلك؟ قلت بلى، قال: فأعطِنِيه. فأحضـرت المُصحـفَ كاملًا فلم يزل يقلِّبه جزءًا جـزءًا وهو لا يقفُ على الجزءِ



شـكل (٤٨): مكتبـةٌ عربيـةٌ من القرون الوسـطى كمـا صوَّرها يحيى الواسـطي في نسخة مقامات الحريري. نسَخها الواسطيُّ وصوَّرها في بغداد عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م. أحبارٌ وأصباغٌ مُعتمةٌ على ورقٍ. ٥, ١٤× ١١ بوصة (٣٧×٢٨سـم).(Bibliothèque Nationale de France Paris) [Ms, Arabe 5847].

الـذي بخطِّـي، ثم قال لي: أيّما هو الجزء الذي بخطِّك؟ قلت له: لما لا تعرفه[1] فيفتُر في عينِك، هذا مُصحفٌ كاملٍ بخطِّ أبي علي ابن مُقلة، ونكتُم سِـرَّنا. قال: أفعلُ، وتركه في رَبعةٍ عند رأسِه ولَم يُعِدْه إلى الخزانة».

ومـع ذلك ماطَل بهـاءُ الدولة في الوفاء بوعده لابن البـوَّاب، فكان أن طلَب الخطَّاط إذنَ الأمير أن يأخـذ لنفسـه الورقَ الصينيَّ المحفـوظَ في المكتبة عوضًا عـن المئة دينار والخِلعة، فأذِن له، وكتَب عليه الخطَّاط لسنواتٍ على حدِّ تعبيرِه.

ولعلَّ أهم مكتبة عباسـية هي المكتبة التي شـيَّدها الفارسـي سـابور بن أردشير، وزير بهاء الدَّولة في بغداد عام ٣٥٠هـ/ ٩٩١م. واشتُهِرت بين أهلِ بغدادَ باسم «دار العلم» أو «دار الكتب»، واحتوت على أكثر من عشرة آلاف مُجلَّدٍ كُتِبَت في مختلف مناحي العلم ومجالاتـه. وعُيِّـن نفرٌ من العلمـاء البارزين خزنةً لهذه المكتبة على مدى ستَّةِ عقودٍ من إنشـائها، وأفاد من كتُبِها جماعةٌ غفيرةٌ مـن الطلاب والعلماء، بل وأضافوا إلى ذخائرها. إلا أنَّهـا احترقـت إبان دخول السـلَّاجقةِ بغداد في عام ٤٤٧هــ/ ١٠٥٥ - ١٠٥٦م، ولم ينجُ من ألسنةِ اللهبِ سوى عددٍ قليلٍ من كتُبِها فحسب.

وكانـت المكتبـاتُ العباسـيَّةُ نماذجَ للمكتبات فـي البقاع الواقعة علـى أطراف العالم الإسـلامي، حتى عندما أظهر حكَّام تلك البقاع العداءَ للخُلفاء العباسـيِّين في بغداد. فقد أنشأ الخليفة الأموي الثاني في الأندلس، الحَكَم المُستنصِر (خلافته ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م) -وهـو الخليفةُ الأُموي الذي ذبَح العبَّاسـيون أجـدادَه- مكتبةً ضخمةً في قُرطبةَ على غرار المكتبات العظيمة في بغدادَ. وكان اقتناءُ الكتبِ همَّ الحَكم وشُـغله الشَّـاغل، ويبدو لنا أنه كان عالمًا عظيمًا ومُحبًّا للكتبِ أكثر من كونه قائدًا سياسـيًّا وحاكمًا. وتميَّز عهد ابنه عبد الرحمن الثَّالث الطويل بازدهار قرطبةَ بوصفها مركزًا ثقافيًّا. ودرَس الحَكم على يد أفضل العُلماء في عصره، وبدأ في قراءة الكتب وجمعها في سِـنيِّ مراهقتِه، قبل فتـرةٍ طويلـةٍ من تولِّيـه الحكم وقد بلغ السَّادسـة والأربعين من عُمره، وهي سـنٌّ متقدِّمة نسـبيًّا. وكانت مكتبةُ الحكَمِ محورًا لمجموعةٍ كاملةٍ من الأنشـطة الثَّقافية التي سـاعدت على إرساءِ أسس انفجار كُتب الأدبِ في الأندلس خلال قرنٍ وربع القرنِ من وفاته.

---

(١) كذا في معجم البلدان لياقوت الحموي، (نشرة إحسان عباس، ٥: ١٩٩٨)، ويقتضي السِّياق أن تكون: «لمَ تعرِفه فيَفتُر في عينِك؟» على الاستفهام تنبيهًا على العاقبةِ. (المترجم)

وقيل: إنَّ مكتبة الحكَم احتوت على ٤٠٠ ألف كتاب. كما قيل: إنَّ فهرست العناوين وحده قد ملأ أربعة وأربعين مجلدًا، احتوى كل منها على عشرين ورقة. ولما كان يستعصي على التصوُّر أن تكون كل صفحةٍ قد احتوت على ٢٢٧ عنوانٍ، فإنني أظُنُّ أن الأرقامَ الفعليَّة أقل من هذا الرَّقم إلى حدٍّ ما. ومع ذلك، حتى لو قدَّرنا عدد الكتب بعُشرِ هذا الرقم، فإن الرَّقم المُتولِّد سيكون أكبر بمقدار خمسين ضعفًا -أو ربما أكثر- من أي مكتبةٍ مُعاصرةٍ في أوروبًا النصرانيَّة.

وأعارت مكتبةُ قرطبةَ الكتبَ لمن يطلبها، ويبدو أنَّ الغرباء قد استطاعوا استعارةَ الكتبِ منها أيضًا. ووظَّف خزنةُ المكتباتِ المُترجمين من اللغات المختلفة إلى العربية، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من النُّسَّاخ، إضافة إلى الورَّاقين الذين قابلوا النُّسَخَ على الأصولِ للتحقق من دقَّةِ النقلِ. فلما استولى المنصور [ابن أبي عامرٍ] على السُّلطة، أمَر بإحراق الكتبِ في الفلسفةِ والعقيدة التي عدَّها -هو ورفاقه- زندقةً، ثم تفرَّق ما تبقَّى من هذه المكتبة شعاعًا.

وأنشَأ الفاطميُّون -الذين عارضوا العباسيِّين أيضًا- في مصرَ، عددًا كبيرًا من المؤسَّسات التَّعليمية الكُبرى في القاهرة على غرارِ تلك التي أنشئت في بغداد. وكما بدا لنا أن عددَ الكتب في مكتبة الحكَم المُستنصِر في قُرطبة تقديرٌ مبالَغٌ فيه، يبدو أن أعداد الكتبِ في المكتباتِ الفاطميَّة لا تكاد تُصدَّق البتَّة. ومع ذلك، حتى لو كانت هذه المكتبات لم تحتفظ إلا بجزءٍ بسيطٍ من الكتبِ التي ادَّعت الروايات أنها اشتملت عليها، فإن تلك المجموعات لم تزل مثيرةً للإعجاب.

وتبدو بعض التَّقديرات معقولةً للغايةِ، فعلى سبيل المثال، قيل: إنَّه في عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣-٩٩٤م جمَع الخليفةُ العزيزُ بالله ٣٠ نسخة من مُعجم الخليل بن أحمد المسمى **كتاب العين**، وفيها نسخة أمٌّ كُتِبَت بخطِّ الخليل نفسه. فضلًا عن عشرين نُسخةٍ من كتاب **تاريخ الرسل والملوك** للطبري مُتعدِّد الأجزاء، بما في ذلك نسخة أمٌّ كُتِبَت بخطِّ الطبري. إضافة إلى مئة نُسخةٍ من **جمهرة ابن دُريد**. ونظرًا للطَّريقةِ التي نُسِخَت بها المخطوطات العربية وتكاثرت، فإنَّ هذه الأرقام ليست بعيدةً عن التصورِ كما قد تبدو في أعْيُنِ بعض الناس.

وصانَ الخلفاءُ الفاطميُّون «دار العلم»، التي كانت تُعرَف أحيانًا باسم «دار الحكمة» في قصرِهم بالقاهرة، والتي كانت تشتَمِلُ على مكتبةٍ وقاعةٍ للمطالعةِ، وكانت بمثابة مكان اجتماع المُحدِّثين والفُقهاء والنَّحويِّين والأطباء والفَلكيِّين والرياضيِّين. وحفِظ لنا المؤرِّخ المقريزي الميزانيَّةَ السنويَّةَ المقرَّرة لتلك المكتبة في عهد الخليفةِ الحاكم بأمر الله (خلافته: ٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م)، إذ بلَغ إجمالي المبلغ المخصَّص لها ٢٠٧ دينار، وبلَغ أكبر مُفردات المُنصَرفِ من تلك الميزانيَّة مبلغ ٩٠ دينارًا كانت مُخصَّصةً لشراء الورقِ للنُّسَّاخ. والْحَظْ هنا أنَّ الحدَّ الأدنى لنفقةِ أسرةٍ من الطبقة الوسطَى لعامٍ كاملٍ بلغ ٢٤ دينارًا في السنة. ثم يليه في التَّرتيب مبلغ ٤٨ دينارًا، كانت راتبَ خازن الكتبِ، ثم ١٥ دينارًا خُصِّصت لأجورِ الخدم، ثم ١٥ دينارًا خُصِّصَت لصاحبِ الورق والحبرِ والأقلام وأجر من يُصلِح الكتبِ. ثم ١٠ دنانير لإصلاح الحُصر وجلب مياه الشُّربِ؛ و٥ دنانير لإصلاح لَبود الفُرش لفصلِ الشِّتاء، و٤ دنانير للطَّنافس[1] والبطاطين؛ ودينارٌ واحدٌ خُصِّص لإصلاح السَّتائر. ولما فُهرِسَت المكتبة في عام ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م، قيل: إنَّ الفهرس دوِّن على خمسةٍ وستين ومائة مجلَّد في مختلف العلوم والفنون، وهو رقمٌ لا يكاد يُصدَّق.

ونهَب الجنودُ الجياعُ القصرَ الفاطميَّ على مدارِ عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٨-١٠٦٩م، فاستولوا لأنفسِهم على ما اعتقدوا أن بوسعهم بيعَه للحصول على المال أو الطَّعام. وتكاد تأخذ الرِّوايات عن الذَّخائر الرَّائعة التي استولى عليها الجنود بلبِّ المرءِ حقًّا؛ فقد خرج من خزانةٍ واحدة ١٨ ألف مجلدٍ في «علوم القدماء»، واحتوت خِزانةٌ أخرى على ٢٤٠٠ مُصحفٍ كُتِبَت جميعها بـ «الخطوطِ المنسوبةِ»، أي من نوع الخطوط التي كان ابن مُقلَة قد طوَّرها. ورأى شاهدُ عيانٍ بعيني أمِّ رأسِه خمسةً وعشرين بعيرًا مُحمَّلةً بالكتبِ، وقدَّر قيمة تلك القافلة بـ ١٠٠ ألف دينارٍ، وتوجَّهت تلك القافلة إلى منزل الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المُعز المغربي، الذي أخذها عِوضًا عن مبلغ خمسة آلاف دينار كانت راتبًا له ولم يتقاضَه. وبعد شهرٍ نُهِبَت الكتبُ نفسُها من منزل الوزير وتفرَّقت كتبُها في الناس.

---

(١) الطنافس جمع طُنْفُسَة، وهي البُساط. (المترجم)

وتـرَك الوزيـرُ الفاطمـيُّ القـويُّ الأفضـل [ابـن بـدر الجَمالـي] عنـد وفاتـه فـي عـام ٥١٥هـ/ ١١٢١م مكتبـةً ضَمَّت نصفَ مليون كتاب. ونقَلها الخليفـة الآمر إلى القصر ثم خرَج أكثرها للعوام. وذكَر المؤرخ الفاطمي ابن الطُّوير[١] أن المكتبةَ احتوت على أكثر من ٢٠٠ ألف مجلد في الفقه والحديث والعقيدة والنحو والمعاني والتاريخ والتراجم والفلك والكيميـاء. ووفقًـا للمؤرخ ابن أبي طيِّء[٢]، لمَّا أسـقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية في عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م كانت مكتبةُ الخليفة تحتوي على ١٢٠٠ نُسـخةٍ من **تاريخ الطبري**، إضافة إلى ما يقدر بنحو ٦, ١ مليون نُسخةٍ أخرى من الكتب التي أمَر صلاح الدين ببيعها الكتـابَ تلـو الآخر. وفي تأكيد واضحٍ علـى هذه الأرقام المذهلة، ادَّعـى ابن أبي طيِّء أن إجمالي عدد الكتب التي نُقِلت إلى المدرسة السُّنية الجديدة التي أنشأها القاضي الفاضل بلـغ ١٠٠ ألـف كتابٍ، ثم عرَض ما تبقَّى من الكتب للبيع، فما نفدت الكتبُ إلا بعد مرورِ عَقدٍ كامل من الزمن. وكما وصلتنا مخطوطةٌ واحدةٌ فقط من مكتبة الحكَم المُستنصِر في الأندلس، فقد وصلتنا مخطوطتان فحسب من مقتنيات المكتبات الفاطمية المذهلة.

ثقافة التَّدوين

مثَّلت الفترةُ بين ظهور الإسـلام في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي واجتياح المغـول لغرب آسيا في القرن السَّـابع الهجري/ الثالث عشـر الميـلادي العصر الذَّهبي للحضارة الإسـلامية. وتطورت الثقافة خلال تلك الفترة من الرِّواية الشـفويَّة إلى النصِّ المكتوب إلى حدٍّ كبيرٍ، وهو تغييرٌ بالغُ الأهمية. ولعِبت الكتابةُ دورًا حاسمًا وواسعًا في جوانـب الحيـاة كافـةً. وعلى الرغم مـن أن الباحثين قتلوا أسـباب هذا التَّغييـر بحثًا، فأنا أعتقد أن زيادةَ توافر الورقِ وشيوع استخدامه كان بمثابة المُحفِّز لذلك التغيير.

(١) ابـن الطُّوَيـر: أبو محمد عبد السـلام بن الحسـن بن عبد السَّـلام بن أحمـد القاضي المعروف بابـن الطُّوير القَيسـراني (المتوفَّـى ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، خدَم في دواوين الفاطميِّيـن ثم في دواوين الأيوبيِّين من بعدهم، وهو صاحبُ الكتاب المسـمى **نُزهة المُقلتين في أخبار الدولتين**. وهو في عداد المفقود، إلَّا أن أيمن فؤاد سيد أعاد بناء هذا الكتاب من خلال المصادر التي نقلت منه أخبارًا تفاوتت في طولها. (المترجم)

(٢) يحيـى بـن أبي طـيء بن حميد النجـار بن ظافر بن علي بن النجـار (المتوفى ٦٣٠هـ/ ١٢٢٠م)، مصنفٌ ومؤرخٌ، نفقه على مذهب الشيعة الإماميَّة، وكسب عيشه بالنَّسخ، واتهمه العلماءُ بانتحال الكتب. ومن أبرز مؤلفاته في التاريخ: **مختار تاريخ العرب**، و**عقود الجواهر في سـيرة الملك**، المعروف بالسِّيرة الصَّلاحيَّة، و**كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين**، و**معادن الذهب في تاريخ حلب**، وغيرها. (المترجم)

وكان التحول من ثقافةِ الرِّواية الشفوية إلى ثقافة الكتابةِ، في تاريخ الحضارة الإنسانية، تحولًا مهمًّا نتَج عنه ازدهار الحضارةِ الإسلاميَّةِ في القرون الوسطى، كما حظِي التحوُّلُ من ثقافةِ الكتابِ المخطوطِ إلى ثقافةِ الكتابِ المطبوعِ في أوروبَّا، والذي تميَّز باختراع المطبعةِ من طرازِ الأحرفِ المُتحرِّكة، باهتمام أكبر من المؤرِّخين، قياسًا بالتحوُّلِ من الثَّقافة الشفويَّةِ إلى ثقافةِ الكتابةِ. بيد أن التحوُّل المبكِّر، الذي تَميَّز بمعرفةِ العالم الإسلامي بالورقِ وبصناعتِه قد يكون على القَدرِ نفسِه من الأهمية.

ويختلف تذكُّر المعلومةِ اختلافًا أساسيًّا عن الإحالةِ إلى سجلٍّ مكتوبٍ، سواء كان مخطوطًا أو مطبوعًا. وعندما تغَلغَلت الكتابةُ في أوساطِ المجتمع، أفسَح الحفظُ المجالَ للنُّصوصِ المادِّيةِ التي كان يمكن الإشارة إليها على نحوٍ مستقلٍّ عن الرُّواةِ من آحاد النَّاسِ، بوصفِها أداةً للحفاظِ على الرِّواياتِ.

ولم تكن التَّغييرات في الذِّهنيَّات النَّاجمة عن التعامل مع النُّصوصِ المكتوبةِ نتيجةً للاختلافات الكامنة بين القدرات العقليَّة للأشخاص الذين اعتمدوا على الرِّواية عن أولئك المُتعلِّمين؛ بل كانت نابعةً من تغييرٍ أساسيٍّ في الأدواتِ المُتاحةِ لكلٍّ منهم. فكانت التَّمثيلاتُ الرُّسومية والتَّرميز للكلامِ أداتَين شجَّعَتا على التفكيرِ في ماهية المعلومات وكيفية تنظيمِها؛ كما غيَّرت طبيعة تمثيلاتِ العالم، حتى في أذهانِ الأمِّيين.

ومثلما كان الحصولُ على المعلومة أيسر في النصِّ المُنسَّق على هيئة الكتاب (codex) مقارنةً بالوصول إليها في النص المكتوب على هيئةِ اللِفافةِ، فغالبًا ما كان الوصول إلى المعلومات المُسجَّلة كتابةً أيسَر من استدعائها من الذَّاكرة، ولا سيما عندما يكون تسلسُلِ العناصر أو دقتها أمرًا أساسيًّا، أكثر من محتواها العام. فإن أراد المرءُ تذكُّر مقطعٍ من الموسيقى، أو تسلسُل بعض أبياتِ الشِّعر، ربما كان يتعيَّن عليه -في أغلب الأحيان- أن يتذكَّر اللَّحنَ كله، أو القصيدة من بدايتها إلى أن يصلَ إلى بُغيَته. ويختلف الحال متى تصفَّح المرءُ نصًّا مكتوبًا، بغضِّ النظر عن هيئتِه، فتجري العمليَّة على نحوٍ أسرع كثيرًا، وعادةً ما تكون أكثر مصداقيَّة قياسًا باعتمادِ المرء على محفوظِه.

ولم يتحقَّق التحوُّلُ من الاعتماد على الذَّاكرة إلى الاعتمادِ المُماثِلِ على السجلِّ المكتوبِ في الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى على نحوٍ كاملٍ في الواقع، في

بعـض المناطـق وفي بعض مجالاتِ المعرفةِ، مثـل حفظ القرآن وتلاوته، لم يزل الحفظُ هو المُعوَّل عليه إلى يوم الناس هذا.

ويبدو لنا -مع ذلك- أن ثمَّة نقطة تحول قد تجاوزها العالم الإسلامي بحلول القرنِ السَّادس الهجري/ الثاني عشـر الميلادي، عندمـا أتاحَ توفر الورق بكميـاتٍ كبيرةٍ تغيير الأنمـاطِ المبكرة للعَنْعَنةِ والرِّواية؛ حيث زاد اسـتخدام مجموعةٍ من المُتونِ الإسـلامية، والتـي أعلـن المدرِّسـون فـي مؤسسـاتٍ تعليميَّـةٍ جديدةٍ كانـت ترعاهـا الدَّولـةُ[1]، أنها سِـجلَّات موثوقـة. وكان للتحـوُّلِ المصيريِّ من الحفـظِ إلى الكلمة المكتوبـة تداعياتٌ أُخَـر؛ لأنـه كان بوسـع النَّـاس اسـتخدام الورقِ والمِـدادِ فيما هـو أبعد من مجـرد تمثيل الـكلام؛ فـكان لهمـا إسـهاماتٌ مهمةٌ في مجـالاتِ أخرى مـن المعارفِ الإنسـانيةِ، مثل الرياضيَّات والجُغرافيا فَضلًا عن التِّجارةِ والفنونِ.

(١) الإيماءةُ إلى الفقهاءِ ومدارس الفقه السُّنِّية. (المُترجم)

الفصل الرابع



الفصل الرابع
الورق ونُظم التدوين

«وقالوا: الحسابُ الهنديُّ أَخْرَجَ لكثيرِ العددِ، إلا أنَّ الكُتَّاب اجتَنَبوه لأنَّ له آلةً، ورأوا أن ما قلَّت آلتُه، وانفرد الإنسانُ فيه بآلةٍ من جِسمِه، كان أَذْهَبَ في السِّرِّ، وألْيَقَ بشأنِ الرِّياسةِ».

الصُّولي، أدب الكُتَّاب.

لم يتزامن انتشار الورقِ في بغدادَ -عاصمة الخلافة العبَّاسية- في أواخر القرن الثَّاني وأوائل القرن الثالث الهجريين/ الثَّامن والتَّاسع الميلاديين، مع الإنتاج الأدبي على نطاقٍ واسعٍ في عددٍ كبيرٍ من الموضوعات، والزِّيادة العظيمة في أعدادِ الكتبِ فحسب، بل تزامنَ أيضًا مع تطوَّر عددٍ كبيرٍ من أنظمة التَّدوين. ولم تكن محاولة إنشاء نظائر بيانيَّة للأنشطةِ البشريةِ -في حدِّ ذاتها- شيئًا جديدًا في تاريخ البشرِ، إلا أن معرفةَ العالم الإسلامي بالورقِ وشيوع استخدامِه، أتاح إمكاناتٍ جديدةً للتوسُّع في تطبيقِ أنظمةِ التَّدوين القديمة، وتطوير أنظمةٍ جديدةٍ بالكليَّة.

انتشرت بعضُ أنظمة التَّدوين، ولا سيَّما في الرياضيَّات والتجارة والجغرافيا، على نطاقٍ واسع، في حين كان بعضها الآخر -مثل تدوين كتب الطَّبيخ والموسيقى- من باب الفضول التَّاريخي. واعترف العلماءُ المُحدَثون بمعظمِ هذه الإنجازات -فُرادى كلٌّ على حدة- بوصفها من الإنجازاتِ الرئيسةِ في الحياةِ الفكريَّةِ في العصر العبَّاسي. لكن هذه الإنجازات لم تقَع اتفاقًا، بل ارتبطَت بمعرفة المسلمين بالورق: لقد كانت هذه الإنجازاتُ نتاجًا للفضولِ الفكريِّ المُتزايدِ، الذي تعزَّز بزيادةِ الإقبالِ على التَّعليمِ، الذي أصبَح -بدورِه- مُمكنًا بفضل الانتشارِ الواسعِ للكتب، وأخيرًا، بالمحاولات التي سعَت لاستغلالِ التَّطبيقات المُحتملةِ للورقِ.

ليت شعري، لمَ تطورت أنظمةُ التَّدوين بهذه الكيفية؟ في اعتقادي أنه كان هناك عددٌ كبيرٌ من الدَّوافع، فالتَّدوين عاملٌ مساعدٌ للحفظِ، كما أنه يعمل على توسيع سُبلِ التواصل مع الآخرين، ما يسمحُ لشخصٍ ما بكتابةِ رسالةٍ وإرسالها إلى مكانٍ آخر، بل وإلى جيلٍ آخر. كما أن التَّدوين يسمح بالوصولِ إلى مخزونٍ من الأفكار أكبر بكثيرٍ مما يمكن لأي شخصٍ الاحتفاظ به في ذاكرته. كما عمِل -في الوقت نفسه- على توفير إطارٍ للارتجال لمَّا سمَح بتصوُّرِ العلاقات بين الأجزاء بطرقٍ جديدةٍ كليًّا. وفي الأساس، مكَّن التَّدوين من وضع المفاهيم على مستوى من التطورِ يكاد يكون مُستحيلًا في تقليدٍ قائمٍ على الحفظِ وحده.

الرياضيَّات

قد يبحثُ المرءُ -على نحو غريزيٍّ- عن قلمِ رصاصٍ وورقةٍ كلَّما واجه مُعضلةً رياضيةً في أيامنا هذه، ولكن في عصر صدر الإسلام -كما في العصور الأقدمِ أيضًا- أجرى النَّاسُ حساباتهم ذِهنيًّا. فإذا وصلَت الأرقامُ إلى حدودٍ كبيرةٍ، أو تعقَّدت الحسابات إلى حدٍّ كبير بحيث لم يعُدْ من الممكن الاعتماد على الحفظِ والذَّاكرة، كان يسَع الحاسبين تدوين حساباتِهم على حواملَ وسيطةٍ وبوسائلَ مختلفةٍ. فكان يسعهم تمثيل الأرقامِ باستخدام العدَّادات، أو عن طريق وضع الأصابع، أو باستخدام العدَّاد، أو لوح الغبار (dustboard). وأيًّا كانت وسيلةُ الحسابِ المُستعملةِ، فما أن اختُرِعَت الكتابةُ إلا وأضحَى بوسع النَّاس كتابةُ النتائج بالكلمات، فكتبوا «خمسة»، ثم بُعيدَ ذلك عبَّروا عن العددِ بالأرقام (V أو ٥) على سبيل المثالِ.

ويبدو أنَّ استخدام العدَّادات -سواءً كانت شقوقًا على عصًى، أو حصًى في كومةٍ، أو ما يجري مجرى ذلك- كان ظاهرةً قديمةً قِدَم العَدِّ نفسه؛ فقد اكتشَف علماءُ الآثار عظامًا وعِصيًّا، يزيد عُمر بعضها عن ٢٠ ألف عام، وعليها شقوقٌ عدَّها أولئك العلماء أقدم تمثيلاتٍ معروفةٍ للأرقام. كما عثَروا أيضًا على ألواحٍ صغيرةٍ من الطِّين تحمل علاماتٍ بالقلم المِسماريِّ وأختام في عددٍ كبيرٍ من المواقع الأثرية في الشَّرق الأوسط. ويعود تاريخ هذه الموادِّ إلى عام ٨٠٠٠ ق.م، وربما كانت هذه الأشياء هي العدَّادات البسيطة التي استخدمها المزارعون والرُّعاة الأوائل لحساب محاصيلِهم وأعداد الماشيةِ في قُطعانِهم.

كما استخدم القُدماء الحَصَى في حفظِ السجلات الرَّقمية لآلاف السِّنين؛ حتى إنَّ الكلمة الإنجليزية (Calculate) مُشتقةٌ من الكلمة اللاتينيَّة (Calculus)، وتعني الحصَى المستخدم في الحساب. كما كان العربُ في الجاهليَّة يحسبون بالحصَى. ومنها اشتُقَّ الفعل العربي «أحصَى»[1].

واستَخدم سُكَّان بلاد ما بين النَّهرين القدماء عددًا كبيرًا من أنظمةِ العدِّ المختلفةِ خلال عصر ما قبل اختراع الكتابة (*Protoliterate*)، إلا أنهم استخدموا نظامَ الكتابة المِسماريَّة للتعبير عن نظام الأرقام السِّتِّيني (المَقام ٦٠)، وهو تقليدٌ رياضيٌّ ما يزال مُستخدمًا حتى يومنا هذا في تقسيمِنا للدائرة إلى ٣٦٠ درجة. وفي المقابل، استخدم المصريون القدماء النِّظام العشري (المَقام ١٠)، والذي عبَّروا عنه بالهيروغليفيَّة. كما استخدم اليونانيُّون القدماء أيضًا نظامًا عشريًّا، مثَّلوه في البدايةِ بنظامٍ رُمِزَ فيه إلى العدد بالحرف الأول من الكلمة التي تُمثِّله (*Acrophonic system*). بمعنى أنهم استخدموا الحرفَ الأوَّلَ من الكلمات: pente (Γ)، deka (Δ)، hekaton (H)، khilioi (X)، myrioi (M) لتمثيل الأعداد (٥-١٠- ١٠٠- ١٠٠٠- ١٠٠٠٠) على التَّرتيب. ثم ما لبثوا أن طوَّروا نظامًا أبجديًّا أسهلَ، أعطَوا فيه قيمةً رقميَّةً لكل حرفٍ من أحرفِ الأبجدية، المُقابلة لسلاسلِ الأرقام الثَّلاث: الآحاد، العشرات، والمئات (I = ١، II = ٢، III= ٣... إلخ)؛ (Δ= ١٠، ΔΔ= ٢٠، ΔΔΔ = ٣٠... إلخ)؛ (H= ١٠٠، HH= ٢٠٠، HHH= ٣٠٠ ... إلخ).

وبدأت بعضُ الشُّعوبِ باتِّباع المثالِ اليوناني، باستخدام أبجديَّاتهم، مثل العِبريَّة والقوطيَّة والجورجيَّة والسُّريانيَّة بل والعربيَّة أيضًا، فاستخدموا أحرفَ الهجاء بوصفِها أرقامًا. ويُعرف النظام المُكافئ لاستخدام أحرف الأبجدية العربية بنظام «أبْجَد»، وهي سلسلةٌ من الكلمات التي اخترعوها لتُساعد الذَّاكرة على تذكُّرِ قيمةِ الحرف العددية: «أبجد هوز حطي كلمن... إلخ»، والتي تُذكِّر الحاسِبُ بأن الحرف «أ» يرمز إلى رقم ١، وأن الحرف «ب» يرمز إلى رقم ٢، وأن الحرف «جـ» يرمز إلى رقم ٣، وأن الحرف «د» إلى رقم ٤ ... إلخ. ومع ذلك خلَق هذا النظامُ عددًا كبيرًا من المُشكلات؛ وذاك لأن عددًا كبيرًا من الأحرفِ العربيَّةِ كانت تشترك في الشَّكلِ نفسِه ولا تتميَّز عن بعضِها إلا

---

(١) كذا في الأصل الإنجليزي«Ihsa» فكأنَّ المؤلف أرادَ المصدرَ لا الفعل. (المترجم)

بالنِّقـاط، والتـي غالبًا ما كانت تُحذَف عنـد الكتابة. وعلى هذا النحو، فإنَّ الحروف جـ- حـ- خـ (التي تمثل في نظام أبجد ٣- ٨- ٧٠٠[1]) تشـترك جميعها في الشَّـكلِ نفسـه، علـى الرغـم من تمييز الحرفَيْن؛ الأول بنقطةٍ من أسـفل، والأخير بنقطـةٍ من أعلى، بينما يخلو الحرف الأوسط من النِّقاط تمامًا.

وسَـرعان مـا تخلَّـى العربُ عـن هذا النِّظـام، وفضَّلـوا أنظمةً أخرى للحسـابِ كانت مُتاحـةً للاسـتخدام آنذاك، ولكن ظلَّ نظام «أبجد» شـائعًا لأغـراضٍ بعينها، مثل: صناعة الآلات العِلميَّة، كالإسطرلاب، وترقيم الآيات في المصاحف، والتَّنجيم وكتابة التَّمائم، وحسـاب الجُمَّـل، حيث يُعطي مجموعُ قيم الأحرُفِ في كلمـةٍ أو جملةٍ ما تاريخ حدثٍ مـا. واستمر نظـام أبجد قائمًا حتى عصرنـا الحديث، حيث ما زلنا نـرى بعض المؤلِّفين العربَ يسـتخدمون أرقـام «أبجد» أحيانًا لترقيم صفحاتِ المقدِّمـة والتَّصدير في كتُبِهم، بالكيفيَّة نفسِـها التي يسـتخدم بها المُنضِّدون الأمريكيُّون والأوروبيُّون الأرقامَ الرُّومانية للغرضِ نفسِه.

وربمـا كان النِّظامُ الرُّوماني لتَمثيلِ الأرقام هو أكثر أنظمةِ الحسـابِ القديمةِ شـيوعًا، حيـث جمَـع بين ميزاتِ عـدة أنظمةٍ معًا؛ فالأرقـام I-V-X (التي تمثِّـل ١-٥-١٠ على الترتيـب) ليسـت أحرُفًـا هجائيـةً، ولكنهـا رمـوزٌ اشـتقَّت مـن العـدِّ باسـتخدام الأصابع والأيـدي. ووُضِعَـت القِيَـمُ الأعلـى عـن طريـق إضافـة الأرقـام علـى نسَـق العـدَّادات (XX=٢٠-III=٣) أو حتى بالطَّرح منها (IX=٩-IV=٤). وعلى النَّقيض من ذلك، تبدو الأرقـام الأكبـر (C تعـادل ١٠٠-M تعـادل ١٠٠٠) لأوَّل وهلـةٍ علـى أنهـا تمثيـل كلمة بحـروفٍ أكروفونيَّـة (Acrophonic; Mille- Centum)، كما هو الحـال في النظام اليوناني العتيق، ومع ذلك لا وجود لـ L (٥٠) ولا لـ D (٥٠٠) صوتيًا؛ ولأن الأرقامَ الأكبر مُثِّلت فـي البدايـة بطُـرقٍ أخـرى، فينبغـي أن يكـون لهـذا النظـام أصـولٌ مـا، إلا أنَّ العلماء لم يكتشفوها بعد.

وشاع بين النَّاس أن الأرقام الرُّومانية سهلةُ الجمع والطَّرح نسبيًّا، بيد أنه يكاد يستحيل إجراء عملياتِ الضَّرب والقِسـمة باسـتخدامها. وبالنسـبة للحسـاباتِ الكبيـرةِ، تحوَّلت

(١) يرمز حرف «خـ» في نظام أبجد الحسابي العربي العَتيق إلى رقم ٦٠٠ لا إلى ٧٠٠. (المترجم)

جميع الشُّعوب القديمة تقريبًا إلى استخدام أشكال آلةِ العدَّاد المختلفة، والذي كان في الأصل سطحًا مُسطَّحًا مُسطَّرًا أو مدرَّجًا بأعمدةٍ لوضع الحصَى، على نحوٍ مُطابقٍ للحسابات، فكانت تُستخدم لتمثيل الأرقام. ويُعدُّ النوع الشَّرقي المألوف من العدَّاد ذي حبَّات الخرزِ التي تجري على قُضبانَ أو أسلاكٍ اختراعًا متأخِّرًا نسبيًّا.

وتمكَّن الحاسبون -باستخدام العدَّادِ- من إجراء عمليات الضَّربِ والقسمةِ باستخدام الأرقام الرُّومانيَّة من خلال تحويلِها إلى مصفوفةٍ قِيميَّة مكانيَّة وعَشريَّة. واتَّسم إجراء الحسابات على العدَّاد بمميزاتٍ كثيرةٍ، فعمَّ استخدامُه جميع أرجاء أوراسيا في القرون الوسطى. وعلى الرغم من الصُّورة الذِّهنيَّةِ التي تربطه مباشرةً باليابان، فإنَّ الحقيقة أن اليابان لم تعرف آلةَ العدَّاد حتى القرن السَّادس عشر الميلادي، ومنذ ذلك الحين ظل العدَّاد شائعًا في أوساطِ اليابانيِّين إلى حدٍّ أنه ظل يُنافس الآلة الحاسبة الإلكترونية بعد اختراعها لردحٍ من الزَّمن.

على أية حال فقد عرَف القدماء علم «حساب العَقْدِ» (*Dactylonomy*)، أو التَّعبير عن الأرقام من خلالِ وضع الأصابع في العصورِ القديمةِ. وعلى الرغم من أن أصولَ هذا النظام لم تزل غامضةً، فقد ذكَر المؤلِّفُ اليوناني-الروماني بلوتارخ (Plutarch)، في كتابه المسمَّى (*Lives*)، أن هذه الممارسةَ كانت شائعةً في بلاد فارس في القرون الميلادية الأولى؛ لذا فربما اختُرِع هذا النِّظام في بلادِ فارس. وأطلَق العربُ على هذه الطريقة من الحساب اسم «حسابِ الرُّوم والعرب» و «حساب العَقْد»، يعنون عُقَل الأصابع. ويبدو لنا أن ثمَّة آياتٍ من القُرآنِ قد أومأت إلى ممارسةِ العدِّ على الأصابع، ما يوحي بأنها كانت تُستخدَم بالفعل في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. ووصَف بعض الصَّحابةِ -أو فسَّروا- بعض الإشارات التي أشار بها النبيُّ [ﷺ] على أنها كانت تُشير إلى أرقام، على الرغم من أنَّ الرِّوايات لا تتفق مع المُمارسة لاحقًا. فعلى سبيلِ المثال قيل: إن النبي [ﷺ] كان يَمُدُّ سبَّابة يده اليمنى عند التشهُّد؛ وذاك لأن السبَّابة الممتدة كانت تعني في عُرف العربِ «١»، أي أنَّ الله واحدٌ لا شريكَ له(١).

---

(١) وهناك أيضًا حديثُ يأجوج ومأجوج: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ. فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً. قِيلَ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ». (المترجم)

واستُخدِم حسابُ العَقد على نطاقٍ واسع في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، حتى إنَّ العالمَ الموسوعيَّ الجاحظَ نصَح المؤدِّبين في عصرِه بتدريس «حساب العَقد»، الذي صنَّفه من بين الأساليب الخمس للتَّعبيرِ الإنساني بلا «لفظٍ ولا كتابةٍ». وبالمثل، قال الصُّولي في كتابه المُسمَّى أدب الكُتَّاب: إن الكُتَّاب في الدَّواوين فضَّلوا «حساب العقد» على أنظمةِ الحسابِ الأخرى كافةً؛ لأنه لم يكن يحتاج إلى مادةٍ ولا إلى آلةٍ، باستثناء الأيدي. وفوق ذلك، فقد كفَل السِّريَّةَ، كما كان أكثر تماشيًا مع كرامةِ مهنةِ الكاتبِ.

وأمدَّتنا الكتبُ التي تناولت علمَ حسابِ العقدِ، مثل رسالة الرِّياضي أبي الوفا البوزجاني، بقواعدَ أداء العمليَّات الحسابيَّة، بما في ذلك المُعقَّدة منها، كاستخراج الجذورِ التَّربيعيَّة على نحوٍ تقريبيٍّ. وأُجرِيت العملياتُ الحسابيةُ ذهنيًّا، فثبَّت الحاسبُ أصابعه بوضعيَّاتٍ مُعينةٍ للاحتفاظ بالنَّتائج الجزئية المؤقَّتة التي كان يتوصَّل إليها في أثناء سعيِه للوصول إلى النَّاتج النهائي لمسألةٍ حسابيَّةٍ ما. وبسبب هذه السِّمات أضحَى هذا الحسابُ معروفًا باسم «حساب اليد، أو الحساب العَقلي، أو حِسابُ «الهواء»[1].

واستُخدِم حساب العَقد أيضًا في أوروبَّا في أوائل القرون الوسطى؛ فقد شرَح الموقَّر بيدي (Venerable Bede)، عالم اللَّاهوت الأنجلو-ساكسوني في القرن السَّابع الميلادي، حساب العَقد –ولا سيَّما في الفصل الأول من كتابه المُسمَّى (De temporum ratione)، والذي حمَل عنوان: (De computa vel loquela digitorum). والكيفيَّة التي شرَح بها بيدي هذا النِّظام من شأنها أن تصرِفَ أذهانَنا على الفور إلى نظامٍ مماثلٍ وُصِفَ في عَددٍ من الرَّسائل الإسلاميَّة. وعلى أيةِ حالٍ فقد كان يسعُ أيَّ شخصٍ باستخدام التِّقنيةِ التي عرضها «بيدي»، التَّعبير والحساب بأرقام بين ١ : ٩٩٩٩، على الرَّغم من أنه نادرًا ما استُخدِم هذا النظام لتمثيلِ الأعداد التي احتوت على أكثرِ من رقمَيْن. ومع ذلك، يبدو أن نظام «بيدي» قد أضحى نسيًا منسيًّا في الغرب في مُنتصف القرونِ الوسطى، على الرغم من أن المسلمين استمرُّوا في استخدامِ نظامٍ مماثلٍ في الحساب حتى العصر الحديث.

ووصَف الشُّعراءُ العربُ والفُرسُ –في الحقبةِ الكلاسيكيةِ– شُحَّ شخصٍ ما بالقول

---

(١) كذا في الأصل، ويبدو أنها إشارةٌ إلى انعدامِ الآلةِ في مثلِ هذا النوعِ من الحساباتِ الذِّهنيَّة. (المترجم)

إن يدَ هذا الرجل مقبوضةٌ وكأنها خُلِقَت هكذا، وكانت اليدُ المقبوضةُ ترمُز إلى رقم ٩٣ (وهو رمز الجشَع). وعلى أية حال فقد كان هذا النِّظام في الحساب مُستخدَمًا في فارس في العصر الإيلخاني؛ وذاك لأن المؤرِّخ والمُستوفي (أي صاحِب الخَراج) حمد الله القزويني (من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) نسَب الفضلَ لابن سينا (Avicenna) في ابتكارِ نظامٍ للحسابِ استنَد إلى حسابِ العَقْد في عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م. ووفقًا لما جاء على لسانِ القزويني، فقد تخلَّص الحاسِبون أخيرًا من عناءِ استخدام العدَّادات، بفضلِ النِّظام الذي طوَّره ابن سينا.

وكان نظامُ ابن سينا شكلًا من أشكالِ علمِ حسابِ العَقدِ، ولم يزل يُمارس حتى الآن في الجزائر، وعلى امتدادِ سواحل البحر الأحمر، وفي جزيرة البحرين خاصةً، حيث غيَّر هذا النِّظام من شكل المُعاملات في تجارةِ اللؤلؤ أو غيره من السِّلعِ النَّادرةِ والثَّمينة، حيث لا يرغبُ البائع والمُشتري في إعلان شروطِ صفقتِهما على الملأ، فيجلسُ المُتساومان وجهًا لوجه، وقد أخفَى كل منهما يده اليُمنى بمنديلٍ، ويلمس كل منهما أصابع الآخر وفقًا لعُرفٍ معيَّنٍ مُتَّبع. وعلى الرغم من أن هذا النِّظام لم يُميِّز بين الآحاد والعشرات والمئات والآلاف، إلا أنَّ الطَّرفَين عرَفا قيمةَ المبلغ المقصود بالضَّبطِ.

واستَمرَّ استخدام ضربٌ من ضروبِ حسابِ العَقد في الولايات المتحدة الأمريكية حتى يومنا هذا. فقد تعلَّمت ابنتي -في الصفِّ الثاني الابتدائي- كيف تقوم باستخدام أصابِعها للضَّربِ في تسعة. فلكي تصل إلى ناتج عملية ٧×٩ -على سبيل المثال- رفَعت كلتا يديها وعدَّت سبعةَ أصابع من اليسار إلى اليمين، وثنَت الإصبع السَّابع لأسفل، ومن ثم مثَّلت الأصابع الستة على يسار الإصبع المثني العشرات، في حين مثَّلت الأصابع الثلاثة على يمين الإصبع المَثني الآحاد، ما يُشير إلى أنَّ النَّاتجَ هو ٦٣.

وعلى الرَّغم من أنَّ الأصابع لا تُفارق صاحبَها أينما ذهب، إلا أن الحسابَ باستخدام العدَّاد أو الأرقام المكتوبة وفَّر ميزةً كبيرةً نسبيًّا، تمثَّلت في أن الحاسبَ على العدَّاد كان يَسعُه التوقُّف في مُنتصف العمليةِ، ثم استئنافها لاحقًا، أو التحقُّقِ من نتائج العملية ولمَّا ينتهي منها بعد. وتُشتقُّ الكلمة اللاتينية (*Abacus*) من الكلمة اليونانية (Abakos)، والمأخوذة في حدِّ ذاتها من الكلمة العبرية (Abaq) بمعنى الغُبار. وتطوَّرت هذه الكلمة بعد انتشارِ الكتاب المقدَّس، واتَّخذَت معنى «الرَّمل المستخدم بوصفه سطحًا للكتابةِ»،

ما يُشير إلى أن الشَّكل الأصلي للعدَّاد لم يكن الخَرز المألوف المُعلَّق على الأسلاك، ولا اللوحة المُحزَّزة أو المسطرة المستخدمة في العدَّادات في القرون الوسطى، بل كان بالأحرى «لوح الغُبار». ولوح الغُبارِ هو لوحٌ مُغطًّى بطبقةٍ رقيقة من الرَّمل أو التُّراب، ويمكن من خلالِه رسم الحروف أو الأرقام ثم مسحِها سريعًا بتمريرةٍ من اليد، أو باستخدام قطعة من القماش. وكان هذا النَّوع من الأسطح المؤقتة للكتابةِ معروفًا للبابليِّين، ومن ثَمَّ فقد شاع استخدامُه في أوساطِ المُنجِّمين -ولا سيَّما في العصور الإسلاميَّة- لاستطلاع الأبراج الفلكية وقراءة الطَّالع.

وبصرف النَّظر عن أبسطِ العمليَّات -مثل إضافة رموز الكسور- فإنَّ الحساب على لوح الغبارِ يكون منطقيًّا فحسب في حال استخدَم الحاسِبُ الأرقامَ، لا الأحرف التي تُعبِّر عن الأرقام، ومن ثم فقد جعلت معرفةُ العربِ بالأرقام الهندية لوحَ الغبار أكثر فائدةً. وتعود أقدم إشارةٍ مُكتشفةٍ -في عالم حوض البحر المتوسِّط- إلى الأعدادِ الهندية إلى منتصف القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، أي بعد ظهورِ الإسلامِ مباشرةً. ففي شَذرةٍ مؤرَّخة بعام ٤٢هـ/ ٦٦٢م من تصنيف سيڤيروس سيبوخت (Severus Se-bokht) -أسقف دير قِنِّسرين الواقع على نهر الفُرات في الشَّام- أعربَ فيها هذا الأسقف عن إعجابه بالهنودِ بسبب أسلوبهم الجيِّد في الحساب «الذي أجروه بواسطة العلاماتِ التِّسع». وربما تعرَّف سيڤيروس على هذا النظام من التجَّارِ المشارقةِ الذين نشطوا في الشَّام.

نشأ هذا النظامُ المبتكرُ والبسيط للغاية -لتمثيلِ أي قيمةٍ عدديةٍ باستخدام تسعة رموزٍ فحسب، تتبادل في القيمةِ المكانيَّةِ العشريةِ (لم يكن الصِّفر معروفًا آنذاك)- في الهند في أوائل القرن الخامس الميلادي على الأرجح. ويبدو أن هذا النظام الهندي كان معروفًا في بغداد منذ عام ١٥٤هـ/ ٧٧٠م، أو بعد أقل من عَقْدٍ من الزمان على تأسيسِها، إلا أنه انتشر على نحوٍ أساسيٍّ من خلال كتابات الرِّياضي والجغرافي العبَّاسي محمد بن موسى الخُوارِزمي (المتوفَّى بعد عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م).

وُلِدَ الخُوارِزمي بإقليم خُوارِزم في آسيا الوسطى، الواقعة جنوب شرق بحر آرال، وجرى تعيينُه بـ«دار الحِكمة» التي أنشأها الخليفة المأمون في بغداد. وعلى الرغم من أن مؤسسةَ المأمون كان لها دورٌ فعالٌ في الحفاظ على المتونِ العلميَّة والأدبيَّة اليونانيَّة،

إلا أنَّ المفارقـةَ تكمُـن فـي أنـه لـم تصلنا أيٌّ مـن مُصنَّفـات الخُوارِزمي فـي الرياضيَّاتِ بالعربية. وأقدم نُسخةٍ من مُصنفاتِ الخُوارِزمي في هذا الحقل هي ترجمة لاتينية لرسالةٍ لـه، تبـدأ بهاتيـن الكلمتَيـن (dixit Algorithmi) أي «قـال الخُوارِزمـي»، وتُرجِمَـت هذه الرسـالةُ إلـى اللَّاتينيَّـةِ فـي القرن السَّـادس الهجري/ الثَّاني عشـر الميـلادي. وعلى هذا النحـو، اصطُلِـح على بعـضِ العمليَّات الرياضيـة في الغرب باسـم الخوارزمي الرِّياضي وصفًـا للعمليةِ الجديدةِ لحسـاب الأرقـام الهندو-عربية، فسُـمِّيت «الخوارزمية» (*algo-rithmus*) فـي اللَّاتينيَّة القُروسـطية، وفي اللغة الإنجليزية المعاصـرة (*Algorism*)، بل إن العملياتِ التَّدريجيةَ الكاملةَ لحلِّ بعض المشـكلاتِ الرياضية سُمِّيت بـ الخُوارِزمية (*al-gorithm*).

وينبغـي أن تُفهَـم جهـودُ الخُوارزمـي فـي بغدادَ فـي القـرن الثَّالث الهجري/ التاسـع الميـلادي في سـياقها الأوسـع المتمثِّل في الاهتمـام الهائل بالعلمِ والتَّعلُّم الذي شـجَّع عليه توافر الورقِ على نطاقٍ واسعٍ. فبحلول نهاية ذلك القرن، كان علماءُ الرياضيَّات في العصـر العبَّاسـي قـد جمَعوا أمَّهـاتِ الكتبِ التـي كان لها تأثير حاسِـمٌ علـى الرياضيَّات العربيـة، وترجموهـا مـن اليونانية، وعلى رأسـها كتابات إقليدس (Euclid) وأرشـميدس (Archimedes) وأبولونيـوس البرغاوي (Apollonius of Perga) وبطليموس (Ptolemy). كمـا ترجمـوا أيضًا كتابا مثل **السِّـندهند** -وهو المُصنَّف الهنـدي العظيم في الفلك الذي دُوِّن باللغـة السِّنسـكريتية- وكذلـك المؤلَّفات فـي الرياضيَّات التي وضَعهـا الرياضيُّون الفُـرسُ بالفارسـية الوسـطى قبل ظهورِ الإسـلام. وتمكَّـن علماء الرياضيـات في العصر العبَّاسي -باستخدام الأرقام الهندية- من الجمع بين كل هذه الأرقام لإنتاج نظامٍ حسابيٍّ جديدٍ يعتمد على التَّطبيقِ المتَّسِق للمفهوم المعروف سابقًا للقيمة العَشرية لمكانِ الرَّقم.

وعلـى الرغـم مـن فقـدان كتابـات الخُوارِزمي الأصليَّة حـول هذا الموضـوع، إلَّا أن العُلمـاء المُحْدَثيـن تمكَّنـوا من إعـادةِ بناء نظام أرقامـه الهندو-عربية من خـلال كتاباتِ بعض الرياضيِّين المُتأخِّرين، مثل أبي الحسن كُشيار بن لبَّان الجيلِي، الذي صنَّف رسالةً في الحسـابِ الهنديِّ نحو عام ٣٩٢هـ/ ١٠٠٠م، وذكَر فيها أن الحسـابات تُحسَب على لوح الغبار، الذي يُسـمَّى بالفارسـية «التَّخت». وجرَى الحسـابُ عليها باحتكاك الأرقام واستبدالها؛ حيث استُبدل ناتجُ الحسابِ بواحدٍ من الأرقام المُعطاة. فعلى سبيل المثال،

لحساب ناتج ضربِ ١٢٣×٤٥٦ استُبدِلت الأرقام التَّالية على التَّرتيب على لوح الغبار على النحو التَّالي:

١٢٣

× ٤٥٦

٤ ١٢٣ (بضرب ١٠٠ في ٤٠٠، بإدخال ٤ في خانة العشرة آلاف)

٤٥٦

٤٥١٢٣ (بضرب ١٠٠ في ٥٠، بإدخال ٥ في خانة الآلاف)

٤٥٦

٤٥٦٢٣ (بضرب ١٠٠ في ٦، بمسح ١ من خانة المئات واستبداله بـ ٦)

٤٥٦

٥٣٦٢٣ (بضرب ٢٠ في ٤٠٠، بإضافة ٨٠٠٠)

٤٥٦

٥٤٦٢٣ (بضرب ٢٠ في ٥٠، وإضافة ١٠٠٠)

٤٥٦

٥٤٧٢٣ (بضرب ٢٠ في ٦، بمسح ٢ من خانة العشرات وإضافة ١٢٠)

٤٥٦

٥٢٩٢٣ (بضرب ٣ في ٤٠٠، وإضافة ١٢٠٠)

٤٥٦

٥٦٠٧٣ (بضرب ٣ في ٥٠، وإضافة ١٥٠)

٤٥٦

٥٦٠٨٨ (بضرب ٣ في ٦، وطرح ٣ من الآحاد، وإضافة ١٨)

٤٥٦

وأُجريت عملياتُ الضَّربِ والجمعِ، كما في أنظمةِ الحساب السَّابقة ذهنيًّا، لقد كانت عمليةً شاقةً، مع وجودِ مجالٍ كبيرٍ للخطأ؛ وذاك لأن كثيرًا من الحسابات كانت تُجرى ذهنيًّا. ولكن في هذه الحالة أُدخلت النَّتائج المؤقتة ثم مُسِحَت من على لوحِ الغبار، ما جعَل تَحقُّقَ المرءِ من صحَّةِ ما وصَل إليه من نتائج أمرًا من الصُّعوبة بمكان.

وتُشير الرِّسالة المُسمَّاة **حساب اليد** لأبي الوَفا [البوزجاني] الرِّياضي -التي صنَّفها للكتَّابِ العامِلين في الدَّواوين- إلى أن حسابَ العَقد كان لا يزال مفضَّلًا في إجراءِ بعض العمليات الحسابيَّة. ومع ذلك، فقد استخدم أبو الوفا -أحيانًا- مخططاتٍ للأرقام الهندية، وحاول تخليصَها من الفَوضى التي شابَت استخدامَ لوح الغُبار من خلال إجراء العمليَّة على الورق، كما قد ينصرفُ ذهنُ المرء تلقائيًّا.

وحاول عددٌ كبيرٌ من الرياضيِّين المشهورين في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، تحسين هذا النِّظام المُرهق عن طريق تكييفِه للاستخدام على الورق. فحاول عالم الرياضيات الشَّامي أبو الحسن أحمد بن إبراهيم الإقليديسي في دمشق، تطبيق المُخطَّطات الهندية لحساب العَقد القديم وكذلك فعَل مع الكسور السِّتينيَّة (التي يُشكِّلُ المقام فيها ٦٠). وكان الإقليديسي أيضًا أوَّل عالم رياضياتٍ يُغيِّر طريقةَ لوحِ الغُبار لتُناسبَ استخدام الورقِ والمدادِ. ولم يتحفَّظ الإقليديسي على استخدام لوح الغبار بسبب الحرجِ والفوضى التي تَسبَّب بها فحسب، ولكنه أبدى استياءَه من دلالاته الذِّهنيَّة البغيضة؛ وذاك أن معظمَ الناس -آنذاك- كانوا يربطون استعمال ألواحِ الغبارِ بالمُنجِّمين الذين يستطلعون الأبراج لمعرفةِ الطَّالع، ما يقدَحُ في سُمعةِ الرِّياضي. وأظهر أسلوبُ الإقليديسي في الحسابِ على الورق خطواتٍ مُنفصلةً على نحو ملحوظٍ، ومن ثم أضحى بوسع الحاسبِ مراجعة خطواتِ العملية الحسابية خطوةً بخطوةٍ. وعلى الرَّغم من أن الخُوارزمي أكثر شهرة في يومنا هذا من الإقليديسي، إلا أن نظامَ الإقليديسي الحسابي هو النِّظام نفسه الذي تعلَّمه بعضٌ منَّا عندما كنَّا صِغارًا. إذ قامت طريقة الإقليديسي على ضرب كل عددٍ صحيحٍ في عددٍ صحيحٍ آخر، ثم جمع النتائج، على النَّحو التالي.

$$\begin{array}{r} ١٢٣ \\ \times\ ٤٥٦ \\ \hline ١٨ \\ ١٢٠ \end{array}$$

٦٠٠

١٥٠

١٠٠٠

٥٠٠٠

١٢٠٠

٨٠٠٠

٤٠٠٠٠+

٥٦٠٨٨

وبوسعنا اتِّباعُ المسارِ نفسه بعمليَّةٍ نصف ذهنيَّةٍ:

١٢٣

٤٥٦×

٧٣٨

٦١٥٠

٤٩٢٠٠+

٥٦٠٨٨

وهكذا قُسِّمَت عمليةُ الضَّرب باستخدامِ المدادِ والورقِ إلى خطواتٍ بسيطةٍ، تمامًا مثل عملية الضَّرب على لوح الغبار؛ ولكن على النَّقيض من عملية الضَّربِ على لوحِ الغبار، أضحى بوسع الحاسبِ الاحتفاظَ بكل خطوةٍ قام بها للتحقُّقِ منها لاحقًا.

وقد يبدو لنا أنَّ النهجَ الجديدَ للحساب باستخدام الأرقام الهندو-عربية والقلم والورق كان طفرةً في الرياضيَّات، إلا أنها لم تكن كذلك على الصَّعيدِ العمليِّ. فعلى الرغم من أن هذا النِّظام كان أكثر تفوقًا قياسًا بالنِّظامِ القديمِ إلى حدٍّ كبيرٍ، إلا أنَّ معظم

الناس تحفَّظوا على استخدام هذا الأسلوب الجديد، وفضَّلوا إجراءَ عملياتِ الحساب ذِهنيًّا وباستخدام حساب العَقد وكذلك باستخدام ألواح الغبار. حتى إنَّ الجاحظ نصَح مُعلِّمي الصِّبيان والمؤدِّبين في عصرِه بتدريس حساب العَقد بدلًا من الحساب باستخدام الأرقام «الهندية». كما نصَح الصُّولي كُتَّاب عصرِه النَّصيحةَ نفسها. بل إنَّ عالم الرياضيات الكبير أبي الوَفا [البوزجاني] فضَّل حساب العقد في مُعظم عمليات الحساب للكُتَّاب. أمَّا ابن النَّديم- صاحب **كتاب الفهرست**، والمُطَّلِع الثِّقة على الأدبيَّاتِ العربيةِ- فقد تناول الأرقامَ الهنديةَ بفتورٍ، بل إنه لم يذكر كتاب الخوارزمي المُسمَّى **حساب الأرقامِ الهندية**، فيما ذكره من مُصنَّفات الأخير. وبالمثلِ، واصَل علماءُ الرِّياضيات والفلك والمنجِّمون استخدامَ الكلمات ونظام أبجد القديم للإشارةِ إلى الأرقام باستخدام الأحرفِ الأبجدية في كتاباتهم.

ومع ذلك، فإن كتاباتِهم قدَّمت قليلًا من الأدلةِ عن الكيفيَّة التي قام بها معظم علماء الرياضيَّات بحساباتهم بالفعل؛ وذاك لأن مُسوَّدات كتُبِهم لم تصلنا، وكل ما وصلنا هي مُبيَّضاتهم التي مثَّلت الإبرازاتِ النِّهائيَةَ من كتاباتهم، ومن ثمَّ النَّتائج النِّهائية لحساباتهم. ونفترض -والحالُ على ما وصفتُ- أن عددًا كبيرًا من عُلماء الرياضيَّات كانوا ما يزالون على عهدِهم في استخدامِ ألواح الغُبار، على الرغم من عيوبها التي تعرَّضنا لها آنفًا؛ وذاك لأن الورق كان مُكلفًا، بحيث كان استخدامه بوصفِه قُصاصاتٍ لإجراء العملياتِ الحسابيَّةِ، ثم التخلُّص منه فيما بعد يعدُّ ضربًا من ضُروبِ الإسرافِ. ومع ذلك، فربما استخدم بعضُهم الطريقةَ الجديدةَ للحساب على الورق بوصفه نظامًا لإجراء العمليات الرياضيَّة البَحتة. فلم يذكُر ابن البنَّاء [المراكشي] -على سبيل المثال- في كتاباته في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ألواحَ الغُبار قطُّ، الأمرُ الذي قد يُشير إلى أنه أجرى حساباتِه على الورقِ. بيد أنَّ معظم علماء الرياضيات لم يكونوا عُلماء رياضيَّات «أقحاح»، بل غالبًا ما كانوا يكسبون عيشَهم بالاشتغالِ بعلومِ الفلكِ ورصد الكواكب والنُّجوم، وهي العلومُ التي ظلَّت مرتبطةً بقوةٍ باستخدام النُّظمِ العتيقةِ.

ووضَع الرِّياضي والفلكي الإيلخاني نصير الدين الطُّوسي مُصنَّفًا في حسابِ الغبار في وقت ما من القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في الوقت الذي كان الورق الجيِّد متاحًا للكتَّاب. واستمر الناس في استعمالِ ألواحِ الغبار القابلة للمسح،

وكذلك الألواح الخشبيَّة والإردوازية لقرونٍ تلَت، وذلك لكونها موادَّ رخيصة الثمن؛ إذ كان يصعبُ محو الكتابة من الورق، حتى اخْتُرِع «القلمُ الرصاص» ذي الخطِّ القابل للمَسح في القرن التَّاسع عشر الميلادي. والواقع أن إحدى أهم سمات الورق هي أنها قدَّمت سجلًا دائمًا للحساب.

ويبدو أنَّ العوامَّ أيضًا واصلوا العملَ بالطُّرق القديمة في الحساب، واستمرَّ التجار اليهود في القرون الوسطى -الذين حفِظت وثائق الجنيزة سجلَّات مُعاملاتهم- في تمثيل أرقامِهم بالكلمات وكذلك بالأرقام العبرية والقِبطية، التي تُشبه نظامَ أبجد العربي إلى حدٍّ كبيرٍ. ونظرًا لأن هذه الأنظمة الأبجدية لم تكن صالحةً للعملياتِ الحسابيَّة، فينبغي أن يكون التجَّار قد أجرَوا حساباتهم بطريقةٍ أخرى، ولكن ليس ثَمَّ وثائق في أوراق الجنيزة تُظهِر الكيفية التي أجرَى بها أولئك التجار حساباتهم بالفعل. بيد أنَّه كان بوسعهم استخدام طُرقِ الحسابِ الذِّهنيَّة، وربما استخدموا حساب العَقد، أو ألواح الغبار، بل لا نستبعد أنهم قد استخدموا القلمَ والمدادَ والورقَ؛ وذاك لأنه لم يكن هناك سببٌ داعٍ لحفظِ قُصاصةٍ من الورق في غرفة الجنيزةِ طالما أن كل ما دُوِّن عليها هو مجرَّد أرقامٍ وحساباتٍ[1].

وربما أظهَر التجَّار التردُّدَ في بادئ الأمر في استخدام الأرقام الهندو-عربية، ولكن لَحَظ المؤرخ ابن خلدون في أواخرِ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أنَّ المُمارسةَ العملية للتجَّار التي جرَت باستخدام الأرقام الهندو-عربية كانت تُدرَّس في مدارس الأندلس.

وربما استُخدِمتِ الأرقام الهندو-عربية في الممارسةِ التجاريةِ في العالم الإسلامي في وقتٍ متأخِّرٍ قياسًا بظهورِ النظرية العِلْمية. وعلى الرغم من الفتورِ الأوَّلي الذي صادفَ النظامَ الجديدَ، فقد انتشرت المعرفة بالأرقام الهندو-عربية بسرعةٍ إلى حد ما؛ إذ ذُكرت الأرقام الهندو-عربية لأول مرة في المغرب الإسلامي نحو عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، حيثُ أُطْلِق على تلك الأرقام «حُروف الغبار».

---

(١) يومئُ المؤلف إلى أن الأوراق التي حُفِظَت في وثائق الجنيزة كان لاشتباه اليهود أنها تحمل اسم الله، فأوكلوا أمرها للمعبد كي تُدفَن على نحوٍ شرعيٍّ. (المترجم)

وكُتِبَ الكثير عن أصولِ «حروف الغبار» الغامضة، مما يمكن أن نصِفَه -مُطمئنِّين- بـ «الهُراء»، فلم تكن حروفُ الغُبارِ تعدو كونها نوعًا من الأرقام الهندو-عربية التي كانت تُستخدم في الأندلس على ألواح الغُبار، وهي الأداة القياسيَّة للحسابِ آنئذٍ. واجتمعَ العلماء المسلمون واليهود والنَّصارى معًا في مراكزَ علميَّةٍ مثل طُليطِلة، في «عصر ملوك الطَّوائف» (أي الأمراء الذين ورثوا الخلافة الأُموية في قرطبةَ، التي انهارت في أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، وعكَفوا على الكتاباتِ العلميَّةِ، ولا سيَّما في عِلمي الفلك والتَّنجيم، المُكتَسبَيْن من المشرقِ الإسلامي. وعلى هذا النحو أصبَح نظامُ الحساب الهندو-عربي شائعًا على نحو استثنائيٍّ في الأندلس، ليس بفضل التجَّار الذين أدركوا مزايا هذا النظامِ المتأصِّلة، بل بفضل علماءِ الرِّياضيات الذين امتلكوا نُسخًا من كتاب الخُوارزمي المسمى **حساب الأرقام الهندية** أو طالعوه هناك، ثم تُرجم في القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ثم تُرجم مجددًا وأُعيدَت صياغتُه مرارًا كثيرةً بالعبريَّةِ واللَّاتينيَّةِ لاحقًا.

وعلى الطَّرف الآخر من العالم النَّصراني، يبدو أنَّ علماء الرياضيات البيزنطيِّين لم يكترثوا للنظام الجديد لعدة قرونٍ. ففي القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، كان عُلماء الرياضياتِ في العصر العباسي حريصين على اكتسابِ كل ما كان بوسعِهم اكتسابُه من المعارفِ الرِّياضيَّةِ القديمة التي استقوها من البيزنطيِّين، ولكن البيزنطيِّين -على ما يبدو لنا- لم يُظهِروا الشَّغفَ بالعلومِ العربية. ومثلما تجاهل البيزنطيون عمومًا الفُرصَ الهائلة التي أتاحها ظهور الورقِ، فقد أخفق علماءُ الرياضيات البيزنطيُّون مجددًا في اغتنام الفُرصةِ للتعرُّفِ على النِّظام الجديد مباشرةً من خلفاء الخُوارِزمي من الرياضيِّين العرب.

وأوفد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث (Michael III)، فوتيوس (Photius)، وهو واحدٌ من أكابر عُلماءِ عصره، في سفارةٍ إلى بغداد في عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م، قبل ثلاث سنواتٍ من تسميتِه بطريركًا على القسطنطينيةِ. وتمكَّن فوتيوس خلال إقامتِه الطويلة في بغداد -وبدافعٍ من فضولِه العِلمي- من مقابلةِ نفرٍ من كبارِ العلماء في بغدادَ. ومع ذلك، فمن الواضح أن فوتيوس لم يصطحِب الأرقام الجديدة معه عند عودتِه إلى وطنه؛ ذاك لأنَّ الأرقام الهندو-عربية والطريقة الجديدة لحسابها ظلَّت مجهولةً في بيزنطة حتى عام

٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، عندما صنَّف مؤلفٌ مجهولٌ كتابًا في طريقةِ الحساب الهندي. ويُعتقَد أن ماكسيموس بلانوديس (Maximus Planudes) -الذي يُنسَب إليه الفضلُ عمومًا في إدخال طريقة الحساب الهندي واستخدام الأرقام الهندية إلى بيزنطة- قد قرَأ هذا الكتابَ.

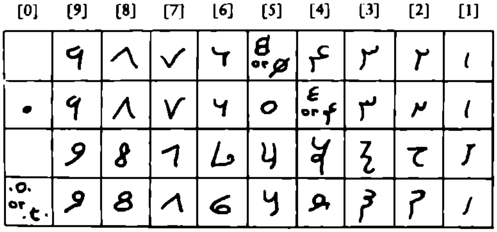
وتزامن انتقالُ المعارفِ -ولا سيما الرياضيَّات- من المسلمين إلى نصارى الأندلس مع حدوثِ طَفرةٍ مفاجئةٍ في استخدام الأرقام الهندو-عربية. فقد بدأ النَّصارى الأوروبيُّون -الذين أجروا حساباتِهم منذ العصر الروماني باستخدام نوع متحرِّكٍ من العدَّادات (abacus)[1]- في كتابة الأرقام الجديدة على رؤوس العدادات (*apices*). ثم اتَّخذت أشكال الأرقام العربية التَّقليدية أشكالًا مستديرةً وتحوَّلت أولًا إلى «حروف الغبار»، ثم إلى الأرقام «العربيَّة» المستخدمة عالميًّا في الغربِ في التَّطور الأخير. واستُبدلت بعض الأرقام، مثل ٥ - ٨ باختصارِ خطيٍّ قروسطيٍّ للأوكتو اللاتينية (*octo*)، وحلَّت محلَّ تلك التي شاع استخدامها بين العرب (انظر: شكل ٤٩).

واستوعَب الغربُ حروفَ الغبارِ في النُّسخة اللَّاتينيَّة من حساب الأرقام الهندية (*Al-gorism*) أو (نظام التَّرقيم) بحلول القرن السَّادس الهجري/ الثَّاني عشر الميلادي، كما رأينا -على سبيل المثال- في أعمالِ المُترجم جون الإشبيلي (John of Seville). ومن ثم انتشرت التِّقنية الجديدة للحساب بالأرقام الهندو-عربية في جميع أنحاء العالم الإسلامي في الوقت نفسِه الذي شاع فيه استخدامُ الوسيط الجديد، أعني الورق. وسارَع بعض علماء الرياضيات في القرون الوسطى إلى إدراك أنَّ الورق والمداد يوفران طريقةً أفضل للحساب بالأرقام مقارنةً بألواحِ الغبار خاصةً؛ وذاك لأن تلك الطريقة وفَّرت سجلًّا دائمًا للحساب وسمَحت بفحص النَّتائج، ليس بعد إجراءِ عمليةِ الحساب مُباشرة فحسب، ولكن ما دامت الورقةُ مقروءةً. كما تحلَّى الورقُ بمزيَّةٍ أخرى تمثَّلت في استخدامِ مساحةٍ صغيرةٍ نسبيًّا.

بيد أنَّ الورقَ -على الرَّغم من مزاياه الكثيرة- كان سلعةً أثمنَ من أن تُهدر في إجراء

---

(١) العدَّادات المتحرِّكة تُشير إلى الخرزِ أو الأقراص التي كانت تُثبت في أسلاكٍ تمثل الآحاد والعشرات والمئات ...إلخ. وكانت شكلًا أكثر تطورًا من المسطرةِ ذات الشقوق أو العلامات، وهي العدَّادات البدائية القديمة. (المترجم)



شكل (٤٩): مخططٌ مقارن يُظهِر على التَّرتيب (من أعلى إلى أسفل): الأشكال الشَّرقية للأعداد في القرون الوسطى، والشرقية المُحْدَثة، وحروف الغُبار، والخُوارِزمية (*Algorismus*) للأرقام العربية. المصدر: معجم القرون الوسطى (Dictionary of the Middle Ages, 1: 388.)

الحسابات ثم يَتخلَّصُ منها الحاسبُ بعد ذلك. وعلى هذا النَّحو فإنَّ الفضلَ في انتشار هذه الأرقام الجديدة لا يُعزَى إلى قيام الحاسِبين بكتابتها على الورقِ قطُّ، ولا لقيام أحدِ مُستخدمي النظام الجديد للأرقام بتعليمِه لغيرِه. كما لا ينبغي أن يُعزى الفضل في انتشار هذه الأرقام إلى الحاسِبين الذين استخدموا أرقامًا هندو-عربية على ألواحِ الغُبار. بل انتشَرت هذه الأرقام بين النَّاس بفضلِ الكُتبِ المدوَّنةِ على الورقِ، شأنها في ذلك شأنُ مجالات المعرفةِ المعاصرةِ الأخرى. وعلى هذا النَّحو انتشرت المعرفةُ بهذا النِّظام الحسابي من خلالِ الكتبِ في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتَّى وصَلت إلى أوروبا النصرانيَّة في نهايةِ المطافِ من خلال بوتقة الأندلس، حيث أدَّت إلى تغيير الطريقةِ التي استخدمها الأوروبيُّون في الحسابِ وكتابةِ أرقامهم في نهايةِ الأمرِ.

وأظهَر النَّصارى الأوروبيُّون أنفسَهم بعض الترَدُّدِ -تمامًا مثل نظرائهم من المُسلمين- في تبنِّي النِّظام الحسابي الجديد، واندلَع في أعقابِ ذلك صراعٌ بين المُحافظين -الذين فضَّلوا طُرقَ الحساب التقليدية باستخدام العدَّادات- وبين الخُوارِزميين (*Algorists*)، الذين فضَّلوا استخدامَ الأرقامِ الجديدةِ على الورق. وكان التجَّار الإيطاليُّون أوَّل من استخدَم الأرقام العربية بطريقةٍ منظَّمةٍ في أعمالِهم التجارية. وعلى الرغم من أن الاتِّصالات التجارية بين الأندلُس وإيطاليا كان من الممكن أن تتسبَّب بانتقالِ الأرقام الهندو-العربية الجديدة من التجَّار الأندلسيِّين إلى كُتَّاب العدلِ الإيطاليِّين (Notaries)، فإنَّ التجَّارَ الأندلسيِّين -في أواخر القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي- لم يكونوا قد استخدموا هذا النِّظامَ الحسابيَّ في أعمالِهم بعد.

ومع ذلك فقد تسرَّب هذا النِّظام إلى وسطِ إيطاليا من خلال المغربِ الإسلاميِّ، فقد قضَى التَّاجر ليوناردو فيبوناتشي البيزي (Leonardo Fibonacci of Pisa) الذي اشتهر

باسم ليوناردو بيسانو (Leonardo Pisano) شطرًا من حياتِه في تونس، وكانت لوالده اتصالاتٌ تجاريةٌ واسعةٌ مع العالم العربي. وعلى هذا النَّحو أحاط ليوناردو علمًا بالأرقامِ العربيَّةِ هناك. وفي رسالته المُسمَّاة (Liber Abaci)، رفَض ليوناردو استخدام العدَّاد -على الرغم من عنوانِ رسالته- وأظهَر الانحيازَ لصالح طريقة الحسابِ الهندو-عربية. وترتَّب على رسالتِه -التي فرغَ من تصنيفِها في عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م- أن انتشر استخدام نظام الأرقام الهندو-عربية بسرعةٍ في أوساطِ التجَّارِ في وسط إيطاليا، وعلى هذا النحو حلَّت الأرقام الهندو-عربية محلَّ العدَّاد التَّقليدي. ومن ثمَّ استُبدِل العدَّاد بالقلمِ والورقةِ بحلول القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وأضحى الورقُ أداةً حسابيةً في البنوكِ الإيطاليَّةِ. ويبدو أن التجَّارَ الأوروبيِّين الذين تاجَروا في غربِ آسيا والمغرب قد أسهَموا في تعريفِ شُركائهم من التجَّار المسلمين بفوائد النِّظامِ الذي عرَفه علماءُ الرياضيَّات المُسلمون واستخدموه في إجراءِ حساباتِهم. ومع ذلك فإنَّ قلةً من التجَّار المسلمين عرَفوا هذا النِّظامَ واستخدموه لعدة قرونٍ تاليةٍ، في واحدةٍ من مُفارقاتِ التَّاريخِ.

التجارة

على الرَّغم من أنَّ التجارَ المسلمين لم يتبنُّوا الأرقام الهندو-عربية فور ظهورِها، إلا أن الورق لعِب دورًا مهمًّا في تطوير التجارة في العالم الإسلامي في القرون الوسطى. وعلى الرغم -أيضًا- من أنَّنا نميلُ إلى التَّفكيرِ في الاقتصادِ الائتماني بوصفِه تطورًا حديثًا بالكليَّة، إلا أنَّ التجَّار المُسلمين في القرون الوسطى قاموا بمعظم الأنشطة الاقتصادية بالدَّيْنِ، وسجَّلوا تلك الدُّيون في وثائقَ دوَّنوها على الورق. ويوضِّح نطاق هذه الوثائق -التي تضمَّنت العقودَ والحسابات والصُّكوك والرِّقاع والسَّفاتج -على سبيل المثال لا الحصر- أنَّ الكتابةَ والوثائق المكتوبة، لا سيما تلك المدونة على الورق، كانت شائعةً في أوساطِ المُسلمين، في الوقتِ الذي كان فيه مفهومُ الكتابةِ وتدوين السجلَّاتِ مفاهيمَ دخيلةً على المجتمعات الأوروبيَّة، ثم أصبحت تُشكِّل قسمًا من حيوات الأوروبيِّين شيئًا فشيئًا، حتى حلَّت محلَّ اعتمادهم التقليدي على الحِفظِ والشَّهادة الشَّفوية. بيد أن هذا لا يعني أن الوثائق التجاريَّة كُتِبَت على الورق وحده، فثَمَّ كثيرٌ من الألواح البابلية القديمة وأوراق البردي المصرية سجَّل عليها التجارُ معاملاتهم التِّجارية. ومع ذلك، فإن كميَّةَ الوثائق التجارية من غربِ آسيا في القرون الوسطى،

وكذلك تلك المحفوظة لقرونٍ في خبيئةِ الجنيزة القاهريَّة، سمَحت للعلماء بإعادةِ بناء كثيرٍ من أنماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأُسرية واليومية آنذاك.

وشجَّعت مطالبُ الإدارةِ البيروقراطيَّة التي أنشَأها العبَّاسيُّون على استخدام الورق لحفظ السجلَّات والحسابات الحكومية. وتحدَّث مؤرِّخو القرون الوسطى عن حجمِ التَّعقيد الذي نتَج عن عمليات حفظ السجلَّاتِ. فقد احتفظ عاملُ خَراجٍ من خُراسان -كان يعمل في ديوان الخَراج في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي- بدفترٍ دوَّن فيه مقدار الخَراج المُقدَّر على بعض الفلَّاحين، والمبلغ الذي دفَعه كل مدينٍ من حسابِ الضَّريبةِ المُقرَّرة عليه. واحتوى دفتره على حساب الدَّخلِ اليومي، والنَّفقات اليومية، والمبالغ الإجمالية المُحصَّلة في نهاية كل شهر. وكان الحسابُ السَّنوي سِجلًّا أُدخلت فيه المبالغ المُسدَّدة على نحوٍ ممنهج لضمان سهولةِ الرجوع إلى السجلِّ عند الحاجة. وعرَض عاملُ الخَراج الخُراسانيُّ البيانات في ثلاثة أعمدةٍ، شكَّل العمودُ الأول منها مقدار الضريبة المقررة؛ بينما أفرد الثاني لتسجيلِ المبلغ المُحصَّل فعليًّا؛ أمَّا العمود الثالث، فسجَّل فيه الفرقَ بين العمودَين الأول والثاني. وكان المبلغ المُسدَّد في معظم الحالات، أقل من المبلغ المُقدَّر.

ولم يصلنا إلا القليل من صكوكِ سدادِ الجزية أو الخَراج، أو إيصالات المُخالصة، والوثائق الحكوميَّة من هذه الشَّاكلة؛ لذا فإن معرفتنا بأساليب عمل الاقتصاد الإسلامي في القرون الوسطى غالبًا ما استَندت إلى تفسيرِ الوثائق التجارية، ولا سيما تلك المحفوظة في أوراق الجنيزة القاهريَّة إلى حدٍّ كبيرٍ. وكانت التجارة في المحاصيلِ والمُنتجات المُصنَّعة منها، ولا سيما المنسوجات، هي الوقود الذي دعَم الاقتصاد الإسلامي في القرون الوسطى. وأدى توحيد الأرضِين بين المُحيطَين الأطلسي والهندي إلى خلق سوقٍ مشتركةٍ واسعةٍ لم يشهدِ العالم لها مثيلًا من قبل.

وعلى الرغم من أنَّ القرآن والأدبيات الفقهية الإسلامية حظَرت جميع أشكالِ إقراض المال بالفائدة بوصفها من جملةِ الرِّبا، فقد كان لدى التجَّار المسلمين عدَّة طرقٍ أخرى لاستثمار رأس المال. كما لم تمنع الشَّريعةُ الإسلاميةُ تعاملات أهل الذمَّة في الاقتراضِ والإقراض مع نظرائهم من المسلمين، وتقدم وثائق الجنيزة أدلةً كافيةً على العلاقات التجارية والتبادل التجاري واسع النطاق بين اليهود والمُسلمين.

ولا شكَّ أن استخدامَ لغةٍ واحدةٍ -أعني العربية- ونظامًا نقديًا موحَّدًا، عمِلا معًا على تَسهيل التجارةِ بين مُختلفِ أرجاء العالم الإسلامي. واضطلعت الحكومةُ المركزيةُ -نظريًا على الأقل- بمسؤولية سكِّ الدَّنانير الذَّهبية والدَّراهم الفِضية والفُلوس النُّحاسية من أوزانٍ ومعاييرَ دقيقةٍ ثابتةٍ. لقد كان هذا بالطبع هو الوضع المثالي. ومع أن الدَّولةَ اضطلعت بمسؤولية سكِّ العملةِ الرسميَّةِ وفقًا لمعيار الوزن من حيث المبدأ، فإنَّ الصَّيارفةَ وزَنوا العملاتِ المعدنيَّةَ، وحدَّدوا قيمتَها في كل معاملةٍ على حدة؛ وذاك لأنَّ وزنَ العملات المعدنيَّة الفردية ودقَّة عيارها اختلفت من دارِ سكٍّ إلى أخرى، كما لعِب تاريخ سكِّ العملة دورًا في تحديدِ قيمتِها؛ لأن كثرةَ تداول العملة مع تقادُمِ العهد، جعلت العملات المعدنيَّة أرقَّ وأقل قيمةً بسبب التآكل الذي لحِقَها نتيجة لعمليات التَّداول.

وكانت عمليةُ وزنِ العُملات ومُعايرتها مهمةً شاقةً؛ لذا فقد تعامل الناسُ في كثيرٍ من الأحيان بصُررٍ مختومةٍ حُدِّدت قيمتها كتابةً على جسم الكيس من الخارج، تمامًا كما جرت الحالُ في العصر الرُّوماني ثم في أوروبا النَّصرانيَّة. وهكذا عندما تتحدَّث وثيقةٌ تجاريةٌ عن «صُرَّةٍ» من المالِ، فإنها تعني مَحفظةً مختومةً من الخزانةِ، قيمتها ستة وسبعون دينارًا وسُدس الدِّينار بالضَّبط، ومن ثم احتوت -بلا شكٍّ- على ثمانين قطعةً نقديةً ذهبيةً أقلَّ من الوزنِ الكامل.

وازدهرت مهنةُ الصَّيرفة التي ارتبطت بتحديدِ قيمة العملةِ وزنًا وعيارًا، أمام مجموعةٍ هائلةٍ ومتنوعةٍ من العملات المعدنية التي تداولها الناسُ في الأسواق. وتخبرنا وثائق الجنيزة القاهريَّة عن عُملات معدنيَّة ضُربت في العراقِ ومصرَ وتونس والمغرب والأندلُس، بل وفي صِقلية النورماندية، وعلى البر الإيطالي. وكان لا بد من تحويل كل هذه العملات وقياسها بالعملاتِ المحليَّة لتتَّسم المعاملةُ بالعدالةِ. ومن الغريب أنه لم يكن هناك مُصطلحٌ مجرَّد أطلق على النقود، على الأقل في الفترة التي تغطيها الوثائق، من منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وكان هذا العددُ الكبيرُ من العُملاتِ المُتداولةِ يعني أنَّ سكان العالم الإسلامي في القرون الوسطى اعتادوا على استخدام النقودِ بوصفها وسيلةً للتبادل أكثر من مُعاصريهم في أماكن أخرى من العالم، وأعني نظراءهم في أوروبا ضِمنًا. ويتجلَّى ذلك من خلال

حجم العُمـلات المعدنيَّة العائدة إلى القرونِ الوسـطى، وكذلك تنوعهـا ووزنها ودقَّتها وتصميمها. ومع ذلك، فإن معظمَ تجارة الجُملة بل والتَّجزئة أيضًا كانت تتم -على نحو أساسـيٍّ- من خلال الائتمان بالدَّينِ المُسـجَّل على وثائقَ من الورق. وكانت العمليات التـي انطـوت على الدَّفع عاجلًا ونقـدًا نادرةً، وعادةً ما كافأ البائعُ المُشـتري نقدًا بخصمٍ قياسـيٍّ تراوحَ بين ٢ إلى ٤٪ من إجمالي الثَّمن الكُلِّي. وبحسـب الفقيه السَّرخسـي (من أهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، فإن:

«البيع بالنَّسيئَةِ من صُنعِ التُّجَّارِ وهو أقربُ إلى تحصيلِ مقصودِ رَبِّ المالِ، وهو الرِّبحُ. فالرِّبحُ في الغالبِ إنَّما يَحصُلُ بالبيعِ بالنَّسيئَةِ دون البيعِ بالنَّقْدِ»

وتعامـل عـددٌ كبيـرٌ من وثائـق الجنيزةِ مـع الائتمانِ مثل رِقـاع الدُّيـون التي وضَّحت الزَّمـان والكيفيَّـة التـي سيُسـدِّدُ بهـا المديـنُ دَيْنَه، على سـبيل المثـال. أو مع التَّسـويات والتَّرتيبات الخاصَّة التي ارتبطَت بالتزاماتٍ وديونٍ سابقةٍ. وثمة أنواع أخرى من الوثائق -تضمَّنـت الوصايـا ومراجعـات المخـزون والحسـابات والرَّسـائل- تعاملـت أيضًا مع الائتمـانِ وذكَـرت الضَّمانـات المُقدَّمـة مـن المَديـن إلـى دائنِـه مـن العقـارات والحُلي والملابس والأثاث، بل والكُتبِ أحيانًا.

وعلى الرغم من أن الشَّـرائع الثَّلاث: الإسـلامية واليهوديـة والنَّصرانية حرَّمت الرِّبا، فـإنَّ الوثائـق أظهَرت أن المُقترضين كانوا يردون مبالغَ أعلـى من المبالغ التي اقترضوها فعليًّا. وكان البيع بالدَّيْن شِرعةُ التُّجار، وغالبًا ما كانت القروضُ تُكتَب في الوثائق بصفةِ مدفوعات آجِلة. وكان اقتراض مبالغ صغيرة نسبيًّا أمرًا شائعًا، وأقرَض التجَّارُ -مسلمون ويهود- المالَ بعضُهم لبَعضٍ على نحوٍ منتظمٍ.

وجعلـت «الأوراق» المُسـتخدمة فـي التِّجـارة منـذ القـرن الثانـي الهجري/ الثامـن الميلادي على الأقل، عمليات تحويل مبالغ كبيرة من المال خلال مسـافاتٍ طويلةٍ دون اسـتخدام النقود أمرًا ممكنًا. فقد اتَّسـم الورقُ -كما اكتشـف موظَّفو الدَّواوين ذلك منذ البدايـةِ- بسـمةٍ أصيلـةٍ فيه، تتمثَّل في صعوبـةِ محو ما خُطَّ عليه، ولا سـيَّما مقارنةً بورق البـردي أو الـرَّق، وكان ذلـك بمثابـةِ وقايـةٍ إضافيَّةٍ ضد عمليـات التَّزويـر والتلاعب في المعاملاتِ الماليَّةِ. وكان يمكن أن يؤدي مثل هذا النِّظام -بل إنه أدَّى بالفعل- إلى نشأة

بعض المعاملات المالية المُعقَّدة، من خلال استخدام أدواتِ ائتمانيَّةٍ مثل: «الحَوالة»، (ومن تلك الكلمة العربية اشتُقَّت الكلمة الفرنسية (Aval)، بمعنى «إقرار»)، وتعني المُصادقة على السَّدادِ من خلال تحويل الدَّين إلى حسابِ طرفٍ آخر.

وكتَب تاجرٌ سكندريٌّ أن «تجارَ اللؤلؤ حوَّلوا المبالغ التي داينوا بها التجَّار إلى تجارِ آخرين اشتروا منهم العطور». وثَمَّ مخالصةٌ مؤرخةٌ بصيف عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م تُنْبئ عن تاجرٍ مغربيٍّ اشترى بالدَّينِ كِتَّانًا مصريًّا قيمته ٤٠ دينارًا، وباعَه في صور واللَّاذقية بالشَّام، ثم حوَّل دَيْنه على الفسطاط بمصرَ بحَوالةٍ على حسابِ شخص يدعى نهراي بن نِسِّيم. ومن ثم دفع نهراي هذا ٢٧ دينارًا، ثم دفَع صَيرفيٌّ يدعى إبراهيم بن العالِم ١٣ دينارًا المُتبقية من المبلغ. وينبغي أن ينصرفَ ذهنُ المرء إلى أنَّ كلاهما كانا مدينًا بأموالِ لهذا التَّاجر المغربي، أو توقَّعا تحصيلَ ما دفعاه نيابةً عنه بوسيلةٍ أو بأخرى.

وكانت «السُّفْتَجَةُ» أداةً أخرى من أدواتِ الائتمانِ، وهي خطابُ ائتمانٍ بتعبيراتِنا المُعاصرة، أو من الناحيةِ الفنِّيةِ قرضٌ نقديٌّ لتجنُّب المخاطرِ النَّاجمةِ عن نقلِ الأموالِ السَّائلةِ. وكان هناك مصرفيُّون انتشروا في المساحاتِ الشَّاسعةِ للدولة بالفعل، ولكن لم يكن ثمة بنوك؛ لأنه لم تكن هناك مؤسَّساتٌ مُتخصِّصةٌ تتعامل في المالِ فحسب. وعادةً ما صَدَّر أولئك المصرفيون المشهورون «سفاتج» (أو بمُصطلحاتنا المعاصرة خطاباتِ اعتماد) مقابل رسومٍ جرى تعيينُها، ويمكن سحب السُّفْتجة مثلما تُسحَب الحوالة البريدية في عصرنا هذا، على الرغم من أنه لم يكن من الممكن عادةً تحويلها إلى طرف آخر.

وكتَب تاجرٌ سَكندريٌّ نحو عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، إلى صِنوٍ له في القاهرة قائلًا: إنه اضطرَّ إلى إرسال المبلغِ المستحقِّ عليه نقدًا لأنه لم يجد شخصًا يوافق على إعطائه «سُفتَجة». وكان يَسعُ الناس إرسال السَّفاتج إلى مسافاتٍ طويلةٍ، وكان الشَّرطُ الوحيدُ لذلك وجود اتِّصالاتٍ تجاريةٍ مباشرةٍ ودائمةٍ. وتُظهر وثائق الجنيزة -على سبيل المثال- أن بعض تجَّار تونس الذين مسَّت حاجاتهم إلى إرسال الأموالِ إلى بغدادَ اضطروا إلى إرسال نقودٍ سائلةٍ إلى الفُسطاطِ، حتى يمكنهم الحصول على سفاتج بتحويلاتِهم إلى بغداد.

وأرسل التجَّار أيضًا ملحوظاتٍ مُدوَّنةً على الورق، عُرفت بالمُصطلح الفارسي «صَك» أو «صَكَّة»، والتي اشتق منها المبدأ الأوروبي والاسم أيضًا لـ «الشِّيك (*check*)». ورأى الجغرافي ابن حَوقل (من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) صكًّا في أوْدَغَسْت غربيَّ بلاد السُّودان، قيمته ٤٢ ألف دينارٍ قام بسحبه رجل من أهل سِجِلْماسَة على رجُلٍ يدعى محمد بن علي سعدون من المدينةِ نفسها. وهكذا انتقلت قطعةٌ من الورق عبر معظم أنحاء الصحراء بدلًا من الأموالِ السَّائلةِ. وأعطى بعض الرُّؤساء نحو عام ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م لأحد الشعراء[1] صكًّا، بيد أن الشَّاعر عندما أراد صرفه رفَض الصَّيرفيُّ الدَّفع. وأنشد ذلك الشاعر المُحبَط بيتي شعر:

إذا كانت صِلاتُكم رقاعًا — تُخطَّط بالأناملِ والأكفِّ
ولم تُكن الرِّقاع تجرُّ نفعًا — فها خطِّي خُذوه بألفِ ألفِ

وعلى أيةِ حال قد تغلغَل الائتمانُ على جميع مستويات المجتمع. ووفقًا لوثائق الجنيزة، لم يكن المرء يدفَع نقدًا -حتى لبقَّال المحلَّة التي كان يقطُن بها- مقابلَ الموادِّ التموينيَّةِ التي دأب على سحبِها منه يوميًّا قطُّ، ولكنه كان يرسلُ رقاعَ شراءٍ مكتوبةً، وتوصَّل البقال لاتفاقٍ مع عملائه يقضي بالسَّداد متى وصل الدَّيْنُ إلى رقمٍ معين - ٥ أو ١٠ أو ٢٠ دينارًا أحيانًا. وحتى طلبات سحبِ النُّقود من معظم الصَّيارفة كانت بمبالغ صغيرةٍ نسبيًّا، ولا سيَّما إن حكَّمنا مجموعة وثائقَ تتكون من عشرين رُقعةٍ أصدرها صيرفيٌّ بالفسطاط عام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، تراوحت معظمها بين دينارٍ وربع الدِّينار إلى سبعةِ دنانيرَ. وأحدها فقط كان مقابل مبلغٍ كبيرٍ نسبيًّا وهو ١٠٠ دينار. وعمِلت الصُّكوكُ على حمايةِ رؤوس أموالِ التجار من المخاطر المترتِّبة على نقلِ المال، واعتُرِف بالحوالات التي تقضي بتحويل الدِّيونِ على حساب تجارٍ آخرين، أو على حساب المؤسَّسةِ الدِّينية، أو حتى دواوين الدولة، على الرَّغم من أنها كانت تدفع عادةً من قِبل الصَّيارفة.

ومَنح التجَّار خصمًا على السَّداد النَّقدي الفوري، وهي عملية تُسمَّى «المُعَجَّل»، بيد أن وثائق الجنيزة التي تذكر هذه المعاملة قليلةً بصفة عامة. ولم تتعدَّ هذه الخصومات

(١) الشَّاعر هو أحمد بن جعفر بن جحظة (المتوفى ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م). المترجم

نسبة ٣٪ قـطُّ، ولـم تُمنـح أبدًا على السِّـلع الرائجة. فقد كتَـب أحدُ التجار السَّـكندريِّين لشريكه في الفُسطاط قائلًا: «لا تبعِ الكراويةَ بأقلَّ من ثلاثة دنانير ونصف الدِّينار للقنطار مؤجلًا أو مُعَجلًا؛ فإن رضِي الشَّاري فبها ونِعمَت، وإلَّا أعِدها إلى مخزنِك»[1].

وعلـى الرغـم مـن أن السُّـفْتَجة أثـارت فضـولَ الباحثيـن، إلا أن الاقتصـادَ الورقـيَّ المنعكـس فـي وثائـق الجنيـزة اعتمـد بدرجـةٍ أقل على هـذه الوسـيلة، التـي كان دورها محدودًا قياسًـا بـ «الرُّقعة» التي كانت أكثر شيوعًا، والتي كانت بمثابة أمر دفعٍ أو تَسـليمٍ لبقَّـال أو تاجـرٍ أو صَيرفـيٍّ، وهي تعـادل «الكمبيالة» فـي عصرنا هذا. وأصـدَر الصَّيرفي الرِّقاعَ للأشـخاص الذين سبَق لهم أن أودعوا الودائع عنده، وكانت الرِّقاع تَصدُر بمبالغ تراوحـت بيـن مئات أو آلاف الدَّنانير إلى كسـورِ الدِّينار. وعدَّ التجار الرِّقاعَ الصادرةَ من الصَّيارفـة الثِّقـات كالنَّقـدِ تمامًـا، بـل إنَّ صيرفيًّـا عمل على اسـتردادِ سُـفْتَجة في إحدى القضايا التي وقَعت في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مقابل ٤٤ دينـارًا برقـاع بقيمـة ٢٠ وثُمـن الدِّينار و١٨ دينارًا، و $\frac{١}{٧٢}$ ٤ مـن الدِّينار؛ ودفع المبلغ المتبقِّـي -وهـو أقلُّ مـن دينارين- نقدًا. وبعد قـرنٍ من الزمان تقريبًـا، كان أحدهم مدينًا لناظرِ وقفٍ بمبلغ ٢٠ دينارًا، دفَع منها ١٧ دينارًا بالرِّقاع والباقي وزَنه له بالذَّهب.

وعلى الرغم من أن الرِّقاع هيمَنت على الحياةِ الاقتصادية في القرون الوسطى، إلا أنَّ إصـدارَ النُّقـود الورقيـة الفعلية لم يحدث سـوى مرة واحدة فحسـب، وانتهى الأمر على نحوٍ كارثيٍّ. فقد استُخدِمت النقود الورقيَّةُ في الصِّين في إطارٍ محدودٍ منذ القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميـلادي، وكان هذا «المال الطائر flying money»، في البداية، أشبَه برُقعةٍ صَيرفيٍّ، ولكن بحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سمَحت الدَّولـةُ لــ ١٦ أسـرةً من أشـرافِ أهـل الصِّيـن وخاصَّتِهـم بإصـدار الأوراقِ النقدية، بل وأنشأت مؤسَّسةً رسميةً لإصدارِ الأوراق النقدية الحكومية، مدعومةً باحتياطيَّات نقديَّةٍ من مختلفِ فئات النقود. ثم تُدوولت النقودُ الورقيةُ على نطاقٍ واسعٍ بحلول نهاية دولة آل سـونج الشَّمالية (Northern Song) (١١٢٧م)، ووصَـف ماركو بولو تلك النقود مُعربًا عن دهشتِه منها.

---

(١) مـا بيـن علامتي تنصيص ترجمةٌ لعبارات المؤلف بالإنجليزية، وليسـت ترجمة للوثيقة التي لم أطَّلع عليها بطبيعة الحال. (المترجِم)

وأسفَرت زيادة الاتصالات بين الصِّين وبلاد فارس في أعقاب اجتياح المغول لكلا القُطرَين في القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عن محاولةٍ قام بها الخان الإيلخاني (المغولي) لـ فارس جايخاتو (Gaykhatu) لإدخالِ النقودِ الورقيَّة المطبوعة بالقالب (block-printed) إلى مملكتِه في عام ١٢٩٤م، وطبع جايخاتو عملتَه الجديدة التي أسماها «شاو» (chao) في تِبريز، فرفَض أهلُها التعامل بها، ثم هددت السُّلطات المحلية بإعدام كل من يرفض التَّعامل بالعملةِ الجديدةِ، ومع ذلك أبى الناسُ قبولَ هذه العملة. ثم لم يجد الحاكم بدًّا من إعدام الوزير المسؤول عن وقوعِ هذه الكارثة، وعلى إثر هذه الحوادث عاد الإيلخانيُّون إلى سكِّ العملاتِ المعدنيَّة من النوع الإسلامي التقليدي.

وتعود معرفتُنا بأنماط النَّشاطِ الاقتصادي في العالم الإسلامي في القرون الوسطى إلى حدٍّ كبيرٍ إلى الوثائق الورقيَّة المكتوبة التي وصَلتنا. فإضافةً إلى الأوراقِ التجارية -التي تغلغَلت في الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي في القرون الوسطى- استُخدِم الورقُ أيضًا لحفظِ الحساباتِ والسجلَّاتِ التجارية. وامتنع بعض تجارِ الجنيزة عن تقديمِ سجلَّاتٍ مُفصلةٍ للحسابات، وعدُّوا الطلبات من هذه الشَّاكلة تعبيرًا عن عدم ثقةِ شركائهم فيهم. ولكن التجارَ أجرَوا حساباتٍ دقيقةً -في الواقع- على نحو منتظمٍ، وغالبًا ما وصَلت حساباتُهم إلى كسورٍ دقيقةٍ من الدِّينار. وثم أنواع من الحسابات بين وثائق الجنيزة، تضمَّنت تقارير للشُّركاء أو العملاء حول القوافل والمبيعات والمُشتريات والأرصدة المستحقَّة؛ وحسابات لاتِّصالاتٍ بعينِها أو مُعاملات محدَّدة، مثل الشَّراكات أو المبيعات أو المُشتريات أو حساب تكاليف النقل؛ والحسابات الخاصة التي أجراها كاتبُ الوثيقة لنفسه. وثَمَّ نوع آخر من الحسابات هو ذلك الذي قدمه رؤساء الطوائف، ومن الغريب أن ذلك النَّوع الأخير من الحسابات كان يفتقرُ إلى حساب إجمالي الإيرادات والنَّفقات.

وغالبًا ما كانت الحساباتُ القصيرة تُكتَب على أوراق مفردة، مثل الرسائل، وكانت تُكتَبُ في بعض الأحيان من عدة نُسَخ، إما من باب إيثارِ السَّلامة وخوفًا من ضياع الورقةِ، أو لأن المعاملةَ تضمَّنت عددًا من الشُّركاء. ومسَّت حاجة التجار أيضًا إلى نُسخٍ مُتعددةٍ في بعض الحالات الخاصة، مثل معاملات التَّعويضات التي كان يتعيَّن دفعها

بعد حوادث غرق السُّفن. وكانت الحسابات الأطول تُكتب عادةً على نسقِ كُتيِّبٍ صغيرٍ يُعرف باسم الدَّفتر، والذي تراوح عرضه عادةً ما بين ٣ إلى ٤ بوصات (٧-١٠سم) وعرضه بين ٥,٥ :٦ بوصات، أو ٥,٧: ١١ بوصة (١٤-١٥سم- ١٩: ٢٨ سم) طولًا. وسمَحت هيئةُ الدَّفتر للتاجر بحملِ دفتره في كُمِّ جُبَّته، والتي كانت تتميز عادةً بأكمامٍ واسعةٍ للغاية، كانوا يستخدمونها كما نستخدم نحن جيوبنا الآن. ومن ثم كان دفترُ التاجر حاضرًا معه على الدَّوام ليرجع إليه متى شاء. وتكوَّن الدَّفتر من ورقة واحدة مطوية من المُنتصف (*Bifolio*)، ما نتَج عنه أربع صفحات كانت متاحةً للكتابة عليها. وكان يمكن ثقبها قُرب الطيَّة، بحيث يمكن تجميع مزيد من الأوراق على شاكلتِها، على الأرجح باستخدام الخيوط، إلى حدٍّ ما مثل دفتر النَّثريات في عصرنا هذا، لمواصلةِ عملياتِ تسجيلٍ طويل الأمد للحسابات.

وإذا غضَضْنا الطَّرف عن أوراق تونس، حيث ظلَّ الرَّق شائعًا لفترةٍ أطول من أي مكان آخر، فقد كتُبت جميع دفاتر الجنيزة تقريبًا على الورق. ونظرًا لأن الورق نفسه ظلَّ باهظَ الثَّمنِ، فإن الرِّقاع المُعتادة كانت بنصف حجم «الشِّيك» الحديث. وبالكاد توفر وثائقُ الجنيزة صورةً كاملةً للحالةِ الماليَّة في الأعمال المُعقَّدة التي أدارها هؤلاء التجار. ولم تكن دفاترهم على غرارِ دفاتر الأُستاذِ على سبيل المثال، بل كانت ملفاتٍ يُدخل فيها التَّاجر ملحوظاته حول مدفوعاته ورِقاعه، بالإضافةِ إلى نُسخٍ من أي حساباتٍ مُقدَّمةٍ إلى وكيلٍ تجاري. وكانوا يطلقون على النسخة اسم «الجِذر» أو «الأصل»؛ لأنه كان مقبولًا عند القاضي بوصفِه دليلًا ظرفيًّا، وإن لم يكن رسميًّا؛ حيث اتخذ التجار -مثَلُهم في ذلك مثَلُ الفُقهاء- موقفًا مُتناقضًا تجاه الوثائق المكتوبة، كما هو موضح في سجل المحكمة الذي يفيد -على الأرجح- بقبول القاضي لشَّهادة الشُّهودِ، بعبارة: «إن الشَّاهد يتذكر جيدًا ما وقع، على الرغم من أنه لم يُسجِّل ذلك في دفتره».

وعلى الرَّغم من أن الحسابات المكتوبةَ كانت ضرورية في الأعمال التجارية، إلا أن المهارة والحفظ والذَّاكرة الجيدة كانت ما تزال على القدرِ نفسِه من الأهمية، حتى بالنسبة للتجَّار الذين كان لديهم معاملات تجارية مُعقَّدة. وثم ارتباطٌ وثيقٌ بين المُمارسات المصرفيَّة التي انعكست في وثائق الجنيزة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وتلك المعاملات المعروفة التي جرَت في أوروبا بعد قرنين أو ثلاثة قرون.

واتَّبعت المُحاسبةُ في الحقبة التي غطَّتها وثائق الجنيزة ممارساتٍ راسخةً دلَّت على تقليدٍ طويلٍ، وكانت أداةً حيويةً في الحفاظ على اقتصادٍ مُنظَّمٍ، ومع ذلك لم تحقِّق المعاييرَ التي توصَّل إليها الإيطاليُّون في أواخر القرون الوسطى. وعلى الرغم من أنه يُقال: إن أسلوبَ القيدِ المزدوج[1] في المحاسبةِ المُستخدَم في أواخر القرون الوسطى في أوروبَّا، من أصولٍ عربيَّةٍ أو هنديَّةٍ، فإن ذلك الرأي يفتقر إلى الأدلَّةِ الدَّاعمةِ، ومن قبيل الأحوطِ أن ننسِبه إلى التجار الإيطاليِّين في نهاية القرنِ السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في الوقت الذي استطاع فيه التجَّار الأوروبيُّون الجمع بين الورق والحساب باستخدام الأرقام الهند-عربيَّة. وعلى هذا النحو انتشر تقييدُ الدَّفاتر مزدوجة القيدِ في جميع أنحاء أوروبَّا على الطريقة «الإيطاليَّة».

وعلى الرغم من التطوُّراتِ اللَّاحقةِ، كانت الإجراءات المالية في العالم الإسلامي في القرون الوسطى مُعقدةً ودقيقةً، وشُيِّد ذلك الصَّرحُ المُعقَّدُ بأكمله اعتمادًا على توافر الورقِ. واستُخدِم الورق للاتصال بين مجتمعاتِ التجار رغم بُعْد الشُّقَّة، والمسافات الشَّاسِعة التي فصَلت بينهم، كما استُخدِم لحفظ السجلَّات، ولتحويلِ النقود، ولاتخاذ الضَّمانات الشَّرعية والقانونيَّة كافةً.

فنُّ رسم الخرائط

لعِب الورق دورًا مُهمًّا أيضًا في تطوير رسم الخرائط الإسلامية في القرون الوسطى، والذي ورِث التقاليد السَّابقة في رسم الخرائط -سواءً اليونانية أو الفارسية أو الهندية- لإنشاء تمثيلاتٍ أدق للعالم والسَّماء، ثم عمِل على تطويرها، وذلك قبل تطور رسم الخرائطِ الحديث خلال عصر النَّهضة الأوروبية.

ووفَّرت المُتطلبات السياسية والإدارية في العالم الإسلامي دافعًا جديدًا لتقاليد رسم الخرائط القديمة. بيد أنَّ ازدهارَ رسم الخرائط الإسلامية -مثلُه في ذلك مثلُ الرياضيات، والإجراءات الإدارية الجديدة للدَّولة، والمؤسَّسات التجارية المُعقدَّة العابرة للقارات- تزامن مع التوسُّع في ثقافة استخدام الورقِ في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي. وأدى الاهتمام المتزايد بالجغرافيا على الفورِ إلى ظهور عددٍ كبيرٍ من الكتاباتِ الجغرافيَّة

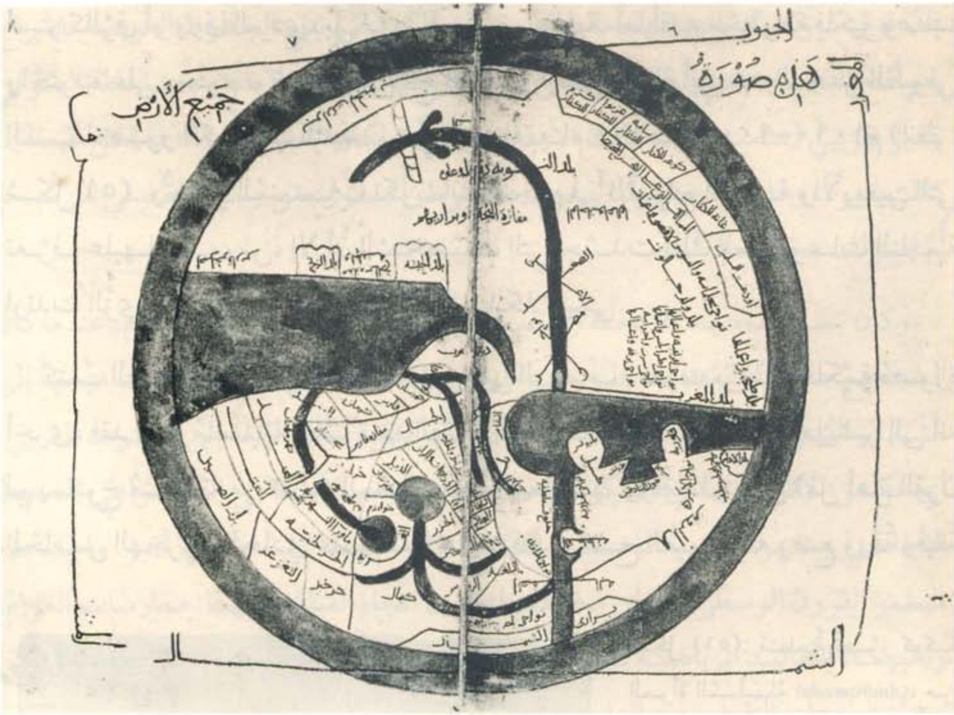
(١) الإيماءةُ إلى «دفترِ اليوميَّة» و«دفتر الأُستاذ». (المترجم)

التـي وصَفـت العالـم وتقاسـيمَه ومُناخـه، على الرَّغـم مـن أن أقدمَ الخرائـط الفعليَّة التي وصلتنا يعود إلى ما بعد سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م.

ومثلما لا ينبغي أن يُخفي عصرُ التَّدوين وظاهرة انفجار الكتبِ في القرون الوسـطى الإسلامية استمرار أساليب الرِّواية والنَّقل الشفاهي في أوساط شريحةٍ كبيرة من السكَّان، فإن وجودَ الخرائط لا يُشـير بالضرورة إلى ظهورِ جمهورٍ اعتاد على قراءة الخرائط، فلم تكـن الخرائـط متاحـةً أو مُخصَّصـةً لاسـتخدام الجمهـور قطُّ؛ بـل كانت قلةٌ مـن الناسِ يعرفـون الكيفيَّـة التي تُقـرَأ الخريطة بها، أو يدركون أنهم بحاجـةٍ إلى خريطةٍ أصلًا. وقد يبدو لنا أن عددًا كبيرًا من الخرائط الإسلامية في القرون الوسطى اليوم كان مخطَّطًا على نحو مُعقَّد، ويستعصي على التَّفسير (انظر: شكل ٥٠). ومع ذلك، ينبغي فهم التقنياتِ المُتطوِّرة على نحـو متزايـدٍ لتمثيـل العالم ثلاثـي الأبعاد على سـطحٍ ثنائـي الأبعاد من زاويتيـن، أولاهمـا: الوعـي المتزايـد بالإمكانيَّات التي وفَّرهـا الورقُ من القَطـع الكبير، وثانيتُهمـا: المُستوى العالي مـن تطورِ الفنونِ البصريةِ، وسـأناقش هـذه القضيةَ الأخيرةَ تفصيلًا في الفصل التالي.

كانت المعرفة بالجغرافيا في القلبِ من الدِّين عند المسلمين؛ إذ إن المسلمين يولُّون وجوههم شـطر المسجد الحـرام كل يومٍ خمس مـراتٍ في صلواتهم التـي تُعد رُكنًا من أركان الإسـلام. ويُعـرف اسـتقبال الكعبة وقت الصلاة عند المُسـلمين اصطلاحًا باسـم «القِبلـة». ومـن ثم، يجب أن يكون المسـلمون قادريـن على تحديدِ اتجـاه القبلة من أي نقطةٍ على سطحِ الأرض من أجل تأدية الصلاةِ على وجهِها، وكذلك أداء بعض الشَّعائر الأخرى، مثل دفن الموتى، وتلاوة القرآن، والأذان، وذبح الأضاحي.

كانت المسـاجدُ والمباني الأخرى ذات الطبيعة الدِّينية تسـتقبل القبلة؛ أما غيرها من المباني، مثل الحمَّامات أو المراحيض، فقد رُوعي في بنائها أن تَسـتدبرَ واجهاتُها القبلةَ أو أن تَحيـدَ عنهـا. ويمكـن مقارنة مفهوم «القِبلة» في الإسـلام بعادةِ اليهود في اسـتقبال القُـدس عنـد الصَّـلاة، والتـي انبثقت منهـا الممارسـةُ الإسـلاميَّةُ، وبالمفهـوم النَّصراني لاستقبال الكنائس جهة الشَّرق. ومع ذلك، فإن مفهوم «القِبلة» لعِب دورًا أكثر أهمية في الإسـلام قياسًـا باليهوديـة والنصرانية؛ وذاك لأنه حـدَّد في نهاية المطاف اتجـاه كثيرٍ من المسـاحات الدُّنيوية، وكذلك المسـاحاتِ الدِّينيَّة برمَّتِها. وفوق ذاك، فإن استقبال القِبلة



شكل (٥٠): خريطةُ العالـم في إحدى نُسَخ كتاب **صورة الأرض** لابـن حوقل، وقَـع الفراغ من نسـخِها عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م. يظهر فيها البحر المتوسـط يمينًا، وأوروبا أسـفله وإفريقيا فوقه. بالمداد والألوان على الورق. مكتبة قصر طوب قابي سراي، إستانبول [A 3346].

فـرضُ عيْـنٍ على جميع المسـلمين، وليس خيارًا كما هو الحال بالنسـبةِ للنَّصارى. وثمة جوانـب أخرى من الشَّـعائر الإسـلامية، مثـل: تحديـد التَّقويم الهِجـري وكذلك تحديد المواقيـت الدَّقيقـة للصلواتِ الخمـس، وهي جوانبُ تضافرت معًـا وعمِلت على تعزيز اهتمام الجُمهورِ بمُراقبةِ السَّماء.

وعلى المسـتوى العلمي التخصُّصي، وسَّـع علماءُ الفلكِ التَّقاليد الكلاسيكية في فنِّ رسم خرائط النجوم والأبراج وصُنع الإسطرلابات، وهي الأدواتُ المستخدمةُ لحساب مواقع الأجرام السَّـماوية وكذلك تحديد موقع المرء على سـطحِ الأرض. وأقدم خريطة إسلامية للسَّماء هي السَّقف المرسوم على قبَّة حمام شُيِّد في أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامـن الميـلادي فـي «قصير عمـرة»-الأردن. ولم يُشْـتَقَ المُخطَّط الزُّخرفي من سـطحِ

مُستوٍ كالرَّق أو ورق البردي، بل من سطحِ كُرةٍ سماوية. أما أقدم مخطوطةٍ فلكيةٍ وصَلتنا واحتوت على رسومٍ توضيحيَّةٍ للأبراج السماوية فهي رسالة أبي عبد الرحمن الصُّوفي المُسمَّاة **صور الكواكب الثابتة**، وهي مؤرخةٌ بعام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩-١٠١٠م (انظر: شكل ٥١). وتُظهِر المُنمنمات تكويناتُ النُّجوم في الأبراج الثَّمانية والأربعين التي تعرَّف عليها بطليموس، إلا أنَّ الشخصيَّات التي جسَّدت تلك المجموعات النجميَّة ارتدت الزِّي الشَّرقي بدلًا من الزِّي اليوناني الكلاسيكي.

كتَب الصُّوفي في رسالتِه قائلًا: إنه على الرغم من معرفته برسالةٍ فلكيَّةٍ مُصورةٍ أخرى، فقد نسَخ مُنمنماتِه مباشرة من الصُّورِ المنقوشةِ على كُرةٍ سماويَّة، ما يُشير إلى أنه لم يستوحِ مُنمنماته من تقاليد المخطوطات المعاصرة. ووفقًا للبيروني (من أهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، فقد أوضح الصُّوفي أنه وضع ورقةً رقيقةً



شكل (٥١): مُنمنمةٌ تُصوِّر كوكبةَ المرأةِ المُسَلسلةِ (*Andromeda*)، من رسالة أبي عبد الرحمن الصُّوفي **صورة الكواكب الثابتة**، من نُسخةٍ وقع الفراغ منها عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩-١٠١٠م. رُسمت بالمدادِ والألوانِ على ورق. مكتبة بودليان (*Bodleian Library*)، أكسفورد [*Ms. Marsh 144, p. 165*].

جدًا فوق كرةٍ سماويَّةٍ وركَّبها بعناية على سطح الكرة. ثم تتبَّع الخطوط العريضة للأبراجِ ومواقع النُّجوم على الورقِ كلٌّ على حدة. وعلَّق البيروني لاحقًا بأنَّ ما فعَله الصُّوفي تقديرٌ تقريبيٌّ [مناسب] إذا كانت الأرقامُ صغيرةٌ، ولكنها بعيدة عن [الدِّقة] كل البُعدِ إذا كانت كبيرةً. وعلى أية حالٍ فقد نُسِخَت مخطوطة أكسفورد من رسالةِ الصُّوفي من نُسخةٍ أُمٍّ للمؤلف بخطِّ أحدِ أبنائه.

وكان يَسهُلُ تحديد الاتجاه النِّسبي للقِبلة في عصر صدرِ الإسلام، عندما كان المجتمع صغيرًا ومُقتصرًا على شبه الجزيرة العربية؛ فأي قافلةٍ سافرت متجهةً إلى الشَّمال الشرقي من مكَّةَ إلى المدينة كان أهلها يعلمون أنَّ القِبلةَ إلى الجنوب الغربي، أي عكس الاتجاه الذي سلَكوه. ومع امتداد العالم الإسلامي إلى شواطئ المحيط الأطلسي وسهوب آسيا الوسطى، شكَّل تحديدُ اتجاه القِبلة تحديًّا أكبر. واستَخدَم مسلمو القرون الوسطى نهجَيْنِ مختلفَيْنِ لتحديد اتجاه القبلة، أوَّلهما: ممارسات العوامِّ. وثانيهما: التَّقاليد الرياضية للجغرافيا العلمية اليونانيّة-الرُّومانيَّة والفارسية، والتي تضمَّنت -على النَّقيضِ من العلوم الشَّعبية- النظرية والحساب.

انقسَم العالم في أذهان العوامِّ إلى أقسامٍ وقَعت الكعبةُ في القلبِ منها، وتحدَّد اتجاه القبلة بمبادئ علمِ الفلكِ عندهم. وهكذا، صلَّى مسلمو المغرب باتجاه قسم «المغرب» من الكعبة، والذي تحدَّد من خلال شروقِ بعض الأجرام السَّماوية أو غروبها، فإذا استقبل المرء الاتجاه المعاكس لحركةِ الجُرم السَّماوي، استقبل القبلة. كان هذا النَّهج السَّهل شائعًا على نطاقٍ واسعٍ، ودافع عنه معظمُ الفقهاء، ووُثِّقَ في القرن الرابع الهجري/العاشر في رسائل تناولت علم الفلكِ الشَّعبي وعلم الفلك الرياضي، والتَّقويم، والجغرافيا، والكوزموغرافيا (Cosmographies)، والموسوعات، وكُتب التَّاريخ، والمُصنَّفات الفقهية، ولكن ربما استُخدِمَ قبل ذلك بكثيرٍ.

وكانت الجغرافيا العلميَّة تخصُّص صفوة الصَّفوة من العلماء، مثلُها في ذلك مثل علم الفلك. وقد استنَد إلى تَطبيقِ المبادئ الرياضيَّةِ للهندسةِ وعلم حساب المُثلَّثات لتحديد خطوط الطول وخطوط العرض، وكذلك استند إلى معرفة الجيوديسيا (*Geodesy*) (أي قياس المسافات على السَّطحِ الكروي للأرض). كما أدرَجت الجغرافيا الإسلامية عدَّة تقاليدَ جغرافيةٍ مُختلفةٍ، أهمها التقليد الكلاسيكي للجُغرافي السَّكندري

بطليمـوس وخُلفائِـه في القرن الثَّاني الميـلادي، الذي أخرج إحداثيَّـاتٍ محليَّةً لخطوط الطول والعرض، وقسَّـم الأرض إلى أقاليم أو مُناخات، وفقًا لطول أطول يوم في وسـط الإقليم.

واهتـم عددٌ كبيرٌ من الرِّياضيِّين المسـلمين بمسـائل الجغرافيـا بحُكمِ الضَّرورة. ومن خـلال الإشـارات القليلـة والغامضة إلـى التَّمثيـلات الجغرافيـةِ في العصور الإسـلامية المبكرة، بوسـعنا أن نُخمِّن أن الخرائطَ لـم تكن معروفةً أو مُستخدَمةً على نطاقٍ واسعٍ آنذاك. فعلى سبيل المثال، فقد أُعِدَّت «صورةٌ» لبلاد الدَّيْلَم -وهو الإقليم الجبلي الواقع إلى الجنوب الغربي من بحر قَزوين- للحجَّاج بن يوسُف الوالي الأُموي على المَشرق، نحو عام ٨٣هـ/ ٧٠٢م حتى يقفَ على الوضع العسـكري لقواتِّه هناك على نحوٍ أفضل. وقيل أيضًا: إنَّ الحجَّاجَ أمر بعمل صورةٍ لـ بُخارى حتى يتمكَّن من الاستعدادِ لحصارِها عام ٩٠هـ/ ٧٠٧م. ورُسِمَت صورةٌ لمستنقعاتِ البطائح، الواقعة قرب البصرة في عهد الخليفـة العباسـي المنصور، لتسـويةِ نزاعٍ دار حول حقوق المياه فيهـا. وليس لدينا فكرةٌ البتَّة عما إذا كانت هذه الصور عبارة عن خرائطَ فعليةٍ، أو رسوم تخطيطية، أو أشكالٍ من منظـورِ عيـن الطائرِ، أو ما كانت عليه في الحقيقة، بيد أنها كانت من النُّدرةِ بحيث اقتصَر المؤرِّخـون المتأخِّـرون على ذكر هذه الخرائط الثَّلاث فحسـب. ولـم يتطور نظامٌ متسقٌ ومتماسكٌ لرسمِ الخرائطِ حتى أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، في عهد الخليفة العبَّاسي المأمون، عندما كان «بيت الحكمةِ» في بغداد في أوْجِ ازدهاره.

ترجَـم علمـاءُ بيـتِ الحكمـة المُصنَّفـاتِ المبكـرةَ لليونانيِّيـن والفُـرس والهنـود فـي الجغرافيا، وعمِلوا على تنقيحها، ولا سيما **كتاب الجغرافيا** لـ بطليموس الجغرافي. ومن المعروف أن المأمونَ نفسَه كلَّف العلماء بإنشاء خريطةٍ كبيرةٍ مُلوَّنةٍ للعالم، عُرفت باسم «المأمونيَّـة». وبعـد قـرنٍ أو نحو ذلك، ذكَر المـؤرِّخ والجغرافي المسـعودي أن الخليفةَ المأمون أمَر عددًا من العلماء برسـم العالـم بأقاليمه ونجومه وأراضيه وبحاره والمناطق المأهولة وغير المأهولة والمُستوطنات والمُدن وبقيَّة أنحاءِ الدُّنيا. وقال المسعودي: إن ذلـك التمثيـل جـاء أفضـل مـن محـاولات سـبَقته، سـواء كانـت الخريطـة فـي جغرافية بطليموس، أو خريطة خلفه مارينوس، أو حتى عند غيرهما.

لم يبقَ أثرٌ لخريطةِ المأمون، وشكلُها الفعلي غير مؤكَّد، على الرغم من أنه يبدو أنها

كانت كبيرةً للغاية. ومن جهةٍ، تُشير مقارنة المسعودي لخريطةِ المأمون بالخرائط اليونانية إلى أنها جاءت على غرارِها، أي أنها أُنشئت من خلال مساقط تُشبه الشَّبكة لتُشكِّلَ خطوطِ الطول والعرض. ومن جهةٍ أخرى، تُشير المصادر إلى نُسخٍ لاحقةٍ -ولكنها فُقِدت أيضًا- من خريطةِ المأمون إلى أنها ربما تكون قد استندت إلى النظام الجُغرافي الفارسي المكون من سبعة أقاليم مُناخية (وهي بالفارسية كيشفار)، حيث توزعت ستُّ أقاليم مُناخيَّة حول عاصمة الدولة العباسية بغداد. ولا يبدو أن الدِّقة الطبوغرافيَّة كانت موضع اهتمامٍ كبيرٍ، فقد أمرَ المأمون -مثلُه مثلُ من جاء قبله ومن أعقبه من الخلفاء- على الأرجح بإنشاء «صورتِه» -أو بالأحرى خريطته- كي يُظهر نفسه، في مركزِ الأرض، ويحكم أفضَل أقاليمها وأكثرها أهميَّةً، والتي توزَّعت حول ذلك المركز.

وعلى الرغم من أن خريطةَ العالم التي رسَمها المأمون قد صُمِّمت في المقام الأول إرضاءً لغرورِ الخليفة، إلا أن هناك احتمالًا قائمًا أن يكون عالم الرياضيَّات الخُوارِزمي واحدًا من مجموعة العلماء المُعاصرين الذين كلَّفهم الخليفةُ بإنشاء الخريطة. وقد نشَأت شُهرة الخُوارِزمي في الغرب من خلال كتُبه عن حساب الأرقام الهندية والجبر، وعلى النَّقيض من ذلك، استندت شهرة الخُوارِزمي في العالم الإسلامي في القرون الوسطى إلى مصنَّفاته في الفلكِ والجغرافيا.

صنَّف الخُوارزمي كتابًا يحتوي على جداول حدَّدت نحو ٢٤٠٤ موقعٍ محليٍّ على خطوط الطول والعرض على نحوٍ دقيقٍ. كما صحَّح عددًا كبيرًا من القِيم الخاطئة لإحداثيَّات عددٍ كبيرٍ من المواقع التي حدَّدها بطليموس. ونظرًا لأن إحداثيَّات بطليموس قد وُضِعَت لتَمييزِ الأماكن على الخريطة، فمن المرجَّحِ أن خريطةَ المأمون استخدمت نظامًا مشابهًا لتحديدِ المواقع عن طريق النِّظام نفسِه من الإحداثيَّات. ويتعزَّز هذا الاحتمال لدينا من خلال مصدرٍ آخر: فقد كانت جداول الخُوارِزمي نموذجًا لجداولِ العالم الجُغرافي سُهراب بن سيرابيون، الذي عرض توجيهاتٍ مُفصَّلةً لإنشاء خريطةٍ على شبكةٍ مُستطيلةٍ من قوائم الإحداثيَّات، قال سُهراب:

> «... فإذا أردْتَ -أدام الله كرامتَك- أن تبتدئ بعملٍ في بَسيطٍ مربعٍ فليكن حسب ما أحبَبْت، وكلَّما اتَّسَع كان أحسَن وأبيَن، ويكون عرضه مثلَ نصف

طولـه. ورَبِّعـه تربيعًـا صحيحًـا لا زلَـل فيـه، فـإذا فعَلت ذلـك فاعمَد إلـى أربعة حواشيه فاستخرِج فـي كل حاشيةٍ منهـا ثلاثـة خطوطٍ مثـل خطوطِ المسطرة المقسومة؛ فيكون خطّان يقع بينهما بيوت الأخماس، والثّالث يلحق به الأجزاء. فـإذا فعَلـت ذلـك بأربعـةِ جوانبِـه فقد خطَطـت المَسـاطر الأربـع واحتجت إلى قِسـمتها إن شـاء الله تعالى، ثم اعمد إلى مسـطرتي الطولِ فاقسم كل واحدةٍ منها بمئة وثمانين جزءًا قسـمةً صحيحةً واقسـم أيضًا مسـطرتي العرض بمئة وعشـرة أجـزاءٍ قِسـمةً صحيحـةً واحْـذَر الزَّلل ... ثم اعمـد إلى إحدى مسـطرتي الطول والعـرض، فوَقِّـع عند وسـطِها أفـق الجنوب وفي وسـطِ المسـطرة الأخرى أفقَ الشَّـمال. واعلم أنَّك وضَعت مسـطرة الجنوبِ، وفي وسـط المسـطرة الأخرى التـي بإزائهـا أفـق الشَّـمال. واعلم أنك إذا وضَعت مسـطرة الجنـوب بين يديك كانت المسـطرة اليُمنى من العرضِ، وهي مسـطرة المشرق، أُفق المشرق وعلى الأخـرى التي بإزائها وهي اليُسـرى أُفـق المغرب، فتكون قـد فرَغت من الآفاق الأربعة».

يُشير نصُّ سُهراب إلى أنَّ خريطةَ المأمون السَّابقة تأسَّت بالخرائط اليونانية على نحوٍ أو آخر؛ وذاك لأنه يُشـير إلى أن الشَّـرقَ ينبغي أن يكون على اليمين والغربَ على اليسـارِ في الخريطة. ومن ثم يكون الشمال في الجزء العلوي من الخريطة، باتباع مبادئ الاتجاه اليُونانيـة. وبحلـول الوقت الذي نُسِـخَت فيه مخطوطة سُـهراب بالعربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كانت المُمارسةُ الإسلامية المعتادة تضع الجنوبَ في أعلى الخريطـة، وربمـا كان ذلـك لأن مكَّةَ كانت تقع إلى الجنوب مـن مُعظم المناطق المُمثَّلة على الخرائط العربية. وعلى الرغم من أن وضعَ الجنوب في أعلى الخريطة هو سمةٌ من سـماتِ الخرائط الصينيَّة، فيبدو أنَّ التطورَ الإسـلاميَّ في فنِّ رسـم الخرائط جاء مستقلًّا عن المُمارسةِ الصينيَّة.

ويُعتقَد أن الخُوارِزمي اشـتقَّ إحداثيات جداوله عن طريق رسـم مسقطٍ شبكيٍّ، تمامًا كالـذي وصـف سُـهراب طريقةَ صُنعِه آنفًا، على نُسـخةٍ سُـريانيَّة من خريطـةِ بطليموس، وليـس عن طريق نَسـخ جداول سـابقةٍ. ومما يدعم هذا الاسـتنتاج؛ ارتبـاكُ الخُوارِزمي، وسـوء قراءته لبعضِ أسـماء الأماكن وقيم الإحداثيَّات، والتي يمكن تفسيرها من خلالِ صعوبـة ترجمة بعض الأسـماء والأرقامِ من اليونانيَّة والسُّـريانية إلـى العربية؛ فقد مُثِّلت

الأرقـامُ عـادةً بعلامـاتٍ أبجديَّـةٍ فـي جميع هذه اللغـات -كما اسـتَعرضنا سـابقًا- وفي الأبجديات السَّـامية، لـم يُكترَث لإثباتِ النقاطِ تمييزًا للأحرُفِ ذوات الشَّـكل المتشـابه، بيـد أن القيـمَ العدديةَ المختلفةَ تسـبَّبت في اختلاطِ الأسـماء غير المألوفةِ وتَشـوُّش قيم إحداثيَّاتهـا. فأحيانًـا -علـى سـبيل المثـال- قد يلتبسُ الأمرُ علـى القارئ فيقـرَأ الأرقامَ المعطاةَ للإحداثيَّات الجغرافيَّة -المصفوفة بنظام «أبجد»- على أنَّها أسـماءٌ لأماكن غير مألوفةٍ، بينما هي في حقيقة الأمرِ مجرد أرقام.

وعلى أية حال، لا تُشير المصادر إلى المادة التي صُنِعت منها خريطةُ المأمون. ولكنها ربمـا رُسِـمَت علـى القماش؛ وذاك لأنها وُصِفَـت بالكبيرة، مثلُها في ذلـك مثَلُ الخرائط الكبيـرة الأخـرى التي رُسِـمَت لاحقًا؛ وذلك لأنَّ الورق لم يكن قـد صُنِع بعد على هيئة أفرخ من القَطع الكبير.

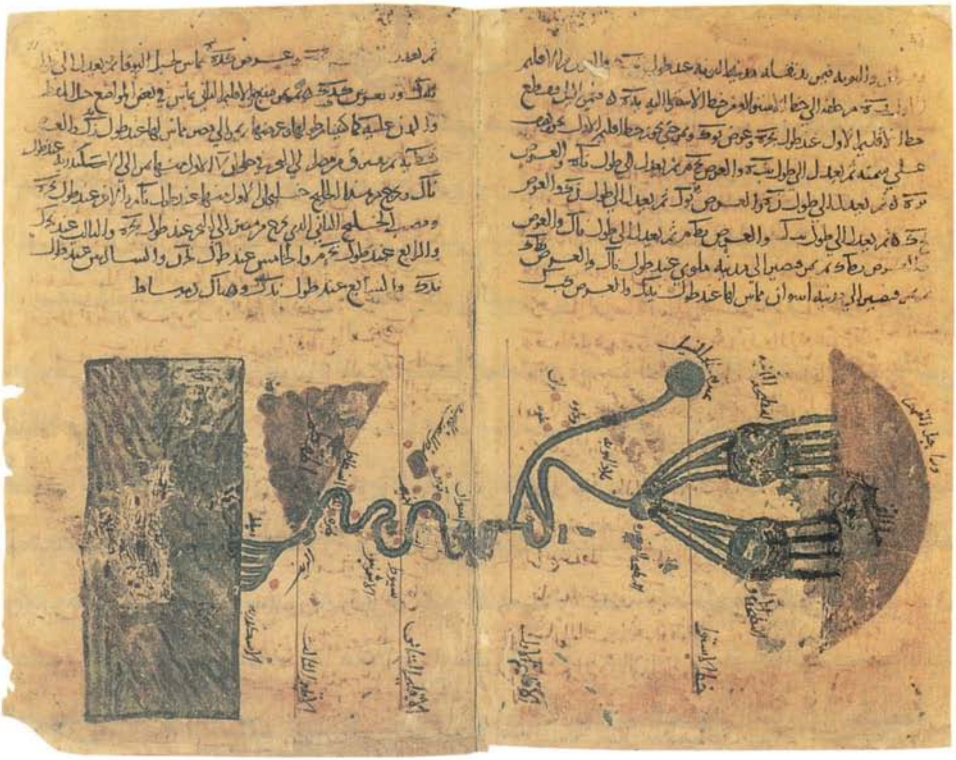
ورأى ابـن النَّديـم، صاحـب كتـاب **الفهرسـت**، فـي القـرن الرابـع الهجري/ العاشـر الميـلادي، «وصفًـا للعالـم» أعدَّه جُغرافي مـن صابئةِ حرَّان -الواقعة شـمال بلاد ما بين النَّهرين- وأشار إلى أنها كانت مرسومةً على الكِتَّان، «خام، بأصباغٍ»، ما يُشير إلى أن هذا الوصف للعالم كان في الواقع خريطةً على القماش.

وفـي الوقـت نفسـه تقريبًا، أمَر الخليفـةُ الفاطميُّ المُعزُّ لديـن الله -الذي حكَم تونس آنذاك في عام ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م- برسـم «صورةٍ» منسـوجةٍ على الحرير التُّسْتَري الأزرق، تُصـوِّر الأرضَ والجبـالَ، والبحار والمـدن والأنهار والطُّرق. وبـرزَت في هذه الخريطة المدينتـان المُقدَّسـتان: مكَّـة والمدينة. وحُـدِّدت التَّفصيلات على تلـك الخريطة كتابةً، ويُفتـرض أنهـا كانـت مُطـرزةً بخيوط مـن الذهـب والفضة والحريـر الملـون. وقيل: إن الصـورة كلَّفـت الخليفـةَ مبلغًا هائلاً بلَـغ نحو ٢٢ ألف دينارٍ، ويبـدو أن الهدفَ من تلك الخريطة كان هو الغرضُ نفسه من خريطة المأمون: تمجيد الخليفةِ الذي أمر بصُنعِها.

ومع ذلك، فإن أقدمَ الخرائط التي وصَلتنا من العالم الإسـلامي هي خريطة رُسِـمت علـى الـورق، ضمَّتها مخطوطةٌ فريـدةٌ من نوعها مـن مُصنَّفٍ في الجغرافيـا للخُوارزمي اكتُشِـفت في القاهرة في نهاية القرن التاسـع عشَـر. وتحتوي هذه المخطوطة، المؤرَّخة بعـام ٤٢٩هــ/ ١٠٣٧م علـى أربـع خرائـط تخطيطيَّةٍ تُظهـر جزيرة الجوهـرة، والمحيط

العالمي، ونهر النيل، وبحر آزوف (انظر: شكل ٥٢). ونظرًا لأن الخرائط أُعِدَّت تقريبًا بعد قرنَين من فراغ الخُوارِزمي من وضعِ الكتاب، فمن غير الواضح إلى أي مدى عكَست تلك الخريطة مفاهيم الخُوارِزمي الأصيلة، وإلى أي مدى عكَست أيضًا تقاربًا مع تقليدٍ ثانٍ في رسم الخرائط الإسلاميَّة، ارتبط بازدهار الكتابة الجغرافيَّة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

ظهَر نوعٌ جديدٌ من الأدبياتِ في الإسلام في غضون قرنٍ أو يزيد قليلًا. لم يكن مُصنِّفو هذا النوع من الأدب مجرَّد جغرافيِّين؛ بل احتوت أعمالهم على كثيرٍ من المعلوماتِ التاريخيةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّة. ومثَّلت الخرائط بالضرورة جزءًا لا



شكل (٥٢): خريطةُ النِّيل من نُسخةٍ من كتاب **صورة الأرض** للخُوارِزمي، وقَع الفراغُ من نسخها عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م. رسمت بالمداد والألوان على الورق، ظهر الورقة ٣٠، وجه الورقة ٣١. مجموعة المكتبة الوطنية والجامعة في ستراسبورج (*Collection of the Bibliothèque Nationale et Universitaire de Strasbourg*) [*MS. 4.247*].

يتجزَّأ من هذا النَّوع من التَّصانيف. وبصرفِ النظر عن مُصنَّف ابن خُرداذبَّه، الذي استهدَف الكُتَّابَ في الدَّواوين، فإنَّ معظمَ الأعمال الجغرافيَّة التي صُنِّفت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي انتمَت إلى النوع المُسمَّى «المسالك والممالك». وكان المُصنِّفون فيه من الرحَّالةِ الذين جمَعوا وثائقَ مباشرةً عن جغرافية العالم الإسلامي. ومن بين أولئك: اليعقوبي، صاحبُ **كتاب البلدان**، والبَلخي صاحب كتاب **صُورِ الأرض**[1]، والاصطخري صاحب كتابِ **صُور الأقاليم**، و**المسالك والممالك**، وابن حوقل صاحبُ كتاب **صورة الأرض**، والمقدسي صاحبُ كتاب **أحسن التَّقاسيم**، والبكري صاحب كتاب **المسالك والممالك**.

وميَّز أولئك النَّفر من المُؤلِّفين مناطقَ كبيرةً توافَقت تقريبًا مع الكياناتِ السياسيَّة المُعاصرة، وهي المعنيَّة في وصفهم بـ «الممالك»، بديلًا عن تقسيم العالم إلى أقاليمَ مُناخيةٍ، ثم سجَّلوا عنها سماتٍ عامة، بما في ذلك المُناخ والناس، والطُّرق التي تكيَّفوا بها مع المعيشةِ في تلك الأقاليم.

ومن الصُّعوبةِ بمكانٍ أن يفصِل الدَّراسون في مسألةِ العلاقاتِ بين أولئك المؤلِّفين على اختلافِهم، وبين نُسخ المخطوطات الوافرة التي وصَلتنا، وبين مجموعات الخرائط التي تزخر بها مُصنَّفاتهم؛ ذلك أنَّ المقدسي كتَب قائلًا: إنَّ كتابَ البلخي (وهو مفقود الآن) مَثَّل الأرض بخرائطَ أعدَّها بعنايةٍ فائقةٍ. ويُعرف هذا التَّقليد في رسم الخرائط في أوساط الدَّارسين باسم «مدرسة البَلخي». ويُشير عددُ الأمثلةِ التي وصَلتنا من تلك الخرائط إلى أنها كانت شائعةً للغايةِ في القرون الوسطى. وكان أكثر المُصنَّفاتِ الجغرافيَّة -إن لم تكن جميعها كما نفترضُ- يتضمنُ مجموعةً كاملةً من الخرائطِ الإقليميَّةَ للدولة الإسلاميَّة، نفترض أنها احتوت على ٢٠ إلى ٢٢ تَمثيلًا مُنفصِلًا. ويبدو أن المُصنِّفَ كان يفترِضُ أحيانًا أنه ينبغي قراءة النصِّ جنبًا إلى جنبٍ مع التأمُّلِ في الخريطةِ المُرفقة، ما يُشير إلى أن المؤلِّفين فكَّروا بطرقٍ جديدةٍ مالت إلى التصويرِ على نحو ما.

وقد علِمنا أنَّ خريطةَ المأمون كانت ملونةً، ولكن ما لم نعلمه هو ما إذا كانت الألوان المختلفة التي استُخدِمت فيها قد ارتبطت بدلالاتٍ جغرافيَّةٍ محددةً سلفًا، أم أنها

(١) كذا في الأصل، والصَّواب صور **الأقاليم**، المعروف باسم مسالك **الممالك**. (المترجم)

استُخدِمت بغرض التَّزيين وكيفما اتفق. ولكن بعد قرنٍ ونصف القرنِ، أوضح المقدسي أنَّ الألوانَ لعِبت دورًا مهمًّا في خرائطِه:

«وقد قسَّمناها أربعةَ عشر إقليمًا، وأفردنا أقاليم العجمِ عن أقاليم العربِ، ثم فصَّلنا كور كلِّ إقليم ونصَبنا أمصارها، وذكرنا قَصباتِها، ورتَّبنا مُدنها وأجنادها، بعد ما مثَّلناها ورسمنا حدودَها وخططَها. وحرَّرنا طُرقَها المعروفة بالحُمرة، وجعلنا رمالها الذَّهبيَّة بالصُّفرة، وبحارها المالحة بالخُضرة، وأنهارها المعروفة بالزُّرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة؛ ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاصُّ والعامُّ».

أظهَر المقدسي اهتمامًا نسبيًّا للسِّماتِ الموصوفةِ في النصِّ المذكورِ آنفًا خاصةً، وأشار في خرائطه إلى الأهميَّةِ النسبيَّةِ للمدن -على سبيل المثال- من خلال تغييرِ حجم الدَّوائر التي تمثلها.

وتتكون الخَريطةُ الكاملةُ وفقًا لمدرسة البلخي عادةً من خريطةٍ للعالم وخرائط للبحار الثلاثة: البحر المتوسِّط، والخليج العربي، وبحر قَزْوين، وسَبع عشرة خريطة لـ «الولايات» أو الأقاليم. وعلى النَّقيض من النظام الذي وضعه بطليموسُ الجُغرافيُّ تمامًا لم تضع مدرسة البلخي أي أُسسٍ رياضيَّةٍ لخطوطِ الطولِ والعرض. ومن ثم، ينبغي فهمُ خريطةِ مدرسة البلخي على أنها محاولةٌ افتقرت إلى أية خبرات عمليَّة لتَمثيل جميع الولايات مرتَّبةً استنادًا إلى المُجاوَرةِ، وتكييفها في فكرة مُنمَّطةٍ عن العالم.

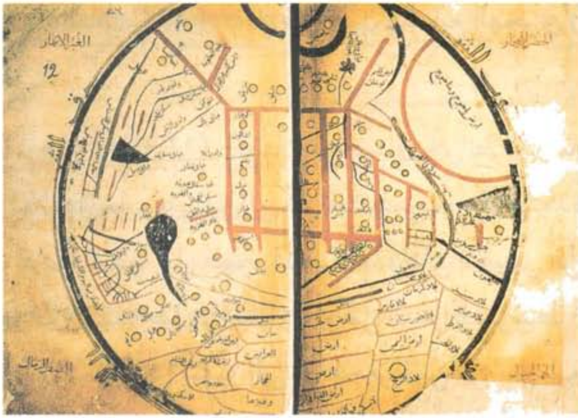
ومُثِّل نصفُ الكرة الأرضية العامر بدائرةٍ كوَّن فيها البحر المتوسط والبحر الفارسي أشكالًا مُتكاملةً. ويمكن مقارنة هذا المخطط إلى حد ما بالخرائط الثلاثية (T-in-O) أو خرائط العالم، (Mappae mundi) في التَّقليد الغربي القُروسطي التي تختلف تمامًا عنها، ففي الخرائط الغربية يمثل (O) المحيط، وتمثل الحدود الرَّأسية للحرف (T) البحر المتوسِّط داخل الدائرة، حيث يفصلُ أوروبا عن إفريقيا. أما الحدود الأفقية للحرف (T) فتتكون من نهر الدُّون على اليسار والنِّيل على اليمين، فتنفصل آسيا (في الأعلى) عن أوروبا وإفريقيا في الأسفل على اليسار واليَمين. ويضع هذا التَّقسيم الثلاثي، القُدس على نحوٍ ملائمٍ في مركز الخريطة بالضبط، ويرمز أيضًا إلى الثَّالوث وإلى إرثِ أبناء نوح الثلاثة. وأكبر خريطةٍ وصَلتنا من هذه الخرائط الغربية القروسطية هي خريطة رُسِمت

علـى الـرَّق فـي كاتدرائيـة هيرفـورد (Hereford Cathedral) في القرن السَّـابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي.

ويُظهِرُ عددُ الأقاليم النَّاطقة بالفارسيَّة (غالبًا ١٣) -فضلًا عن اتِّساق خرائط مدرسة البلخي في تمثيلها- تحيُّزًا واضحًا لبلاد فارس، ما يُشير إلى أن تلك المجموعة مستمدةٌ من تقليدِ تمثيلٍ فارسيٍّ سابق ربما كان مُنتشرًا قبل ظهورِ الإسلام. وعلى النَّقيض من ذلك، تختلف خرائط مصرَ والمغرب -وكلتاهما من مناطق حوض البحر المتوسط- اختلافًا كبيرًا من مخطوطةٍ إلى أخرى، الأمرُ الذي يُشير إلى أن الجغرافيِّين من مدرسة البلخي لم يكونوا على درايةٍ بتقاليد رسم الخرائط البطلميَّة. ولا يمكن -بحالٍ من الأحوال- ضمُّ الخرائط الفردية معًا -على نحوِ ما نفعل عند تجميع قطع أُحجية الصُّور المقطوعة (puzzle)- في شكلٍ واحدٍ أكبرَ. وعلى أية حالٍ فقد اتَّبعت معظم الخرائط الإسلامية أسلوبَ مدرسة البلخي، ولكن يبدو أن التوافر المُتزايد للورقِ، لا سيما في المشرق الإسلامي، شجَّع الجغرافيِّين على وضع بصماتِهم على خرائطهم الخاصَّة، كلٌّ على حدة.

ووضع اللُّغوي التُّركي [محمود] الكاشْغَري كتابه المسمى **ديوان لغات الترك**، وهو كتابٌ في قواعد اللغةِ التُّركية في عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦-١٠٧٧م، والمخطوطةُ الوحيدةُ التي وصَلتنا من هذا الكتاب مؤرخةٌ بعام ٥٦٢هـ/ ١٢٦٦م وتحتوي على خريطةٍ استثنائيَّةٍ للعالم، والتي قد تكون انتُسِخت مباشرةً من نُسخةٍ بخطِّ المؤلف (انظر: شكل ٥٣). وتتمحور الخريطةُ حول المناطقِ الناطقة باللغة التركيَّةِ في آسيا الوسطى، مع تراجُع حجم البلدان الأخرى كلَّما اقتربت من المُحيطِ. فكأنَّها إصدارٌ مُبكِّرٌ -قبل سبعة قرونٍ- لخريطةِ غلافِ مجلة نيويورك الشَّهير الذي صوَّر شارع شاول شتاينبرج (Saul Steinberg)، حيث انحسَرت الأراضي الواقعةُ غرب نهر هدسون واضمحلَّت إلى أن صارَت إلى العدَم.

وفكَّر العالم الموسوعي البيروني نحو عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م في الطريقةِ الأكثر ملاءمة لتمثيلِ السَّطح الكُروي للأرض على سطحٍ مُستوٍ ثنائي الأبعاد. وربما أدرك البيروني هذه المشكلةِ في سياق قياساتِه العلميَّةِ التي أجراها في سهولِ ما نطلق عليه «باكستان» الآن، حيث لحظَ الانحناءَ الطَّفيفَ لسطح الأرض، وقاده ذلك الانحناءُ الذي



شكل (٥٣): خريطةُ العالم مأخوذةٌ من نُسخةٍ من كتاب **ديوان لغات الترك** لـ [محمود] الكاشغري، مؤرَّخة بعام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. رُسِمَت بالمداد والألوان على الورق، مكتبة الشَّعب العامة *(Millet Genel Kütüphanesi, Istanbul)*، إستانبول، [مجموعة علي أميري 4189 Ali Emiri].

لحظَه إلى استنتاج أن الأرضَ كُرويَّةٌ. ومن قَبيل الجائز أن يكون البيروني قد طرَح هذا السؤال أيضًا لأنه حاول تحديدَ مقدار الطول الصَّحيح لدرجةٍ واحدةٍ من خطوط العرض.

على أية حال خصَّص البيروني فصلًا ذكَر فيه عددًا من طرقِ رسم خرائط النجومِ في كتابه[١] الذي قارن فيه بين أنظمةِ التَّقويم المُختلفةِ والمُستخدمةِ من قِبل شعوب العالم على اختلافِها. وبعد بضع سنوات أفردَ البيروني رسالةً في الموضوع نفسه، ربما صنَّفها خصِّيصًا لأبي الحسن علي [ابن مأمون] حاكم إقليم خُوارِزم في آسيا الوسطى (المتوفى عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨-١٠٠٩م). وعلى الرَّغم من أنَّ البيروني ذكَر خرائطَ الأرض، إلا أن تركيزَه الرئيس انصبَّ على خرائط السَّماء، فوصَف سبعَ طُرقٍ لإسقاطِ الكرة السَّماوية على سطحٍ مُستوٍ. واشتقَّ البيروني الطُّرقَ الأربعةَ الأولى من مصادرَ سابقةٍ، بما في ذلك كتاب **الجغرافيا** لـ بطليموس، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من المُصنَّفات العلميَّة التي وُضِعت في العصرِ العباسي، لكن الطُّرق الثلاث الأخيرة جاءت أصيلةً تمامًا.

كانت أولى طرقِ البيروني الأصيلة: إسقاطٌ كرويٌّ ينتج عنه أربع خرائط؛ أما الثَّانية فهي استخدام الفواصِل لقياس المسافاتِ بين النُّجوم على الكرةِ الأرضيَّة ومن ثم نقلها إلى خريطةٍ؛ أما الطريقة الثَّالثة فقد تضمَّنت وضعَ علامات للنجوم على الكرة الأرضية بمادة يمكن أن تُلصَق على سطحٍ مُستوٍ عندما تُلَفُّ الكرة الأرضية بحركةٍ دائريةٍ، ما ينتج عنه تمثيل النجومِ على شكلٍ مُسطَّحٍ. وبغضِّ النظر عن مدى إمكانية تطبيق الطُّرق التي

---

(١) الإيماءةُ إلى كتاب البيروني المسمى **القانون المسعودي**. (المترجم)

اقترحَها البيروني لإسقاط أشكالِ الأجرام السماوية السبعة عمليًّا أم لا، فإن وجودها -في حدِّ ذاته- مؤشرٌ دالٌّ على زيادةِ الاهتمام بأنماط التَّمثيل الرسوميَّة نحو عام ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، ومما شجَّع البيروني على ذلك، كان بلا شك التَّوافر الواسع للورقِ وزيادة الإلمام باستخداماتِه.

وكان الشَّريف الإدريسي عالمًا بارزًا في فنِّ رسم الخرائط الإسلامية. وُلِد الإدريسي لأسرةٍ من الأشرافِ من أهل سَبتة عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، ورحَل وطوَّف كثيرًا في المغربِ والأندلس، بل وغامر بالذَّهاب إلى جنوبِ فرنسا، وإلى ساحل انجلترا. ثم دعاه الملك روجر الثاني (Roger II) ملك صِقلية إلى بلاطِه في باليرمو حوالي عام ٥٣٤/ ١١٣٨م؛ كي يُنشئ له خريطةً للعالم ويكتب شرحًا لها. وانتهى الإدريسيُّ من الخريطة والكتاب الشَّارح لها، والذي أسماه **نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، في شوَّال من عام ٥٤٨هـ/ يناير ١١٥٤م. ومن قبيل المُفارقات أنَّ الإدريسي، الذي دُعي إلى بلاط روجر بسبب نسبِه الرفيع -الذي يعود إلى النبيِّ [ﷺ]، ومن هنا لُقِّبَ بـ «الشَّريف»- لم يكن مُلمًّا بفنِّ رسم الخرائط في البداية. ومع ذلك، فقد أصبح يُنظَر إليه على أنه أحد أبرز الجغرافيِّين ورسَّامي الخرائط في أوروبَّا في القرون الوسطى، نظرًا لعملِه الذي جمَع فيه بين المعرفة بالتَّقاليد البطلميَّة والبَلخيَّة مع تكوين مفهومٍ جديدٍ وواضحٍ للعالم.

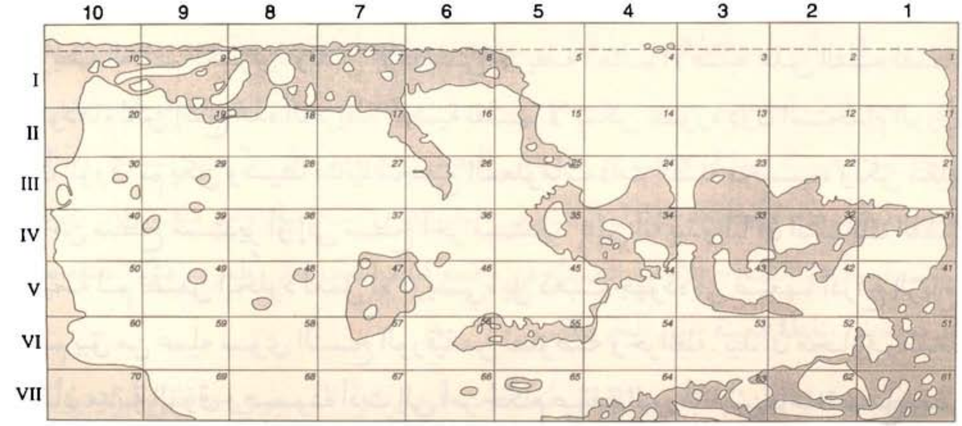
جاءت طريقةُ الإدريسي عمليَّةً وأصيلةً تمامًا؛ ربما لأنه كان مُبتدئًا في هذا المضمار، ومن ثَمَّ لم يكن مُثقلًا بتقاليد أجيالٍ من رسَّامي الخرائط والجغرافيِّين من أسلافِه. ووفقًا لروايتِه عن نفسِه فقد توفَّر الإدريسيُّ على دراسةِ كتابات الجغرافيِّين التي استطاع الحصولَ عليها. فوجَد تلك الكتابات مُتناقضةً، وناقش جوانبَ من هذا التناقُضات مع العلماء، لكنَّه لم يجد عندهم ما يُعِينه على تفسيرها. ومن ثم بحَث الإدريسي عن الرَّحالةِ وأصحابِ الأسفارِ البعيدةِ الذين عُرفوا بالسَّفر وبالتطواف في أرجاء الدُّنيا كثيرًا، فأجابوه عن سؤله وزوَّدوه بما يحتاج إلى معرفته عن البلادِ الغريبةِ. ثم جمَع الإدريسي الموادَّ ذات الصِّلة عن طريق إدخالها على «لوحة رسم»، باستخدام «أدوات مصنوعةٍ من الحديدِ»، وكتَب ما كان بجعبتِه من مادَّةٍ وجدَها في بطونِ الكتب، وإضاف إليها تلك المعلومات التي استقاها من العُلماء والمُسافرين بعد تدقيقِها. ثم أعدَّ كُرةً من الفِضَّة الخالصة بلغ وزنها أربعمائة رطلٍ رومانيٍّ (وهو مقياسٌ يُعادل الرَّطل المعمول به حاليًا

تقريبًا)، ونَقَش عليها التَّصميمَ المنقولَ من لوحةِ الرسم التي عمل عليها. وعرَض عليها الأقاليم المناخية السَّبعة، والأرضين والمناطق، والسَّواحل، والمعمور والمهجور، إضافة إلى تفاصيل أخرى. ولم تصلنا خريطةَ الإدريسي ولا كُرته الفضيَّة، ولكن وصَلتنا ستُّ مخطوطاتٍ مُتأخرةٍ من كتابه **نزهة المشتاق** احتفظت بخريطة دائرية صغيرة للعالم، ويبدو لنا أنها كانت نُسخةً مُصغرةً من الكُرة الفضيَّة.

وأقدم نُسخةٍ دُوِّنت على الورقِ من **نزهة المشتاق** تعود إلى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م (انظر: شكل ٥٤). وتُظهِرُ الخرائطُ عددًا كبيرًا من السِّمات -منها: موقع الجنوب في أعلى الخريطة، والشَّكل العام للقارات- اتبع الإدريسي فيها خرائط العالم التي تميَّزت بها مدرسة البلخي. أما السِّماتُ الجديدةُ التي تميِّزت بها فهي الحدود المُنحنية للأقاليم المناخيَّة السَّبعة، وتقسيم كل إقليمٍ مُناخيٍّ إلى عشرةِ أقسام. وعلى النَّقيض من خرائط الممالكِ التي تميَّزت بها مدرسة البلخي، فإنَّ الخرائط المقطعيَّة التي وصلتنا في ثماني



شكل (٥٤): خَريطةٌ للعالم، مأخوذةٌ من كتاب **نزهة المشتاق** للإدريسي، وقَع الفراغُ من نسخِها عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، رسمت بالمداد والألوان على الورق، ظهر الورقة ٣، وجه الورقة ٤. المكتبة الوطنيَّة بباريس (Bibliothèque Nationale de Paris)، [*Ms. Arabe 2221,*].



شكل (٥٥): رسمٌ بيانيٌّ مُفهرَس يوضح علاقة الخرائط المقطعية في نزهة **المشتاق** للإدريسي ببعضها. المصدر:
Konrad Miller, *Mappae arabicae*، المصدر: J.B. Harley and *The History of Cartography,* vol. 2, p.162. Fig 7.6.
David Woodward, (eds)

مخطوطات مُبكرةٍ من نزهة المشتاق للإدريسي[1] يمكن في الواقع تركيبُها معًا على مسقطٍ شبكيٍّ، مثلُها في ذلك مَثَلُ الخرائط في أطلس الطريق (Road atlas) (انظر: شكل ٥٥). ونظرًا لأنَّ أسلوبَ رسم الخرائط اختلف اختلافًا كبيرًا بين المخطوطاتِ المختلفة، فيبدو لنا أن المفردات المُتَّسِقة للتَّمثيلِ الجغرافيِّ لم تكن قد تطوَّرت بعد.

كانت خريطةُ العالمِ للإدريسيِّ استثنائيةً في الجمعِ بين خريطةِ العالم الدَّائرية الإسلاميَّة، المُستمدَّةِ من الخرائط المثاليَّة لمدرسة البلخي، مع نظام الإحداثيَّات، أو الشبكة الذي تميَّزت به الخرائط اليونانيَّة العتيقة. ومع أنَّ المَسقط الشَّبكي ربما يكون قد استُخدِم في خريطة المأمون، إلا أنه لم يعُد يُستخدَم على نطاقٍ واسعٍ في رسم الخرائط في العالم الإسلامي، وذلك على الرغم من أن الجغرافيِّين هناك واصلوا استخدام الإحداثيَّات الأرضيَّة والسماويَّة على نحوٍ شائعٍ لتحديدِ المواقع.

على صعيدٍ آخر، جعل تمسُّك الإدريسي بالنِّظام القديم للأقاليم المُناخية السَّبعة محاولته غير عمليَّةٍ إلى حدٍّ ما، بيد أن مجموعة الخرائط التي رسَمها أظهرت تعقيدًا

(١) أظنُّ رقم ٨ هو عدد الخرائط في مخطوطاتِ نزهة المشتاق، وهي خريطة للعالم و٧ خرائط مقطعيَّة، كما يتجلَّى من شكل ٥٥. (المترجم)

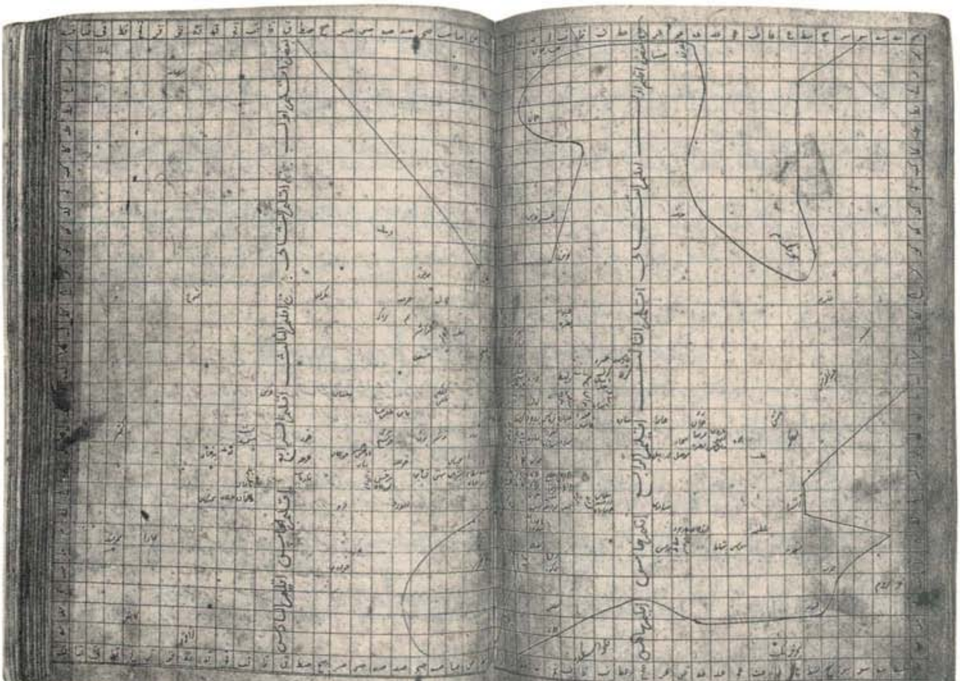
رسـوميًّا مقارنةً بأسـلافها مـن الخرائط، فقد طوَّر خرائطَ صغيـرةً احتفَظت بموقعها على خريطـة العالـم الكبـرى. ونقَش الإدريسـيُّ خريطـةَ العالـم الأصليَّة علـى الفِضَّة لضمان خلودها، لكن إنتاج هذه الخريطة الفضية نفسـها لا يمكن تصوره دون اسـتخدام الورق؛ لأنَّ الورقَ لم يكن وسـيطًا مثاليًّا لتجميع المعلوماتِ ذات الصِّلة فحسـب، ولكن لنقلِها إمَّا من سـطحٍ مُسـتديرٍ أو إلى سـطحٍ آخر مسـتدير. على أنَّه يبدو لنا أن السَّـبائك الفضية القيِّمـة لـم تضمن الخلود لعمل الإدريسـي، بل ذهبت جهوده في صُنعِهـا أدراجَ الرِّياح، ولـم يبق من عملِه سـوى النُّسـخ الورقيَّة من نصوصـه وخرائطِه. بيد أنَّ مخـاوفَ مماثلةً بشـأن متانـةِ الورق وصمـوده أدَّت إلى أمرِ حُكَّام صِقلية النورمانديِّين بإعادة نسـخ بعض الوثائق الورقية على الرَّق، وقد صادفوا التَّوفيق في ذلك.

وحدَث التطور الأخير في رسم الخرائط الإسلامية -قبل أن يتغيَّر تقليد رسم الخرائط الأوروبي في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشـر الميلادي- في فارِس، وهي فترة حاسِـمةٌ أخرى في تاريخ الورقِ وتطوره في بلاد الإسـلام، فهو الوقت الذي أضحَت فيه أنواعٌ كثيرةٌ من الكُتبِ أكبر قطعًا، وأخذ فنُّ المُنمنمات يلعب دورًا جديدًا أكثر أهميَّة من ذي قبل. فقد أعدَّ الجغرافي الإيلخاني حمد الله المُسـتوفي القَزويني خريطتَين عالميَّتين لمصنَّفِه في الجغرافيا الذي أسـماه **نزهة القلوب**. وعلى الرغم من أنه لـم تصلنا نُسَـخٌ من خرائـط حمـد الله المسـتوفي من عصـرِه، إلا أن ثمة نسـخةً مُتأخِّرةً مـن خريطتِه -تُصوِّر المَشـرِقَ الإسـلاميَّ فحسب- حَلَّقت بفنِّ رسـم الخرائط الإسلامية في فضاءاتٍ جديدةٍ تمامًـا. صـوَّرت خريطة المسـتوفي الأقاليم المناخيـة غزلًا على منوالِ الأعـرافِ والنُّظم العتيقـة في فنِّ رسـم الخرائـط، لكنها اختلفت تمامًا عن الخرائط السَّـابقة في خُلوها من الخطـوطِ باسـتثناءِ خطـوطِ السَّـواحل فحسـب. وقُسِّـمت الخريطـة إلـى مجموعـةٍ من المربَّعـات، مثَّـل كل خـطٍّ عرضـي درجة مـن خطوط العـرض، وكل خـطٍّ طولي درجة واحـدة مـن خطـوط الطـول. ووُضِعَت أسـماء المواضع داخـل مربعـات كلًّا على حدة (انظر: شكل ٥٦).

لم يُشـتق هذا النَّوع الجديد من الخرائط من تقليدٍ إسـلاميٍّ في رسم الخرائط، بل من تقاليـد الجغرافيِّيـن الصينيِّيـن، وجـاء نتاجًـا لزيادة الاتصـالات بين بلاد فـارس والصِّين خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. ويُشير

التاريخ والمكان اللذان ظهَرت فيهما هذه الخريطة الشَّبكيَّة إلى أنَّ حمد الله المُستوفي القزويني قد رأى الخرائطَ الصينيَّةَ التي استخدَمت نظام الشَّبكاتِ غالبًا، فاستلهم خريطتَه منها. ومع ذلك تختلفُ خريطةُ المستوفي عن الخرائط الشبكيَّة الصينيَّة في سمةٍ مهمةٍ، فالخرائط الصينيَّة إنما استندت إلى القياسِ الخطِّي على الأرضِ لا على القياس الزَّاوي لخطوط العرض وخطوط الطول المُتَّبع في الخرائط الإسلامية. ومع ذلك، فإن خريطة المُستوفي تُشبه النَّماذج الأولية الصينيَّة في وضع اسم المكانِ في المربع ذي الصِّلة بدلًا من تحديده بنقطة معينة على الخريطة.

وظهَرت خرائطُ شبكيَّةٌ مماثلة في مُصنَّفات الجغرافي التَّيموري حافظي أبرو، ولكن بحلول نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، اضمحلَّ فنُّ رسم الخرائط



شكل (٥٦): خريطة مرسومة على مَسقطٍ شبكيٍّ (*Graticule*) لإقليمي وسط آسيا وغربها، من رسم حمد الله المستوفي القزويني، تضمَّنتها نُسخةٌ مؤرَّخة بالقرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهي مأخوذةٌ من النُّسخة الأصلية المؤرَّخة بالقرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ظهر الورقة ١٤٣، ووجه الوقة ١٤٤. المكتبة البريطانية (*British Library*)، لندن [Add. Ms. 16736.].

الجغرافية الإسلامية في مواجهةِ تطورِ تقليدٍ أوروبيٍّ جاء أكثر تعقيدًا؛ وسرعان ما أصبح لدى الأوروبيِّين معرفةً مباشرةً بالأماكن التي لم تطأها قدمُ رحَّالةٍ أو جغرافيٍّ مُسلمٌ قطُّ.

وفي العالم العُثماني، شارك رسَّامو الخرائط في انفجار رسم الخرائط الأوروبيَّة، ولكن من خارجها. واستمرت معظم الخرائط التي رُسِمت لاحقًا في العالم الإسلامي في إعادة إنتاج إنجازات الماضي العظيمة، وبدرجاتٍ أقل من الدِّقةِ. وكان يسعُ الجغرافيِّين المُسلمين في القرون الوسطى تحقيق إنجازاتهم في رسم الخرائط بدون ورق؛ إذ أنشأ الجغرافيُّون اليونانيُّون الأوائل خرائط كبيرة وعلى قدرٍ كبيرٍ من الأهمية دون أن يعرفوا الورق قطُّ. ومع ذلك، فقد شجَّع توافر الورقِ، وسهولة الحصولِ عليه في العصور الإسلامية في القرون الوسطى أنماطًا جديدة من التَّفكير الرُّسومي -إن جاز التَّعبير- كما أن تزامُنَ صناعة الورقِ مع ازدهار فنِّ رسم الخرائط في القرنِ الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لم يكن مُصادفةً، ومن ثَمَّ لم تكن نهضة هذا الفن مجددًا بين القرنين السَّادس والسَّابع الهجريَّين/ الثَّالث عشر والرابع عشر الميلاديين مُصادفةً أيضًا. وتُصبح تلك العلاقة بين تطور صناعةِ الورقِ وازدهار فنِّ رسم الخرائط في الإسلام أكثر إقناعًا عندما ننظر إلى أنظمةِ التَّدوين المُعاصرة الأخرى التي تطوَّرت كي تُستخدم على الورق دون غيره فحسب.

الموسيقى وعلم الأنساب وخطط القتال

ارتبطَت الموسيقى في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، ارتباطًا وثيقًا بالرياضيَّات، وهكذا جرَت الحال أيضًا في العالم القديم. ولكن لم تحكُم المبادئ الرياضية النَّغمات والمقامات وحدَها، بل -كما هو الحال في الرياضيَّات نفسها- ارتكزت دراسة الموسيقى وأداؤها على الحفظِ والإيماءةِ إلى حدٍّ كبير. وبعبارة أخرى؛ تعلَّم أحد الموسيقيِّين مباشرةً من موسيقيٍّ آخر، وعزَف اللَّحنَ نفسَه كما سمِعَه.

وعلى الرَّغم من أن معظمَ الموسيقيِّين من غرب آسيا نقَلوا معرفتَهم عن طريق الذَّاكرة والإيماءة حتى يومنا هذا، إلا أنَّ الموسيقى العربية خضَعت لتطوراتٍ مُهمَّةٍ بحق، حيث دُوِّنت مجموعةٌ جوهريةٌ من النظريات، وحاول المنظِّرون الموسيقيون تطويرَ نظامٍ لتدوين الموسيقى. وحدَث التطور الأوَّلي في العصر العباسي بين القرنين الثَّالث والرابع

الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين في العراق. ثم أعقبه تطورٌ ثانٍ جرى في العصر الإيلخاني في القرنَين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين في بلاد فارس. وتزامنت هاتان المُحاولتان في تدوينِ الأصوات والإيقاعات مع أهم حقبتَين شهدهما ظهور الورق وتطور صناعته في ديار الإسلام. وربما كان من قَبيل التَّفكير المنطقي أن ينصرف ذهنُ المرءِ إلى أن آحاد العلماء الذين خبِروا إمكانيات الورق في مجالٍ واحد من المعرفة، حرصوا على الاستفادةِ من إمكاناتِه في مجالاتٍ أُخَر.

ابتكَر المصريُّون القدماء والعبرانيُّون والصينيُّون واليونانيُّون أنظمةً مختلفةً للغايةِ لتمثيل موسيقاهم. فعلى سبيل المثال استخدم اليونانيُّون القُدامى أحرُف الهجاءِ لتمثيل الأرقام، ومثَّلوا حِدَّة اللحن وتصاعُده باستخدام مزيجٍ من الأحرُف والعلامات. واستخدم الموسيقيُّون عددًا كبيرًا من الأنظمةِ المختلفةِ بحلول القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ فاستخدم البيزنطيُّون هذا النظام القديم من التَّدوين الصوتي (Ekphonetic notation)، وربما نشَر النصارى النَّساطرة طريقتَهم المطوَّرة من هذا النظام حتى وصَلت إلى منطقة التِّبت شرقي آسيا، حيث استخدمها الرهبان البوذيُّون لتدوينِ ترانيمِهم. وفي دير سانت غال (St. Gall) في سويسرا، استخدم الرُّهبان نظام تدوينٍ حديثٍ، تميَّز بوجود خطوطٍ ومُنحنياتٍ وخُطافات رُسِمَت بدقَّةٍ لتَمثيلِ صعود وهبوط الخط اللَّحني في خطوطِه العامةِ البسيطة.

وبدأ مُنظِّرو الموسيقى العربيَّة الأُوَل في تطوير نظام أبجديٍّ لتدوين الموسيقى للمرة الأولى؛ بيد أن الاختلافاتِ بين النظرية الموسيقية والمُمارسة الموسيقية، لم تدع مجالًا لاستخدام نُظُمِهم على نحوٍ عمليٍّ في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، وبُذِلت محاولات أخرى لتَدوين الموسيقى في القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وكان الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكِنْدي المنظِّر الرَّئيس في الموسيقى العربية في أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

كان يعقوبُ أحد أبناء إسحاق الكِندي والي الكوفة، وتلقَّى تعليمَه في البصرةِ، وكانت وقتئذٍ مركزًا فكريًا حيويًا في ديار الإسلام، ثم سافر الكِنْدي إلى بغدادَ في عهدي المأمون والمُعتصم، وهناك درَس الفلسفةَ اليونانية وكتب عدة رسائل قصيرة في الموسيقى، وصَلتنا منها خمسُ رسائلَ على أقل تقدير. وكان الكِنْدي انتقائيًا في النهج، حيث أظهَر

التأثر بالتَّقاليد الأرسطيَّة والأفلاطونية والفيثاغورسية على حدٍّ سواء. وفيما تعلَّق برسائله الموسيقيَّة، أوجز الكِندي الحركة اللحنية تخطيطيًّا بالاصطلاحات، ما يعني ضمنًا وجود استعاراتٍ بصريَّة من شاكلة: «اللولبي» و«الصَّفير» و«المُوشَّحة». ويعدُّ وصفُه للدَّوراتِ الإيقاعيـةِ المعاصـرة مُحيرًا إلى حدٍّ ما، وتُعوِزُه الدِّقة، وربما مرجع ذلك إلى أن محاولته كانت محاولةً رائدةَ، جاءت مُستقلةً تمامًا عن النَّماذج التَّحليلية السَّابقة.

وتُعـد جهـود الكِنـدي جهودًا مثيرةً للفصـولِ خاصةً؛ ذاك أنه ناقـش نموذجًا للتَّدوين الموسـيقي اقترضَـه عـددٌ كبيرٌ مـن المُنظِّرين اللاحقيـن، أو فلنَقُل: أعـادوا اختراعه. فقد أشـار الكِنـدي إلى النَّغمات بأحـرف أبجدية مرتبة بطريقة «أبجد»، وهـو ما يجعل نظامَه أبجديًا-رقميًّا في آنٍ معًا. ومع ذلك، فقد اقتصر على المناقشـات النظريَّة البَحتة؛ وذلك لأنـه عندمـا حـدَّد الخطـوط العريضة لخطـوط النغمة على العـود، لم يسـتخدم التَّدوين لتَسـجيلها، ولكنه فضَّل التَّعريفات اللَّفظية القلِقة المذكورة آنفًا، والتي هي كالمُسـمَّيات دون وجود مُسمًّى واضحٍ.

استُمِدَّت جهودُ الكِندي في الكتابة عن الموسـيقى جزئيًا من التَّقاليدِ اليونانية، ولكن ما شجَّعه على الإقدام على هذه المحاولة -مثلُه في ذلك مثَل عددٍ كبيرٍ من مُعاصريه في مجالات المعرفة الأخرى- كان ازدهار الكُتب وازدهار الدِّراسة من خِلال الكتب، وهو التطور الذي جاء مرتبطًا بانتشـار اسـتخدام الورقِ في بغداد في القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميـلادي. ونـادرًا ما يمكن تصـوُّرِ التدوين الموسـيقي دون حامـلِ كتابةٍ، وكان الورق مُتاحًا آنذاك بسهولة.

ويبـدو لنـا أن جهـودَ الكِنْدي لم تُسفر عن تغيُّـرٍ جوهريٍّ، لكن بعض أفـكاره عادَت للظهورِ مجددًا في أواخر القرن السـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي في أكثرِ الكتبِ الموسـيقية تأثيـرًا، أعنـي كتـاب **الأدوار** لصفيِّ الدِّيـن الأُرموي -وأُرمية، الواقعةُ شـمال غرب فارس، هي مسـقطُ رأسِـه- وسُـمِّي الكتاب بهذا الاسـم بسـبب تمثيلاتِ المؤلِّف لمجموعةٍ أساسيَّةٍ من الدَّورات الإيقاعيَّةِ الشَّائعة على شكل دائرةٍ. ونُقِش محيطُ الدائرة بالمُتواليات الصَّوتية المقطعيَّة التي وجَدها صفيُّ الدِّين مُلائمةً، والتي حدَّدها بإشـاراتٍ لفظيةٍ لعدد الوحدات وزمنها، وميَّزها بصوتٍ إيقاعيٍّ. كما استَخدم صفيُّ الدِّين الدَّوائر أيضًـا للإشـارة إلى عـددِ العلاقـات المُتوافقة في أوضـاعٍ بعينها، والتي ظهَـرت بوصفِها خطوطًا عبر دائرةٍ ربطت الملحوظات المعنيَّة المُدرجة حول محيطها.

ونظرًا لأنَّ صفيَّ الدِّين استخدم الحروف للنَّغمات والأرقام للزَّمن، فقد أعطى نظامُه أيضًا بعض المؤشرات على البِنية الإيقاعية للحن. فحدَّد صفيُّ الدِّين الدَّوراتِ الإيقاعيَّةَ وأشكالها المتنوعة من حيث المُصطلحات المشتقَّة من العَروض لتحديدِ التَّقسيمات الدَّاخلية المُختلفة وأنماط تكرار مقاطع الشِّعر. ويبدو من قَبيل المستحيل تخيُّل مثل هذا المخطَّطِ بدون وسيطٍ حاملٍ للكتابةِ، وكان الورق متاحًا بسهولةٍ في فارس في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

لم يكن مقصد صفيِّ الدين تقديم تَسجيلٍ دقيقٍ للأدوار الموسيقيَّةِ، والذي لم يكن ليخدمَ بوصفه غرضًا عمليًّا في تقليدٍ كان النَّقل سماعًا والارتجال الحر في التفاصيل الدَّقيقة هو القاعدة المُتَّبعة فيه. بل تمثَّل هدفُ صفيِّ الدين في مجرد تمثيلِ البِنية اللَّحنية لأشكالٍ بعينها، وإثبات أن تدوينَ الموسيقى كان أمرًا ممكنًا. ويعد مُصنَّفه أول تصويرٍ دقيقٍ لوحداتِ القياس الموسيقية؛ عندما وظَّف الحروف والأرقام لتَمثيلِ النَّغمات. وظلَّ كتابُه الكتابَ الأكثر شهرة وتأثيرًا في الموسيقى الشرقية لقرونٍ عدة، فقد نُسِخ كتابه في الموسيقى العربية وتُرجم إلى الفارسية والتُّركية، كما دُوِّنت عليه الشُّروحات الكثيرة. وربما كان صفيُّ الدين مدفوعًا إلى تطوير نظامِه بسبب خصوصيَّة تعليمه، والتي أقحمته بعمقٍ في ثقافةِ الورقِ في عصره.

وُلِد صفيُّ الدين نحو عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، وسافر إلى بغدادَ في شبابه، حيث تلقَّى تعليمه باللغة العربيَّة، ودرَس الأدبَ والتَّاريخَ وفنَّ الخط العربي. ثم درَس الفقه الشَّافعي، والفقه على المذاهب السنيَّةِ الأخرى في المدرسة المُستنصِرية. وفي الأخير تولَّى منصبًا قضائيًّا. كما صنَع لنفسه اسمًا كبيرًا وشهرةً عريضةً بوصفِه خطاطًا، حيث عمل ناسخًا في المكتبة الجديدة التي أمَر الخليفةُ المُستعصِم ببنائها. وكان كل من ياقوت المُستعصمي الملقَّب بـ «قِبلة الخطاطين»، وتلميذه الشَّهير شمس الدين أحمد السُّهروردي، من تلامذة صفِي الدين.

في غضونِ تلك الفترة نفسها أضحى صفيُّ الدِّين معروفًا أيضًا بوصفه موسيقيًّا وعازفًا مُمتازًا على آلة العود، وهي مواهبُ تمكَّن من استغلالها عندما قُبِل نديمًا للخليفةِ. ووضَع صفي الدين كتاب **الأدوار** في الوقتِ الذي كان لا يزال يعمل فيه خازنًا في مكتبة المُستعصِم. وانتهى من كتابةِ أقدم مخطوطةٍ معروفةٍ في عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، عندما

كان في العشرين من عمره أو تجاوزَها بقليل. ونظرًا لأن خطَّه كان يُشبه -إلى حدٍّ كبيرٍ- خط ياقوت المُستَعصِمي، فقد تكون النُّسخة التي وصلتنا هي النُّسخة التي خطَّها بخطِّ يده.

وعلى أية حالٍ، ففي أعقاب سقوطِ الخلافة على أيدي المغول، عيَّن والي العراق الإيلخاني علاء الدِّين عطا ملك الجُوَيْني وشقيقه شمس الدين محمد حماد الجُوَيْني صفيَّ الدين مسؤولًا عن ديوان بغدادَ. ثم ناظرًا للمؤسَّسات الوقفيةِ في العراق حتى عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، عندما أُسنِد منصبُه للفلكي المشهور نصير الدِّين الطوسي الذي عُيِّن خلفًا له. واستخدم صفيُّ الدِّين ثروتَه سبيلًا للنجاةِ عندما سقَطت بغداد في أيدي المغول، فقد تقرَّب صفيُّ الدِّين إلى أحد الضُّباط المغول، فقدَّمه ذلك الضَّابط إلى الحاكم الجديد، الذي أُعجِب بفنِّ صفيِّ الدين وسَعة اطلاعه فأمر بمُضاعفةِ عطائه. ودعَم آل الجويني مسيرةَ صفي الدين الموسيقية لاحقًا على نحو أساسي، ولكن بعد وفاة رُعاته في عام ٦٥٨هـ/ ١٢٨٦م، أضحى صفيُّ الدين نسيًا منسيًّا، وركبه الهمُّ، وأعوَزته الفاقةُ.

وعلى كلِّ حال فقد خلَف قطبُ الدِّين الشِّيرازي صفيَّ الدين العظيم. ووسَّع قطب الدين -وكان مُتصوفًا برع في عدد من المجالات- نظامَ التَّمثيلِ الأبجدي والرقمي لدورات صفي الدِّين للنَّغمة والزَّمن على نحو مُمنهج.

وُلِدَ قُطب الدِّين -لأسرة اشتغل أكثر رجالاتها بالطبِّ- عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، لكنه لم يكن مجرد طبيبٍ؛ بل تميَّز أيضًا بالكتابة في الفلسفة وعلم الفلك والعقيدة. وغالبًا ما تجاهل غُلاة المُتصوِّفة الأعرافَ، وبوصفه واحدًا منهم أهمل قطبُ الدِّين الفروضَ، وجاهر بشُربِ الخمر، وعاشَر قومَ سوءٍ، وأدمن على لعبِ الشَّطرنج، كما احترفَ التنجيمَ إلى جانبِ الموسيقى. ودوَّن قطبُ الدين -في مثالٍ فريدٍ- لحنًا موسيقيًّا كاملًا لقصيدةٍ من قصائد صفيِّ الدين على مَسقطٍ شبكيٍّ مثَّل عليها الأقسامَ على طول المحور الأُفقي بوصفِها وحداتٍ زمنية، مُظهرًا الطَّبقات المُتراكبة لدرجة الصوت والنصِّ وجزءٍ من الإيقاع، وإشارات التَّعبير والحركات، ومواصفات الانتقالِ بين المقامات. وجاء استخدامه للمَسقطِ الشبكي في الوقت نفسه تقريبًا الذي بدأ فيها رسَّامو الخرائط في استخدام الشَّبكاتِ لرسم خرائطهم، وكما سنرى في الفصل الخامس، أنَّه أيضًا كان

الوقتَ نفسَه الذي شرَع فيه البنّاؤون في استخدام الشَّبكات لتمثيلِ الأشكالِ المعمارية.

وأعاد الموسيقي الفارسي عبد القادر [المراغي] بن غيبي النَّظر في جهودِ قطبِ الدِّين الفريدة بعد قرنٍ من الزمان، حيث قدَّم في رسالتِه الرائدة المسماة **جامع الألحان**، وصفًا موجزًا للسِّماتِ الهيكليَّةِ الرئيسةِ لكل نوعٍ من أنواع القصائدِ المغنَّاةِ، مع تدوين الأدوار الإيقاعية المُتداخلة على نحوٍ أكثر تميزًا، وتلحين الشِّعر على اختلافِ بُحورِه. كما قدَّم تحليلًا موسَّعًا لقطعةٍ موسيقية بعينِها، مُظهرًا الكيفية التي يُدوَّن بها اللَّحن؛ وكيفية تجزئة البيتِ على المقامات المُختلفةِ، كما وضَّح الجوانبَ النظريةَ في تلحينِ بيت الشِّعرِ.

وثَمَّ شكلٌ آخر من أشكال التَّدوين الذي تطوَّر عاقبةً لزيادة استخدام الورق، أعني مُشجَّرات الأنساب. فقد كان علم الأنساب، علمًا رئيسًا في المُجتمعات العربية؛ وذاك لأنه أثبَت أواصرَ القُربى وجميع ما ترتَّب عليها. وبحَث النسَّابةُ في الأنسابِ منذ وقتٍ مبكرٍ للغاية، سبَق الإسلامَ ظهورًا. وعلى الرغم من فقدان المُصنفاتِ المبكرةِ في علم الأنساب، فقد ازدهرت دراسة الأنساب -مثلُها في ذلك مثل سائر العلوم الأخرى- في العصر العبَّاسي. ووضع البَلاذُري كتابه المُسمَّى **أنساب الأشراف** في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهو مُصنفٌ كبيرٌ تعدَّدت أجزاؤه، وتناول البَلاذُري أنساب الأشراف من آل بيتِ النبيِّ [ﷺ].

بيد أنَّ الأمر الأكثر إثارةً للاهتمام -ولا سيما بالنسبة لغرضنا هنا- هو أنَّ المصنِّفين في الأنسابِ بدأوا في الوقت نفسه الذي ساد فيه الورقُ تقديم جوهر مصنَّفاتِهم في أشكالٍ رسوميَّةٍ -وهو الشكل المعروف بـ «التَّشجير» أو «المُشَجَّر»، وكلتا الكلمتَيْن اشتُقَّتا من الكلمة العربية «شجرة». وتظهَر بعض الأمثلة الأولى في كتاب الهمداني **الإكليل**، وهو موسوعة من القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي عن تاريخ اليَمن وآثارِه وأنسابِ قبائله. ولم يصلنا مُكتملًا، كما أن جميعَ مخطوطاتِه التي وصَلتنا مُتأخرة عن عصر المؤلف.

وتزامن إدخالُ الورقِ -مجددًا- مع تطوير أنماطِ رسوميَّةٍ جديدة للتَّمثيلِ. وأصبح استخدام مُشجرات الأنساب أكثر شيوعًا بمرور الوقت؛ وقدَّمت المُشجَّرات، فهمًا فوريًا للعلاقاتِ وأواصرَ القربى، كما أكَّد المؤرِّخ ابن خلدون في القرن الثامن الهجري/

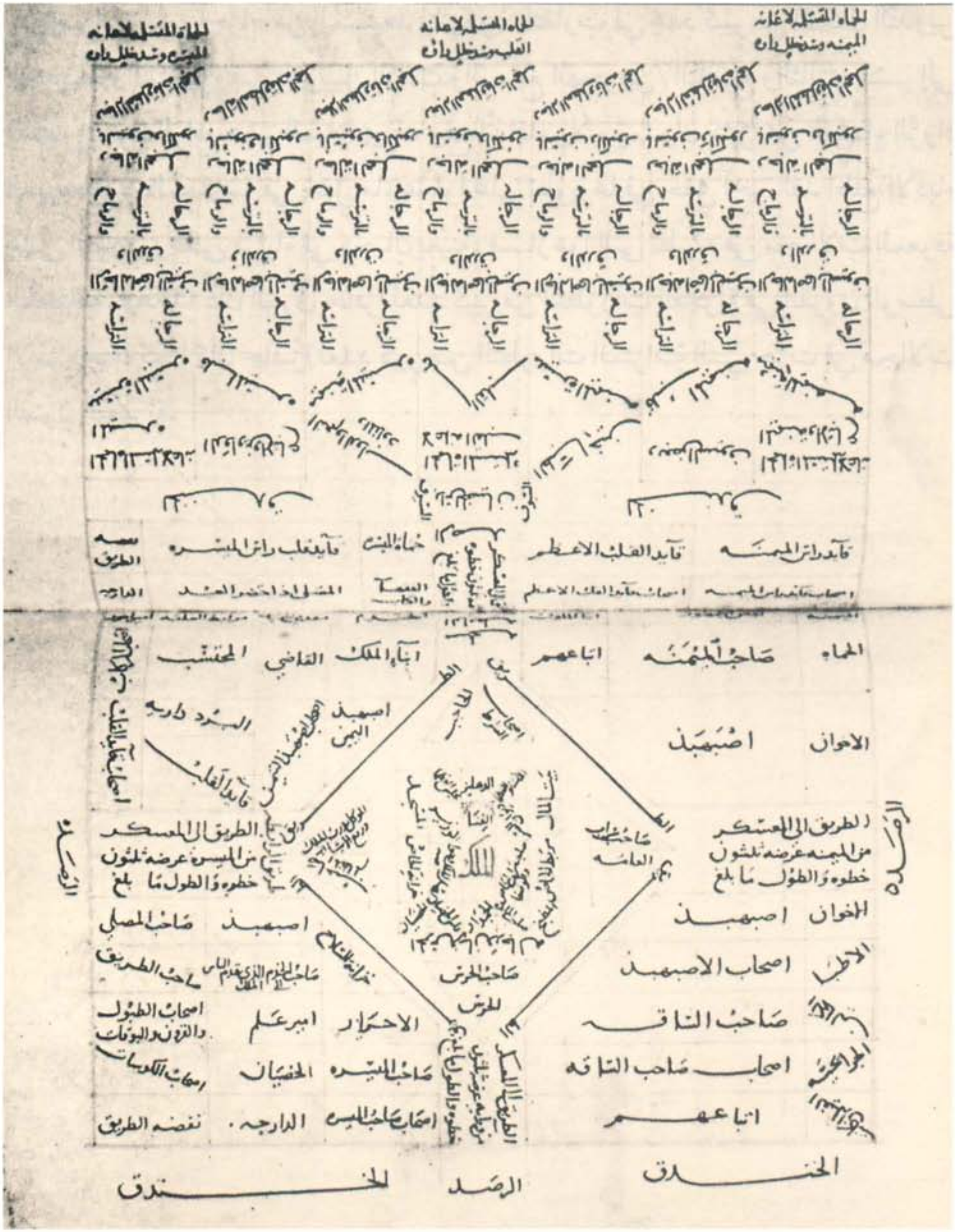
الرَّابع عشـر الميلادي. وبوسـعِنا العثورُ على مثالٍ لمُشـجَّرة أنسـابٍ في نسخةٍ تعود إلى بواكيـر القـرن الثامـن الهجري/ الرابع عشـر الميلادي مـن المجموعة الرَّشـيدية للوزير الإيلخاني رشيد الدِّين [فضل الله الهمذاني]، وهي مجموعة رسائله في الفقه، حيث بدأ مُشـجَّرته المُصورة بآدم أبي البشـر وأنهاها بذُريَّة فاطمة الزهراء ابنة النبيِّ [ﷺ]، وتُغطي تلك المُشجَّرة ما يقرب من ٢٥ صفحة.

وصُورِّت بعضُ المُصنَّفات التاريخيَّة لـ رشـيد الدِّين من خلال مُشـجَّرات الأنسـاب التي مُثِّل الأفراد فيها بعددٍ من المُنمنمات. ولم تصلنا النُّسـخُ الأصلية لهذه المُشـجَّرات كما هي؛ لأنَّ الصور نُزِعت من المخطوطات لاحقًا وأُلصِقَت على صفحات الألبومات الخاصة، بيد أننا تعرَّفنا على المُشجَّرات من خلال النُّسخ المتأخِّرةِ من تلك المصنفات.

وثَـمَّ شـكلٌ آخـر مـن أشـكالِ التَّمثيـل الرُّسـومي الـذي تطـوَّر فـي القرونِ الوسـطى الإسـلامية، أعني مُخطَّطات المعارك الحربيَّة. ووُجِدَت مثل هذه المخطَّطات أحيانًا في رسـائل الفُروسـيَّة التي تناولت الجوانبَ النظريَّة والعملية للفُروسيَّة. وتطرَّق الكُتَّاب في القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي -من أمثال الجاحظِ- إلى موضوع الفُروسـيَّة، كما فعَلوا في فروع العلم الأخرى، لكن التطوُّرَ الكاملَ لمتنٍ هادٍ في الفروسيةِ لم يحدث حتـى القـرن السَّـابع الهجري/ الثالـث عشـر الميلادي، فـي العصر المملوكـي في مصر والشَّام.

ووصَفـت الرَّسـائلُ المتأخرة المهاراتِ اللازمةَ للفارس المِغـوار، بما في ذلك إتقان ركوب الخيل والرِّماية والمُبارزة والألعاب الرياضيَّة، من التفوُّقِ في لعبة الصَّوالجة إلى الشَّـطرنج. وتحتـوي بعـض هذه المخطوطات، مثل **نهاية السـول** التـي كتَبها الأَقصُري، على رسوم إيضاحيَّةٍ وتخطيطيَّةٍ، بل ومخطَّطات تمثل تشكيل الجيشِ الثُّلاثي، مع وجود صَفوة الجند في القلبِ تحت قيادة الملك نفسه؛ حيث يُرفرفُ لواؤه فوق رؤوس رجاله. ويحيط به جناحا المَيمنةِ والمَيسرةِ (انظر: شكل ٥٧).

ونظرًا لغياب مُخطَّطاتٍ سابقةٍ من هذا النَّوع معروفةٍ لنا، فيستحيلُ علينا تحديد ما إذا كانت مخطَّطات المعركة هذه قد استُخدِمت في وقت أبكر أم لا، ولكن المُخطَّط مُعقَّد حتـى إنـه رُسِـم على صفحتَيـن مُتقابلتَين فـي المخطوطـة، فبلغ قياس عرضـه ١٦ بوصة (٤٠ سم).



شكل (٥٧): مُخططٌ للمعركة مؤرّخ بعام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م من كتاب نهاية السُول لـ محمد بن عيسى الأَقصُري. ظهر الورقة ٢٠٩، وجه الورقة ٢١٠. بالمداد الأسود والأحمر على الورق. المكتبة البريطانيّة- لندن (*British Library*)، [Add 18866].

أخيرًا -وليس آخِرًا- من المُستبعدِ أن يكون التقاربُ في عددٍ كبيرٍ من أشكال التَّدوين الجديدة والمُتغيِّرة في القرنين الثَّالث والسابع الهجريين/ التاسع والثالث عشر إلى مستهلِّ القرن الرابع عشر الميلادي قد وقَع اتِّفاقًا، ولا سيَّما وأن كثيرًا من العلماءِ الرُّواد الذين طوَّروا الممارسةَ في حقلٍ ما، عملوا على تطويرها في حقلٍ آخر. لقد اطَّلع الأدباء على الورق وعلى مزاياه في مجالٍ بعينه، فسارعوا إلى تطبيقِه في مجالاتِ المعرفة المُختلفة. وهكذا كان الورقُ حافزًا لعددٍ كبيرٍ من التطوُّراتِ الفكريَّةِ في القرون الوسطى الإسلامية، كما كان حافزًا لعددٍ كبيرٍ من التطورات المُتزامنةِ التي جرَت في مجالات الفنونِ البصريَّةِ.

الفصل الخامس

الفصل الخامس
الورق والفنون البصرية

«ثم سأل [آرثر أبهام] بوب (Arthur Upham Pope) الأستاذَ [يعني شيخَ البنَّائين الأصفهانيِّين] عن التفصيلاتِ المُتعلِّقةِ ببناء عَقْد من الآجُر، فبدا الأستاذُ مُرتبكًا مُتلعثِمًا. فأعطيتُه ورقةً وقلمَ رصاص، فحمَل الأستاذُ الورقةَ على طولِ ذراعه. ثم ما لبِثَت دلائلُ اليأسِ التام أن ظهَرت على وجهِه... لم يكن أميًّا فحسب، بل كان يجهل أيضًا الكيفية التي يُرسَم بها مخططٌ لشكلٍ ثلاثي الأبعادِ على سَطحِ ذي بُعدَين. وأخيرًا، نحَّى الأستاذُ القلم الرَّصاص جانبًا، ثم طوَى الورقةَ بطريقةٍ معقَّدة لإنشاء مجسَّمٍ للعَقْد.

Jay Gluck and Noel Silverman, Eds., *Surveyors of Persian Art.*

ما إن توفَّر الورقُ في العالم الإسلامي، حتى أقبل الفنَّانون والحرفيُّون على استثمارِ إمكانياتِه، إلَّا أنهم كانوا أبطَأ في ذلك قياسًا بالكتَّابِ والرياضيِّين والجغرافيِّين والتجَّار.

تعامَل الفنَّانون والحرفيُّون -قبل ظهورِ الورقِ- مباشرةً مع الموادِّ التي اختاروا تشكيلَها والعمل عليها -مثل: الطِّين والبرونز والقماش والآجُر والجص- مُعتمدين في عملِهم على خبراتِهم ومُمارساتهم. على النَّقيض من ممارساتِنا حاليًا حيثُ نعود للتَّعليمات والمُخطَّطات والرُّسومات سابقةِ التَّجهيز لتنفيذ أشغالِنا في أيامنا هذه. ومع انتشار الورق تغيَّر هذا الوضع تدريجيًّا، فقام بعض الحرفيِّين بتطوير مفرداتٍ لتمثيل أعمالهم. بيد أن تعلُّمَ كيفية القيام بشيء من خلال القراءةِ عنه في كتابٍ ما، هو ممارسةٌ حديثةٌ تميَّز بها عصرنا الحديث.

على أيَّةِ حال، فقد بدأ استخدام الورقِ بوصفِه عنصرًا مساعدًا في إنتاج الفنِّ في المَشرقِ الإسلامي -ولا سيما شمال غرب فارس وآسيا الوسطى، وهي المناطق التي عُرِف فيها الورق أولًا- في وقتٍ مبكِّرٍ من القرنِ الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ثم

مـا لبِـثَ الورقُ أن أضحى عُنصرًا مهمًّا في صناعةِ الفنِّ وإقامة صُروحِ العمارةِ منذ القرن السَّـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي. ومنذ هذا التَّاريخ، استثمرت أعدادٌ متزايدة من الحرفيِّين والفنَّانين إمكانيَّات الورقِ لصُنعِ الرُّسـومات الأوليَّة، والخطط مُسبقة التَّجهيزِ لتنفيـذ الأعمـالِ الفنيَّـةِ. وهـو ما أسـفَر عن تطـوُّرِ عـددٍ كبيرٍ من السِّـمات المُميِّـزة للفن الإسـلامي فـي طـورِه المتأخِّر، مثل النَّقـلِ الجاهز للتَّصميمات من وسيطٍ إلى آخر، من خلال استخدام الورق والنَّماذج الورقيَّة.

ويُعزى السـببُ الرئيس في تأخر الفنَّانين البصريِّين في اسـتخدام الورق إلى وضعِهم الاجتماعـي المُتدنِّـي فـي الثقافةِ الإسـلاميةِ. فكانوا علـى النَّقيض مـن الخطَّاطين الذين مارسـوا الشَّـكلَ الوحيدَ للفنِّ البَصرِي المقبول عالميًّا في الثقافة الإسلامية، وكانوا على درايـةٍ بالـورق، وحصَّلوا تعليمًا راقيًـا. ولكن النسَّـاجين، وعمَّال المعـادن، والخزَّافين، والرسَّـامين، وغيرهـم مـن أربابِ الحرف احتلوا موقعًا اجتماعيًّا مُتدنيًّا نسـبيًّا في القرون الوسطى.

ونظـرًا لأن الورقَ كان مُكلفًا نسـبيًّا، فقد اقتصَر اسـتخدامه -بحُكـمِ الضَّرورةِ- على الطَّبقـات المُتعلِّمـة، ولـم يكـن بوسـع الحرفيِّـيـن -وكذلـك غيرهـم مـن ذوي المكانـةِ الاجتماعيَّـة المُتدنيـة، وأصحاب الأجـور الزَّهيدة- اقتناء الكتـبِ أو الإلمام بما فيها، أو تَصوُّر تنفيذ الرُّسـومات على الوسـيطِ الجديدِ. والحقُّ أنهم لم يكونوا بحاجةٍ إلى الورق لتنفيـذ أعمالِهـم. ولكن ما إن أضحى الورقُ أرخصَ، وسـهُل عليهـم الحصول عليه، إلا واكتشـفوا طُرقًـا جديدةً لاسـتخدامه، فاسـتثمروها على النَّحو الأمثل، مـا أدَّى إلى تغييرِ العالمِ المرئيِّ للإسلام تغييرًا جذريًّا.

يكشِـفُ ذلك البطء الذي أظهَره الفنَّانون -في مختلف أقطارِ العالم الإسـلامي- في اسـتخدام الـورقِ عـن عمليَّةٍ غامضةِ الأصـول إلى حدٍّ كبيرٍ في الغـرب الأوروبي، حيث انتشَـر اسـتخدامُ الورقِ سريعًا بين القرنين الخامس عشَـر والسَّادس عشَر الميلاديين من خـلال ارتباطـه الوثيق بالطباعة. وفـي المقابل، لم يعتمد العالم الإسـلامي على الطِّباعة حتى نهاية القرن الثَّامن عشَـر وبدايات القرنِ التَّاسـع عشَـر الميلاديين، وعلى هذا النحو أدَّت سـهولة الحصـولِ علـى الورقِ إلى تغييراتٍ تدريجيةٍ في طُـرقِ تنفيذ الأعمال الفنِّيةِ في العالم الإسلامي.

كان الفنُّ الإسلاميُّ تصويريًّا أحيانًا، كما لم يكن كذلك أحيانًا أخرى. وثمَّ مفهومٌ غربيٌّ خاطئ وشائعٌ في الوقتِ نفسِه، يقضي بأن الإسلام يُحرِّم تصويرَ الكائناتِ الحيَّةِ في الأعمال الفنِّية. ولكن المجموعات العامَّة أو الخاصَّة من الفنِّ الإسلامي تزخر بعشراتِ القطع من المنسوجاتِ والخزف والأدوات المعدنيَّة وصفحات الكتبِ التي تحمل صورًا للمخلوقاتِ -حقيقيَّةً كانت أو أسطوريَّة- وتشهدُ هذه الصور التي رُسِمَت في عددٍ كبيرٍ من أقطار العالم الإسلامي، وعلى مدى أربعة عشر قرنًا منذ ظهور الإسلام، على تقليدٍ طويلٍ وحيويٍّ في الفنونِ التَّمثيليَّةِ. وعلى هذا النَّحو يصحُّ وصفُ الفنِّ الإسلاميِّ بأنه فنٌّ دينيٌّ غير تَجسيديٍّ، على عكس الفنِّ الدِّيني في النَّصرانية، والذي غالبًا ما كان تجسيديًّا ومُستندًا إلى الكتاب المقدَّس.

لم يسْعَ الفنانُ المسلمُ إلى تصويرِ القرآنِ قط؛ وذاك لأن النصَّ الماديَّ نفسه كان هو التَّمثيل الوحيد الممكن لكلامِ الله بالفعل. وعلى الرغم من أن فنَّ المُنمنماتِ في الكتبِ المصوَّرة في العالم النَّصراني -أعني أوروبا القروسطية والإمبراطورية البيزنطية- نشَأ من التَّمثيلاتِ الدِّينيةِ، إلا أنَّ فن المُنمنماتِ في الكتب الإسلامية كان تطورًا دنيويًّا بالكُليَّةِ. ويختلف تاريخُ هذا الفن تمامًا عن تاريخ المصاحفِ المَنسوخةِ على الرَّق والورق، والتي ناقشنا تفاصيلها سابقًا في الفصل الثَّالث من هذا الكتاب. إلا أن الكتب الإسلامية الدُّنيوية دُوِّنت على الورقِ تقريبًا. بيد أنَّ دور الورقِ في الفنونِ في العالم الإسلامي ذهَب إلى ما هو أبعد من تدوينِ الكتب.

الفنون البصرية قبل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

كان الكتابُ المُصوَّرُ نوعًا مُميَّزًا في الفنونِ الإسلامية في طورِها المتأخِّر، بيد أن كلمة «متأخِّر» تتطلب تحديدًا هنا. فعلى الرغم من وصولِ مئات المخطوطاتِ الإسلاميةِ التي نُسِخَت قبل منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلينا، إلَّا أن هناك نحو ثلاثين مخطوطةً مُصورةً منها فحسب، وهناك ثلاثٌ منها تعود إلى ما قبل القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فحسب. وقد تكون الكتبُ، وكذلك التعلُّم من خلال دراسةِ الكتبِ ثقافةً ازدهرت منذ القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، وألهمت المسلمين تطويرَ أنظمة التَّدوين، بيد أنَّ المخطوطاتِ المُصوَّرةَ من أجل المتعةِ المُطلقةِ التي يوفرها الفن -على النَّقيض من الأعمالِ العلميَّةِ والتِّقنية التي تطلَّبت رسومًا توضيحيَّةً- كانت نادرةً كل النُّدرةِ في العصورِ الإسلاميةِ المبكرةِ.



شكل (٥٨): الصَّفحةُ الأخيرةُ من قصَّةِ حُبٍّ شَعبيةٍ مجهولة، مع رسمٍ توضيحيٍّ لقَبرين تفصلُ بينهما شجرةٌ. مصر، أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أو أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. بالحبر واللون على الورق. المكتبة الوطنية (National biblio-thek)- ڤيينا [*Chart. AR. 25612*].

ولحِقَ ظهورُ لغةِ التَّمثيل المرئية المُميَّزة المستخدمة في المخطوطات العربية بازدهارِ ثقافة الكتاب، ولم تُصاحبه ابتداءً؛ لأنها لم تتطوَّر منذ البدايةِ على الورق، بل على الوسائط الأخرى. ونظرًا لأن المُصنَّفات الجغرافيَّة والعِلميَّة والتِّقنية كانت تُصوَّر على نحوٍ طبيعيٍّ في العصورِ القديمةِ، فمن المنطِقي أن نفترض أن كُتَّابَ ومُترجمي هذه الأعمالِ في العصور الإسلامية المبكرة قد استمروا -ببساطةٍ- في الغزلِ على منوالِ التَّقاليد القديمة. ومن قَبيل الجائز أيضًا أن يكون المؤلِّفون -قبل معرفة العالم الإسلامي بالورقِ- قد صوَّروا نصوصًا على الرَّق أو ورق البردي. وذلك على الرغم من أن أعمالًا من هذه الشَّاكلة لم تصِلنا قطُّ. ومع ذلك، إذا وضعنا نُصبَ أعيُننا أن الاهتمام الإسلامي بعلوم القدماء لم يزدهر حتى القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي مُتزامنًا مع ظهورِ الورق وانتشارِه، فسَنخلُص إلى أن تطوُّر التَّصويرِ في المخطوطاتِ العلميَّةِ في العالمِ الإسلاميِّ كان -في حدِّ ذاتِه- نتاجًا لزيادة نشاطِ تأليفِ الكتب والاستخدام الأوسع نطاقًا للورقِ على الأرجح.

تُصنَّف أقدمُ ثلاثة كُتبٍ مُصوَّرة وصَلتنا بوصفها نصوصًا علميَّةً، ومن ثمَّ فقد مسَّت الحاجة إلى الرُّسوم التَّوضيحية فيها بحكم الضَّرورة لفهم النصِّ المكتوب. وقد نُسِخَت جميعًا على الورق. وعُثِر على أقدم مجموعةٍ من الرُّسوم التوضيحية في نُسخةٍ مؤرخةٍ بعام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩-١٠١٠م من رسالة أبي عبد الرَّحمن الصُّوفي المسمَّاة **صور الكواكب الثابتة**، والتي ذكرناها آنفًا في الفصلِ الرابع من هذا الكتاب. أمَّا عن ثاني أقدم



شكل (٥٩): رسمٌ لأسدٍ بعد ثلاثة أسطُرٍ نصيَّةٍ من رسالةٍ لـ كعب الأحبار عن الحيوان. مصر، القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أو ربما السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. بالمدادِ والألوانِ على الورق. متحف المتروبوليتان للفنون (The Metropolitan Museum of Art)، نيويورك، صندوق روجرز (*Rogers Fund*)، ١٩٥٤ [*54.108.3*].

مخطوطةٍ مُصورةٍ فهي النُّسخة المؤرَّخة بعام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، من كتاب **صورة الأرض** -الذي وضَعه قبل قرنَين من فراغ النَّاسِخ من نسخِ هذه المخطوطة- الرِّياضي والجغرافي المشهور محمد بن موسى الخُوارِزمي، وقد أشرنا إليه أيضًا في الفصل الرَّابع آنفًا. وعادةً ما يتجاهلُ مؤرِّخو الفنِّ هذين الكتابَين؛ لأنَّ التَّصاوير فيهما لا تتضمَّن أشخاصًا. أمَّا

المخطوطـةُ الثالثةُ المُصوَّرة فهي ترجمةٌ عربية مؤرَّخة بعام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م، من كتابِ الأدوية المُفردَة (De materia medica)، التي وضَعها -قبل نحو ألف عام من تاريخِ نسخِ هـذه المخطوطـة- الطَّبيبُ اليونانـيُّ والصَّيدلاني ديسـقوريدس. ومُعظم الصور في هذه المخطوطة لا تضمُّ إلا النباتات فحسـب؛ وصُمِّمت المُنمنمةُ الوحيدةُ التي تُوضِّح كيفية استخدامِ الأعشابِ والنباتات لصناعةِ الأدويةِ، على غرارِ نموذجها اليوناني.

وإضافـةً إلى هذه المخطوطات الثَّلاث، اكتُشِـفت عدة شـذراتٍ، تبـدو لنا وكأنَّها قد انتُزعـت مـن كُتبٍ مُصوَّرةٍ، في المقام الأول في سياقِ حفرياتٍ غيـر قانونيةٍ أُجريت في أكـوامِ النُّفايـات في الفُسـطاط (القاهرة القديمـة) في مصرَ. ويرجعُ تاريـخ أقدمها، وهي شـذرة محفوظة في ڤيينا -اسـتنادًا إلى خصائصَ الخطِّ الذي كُتِبَت به (paleographic)- إلى أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسـع الميلادي، أو مُسـتهل القرن الرابع الهجري/ العاشـر الميلادي، لكن المُنَمنمة مجرد رسـمٍ تخطيطيٍّ بسيطٍ (انظر: شكل ٥)، شأنه في ذلك شأن شذرة **ألف ليلة وليلة** غير المصوَّرة المحفوظة في شيكاغو (انظر: شكل ٣٦)، التي اكتُشِفت في مصرَ أيضًا.

تتكون شذرة ڤيينا من ورقةٍ متآكلةٍ، يبلغ قياسها نحو ٦ بوصات مربعة (١٦×٥ , ١٤سم) عنـد الفتح بالاتِّسـاع الكامل، وتمثِّل، عنـد طيِّها، الصفحة الأولى والأخيـرة من متنٍ ما. ويبدأ النصُّ في مقدمة الورقة الأولى بالبَسـملةِ والأدعيةِ المألوفة في استهلال النُّصوص العربية، وينتهي على ظهرِ الورقة الأخيرة بقول الكاتب:

«... حتى جمَع الموتُ شملَهُما، وهذا هو قبرهُم، رحمهم الله»[1].

ثم يتبعُ النصَّ تصويرٌ بسـيطٌ لقبرين تفصل بينهما شـجرة. وليس ثَمَّ حيلة لمعرفة قدر النـصِّ المفقـودِ بين الصفحة الأولى والأخيـرة من هذا المجموع -والذي نفترض أنه لم يكن كبيرًا، استنادًا لحجم الورقة- كما لا يسعنا تحديد ما إذا كان ذلك الكُتَيِّبُ قد احتوى على مُنمنماتٍ أخرى أم لا.

(١) كـذا، ويحتـوي النَّـصُّ على قِصَـره على بعضِ الأخطـاء النَّحوية، وهذه سـمةُ هذه الكتابـات من القصص والحكايـات الشَّـعبية -علـى غرار **ألف ليلة وليلة**- التـي كتبها أنصافُ المُتعلِّمين، واسـتهدفوا بها جمهورًا على القدرِ نفسِه أو أقل من التَّعليمِ. (المترجم)

وتؤكِّد بساطة المُنمنمة والتِّقنية التي استُخْدِمَت في رسمِها، إضافة إلى صِغر حجم النص، أن هذه الحكاية الشَّاعرية الشَّعبية لم تكن ذات أهميَّةٍ فنيَّةٍ كبيرةٍ، وربما أدرج الناسخُ المنمنمةَ من بابِ ملء الفراغ في الصَّفحة ليس إلا. أمَّا النصُّ نفسُه فينتمي إلى نوعٍ أدبيٍّ مشهورٍ من القصص المتعلِّقةِ بالعشَّاق، والتي تنتهي بنهاياتٍ حزينةٍ، فينجح الموتُ فيما أخفقت فيه الحياةُ، ويجمع شملَ العاشقَيْن.

أدرَج ابن النَّديم في كتابه **الفهرست** هذا النَّوع من القصص في الأسمارِ والحكايات وأحاديث الخرافة، ويبدو أن المُصنَّفات من هذا النوع -على الرغم من أنها لم تصلنا- قد حظِيَت بشعبيَّةٍ كبيرةٍ في العصر العباسي في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو العصر الذي أُرِّخَت به تلك الشَّذرة بصفةٍ عامَّةٍ في ظلِّ غيابِ الدَّليلِ الأثري.

وثمَّة شذرات أخرى من الورق وُجِدت في الفُسطاط، وحمَلت مُنمنماتٍ أكثر تطورًا، وذهَب بعض العلماء إلى أنها قرينةٌ على وجودِ فنٍّ إسلامي مبكرٌ للكتاب إلا أنه مفقودٌ. وفي الواقع، ثمَّ القليل من هذه الشَّذرات يحمل كُلًّا من النصِّ والمُنمنماتِ معًا. وبالنسبة للشَّذرات التي تخلو من النصِّ، فإن استنتاجات الباحثين بشأنها مُتضاربةٌ، وذاك لأن أيًّا منها غير مؤرَّخ، كما أنَّ هناك عددًا كبيرًا من الأسئلة -المُثيرة للقلقِ- حول أصالةِ هذه الشَّذرات. فهناك شذرةٌ منها -على سبيل المثال- تحمل رسمًا جانبيًّا شِبه خطيٍّ يُصورُ أسدًا، ويلي المُنمنمة بضعة أسطرٍ من النص. وعلى هذا النَّحو صنَّفها العلماء بوصفِها جزءًا من رسالةٍ حول الحيوان، وضَعها كعب الأحبار، وهو يهوديٌّ اعتنق الإسلامَ في وقتٍ مبكرٍ (انظر: شكل ٥٩). ويُشير وجود هذا النص إلى أنَّ المنمنمةَ رُسِمت على صفحاتِ رسالةٍ إسلاميةٍ مبكرةٍ تناولت الحيوان.

ومع ذلك، فإنَّ أسلوبَ الرَّسم يُشير إلى أساليبَ الفنَّانين في القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الأمرُ الذي يصرفُ ذهن المرء إلى أن تلك الرسالة كُتِبت في وقت مبكرٍ ثم جرَى تصويرها بالمُنمنمات في تاريخ متأخِّرٍ. ولكن ظهر الورقة نفسِها يحملُ مُنمنمةً أخرى مصحوبةً بنصٍّ لا يتعلق بها قطُّ في مقدمة الصَّفحة، لذا يصعبُ علينا -بل يكاد يكون من المُستحيل- تخيُّل الكيفية التي شكَّلت بها هذه الصفحة جزءًا من رسالةٍ تناولت موضوعًا مُترابطًا.

وثَمَّ لوحةٌ أخرى يُدَّعى أنها افتتاحية ديوان شاعرٍ مشهورٍ عاش في العصر الأُموي، لكن ثَمَّة مشكلات تاريخيَّة وفنيَّة مماثلة تثير الشُّكوك حول أَصالةِ هذه المُنمنمةِ، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ من المنمنمات الأخرى؛ لذلك يبدو أنه من الأفضل أن نتعاملَ مع هذه الشَّذرات -المُختلَف حول أصالتها- بحذرٍ شديدٍ، وألا نستنِد إليها في الحِجاج للتَّدليل على شيء البتَّة.

وثَمَّ إشاراتٌ أدبيَّةٌ مُتناثرةٌ أشارت إلى وجودِ المخطوطات المصوَّرة إلا أنها نادرة؛ وذاك لأن المؤلِّفين في القرون الوسطى لحَظُوا هذه المخطوطاتِ على وجه التَّحديد لكونها استثنائيَّة ومُزينة بالتَّصاوير. فعندما زار المؤرِّخ المسعودي منزلَ أحد أعيانِ مدينة اصطخر -الواقعة على مقربة من شيراز الحديثة- في عام ٣٠٣هـ/ ٩١٥م ذكَر أن مُضيِّفه أخرج له مخطوطةً عن الأكاسرةِ ملوك بني ساسان وأعمالهم، انتُسِخت من مخطوطةٍ فاخرةٍ كانت قد أُرسِلت إلى الخليفةِ الأُموي هشام [بن عبد الملك]، وقد جُمِعت هذه المخطوطة قبل قَرنين من المصادر التي كانت في المكتبةِ الملكيَّةِ السَّاسانيةِ القديمةِ. وزُيِّنَت هذه المخطوطةُ بـ ٢٧ مُنمنمةً حيويَّةً (*Lifelike*) للأكاسرةِ -وقوامهم خمسة وعشرون ملكًا وملكتَين- وطُليت بالذَّهب والفِضَّة والنُّحاس المَطحون، ونُسِخَت على الرَّق البنفسَجي، في إشارةٍ واضحةٍ تدلُّ على فخامةِ المخطوطاتِ الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة[1] وتفرُّدها.

وعلى مستوى أكثر بساطة، أشار ابن النَّديم -صاحب **كتاب الفهرست**- إلى أنَّ كتابَه كان ينبغي أن يكون مُصوَّرًا لإنارةِ النصِّ، أي على طريقةِ الكتب العِلميَّة التي كانت تُصوَّر بالمُنمنماتِ توضيحًا. حيث كتَب قائلًا:

«وقيل إنَّ الصَّنَم الذي بالمولتان [في الهند] هذه صُورته».

واحتوت عدَّة نُسخٍ من **كتاب الفِهرست** على مساحاتِ بياضٍ فارغةٍ كانت مخصَّصة للمُنمنماتِ على ما يبدو. ودخَلت إحداها في ملك المؤرِّخ المقريزي -الذي عاش في العصرِ المملوكيِّ- وزعَم أنها كانت مُصوَّرةً بنماذج من الكتاباتِ القديمةِ التي ذكَرها المؤلِّف. وبالمثل، وفقًا لروايةٍ تعود إلى القرنِ السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي،

(١) كذا في الأصل الإنجليزي! والمؤلفُ يريد «السَّاسانيَّة» لا البيزنطيَّة بكلِّ تأكيدٍ. (المترجم)

كلَّف منصورُ الشَّامي -الذي صنَّف كتابًا في علم النبات- رسامًا بمُرافقته إلى حقلِه؛ ليرسُم النَّباتات بالألوان في المراحلِ المختلفةِ لنموِّها. وكلتا المخطوطتَيْن لم تصلنا.

وربما كانت مخطوطاتُ كتاب خُرافات الحيوان المسمَّى **كليلة ودمنة** مُصوَّرةً قبل ظهور الإسلام، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فينبغي علينا ألا نفترض أن غيرَه من النُّصوصِ الأخرى كانت مُصوَّرةً على نحو منتظمٍ في القرون الهجرية الأولى.

تُرجمت حكاياتُ كليلة ودمنة، المستمدة من «بانكاتانترا ***Pañcatantra***» الهندية، وهي من جملة المُصنَّفات في فنِّ «مرايا الأمراء»، وضِعَت نحو عام ٣٠٠م، ثم ترجمها ابن المُقفَّع إلى العربية من نُسخةٍ كُتِبَت بالفارسية الوسطى في القرن الثَّاني الهجري/ الثامن الميلادي. والمخطوطات العربيَّة التي وصَلتنا من الكتاب ونُسِخَت قبل مُستهلِّ القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي غير مؤرَّخةٍ، ومن ثم فليس هناك دليلٌ مباشرٌ على أنَّ المخطوطاتِ المبكرةَ كانت مُصوَّرةً. ووفقًا لما جاء في مقدمة ابن المُقفَّع:

> «وينبغي للنَّاظر في هذا الكتابِ أن يعلَم أنه ينقسِمُ إلى أربعةِ أغراضٍ: أحدها ما قُصِدَ فيه إلى وضعِه على ألْسنةِ البهائم غير النَّاطقة؛ ليُسارع إلى قراءته أهلُ الهزلِ من الشُّبَّان، فتُستمال به قلوبُهم؛ لأنَّه الغرضُ بالنَّوادرِ من حيلِ الحيوان. والثاني إظهار خيالاتِ الحيوان بصنوفِ الأصباغِ والألوان؛ ليكون أُنسًا لقلوبِ الملوك، ويكون حرصُهم عليه أشدَّ للنُّزهةِ في تلك الصُّور. والثَّالث أن يكونَ على هذه الصِّفة؛ فيتَّخذه الملوك والسُّوقة، فيكثُر بذلك انتساخُه، ولا يبطل فيخلق على مرورِ الأيام؛ ولينتفع بذلك المُصوِّرُ والنَّاسخُ أبدًا. والغَرضُ الرَّابع، وهو الأقصى، وذلك مخصوصٌ بالفيلسوفِ خاصةً».

قد يبدو لأوَّلِ وهلةٍ من هذا المقطع، أنه من الواضح أن ابن المُقفَّع -وهو مُترجم الكتاب- كان يريد له دائمًا أن يكون مُصوَّرًا، ما لم يحمِل القارئ قولَه على المجاز بطبيعةِ الحال. إلا أنَّ المسألةَ ليست بهذه البساطة التي قد تبدو بها؛ إذ حقَّق عدد من المحقِّقين نصَّ ابن المُقفَّع ونشروه مرارًا، وقد أثاروا بعض التَّساؤلات حول ما إذا كان هذا المقطع خاصَّةً من لفظِ ابن المُقفَّع على الحقيقةِ، أو أنه أُقحِم على النصِّ لاحقًا تسويغًا لإقحام المُنمنماتِ على النصِّ في المخطوطاتِ المتأخرة. وعلى الرغم من أن الجوابَ على هذا السُّؤال لم يزل أمرًا يشغل بالَ المتخصِّصين، إلا أن الحكاياتِ اشتُهرت شهرةً عريضةً في



شكل (٦٠): «أبوان ذِئبان يشكُوان للأسدِ الملك «أزاكر» من أسدٍ مُعتدٍ أكَل صغارَهما». من مخطوطةٍ يونانية لـ أساطير إيسوب (Aesop's Fables)، وكليلة ودمنة. جنوب إيطاليا، ٩٨٠–١٠٥٠م. ظهر الورقة ٥، بالحبر واللون على الرَّق. مكتبة بيربونت مورغان (*Pierpont Morgan Library*)، نيويورك [*MS 397*].



شكل (٦١): رسمٌ يُجسّد شخصًا جالسًا، على ظهر قرميدٍ مصقولٍ ذي بريقٍ. فارس ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م. مجموعة إدوارد سي مور (Edward C. Moore Collection)، متحف المتروبوليتان للفنون (The Metropolitan Museum of Art)، نيويورك [*91.1.105*].

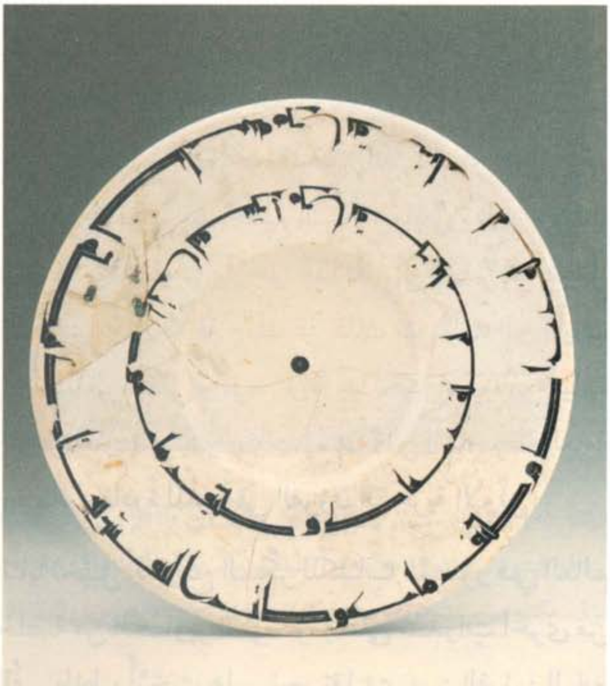
القرون الوسطى على نحوٍ استثنائيٍّ؛ وذاك لأن التَّرجمات العبريَّة في القرونِ الوسطى واللاتينيَّة والفارسية الجديدة لهذا الكتابِ كانت مشهورةً أيضًا.

وهناك شذرةٌ مُصوَّرةٌ من نُسخةٍ يونانيةٍ مصورةٍ من **كليلة ودمنة** نُسِخَت على الرَّق، وتُنسَبُ إلى جنوب إيطاليا بين عامي ٣٧٠-٤٤٢هـ/ ٩٨٠-١٠٥٠م، وتحمِلُ أوجه شبهٍ بالمُنمنمات في المخطوطات العربية والفارسيَّة المتأخِّرة للنص (انظر: شكل ٦٠). وقد أدَّت أوجه الشَّبه هذه بالعلماءِ إلى اقتراحٍ يقضي بأن جميعَ النسخِ المُصوَّرةِ التي وصلتنا قد انحدرت من أصلٍ عربيٍّ مُشتركٍ، ولكنه مفقود، وأرَّخوا هذا الأصلَ المُفترضَ بأوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وله علاقة -مثله في ذلك مثلُ تلك الحكاياتِ نفسها- بالنماذج الأوَّلية لها في آسيا الوسطى والهند. وإذا ما نَحَّيْنا هذه الفرضياتِ جانبًا، فإنَّ فرضيةَ تصوير مخطوطة كليلة ودمنة تبدو وكأنها استثناءً من الملحوظةِ العامةِ القائلةِ: إن المخطوطات المُصوَّرة كانت نادرةً للغاية في القرون الهجرية الأولى.

حاول العلماءُ أيضًا -في ثنايا تخيُّل التَّاريخ المبكِّر للكتابِ المُصوَّر في العالم الإسلامي- دمج الأدلَّة المستخلصَة من التَّصاويرِ المرسومةِ على شذراتٍ أخرى من الورق، عُثِر على مُعظمها في الفُسطاط وأُرِّخت على نحوٍ تقليدي بين القرنين الرابع



شكل (٦٢): صَحنٌ عليه نقشٌ يصوّرُ امرأةً واقفةً تحمِلُ كأسًا ومُحاطةً بطائريْنِ. نيسابور-فارس، القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. مصنوع من الخزف ذي البريق، وقياس قُطْره ٧,٥ بوصة (٢٠سم). متحف المتروبوليتان للفنون (The Metropolitan Museum of Art)، نيويورك، صندوق روجرز (*Rogers Fund*)، ١٩٥٠ [*38.40.290*].



شكل (٦٣): صحنٌ منقوشٌ عليه «مَن أيقَن بالخَلِفِ جاد... وكيف عَوَّدت النَّفسَ تعتاد. بركةٌ لصاحبِه». شمال شرق فارس أو بلاد ما وراء النَّهر، القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. معرض فرير للفنون (*The Freer Gallery of Art*)، مؤسَّسة سميثسونيان (*Smithsonian Institu-tion*)، واشنطن العاصمة [F1952.11].

والسَّادس الهجريين/ العاشر والثَّاني عشر الميلاديين. إذ ثَم عددٌ كبيرٌ من المُنمنمات والتَّصاوير لا يسعنا التأكُّد من أصلِها، وهل انتُزعت من كُتبٍ وأُخِذَت لتكون بمثابة نماذج تمهيديَّة للمُحاكاةِ من قِبل الرسَّامين الذين يعملون في رسم المخطوطات، أو حتى على الفخَّار وصناديق العاج والأواني الزجاجيَّة والألواح الخشبيَّة وما يجري مجرى ذلك. ويعتقد العلماءُ أن بعضَ التصاوير الأخرى كانت تصميماتٍ للنسَّاجين أو المطرِّزين، أو مجلِّدي الكتبِ أو الحدَّادين. ومع ذلك، ليس ثَمَّ دليلٌ على الإطلاق يدلُّ على أن البنَّائين، أو الخزَّافين، أو الحدَّادين، أو الزجَّاجين، أو معظم النسَّاجين، قد استوحوا أعمالهم من تصميماتٍ مرسومةٍ على الورق آنذاك. لذلك لا يزال الغرض من هذه الرسومات، بالإضافة إلى تأريخها الدَّقيق يُشكلان لغزًا محيِّرًا.

وعلى أية حال، فقد تعلَّم الخزَّافون في العراقِ في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، أو في مصرَ في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي الرَّسم على الخزفِ من خلال الاستغناء عن المدادِ والورقِ. فقد كان الورق سلعةً أثمَن من أن تُهدَر بهذه الطَّريقة، وأن يُتخلص منها بوصفها نُفاياتٍ بعد تنفيذ مثل هذا الغرضِ. عِوضًا عن ذلك استخدموا الفرشاة مباشرةً للرسم على الخزفِ غير المحروق أو على بعض الأسطح الأخرى التي كانت جاهزةً للعملِ عليها مباشرة. وكانوا يخزنون ذخيرتَهم الفنيَّةَ في طيَّات ذاكراتهم، وليس في ألبوماتٍ نموذجية للمُحاكاةِ (Pattern books) وما زالوا كذلك حتى لانَت عضلاتُ أياديهم واستجابت لرسم هذه الأشكالِ والزَّخارف وتأديتها على أفضل وجهٍ. وما زلنا -من حينٍ لآخر- نُصادف رسمًا على ظهرِ الفخَّار، ما يدلُّ على أن الخزَّافين مارسوا الرَّسمَ على الأسطح التي كان يسَعُهم التخلص منها، أو في أماكن لن تَظهر للنَّاظرِ قط (انظر: الشكل ٦١). ومن ثم، فإنَّ الغالبيةَ العُظمى من أشكالهم التَّمهيديَّةِ رُسِمَت بالفعل، أو تم التخلُّصُ منها بالكُلِّيةِ، ما ترَك إشاراتٍ نادرةً، أو فلنَقُل: معدومةً، عن كيفية تقدُّم الفنَّان في مراحلِ صُنع مُنجزه النِّهائي.

وتعدُّ نضارةُ التَّمثيلِ والتَّنفيذ في معظم وسائط الفنِّ الإسلامي المبكرة -سواء كانت من الخزف أو المعدن أو المنسوجات- دليلًا إضافيًا على استخدامِ تقنيةِ رسمٍ مباشرةٍ على سطح التُّحفة الفنيَّة (انظر: شكل ٦٢). فلو قام الخزَّافون أو الحدَّادون بنسخِ الصور من وسيطٍ آخر -مثل الورق- بدلًا من الرسم أو العمل مباشرة على المُنتجِ نفسه، إذن

لافتقـرت الرُّسـومات الناتجة إلى خصائصِها الحيوية المُمَيِّزةِ لهـا فضلًا عن تفرُّدِها. بيد أنه ليس ثَمَّ وعاءان من الخزفِ الإسلامي في هذه الحقبة مُتماثلان أو يحملان أوجه شبهٍ قـطُّ، وتمتـاز الزخـارفُ والرُّسـوماتُ بالحيوية والاسـتقلال التَّام، ما يشـي بأنها لم تكن إعادة صياغةٍ من تمثيل رُسِـمَ على وسـيطٍ آخر. وإجمالًا، فإن الفنَّانين الذين رسَموا على الخـزفِ لـم يصمِّمـوا أعمالهـم اسـتنادًا إلـى تصميمـاتٍ أخرى كانـت مرسـومةً علـى المشغولات المعدنيَّة أو الخشَب المنحوت.

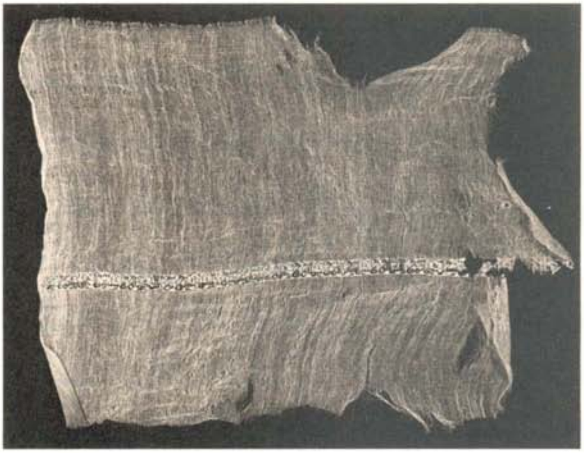
بيـد أن هنـاك اسـتثناءً كبيـرًا مـن هـذه القاعدة، وهـو مجموعة مـن الأطبـاقِ الخزفيَّة المؤرَّخـة بالقـرن الرابع الهجري/ العاشـر الميلادي شـمال شـرق فارس وبـلاد ما وراء النَّهر، ولا سيما في مدينتي نيسابور وسمرقند، وهي منقوشة ببعض الأمثالِ العربية بخطٍّ أنيـقٍ وأسـلوبٍ مدروسٍ (انظر شـكل ٦٣). وعلـى النَّقيضِ من الخـزفِ المعاصر الذي يُنسَـب إلى المنطقة نفسـها، والذي رُسِـمَ فيه التصميم مباشـرة على سـطح الفخار، فإنَّ النقوش على هذه الأطباق والأوعية جاءت مُخططةً سـلفًا على نحوٍ واضحٍ، بحيث جاء الخط مُنضبطًا وشديدَ التكيُّف مع طبيعة السَّطح الذي نُقِش عليه.

كانت النصوصُ المنقوشـة ذات طبيعةٍ دينيـةٍ أحيانًا، ولكن في معظم الأحوال كانت أمثالًا ذات طبيعةٍ دنيويةٍ، مثل: «العِلْمُ[1] أوله مرٌّ مذاقتُه، لكن آخره أحلى من العسلِ»، أو «الصبرُ مِفتـاح الفَرج». وثَمَّ طبقٌ أنيقٌ، نُقِشَـت عليه عبارة «التَّدبير قبل العمل يؤمنك من النَّدم كـ»، ويحتوي النَّقش على حرف «ك» زائدٍ على سبيلِ سدِّ الفراغ من جهةٍ، ووسيلة -فـي الوقـتِ نفسـهِ- لإظهـار ما قـد يحدثُ عندمـا لا يخطِّط المـرء لعملِه جيـدًا قبل أن ينهضَ له، وهي تُشـبه إلى حدٍّ كبيرٍ الحكمة الإنجليزية القائلة «خَطِّط أولًا» عندما نكتُبها علـى هـذا النَّحو (PLAN AHEAD). وتُظهِر هذه المجموعة من الخَزف أن بعضَ سُـكَّان المدينةِ كانوا يُجيدون العربيةَ قراءةً وكتابةً ليقدِّروا أواني الطعام الخاصَّة المُزيَّنة بالأمثالِ العربية المكتوبة بخطٍّ رائعٍ.

كُتِبَت النقوشُ الرشـيقةُ والمدروسـةُ على هذا الخزفِ بخطٍّ يُشبه الخطَّ المُستخدمَ في المصاحـفِ المنسـوخةِ علـى الرَّق العائـدة إلى القـرن الثَّالث الهجري/ التاسـع الميلادي

---

(١) فـي الأصـلِ الإنجليزي «العلـم learning»، ولمَّا راجعتُ المؤلـفَ فيها، أفاد بأن صوابهـا «الحِلْم»، وليس العلم. (المُترجم)



شكل (٦٤): نَسيجٌ من الكِتَّان وعليه شريطٌ حريريٌّ مطرَّزٌ باسم الخليفة الفاطمي الظَّاهر لإعزاز دين الله. مصر، ٤١٢- ٤٢٨هـ/ ١٠٢١-١٠٣٦م. متحف أونتاريو الملكي (Royal Ontario Museum)، تورنتو [*973.424.8b*].

(انظر: الشكل ٣٩). وإن كانت الأساليب مختلفةً تمامًا عن أساليب خطِّ الورَّاق المُستخدم في كتابة المخطوطاتِ المعاصرة، سواء كانت نصوصًا دُنيويَّةً أو دينيةً (انظر: الشكل ٤٣). ونظرًا للمكانةِ العاليةِ التي تمتَّع بها الخطَّاطون، والوضع الاجتماعي المُتدنِّي نسبيًّا للخزَّافين، فلسنا نرجِّحُ أن يكون الخطَّاطون قد أظهروا التواضُع إلى حدِّ قبولهم تزيين الأواني الخزفيَّةِ، أو حتى عرفوا كيفيَّة التَّعامل مع الفُرشاة، وهي عدة الخَزَّاف؛ كما لا يُتصوَّر أيضًا أن يكون الخزَّافون قد برعوا في كتابةِ الخطِّ المُستخدَمِ في نسخِ المصاحف أو عرفوا كيفية استخدام قلم القصبِ وهو عُدَّة الخطاط. والأرجحُ عندنا أن يكون الخطَّاطون قد أعدُّوا تَصميماتِ نَسَخها الخزَّافون على صحونِ الخزفِ وأوعيتِه، تمامًا كما نقَل الحرفيُّون المُحدَثون -في أسواق أصفهان والقاهرة ومراكش- تصميماتِ الخطَّاطين إلى الخزفِ والمشغولات المعدنيَّة والنَّسيج المطرَّز بأخَرةٍ.

وعلى الرَّغم من أنَّ النصوصَ التي كُتِبَت بها الأمثال العربية يمكن مقارنتها بالخطوط المستخدمة في نَسخِ المصاحف على الرَّق، فمن قَبيل المحتملِ أن يكون الخطَّاطون قد أعدوا تصميماتهم على الورقِ، وليس على الرَّق باهظ الثمن، ولا سيما أن الورقَ أضحى أرخصَ من ذي قبل آنذاك، وشاع استخدامه بين الناس بالفعل في كتابة أنواعِ أخرى من المخطوطات، وعلى نطاقٍ واسعٍ.

كانت عدَّة قرونٍ من إنتاجِ الورق في مدن آسيا الوسطى وشمال شرق فارس كفيلةً بتعليم الحرفيِّين الذين عمِلوا في خدمة سُكَّان المناطق الحضريَّة من الأثرياء القادرين

علـى تحمُّـلِ كُلفـة شـراء تلك الأوانـي الفاخرة، فـكان أولئـك الحرفيُّون بيـن أوائل من اكتشفوا الإمكانيَّاتِ الفنِّية لهذه الوسيلة الجديدة.

وربما كان للورق دورٌ أيضًا في تصميمِ المنسوجات الفاخرة وإنتاجها، وهي الصناعة التـي لعبَت دورًا اقتصاديًا مهمًّا في الإسـلام في القرون الوسـطى، ولكـن معرفتنا بكيفيَّة عملِ النسَّـاجين اسـتندت إلى حدٍّ كبيرٍ على الاسـتقراء من خلال شَّـذرات النَّسيجِ التي وصلتنـا، وقـد لا تكـون بالضَّرورةِ مُصـوَّرةً. وبالنِّسـبة لمعظم الأقمشـة العادية، وكذلك الأقمشة ذات الأنماط الهندسيَّة البسيطةِ، مثل الخطوط الطُّولية والمُتقاطعة، والتي كانت تمثِّـل الجزءَ الأكبـر من المنسـوجات المُنتجة آنـذاك، فلم يكـن النسَّـاجون بحاجة إلى تعليمـات مُصـوَّرة لتنفيذها. وربما أضاف النسَّـاجون رسـوماتٍ وشـرائطَ زُخرفية تحت أنوالهم لإرشادهم عند إدخالِ خيوط مُلوَّنة لتنفيذ أنماطهم، ولكن الطبيعة المُتكرِّرة إلى حدٍّ كبيرٍ لمعظم تصميمات النَّسيج في هذه الفترة -ولا سيما عصائب الحِليات الصغيرة التـي احتـوت على أشـكالٍ هندسـيَّةٍ أو نباتيَّةٍ أو حيوانيةٍ- تُشـير إلى أن جميع النسَّـاجين -باسـتثناء المُبتدئين منهم- كان بوسـعهم إنتاج عددٍ كبيرٍ من التَّصميمات النموذجية من خلال اعتماد النسَّـاج على ذاكرتِه ومحفوظِه، أو باسـتخدام عيِّنةٍ منسـوجةٍ بالفعل، يتخذُ منها نموذجًا للمُحاكاةِ.

ومع ذلك، ربما تطلب العملُ استخدام الورق المقوى (Cartoons) لإنتاج المنسوجات الإسـلامية المنقوشـة بنصوصٍ حمَلت أسـماءَ الخلفاء والولاة، وتُشـير إلى أنها صُنِعت لهـم خصِّيصًا وبناءً على طلبهم. وكانت منسـوجات الطِّـراز هذه، التي أُنتِجَت منذ عصر صـدر الإسـلام في آسـيا الوسـطى والعراق ومصر، علامـةً مهمَّةً على السُّـؤدُدِ؛ وذاك أن الخليفـة اعتـاد منحَ أطـوالٍ من القمـاش في كلِّ موسـمٍ لبطانتِـه ورجال حاشـيته، الذين صَنَعوا -بدورهم- ثيابَهم منها.

نُسِـجَ نـصُّ الطِّـرازِ إمَّا على النَّسيجِ في أثنـاء عملية النَّسـج نفسِـها، أو بالتَّطريز على القماش بعد إتمام صُنعِه، اعتمادًا على النمط المعتاد في دار الطِّراز العامة أو دور النَّسيجِ الخاصة حيث صُنِع القماش (انظر: شكل ٦٤). وأعدَّ أحد رجال البلاطِ النُّصوص، التي نُسِـخَت بعـد ذلك على المنسـوجات أو طُرِّزت على المنسـوجات بأيدي النسَّـاجين أو المُطرِّزيـن، الذيـن نفتـرض أنهم كانوا أميُّـون، لا يقرأون ولا يخُطُّـون بأيديهم، أو هكذا

بوسعنا أن نحكمَ عليهم مباشرةً من خلال الأخطاءِ السَّاذجة التي ارتكبوها في أثناء تطريز النصِّ على النَّسيج غالبًا. وعلى الرَّغم من أننا يمكن أن نتخيَّل أن النسَّاجين كانوا ينتجون أنماطًا هندسيَّةً ونباتيَّةً وحيوانيَّةً في حدودٍ معينةٍ من ذاكراتِهم، إلا أن زيادةَ النقوش وزيادة تعقيداتها أدَّت ببلاط الخلافةِ أن يُصمِّم بعض الوسائط المنقولة لتزويد النسَّاجين بالنُّصوصِ الصَّحيحةِ، وربما كانت هذه الوسيلةُ هي الورق في آسيا الوسطى والعراق، وورق البردي في مصر حتى القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي. وقد يصحُّ أن يكون ذلك الوسيط هو الرَّق في المغرب.

كما مسَّت الحاجةُ أيضًا إلى الرُّسومات التَّخطيطية على الورقِ أو أي وسيطٍ مماثلٍ لإعداد الأنوال المُركَّبة (drawlooms) لنَسج الحرير الفاخر، الذي أصبح شائعًا على نحوٍ مُتزايدٍ في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. فكما استعرَضنا من قبل، كانت التِّقنياتُ القديمةُ المُستخدمة في نسج المنسوجاتِ والتَّطريز تعتمد على القرارات التي اتخذها النسَّاجون في أثناء تقدُّمِهم في إنجازِ عملِهم. فمتى وجَد النسَّاجون أن الخيوطَ باتت أكثر سمكًا أو أرقَّ من المُعتاد، كان بوسعهم إعادة ضبط نمطِها أثناء تقدُّمهم في العمل، وكان يسع المطرِّزين استبدالَ أشكالِ الزهور بأشكالٍ للطيورِ في اللحظةِ الأخيرةِ على سبيل المثال. وعلى النَّقيض من ذلك، فإن النَّسج على النول المركَّب -الذي اختُرع في الصين ومن هناك أدخل إلى العالم الإسلامي- كان يتطلب إعدادَ النموذج مُسبقًا وإدخاله على النَّول قبل البدء في عملية النَّسجِ، على غرار ما نقوم به نحن من تثبيتِ البرنامج على الحاسوبِ قبل أن نتمكَّن من فعل أَي شيء ذي قيمةٍ.

أُدخل نمطُ النَّسيج المطلوب على النَّول المُركَّب بربط الخيوط بكل خيط سُدى (طولي)؛ وتجميع تلك الخيوط في حِزم، عُرِفَت مجتمعةً باسم «البَسيط»، والتي سُحبت بترتيبٍ محدَّدٍ سلفًا، ومن ثم انتظم النَّمط المراد نسجُه. ولم يكشف البَسيط -في حدِّ ذاته- عن شكلِ النَّسيجِ عند انتهائه قطُّ، تمامًا كما لا تُظهِر ملفَّات البرنامج على الحاسوبِ ما الذي سيخرجه هذا البرنامج بالضبط. وبمجرد إدخال النَّمط على النَّول، يمكن للنسَّاج وصبيِّه، البدء في النَّسجِ، حيث يقوم الصَّبي بتحديدِ حزم الخيوط بالتَّسلسل، ومن ثم رفع خيوط السُّدى وخفضِها، ويقوم النسَّاج بإدخال اللُّحمات (الخيوط المُتقاطعة) لصُنع القماش. وطالما كان النسَّاج وصبيُّه يتَّبِعان الإرشادات



شكل (٦٥): كفنُ القدّيس جوس (Saint-Josse). فارس أو بلاد ما وراء النَّهر، قبل عام ٩٦١م. منسوجٌ من الحريرِ. باريس– متحف اللوڤر (Musée du Louvre)، [AO 7502].

المُشفَّرة في حزمِ الخيوط، فسيتم إعادة إنتاج النَّمطِ المُصمَّم بحذافيرِه، ولن يتبقَّى في تلك العملية سوى أقل القليل لقرارِ النسَّاج وارتجالِه.

وليس لدينا معرفةٌ مباشرةٌ بالكيفية التي شفَّر بها النسَّاجون المسلمون أنماطَهم في القرونِ الوسطى، ولكن بوسعنا استخلاصَ بعض النَّتائج من خلال المقارنات بالنَّسيج الفَرنسي في القرن الثَّامن عشر الميلادي أو النَّسيج الإيراني في القرنِ العشرين، حيث تكونُ النتائج مُتماثلةً في الأخير. ومن ثم يمكن القول: إن تصميمَ النَّسيج نُقِل على ورقٍ ذي مسقطٍ شبكي، حيث مثَّل كل مربع من الشَّبكةِ على الورق غُرزَة سُدى واحدة. ونُقل الرَّسم البياني إلى البَسيط؛ حيث مثَّل كل مربَّعٍ من الرسم البياني خيطَ سُدى واحد معقود. أمَّا بالنِّسبةِ للحرير النَّاعم، الذي قد يحتوي على ١٥٠ غُرزةِ سُدى في البوصة الواحدة (٦٠ سُدى لكل سنتيمتر)، فإنَّ إدخال التَّصميم إلى النَّول لا يستغرق عادةً أقلَّ من شهر، وقد يصلُ إلى عامٍ كاملٍ، ويمكن أن يُنجز النسَّاج من نصفِ بوصةٍ إلى ياردة لكل يوم (من سنتيمتر إلى مترٍ كاملٍ)، ويتوقف ذلك على دقةِ النَّمط المطلوب، ودرجة

تَعقيـده، وعـدد ألوان الخيوط المُسـتخدمة في تنفيـذِه. ونظرًا لمتطلباتِ تلـك التِّقنية في النَّسيج، ينبغي أن يكون مُصمِّمو المنسوجاتِ على النَّولِ المركَّبِ قد رسموا تصميماتٍ شـبكيَّةً تمهيديةً؛ لأنَّ النسَّـاجين لم يكن بوسـعهم حفظُ هذا الشَّكل المُعقَّد في ذاكراتهم قط.

ومن المعروف أنه لم تصلنا تصميماتٌ شـبكيَّة لمنسـوجاتِ القرونِ الوسـطى، ولكن الشَّـبكات التي اسـتُخدمت في سـياقاتٍ أخرى، ظهَرت للمرة الأولى من خلال أوصافِ الخرائط الإسـلامية من أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. إضافةً إلى ذلك، فنحـن علـى يقينٍ من أن ثمـة نظامًا كان موجودًا بالفعلِ لتدوين الأنماطِ المُستخدَمة في المنسـوجات فـي القـرون الوسـطى، ونرجِّـح أنـه كان شـبَكيًا؛ وذاك لأن لدينـا أمثلة من المنسـوجاتِ المُعقـدةِ المصمَّمـةُ بأنمـاطٍ مُتطابقـةٍ، بيد أنها نُسِـجَت باسـتخدامِ خاماتٍ مُختلفةٍ، ونُفِّذَت على أنوالِ مركَّبةٍ مختلفةٍ أيضًا.

ويجيبُ تعقيدُ النَّسـجِ على النَّول المُركَّب عن سـؤالٍ يُثار بين الفيْنَة والأخرى، وهو: لماذا تم استخدام هذه التِّقنية الدَّقيقة لإنتاج أرقى أنواع المنسوجات الحريرية، مثل كفن القِدِّيس جوس (Saint Josse) –على سـبيل المثال– الذي نُسِـجَ بسبعةِ ألوان (الأُرجواني والأصفر والعاجي والسَّماوي والبُني بدرجاته الفاتح، والنُّحاسي، والذَّهبي) على نَسيجٍ أحمـر حيث يتقابل فيلان بالمواجهـةِ، وبين قدمي كل منهما تنِّين، ويحيط بهما قافلةٌ من جمـالٍ باكتريا ذات السَّـنامَين (انظر: شـكل ٦٥)، أمَّا الطِّـراز بالعربيَّة فيُعـدِّد ألقابَ قائدٍ تركيٍّ عاش في شمال شرق فارس وأُعْدِم بأمرٍ من الأمير السَّاماني عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م[1]؛ ولأن ذلك القائد كان ما يزال حيًّا عندما نُسِجَت تلك القطعة له، فمن ثم ينبغي أن يكون ذلـك النَّسيج قد نُسِـج في خُراسـان أو في بـلاد ما وراء النَّهـر في منتصف القـرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

ولا يُتصورُ عقلًا أن هذا النَّسـيج الرَّائع قد نُسِـج ارتجالًا من النسَّـاج دون الحاجةِ إلى رسـمٍ مبدئـيٍّ لإدخال النَّمط علـى النَّول. ومن المُحتملِ –نظرًا لمكان نسـجِ هذه القطعة وتاريخ نَسجِها– أنَّ ذلك الرسمَ كان على الورق. وبطبيعة الحال، كان الحرير المعقَّد قد نُسِج على أنوالٍ مُركَّبةٍ في فارس البيزنطيَّة والسَّاسانية قبل الإسلام، حيث لم يكُنِ الورق

(١) الإيماءةُ إلى الأمير التُّركي أبي منصور بختَكين. (المترجم)

قد توفَّر بعد، ومن ثم كانت التَّصميمات تعدُّ بلا شكٍّ على وسيطٍ آخر، ولم تكن تكلفة ذلك الوسيط أمرًا ذا بالٍ. ويُفترض أن تكون قيمتُه الباهظة قد دخَلت في جملةِ التَّكلفة الباهظةِ للنَّسيج بعد تمامِ صُنعه. ومن ثم، لم يكن الورقُ خاصةً ضروريًا تمامًا لتخطيطِ الأنماط على أنوالِ الحرير المُركَّبة، إلا أنه سهَّل عملية الإبداع الفنِّي والابتكار.

وافترض معظمُ الباحثين أنَّ البنَّائين في العالم الإسلامي في القرون الوسطى استخدموا المُخطَّطات بمجرَّد أن أصبَح الورق متاحًا. ورُسِمت هذه المخطَّطات على الورقِ، إلَّا أنَّ مثل هذه الخُطَط من القرونِ الوسطى المُبكِّرة لم تصلنا، وربما لم يكن هناك ما يُبرر هذا الافتراض أصلًا؛ فقد كانت الهندسة المعماريَّة في العالم الإسلامي -كما كانت كذلك في أوروبا القُروسطيَّة- في الأساسِ تقليديَّة وتجريبيَّة، ومُستندة إلى الخِبرة. وظلَّت كذلك حتى مطلع العصر الحديث، ولا سيَّما إذا كانت للرِّوايةِ التي استهللتُ بها هذا الفصل دلالةٌ ما.

لم يستخدِم البنَّاؤون -اللهم إلا قلةٌ قليلةٍ منهم- المُخطَّطات؛ لأنهم لم يكونوا بحاجةٍ



شكل (٦٦): أروقةُ الجامع الكبير بقُرطبة، القرن الرابع الهجريِ/ العاشر الميلادي.

إليها قطُّ. ومثَلُهم في ذلك مثَل الخزَّافين والحدَّادين، أخذ البنَّاؤون أبجدياتِ حرفتهم من بنَّائين آخرين أطول باعًا وأكثر خبرةً، بالحفظِ والإيماءات للاحتفاظِ بخُطِطهم وتصميماتِهم ونقلها إلى غيرهم، وكذلك لتقديرِ التَّكاليف والكمياتِ اللَّازمة من موادِّ البِناء المختلفةِ.

بيد أنَّ التَّدقيق في بعض المُنشآت الاستثنائيَّة، مثل قبَّة الصَّخرة في القُدس، التي أمَر بإنشائها الخليفةُ الأُموي عبد الملك [ابن مروان] في عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م، يشِي بإمكانية استخدام المُصمِّم لبعض الوسائطِ الرسوميَّة في وضع خُطَّةٍ معقَّدةٍ للغاية، لكن الأدلة في هذا الصَّدد بعيدة كل البُعد عن أن تكون قاطعةً، وحتى هنا ربما تكون تلك الخطة المُعقَّدة قد وُضِعَت في موقع البناء نفسه. وعلى أية حال، فإن التَّعميمَ استنادًا إلى مبنى استثنائيٍّ مثل قبة الصَّخرةِ قد يقود إلى نتائج مُضلِّلة؛ وذاك لأن معظم النُّصبِ الإسلامية المُبكرة الأخرى جاءت أبسط كثيرًا سواءً في التَّصميم أو في البناء.

عمِل مُعظم البنَّائين دون تمثيلٍ رسوميٍّ بالكليَّةِ خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى، كما كان الحال عند إقامة أكثر أنواع المساجد شيوعًا عند البنَّائين -وهي البِنية المسقوفة ذات الأعمدة (hypostyle structure)، والتي تكوَّنت من عددٍ كبيرٍ من الأعمدة التي حمَلت عُقودًا دعَمَت قُبَّةً أو سقفًا خشبيًّا مسطحًا أو جملونيًّا (انظر: شكل ٦٦). وبصرفِ النظرِ عن كونِ المساجد -ذات السَّقفِ المُستندِ إلى الأعمدةِ- كبيرة أو صَغيرة، فإنَّ طبيعةَ النمطِ المِعماري المُتكرِّر في هذا النوع من الأبنيةِ كانت تعني -كما جرَت الحال في الكنائس الأوروبيَّة القروسطيَّة ذات الفَسحات المُتكرِّرة بين عمودين (Bays) - أن العُنصرَ المعماريَّ الأوَّل الذي شُيِّد -سواء كان عمودًا أو عَقدًا أو قُبة- كان بمثابة نموذجٍ شاملٍ لإنشاء العناصر المعماريَّة اللَّاحقة على غرارِه. وكان إجراء التَّعديلات على ما شُيِّد بالفعلِ أمرًا سهلًا، وأحيانًا كانت تلك التَّعديلات ضرورية، ولا سيما أن موادَّ البناء نفسها لم تكن مصبوبةً في أحجامٍ قياسيَّةٍ، بل تفاوتَت في أحجامها. وعلى هذا النَّحو قام المهندسون بتعديلِ خُطَّة البناء في الموقع لتتناسبَ مع الخامات المُتوافرة لهم؛ حيث كان لمُخطَّطات البناءِ قيمةً عمليَّةً محدودةً. فعلى سبيل المثال جاء تنفيذُ مخطَّط الجامع الكبير في تونس الذي شُيِّد في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، مَعيبًا إلى حدٍّ أن جميع زوايا الجامع حادَت عن الاتِّجاه الصَّحيح، على الرغم من أنَّ هذا

لا يظهر للمُراقب العادي؛ بل فات إدراكُ هذه السِّمة عددًا كبيرًا من المخطَّطات الحديثةِ التي مثَّلت الجامع، بما فيها تلك التي أعدَّها مُصمِّمون مؤهَّلون.

وفوق ذاك، فإنَّ معظم المباني -سواء في العالم الإسلامي، أو في الدَّولة البيزنطيَّة، أو في غرب أوروبَّا- قد زِيد في موادِّ بنائها بإفراط. وكانت تلك المباني عادةً أقوى بما لا يُقاس مقارنةً بما كان المهندسون المُحدَثون سيُشيِّدونَه لو أُوكِل لهم أمرُ بنائها. لقد كان ذلك الإفراطُ مُتعمدًا من أجلِ إصلاح أية عيوبٍ قد تحدُث في التَّخطيط أو التَّقدير أو التَّنفيذ. وكان ذلك الإسراف في موادِّ البناء خيارًا حكيمًا للغاية بالنسبة لكل من البنَّائين وعُملائهم، كي يكون الجميع على الجانب الآمن. ومثلما يعرف النجَّارون اليومَ ما هو الطُّول المناسبِ للوحٍ خشبيٍّ، أو الطَّبقة المناسبة لسقف يُشيَّد في مناخٍ ثلجي دون حسابٍ أو قياسٍ، فقد عرَف معظم البنَّائين في العالم الإسلامي في القرون الوسطى كيف يُنشِؤون المباني دون رسوماتٍ أوَّلية.

ومع ذلك، فربما رسَم البنَّاؤون -أحيانًا- مخطَّطاتٍ للمباني أو لأجزاءٍ منها. وقد أحصَى العُلماء إشاراتٍ مُتفرِّقةً لمخطَّطاتٍ مِعماريةٍ في النُّصوص العربية المبكرة، وخلَصوا إلى أن البنَّائين استخدموا تلك المخططات على نطاقٍ واسعٍ، ولكن أيًّا كانت ماهية هذه الخُطط، فإنها لم تكن معقَّدةً للغاية، كما لم تكن تمثيلاتٍ منهجيةً للمساحةِ المِعمارية. وقد كان للجغرافيِّين المُعاصرين خبرةً أكبر بكثير في النَّظرية الرياضيَّة وحاجة أكثر إلحاحًا لاستخدام التَّمثيل البياني أكثر من البنَّائين الذين استندوا إلى الخبرةِ والتجربة على نحو كاملٍ في البناء والتَّشييد. ومع تلك الحقيقة، فإن أكثر الرُّسومات الجغرافيَّة تعقيدًا كانت ساذجة على نحو ملحوظٍ، أو هكذا يمكنُنا الحكم عليها من خلال الأمثلة التي وصَلتنا منها (انظر على سبيل المثال: شكل ٥٢). ولا يُتصوَّر أن البنَّائين كانوا أكثر تطورًا في الرسم وإعداد المُخطَّطات من الجغرافيِّين المُعاصرين لهم.

ومع ذلك فربما رسَم البنَّاؤون أحيانًا رسوماتٍ -أو نماذج رسوميَّة- للعمل بمُقتضاها، وربما نفَّذوا -بين الفيْنَة والأخرى- رسوماتٍ أو نماذج لتنفيذِ تفصيلاتٍ معينةٍ، أو بهدف إقناع المالكِ بجدوى إنفاق المالِ على المُنشأةِ، ولكن مُعظم البنَّائين لم يرسُموا على الإطلاق. كما لم يكن هناك سوى قِلَّةٍ من النَّاس الذين كان بوسعِهم قراءة الرَّسم المعماري. ويميل المثقَّفون اليومَ إلى تجاهلِ حقيقةِ أن القدرة على تصورِ المساحاتِ

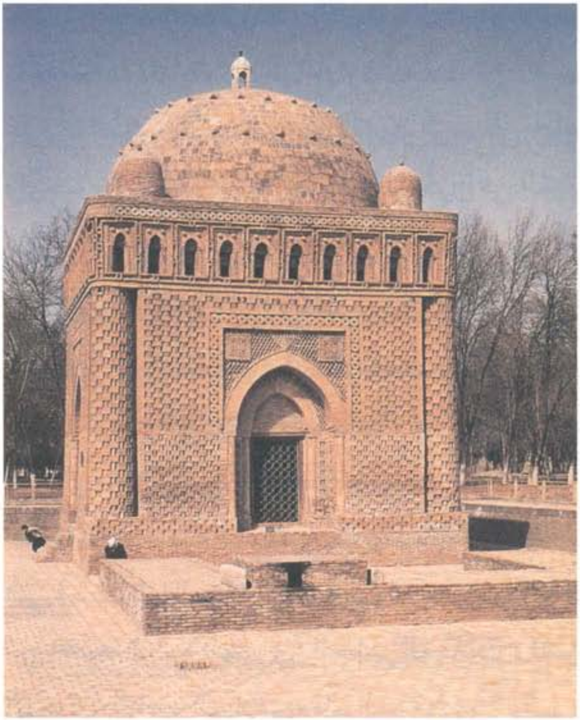
ثلاثية الأبعاد وتمثيلها على السُّطوح ثُنائية الأبعاد، وفك شفرات هذه التَّمثيلات، هي مَلَكَةٌ مُعقَّدة للغاية، كما أنها مهارةٌ شُحِذَت في الغربِ منذ عصر النَّهضة. وليس ثمَّ دليلٌ على أن البنَّائين المُسلمين في القرون الوسطى -ناهيك عن سَواد النَّاس وعوامِّهم- بل والنُّخبة من الطَّبقة العليا أنفسهم، قد فكَّروا في المباني والمساحات على هذا النَّحو.

ولدينا فكرةٌ عن الكيفية التي فكَّر بها النَّاس في المباني من خلالِ ما كُتِبَ عنها، لكن هذه النُّصوص الإسلامية في القرون الوسطى جاءت نادرةً. ولم يكن هناك عددٌ كبيرٌ من المؤلِّفين الذين اشتَغلوا بتصنيفِ الكتب -على ما يبدو- يشغلون أنفسَهم بالتَّفكيرِ في هندسةِ البناء والعِمارة. وعادةً ما جاء تناولُهم لها غامِضًا إلى حدِّ أن تلك النُّصوص -في حدِّ ذاتها- تُشير إلى أن مؤلِّفيها عانوا كثيرًا كي يعثروا على مُفرداتٍ ومُصطلحاتٍ مُناسبةٍ تعبيرًا عن ملحوظاتِهم المتعلِّقةِ بهندسة العمارة. وإليكَ -على سبيلِ المثال- الكيفيَّة التي وصَف بها المؤرِّخ المَسعُودي -وهو المؤرِّخ الذي امتاز أسلوبُه بالوضوحِ عادةً- في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، قَصرًا أُقيمَ في العراق في القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، قال المَسعُودي:

«أحدَث المُتوكِّل -في أيَّامِه- بناءً لم يكُن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحِيري والكُمَّيْن والأَرْوقةِ؛ وذلك أن بعض سُمَّاره حَدَّثه في بعضِ اللَّيالي أنَّ بعضَ ملوكِ الحيرةِ من النُّعمانيَّة من بني نَصْر أحدثَ بنيانًا في دارِ قرارِه، وهي الحيرة، على صورةِ الحربِ وهيئتِها للهجِه بها، وميلِه نحوها، لئلا يغيب عنه ذِكرها في سائر أحواله. فكان الرُّواق فيه مجلسُ الملك وهو الصَّدر، والكُمَّان مَيمنةً وميسرةً، ويكون في البَيتين اللذين هما الكُمَّان من يقربُ منه من خواصِّه، وفي اليَمين منهما خزانةُ الكِسوة، وفي الشِّمال ما احتيج إليه من الشَّراب، والرُّواق قد عمَّ فضاؤه الصَّدر، والكُمَّين والأبواب الثَّلاثة على الرِّواق، فسُمِّي هذا البِنيان الى هذا الوقت بالحِيري والكُمَّين، إضافةً الى الحيرةِ، واتَّبع النَّاسُ المتوكِّلَ في ذلك ائتمامًا بفعلِه، واشتُهِر الى هذه الغاية».

تأمَّل مؤرِّخو العمارةِ المُحدَثون هذا النصَّ طويلًا. ولو كان المَسعودي يحسِنُ وصف المباني بوصفها سِلسلةً متواليةً من المساحاتِ، أو كيفية تصويرها بيانيًّا، لما تردَّد في فعلِ ذلك بلا أدنى شكٍّ.

وهناك مثال آخر مُستمدٌّ من نقشٍ على المسجدِ الكبير في تازة بالمغرب، ينصُّ على



شكل (٦٧): ضريحٌ لبعضِ أُمراءِ السَّامانيِّين- بُخارى، مُستهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

أن الأميرَ المَرينيَّ أبو يعقوب يوسُف في القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي قد وسَّع المسجدَ بمقدارِ أربع بلاطاتٍ، وعادةً ما تُفهم كلمة «بلاطَة» على أنها تعني فُسحةً بين عمودين (Bay) أو مساحةً يُظلُّها سقفٌ مُستطيلٌ واحد. ويَظهر لنا -من خلالِ فحصِ المسجد- أنَّ الأميرَ قد مدَّ -في الواقع- الأروقةَ التِّسعةَ المُتعامدةَ على جدارِ القِبلة بمقدار أربع وحداتٍ متواليةٍ. ومن ثم نستنتجُ من هذا النقشِ، أن اهتمام الجمهور المعاصرِ دار حول عُمق التَّمديدِ وليس حول عددِ الأروقة أو الاتجاه الذي شغَلته؛ وتعد كِلتا الميزتَين أكثر أهميةً عند عرضِهما على مخطَّطٍ ثنائي الأبعاد، منها عندما تُرَى من داخل المسجد.

ولم يكن البنَّاؤون من القرون الوسطى -مثَلُهم في ذلك مثلُ البنَّاء المذكور في مُستهلِّ هذا الفصل[1]- بحاجةٍ إلى ورقةٍ لتَعليمِهم الكيفية التي يستخدمون بها موادَّ البِناء واستغلال إمكاناتهم الزُّخرفيَّة. لقد استغلَّ البنَّاؤون -ببساطةٍ- المساحات بين الآجُر والطريقة التي

(١) الإيماءةُ إلى شيخِ البنَّائين بأصفهان. راجع افتتاحية هذا الفصل. (المترجم)

وُضِع بها الآجُر لخلقِ أنماطٍ من الضَّوء والظِّل، كما يمكننا أن نرى ذلك بوضوحٍ في نمطِ شبكةٍ من الآجُر غلَّفت الضَّريحِ الذي شُيِّد لبعض بني سامان في بُخارى (انظر: شكل ٦٧). وعلى الرَّغمِ من أنَّ الورق كان مُتاحًا يقينًا واستُخدِم في بُخارى في بدايات القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي، إلا أن البنَّاء لم يكن بحاجةٍ إلى رسم الأنماطِ الهندسية التي اقتُرِح إنشاؤها؛ بل كانت القدرة على صُنعِ مثل هذه الأنماط جزءًا مُتوقعًا من خبراتِ البنَّاء، وتعلَّمها من أساتذتِه كابرًا عن كابرٍ، وحفظها في طيَّات ذاكرته.

وعلى النَّقيضِ من أولئك الذين أنشأوا المباني وزخرفوها، رأى الفلاسفةُ وعُلماء الرياضيَّات ما فعَله البنَّاؤون والمُصمِّمون بالهندسة العمليَّة من خلال المعرفةِ القائمةِ على التَّجريب، فما كان منهم -أعني الفلاسفةَ والرياضيِّين- إلَّا أن طوَّروا نماذجَ لشَرح النَّتائج وإعادة إنتاجِها. ومع ذلك، ليست هناك أدلةٌ تُشير إلى أنَّ الحرفيِّين فكَّروا أو عمِلوا بهذه الطُّرق، أو إلى أنهم تواصلوا مع العُلماء وتعاطَوا مع أفكارِهم وحاولوا تنفيذها، ناهيك عن أن يكونوا قد تأثَّروا بها.

وفسَّر الباحثون المُحدَثون عددًا كبيرًا من الرسائلِ التي وضَعها مُفكِّرون مثل: أبي الوَفا البُوزجاني -ذلك العالم الموسوعي غزير التَّصنيف والذي أظهَر فضولًا استثنائيًّا في مجالِ العمارة- والفيلسوف الفارابي في القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي على أنها دليلٌ يُشير إلى وجودِ أساسٍ نظريٍّ للمُمارسة المعمارية في القرون الوسطى. ومع ذلك، تشهدُ هذه الأعمال على الفضولِ الفكريِّ في هذا العصر من جانب العلماء، أكثر من كونها مُتعلِّقة بالمُمارسةِ التطبيقيَّة لأي فنٍّ أو حرفةٍ. وبالمثل، فإنَّ الرسائل المُعاصرة في فنِّ الخطِّ لم تكن مُتونًا تعليميَّةً للخطِّ، بل كانت رسائل نظريَّة كُتِبَت لوضعِ أُطرٍ نظريةٍ لهذه الخطوطِ المُطوَّرة. وكما هو الحال في الرياضيَّات، كان هناك فرقٌ كبيرٌ بين الموضوعات النَّظريَّة التي كتَب عنها أصحاب الأيادي النَّاعمة من النُّخب الحضريَّة المثقَّفة، والمُمارسات التجريبيَّة لأصحابِ الأيادي الخشِنة المُتشقِّقة الذين عمِلوا بأيديهم.

وكما ذكرنا سابقًا، فإنَّ فكرةَ تعلُّم كيفية صُنع شيءٍ من خلال القراءةِ عنه في كتابٍ هي مفهوم حديثٌ كُليًّا. وما وصَلنا من رسائل القرونِ الوسطى لم تكن متونًا تعليميةً، بل لم تعدُ كونها محاولات من جانب المفكِّرين لتَهذيب ما بدا لهم أنه مُمارسات عشوائيَّة

من جانب الحرفيِّين. ويبدو من قَبيل غير المُتصوَّر أن يكون مُصنَّفٌ مثل كتاب أبي الوفا المُسمَّى **كتاب فيما يحتاج إليه الكتَّاب والعمال من علم الحساب** -والذي لا يُعرف إلا من خلال النُّسَخ العربيَّة والفارسيَّة المتأخِّرة- في الحقيقةِ مُصنَّفًا قروسطيًّا يهدفُ إلى تَعليمِ الناس علم الحيلِ (الميكانيكا)، أو تعليمِ فنَّ بناء البيوتِ الجميلة للبنَّائين، وهم الذين تعلَّموا حِرفتَهم من خلال اتِّباع أمثلة أساتذتهم، وليس من خلال قراءةِ التَّعليماتِ في الكتبِ.

وربما كان بوسعِ الحِرفيِّين قراءة آي القرآنِ التي نفَّذوها على المحاريب والجُدران، أو التعرُّف على الكلماتِ الموجودة في النقوشِ الدِّينية التي كانوا يحفظونها كما يعرفون خطوطَ أيديهم، ولكن من المَشكوكِ فيه أنهم بلغوا من التَّعليم حدَّ قراءةِ كتابٍ في هندسةِ العمارةِ وتفسير ما ورَد فيه. بل يجبُ أن تُفهَم مثل هذه المتون في سياق الأدب الذي تعامل مع المعرفةِ بطبيعةِ البشرِ وعواطفِهم وبيئتهم وثقافتِهم الماديَّة والروحيَّة، وهي موضوعاتٌ كانت على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، ولا سيَّما في العصر العباسي.

وعلى أيَّة حالٍ، فبوسعنا أن نستنتجَ أنَّ الورقَ كان متاحًا على نحوٍ مُتزايدٍ لشرائحَ عديدةٍ من المجتمع منذ القرن الثَّالث الهجري/ التاسع الميلادي، إلا أن الأدلةَ نادرةٌ على أنَّ المهندسين المِعماريِّين وغيرهم من الحرفيِّين استَغلُّوا إمكانياتِ هذا الوسيط الاستثنائيَّة حتى بعد ثلاثة أو أربعة قرونٍ من صناعتِه في العالم الإسلامي.

الفنون البصرية منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

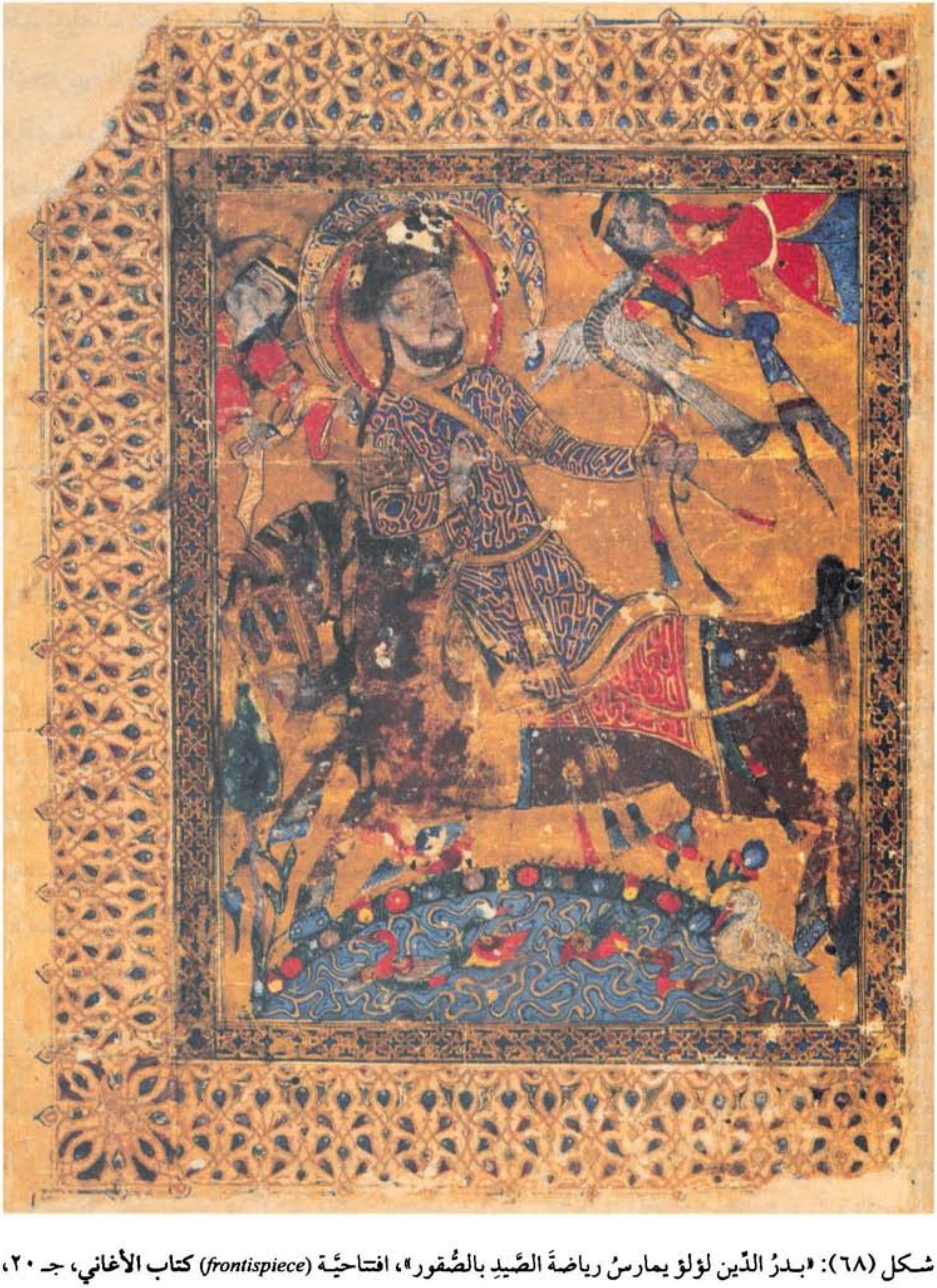
لعِب الورقُ دورًا عظيمًا في الفنونِ في عددٍ كبيرٍ من بقاع العالم الإسلامي بنهاية القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وبصرفِ النظرِ عن الزِّيادةِ المُفاجئةِ في المخطوطاتِ المصوَّرةِ، فثمَّ دليلٌ أيضًا على أن الحرفيِّين شرعوا في استخدام التَّصميماتِ على الورق بوصفها مرجعًا، أو للنقلِ على وسيطٍ آخر. وثمَّة أدلةٌ أيضًا، على استخدام البنَّائين للورقِ في المخطَّطات المعمارية. وعلى عكس الرسومات السَّابقة، كان الهدفُ في تلك الفترة غايةً في الوضوح، حيث بوسعنا التعرُّف بسهولةٍ على تلك المُخطَّطات بوصفها رسوماتٍ أوَّلية لأعمالٍ شبه مُكتملةٍ.

بيد أنَّ الدَّليلَ الرئيسَ على الاستخدامِ المتزايد للورق يتعلق بالكتب المُصوَّرة خاصةً.

فقد تدفَّقت الكتبُ المُصوَّرةُ على السَّاحة في العراق وفارس في أواخر القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ومُستهلِّ القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وظهَرت أنواعٌ جديدةٌ ومختلفةٌ منها، وعلى ما يبدو للمرة الأولى. فإضافةً إلى الرَّسائل العِلميَّة والتِّقنية، التي وُضِّحَت برسومٍ بيانيَّةٍ وخرائطَ، ظهَرت دواوينُ الشِّعر والأعمال الأدبية بمُنمنماتٍ احتلَّت الواجهات (*Frontispieces*) في صُدورِ الكُتبِ، وانتشرت المُنمنماتُ هنا وهناك داخل النص. بيد أنَّ إضافة الرسوم التَّوضيحية في الكتب والرسائل العلميَّة والتِّقنية لإنارةِ النُّصوصِ كان أمرًا مفهومًا، على النَّقيض من المُنمنمات الجديدة التي لم تكُن ضروريةً لفهم النُّصوصِ الأدبيَّةِ ودواوين الشِّعر. لقد كان شيئًا جديدًا بالكليَّةِ على وشكِ الحدوث.

اقترح العلماءُ تفسيراتٍ مختلفةً لهذه الظاهرة، وحاجَج بعضُهم باستخدام أدلَّةٍ مصوَّرةٍ من فنونٍ أخرى، فمنهم مَن قال: إنَّ المخطوطات قد صُوِّرت منذ أقدمَ العصورِ في العالم الإسلامي، ولكن -كما رأينا آنفًا- لا تدعم الأدلةُ المباشرةُ القليلةُ التي بين أيدينا هذه الفرضيَّةَ قطُّ. وأرجع آخرون ظاهرةَ انفجار الكتبِ المُصوَّرة للتأثيرات الخارجيَّة، فزعم أصحابُ ذلك التَّفسير أن الفنَّانين في العالم الإسلامي قلَّدوا أعمال نظرائهم البيزنطيِّين في القرونِ الوسطى، أو السُّريان اليعاقِبَة على سبيل المثال. وفسَّر بعضهم ظهورَ المخطوطاتِ المُصوَّرة بأنَّه كان نتيجةً لتطورٍ داخليٍّ جرى في العالم الإسلامي، وحدَّدوه بظهور طبقةٍ بُرجوازيَّةٍ بوصفهم رعاةً لهذا الشَّكل الفني الجديد.

وربما أصاب كل تَفسيرٍ من التَّفسيرات السَّابقة الحقيقةَ جزئيًّا، لكنه تعامل مع الإشكالية في إطارٍ ضيقٍ نوعًا ما. فمن المنظور الأوسع لتاريخ الورقِ، يبدو من الواضح أن الكتابَ المصوَّر قد ظهَر بوصفِه شكلًا فنيًّا كبيرًا في الوقت الذي أضحَت فيه الأوراق من القَطعِ الكبيرِ ذات الجودةِ العاليةِ متاحةً في الأسواق على نحو مُتزايد. وعلى هذا النَّحو أصبَح شمال العراق ووسطه -وهي قلب الخلافة العباسيَّة القديمة- المراكز الرئيسة للكتابِ المُصوَّر في القرنين السَّادس والسَّابع الهجريين/ الثاني عشر والثَّالث عشر الميلاديين. وبحلول أوائل القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تَحوَّل مركزُ الابتكارِ إلى شمال غرب فارس تحت رعاية خاناتِ الإيلخانيِّين، وظل فنُّ الكتابِ المُصوَّر تخصُّصًا فارسيًّا، ثم انتقل منها إلى الدَّولة العثمانية والمغول بالهند في التطوِّرِ الأخير.



شكل (٦٨): «بدرُ الدِّين لؤلؤ يمارسُ رياضةَ الصَّيدِ بالصُّقور»، افتاحيَّة (*frontispiece*) **كتاب الأغاني**، جـ ٢٠، وجه الورقة الأولى. الموصل، ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. كوبنهاجن، مكتبة ديت كونجيليجه (Det kongelige Bibliotek)، [*Cod. arab. 168*].

ويبـدو أنَّ المماليـك في مصر والشَّـام أظهـروا فتورًا واضحًا تجـاه الكُتبِ المصوَّرة، على الرغم من أن عددًا قليلًا من هذه المخطوطات نُسِـخَت في القاهرةِ أو دمشـقَ. وثم مخطوطةٌ مصورةٌ واحدةٌ فحسـب، تحكي قصة العاشِـقَيْنِ «بياض ورِياض»، نُسخت في الأندلـس، لـذا فمـن الصَّعـب التَّعميـم حول تطـوّر الكتـاب المُصـوَّر هناك اسـتنادًا إلى مخطوطةٍ واحدةٍ فحسب (انظر: شكل ٣٦). ومع ذلك، يسعنا القولُ: إنَّ المُنمنمات في هذه المخطوطة المنسوخة على الورق في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي قـد اعتمـدَت على نحـوٍ واضحٍ على نماذج الكتب المُصوَّرة فـي العراق، إذ ربما تمتَّعت الأندلـس بازدهـارٍ مـوازٍ للكتـبِ المُصـورةِ فـي القـرن السَّـابع الهجري/ الثالـث عشـر الميلادي.

وظـلَّ عـددٌ كبيرٌ مـن المُصنفـاتِ العلميَّـة والتِّقنية مرشَّـحًا للتَّصوير، ولا سـيما تلك المصنَّفـات المُتعلِّقـة بعلـوم مثـل الفلـك والصَّيدلـة والحِيـل (الميكانيـكا) والبَيطـرة،



شكل (٦٩): مُنمنمةٌ تصورُ «موت همام والـد ورقـة بيـن ذراعـي ورَقَـة»، مـن مخطوطةِ ورقـة وگلشـاه. ظهـر الورقة ١٦. قونيـة، مُنتصـف القـرن السَّـابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. مكتبة قصـر طـوب قبـو سـراي، إسـتانبول (H 841).

وحكايات الحيوانِ الخرافيَّة من شاكلةِ كتاب **كليلة ودمنة**. ومن بين المُصنَّفات الجديدةِ التي وقَع عليها اختيار الفنَّانين لتصويرها، **كتاب الأغاني** ذي العِشرين مجلَّدًا الذي صنَّفه الأديبُ أبو الفرج الأصفهاني (من أهل القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي) وجمَع فيه مُنتخباتٍ من عيونِ الشِّعر الإسلامي المبكر. وأُعِدَّت نُسخةٌ من الكتاب خصيصًا لـ بدر الدين لؤلؤ، حاكم الموصل -الواقعة شمالي العراق- في أوائل القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وعلى الرَّغم من أن القصائد نفسَها لم تُصوَّر بالمُنمنمات، إلا أنَّ كل مجلدٍ احتوى على مُنمنمةٍ في الواجهة تُظهِر الحاكم [بدر الدين لؤلؤ] مُنخرطًا في مباشرةِ شأن من شؤون الحُكم بطُرقٍ متنوعةٍ (انظر: شكل ٦٨).

ارتبطت هذه المُنمنمات بالتَّقليدِ الكلاسيكي للواجهاتِ الأماميَّةِ التي صوَّرت المؤلفَ أو المالكَ الذي صُنِّف الكتاب خصِّيصًا له. بيد أنَّ ظهورَ هذه الكتب على هذا النحو المفاجئ في هذا التَّوقيت قد يتطلَّب منَّا تفسيرًا آخر. والاحتمال الأرجح لدينا في هذا الصَّدد، هو أن الفنَّانين بدأوا يدركون الإمكاناتِ التي وفَّرها الورقُ لهم.

ونحن نعلم أنَّ عددًا كبيرًا من دواوين الشَّعر الأخرى صُوِّرَت بالمُنمنمات على نحوٍ مُماثلٍ، فقد ذكر المؤرخ الرَّاوندي في كتابه -الذي أرَّخ فيه للسَّلاجقةِ[1]، وفرَغ منه عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م- أن السلطانَ السَّلجوقي طُغرل طلَب من عمِّ الرَّاوندي أن يجمعَ له مُنتخباتٍ من القصائد في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤-١١٨٥م. فلمَّا تمَّ له ما أراد، صَور الرسَّام جمال الأصفهاني الكتابَ بمُنمناتٍ تُصوِّر الشُّعراء المذكورين في الكتاب.

وضمَّت دواوين الشِّعر الأخرى مُنمنماتٍ صوَّرت بعض الحوادث المذكورة في النصِّ. وثم مخطوطة غير مؤرَّخة لقصَّةِ عيوقي[2] الفارسية الشَّاعرية المسماة **ورقة وگلشاه**، وهي أقدمُ نصٍّ مُصوَّر وصَلنا بالفارسيَّة (انظر: شكل ٦٩). وتحتوي تلك

---

(١) الإشارة إلى كتابِ محمد بن علي الرَّاوندي المُسمَّى **راحة الصدور وآية السُّرور في تاريخ الدولة السَّلجوقية**. (المترجم)

(٢) شاعرٌ غنائيٌّ فارسي من أهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. أثنى في افتتاحية ديوانه المسمى **ورقة وگلشاه** على السُّلطان الغزنوي محمود بن سُبكتكين، فيكون قد عاش في عهده. وذكَر في خاتمة ديوانه أن اسمه عيُوقِي، ثم أخذ في الشَّكوى من معاملةِ أهل بلدته له. باستثناء هذا ليس ثم معلومات موثوقة عنه. (المترجم)

المخطوطـةُ الصغيـرةُ على ٧١ مُنمنمةً. واعتقد العلماء -في بادئ الأمر- أن التَّشـابهات الأسـلوبيَّة بين المُنمنمـات في المخطوطةِ والأواني الخزفية الإيرانية ذات البريق، تُشـير إلـى أن المخطوطـةَ قـد نُسِـخَت في مكان مـا من بلاد فارس فـي أواخر القرن السَّـادس الهجري/ الثانـي عشـر الميـلادي. لكـن اسـم الرسَّـام الـذي رسَـم تلـك المُنمنمـات عبـد المُؤمـن بن محمد الخويِّي -الذي يُشـير إلى أنَّ خوي الواقعةُ شـمالي غرب فارس كانت مسـقطَ رأسِـه- ظهَر مجددًا في كتاب وقفِ مدرسة قرطاي في قونية-تركيا، وهذا الكتابُ مؤرَّخ بعام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م. ومن ثم فالاحتمالُ الأرجحُ أن المخطوطةَ نُسِخت وصُوِّرت في وسطِ الأناضول في مُنتصفِ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وتمثِّل المقاماتُ إحدى النصوص المُفضَّلة لدى الرسَّامين في تلك الحقبةِ لتَصويرها بالمُنمنمـات. وكان المؤلِّـف الفارسـي الهمذانـي قد فرَغ مـن تَصنيفِ **مقاماتـه** نحو عام ٣٩١هــ/ ١٠٠٠م، ولكـن هذا الفنَّ ازدهر -ربما بعد قرنٍ مـن الزمانِ- على يد المؤلِّف العراقي الحريري. وقد وصَلتنا إحدى عشـرة نسخة مُصوَّرة من **مقامات الحريري**، وهي سلسلةٌ من خمسين مقامةً تروي حكاياتِ مغامرِ رحَّالة، ودارت أحداثُها في بقاعٍ مختلفةٍ من العالم الإسـلامي، وجميع النُّسخ التـي وصَلتنا نُسِـخَت قبل منتصفِ القـرنِ الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وكل منها يروي مغامراتِ أبي زيد السَّروجي كما رواها لتاجـرٍ يُدعـى الحـارث [ابـن همَّـام]. حيث سـحَر أبو زيـد ألبابَ النـاسَ ببلاغتِه وسَـعة اطلاعـه، وحصَـل على عطاءٍ كبيرٍ. وموضـوع المقامات ليس مغامـرات الرحَّالة في حدِّ ذاتها، بل براعة المؤلِّف في الكِناياتِ والاستعاراتِ ومُتخيَّرِ الألفاظِ. وعلى الرغم من أنه لـم يكـن ثَـمَّ مُسـوِّغ عملي لتصويـر مخطوطـاتِ المقامات فـإنَّ النَّص غـصَّ بمنمنماتٍ متنوعـة تحكـي مغامراتِ أبي زيد السَّـروجي. وتحتوي النُّسـخةُ الأشـهرُ مـن المقامات -التـي نُسِـخت وصُـوِّرت بــ ٩٩ مُنمنمـةً مـن رسـم يحيـى الواسِـطي فـي بغـدادَ عـام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م- على مُنمنماتٍ بديعةٍ ومُفصَّلةٍ على نحو استثنائي (انظر: شكل ٤٨). ولمَّا لم يذكُر حردُ متنِ (*Colophon*) تلك المخطوطة أنها نُسِخَت لمالكٍ بعينِه خِصِّيصًا، فربما ينصرفُ ذهنُ المرءِ إلى أن هذه المخطوطة -مثَلُها في ذلك مثَل معظم المخطوطات الأخرى للمَقامات- ربما عُرِضَت للبيع في السـوق لمُشترٍ مُتعلِّـم يبدي رغبَته في اقتناءِ نُسخةٍ نَفيسةٍ كتلك النُّسخ المُصوَّرة للمقامات.



شكل (٧٠): مُنمنمةٌ تُصور «بهرام جور يقتل التنّين»، من أولى المخطوطات الثّلاث المُسمّاة بـ الشاهنامة الصَّغيرة. بغداد أو شمال غرب فارس، نحو عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. تُنشر بإذنٍ كريمٍ من أمناء مكتبة شيستر بيتي *Chester Beat-ty*، دبلن، [CBL Per. 104.61]

وامتدَّت حركةُ تصوير الكُتبِ إلى كتب التاريخ، التي شرَع الرسَّامون في تصويرِها في أواخر القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، على الرغم من عدم وجود أمثلةٍ وصَلتنا من تلك الكتبِ. ومع هذا فقد صوَّر الرسَّام كتابَ **جامع التواريخ** لـ رشيد الدين فضل الله الهمذاني، وهو تاريخ للعالم مُتعدِّد الأجزاء، نُسِخَ في تِبريز، في شمال غرب فارس في عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، واستند الرسَّام في عددٍ كبيرٍ من مُنمنماته على المُنمنماتِ التي وُجِدَت في المخطوطاتِ السَّابقة على الكتابِ. فإذا حكَّمنا عدد المُنمنمات التي تناولت الدَّولتين الغزنويَّة والسَّلجوقيَّة واتِّساقها، فسنَخلُص إلى أنَّ الفنان إنَّما استقَى مُنمنماتِه من بعض التَّواريخ المُصوَّرة لهاتين الدَّولتين خاصَّةً، وهي تواريخٌ لم تصِلنا. واحتوت المخطوطاتُ التي نسَخها رشيدُ الدين -فضلًا عن سائر مؤلَّفاته- على منمنماتٍ تناثرت هنا وهناك، وصوَّرت المعارك الكبرى والفتوحات التي تمَّت على أيادي الحكام الأتراك. وتمتَّعت تلك المُنمنمات بجمالٍ أخَّاذٍ ولا شك، ولكنها كانت إضافات غير مُجديةٍ للنصِّ.

لم تكن الكتبُ المُصوَّرةُ تنمو كيفًا فحسب؛ بل كانت تتزايد في الكَمِّ أيضًا. وفي الواقع أُخرجَت الكتبُ من جميع الأنواع في قطوعٍ أكبر، وتزامن ذلك مع التحسُّن في تقنياتِ صناعةِ الورقِ، وأصبح الورقُ ذي القطع الكَبير متاحًا على نطاقٍ أوسع. وكانت أقدم الكتب المعروفة التي احتوت على المُنمنمات من قطعٍ صغيرٍ للغاية، ولم يتجاوز قياسها ٦×٣بوصة (١٦×٧سم)، أي نحو ربع حجم ورقة العملِ الحديثة. فقياس مخطوطةِ رسالة أبي عبد الرحمن الصُّوفي المؤرَّخة بعام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، والمُسمَّاة **صور الكواكب الثابتة** بلَغ ١٠×٧ بوصة (٢٧×١٨سم)، (انظر: شكل ٥١). وبلغ قياسُ صفحات كتاب **الأغاني** التي نُسِخَت في الموصل في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ١٢×٥,٨بوصة (٣١×٢٢سم) (انظر: شكل ٦٨)، أي أكبر قليلًا من ورقة الأعمالِ الحديثةِ.

أما النُّسخة التي طبقَت شهرتُها الآفاق من **مقامات الحريري**، والتي نُسِخَت في بغدادَ في عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م فقد نُسِخَت على صفحاتٍ من قَطعٍ أكبرَ، فبلغ قياسُها ١٣,٥×١١بوصة؛ (٣٧×٢٨سم)، (انظر: شكل ٤٨). ومع ذلك فإنَّ النُّسخة المعاصرة من النصِّ نفسه والمحفوظة في مكتبة سانت بطرُسبرج تبلغ نصف ذلك القطع، أي

(١٠×٥ , ٧بوصة؛ ٢٥×١٩سم). أمَّا صفحات إحدى نُسَخ كتاب **جامع التَّواريخ**، -وهي مؤرَّخة بالقرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي- فقد طُوِيت من قطعٍ بلغ قياسه ٢٠×٢٨بوصة (٥٠×٧٢سم) (انظر: شكل ٢٩)، واستُخدِمت أوراقٌ من قطعٍ أكبرَ لإعداد نسخة من **شاهنامة المغول العِظام**، وربما صُنِع الورقُ في تِبريز نحو عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م (انظر: شكل ٣٠).

ويبدو أن المُزوِّقين والخطَّاطين في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي لم يكترثوا للقَطعِ الكبيرِ للورق، إلا أنَّهم اهتمُّوا بجودة الورقة نفسِها وجمال الخط، والإضاءة، والتَّصوير. ومع ذلك، فإنَّ المخطوطاتِ المُهمَّةَ على وجه الخصوص، مثل المخطوطات الخزائنيَّة من كتابِ **الشاهنامة** ومُصحف تيمور العظيم، صُنِعَت من ورقٍ من قطعٍ كبيرٍ على نحو استثنائيٍّ.

وظلَّت المخطوطاتُ الصغيرةُ دائمًا أكثر شيوعًا من المخطوطاتِ الخَزائنيَّة؛ وذلك لأن صُنعَ الورق من القَطعِ الكبيرِ كان دائمًا أكثر صعوبةً من الورق من القطع الاعتيادي، ومن ثم كانت كُلْفة صناعتِه باهظةً. وهناك -على سبيل المثال- ثلاث مخطوطاتٍ جميلةٍ بيد أنها صغيرة من **الشَّاهنامة**. تُعرَف جميعًا باسم **«الشاهنامة الصَّغيرة»** (Small *Shchnamas*). نُسِخَت، في العراق أو فارس في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، أو ربما أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تخمينًا (انظر: شكل ٧٠). وعلى الرغم من أنَّ كل مخطوطةٍ منها ازدانت بأكثر من ١٠٠ منمنمةٍ وُزِّعت على نحو ٣٠٠ صفحة، فإن قياسَ مساحةِ النصِّ المكتوبِ للمقياس الأكبر بلغ ٥ , ١٠بوصة×٧ بوصة (٢٨×١٨سم)، أي أقل من نصف حجم **شاهنامة المغول العظام**. كما أن هذه المخطوطاتِ مُتناسقةٌ للغاية في الحجم والقياس، ما يُشير إلى أنها نُسِخَت في أسواق الورَّاقين، حيث كانت هناك إمداداتٌ كافيةٌ من الورقِ الجيد من قطعٍ قياسيٍّ، وكان هذا النَّوع من الورقِ مُتاحًا، ويسهُل الحصول عليه.

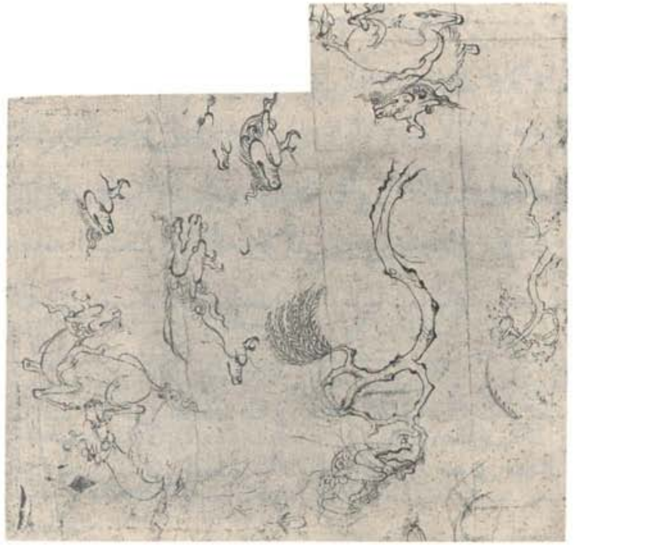
ووضَع إنتاجُ المزيد من الأوراق والأفرخ من القَطع الكبير عالمَ المغول في القرنين السابع والثامن الهجريين/ أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين على رأس البقاع التي سادَ فيها الابتكار الفنِّي في عددٍ كبيرٍ من النواحي. فأولًا: سمَحت الكتب الأكبر حجمًا للفنَّانين بتصميم مُنمنماتٍ أكبر وأكثر تعقيدًا مما كان الأمرُ عليه في السَّابق؛

إذ لـم يكـن من الممكن أن تُوفِّر الأوراق من القَطعِ الصغيرِ في أقدم كتاب مُصوَّرٍ سـوى مساحةٍ صغيرةٍ لا يستطيع فيها أكثر الفنَّانين موهبةً عرض قدراته في التَّصوير من خلالها. فالصفحـات الكبيـرة على نحو اسـتثنائيٍّ للنُّسـخةِ المؤرَّخـةِ بعام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م من **مقامات الحريري**، والتي نُسِـخَت في بغداد على الأرجح، جادت على الفنَّان الواسـطي بمسـاحاتٍ أوسعَ، فأبـدع فيها برسـوماته المُبتكـرة والمُعبِّرة على نحوٍ اسـتثنائي. ولكن معظم الكُتب المُعاصرة، ولا سيَّما تلك التي نُسِخت في المدن والولايات النَّائية -حيث كانـت إمـداداتُ الورقِ محدودةً- ظلَّت أصغر حجمًا، ومن ثم خُصِّصت مسـاحةٌ أضيق للمُنمنمـات، فبلـغ قيـاس المُنمنمـات الــ ٧١ فـي مخطوطة **ورقـة وگلشـاه** ٢×٣ بوصة (٥×٧سـم) فحسـب. لذا لم يكن أمام أمهر رسَّـامي المُنمنمات الموهوبين سوى مجال صَغيرٍ للغاية لإظهار التَّفصيلاتِ والخلفيَّات.

بيد أنَّ القَطْعَ الأكبر لمخطوطة **جامع التواريخ** لرشـيد الدِّين، التي نُسِخت بعد نصف قـرنٍ لاحقًـا، زوَّدت المصـور بسـطحٍ أكبـرَ للعمـل عليـه، وعلـى الرغـم مـن أنَّ معظـم المُنمنمات احتفظت بالنَّسق التَّخطيطي للمُنمنمات من المخطوطاتِ السابقة، ومع ذلك فإنَّ منمنمات كتاب **جامع التواريخ**، التي بلَغ قياسـها عادة ٤×٥بوصات (١٠×١٢سم)، جاءت أكثر تعقيدًا وغنًى بالتَّفصيلاتِ من المنمنماتِ السَّابقة عليها؛ وذاك لأنَّ مضاعفةَ الارتفـاع والعَـرض جـادت علـى الرسَّـام بأربعة أضعـاف المسـاحةِ، فظَهرت المشـاهد المُعقَّدة وتفصيلاتِ الثِّياب، والمشهد، والخلفيَّة. وكما قد يتوقَّع المرء، فإنَّ المنمناتِ في **الشـاهنامة الصغيرة** المُعاصرة كانت من نفـس المقاس المُصغَّر لمنمناتِ مخطوطةِ **ورقة وگلشاه**.

وتتويجًـا للاتجـاه نحـو المُنمنمـات الأكبـر المرسـومة على صفحـاتٍ أكبـرَ ظَهرت **شـاهنامة المغـول العِظـام**. حيث جادت صفحاتها بأكبر الفرص سـخاءً على الرسَّـام كي يُضفـي مزيـدًا من التَّعقيدات المُتعلِّقة بالبُعديْنِ: المكاني والنَّفسـي في مسـاحة المُنمنمة (انظر: شـكل ٣٠). ووصَل قياسُ المنمنمات إلى مقاسٍ تراوح بين ٨-١٠بوصة (٢٠-٢٥سـم) ارتفاعًا، وأفضل مُنمنماتِها هي أكبرها حجمًا، والتي حمَلت تفصيلاتٍ ضافيةً، في خروجٍ تامٍّ عن المفاهيم التَّقليدية للمُنمنمات الفارسية.

وثمة منمنماتٌ أخرى تعود إلى تلك الحقبةِ نفسها، بيد أنها انتُزِعَت من المخطوطات



شكل (٧١): ورقةٌ بها رسومات للحيوانات والأشجار الأسطورية. فارس، القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. بالفُرشاة والمداد على الورق، وأبعادها: ٥,٥×٥ ٥,٣ بوصة (١٤,٥×١٣,٥سم). برلين-*Staatsbib-liothek zu Berlin—Preussischer- Kulturbesitz Orientabteilung)* *[Diez A, fol. 73, S. 46, nr. 3]*.

التي كانت تحتوي عليها قبل قرون، ثم جُمِعت في ألبوماتٍ (تتوزع الآن بين مكتبات برلين وإستانبول)، وهي ذات أحجامٍ كبيرةٍ على نحوٍ مماثلٍ، ما يُشير إلى أن **شاهنامة المغول العظام** كانت مجرَّد مخطوطةٍ من عددٍ كبيرٍ من المخطوطات العظيمة التي صُنِعَت في هذه الحقبة، وليست عملًا فريدًا من نوعه. ومع ذلك، فبحلول نهاية القرنِ الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أفسَح ذوقُ التَّراكيب الموسَّعة في رسم الكتاب الفارسي المبكِّر المجال لتفضيل أسلوبِ المنمنمات الرَّائع الذي حلَّت فيه المنمنمة المصغرة المُركَّبة ذات النَّزعة العاطفيَّة الجامحة (*Lyricism*)، محلَّ التَّراكيب القوية والدِّراما العاطفية.

وفي تطورٍ موازٍ، بدأ فنُّ الزَّخرفة في الاستفادة من توسُّع الزَّخارف في افتتاحيَّات المصاحف لزخرفة الصَّفحات الافتتاحية في المخطوطات بنماذج هندسيَّة جاءت شديدة التَّعقيد. وجرَت العادةُ بزخرفة صفحاتِ الواجهة والغاشية بنصٍّ مُزيَّن بزخارف هندسية وتعاشيق (*Arabesques*)، وكانت إضافات شائعة لمخطوطات المصاحف منذ أقدم العصور، بيد أن تعقيد التَّراكيب كان محدودًا بحجم الصفحة الصَّغير نسبيًّا، كما أظهَر المُصمِّم التردُّدَ في استخدام المساحةِ المُتاحةِ كُلها للزَّخرفةِ. ولكن في القرنين السَّابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين استغلَّ الفنانُ الصفحات



شكل (٧٢): إبريقٌ من الخزفِ ذي البريق. قاشان، القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. خزفٌ مزجَّج (Fritware)، ارتفاع ٧ بوصة (٩ , ١٧سم). معرض فرير للفنون (*Freer Gallery of Art*)، مؤسسة سميثسونيان (*Smithsonian Institution*)، واشنطن [F1909.370].

من القطع الأكبر، إضافة إلى السَّطح الأكثر ملاسةً للورقة التي أُتيحت له، فأنشأ تصميماتٍ معقَّدةً وغشَّاها بالتَّفاصيل في أناقةٍ عزَّ نظيرُها (انظر: شكل ٧٨). ومن ثم، لم يكن الأمر مجرَّد مسألةِ وجود ورقٍ أكثر وأرخص ثمنًا هو العامل الحاكم الذي عمِل على ازدهار فنون الكتاب، على الرغم من أن وجودَ الورقِ ورخص ثمنه كانا عاملَين مُهمَّين. بل كان ذلك العامل الحاكمُ هو وجود الأوراق من القَطع الكبير والأعلى جودة أيضًا، إذ هو العامل الذي أسفَر عن تلك التَّغييرات الرئيسة في الأسلوب الفنِّي وشكل التَّكوين.

أثَّر الورق على الفنونِ بطريقة أخرى تمثَّلت في أن الحرفيِّين -من جميع الطوائف- بدأوا في الرَّسم على الورق، الأمر الذي جعَله مرحلةً مهمةً في الإبداع الفنِّي. وتحتفظ الألبومات في برلين وإستانبول أيضًا برسوماتٍ بالمداد تعود إلى القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، والتي مثَّلت -بالتَّأكيد- رسوماتٍ تحضيريةً لبعض الأعمال الأخرى (انظر: شكل ٧١). وينبغي أن يكون الفنَّانون قد احتفظوا ببعضِها في ألبوماتٍ، أو احتفظت ورش العمل بالتَّصميمات والأشكال التي لاقَت رواجًا بين الناس، ونقَلوها

بمجرَّد الفـراغ مـن مخطوطـةٍ اكتمل العمل فيها وأُرسـلت من ورشـةِ العمل إلـى مكتبةِ المالـك. وربمـا اسـتُخدِمت رسـوماتٌ أخـرى لإعـداد التَّصميمـات لنقلِها إلى وسـائط أخرى، مثل الخزَف أو الأشغال المعدنيَّة.

وينبغـي أن تكـون الرُّسـوماتُ الأوليَّةُ قد اسـتُخدِمت بالفعل في أوائل القرن السَّـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي، كما يمكن أن نرى من خلال اسـتعراضِ تطوُّرِ الأواني الفارسـيَّة ذات البريق. ويعرضُ البلاطُ الخزفيُّ ذي البريقِ وكذلك الأواني -والتي غالبًا مـا حمَلـت تواريخَ محدَّدةً- مجموعةً متنوعةً من الأسـاليب. وربَـط الباحثون في البدايةِ الأنماط المختلفة بمراكز الإنتاج المُختلفة، مثل الرَّي وقاشان، بيد أن عددًا من الدِّراسات الحديثة أظهَرت أن صناعةَ الخزفِ ذي البريق كانت حِكرًا على مدينة قاشـان في وسـطِ فارس، كما أظهرت أنَّ جميعَ النَّماذج من هذا النوع من الخزفِ قد صُنِعت هناك.

وكان النَّمـطُ الأقـدم للزخرفة يُدعـى بـ«البارز» (monumental style)، حيث رُسِـمَت الزَّخارف العريضةُ مباشرةً على السَّطحِ، بإزاء الخلفية ذات البريق، بعبارة أخرى؛ تُركت الخلفيـة البيضـاء لتشـكِّل بذاتِها الأشـكالَ المرسـومةَ، مع إضافـةِ قليلٍ مـن التَّفصيلات المرسومة على السَّطح (انظر: شكل ٧٢). ويعودُ تاريخ هذا الأسلوب إلى القرنِ السَّادس الهجري/ الثَّاني عشـر الميلادي، وهو يحملُ عددًا كبيرًا من أوجه الشَّـبه مع نوع الرَّسـم الموجـودِ علـى الأوانـي الخزفيَّة المصرية ذات البريق قبل قرنٍ مـن الزَّمان، وربَّما أدخل الخزَّافون المصريُّون هذا الأسلوبَ الفنِّي إلى فارس عندما هاجروا إلى هناك.

أما النَّمط الثاني، المُسـمَّى بأسلوب «المنمنمة» (miniature style)، حيث قسَّم الخزَّاف سـطح الخـزفِ إلى أشـرطةٍ أو قطاعاتٍ، ورُسِـمَت التَّصميمات على التَّزجيـج كما لو كان الطِّـلاء اللَّامـع شـكلًا من أشـكال المِداد (انظر: شـكل ٧٣). أمـا النَّمط الثالث، المسـمَّى «قاشان»، فقد صَوَّرت الخلفية الأشكالَ كما هو الحال في الأسلوب البارز، ولكنها رُسِمَت كما في أسلوب المنمنمات. وفي نمط قاشان، زُيِّن كل من الشكلِ والخلفيَّة بأشكالٍ لولبيَّةٍ، وأُحيطا معًا بأشرطةٍ من الكتاباتِ والزَّخارف على نحوٍ مُماثِلٍ (انظر: شكل ٧٤).

وعادةً ما يُفَسَّر اختلافُ تصميمات الخزفِ على أنه ناتجٌ عن ورشِ عملٍ مختلفةٍ، أو نتيجـة لتغييـراتٍ طرأت على الأسـلوب بمرور الوقت، بيد أنَّ تلك التَّصميمات تكشـف أيضًا عن أن الرسَّـامين اسـتخدموا تصميماتٍ ورقيَّةً في تنفيذ أعمالهم. انبثق «الأسلوب



شكل (٧٣): صَحنٌ من الخزفِ ذي البريق. قاشان، محرم ٥٨٧هـ/ مارس ١١٩١م. خزفٌ مزجَّجٌ (Fritware)، بقطر. ١٥ بوصة (٣٨ سم). معهد شيكاغو للفنون (*The Art Institute of Chicago*)، مجموعة لوجان باتن ريرسون *(Logan-Patten-Ryerson Collection)* [1927.414].



شكل (٧٤): طبق من الخَزفِ ذي البريق. قاشان، ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م. خزفٌ مزجَّجٌ، بقطر ١٤ بوصة (٣٥سم). متحف ڤيكتوريا وألبرت- لندن *(Victoria and Albert Museum)* [C51-1952].

البارِز» من الطَّريقة التقليدية للرسم مباشرةً على سَطحِ الخزف، في حين أن أسلوبَ المُنمنمةِ، الذي غالبًا ما قورن بمُنمنمات المخطوطات المعاصرة، مثل مُنمنمات مخطوطة **ورقة وگلشاه** (انظر: شكل ٦٩)، يُظهِر أنَّ بعض الرسَّامين تبنَّوا تقنيات طوِّرت بهدف الرسم على الورق، لينقلوها على سطح الخزف. أمَّا أسلوبَ قاشان، الذي يعرض أفضلَ تقنيةٍ للبريق، فهو من عمل كبارِ المُزخرِفين، الذين فضَّلوا استخدام تقنياتِ الخزف للرسم باستخدام الخلفيَّة، كما فضَّلوا الرَّسم الانسيابي والخط الأكثر ملاءمةً للتَّنفيذ على الورقِ.

وتمتَّع المُصمِّمون القاشانيُّون الكبارُ بمكانةٍ اجتماعيَّةٍ رفيعةٍ، على النَّقيض من الخزَّافين في أماكن أخرى من العالم الإسلامي. وكان الخزَّافون الأوائلُ يوقِّعون من وقتٍ لآخر على أعمالهم بأسمائهم، وربما بأسماء آبائهم، فكان ذلك دأبُ الخزَّاف المصري مُسلم بن دهان، لكن بعض أولئك الخزَّافين القاشانيِّين يمكن تتبع أنسابهم على مدى عدة أجيال. إذ ارتقى بعضهم إلى مناصبَ مُهمَّةٍ في الفنون، وكذلك في الدَّواوين، واحتل بعضهم مكانةً علميةً مرموقةً، ولا سيما في ظل الإيلخانيِّين.

وثم واحدةٌ من أكبر الأُسرِ المعروفةِ من الخزَّافين انحدرَت من نسل أبي طاهر، الذي يرجَّحُ أن يكون قد عاش نحو عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م. ونشَط حفيدُه علي بن محمد بن أبي طاهر في منتصف القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي، حيث وقَّع على عددٍ كبيرٍ من المحاريبِ ذات البريق بين عامي ٦٤٠-٦٦٤هـ/ ١٢٤٢-١٢٦٥م. كما وقَّع يوسف بن عليٍّ على محاريبَ كبيرةٍ ذات بريق بين عامي ٧٠٥-٧٣٥هـ/ ١٣٠٥-١٣٣٤م. واختار أبناءُ علي -من إخوة يوسُف- العمل في مجالاتٍ أخرى، فاختار أحدهم، ويُدعى عز الدين محمود، سلوك طريق الصُّوفية، فدخل في زُمرتهم، واستقر في تكيَّة (رباط) السُّهروردي في ناتانز. أما شقيقهم الآخر المدعو جمال الدين أبو القاسم عبد الله، فقد أصبح كاتبًا في أحد دواوين الإيلخانيين. أما الأخ الثَّالث -أعني أبا القاسم- فقد كتَب تاريخًا للسُّلطان، فضلًا عن رسالةٍ في الأحجار الكريمة والمعادن، وظلَّ جزءٌ منها المصدرَ الأدبيَّ الرئيسَ في فنِّ صناعةِ الخزفِ في فارس في القرون الوسطى. وقامت رسالةُ أبي القاسم على معرفةٍ مباشرةٍ بالخزفِ وفنونه، اكتسَبها -قطعًا- من أسرتِه، وذلك على النَّقيض من الرسائل النظرية السَّابقة، التي أظهَرت إلمامًا قليلًا

بكيفيـة إنجـازِ الأشـياء كمـا كانت تُنجَـز بالفعل. ومن الواضـح أنه بحلول القـرن الثامن الهجري/ الرابـع عشـر الميلادي ظهَر نوعٌ جديد من الحرفيّين في فارس، جمَع بسـهولةٍ بين الممارسةِ العمليَّة في صناعةِ الخزف والثَّقافة الأدبية القائمة على النُّصوصِ المُرتبطة تقليديًّا بالكُتَّاب والعلماء.

واضمَحلَّ فنُّ الرَّسـمِ على الخزفِ المصنوع في قاشـان، في الوقت نفسـه الذي شاع فيه استخدام الورق. وقبل قرنٍ من الزمان، كان الرَّسم على الخَزف في قاشان يُمثِّل أعلى مهـاراتِ التَّصميـمِ فـي فـارس بالكُلِّيـةِ. وبحلـول القـرن الثامـن الهجري/ الرابـع عشـر الميـلادي، ازدادت رداءةُ الخـزف القيشـانيِّ علـى نحـوٍ واضـح، وأضْحَت أشـكاله أقل ابتكارًا مقارنةً بالزَّخارف الخزفية السَّابقة، أو المُنمنمات في الكتب المعاصرة.

لـم يقـع اضمحـلالُ فـنِّ الرَّسـم على الخـزف اتِّفاقًـا، وكل ما فـي الأمر أنَّ فنَّ رسـم المُنمنمـات فـي الكتـب غدا أكثر أهميَّة، وتحسَّـن فـي جودته، وزاد في تَعبيـره. ومن ثم شجَّعت المكانةُ المُتناميةُ للرَّسم في الكُتبِ في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشـر والرابـع عشـر الميلاديين -والتـي نُحلِّلها مـن منظورِ زيـادة توافر الـورق- أفضل الخزَّافين القاشانيِّين على التحوُّل من الرَّسم على الخزفِ إلى الرَّسم على الورق.

وعـدَّ دُوسـت مُحمَّد -وكان خازنًا للكتبِ ومؤرِّخًـا عاش في العَصرِ الصفويِّ- تلك الحقبـة مصـدرًا للتَّقاليـدِ الفارسـيَّة العظيمةِ في الفُنـون التَّمثيلية، ووصَـف المُعلِّمَ أحمد موسـى -وهـو رسـامٌ عاش فـي عهد السُّـلطان الإيلخانـي أبي سـعيد [بهـادر] (حكمه: ٧١٦-٧٣٦هـ/ ١٣١٧-١٧٣٥م)- بأنَّه: «أماطَ اللِّثامَ عن وجهِ التَّصوير» وابتكر أسلوبَ التَّصوير الذي كان سائدًا آنئذٍ.

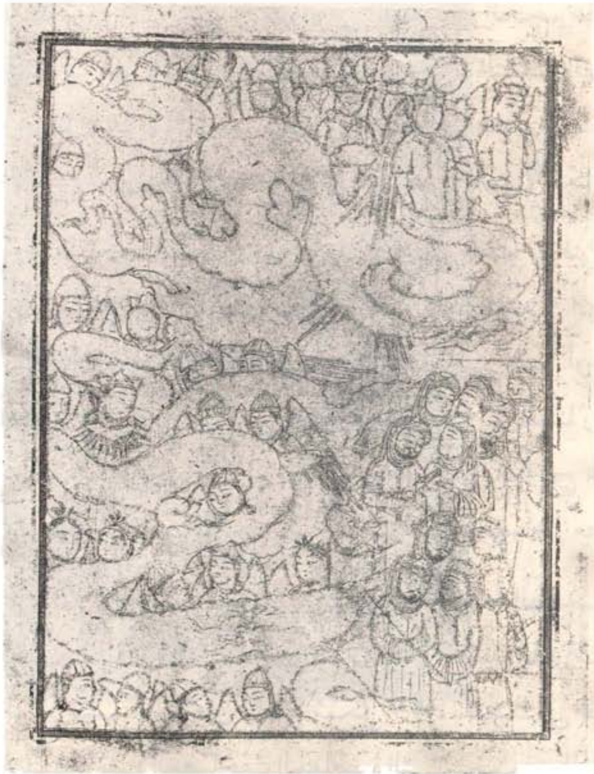
وبحلـول القـرن التَّاسـع الهجري/ الخامس عشـر الميـلادي، كانت فكـرةُ العملِ من المخطَّطاتِ الورقية شائعةً للغاية إلى حدٍّ أنها استُخدِمت مرارًا على نحو مطَّرد، وبوسعنا الاسـتدلال على عـددٍ كبيرٍ من الأشـكال والتَّراكيب المكرَّرة والمعكوسـة في مُنمنمات المخطوطـاتِ. وكان الفنَّانـون -أحيانًـا- ينسـخون نماذجَهـم بمجرد النظر إلى الشَّـكل الأصلـي، ثـم يضيفون تغييـراتٍ دقيقةً فـي الخطِّ والمقيـاس، وأحيانًا أخـرى لجأوا إلى استخدام وسائل ميكانيكيَّة لاستنساخ التَّصميمات. إذ يبدو أن مشهدَ البلاط المغولي في

الهواء الطَّلق في مُختاراتِ أُعدت لـ إسكندر سُلطان نحو عام ٨١٣هـ/ ١٤١٠-١٤١١م مأخوذٌ عن مُنمنمةٍ سـابقةٍ ربما كانت من الطِّراز الإيلخاني (انظر: شـكل ٧٥). ويكشِـفُ الفَحـصُ الدَّقيـقُ عـن أن الفنَّان الـذي انتقى المُختـارات (*Anthology*) قـد تتبَّع الخطـوط العريضة للرَّسم الأصلي بصفٍّ من النقاطِ الدَّقيقة، لا تزال مرئيَّةً أسفل خطه.

عُـرِفَ الاستنسـاخ باسـتخدام الغُبارِ أو مُسـحوق الصِّبـاغ بـ «الانقضـاض Pounce»، فكان الرسَّام ينثرُ الغبار على الورقِ أو الرَّق ثم يضع الرسمَ الأصلي فوقه ثم يتتبَّع خطوطَ الرَّسـم الأصليَّ بالوخزِ بالقلمِ؛ ليستنسِخ لنفسِه نُسخةً مُطابقةً للأصلِ. ويبدو أن أسلوبَ الانقضـاض -المرتبط بالورق المُغبَّر أو «المِرسـام» (Stenciling)- قد اختُرِع في الصِّين



شـكل (٧٥): «البـلاطُ المغولـي فـي الهـواءِ الطَّلق» من مُختـارات أُعدَّت لـ إسـكندر سُـلطان. ظهـر الورقـة ٢٦٠، بالمِـداد والألوان على الورق. شِـيراز، ٨١٣هـ/ ١٤١٠-١٤١١م. مؤسَّسـة كالوست كولبنكيان (*Calouste Gulben-kian Foundation*)، لشـبونة، [L. A. 161 .fol.]



شكل (٧٦): رسمٌ بأسلوبِ الوخز لـ «مشـهد فـي الجنَّة». فـارس، النّصف الثانـي مـن القـرن التَّاسـع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. برلين، (Staatsbibliothek zu Berlin— Preussischer Kulturbesitz-Orientabteilung) .[*Diez A Fol. 73, S. 39, nr. 1*]

قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ وذلك لأنَّ الرسوماتِ المنسوخةَ استُخدِمت لصُنع لوحـاتٍ جداريةٍ بكمياتٍ كبيرةٍ في دونهوانغ (Dunhuang)، فقد عثر السِّـير أوريل شتاين (Sir Aurel Stein) على ثلاثِ لوحاتٍ من الورقِ استُنسِخت بأسلوب الانقضاض في كهف الألف بوذا. ثم ما لبِثَت تقنية الانقضاضِ أن استُخدِمَت في جميع أنحاء آسيا، وظهَرت في إيران بحلول القرن التَّاسـع الهجري/ الخامس عشـر الميلادي، على الرَّغم من أن الرَّسم بالوخزِ لم يزل موجودًا إلى حدٍّ ما حتى تاريخٍ متأخِّر (انظر: شكل ٧٦).

وكان أوَّل ظُهـورٍ لأسـلوب الانقضـاض فـي أوروبَّـا فـي كتـاب (Libro dell'arte) لـ سينينو سينيني (Cennino Cennini) الذي فرَغ من تأليفِه نحو عام ١٣٩٠م، حيث أوصَى باستخدامِه لتكرار أنماطِ الزَّركشـة المعقَّدة في اللَّوحات الأصليَّـة. وعلى الرغم من أنه كان من الممكنِ صُنع قوالب من ورق المِرسامِ ورسوماتٍ بأسلوب الوخز على الرَّق أو الجلد -وقد فعل سينيني ذلك- فإن نشـرَ هذه التِّقنية عبر غرب آسـيا جاء مرتبطًا ارتباطًا

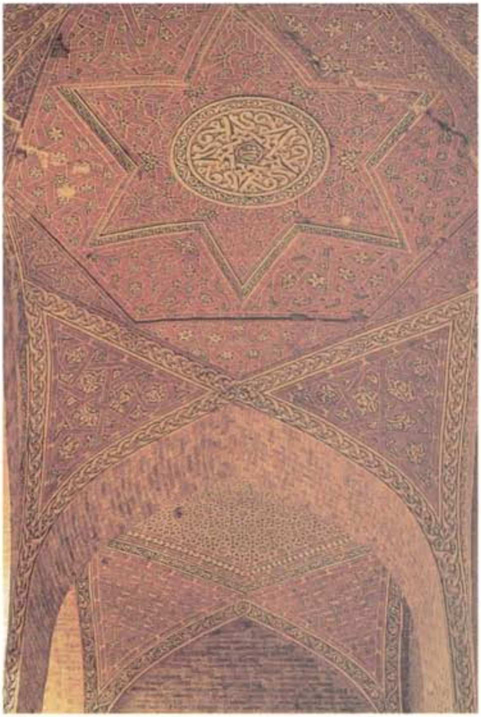
وثيقًا بالورقِ. ويُشير التَّشابه في التَّصميم والحَجم على عددٍ كبير من الأواني والخزف المُنتجة في نيقية (Iznik) في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وأوائل القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي إلى أنَّ الخزَّافين في غربِ الأناضول استخدموا أسلوبَ الانقضاض لنقلِ الأشكال من الورق إلى سطحِ الخزف.

وقد تكون المُحاولات الأولى لتأسيسِ أسلوبٍ فنيٍّ مميز لسُلالةٍ حاكمةٍ قد تمَّت في عهد الإيلخانيِّين في وقتٍ مبكر من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، إذ بدأت تصميماتُ المشغولاتِ المعدنيةِ في حملِ أوجه شبهٍ قويةٍ مع التَّصميمات في المُنمنمات في المخطوطاتِ المعاصرة. ولم تصلنا رسوماتٌ وسيطةٌ، بيد أن اعتماد صِنفٍ منها على الآخر احتمالٌ مرجوحٌ، بل الرَّاجح عندنا أن يكونَ العمَّال في تشكيلِ المعادن ورسَّامي الكُتبِ قد استَوحوا تصيماتِهم من مصادرَ مُشتركةٍ.

ولمَّا كان الشَّيء بالشَّيء يُذكَر، فإن الأنماطَ الهندسيةَ المنحوتةَ والمرسومةَ التي تُزيِّن قبابَ ضريح الخان أولجايتو الضَّخم في سُلطانية، الذي شُيِّد في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي (انظر: شكل ٧٧)، تشترك في عددٍ كبيرٍ من السِّمات مع واجهاتٍ هندسيةٍ زيَّنت المصاحفَ المعاصرةَ التي نُسِخَت في ذلك العصر نفسه (انظر: شكل ٧٨).

وعلى الرغم من أنَّنا نستبعدُ أن يكون عمالُ الجصِّ الإيلخانيِّين قد عمِلوا باستخدامِ القلمِ والمِداد، فإن أوجه التَّشابه تلك تشير إلى أنَّ الزخارف المعماريَّة ومُنمنمات المخطوطات -كما هو الحال مع المشغولات المعدنيَّة ومُنمنماتِ الكتبِ- قد أُخِذَت من مصادرَ مشتركةٍ. وينبغي أن تكون هذه المصادر -على الرغم من أنه لم يصِلنا شيءٌ منها- عبارة عن تصميماتٍ رُسِمَت على الورق، وكان يسَع رسَّامي المُنمنمات في المخطوطات، والمُزخرِفين المعماريِّين العاملين في الطِّلاء والجصِّ، وعمال المعادن -على حدٍّ سواء- قراءتها وتفسيرها.

ويأتي الدَّليلُ على استخدامِ مثل هذه الرُّسومات واضحًا لا لبس فيه بحلول القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حيث وصَلتنا أعدادٌ كبيرةٌ من الرُّسومات التَّحضيرية من هذه الحقبةِ. إضافةً إلى ذلك، ثَمَّ دليلٌ واضحٌ على وجودِ ورش تَصميمٍ مَلكيَّة؛ فنحن نعلم أن الأميرَ التَّيموري باي سنغور عيَّن الخطَّاط الشَّهير جعفر بن علي التِّبريزي مسؤولًا عن ورشةٍ فنِّيةٍ في بلاطه. وفي رسالةٍ مشهورةٍ، كتَب الخطَّاط إلى



شكل (٧٧): نقوشُ قبَّة سُلطانية، ضريح الخان أولجايتو، أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

الأمير يشرحُ -تفصيلًا- التقدُّمَ الذي أحرَزه في ٢٢ مشروعًا كان العملُ يجري فيها على قدمٍ وساقٍ، وتضمَّنت هذه المشروعات المخطوطات والتَّصميمات والأدوات والخِيام والمُنشآت المعماريَّة. حيثُ عمل عددٌ من الفنَّانين -لا يقل عددهم عن ٢٣ فنانًا بين رسامٍ ومُزخرفٍ وخطَّاطٍ ومُجلِّدٍ ومُسطِّرٍ وصَناديقيٍّ- في ورشةٍ واحدةٍ، وعمِل كل منهم مستقلًّا تارةً، وتارةً أخرى في فِرقٍ داخل تلك الورشة المَلكية. وعلى هذا النَّحو أضحَى الحرفيُّون الآن مُكلَّفين بإعادة إنتاج التَّصميمات التي أنشَأها غيرُهم وتنفيذها على وسائطَ أخرى، وذلك على النَّقيض من الحقبِ السَّابقة، عندما كان الحِرفيُّون يعيدون صياغةَ ما رأوه وما حفظوه. وفوق ذاك، غدا الحرفيُّون على اختلافهم يُنفِّذون أعمالَهم إمَّا من التَّصميماتِ نفسها، أو من تصميماتٍ مُتشابهةٍ.

ولم يسمَح الورق -بوصفِه وسيطًا- بنقلِ التَّصميماتِ من المُصمِّم الأصيل إلى الحِرفيِّ المُنفِّذِ للتَّصميم فحسب، بل عمِل أيضًا على استنساخ التَّصميمات نفسها من وسيطٍ إلى آخر. ومكَّن الرسَّامين من نقلِ التَّصميم الأصليِّ من بيئتِه وتطبيقِه على بيئة



شكل (٧٨): الواجهةُ اليُمنى للجزءِ السَّادس من مُصحفٍ مكونٍ من ٣٠ جزءًا، نُسِخ في الرَّبع الرَّشيدي في همذان، خِصِّيصًا للخانِ الإيلخاني أولجايتو. دار الكتب المصرية، القاهرة، برقم ٧٢ مصاحف.

مختلفة تمامًا، مع تغيير المقياس أيضًا على نحوٍ كبيرٍ بحُكم الضرورة. فكان يسَعُ الفنان -على سبيل المثال- أن يرسم تصميمًا رآه على إبريقٍ صينيٍّ مُزخرفٍ (Carved lacquer) ثـم يضَـع الرَّسـم جانبًا في محفظـةٍ أو ألبوم، ثـم يأتيه غلافُ كتابٍ أو جصٌّ خام للرسـم فينقـل التَّصميـم الذي سبَق أن احتفظ به، إمَّا عن طريق تقنيةِ ورق المِرسـام (stencil) أو تقنيـةِ الانقضـاضِ علـى الخام الآخر، الذي ربمـا كان غلافِ كتابٍ مـن الجِلد، أو لوحة جصِّيـة منحوتـة تفوق حجم الإناءِ الخزفيِّ الصِّينيِّ الأصلـيِّ بأضعافٍ مضاعفةٍ. وما كان لمجلد الكُتبِ أو الجصَّاص أن يرى ذلك الإبريقِ أبدًا، وربما لم يكن لدى الرسَّام الذي أعـدَّ التَّصميم الأصلي أي فكرةٍ عن أن رسـمَه سيُعاد استنسـاخه علـى الجلدِ أو الجصِّ مجـددًا. وعلـى هذا النَّحـو انفصَلتِ التَّصميمات عن سِياقاتها الأصليَّـة، وأضحت هذه الجودة الحرَّة في التَّصميم سمةً من سماتِ الفنِّ الإسلامي المُتأخِّر، ولا سيما في التُّحف التي صُنعت أو شُيِّدت خصِّيصًا من أجل البلاطِ الملكي.

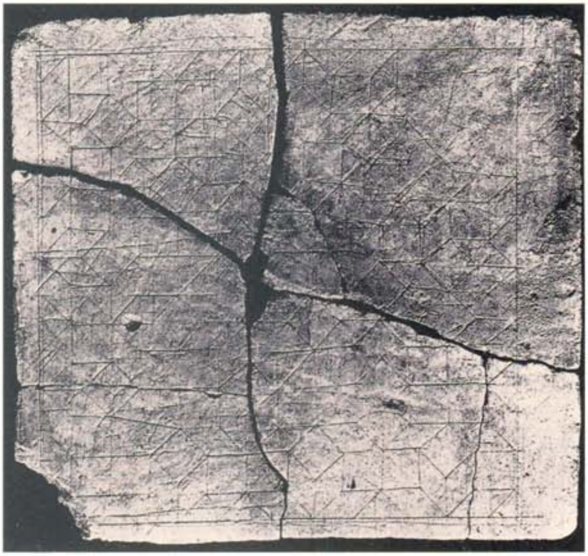
كمـا سـمَح الـورقُ للفنَّانيـن بالتَّخطيـط لأعمالهـم بطـرقٍ جديـدةٍ. فغالبًـا مـا كانـت تصميمـاتُ الآجُـر على المباني التي شـيَّدها التَّيموريون والصَّفويون في القرنين التَّاسـع والعاشـر الهجريين/ الخامس عشـر والسَّـادس عشـر الميلاديين مناسـبةً تمامًا للمساحةِ المُتاحـة، بحيـث ينبغي أن تكون تلك التَّصميمات قد أُعِدَّت سَـلفًا على الورقِ. وبعد أن صنَـع الحرفيُّـون فـي ورش العمـلِ الملحقـة بالبـلاط الملكي الخامـات المطلوبـة وفقًا للتَّصميمات المُعدَّةِ مُسبقًا، أُرسِل الآجُر النِّهائي إلى مواقع البِناء للتَّركيب. وثم مثالٌ آخر واضحٌ على هذا، وهو المسـجد الأزرق في تِبريز الذي شُـيِّد في القرنِ التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فهناك نقشٌ غير مكتملٍ منحوت بالرخام يدلُّ على أن النَّحاتَ كان يعمل من خلال رسوماتٍ مُعدَّة سلفًا، وبالحَجم الكامل.

أمَّا النَّتيجة الثَّالثة لزيادة توافر الورقِ بعد القرنِ السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي فكانت تطوير أنظمة التَّدوين التي سـمَحت للمُصمِّمين بتَرميزِ تعليماتٍ محدَّدةٍ لتنفيذِها لاحقًا. وقد يكون التَّصميمُ الخاصُّ بالنَّقشِ يمثل الخطوط العريضة للحُروف المرسومةِ على الورقِ بالحجمِ الكاملِ.

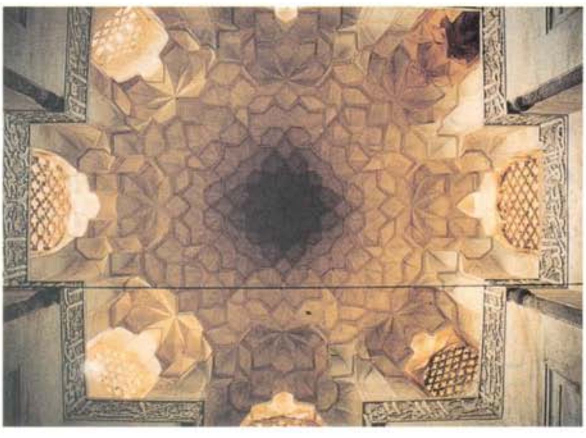
ومن جهةٍ أخرى، يُعَدُّ المُخطَّط المعماري على الورقِ نظامًا معقَّدًا لتمثيل المساحات ثلاثيـة الأبعـاد علـى نطـاقٍ مُصغَّرٍ على سـطحٍ ثنائي الأبعـاد. وعلى الرغم مـن الدَّعاوى

العريضةِ من قِبل الحُكّام والفلاسفة، والتي تُفيد بأن مخطّطات البِناء قد استُخدمت في العصورِ المبكرةِ، إلا أنه ليس ثم دليلٌ مباشرٌ يشير إلى أن المهندسين المعماريّين والبنّائين عملوا بالتّعاون معهم. بيد أنهم فعلوا ذلك في نهاية المطاف، ولكن في حقبةٍ متأخّرةٍ من تاريخ العمارةِ الإسلاميةِ.

إنَّ أقدمَ مخطَّطٍ معماريٍّ وصَلنا من العالم الإسلامي كان يهدفُ -في الواقع- إلى مُساعدة البنّاء على تشييد نُصبٍ ما، هو لوحة جصيَّةٌ صغيرة وُجِدَت في أنقاض «تخت سُليمان»، وكانت العاصمة الصَّيفية للمغول في أواخر القرن السَّابع الهجري/ الثالث



شكل (٧٩): لوحةٌ من الجصّ تحمل تصميمَ قبَّة مُقرنصة وُجِدَت في أنقاض قصر الإيلخانيّين في تخت سُليمان.



شكل (٨٠): ضَريح عبد الصَّمد، قبة مُقرنصةٌ تعلو القبر. ناتانز-فارس ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م.

عشر الميلادي في فارس. ونُقِشَت اللوحةُ بخطوطٍ ربما تكون قد أنبأت العُمَّالَ بالكيفيَّةِ التي يجب أن تُزخرفَ بها قبَّةٌ جصيَّةٌ مُقرنصةٌ (انظر: شكل ٧٩). لم تَصمد قُبة «تخت سُليمان» أمام عوادي الدَّهر، فانهارت منذ زمنٍ طويلٍ، لكن ثَمَّ قبَّة مُقرنصة معاصرة صمَدت، وهي التي تعلو قبر عبد الصَّمد في ناتانز، لتُعطينا فكرةً جيدةً عن الكيفية التي جُمِعَت تلك القطع بها، ثم تَشبيكها معًا (انظر: شكل ٨٠).

تختلفُ اللَّوحةُ المنقوشةُ عن المخطَّطِ المعماري في أنها صُنِعَت -على ما يبدو- لتكون بمثابة عاملٍ مساعدٍ للذَّاكرةِ عند الحرفيِّين الذين كانوا يعرفون المبادئ العامة لبناء مثل هذه القبَّة بالفعل؛ وبعبارةٍ أخرى، لم تكن تلك اللوحة الجصيَّة تُشكِّل مجموعةً كاملةً من التَّعليمات من المخطِّط إلى المُنشئ. وإذا كانت الطريقة التي أعاد بها الآثاري المُنقِّب بناء تلك القُبَّة على أساسِ هذا الرَّسم صَحيحةً، فإنَّ هذه القبة هي المثال الأكثر تعقيدًا من نوعه في الهندسةِ المعماريةِ الإيلخانيةِ. وكان من الممكن أن تُستخدَم مثل هذه الرُّسوم البيانيَّة على نحوٍ مُتزايدٍ في البناء، وهذا ما تؤكِّده المصادرُ الأدبيَّةُ المعاصرةُ بالفعل.

وبحلولِ الرُّبع الثَّاني من القرن الثَّامن الهجري/ الرَّابع عشر الميلادي، وُضِعَت المخطَّطات المعمارية، التي نفترضُ أنها كانت مرسومةً على الورقِ، في تِبريز وأُرسِلَت إلى يَزْد لبناءِ مجمَّع ضريحِ رُكن الدِّين، والذي تضمَّن مدرسةً، وخانًا لآل البيت، وتكيَّةً للمُتصوِّفة، وسوقًا، وحمامًا. ونظرًا لأنَّ رسم الخطط وقراءتها بمثابة مهارتَين مُكتسبَتين، فينبغي أن يكون المُصمِّمون في تِبريز قد افترضوا أن البنَّائين في يزد كانوا يعرفون الكيفية التي يفكُّون بها شفراتِ المخطَّط على الورق، ثم تحويلها إلى حجارةٍ وجَصٍّ وآجُر.

ومع ذلك، ليس لدينا سببٌ مُقنعٌ يجعلنا نعتقد أن جميع البنَّائين تخلَّوا على الفور عن ممارساتهم التَّقليدية في البناءِ والتَّشييد، وأنهم بنَوا وشيَّدوا وفق المخطَّطات المرسومة على الورقِ دائمًا، وهذا الافتراض يؤكِّده البَون الواسع من الفروقِ بين المباني التي أُقيمَت في فارس خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. ولكن بحلول القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، أضحَت الخُطط والتَّمثيلات الرُّسومية الأخرى أكثر أهميَّةً في الممارسةِ المعماريةِ، وذلك على الرغم من الاختلافات الواسعة في المقاييس للمباني التي صمَدت في وجه عوادي الدَّهر، والتي تُشير في أبعادِها ونسبِها

إلى أنَّ كثيرًا من عناصرَ البناء ظلَّت تجريبيَّةً إلى حدٍّ كبير. ومع ذلك، فقد انتشرت الإشارات إلى المخطَّطات الورقيَّة في هذه الفترة، حتى قيل: إن المهندسَ المعماري التَّيموري الشهير قِوام الدين الشِّيرازي كان ماهرًا في «الهندسة والبِناء والرَّسم».

ويمكن تأريخ أقدم المخططاتِ المعمارية الورقيَّة التي وصلتنا بأوائل القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهي لِفافة طوب قابي سراي (Topkapi Scroll)، وهي لِفافةٌ ورقيةٌ احتوت على رسوماتٍ للزَّخرفة المعمارية، ربما رُسِمَت في أواخر القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في شمال غرب فارس، ثم انتهى بها المطاف لتُحفَظ في مكتبةِ قصر طوب قابي. ومع ذلك، لا تُظهر تلك اللُّفافة إماراتٍ دالةً على استخدامها من قِبل حِرفيٍّ حقيقيٍّ.

وإذا كان المهندسون المعماريون والبنَّاؤون قد طوَّروا -كما يشِي بذلك الاستخدام المُتزايد لهذه النَّوعية من الخطط المعمارية- لغةً للتَّمثيلِ المعماري بداية من القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فلا بُدَّ أن البنَّائين -في أغلب الأحيان- كانوا قادرين على معرفةِ ما الذي يقصده المُصمِّمون. ونظرًا لأن مخطَّطات الارتفاع للمباني لم تصِلنا، فإننا لا نعرف ما إذا كانت قد استُخدمت أم لا؛ فقد كان من الممكن تدريبُ البنَّائين على التعرُّفِ على الارتفاعاتِ، أو ربما على العناصرِ «الهيكليَّة» الأساسية للمبنى، من المخطَّطات وحدها.

وزادت الأنماط الموحَّدة في هندسةِ العمارة في العالم الإسلامي مع زيادةِ استخدام مخطَّطات البناء، في القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وما بعده. ولعِب الاستخدامُ المتزايدُ للمخططات الورقيَّة دورًا كبيرًا في هذا التَّوحيد، وهذه حقيقةٌ لا تُدحَض. ولكن لا يسعنا أن نعزو التوحيد في نمطِ العمارة إلى المخطَّطات وحدها، فإذا أظهرت العمارة المملوكية بعض التَّشابه على مدار القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فبوسعنا أن ننظر أيضًا إلى البنَّائين الرحَّالة الذين سافروا من القاهرة إلى دمشقَ ثم إلى القُدس، وعملوا في ترميم المباني القائمة وشيَّدوا تلك التي كان يجري تشييدُها. وكان أولئك البنَّاؤون والمصمِّمون الرحَّالة -والحال على ما وصَفنا- قادرين على نقلِ الأفكار باستخدام الوسائل التَّقليدية من الحفظ والإيماءات بيسرٍ.

ولكن ما يزيد من دهشتِنا حقًّا أنَّ العناصر المعمارية في العمارةِ التَّيمورية والعُثمانية المُتعاصرتين -واللَّتين انتشرتا على رقعةٍ جغرافيَّة أوسع بكثير قياسًا بالدَّولة المملوكيَّة- أظهرت بدورها تجانُسًا أسلوبيًّا. وعلى الرغم من أنَّ البنَّائين والمُزخرفين سافروا من مدينةٍ إلى أخرى بحثًا عن عملٍ، فإنَّ نمطَ التَّوحيد المثير للإعجاب في العمارة في كلا الدَّولتين في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي لا ينهضُ دليلًا على تطواف البنَّائين بين المدنِ فحسب، بل ينهض دليلًا على نهجٍ جديدٍ تمامًا في التَّصميم؛ إذ أعدَّ مهندسو العمارة المُحترفون التَّصميمات في مكانٍ ما لتنفيذها في مكان آخر.

واستُخدِمَت المُخطَّطات الهندسيَّة للعمارةِ المرسومةِ على الورق المربَّع الشَّبكي (ورق الرسم البياني) في فارس في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ويبدو أن بعض المخطَّطاتِ المحفوظةِ في طشقَند -على سبيل المثال- تعود إلى القرنِ العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولكن يُفترض أنها تعكس النُّسخ الأصلية من القرنِ التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ورُسِمَت تلك الرُّسومات على مسقطٍ شبكيٍّ، تمامًا مثل لِفافة طوب قابي سراي التي ذكرناها آنفًا.

ويكاد يكونُ من قَبيل المُؤكَّد أنَّ المساحات المُحبَّبة من أعمال الآجُر التي نُفِّذت بالتِّقنية المُسمَّاة «البناني»[1] -وهي قوالبُ من الآجُر المزجَّجِ كانت تُوضَع بإزاء القوالب غير المُزجَّجة لتشكيل أنماطٍ كبيرةِ الحجم، وتنقش بعباراتٍ دينيةٍ بالخطِّ الكوفيِّ المُربَّع- تُشير إلى وجودِ تخطيطٍ أوَّلي رُسِم على ورقٍ شَبكي، بحيث مثَّل كل مربع في الشبكة قطعةً من الآجر. بل ربما ساعدت هذه المَساقط الشَّبكية البنَّائين أيضًا على تقديرِ الكمياتِ المطلوبةِ من الخامات.

وكان الورق الشَّبكيُّ -مثلُه في ذلك مثَلُ الرَّسم بأسلوب الوخزِ- على ما يبدو ابتكاران مُتزامنان. فقد ظهَر كلاهما في العالمِ الإسلاميِّ في نفس الوقت تقريبًا، في أعقابِ الانفتاح على الصِّين. وفي المقابل ظهَرا في أوروبا ولكن بفارقٍ زمنيٍّ فصَل بينهما. ربما كان التجَّار والمُبشِّرون الأوروبيُّون العائدون من الشرقِ قد أعلَموا الفنَّان الإيطالي سينينو سينيني (Cennino Cennini) بطريقةِ الرَّسم بالانقضاض بحلول أواخر

---

(١) البناني، فنٌّ معماري زُخرفي يتناوب فيه البلاط المزجَّج مع الطوب العادي لخلق أنماطٍ هندسيَّةٍ على سطح الجدار، أو كتابة أسماء الله الحُسنى، أو بعض آيات القرآن الكريم. (المترجم)

القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ولكن أول مهندسي العمارة الأوروبيِّين الذين استخدموا الورق المربَّع نشطوا بعد قرنٍ من الزمان لاحقًا، وحتى ذلك الحين لم يكن ورقُ الرَّسم البياني الشَّبكي شائعًا في أوروبا. كانت شَبكات المربعات مجرَّد نظام من الأنظمةِ التي استخدمها مهندسو العمارة. واستندت الأنظمة النِّسبية الأخرى إلى قُطري المربع، والمثَّلث متساوي الأضلاع، وشبه المنحرف، والمُستطيل الذَّهبي بأبعاده الشَّهيرة (١:١: ٦١٨). وأيًّا كان النِّظام المُستخدَم، فقد تضمَّن الرَّسم، واستغلال خصائص الورق لإنشاء التَّصميمات التي نفَّذها البنَّاؤون.

وعلى هذا النَّحو أدَّت المُخطَّطات والرُّسومات الورقيَّة -المستخدمة في جميع الفنونِ- إلى الفصلِ بين المصمِّم الذي خطَّط للعمل الفنِّي، والحِرفي الذي توفَّر على تنفيذِه، ومن ثم أدَّت هذه الظَّاهرة بدورِها إلى ظهورِ معاييرَ جماليةٍ جديدةٍ، حيث استُبدِلت أصالةُ التصور والتَّكوين بوحدةِ التَّعبيرِ، والقدرة على إحداث الانسجام بين التنوُّعاتِ الأنيقةِ في موضوعاتٍ شائعةٍ على نطاقٍ واسع. وكان هذا التَّغيير جزءًا من تغيير أكبر جرى في المشرقِ الإسلامي، حيث عاد مذاقُ الأصالةِ الفنيةِ تحت رعاية المغول إلى الطُّرزِ الفارسيَّة التَّقليدية، وساد الحَنينُ للمألوفِ، وإن كان مشوبًا بشيءٍ من التَّجديد. فلم يحتفي الأدب الفارسي المُعاصر أيضًا بجدَّة التَّعبير فحسب، ولكن بقُدرة الشاعر على استغلالِ الأشكال والموضوعات الموجودةِ بالفعل في التُّراثِ. وقَيَّم الناسُ الفنَّانين ومهندِسي العمارة -وكذلك الخطَّاطين لفترة طويلة- بناءً على مهاراتهم في تقليد النَّماذِج التي صمَّمَها أساطينُ الصَّنعةِ، ومن ثم شجَّع هذا الولاء للطِّرازِ القديم على ظهورِ تقنياتِ الاستنساخِ الورقيَّةِ الجديدةِ.

ولمَّا انفصَل التَّصميمُ عن التَّنفيذِ، ظهَرت تخصُّصاتٌ جديدةٌ، فأصبحنا نعرف مهندسي العمارة والفنَّانين بأعيُنِهم وأسمائهم، ومن ثم دخلوا في دائرةِ من الضَّوء السَّاطع للحقائق التاريخيَّة، بعد أن كانوا في السَّابق شخصياتٍ غامضةً يلفُّهم ماضٍ أسطوريٌّ مُختلقٍ. وعلى هذا النَّحو تمكنَّا للمرة الأولى من تحديد وظائف مهندس العمارة التَّيموري قِوام الدِّين [الشِّيرازي] والمعماري العُثماني الأستاذ سِنَان. ودخل كبار المُصمِّمين والرسَّامين، مثل الرسَّام الفارسي الفذ بِهزاد وسُلطان محمد، في دائرةِ الضَّوء أيضًا: ووقَّع هؤلاء جميعًا بأسمائهم على أعمالهم، وتعرَّف الباحثون على أساليبِهم المميَّزة بمجرد النَّظر.

وعلى النَّقيض من ذلك، كان الحرفيُّون المُشاركون في صُنع الفنون الإسلامية التَّقليدية مثل أعمال الخشب والمعادن والخَزف، والذين -بالنظر إلى التَّوقيعات الكثيرة على أعمالهم- تمتَّعوا بالشُّهرة ذات يوم، قد خرجوا من دائرةِ الضَّوء مع تَقليصِ أدوارهم، فلم يعودوا فنَّانين بالمعنى الدَّقيق للكلمة، بل أضحوا مجرد حِرفيِّين مُنفِّذين، نفَّذوا تصميماتٍ أعدَّها لهم آخرون.

بيد أن هذا لا يعني أن جميع الفنَّانين والحرفيّين في كل مكان في العالم الإسلامي بدأوا فجأة في استخدام الورقِ، لقد جرَى هذا التحولُ تدريجيًّا، وانتشر في بعض المناطق وعلى بعض الوسائط على نحوٍ أكثر كثافةً من وسائطَ أُخَر. بيد أن بلاد فارس ظلَّت في طليعةِ الفنونِ الإسلامية.

وفي المغرب الإسلامي، وهي المنطقةُ التي اتَّخذت لنفسها -منذ قرونٍ- مسارًا فنيًّا مُستقلًّا، لم يكن للاستخدامات الجديدة للورقِ تأثيرٌ يُذكَر على الفنون ثمَّة. وحتى داخل المنطقة الواحدة، كانت هناك اختلافات في أسلوبِ استخدام الورق، لأنَّ فنون البلاط التي تمحورت حول المناطقِ الحضريَّةِ كانت أكثر عُرضةً لاستخدام الورق من فنون القرويِّين والبدو.

وواصَل نسَّاجو السَّجادِ من الفُرس -على سَبيل المثال- العملَ عن طريق حفظ الأنماط وعدِّ العُقَدِ، دون الحاجةِ إلى استخدام الرسوم على ورق الكرتون المُقوَّى طيلة القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وعلى الرغم من أن صُورَ السجَّاد وكذلك الإشارات في المصادر تُشير إلى أن السجَّاد كان مقدَّرًا في البلاط السُّلطاني، إلا أن ذوقَ البلاطِ لم يكن قد تحكَّم بعد في إنتاج السجَّاد، حيث سادت الطرق التَّقليدية في نسجِه. وفي الوقت نفسه، أضحَى إنتاجُ أنواعٍ أخرى من المنسوجات، مثل الجُبَب الفاخرة المطرَّزة بالذَّهب حول الياقات والمعاصم، مُعتمدًا على التَّصميماتِ المرسومة على الورق، والتي وصَلنا عددٌ كبيرٌ منها منذ النِّصف الأول من القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

وشرَع النسَّاجون في استخدام الورقِ المُقوَّى في صناعة السجَّاد في أواخر القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. واعتاد النسَّاجون في الأناضول تزيين السَّجَّاد

بأنمـاطٍ هندسـيَّةٍ أو خطوطٍ مُنتظمـةٍ لعدة قرون. ومن أقدم العيِّنات التي وصَلتنا سـجادة قونية، وهي مؤرَّخةٌ بمستهلِّ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، والتي احتَوت على حقلٍ مركزيٍّ بزخارفَ زاويَّةٍ صغيرةٍ مرتبةٍ في صفوفٍ مُتداخلةٍ؛ وحدود متباينة من التَّصميمات أو شبه النُّجوم الكوفيَّة الكبيرة.

وتُعرف التَّصميماتُ المماثلةُ التي صُنِعت في النِّصف الثَّاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشـر الميلادي باسـم سَـجَّاد هولبين (Holbein carpets)[1]. وتحتوي على حقلٍ يحتوي على عدة مُثمَّناتٍ كبيرةٍ منقوشةٍ في إطارات مُربَّعة مفصولةٍ، وتحدُّها شرائطُ مكونة من مُثمَّنات أصغر حجمًا. وزُيِّن الشَّكل الثُّماني عادةً بزخارف من الأشرطة، وكذلك زُيِّنت الحواف المُتعدِّدة ذات العرضِ المتفاوت بنقوشٍ شـبه كوفيَّة أنيقة ذات سـيقان مُتشـابكة (انظر: شكل ٨١). وعلى الرَّغم من التَّعقيد الواضح للأنماط، التي عُقِدَت بخيوط الصوفِ ذات الألوان الزَّاهية، فقد كان يَسَع النَّساجين صناعة هذا السجَّاد من التَّصميمات التي كانوا يحفظونها عن ظهرِ قلب، أو التي كانوا يستنسخونها عن طريق عدِّ العُقَد. ومع ذلك، ينبغي أن يكـون سـجاد (أوشـاق ذي الميداليَّـة Ushak medallion) -وهـو نوع آخر من السـجَّاد المعاصر- قد استَحكمت عُقَدُه باستخدام نماذج ورقيَّة.

نُسِجَ هذا النوع المُسمَّى «سجاد أوشاق ذي الميدالية» أيضًا في الأناضول، وربما في مدينـة أوشـاق أو بالقـربِ منها. وتُشـبه هذه السـجَّادة فـي التِّقنية واللون سـجَّاد هولبين المذكـورِ آنفًـا، إلا أنَّهـا تميـزت عن هذا النَّـوع الأخير بتصميمـاتٍ انسـيابيَّة مُتناظرة من التَّعاشيق (*arabesques*) والأوتار الصَّغيرة التي أحاطت بميداليات عملاقة (انظر: شكل ٨٢). ويُعتقَـد أن سـجَّاد هولبيـن صُنـع في الأسـاسِ للتَّصدير إلى أوروبا، ولكن سـجَّاد أوشـاق ذي الميدالية نُسِـج خصِّيصًا مـن أجل البلاطِ العُثماني وحـده. وهذه الخصيصة هـي التي قد تُفسِّـر الاختلافاتِ في التَّصميمِ بيـن كلا النَّوعين. بيد أن ثَمَّ اختلافًا آخر هو أن سجادة أوشاق ذات الجودة العالية تطلَّبت نموذجًا ورقيًّا لتنفيذها، في حين أن سجادة هولبين الأقل جودة لم تكن كذلك.

---

(١) تعود هذه التَّسـمية الأوروبية للسـجَّاد العثماني -الذي أنتجه النسَّـاجون من الأناضول- إلى عصر النهضة، وتُعزى إلى الرسام هانز هولبين الصَّغير (Hans Holbein the Younger). (المترجِم)



شـكل (٨١): سـجادة هولبين (Holbein) كبيرةُ النَّمـط. الأناضـول، أواخـر القرن التاسـع الهجري/ الخامس عشر الميـلادي مـن وبـر الصُّوف، وقياسها: ١٤× ٦ قـدم (٢٩ , ٤×٢م). برليـن (Staatliche Museen zu Berlin, Pruessischer Kulturbesitz, Museum für Islamische Kunst [I. 5526]).

ويكشفُ التَّحليلُ الدَّقيقُ لعناصر التَّصميم المستخدمة في إنتاج سجَّاد أوشاق ذي الميدالية عن عددٍ كبيرٍ من سمات الوسائط المستخدمة في صناعته، فمن غير المحتمل أن يكون النسَّاجون أنفسُهم قد خلَقوا هذه الزخارف؛ بل ينبغي أن يكون التَّصميم قد أُعِدَّ في ورشةٍ سُلطانيةٍ في إستانبول ثم أُرسِل إلى أوشاق لينفِّذَه النسَّاجون، حيث تسلَّموا التَّصميمَ على ورقٍ مقوًّى، وقلَّبوه ودوَّروه في أثناء عملهم.

ولم يضَع إدخال التَّصميمات الورقية واستخدام الورق المُقوى في صناعة السجاد الملكي المصنوع في أوشاق -كما هي الحال في أي مكان آخر في العالم الإسلامي- نهايةً فوريةً لتقنيات الأناضول التقليدية في إنتاج النَّسيج وتصميماته، بيد أن استخدام الورق عمل على تمييزِ الفنونِ الحضريَّة -المُنفَّذة استجابةً لمطالبِ البلاط- من إنتاج البدو والقَرويِّين الذين اعتمدوا في حرفِهم على الوسائل التقليدية.

وما وقَع في الأناضول في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وقَع في فارس في القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي، عندما استُبدلت الأنماط الهندسية التي كانت تُميِّز السجَّاد المبكر بسجَّادٍ مخمليٍّ ناعم للغايةِ مع أشكالٍ نباتيةٍ وعناصر تصويرية جاءت أكثر تعقيدًا. وفي حين كان من الممكنِ أن تكون الأنماط الموجودة على السجَّاد القديم قد نُفِّذت من وحي ذاكرةِ الحِرفيِّ، ينبغي أن تكون التَّصميمات المُتماثلة المُعقَّدة على السجَّاد الملكي في العصر الصَّفوي قد صُمِّمت على الورقِ قبل وقتٍ طويلٍ من تحضير النَّول لنسج السجادة، وينبغي أن يكون النسَّاجون أنفسُهم قد أحكموا ربطَ عُقدهم باتباع التَّعليمات المُشفَّرة في الرُّسومات الورقية. لقد كان النسَّاجون بمثابة الآلات، أو بعبارة أخرى؛ لم يكونوا من الفنَّانين. ومن بعض النواحي، أدَّى هذا التغييرُ في الأدوارِ إلى اعتدال الذَّوق في المشهد الجمالي بصفةٍ عامةٍ.

وينبغي أن يكون جميع النسَّاجين الذين عملوا في صناعة السجَّادتين الضَّخمتين المُتطابقتَين واللتين صُنعتا للضَّريح الصَّفوي في أردبيل في عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩-١٥٤٠م، وبلغ قياس كل واحدة منهما ٥, ٣٤×٥, ١٧ قدم (٥, ١٠×٣٥, ٥ متر)، إما من رسمَيْن ورقيَّيْن مُتطابقين تمامًا، أو أن النسَّاجين أعادوا استخدام التَّصميم نفسَه بمجرد انتهائهم من صُنع السجَّادة الأولى. وحمَلت كلتا السجَّادتين توقيع «خادم الشاه، مقصود



شـكل (٨٢): سـجَّادةُ أوشاق ذات الميدالية. من وبر صوفٍ بطول ٢٣ قدم (٧,٢٣ م). مجموعـة الصُبـاح، دار الآثـار الإسلامية، الكويت [LNS 26R]

قاشـاني»، الـذي لا بـد أنـه لم يكن النسَّـاج الفعلي، الـذي أحكَم مع مُسـاعديه ربطَ عدة ملايين من العُقَد، بل نفترضُ أنه كان المُصمِّمَ أو المُشرفَ على المشروعِ برُمَّته.

والشَّـيء بالشـيء يُذكَـرُ، فقـد وقَّع غِيـاثُ الدِّين جامي على سـجَّادةٍ ضخمـةٍ صُنِعت للشَّـاه الصَّفوي في عام ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢-١٥٤٣م، وهي سـجَّادة زُيِّنَت بمشاهد صيدٍ لا تُعوِزُها الحيويةُ. وبوسعنا أيضًا التعرُّف على مصادرَ التَّصميمِ في مُنمنمات المخطوطات المُصوَّرة المعاصرة. وعلى الرَّغم من أن هذا السَّـجاد الاسـتثنائي يُعَدُّ -بلا أدنى شـك- مـن بيـن أعظـم النَّماذج في تاريـخ الفن، إلا أنـه حمَل رسـالةً جماليةً مختلفـةً تمامًا عن السـجَّاد الخشـن الذي نسـجَه النسَّـاجون من ذاكراتِهم، والذي لم يقل جمالًا عن النَّوع الأول.

وكما جرَت الحال في الأناضول، نُسِج أفخرُ أنواع السَّجَّاد الذي رعاه البلاط الملكي من تصميماتٍ رُسِمَت على الورقِ في الورش السُّلطانية، وأُرسِلت هذه التَّصميماتُ إلى النسَّـاجين لتنفيذها. بينما اسـتمر البدو والقرويُّون الفُرس في العمل بالطُّرق التَّقليدية في القرنيـن التَّاسـع عشـر والعشـرين، حتى عمِـل زيادة الطَّلـب الأوروبي على السـجَّاد من الأنماط القياسـية والتَّفاصيل المعقَّدة بحجمِ الغُرفة العادية، على جعل الرُّسـومات على الورق المقوى (الكارتون) ضرورةً فرَضت نفسها على إنتاج السجَّاد الفارسي آنئذٍ.

وعلى الرَّغم من أننا لا نعرف سوى أقل القليل عن الأشخاص الذين صنَعوا السجَّاد أو المنسـوجات، أو غيرهـم ممـن امتهَـن الحِـرف اليدويَّـة الأخـرى فـي عصـورٍ ما قبل الحداثـة، إلا أنَّ الفـرق بيـن صُنـعِ الأشـياء مـن المحفـوظ والذَّاكـرة، وبيـن العمـل من المُخطَّطـات المرسـومة قد يكون مرتبطًا بالجنوسـةِ (Gender) على نحوٍ أو آخر. فحتى وقتٍ قريبٍ، كانت النِّساء القرويَّات والبدويَّات ينسجن لأنفسِهنَّ، ويستخدمن ما نَسجنَه فـي بيوتِهـن. فـي حيـن كان الرجـال يعملون فـي المصانع فـي المدينة عـادةً، ويصنعون المنسـوجات الأفخر والأغلى سـعرًا. وارتبط اسـتخدام النَّماذج الورقيَّة -قبل الحداثةِ- حصريًّـا بإنتـاجِ المنسـوجات باهظةَ الثَّمن، ورفيعـةَ الذَّوق، مثل: المُزخـرَف، والمُطرَّز، والدِّمَقْس، والسـجَّاد الكبير المخملي الفاخر ذي الأشـكال الانسيابيَّة. وعلى هذا النَّحو يبـدو لنـا أنَّ محـوَ الأميَّة البَصريَّـة -مثَلُها في ذلك مَثَـل محو أميَّة القـراءة والكتابة- كان عملًا ارتبط غالبًا بالرِّجال دون النِّساء.

الفصل السادس



الفصل السادس
انتقال الورق وصناعته إلى أوروبا النصرانيَّة

«تعاقد ريبولي(Ripoli) الطبَّاع في عام ١٤٨٣م... على طباعةِ ترجمةِ مارسيليو فيسينو (Marsilio Ficino) لرسائل أفلاطون إلى اللَّاتينيَّة، بتكلفة ٣ فلورين (Flo-rin) لكل ٣٠ ملزمةً، ٩٠ فلورين للكل. وبما أن الطبعة كلها كانت تقتصر على ١٠٢٥ نسخة، وكل ملزمة كانت تشتملُ على أربع أوراق، فكان يجب أن تكون تكلفة الورق ١٢٠-١٦٠ فلورين، أي أغلى من تكاليف الطِّباعة الإجمالية».

Lucien Febvre and Henri-Jean Martin, *the Coming of the Book.*

مهَّد انتقالُ الورقِ وتقنيةِ صناعتِه من العالم الإسلامي إلى أوروبَّا النصرانية، في القرنين الخامس والسَّادس الهجريين/ الحادي عشر والثَّاني عشر الميلاديين، الطريقَ لثورةِ الطباعةِ في أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي. إلا أنَّ اختراع جوتنبرج لم يكن من الممكن أن يكون عمليًّا إن اقتصر -سواءً هو أو من جاء بعده من الطبَّاعين- على طباعةِ الكتبِ على الرَّق. ويُعتقد أن جوتنبرج طبَع ٢٠٠ نسخة من الكتاب المقدَّس، منها ٣٥ نسخة على الرَّق، و١٦٥ نُسخةً على الورق، ومع ذلك لم تصِلنا سوى ٤٠ نُسخةً فحسب من هذه الطبعة.

واستُخدمت المطابع المبكِّرة من نوع الأحرفِ المُتحرِّكة لإخراج طبعات تراوحت بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ نُسخة؛ ولكن بحلول عام ١٥٠٠م بلَغ عددُ النُّسخ في الطَّبعةِ الواحدةِ ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ نسخة -وهو رقمٌ مساوٍ لطبعاتِ العناوين العلمية الحديثة- في المتوسِّط. وطُبع الكتابُ المقدَّس باللغة الألمانية كاملًا لمارتن لوثر (Martin Luther) عام ١٥٣٤م في طبعةٍ بلَغت نحو ٤٠٠٠ نُسخة، ثم أُعيدَت طباعته مرات عدة. وبحلول القرن السَّابع عشر الميلادي، كانت مُعظم طبعات الكتبِ المُهمة تتراوح بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ نسخة، على الرغم من أن طبعات العناوين الدِّينية الشَّعبية تجاوزت هذا العددَ

علـى نحـوٍ مطَّـرد. وتطلَّب نشـاطُ الطِّباعة المزدهـر كمياتٍ هائلـةً من الورقِ، ونشَـطت شركاتُ صناعة الورق في جميع أنحاء أوروبا لتلبيةِ الطلب المُتزايد على الورق.

وجـاء اختـراعُ المطبعةِ من طرازِ الأحرف المتحرِّكة بعد خمسـة قرونٍ تقريبًا من أوَّل استخدام للورق في أوروبًا (في وقت ما قبل عام ١٠٠٠م). وانتشرت -إبان ذاك- صناعة الـورق تدريجيًـا من منطقـة البحر المتوسِّـط إلى ما وراء جبال الألب، وشـاع اسـتخدامُ السـجلَّات المكتوبة وغيرها من أشـكال التَّدوين على نطاقٍ أوسع، تمامًا كما جرَى عليه الأمر في أعقاب انتشارِ الورق في العالم الإسلامي. وتعلَّم الأوروبيُّون صناعةَ الورق من العـرب في الأندلس والمغرب وبلاد الشَّـام مُباشـرةً، وليس مـن الصينيِّين أو غيرهم من الآسـيويِّين في الشَّـرق. ما يعني أنه حتى القرن الثَّالث الهجري/ التاسـع عشَـر الميلادي كانت جميع الأوراق الأوروبية تُصنَع من الخِرق.

ولمَّـا أضحَـى الورقُ سـلعةً أساسـيةً فـي أوروبا، جـرى البحـثُ عن مصـادرَ جديدةٍ للأليـاف. وعلِم الأوروبيُّون في القرن السَّـابع عشـر الميلادي أن الورقَ في شـرق آسـيا يُصنع مباشرة من الأليافِ النباتيَّة، إلا أنهم لم يدركوا أهميَّة هذه المعلومات، بل اعتقدوا أنَّ الأمرَ لا يعدو كونه مجرَّد تقليدٍ محليٍّ للتِّقنية «الغربيَّة» في صناعةِ الورق.

وربما كان النَّساطرة أوَّل من عرَف الورق من النَّصارى الذين عاشوا في آسيا الوسطى قبل ظهورِ الإسـلام، لكن قلَّة أعدادِهم جعلت منهم جاليةً مهمَّشـةً، فيما تعلق بالطَّفرات التِّقنية. بيد أنَّ النصارى الذين عاشوا بين ظهراني المسلمين، أدركوا مزايا الورقِ بمجرد أن عرفـوه. وعلـى الرغـم مـن أن النَّصـارى -مثلُهـم في ذلك مثـل المسـلمين واليهود- أظهَـروا التـردُّد فـي البدايـةِ في نسـخِ كُتبِهم المقدَّسـة على هـذه المادة الجديـدة، إلا أنَّ المخطوطةَ النَّصرانيَّةَ اليونانيَّةَ التي نُسِـخت في دمشـقَ في عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م تُظهر أن استخدامَ الورق لم يكن مرتبطًا بالدِّين قطُّ (انظر: شكل ٢٥).

وجرت الاتِّصالات الدِّبلوماسية على نطاقٍ واسعٍ بين المسلمين والنَّصارى، وكذلك بيـن العلمـاءِ من الجانبين في القـرن الثَّالث الهجري/ التاسـع الميـلادي، وتحديدًا، بين العاصمةِ العبَّاسـية بغداد -حيث انتشَـر الورق سـريعًا- والعاصمة البيزنطيَّة القُسطنطينية (Constantinople). وكان ينبغـي علـى البيزنطيين أن يكونـوا على درايةٍ بالورقِ منذ وقتٍ

مبكرٍ، إلا أنهم كانوا يعانون نوعًا من أنواع رهابِ التقنية (*Technophobia*)، لذا لم يُستخدَم الورقُ في الدَّولة البيزنطيَّة قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ولم يجرِ استخدامُه هناك على نطاقٍ واسعٍ حتى أواخر القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وعلى النَّقيض من النَّصارى البيزنطيّين شرقي أوروبا، عرَف النَّصارى اللَّاتين جنوبي أوروبا صناعةَ الورقِ من خلال المسلمين في الأندلس وصِقلية، ثم صنَعوه بأنفسهم بهمَّةٍ بحلول القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وهكذا انتقَلت صناعة الورق من جنوب أوروبَّا إلى فرنسا وألمانيا شمالِ جبال الألب. وكان لإظهار أوروبَّا الغربيَّة الاستعدادَ التامَّ لاحتضانِ هذه التِّقنيةِ، وغيرها من التِّقنيات الجديدة في أواخر القرون الوسطى، والعمل على تحسينِها -وذلك على عكس الموقفِ البيزنطي المتحفِّظِ- تداعياتٌ بالغةُ الأهميَّةِ في القرون التَّالية.

الدولة البيزنطية

ليس ثمَّة أدلة على أنَّ البيزنطيّين صنَعوا الورقَ بأنفسهم، بل كانت الكتبُ البيزنطيَّة تُنسخ عادةً على هيئةِ الكُتبِ (Codices) على الرَّق، حتى بدأوا في استخدام الورق في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكانت الوثائق الرَّسميَّة أو القانونيَّة تُكتب عادةً على ورق البردي، ثم على لِفافات الرَّق لاحقًا.

ويعتقد معظمُ العلماء المُعاصرين أن الدَّولة البيزنطيَّة استوردَت جميع الأوراق التي استخدمتها -حتى بعد أن شاع استخدام الورق- أولًا من العالم العربي في غرب آسيا، ولا سيَّما بلاد الشام، ثم من إسبانيا النَّصرانية أو من إيطاليا لاحقًا. واتَّخذت الورقةُ العربيةُ أسماء (bagdatikón- bambůkinon- bombůkinon)، وهي أسماء استُمِدَّت من اسمي مدينة مَنْبِج (Mambij) وبغداد، على التَّرتيب.

وكما جرَت الحال في العالم الإسلامي، كان البيروقراطيُّون البيزنطيُّون أوَّل من أقبل على استخدامِ الورقِ. وأقدم مثالٍ محفوظٍ لوثيقة بيزنطية دُوِّنت على الورق هو مرسوم على هيئةِ لِفافة من الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (Constantine IX Monomachos) مؤرَّخٌ بعام ١٠٥٢م، ووصَلنا ما لا يقل عن ١٣ وثيقة أخرى كُتِبَت على

الـورق فـي القرن الحادي عشـر الميلادي. يتراوح قياسُـها عادة بيـن ٥ ,٦ أقدام (٢متر) طـولًا، ولكـن فـي بعض الأحيـان وصَلت إلـى ٢٣ قدمًا (٧ أمتـار)، حيـث لُصِقَت هذه الوثائق من أوراقٍ بلَغ عرضُها ١٤ : ١٦بوصة (٣٦: ٤٢سـم). ويُظهِر شـكلُ هذه الوثائق -الذي يُمكن مقارنته تقريبًا بهيئة الوثائق الفاطميَّة المُعاصرة المحفوظة في [دير سـانت كاتريـن] بجبـل سـيناء- أن البيزنطيّيـن والفاطميّيـن أظهـروا تقاربًـا واضِحًـا فـي أعمال الدَّواوين، كما أظهروا تقاربًا في الأعيادِ والاحتفالاتِ. وإذا كان يسعُنا التَّعميم، قلنا: إن هنالـك مـا يقربُ من ٦٠٠ وثيقةٍ بيزنطيَّـةٍ وصَلتنا، تعود إلى الفترة مـا بين القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين، وقد استُخدم الورق والرَّق في كتابتها بالسويَّة تقريبًا دون أن تَفْضُل مادةٌ مادةً أخرى.

وسـرَد جـردٌ أُجري علـى مكتبـة ديـر أطَّاليتيـس (Attaleiates) في القُسـطنطينية، عام ١٠٧٧م، ثمانية كُتبٍ نُسِخَت على الورق، وستة كتبٍ نُسِخَت على الرَّق، وهذا يشير إلى أن كلا المادَّتيـن جـرى اسـتخدامهما آنئذٍ. وربمـا رأى البيزنطيُّون المعاصـرون أن الرَّق أطـول عمرًا قياسًـا بالورقِ، فثمة وثيقة كتبتها الإمبراطـورة إيريني دوكينا (Irene Douka-ina) قُبيـل عـام ١١١٨م تنـصُّ على أن النسـخة الأصلية من ميثاق الدَّيـر ينبغي أن تُكتَب على الرَّق وتُحفظ في كنيسة آيا صوفيا (Hagia Sophia)، بينما يحتفظ الدَّير نفسُه بالنُّسخةِ الورقية من الميثاق.

وثَمَّ ما يؤكد هذا الاعتقاد، فهناك مخطوطةٌ مرقومةٌ بـ (Gr. 504) في الڤاتيكان، نُسِخَت في عام ١١٠٥م، ويُعتقد أنها أقدم مخطوطةٍ بيزنطيَّة مؤرَّخة على الورقِ، على الرغم من أن أجـزاء منها فحسـب هـي التي كُتِبَت على الورق (وتحديـدًا الأوراق من ٥ إلى ١١٥. ومن ١٥٧ إلى١٩٠)، أما ما تبقَّى من المخطوطة فقد نُسِخ على الرَّق. وربما عاد الحجم الكبيـر غيـر المعتـاد والنِّسـب التَّربيعية للوحـاتِ من الـورق (١٦×٢١بوصـة؛ ٢ ,٤٢× ٥٥سـم) -التـي اختَلفت في القَطعِ عن الـورقِ العربيِّ المعاصر- إلى مزجِ الورق والرَّق معًـا فـي كتـابٍ واحدٍ. وكان حجـمُ الرَّق -الأغلـى ثمنًـا- هو الذي حدَّد شـكل الكتاب. فكان خيارُ النَّاسـخِ قصَّ مزيدٍ من الأوراقِ المسـتطيلةِ لتتناسب مع حجم الكتاب، وربما عمِـل ذلـك علـى إهـدار مـا يقـرب من الثُّلـث مـن كل ورقـة اسـتُخدِمت في نسْخِ هذه المخطوطةِ.

وشاعت المخطوطاتُ المنسوخةُ على الورق -على نحو متزايد- في الدَّولة البيزنطية منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. ثم كُتِبَت على نحوٍ مطَّردٍ على الورقِ الإسباني والإيطالي بحلول أوائل القرن الثَّالث عشر الميلادي، ما يُشير إلى وجود مصادرَ جديدةٍ لتَوريد الورقِ إلى الدَّولةِ البيزنطيَّة. ومن جهةٍ، يمكن فهمُ هذا التَّغيير بوصفِه نتيجةً عامةً من نتائج الحروبِ الصَّليبيةِ وانعدام الأمنِ المستمرِّ في المنطقة، ما أدَّى -بلا شك- إلى انقطاع واردات الورقِ من الشَّام. ومن جهةٍ أخرى، يمكن فهمه على أنه نتيجةٌ محدَّدةٌ من نتائج الحملة الصَّليبيَّة الرابعة خاصةً، وذلك عندما غزا البنادقةُ القُسطنطينيةَ في عام ١٢٠٤م، فأضحى الورقُ الأوروبيُّ أكثر شيوعًا بعد أن استعاد البيزنطيُّون المدينةَ في عام ١٢٦١م. وأشارت وثيقةٌ كاتالونيَّة مؤرَّخةٌ بعام ١٢٦٠م إلى أن مدينةَ برشلونة صدَّرت «القماشَ الفَرنسي والزَّيتَ والورقَ» فضلًا عن أنواع أخرى من البضائع إلى القُسطنطينيَّة.

وأضحى الورقُ الحاملَ الرَّئيسَ للكتابةِ في الإمبراطوريَّةِ البيزنطيَّة بحلول النِّصف الثَّاني من القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أنَّ الورق الإيطالي هيمَن على السُّوقِ البيزنطي آنئذٍ، وهو الأمر الذي جسَّد التفوق التجاري الإيطالي، وتناقص الثَّروات، وتقلُّص حجم الإمبراطورية البيزنطية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ما جعَل من إنشاءِ مَصنعٍ للورقِ في القسطنطينية مشروعًا تجاريًّا غير ذي جدوى من الوجهةِ الاقتصاديةِ. بيد أن هذا الوضع سَرعان ما تغيَّر بعد الفتحِ العثمانيِّ للمدينةِ في عام ١٤٥٣م، عندما تأسَّس أولُ مَصنعٍ للورق في ضواحي «كاغدخانة»، ودخَلت المدينة التي عُرفت منذ ذلك الحين باسم «إستانبول» أخيرًا في عالم صناعة الورق.

وعلى الرَّغم من أنَّ وثائقَ الدِّيوان، بالإضافة إلى المخطوطاتِ اليونانيَّة التي كُتِبت في بلاط محمد الثَّاني في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كانت تُنْسَخ على ورقٍ أوروبيٍّ، صُنِع معظمُه في شمال إيطاليا، إلا أنَّ المتونَ العربيةَ والفارسيةَ في مكتبةِ محمد الثاني الملكية نُسِخت بالكُلِّية على ورقٍ صُنِع في غربي آسيا.

واختَفت صناعةُ الورق عمليًّا من مواقِعها التَّقليدية في الشَّام ومصر، في الوقت الذي تطوَّر فيه إنتاجُ الورقِ في إستانبول العثمانية. وعلى الرغم من أن العُثمانيِّين ربما أنشأوا مصانع لإنتاج الورق في بعض مدن الأناضول مثل أماسيا (Amasya)، فإنَّ أكثر الأماكن التي كان باستطاعة صُنَّاع الورقِ في إستانبول تعلُّم أصولِ حرفتِهم منها كانت مدن شيراز

وأصفهان وتبريز في فارس، والتي كانت تحت حكم التُّركمان آنئذٍ، والتي كانت مراكز لصناعةِ الورق وفنون الكتابِ، على الأقل منذ أواخر القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي، وازدَهرت تحت رعاية التُّركمان الآقويونلو (Aqqoyunlu) في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

واعتمَد الخطَّاطون العُثمانيُّون على الأسلوبِ الفارسيِّ المُتمثِّل في تَغريةِ الورق على نحوٍ كثيفٍ ليغدو أكثر صلابةٍ في مُنتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بدلًا من التَّغريةِ الخفيفةِ التي فضَّل الخطَّاطون العربُ صَقل أوراقهم بها. وتأثرت الزَّخارفُ العُثمانيَّةُ بالأسلوبِ الفارسي اللَّامع للزَّخرفة الذي تميَّز بالإفراطِ في التَّذهيب. والرَّاجح عندنا أن الحرفيِّين الفُرس جلبوا هذه التِّقنيات معهم إلى البلاطِ العُثماني، فقد هاجر الكتبةُ من بلاط التُّركمان الآقويونلو للعملِ في خدمة العُثمانيِّين في هذا التَّوقيت، ومن ثم جلَبوا الخطَّ الفارسيَّ المُميَّز، المعروف باسم «التَّعليق»، الذي استوعبه العُثمانيون جيدًا ثم حوَّلوه إلى الخطِّ الدِّيواني المُميز.

إسبانيا

على النَّقيض من البيزنطيِّين، أظهَر النَّصارى في شبه الجزيرة الإيبيرية حماسًا للورق، وهي شهادةٌ على تقاسم الثَّقافة المادية والتِّقنية في ظلِّ الخلافة الأُموية في الأندلس. وعلى هذا النَّحو أضحى النَّصارى الإسبان على درايةٍ جيدةٍ بالورقِ قبل عام ١٠٠٠م تقريبًا، وهو الوقتُ نفسه الذي بدأ المُسلمون فيه باستخدام الورق في كتاباتهم. ولما استولى النَّصارى على مناطقَ أوسع في شِبه الجزيرة بعد عام ١٠٠٠م زاد استخدامُهم للورقِ. وبوسعنا أن نلحظَ الاستخدامَ المتزايدَ للورق في المناطق الإسبانية بحلول القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مُتمثلًا في تعليق لـ

الورق الإسباني

يُشير عددٌ كبيرٌ من المخطوطات المحفوظة بدير سانتو دومينجو دي سيلوس (monastery of Santo Domingo de Silos) والمؤرَّخة بالقرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى أن الورقَ كان شائعًا في ذلك الوقت في الأندلس، على الرغم من أنه لم يُصنع هناك قبل أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ويتميَّز الورقُ العربي الأندلسي -كما درسه الباحث الكاتالوني أوريول ڤالس سوبيرا (Oriol Valls Subirà) عن كثبٍ- بألياف طويلةٍ مُغرَّاة بالنَّشا المصنوع من القمح أو الأرز، وبكونه مصقولًا، ويحمل علامة الزِّجزاج. أمَّا الخطوط الممدَّدة (laid lines)، من أثر شاشات قوالب صناعة الورق، فهي عبارة عن خطوطٍ مُتموجةٍ تتباعد على نحو غير منتظم، وبسُمكٍ متفاوتٍ، ما يُشير إلى أن القوالب افتقرت إلى الأضلاع التي كان من شأنها منح القالب ثباتًا في الأبعاد. فإذا ترهَّلت شاشةُ القالبِ غير المدعومة مع كثرة الاستخدام، أنتجَت صفحاتٍ أكثر سُمكًا في الوسط مقارنة بالحواف. ومع ذلك، فإن الخطوط الممددةَ التي خلفتها القوالب أيضًا، كانت مشدودةً ومتوازيةً دائمًا. ويبدو لنا أنها صُنعت من خيوطٍ مفتولةٍ من القُنَّب سبق قليُها في الزيت لضمان الصَّلابة؛ كما استخدمت الألياف النَّباتية وشعر الخيل في صنع شاشة القالب. وعادة ما تميَّزت الورقة الإسبانية بوجود عددٍ من الخطوط تراوح بين ١٠ إلى ١٥ خطًّا في البوصة الواحدة (٤ إلى ٦ خطوط في كل سنتيمتر).

وأصبحت صناعة الورق في بلنسية (Valencia) مهمَّةً للغاية، إلى حدِّ أن الملك خوامي الأول=

بيتـر الموقَّـر (Peter the Venerable)، وهـو رئيـس ديـر البندِكتيـن (Benedictine) فـي كلوني (Cluny) بفرنسـا، بعـد عودتِه من رحلةٍ إلى سانتياجو دي كومبوستيلا (Santiago de Compostela) في عام ١١٤١م. وكان بيتر -الذي كُلِّف بترجمةِ خمسة كتبٍ عربيَّةٍ، وعلى رأسِـها القُرآن- يعرف الكثيرَ عن الإسـلام. وعلى أية حال فبعد أن هـالَ بيتـر إقبـال رهبان أديـرة كلونيـاك (Cluniac) في إسبانيا على استخدام الورقِ، أعرَب عن اشمئزازِه منهم بقوله:

«[يقـول اليهـود:] إنَّ الله فـي عُـلاه يقـرأ التَّلمـود. ولكـن أي نوع من الكُتبِ هذه؟! إنها تُشـبه في المظهرِ تلـك التـي نقرأهـا كل يـوم، والتـي تُصنـع مـن جلـودِ الكِبـاش والماعـز والبقر [يعنـي الـرَّق]، أو لِحاء نبات البـردي [يعنـي ورق البردي] المقطوع من مُستنقعاتِ الشَّـرق. ومـع ذلـك، فـإنَّ هـذه [الأوراق] تُصنـع مـن الخِـرق القديمة، أو ربما من أشـياء أكثر قذارةً منها؛ ثم يكتبـون عليها بمـدادٍ كَريهٍ، وباسـتخدامِ أقلامٍ مصنوعةٍ من ريش الطيورِ أو قصبِ المُستنقعات!».

لـم يكـن لقـولِ بيتر تأثيـرٌ يذكر على اسـتخدام الورق لحسـنِ الحـظ، بل سَـرعان مـا أصبح الورق المـادة المفضَّلـة للكتابة في القرون التَّالية في إسـبانيا وأماكن أخرى في أوروبَّا، ولا سيَّما في كتابةِ الوثائق والسِّـجلات، ولنسـخ الكتبِ إلى حدٍّ ما. وازدهرت صناعة الورق في بَلنسـيَة (Valencian)، التي تمركزت في شـاطبةَ (játiva)، حتى طغَى الورقُ الإيطاليُّ على الورقِ الإسباني ودحَره في عقرِ دارِ٣ه في القرنِ الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

وبلَـغ قيـاسُ الـورقِ الشَّـاطبي عـادةً ٥,١١×١٦-١٩بوصـة (٢٩×٤٠-٤٧سـم). وتفاوتت أحجامُ قَطع الورقِ إلى حدٍّ كبير، إذ لـم تكـن هنـاك حاجةٌ لعمـلِ ورقٍ من قطـعٍ قياسـيٍّ قبل عصرِ الطِّباعة؛ لذا حتى الأحجام «القياسـية» التي نوقشت في المصادر

(Jaume I) أصـدر مرسـومًا يقضي بحظرِ بيـع الخرق فـي الأسـواق لتجار بيربيجنان (Perpignan) في عام ١٢٧٤م. كما فـرَض الملك خوامي الثانـي (Jaume II) حظرًا على تصدير الـورق إلى فرنسـا ضمـن عـددٍ من الصَّـادرات الأخـرى، بعـد تصاعُـدِ الخـلاف بينه وبيـن ملك فرنسـا في عام ١٣٠٦م.

ويُظهـر عـددٌ كبيـرٌ مـن الوثائـق العائـدة إلـى أواخـر القـرن السَّـابع الهجري/ الثالـث عشـر الميـلادي أن الـورقَ صُـدِّر من شـاطبة (Játiva) إلى صِقلية والدولـة البيزنطيَّة فضلًا عـن أقطارٍ أخرى. وتُثبت مخطوطة القسطنطينيَّة المؤرَّخة بالقرن السَّابع الهجري/ الثالث عشـر الميـلادي، والتـي نُسِـخَت علـى ورق عليـه علامـة الزجـزاج الإسـبانية المُميزة، أنَّ الورق الإسـباني شقَّ طريقَه حتى العاصمة البيزنطية.

وجـرَت عدة تغيُّرات علـى الورقِ الإسباني قـرب نهايـة القرن السَّـابع الهجري/ الثَّالـث عشـر الميـلادي، فقـد أصبحـت الخطـوطُ المُمـدَدةُ مُتوازيةً وأكثر انتظامًا، ما يشير إلى أن تحسـنًا جرى على صناعةِ القوالب. وغـدت الأليـاف -التي استُخرِجت على نحو أساسي من الكتان مع قليل مـن القُنَّب- أقصر بكثيـر، كما غدَت تُخفَـق على نحوٍ أفضل من ذي قبل، مـا يُشير إلى أنَّ المسـاحِق المعدنيَّة التـي أضيفت إلـى نهايـاتِ المطارق الخشـبيَّة لخفق اللُّـب أصبَحت أكثر كفـاءةً. وظهَـرت العلامـات المائيـة الكاتالونيـة الأولى في أواخـر القرن السَّـابع الهجري/ الثَّالـث عشـر الميلادي، أي في الوقت نفسـه الذي ظهـرت فيـه العلامـات المائيـة التـي ميَّـزت الـورق الإيطالي المصنوع في فابريانو (Fabriano).

العربيـة الكلاسـيكية كانـت تقريبيَّـةً فحسـب، إذ اتَّخـذت كل ورقـةٍ حجـم القالب الذي صُنِعت فيه بطبيعة الحال، ولكن يبدو أنَّ الاختلافَ بين القوالب الفردية -ولو كان بضع بوصـات- كان أمـرًا مقبـولًا تمامًا، وقد استُوعِبَت هذه الاختلافات بسـهولةٍ على أيدي الورَّاقيـن والنُّسَّـاخ ومجلِّـدي الكتب. وعمل توحيـد قطع الورق -بـدورِه- على توحيد قطعِ الكتاب، ورافق تطوُّرَ الكتابِ المطبوعِ، وأضحى تقليدًا ترسَّخ في المُستقبل.

وبيعت الورقةُ الأندلسيَّةُ في أوراقٍ وملازمَ، بل في شـكل كُتبٍ فارغة مجلَّدة أحيانًا، وصُـدِّرَت إلى منطقة البحر المتوسـط بأكملها، بما في ذلك ميورقـة (Majorca) وإيطاليا والمغرب وتلمسـان (الجزائر) وتونس وأثينا والدَّولة البيزنطيَّة وصِقلية ومصر. ويشـهدُ العددُ الكبيرُ من الوثائق المدوَّنة على الورق المحفوظة في أرشيفات تاج أراغون (crown archives of Aragon) -وهي واحدةٌ من أكبر الأرشيفات الأوروبيَّة في القرون الوسطى، بل وشـمال إفريقيا أو غرب آسـيا- على القبولِ السَّريع الذي تمتَّع به الورق في إسـبانيا النَّصرانيَّـة. وأقـدم ورقـة قابلة للتَّأريخ هي شـذرةٌ من الورقِ المصنوعِ مـن خِرق الكتَّان، نُسِـخت عليهـا وثيقـةٌ كانت مُدوَّنةً على الـرَّق من قبل، وهي مؤرخة بعـام ١١٧٨م. وثَم مئات الوثائق التي دُوِّنَت على الورق وصَلتنا بعد ذلك التاريخ. ليتَ شعري، لِمَ انتشرت صناعةُ الورق بهذه السُّـرعة في مناطق شـبه الجزيرةِ الإيبيريَّةِ، فغدَت -على هذا النَّحو- تحت سيطرةِ النَّصارى دون المُسلمين؟

أضحَى المسـلمونَ يعيشـون تحت حُكم النصارى كلَّما توسَّعت الرُّقعة التي استولى عليها الأخيرون في شـبه الجزيرةِ. وظل المسـلمون -وهـم الذين عُرِفوا في التَّاريخ باسم «الموريسـكيِّين» (Mudejars)- يمارسـون حِرفَهم التَّقليدية في ظلِّ حكم النَّصارى، بما في ذلك صناعة الورقِ. ولكن ذلك لا ينهضُ وحدَه لتفسـير ظاهرةِ انتقال صناعة الورق إلى مناطقَ جديدةٍ في شبه جزيرة إيبيريا.

في هذا الصَّدد ذكر أحدُ الباحثين -وهو أوريول ڤالس سوبيرا (Oriol Valls Subirá)- أن المُرابطين (٤٤٨-٥٤١هـ/ ١٠٥٦-١١٤٧م) والموحِّدين (٥٢٥-٦٦٨هـ/ ١١٣٠-١٢٦٩م) -وهي دولٌ إسـلاميةٌ قامت على أُسسٍ أُصوليَّةٍ، وسـيطرت على جنوبِ شبه الجزيرة- اشـتدُّوا في اضطهادِ المُسـلمين الخارجين عليهم، ومـن جُملتِهم بعض صُنَّاع الـورق، وأدَّى هـذا الاضطهـادُ إلى هجراتٍ واسـعةٍ مـن جانب المسلمين الذين فضَّلوا

الاستقرارَ في ممالك الشّمال النّصرانية. إن كان هذا الرّأي صحيحًا، فقد أنشأ أولئك اللاجئون مصانعَ جديدةً للورق في مناطق مثل كاتالونيا (Catalonia) وبلباو (Bilbao) في وقتٍ مبكرٍ من القرن السّادس الهجري/ الثّاني عشر الميلادي.

ويستندُ هذا الرأي إلى ذكرِ المصادر المعاصرة لوجودِ عددٍ كبيرٍ من الدّواليب التي كانت تعمل بقوةِ تيار الماء، والتي ضُرِب فيها الصُّوفُ فيها لتخفيفِ اللُّبود. ويرى سوبيرا أن هذه المصانع كانت في الحقيقةِ مطاحنَ لخفقِ اللُّبِّ. وحتى لو كانت قد أُنشِئت بغرضِ تخفيف اللُّبود، فقد كان يَسَعُ أصحابها تحويلها بسهولة للعملِ في خفق خِرق الكتّان بدلًا من الصُّوف. لكن نظرية سوبيرا لا تكاد تصمُد أمام النَّقد.

تقترحُ نظريَّةٌ أخرى أنه ما أن استولى الملك خوامي الثّاني (jaume (James) II of Aragon) ملك أراغون على ولاية بلنسيَة ولا سيما مدينة شاطبةَ (Jativa) في منتصفِ القرنِ السّابع الهجري/ الثّالث عشر الميلادي، حتى اقتضى توسُّع الإدارة البيروقراطيّة -في المناطق التي أضحَت مستوطناتٍ نصرانيّةً آنذاك- زيادةَ أعمال التّوثيقِ والسجلّات، وهو الأمر الذي أدّى -بدوره- إلى زيادةٍ كبيرةٍ في أعداد الوثائقِ والسجلّات، ومن ثَمَّ زاد الطلبُ على الورقِ. واستمرَّ مسلمو شاطبةَ في صناعةِ الورقِ، مثَلهم في ذلك مثَل المسؤولين وصُنّاع السجّاد وسائر ساكنةِ بلنسية الذين استطاعوا تأمين مواقعِهم وممتلكاتهم في ظلِّ حكم النَّصارى آنذاك. وكانت صناعةُ الورقِ حرفةً منزليةً عندما كانت المدينة تحت سيطرةِ المُسلمين، ولكن ما إن أضحَت المدينة تحت سيطرةِ النَّصارى، حتى خضَعت تلك الصناعةُ تدريجيًّا لسَيطرةِ التاج مباشرةً. أو هكذا تذهبُ تلك النظرية.

وعلى هذا النَّحو طبّق صُنّاعُ الورقِ المسلمون ثم النَّصارى

تقنية شد الأسلاك

تطلَّبت صناعةُ الورق النّاجحة صناعةَ قوالبَ قويّةٍ، إضافة إلى كمياتٍ وفيرةٍ من المياه النَّظيفة، فضلًا عن كميّاتٍ كافيةٍ من الخِرق لصنع لُبّ الورق، والطّاقة المائية لتشغيلِ الدُّولاب أيضًا. وفي البداية؛ كانت المصافي، أو أغطية القوالب، أو الشّاشات تُصنَع من موادَّ عضويةٍ، مثل: الخيوط المفتولة من القُنّب أو الخيزُران على سبيلِ المثال. بيد أن صنّاع الورق الأوروبيّين استخدموا أسلاكًا رفيعةً ومرنةً من الحديد أو من سبائك النُّحاس. ثم سَرعان ما هجروا الحديد لما أَلِفوه يصدأ سريعًا بسبب تعرضه للماءِ. ورُبما قُطِعت الأسلاك الأولى التي صنعت منها أغطية القوالب من صَفائح معدنية طُرقت حتى تشكلت على هيئة القِرص، وفي الأخير تشكَّل السِّلك عن طريق سَحْبِ الشَّريط الرَّفيع من خلال سلسلةٍ من القوالبِ المعدنية الصَّلبة، وكانت تلك القوالب ذات ثقوبٍ صُنِعت بحيث تناقصت أقطارها تدريجيًّا. ومن ثم نَتج عن كل عمليةٍ سَحبٍ جرَت عبر ثَقبٍ خروج سلكٍ أرقَّ وأطولَ.

وكتَب قسٌّ يدعى ثيوفيلوس (The-ophilus Presbyter) -عاش في شمالي غرب ألمانيا نحو عام ١١٠٠م- واحدةً من أقدم الرّسائل في تقنيةِ سحبِ الأسلاك، وهي الرّسالة المُسماة (Deiversis artibus). =

-بتَشجيعٍ من الملك النَّصراني- تقنياتٍ جديدةً في صناعةِ الورقِ، منها طاحونة المطرقة المحسَّنة التي تعمل بقوة جريانِ المياه لخفقِ اللُّبِّ إلى حدٍّ جعلِه كالعجين، أو قوالب الورق المحسَّنة المزودة بالأسلاكِ النُّحاسية لجعل الورقِ أعلى جودة وأكثر تناسقًا. وهكذا تدفَّق الورقُ الذي أُنتِج عن طريق استخدام هذه التقنيات الجديدة على أسواق المدينة رخيصًا، ومن ثم أحدثَ تطورًا ثوريًا في حفظِ سجلَّات التاج؛ وذاك لأنه شجَّع البيروقراطيِّين على حفظ نُسخٍ ورقيةٍ رخيصةٍ من الوثائق، أطول عُمرًا من الرَّق.

لا تنسجِم هاتان النَّظريتان -للأسفِ- مع الحقائق تمامًا. فعلى الرغم من أنَّ أرشيف الملك خوامي يعكسُ بلا شكٍّ أوَّل استخدام حكوميٍّ مُنظَّمٍ للورق في أوروبا النَّصرانية، إلا أن الملك ألفونسو الملقب بـ حكيم قشتالة (King Alfonso the Wise of Castile) استخدَم الورقَ أيضًا، ولكنه قصَر استخدامه على فئاتٍ أقل من الوثائق، مثل الأذونات التِّجارية والسجلَّات الماليَّة الرُّوتينية والمراسلات البريدية وجوازات السَّفر. هذه واحدة؛ أما الثَّانية: لا يسعُنا الجزم بأنَّ الورق الذي صُنع في شاطبة تحت حكم النصارى كان أكثر جودة من الورقِ الذي صنَعه المسلمون في السَّابق في أماكنَ أخرى. وتُشير معظم الرِّوايات والنَّماذج إلى أن الورق الذي صنَعه مسلمو الأندلس كان مضرب المثل في الجودة العالية دائمًا، بل كان أجود كثيرًا في الواقع من تلك التِّقنية التي عرَضتها الرسالةُ المُشكِلةُ التي تناول فيها [المعزُّ] ابنُ باديس صناعةَ الورقِ في المغربِ، (راجع في ذلك الفصل الثالث من هذا الكتاب).

أما الثَّالثة: لم تكُن مطاحن المطرقة المائيَّة العاملة بقوَّةِ جريان تيار الماء اختراعًا يُنسَب للنَّصارى الإسبان؛ فقد عُرِفَت مثل هذه

واشتُهرت مدينة نورمبرج (Nurem-berg) -الواقعة على نهر بيجنتس (Pegnitz) على مقربةٍ من المناطق الغنيَّة بالمناجمِ التي استُخرِجت منها المعادن- بوصفها مركزًا ألمانيًّا للتَّعدين وصناعة المعادن منذ أوائل القرون الوسطى، وصدَّرت منتجاتها إلى جميع أنحاء أوروبا. وصُنِعت سبائكُ النحاس في نورمبرج بحلول عام ١٣٧٣م. وفي القرن الخامس عشَر أصبَحت تلك المدينة المركز الرَّئيس لإنتاج النُّحاس والنُّحاس الأصفر في أوروبا قاطبةً. وتحتوي مخطوطةٌ نُسِخَت في نورمبرج مؤرخة بنحو عام ١٣٩٠م -وهو الوقت نفسه الذي أسَّس فيه أولمان ستروَمر مصنعًا لإنتاج الورقِ الذي عُرِف باسمه ثمَّة- على رسمٍ توضيحيٍّ لعمليَّة سحب الأسلاك. وبعد بضع سنوات، ابتكر عمَّال المعادن في نورمبرج في مستهلِّ القرن الخامس عشر، طريقةً جديدةً لسحب الأسلاك عن طريق استخدام الطَّاقة المائية، بدلًا من استخدام البشرِ لعضلاتهم على نحوٍ خشِن. ومن ثم أعطت التِّقنية الجديدة دفعةً قوية لصناعة الورق هناك من خلال صُنع قوالب قوية وبطريقةٍ أسهل وأرخص.

المطاحـن منـذ قرونٍ في العالم الإسـلامي، وربما أُدخِلَت إلى شـبه الجزيرة الإيبيرية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي مع زراعة الأرُزِّ هناك؛ ذلك أن الحاجةَ مسَّـت إليها لضربِ الأرُزِّ للتخلُّص من القُشـورِ دون طحنِ الحبوبِ. ولكن الأوروبيِّين، مـن دون شـك -ولا نعني أهلَ بلنسـية وحدهم- بل الإيطاليُّون والألمـان لاحقًا تمكَّنوا جميعًا من تَسـخير قوة جريانِ الماء على نحوٍ أكثر كفاءةً مقارنةً بسـكَّان غرب آسيا وأهل المغـرب، ويرجِـع ذلك -في المقـام الأول- إلى أنهم اسـتخدموا الدَّواليبِ المائيَّة ذات الدَّفـع العلـوي (overshot waterwheel) لتزويدِ مطاحِنهم بالطاقـة[1]. وإضافةً إلى ذلك، فقـد تمتَّعـت أوروبَّـا بمناخٍ أكثـر رطوبةً وتضاريـس أكثر وعورةً من معظـم الأراضي في العالـم الإسـلامي، لذلك كان هنـاك عددٌ أكبر من المجـاري المائية متاحًـا على الدَّوام، وتميَّز جريان الماء فيها بالقوة والسُّرعة، وعلى هذا النَّحو وفَّرتِ المجاري المائيَّة مزيدًا مـن الطَّاقـة لتَشـغيل المطاحن. ثم قـام الأوروبيُّون أيضًا بتحسـينِ تَصميـم المطارِق من خلال وضعِ أغلفةٍ حديديةٍ مُسنَّنةٍ على رؤوس المطارقِ الخشبيَّة.

أمـا الرَّابعـة: لم يكن التحسُّـن الملحوظ في جودةِ الورق الشَّـاطبي في القرن السَّـابع الهجري/ الثالث عشـر الميلادي ظاهرةً معزولةً، بل كانت جزءًا من ظاهرةٍ عامَّةٍ واسـعةِ النِّطاق؛ وذاك لأن التحسُّـن في صناعةِ الورقِ أيضًا كان ملحوظًا في الطَّرف المقابل من البحرِ المتوسِّـط، وفـي فـارس في القـرن السَّـابع الهجري/ الثالث عشـر الميـلادي، ثم العـراق، كمـا أصبح ورقُ مصرَ أكثر بياضًا ونعومةً، وأكثر اتِّسـاقًا من جهة السُّـمك. وقد تفاوض الملك خوامي الأراغوني على التحالُفِ مع المغول، بينما كان جنكيز خان يفكِّر فـي اجتياح أوروبَّا، الأمرُ الذي يُشـير إلى إمكانيَّـة وقوع اتصالاتٍ من نوعٍ ما بين أطرافٍ فصَلت بينها مسافاتٌ شاسعةٌ.

ويرجِـع تاريخُ ظهور أوَّل ورقةٍ إيطاليَّةٍ في أرشـيف أراغون إلى عام ١٢٩١م، أي بعد فتـرةٍ وجيـزةٍ مـن بدء الإنتـاج الإيطالي للـورقِ بكمياتٍ تجاريـةٍ. وأدَّى الازدهـار الهائل لصناعة الورقِ الإيطاليَّة إلى اضمحلال إنتاجِ الورقِ في شبه جزيرة إيبيريا والمغرب على

---

(١) تقدَّمـت إشـارة المؤلـفِ إلى أن هذا النَّوع مـن الدَّواليب المائية كان يُنتج ثلاثةَ أضعـاف الطاقة التي كانت تُنتجها الدَّواليب سُفلية الدَّفع، أو تلك التي تدور بفعل الطَّاقةِ الكامنةِ في الماء والتي انتشر استخدامها في فارس خاصَّةً. راجع التَّعليق العرضي بعنوان المطاحن في الفصل الثاني. (المترجم)

حدٍّ سواء. وبحلول مُنتصف القرن الرابع عشر الميلادي أخذ الناس يجأرون بالشّكوى من تدنّي مُستوى ورق شاطبةَ في الجودةِ والحجم مُقارنةً بنظيرِه الإيطالي، ولكن دون جدوى. وهكذا سيطَر الورقُ الإيطالي على سوقِ الورقِ في إسبانيا، ولم يعُد بإمكان أحدٍ فعلُ شيءٍ لتَصحيحِ ذلك الوضع. وعلى هذا النّحو ولّى عهد الازدهارِ القصيرِ لصناعةِ الورقِ في إسبانيا وأضحى جزءًا من الماضي. بيد أن كلمة (*Ream*) الإسبانيّة المستمدَّة من الكلمة العربية «رِزمة» والتي دخَلت اللغات الأوروبيّة عن طريق الإسبان، ظلّت تُراثًا يُذكِّر بالدّورِ المهم الذي لعِبته إسبانيا في تاريخ صناعة الورقِ.

إيطاليا

أدخَل العربُ الورقَ إلى صِقلية في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ولكن المراكزَ الرئيسَة لصناعةِ الورقِ الإيطاليّة تطوَّرت في أماكنَ أُخر في القرونِ التّالية. واشتركت صِقلية في التُّراث الثقافي ونُظم الحكم مع المغرب منذ عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧م، وهو العامُ الذي شهِد فتحَ العربِ للجزيرة، حتى أحكمَ النُّورمان سَيطرتهم على الجزيرةِ على نحوٍ كاملٍ في عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م. وبعد أن أسَّس النُّورمان مملكتَهم في صقلية ظلَّ عددٌ كبيرٌ من أهل الجزيرةِ ينظرون إلى الثَّقافة العربيَّة الإسلامية للمغرب بوصفها ثقافةً جديرةً بالمحاكاة. وعلى الرغم من أنَّ سُكان المغرب كانوا أبطَأ من غيرهم في قبولِ الورق، إلا أنهم أدخلوا صناعةَ الورقِ إلى صقلية في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وأقدمُ وثيقةٍ كُتِبت على الورقِ وصَلتنا من صقلية هي أمر من أديلايد (Adelaide)، أرملة الملك النُّورماندي روجر الأول (Roger I)، وهي مؤرَّخةٌ بعام ١١٠٩م، كُتِبَت باللُّغتَين اليونانية والعربية. وتُشبه الوثيقةُ في هيئتها الورقَ العربيَّ المعاصرَ، ما يُشير إلى أن الورقة ربما كانت مستوردةً من المغرب.

لم يكن أمر أديلايد يعكسُ أوَّل استخدامٍ للورقِ في صِقلية بحالٍ من الأحوال؛ وذاك لأنَّ الوثائق السَّابقة القليلة والمعاصرة المؤرَّخة بعام ١٠٩٧-١١٠٢-١١١٢م كُتِبَت أيضًا على الورق، على الرغم من أنها نُسِخَت على الرَّق أيضًا لضمانِ حفظها في عام ١١١٤م بناءً على أوامر صدَرت من الملك روجر الثَّاني (Roger II).

وبعـد نحـو ثمانين عامًا، وتحديدًا في عام ١٢٢٢م، أصـدَر الملكُ وليام الثاني (William II) عـدَّة وثائق مدونةٌ على الورق، وهـي مؤرَّخة بأعوام ١١٦٨-١١٧٠-١١٨٧م. ثم أمَر بنسخِها على الرَّق لاحقًا لدوام حفظِها. وفي عام ١٢٣١م حظَر الملكُ فريدريك الثاني (Frederick II) -ملك نابولي وصقلية- استخدام الورقِ في كتابةِ الوثائق العامةِ في نابولي (Naples) وسورِّينتو (Sorrento) وأمالفي (Amalfi) بسبب سرعةِ تلفِه.

ولـم يصنَـع أهلُ صقلية الـورقَ -مثلُهم في ذلك مثَـلُ البيزنطيِّين- بل اسـتوردوه من المغـربِ أو الأندلس ولا سـيَّما بلنسية. وعرفـوا الورقةَ منذ البداية باللغةِ اللاتينيَّةِ باسـم (*carta* cuttunea)، «أي البـردي القُطنـي»، وربمـا تُرجِمَـت للغـة اليونانيـة البيزنطيَّـة إلى (*charta* bomycina)، وكانـت ثقافـةُ النُّورمـان مـن أهـل صقلية مُشـرَّبةً -إلى حـدٍّ كبيرٍ- بالثَّقافة البيزنطية.

واسـتخدَم أهـلُ صِقليـة وجنوب إيطاليـا الورقَ الإسـبانيَّ بحلول النِّصـف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بشكله المميَّز بوجود الزِّجزاج، لنَسخ المخطوطـات التـي دوَّنوهـا باللغة اليونانيَّة. وبوسـعنا القول: إنَّ سـكَّان وسـط وشـمال إيطاليا لـم يستخدموا الورق قبل مُنتصفِ القرن السَّادس الهجري/ الثَّاني عشر الميلادي تقريبًـا، وذلـك عندما بدأ كتَّابُ العدل في جنوة تسـجيل أعمالِهم الرَّسـمية في سـجلَّات قِوامها من الورقِ. وتزامن ذلك مع نزعةٍ استهدفت إحياءَ المُمارسات القانونية الرُّومانية فـي التجـارة والقانون المَدنـي بصفةٍ عامةٍ، فأحيا الأيطاليون مؤسسـةَ كاتـب العدل التي اختفت من شمال إيطاليا وجنوب فرنسا منذ العصر الرُّوماني، إلى جانب تحكيم القانون الرُّومانـي فيمـا شـجَر بينهـم من خلافـاتٍ. وعلى هذا النَّحـو تزايدت مُعـدلاتِ «توثيق» الأَيمـان والوصايـا والإجـراءات القضائيـة والعقـود التِّجاريـة والمالية فضلًا عـن عقودِ الـزَّواج. وكان الـورقُ هو المادة التي اسـتخدمها كُتَّابُ العدلِ بصفـةٍ دائمةٍ تقريبًا، حيث كانت أرخصَ من الرَّق، ويسهل الرُّجوع إليها؛ ربما لأنَّ الأوراق اصطفَّت في السجلَّات على نحو مُسطَّحٍ تمامًا وأكثر ضَغطًا مقارنةً بالرَّق أو غيره من حَوامل الكتابةِ.

وهكذا أسـهم النِّظامُ الجديدُ من سـجلَّات التَّوثيق التي تطوَّرت في إيطاليا في القرن الثَّاني عشـر الميلادي في زيادة اسـتخدام الورقِ هناك. كما تسـبَّب الاستبدالُ التَّدريجيُّ للرَّق بالورق -وهو أكثر هشاشةٍ- في اختفاء أختام الرصاصِ أو الشَّمعِ التي كانت تُثَبَّت

على الوثائق بواسطةِ حبالٍ أو شرائطَ مُترابطةٍ من خلال ثقوبٍ في جلد الرَّق. وبوصفه إجراءً بديلًا خُتِمَت جميعُ وثائق الدَّولة -باستثناء أهمها- على الورقِ بكُتَلٍ من الشَّمع وباستخدام خاتَم.

أمَّا عن السجلِّ الأشهرِ الذي وصَلنا من هذه الحقبة فهو سجلُّ كاتب العدل جيوفاني سكريبا (Giovanni Scriba)، والذي غطَّى العقدَ الذي امتد من ديسمبر ١١٥٤ إلى أغسطس ١١٦٤م مع وجودِ بعض الثَّغرات. وربما كان الورقُ الذي استخدمه سكريبا مستوردًا من إسبانيا أو المغرب. وبصفةٍ عامة كان الورقُ أرخصَ من الرَّق، لكنه لم يكن رخيصًا في أعينِ النَّاسِ آنذاك؛ وذاك أنَّ آخر الأوراقِ في سجلِّ جيوفاني هي بقايا لِفافةٍ كُتِبَت بالعربية مع ترجمةٍ لاتينيَّةٍ لمُحتواها، وقُطِعَت بالفعل إلى أوراق وأُعيد استخدامُها من قبل كاتب عدلٍ معاصرٍ. وعلى الرغم من أنَّ الشكل يُشبه تنسيقَ الأوراق المستخدمةِ سابقًا، فقد دفَعت بعض الخصائص الفنِّية العلماء إلى اقتراح أنَّ هذه الأوراق الرَّقيقة نوعًا ما إمَّا صُنِعَت في مكانٍ ما شرق البحر المتوسِّط، أو في المنطقةِ التي تضمُّها الآن الحدودَ السياسيَّة لتونس الحديثة.

وثَمَّ سجلاتُ عدلٍ موثقةٌ أخرى تعودُ إلى أواخر القرن الثَّاني عشر الميلادي وهي على نَسقٍ أكبر قليلًا، ويُشير وجود الزِّجزاج إلى أن الورق صُنِع في مكانٍ ما في إسبانيا. وهذه الفرضيَّة مدعومةٌ بوثائقَ عديدةٍ تعود إلى القرون الوسطى، وتذكر شحناتِ الورقِ المصدَّرةَ إلى إيطاليا من برشلونة وبلنسيَة. وعلى الرَّغم من أن جُنوة ربما استوردت الورق من ميناءٍ كان يقع غرب البحر المتوسط، فإنَّ الرَّوابط الدِّبلوماسية والتجاريَّة القوية التي ربطتها بالدَّولة البيزنطيَّة -التي استخدمت الورقَ في الدَّواوين منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي- ربما أسهَمت أيضًا في إقبالِ أهلِ جُنوةَ على استخدامِ الورق. وعلى مدار القرنِ الثَّاني عشر الميلادي دخَلت جنوةُ في علاقاتٍ تجاريَّةٍ مع بيزنطة في عام ١١٤٢م، وفي عام ١١٥٥م جرَى إعلان التحالُف الرَّسمي بين الدولة-المدينة -أعني جُنوة- وبين الإمبراطورية البيزنطيَّة.

ويُشير انخفاضُ جودةِ الورقِ المستخدمِ في أرشيف جنوة إلى أنَّ الورق قد تم تصنيعه لأول مرة في شمال إيطاليا في أوائل القرن الثَّالث عشر الميلادي. وحمَل الورقُ المُستخدَم نحو عام ١٢١٥م أوجه شبه عديدة بالورقِ الإسباني، ولكن اللُّبَّ لم يكن

مخفوقًا على نحوٍ جيدٍ، وكذلك ظهَرت خطوطُ القالب الذي صُنِعَت فيه الورقة سَميكة ومُتباعدة على نحوٍ غير مُتّسقٍ، والورقة نفسها شابها بعض الخشونةِ. وبحلول مُنتصف القرنِ نفسه، أضحَتِ الأوراق أكبر حجمًا وأكثر بياضًا وأكثر رقَّة إلى حدٍّ ما. ويبدو لنا أن كلًّ من صنَع الورق كان يتحسَّن بسرعةٍ في تقنيةِ صناعتِه.

كان ساحل ليغوريا (Ligurian coast) -بالقرب من جُنوة- هو المنطقة الوحيدة في شمال إيطاليا التي نعرف أنَّ الورق قد صُنِع هناك قبل عام ١٢٥٠م. ففي عقدٍ مؤرَّخ بـ ٢٤ حزيران/ يونيو من عام ١٢٣٥م وافَق الإنجليزي جوتيير (Gautier) على صُنع الورقِ بالتَّعاون مع مِنسِيس اللُّوقاسي (Mensis of Lucques) وتعهَّد بألَّا يُعلِّم أيَّ شخصٍ آخر الكيفية التي يُصنَع بها الورق. وبعد عشرين عامًا، وتحديدًا في ١٨ من مايو من عام ١٢٥٥م أسَّس ميشيل ترافيرسو (Michele Traverso) من ميلان وجيوفاني من سانت أولسيز (Sant' Olcese) -وهي قرية كانت تقع بالقرب من جنوة- شركةً لتجارةِ الورق.

كان إنتاج ليغوريا قصير الأجل، ومع ذلك، كانت بلدة فابريانو (Fabriano)، في ماركي-أنكونا (Marche of Ancona)، في وسط إيطاليا، قد نجَحت في صناعة الورق في مُنتصف القرنِ الثَّالث عشر الميلادي، ولم تزل تُشتَهر بصناعةِ الورقِ بعد أكثر من سبعةِ قرونٍ. وثَمَّ وثيقةٌ مؤرَّخةٌ بعام ١٢٦٤م اكتُشِفت في محفوظات بلدة ماتيليكا (Matelica) -القريبة من فابريانو- تؤكِّد أن الورقَ قد صُنِع هناك وبِيع أيضًا في ذلك التاريخ. وربما كانت أولى محاولات صناعةِ الورق في فابريانو مُستوحاةً من إنتاج ليغوريا، ولكن يبدو أن صُنَّاع الورق في فابريانو استخدموا تقنيةً مختلفةً إلى حدٍّ ما. ويُعدُّ ورق فابريانو أقرب إلى الورقِ الذي صنَعه

الخطوط الممدَّدة والخطوط المتسلسلة

سواءٌ صُنِعت شاشات القوالب من شرائط من الخيزران أو المعدن، أو أيًّا كانت المادة التي صُنعت منها تلك الشَّاشات في القالب التَّقليدي، فإن الورقَ المصنوع في القالب كان يعرضُ نمطًا مميزًا من الخطوط المُتوازية الباهتة، يُطلق عليها الباحثون «الخطوط الممدَّدة» (laid lines)، والتي تُرى بوضوحٍ عند رفع الورقة أمام مصدر للضَّوء. ويحدث هذا بسبب الاختلافاتِ الدَّقيقة في كميَّة اللبِّ المترسِّبة على الغربال أو الشَّاشة. وقد تكون «الخطوط المُتسلسلة» العمودية على الخطوط المُمدَّدة أكثر وضوحًا، أو أقل وضوحًا أحيانًا أخرى، وتوقَّف هذا على سُمكِ المادةِ المُستخدمة في ربط ألياف الشَّاشة المتوازية معًا.

الخطوط المُمدَّدة في الورقة

وتُعد دراسة التباعد بين الخطوط المُمدَّدة والتباعد بين الخطوط المُتسلسِلة وترتيبها -كلٌّ على حدة أو في مجموعات من اثنين أو أكثر- أدوات مساعدة مهمَّة في دراسة الأوراقِ القديمة؛ وذلك لأنه إذا وُجِدَت ورقتان مصنوعتان في القالب نفسه فإنَّ علامات القالب نفسها ستنطبع عليهما تمامًا. وقد=

العربُ في شرق البحر المتوسط ، وربما تطوَّرت صناعةُ الورق في فابريانو من خلال الاتِّصال المباشر مع تلك المنطقة خلال حقبةِ الحروبِ الصَّليبيَّة.

وبعد النجاح الذي أحرزته فابريانو في صناعةِ الورق، تطوَّرت مراكز صناعة الورق في مناطق أخرى مثل ڤينيتو (Veneto). وتأكَّد تأثر صنَّاع الورقِ بمنطقة شرقِ البحر المتوسِّط في تقنيةِ صناعة الورق -على النَّقيض من تأثُّر صُنَّاع الورق في جنوة بنظرائهم في إسبانيا- من خلالِ الاصطلاحات المستخدمة للورقِ في اللاتينيَّة أو في لهجات ڤينيتو ووسط إيطاليا، والتي أخذتها من اللغة اليونانيَّة البيزنطيَّة. فقد أُطلِق على ورق بادوا *carta bambaci-na*)، وفي مودينا (Modena) أُطلق عليه (*cartas bambaxii*)، وفي بولونيا كان يُسمَّى (*charta de bambare* Bologna)، وفي بيستويا (Pistoia) دُعِي (*carla de bambacia*)، وفي سان جيميجنانو San Gimignano) كان يُعرَف باسم (*carte bambagie*). ولم يُطلَق على الورق في أي مكانٍ في إيطاليا اسم الشَّاطبي (shatbi)، وهو المصطلح الشَّائع للورقِ في إسبانيا.

واستُخدِم الورقُ في منطقة فابريانو في نابولي وصِقلية والبلقان (Balkans)، بحلول نهاية القرن الثَّالث عشر الميلادي، من خلال تجارة البحرِ الأدرياتيكي. وسَرعان ما سيطر ورقُ فابريانو على سوق البحرِ المتوسِّط. وبحلول مُنتصفِ القرن الرابع عشر الميلادي نافس الورقُ الإيطالي الورقَ الإسبانيَّ في عُقرِ داره، ما تسبَّب في تراجع صناعة الورقِ في إسبانيا. وكان النجاحُ الفوريُّ لصناعة الورق الإيطالي وتصديره منذ القرن الرابع عشر الميلادي واضحًا. ولم يستفِد الإيطاليُّون من التقدُّم التِّقني لصُنع كمياتٍ كبيرةٍ من الورق من جوداتٍ مختلفةٍ لتناسب عددًا كبيرًا من الاستخدامات فحسب، بل فهموا أيضًا الكيفيَّة

تبيَّنَ لنا بالتجربة أن صُنَّاع الورقِ في مصنع ما، أو منطقة بعينها مالوا إلى استخدام قوالب متشابهة، إن لم تكن متطابقة، ومن ثم أنتجت تلك القوالب أنماطًا متشابهة من الخطوط الممدَّدة والمُتسلسلة. فضلًا عن ذلك، إذا احتوى القالب على أضلاع تكميليَّة، فإن الأضلاع كانت تتداخل أحيانًا مع ترسيب الألياف عند سحب القالب من الحوض. ويمكن أحيانًا رؤية هذا التفاوت الطفيف، المعروف باسم «ظل الضلع» (Rib shadow)، عند تعريض الورقة لمصدر ضوئيّ. وكي يحدد العلماء موقعَ صُنع الورق وتاريخ صناعته قبل اختراع العلامات المائية، أو في حالة غياب العلامات المائية، فإنه ينبغي عليهم الاعتماد على سماتٍ، مثل: حجم الورقة والتَّرتيب المميز والتباعد بين الخطوط الممددةِ والمُتسلسلةِ في الورقة، ووجود ظلال الأضلاع أو غيابها.

ويتسم الورق الأوروبي حتى القرن الثامن عشر بنمطٍ من الخطوط المتوازية الباهتة المُتبقية من أثرِ أسلاك القالب. وكان صانع الورقَ الإنجليزي جيمس واطمان (James Whatman) أول صانع ورق أوروبي يُنتِج ورقًا «منسوجًا» على نحو مثالي باستخدام قالب من الأسلاك المنسوجة في عام ١٧٥٦م. واستخدم الطبَّاع جون باسكرفيل (John Baskerville) في برمنغهام (Bir-mingham) ورق واطمان في العام التَّالي لطباعةِ ديوان الشَّاعر ڤيرجيل (Virgil). وسَرعان ما أصبح الورق المنسوج على هذا النَّحو مُفضَّلًا عند الطباعين؛ نظرًا لسطح الورقة المُستوي الذي تقبَّل بسهولة بصمةَ الطابعة عليه، وما زال الأمر يجري على هذا المنوال حتى يومنا هذا.

التي يستطيعون بها تسويق مُنتجاتهم في الدَّاخل والخارج. ففي مصر، باعوا الورق الإيطالي بثمنٍ بخسٍ في البداية -وربما أقل من تكلفةِ إنتاجه- لزيادة حصَّتِهم في السوقِ المصريةِ، وضَربِ المنافسةِ المحليَّةِ للورقِ المصري في مَقتلٍ.

وفضلًا عن شهادةِ القَلقَشندي الذي انتقَص فيها من قدرِ الورق الإيطاليِّ المُستورد في مصر (راجع في ذلك الفصل الثاني) وبعض الرَّسائل من المغربِ والأندلس، فقد وصَلنا مصحفٌ من مجلدٍ واحدٍ في مجموعة الخليلي (انظر: شكل ٢٤) نُسِخَ -ربما في بغداد- على الورقِ الإيطالي، وهو مؤرَّخٌ بالعقد الخامس من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهناك علامةٌ مائيةٌ واضحةٌ بتصميم مفتاح مزدوج يعلوه الصَّليب، هو مطابق تقريبًا لأمثلةٍ صُنِعَت في أريتسو (Arezzo) وتورشيلو (Torcello)، بالقُرب من البُندقية، ما يشي بأن تجار جُنوة والبندقية حمَلوا هذا الورق مع القوافل التجارية لمُبادلتِه بالمنسوجات والتَّوابل في العراق وفارس. وتأكَّدت هذه التجارة من خلال ظهورِ الأوراق الإيطالية، ولا سيَّما الورق المصنوع في البندقية، في المخطوطاتِ العربيةِ والفارسيَّةِ والأرمينيَّة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وكذلك المخطوطات التي نُسِخَت في جورجيا وشبه جزيرة القِرم.

شمال جبال الألب

كانت صناعةُ الورقِ أبطأ كثيرًا في انتشارها شمال جبال الألب مقارنةً بإيطاليا. ويعود أقدم استخدام موثَّقٍ للورق في ألمانيا إلى عام ١٢٤٦م، حيثُ تَم سِجلٌّ لكبير الأساقفةِ من كاتدرائية باساو (Passau)، كتَبه على الورقِ الإيطالي. وأصبَح الورقُ شائعًا في القرن الثَّالث عشر الميلادي، ولا سيما في منطقة التيرول (Tyrol)، وهي منطقة جبال الألب الأقربِ إلى إيطاليا، والتي اخترقتها طرقٌ

صناعة الورق في إيطاليا

حسَّن صُنَّاع الورق الإيطاليُّون منتجاتهم، وخلقوا سوقَ تصدير ضخم لمنتجاتهم من الورق بدايةَ من القرن الثالث عشر الميلادي. فقد اخترع صنَّاع الورق الإيطاليُّون -حول فابريانو (Fabriano)- علاماتٍ مائيَّةٍ لتمييزِ أوراقهم نحو عام ١٢٨٠م، كانت بمثابة علامات للجودة. وتمثلت الاختراعات الإيطاليَّة الأخرى في تغريةِ الورق باستخدام الجيلاتين، وطريقةٍ لفصل الألياف على نحو أفضل من الطُّرق اليدوية التقليدية.

وجرَت عادة صُنَّاع الورق بتغريةِ الورق بالنَّشا، أو ببعض المواد العازلة الأخرى، لمنع الورق من امتصاص كثيرٍ من المدادِ عند الكتابة عليه. وكان استخراج نَشا القمح، وهو مادة التَّغرية المثالية، عمليةً صعبةً، كما كانت له رائحةٌ كريهةٌ. ولم يكن نَشا الأرز، الذي كان يستخدم في عددٍ كبيرٍ من الأقطار الإسلامية وأجزاء من إسبانيا، مُتاحًا بوفرةٍ في أغلب أنحاء أوروبا. وفي ظل معدلاتِ الرطوبة العالية التي تميَّزت بها أجواءُ أوروبَّا، كان النَّشا بيئةً مناسبةً لنمو الفطريات والكائنات المجهرية الأخرى، والتي كانت تعمل على تدمير الورقِ في الأخير. ولم تواجه هذه المشكلة المسلمين عادةً، ولا سيما في الأراضي القاحلة غرب آسيا. ومن ثم سَرعان ما استبدل صُنَّاع الورق الإيطاليون النَّشا بالجيلاتين المصنوع من حوافر الحيوانات وجلودها وقرونها. وأدَّى استخدام الجيلاتين إلى جعلِ الأوراق=

تجاريَّةٌ مهمة. وأنشأ أولمان ستورمر (أو ستورمير Stromair)، التاجر في إيطاليا، أوّل مصنعٍ للورقِ على نحو موثَّق شمال جبال الألب في جيليس-موهلة (Gleis-mühle)، بالقرب من نورمبرج (Nuremberg) في عام ١٣٩٠م. وكان ستورمر قد رأى -على ما يبدو لنا- تلك الحرفةَ مزدهرةً في إيطاليا، فتعاقد مع بعض صُنَّاع الورق من لومبارد (Lombard) للعملِ في مصنعِه، والذي تم تمثيله -بعد عقودٍ- في مخطَّط هارتمان شيدل (Hartmann Schedel) المنحوت على الخشب للمدينة (انظر: شكل١).

وتَبِع إنشاء مصنع ستورمر إنشاء مصانع أُخر في راڤينسبورغ (Ravensburg) (١٣٩٣-١٣٩٤م)، وشيمنيتز (Chemnitz) (١٤٠٨-١٤٢٥م)، وستراسبورغ (Strasbourg) (١٤٤٥م)، وبازل (Basel) في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وأُنشِئ أولُ مصنع ورقٍ في النِّمسا في عام ١٤٩٦م. وتأسَّست مصانع الورق بالفعلِ في برابانت (Brabant) وفلاندرز (Flan-ders) في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وفي هولندا في القرن السَّادس عشَر الميلادي.

وكان انتشارُ الورقِ أبطأ -عمومًا- في أوروبا قياسًا بالعالم الإسلامي، قبل أن يخترع يوهان جوتنبرج (Johann Gutenberg) المطبعةَ من طراز الأحرفِ المتحرِّكةِ، ثم طبَع الكتاب المقدَّس في نورمبرج في العقدِ السَّادس من القرن السَّادس عشر. وعلى الرغم من أنَّ الورقَ كان أرخص من الرَّق -فقد فاق ثمنُ عددٍ من لوحاتٍ مُتساوية الحجم من الرَّق ثمن الكميَّةِ المُعادلة لها من الورق بستة أضعافٍ في بولونيا عام ١٢٨٠م- فإنَّ الرَّق ظلَّ وفيرًا في الأسواقِ، وبِيعَ بأسعار معقولةٍ في بعض المناطق. وبِيع الورقُ من قِبل تجار الأقمشة في القرن الرابع عشر الميلادي، ومن قِبل الصَّيادلة في القرن الخامس عشر الميلادي.

أكثر مقاومةً للأقلام المصنوعة من الرِّيش، التي اعتاد الكُتَّاب الأوروبيُّون استخدامها للكتابة على الرَّق؛ وكانت أداة صلبة مُسنَّنة يمكن أن تثقُبَ الورقَ الناعم الأملس في العالم الإسلامي، والذي كُتِبَ عليه عادةً بأقلام صُنِعت من القصب.

وامتاز الجيلاتين -على النَّقيض من النَّشا- بالحيلولة دون نموّ الفِطريَّات على الورق. وأول ورقةٍ مؤرخةٍ جرى تغريتها باستخدام الجيلاتين هي وثيقة كُتِبَت عام ١٢٦٤م، على الرغم من أن عددًا كبيرًا من مصانع الورق استمرت في تغريةِ الورق بالنَّشا بعد عام ١٣٠٠م.

كما صنَع الإيطاليون آلاتٍ لتقوم بعملية فصل الألياف. وكما جرَت الحال في إسبانيا، استغلَّ صُنَّاع الورق الإيطاليُّون قوة التيَّارات المائية الأسرع والأكثر وفرة لتشغيل طواحينهم ومطارقهم، وهي ميزة تفوقوا بها على صنَّاع الورق في العالم الإسلامي، الذين كان عليهم الاكتفاء -عادة- بالطَّاقة الضَّعيفة للأنهار ذات التيَّارات الضَّعيفة. وابتكر صنَّاع الورق الإيطاليون أيضًا طريقةً مرتبة لخفق اللب من خلال ترتيب المساحِق في المطارق، بحيث يتم ضرب الخِرق، التي تنتقل على التوالي من مِسحقةٍ إلى أخرى، لتصبح عجينةً ناعمةً ومن قوام واحدٍ في الأخير. ونتيجةً لذلك، أمكن صناع الورق الإيطالين، إنتاج ورق عالي الجودة بسعرٍ رخيصٍ وعلى نحو أسرع.

وانتشَر الورق بوتيرةٍ مُتسارعةٍ في بعض المناطق قياسًا بمناطقَ أخرى -بطبيعة الحال- فقد انتشَر الورق سريعًا في كاتالونيا وتوسكانيا وجنوب فرنسا. واستخدم التجّار الإيطاليُّون الورقَ في تسجيل معاملاتهم في أسواقِ شمبانيا (Champagne fairs)[1] بين عامي ١٢٧٧-١٢٨٢م. وجاء استخدامُ الورقِ مرتبطًا بمُمارسات التَّوثيقِ الجديدةِ في فرنسا وجنوة، واكتسب كُتَّابُ العدلِ عملاءَ جُددَ بوسائل أكثر تواضعًا، فاشترى أحد الكُتَّاب من غنت (Ghent) «ورقَ الكتابة» عندما اجتاز بـ مونت بيللير (Montpellier) في عام ١٢٧٠م. وبدأ استخدام الورق في قشتالة (Castile) -وهي منطقة معروفة بكثرة الأغنام- في تاريخٍ متأخِّرٍ نسبيًّا مقارنةً بمناطق أخرى في إسبانيا. وقد يُعزى التأخُّر النِّسبي لانتشار الورق في إنجلترا لأسبابٍ مُشابهةٍ، حيث ترجعُ أقدم شذرةٍ من الورق في مكتبِ السجلَّات العامَّة في لندن إلى عام ١٢٢٠م، ولكن صناعةَ الورق لم تبدأ في إنجلترا حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وحتى في ذلك الوقت كانت صناعة الورق عمليةً صادَفت النَّجاحَ حينًا والفشلَ أحيانًا.

وتطوَّرت فنونٌ أخرى في شمال أوروبَّا مع تزايد استخدامِ الورقِ، وعلى نحو موازٍ لمسار تطوُّرِها في العالم الإسلامي، وذلك على الرغم من أنَّ الورقَ نفسَه لم يكن متاحًا على نطاقٍ واسع شمال جبال الألب حتى القرن الرابع عشر الميلادي. فشيَّد البنَّاؤون -خلال الحقبة الرومانسيَّة والحِقبِ القوطيةِ المبكرةِ- الكنائسَ عادةً دون استخدام مخططاتٍ معماريَّة أوَّلية، ووصلتنا بعض الرسوماتُ المعماريَّة على الرَّق من منتصف القرن الثَّالث عشر الميلادي، ولكن أكثرها ارتبط بما شيَّده البنَّاؤون في شمال أوروبَّا خاصةً في أواخر القرون الوسطى. وعلى الرغم من ذلك، فقد حدثت التَّغيُّرات الأكثر عُمقًا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، عندما زاد إنتاجُ الورقِ، وكان ذلك بلا شكٍّ نتيجةً ثانويةً للثَّورةِ التي أحدثتها الطِّباعة. وشجَّع استخدام الورقِ الفنَّانين والمُصمِّمين على قدرٍ أكبر من الحريةِ في أساليبَ التَّصميم والرَّسم، وغدا التَّواصلُ بين المهندس المعماري والبنَّاء يعتمدُ على نحو أقل على التَّعليمات الشَّفهيَّة تدريجيًّا، ويميل على نطاقٍ أوسعَ إلى التَّرميزِ على الورق.

(١) أسواق شمبانيا: هي معارضٌ تجاريةٌ سنويةٌ عُقِدت في مدينة شمبانيا الفرنسيَّة في القرون الوسطى. ثم ما لبِثت أن تطوَّرت من كونها معارض زراعية محلية إلى محرِّكٍ مهمٍّ من محركات الحياة الاقتصادية في أوروبا في القرون الوسطى. وكانت بمثابة سوقٍ رئيسيٍّ للمنسوجات والجلود والفراء والتوابل. (المترجم)

لم يكن انتصارُ الورقِ على ورق البردي والرَّق في أوروبَّا عائدًا إلى الرُّخْصِ النِّسبي للمُنتج النَّهائي فحسب، بل إلى توافر المواد الخام التي صُنع منها أيضًا، فضلًا عن تكلفةِ إنتاجه المُنخفضةِ. وبعبارةٍ أخرى: كان يَسَعُ صُنَّاع الورق صُنع الورقِ بكمياتٍ كافيةٍ لتلبيةِ الطلب عليه؛ حيثُ اشتدَّ الطبَّاعون في طلبِ الورقِ في أعقاب ظهور اختراع جوتنبرج. فإذا افترضنا أن صُنَّاع الورق عجزوا عن تلبيةِ طلبِ الطبَّاعين المُتزايد على الورق، فما كان لاختراع جوتنبرج أن يُحدِث تأثيرًا يُذكَر عندئذٍ. ومن ثم، فإن توفر الورقِ سمَح بطباعةِ الكُتب على نطاقٍ غير مسبوقٍ. ولهذا السَّبب يمكنُنا الحديثُ عن وقوعِ ثورةٍ في صناعة الورق جرَت بعد اختراعِ المطبعةِ من طرازِ الأحرفِ المُتحرِّكةِ.

الفصل السابع



الفصل السَّابع
الورق بعد الطباعة

«كان جوته (Goethe) أعظم كتَّابِ الجيلِ الذي تُوِّج فيه التحوُّلُ [الغربي العَظيم]، ويليـقُ بـه أن ندعوه بــ «آخر الرجـال العالميِّين». ومع ذلك، لم يكن بوسـعِه أن يتابـع بدقَّـةٍ جميـع العمليـاتِ الفنِّية التـي جُمِعَت بهـا الأدوات التـي صُنِعت بها الآلاتُ لخدمة ابتكاراتِه على المسـرح. تمامًا كما كان الحال مع ابن خَلدون أو ليوناردو في عصرَيهما».

Marshall G. S. Hodgson, *The Venture of Islam.*

حمَل سكان العالم الإسلامي -ولسنا نخصُّ المسلمين فحسب، بل نعني أهلَ الذِّمة ممن عاشوا بين ظهرانيهم أيضًا- المعرفةَ بالورقِ وبصناعتِه إلى رُقعةٍ واسعةٍ امتدت من أوراسـيا إلـى شـمالِ إفريقيا منـذ القرن الثَّالـث الهجري/ التاسـع الميلادي حتـى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ولو لـم يتوسَّط المسلمون بين ثقافاتِ الشَّرق الأقصـى والغـرب الأقصـى، لجهـل الأوروبيُّـون الـورقَ -وكذلـك سـائر الاختراعات الصِّينيـة الأخـرى مثـل البارود والبوصلـة- حتى وصَل البحَّـارة الأوروبيُّون الـروَّاد إلى موانئ الشَّـرق الأقصى في القرن السَّـادس عشـر الميلادي. وكذلك لو لـم تعرِف أوروبا الـورقَ، لمـا اعتمدت المطبعةُ التي اختَرعها جوتنبرج من طـراز الأحرفِ المتحرِّكة، في منتصـف القـرن الخامس عشـر الميـلادي، إلا على الرَّق باهـظ الثَّمن، ومن ثَـم ربما لم يتوسَّع جمهور القراء على نحوٍ ثوريٍّ كالذي جرَى في أعقاب ظهور الطِّباعة.

بيد أنه -وكما لحَظ عددٌ كبيرٌ من المؤرِّخين- فإنَّ العالم الإسـلامي كان بمثابة مركزٍ لانتقـال الابتـكارات الجديدة مـن الصِّين إلى أوروبا، حيث لـم تفصلِ الحدودُ الرَّاسـخةُ الكتلـة الأوروآسـيوية والإفريقيـة على النَّحو نفسـه الـذي فصَل به المحيطان الأطلسـي والهـادئ العالـم القديـم عن الجديد، أو فصَل به مضيقُ بنما أمريكا الشَّـمالية عن أمريكا

الجنوبية. بل انتشرت الأفكارُ والابتكاراتُ الجديدةُ، سواء كانت متعلِّقة باستزراع النَّباتات أو تدجين الحيوانات، أو صناعة الورقِ، أو المطرقة التي تعمل بطاقة الماء (water-driven hammermill)، أو دولابِ الغزلِ، أو رِكاب السَّرج، تدريجيًّا في كل مكان في أوراسيا في غضون أربعةِ أو خمسةِ قرونٍ من ظهورها، بل على نحوٍ أسرعَ أحيانًا، كما هو الحال في أسلحةِ البارود. ولم يكن الورقُ وصناعته -وكلاهما من أصلٍ صينيٍّ- استثناءً من ذلك، فقد انتشرا عبر أوراسيا مع انتشارِ الإسلامِ.

وما لم يُدركه معظمُ الباحثين هو أن الورقَ -الذي طالما ارتبط بالطِّباعة- التي طغَت عليه في التطور الأخير، كان في حدِّ ذاته مُحركًا للتَّغييرِ الاجتماعي والفكري والفنِّي بين القرنين الثَّاني والعاشر الهجريين/ الثامن والسَّادس عشر الميلاديين. حيث ارتبط دخول الورقِ إلى العالم الإسلامي بتلبيةِ مطالب الإدارة البيروقراطيَّة الضخمة في مساعيها لحُكمِ أكبر إمبراطوريةٍ عرَفها العالم على الإطلاق، وسرعان ما اتَّخذ الكتَّاب -على جميع مستوياتِهم- الورقَ لتَسجيل أفكارهم ونقلها بوصفه وسيطًا مثاليًّا وقويًّا ومرنًا وخفيفًا ورخيصًا. وشجَّع المجتمع هذه العمليَّةَ ليس بسبب تبجيله للكلمةِ المكتوبةِ فحسب، بل بسبب الابتكار والأساليب الفعَّالة لتكاثرِ المخطوطات ونشرِها. وعلى هذا النَّحو انتشرتِ الكتابةُ في مجموعةٍ هائلةٍ من الموضوعات، ثم سَرعان ما اكتشف الكُتَّاب أيضًا أنه يسعُهم استخدام الورق لتَسجيلِ الرُّموز لا الكلمات فحسب، وتراوحت المحاولات في هذا الصدد -وفي هذه القرون- من مُجرَّد الفضولِ الفكري، إلى الحسابات الرياضيَّة حتى طالت مُشجَّرات الأنسابِ وخُطط القتال.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من العناصر التي كمنت خلف تفضيلِ الكُتَّابِ للورق، نشَأت من كونه أقل كلفةً من الرَّق وأكثر انتشارًا من ورق البردي -وهما أكثر مواد الكتابة شيوعًا في العصورِ القديمةِ- فقد ظلَّ الورقُ دائمًا أكثر كُلفةً في القرون الوسطى قياسًا بما هو عليه في يومنا هذا. لقد جعَل اختراع آلات صناعة الورق، واكتشاف مصادرَ لا تُفنَى للألياف، الورق عمليًّا أرخصَ اليوم من أي وقتٍ مضَى. ولكن حتى في العالم الإسلامي في القرونِ الوسطى، أضحَت الورقةُ رخيصةً -في التطور الأخير- بحيث أقبل العوام على استخدمِها لأغراضٍ عمليةٍ أخرى غير تسجيلِ الكلمةِ المكتوبةِ.

ولما شرَع الحِرفيُّون في استخدام الورق، كان له تأثيرٌ عظيمٌ على الطُّرق التي تطوَّرت

بها الفنون بعد القرن الثَّالث عشر الميلادي. وثَمَّ عددٌ كبيرٌ من الفنونِ الإسلاميةِ النموذجيةِ مثل: المُنمنمات الفارسيَّةِ، والسجَّاد الشَّرقي، وتاج مَحَل، لا يمكن تصور الكيفية التي نُفِّذت بها دون استخدام الورق سواءً على نحوٍ مباشر، أو غير مباشر، للمُخطَّطات الأوَّلية أو التَّعليمات المُشفَّرة أو القياسات والارتفاعات.

وأدخلَ المسلمون صناعةَ الورقِ إلى جنوب أوروبا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وبحلول عام ١٥٠٠م انتشرَت صناعةُ الورقِ في جميع أرجاء أوروبا تقريبًا. وتزامن إدخالُ صناعةِ الورقِ في أوروبا مع مثل هذه التطورات الأوروبية مثل التوسُّع في استخدام الوثائق، وقبول الأرقام الهندو-عربية، وتهذيب الدَّفاتر والحسابات مزدوجة القَيد، وقدرٌ لا بأس به من الحرية في التَّصميم والرَّسم. وكانت كلها تطوراتٌ موازيةٌ لتطوراتٍ سابقةٍ جرَت في العالم الإسلامي في أعقابِ استخدام الورق. بيد أنه لم يزل مُتعيِّنًا على الباحثين استكشافُ التطوُّرات التي جرَت على الصَّعيد الأوروبي -على وجه التَّحديد- بعد معرفة أوروبَّا بالورق.

وعلى الرغم من الأهميَّة الواضحة للورقِ، إلا أن تاريخَه في العالم الإسلامي والدَّور الذي لعبه ثمَّة لم يقدرهما الباحثون حقَّ قدرهما لسبَبين، أوَّلهما: أن صناعةَ الورق توقَّفت إلى حدٍّ كبيرٍ في بعض بقاع العالم الإسلامي، بحلولِ الوقت الذي شمَّر فيه الأوروبيون عن سواعدِهم لكتابةِ تاريخ الورق في القرن الثَّامن عشَر. فقد توقَّفت الشَّامُ ومصرُ والمغربُ -وهي تلك المناطق الإسلاميَّة الأقرب إلى أوروبَّا والأكثر عُرضةً للمُنافسةِ الاقتصاديةِ الأوروبيةِ- فعليًّا عن صناعةِ الورقِ، بل كانت تستورد احتياجاتها من الورق من أوروبا في ذلك الوقت. واستمرَّت الأندلس، التي كانت مركزًا مهمًّا لصناعة الورقِ في الإسلام منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في صناعةِ الورقِ، على الرغم من أن صُنَّاع الورق آنذاك أضحوا من النَّصارى، لا المسلمين كما جرَت عليه الحال من قبل، وانتقلَت مصانع الورق من بلنسية (Valencia) إلى كتالونيا.

وعلى الضَّفة الأخرى من البحر المتوسِّط، لم يَصنعِ البيزنطيُّون الورقَ في القُسطنطينية، على الرغم من أنهم استخدموه في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وبمجرد أن اتخذ العُثمانيُّون من المدينةِ عاصمةً لهم في القرن التَّاسع الهجري/ الخامس

عشر الميلادي، حتى بدأوا في صناعةِ الورقِ هناك تلبيةً لاحتياجاتِ المؤسَّسات البيروقراطيَّة والفكريَّة المزدهرة آنئذٍ. وعلى الرغم من الرَّوابطِ الوثيقةِ التي ربَطت العُثمانيِّين بأوروبَّا، فإن صُنَّاع الورقِ العثمانيِّين اتَّبعوا تقنياتِ صناعةِ الورقِ الشَّرقية وتقاليدها، لا الأوروبيَّة. وكان الورقُ الأوروبي يُصدَّر إلى ولايات الدولة العثمانية آنذاك، ومع ذلك، لم يُستَخدم في نَسخِ الكتبِ التي اتَّبعت التَّقاليد الإسلامية عادةً، ولا سيما عند الفُرس.

ولم يزل الفُرس -وهم أوَّل من صنَع الورقِ في بلاد المسلمين- يصنعونَ الورقَ، ويُضفون على صناعتِه جمالًا على جمالِه حتى القرنِ العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، إلا أنهم استَسلموا في غضونِ بضعة قرونٍ للوارداتِ الأوروبيَّة من الورقِ، ولا سيما الورق الرُّوسي. أمَّا الهند -التي لا بد أنَّها عرَفت الورق في القرون الميلادية الأولى، عندما عاد الرُّهبان البوذيُّون من الصِّين حاملين معهم هذه المادة- فلم تصنَع الورقَ حتى القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، عندما تأسَّس الحكمُ الإسلاميُّ هناك. وكانت صناعةُ الورق الهنديةِ -أو على الأقل إنتاج الكتبِ الورقيَّة- في مهدِها في أوائل القرن السَّادس عشر الميلادي، ولكن بحلول نهاية ذلك القرن، لم يكن الورق الهندي يقلُّ جودةً عن الورقِ الذي صُنع في أي قُطرٍ إسلاميٍّ آخر، وكذلك كانت فُنون الكتابِ الهنديةِ. وذلك بفضلِ ميلِ حكَّام المغول للمُنتجاتِ الفارسيَّةِ.

ويعود النجاحُ الهائلُ الذي حقَّقه صُنَّاع الورقِ الأوروبيُّون -ولا سيَّما الإيطاليُّون منهم في أواخر القرون الوسطى- جزئيًّا إلى التَّحسيناتِ التقنيَّةِ التي حقَّقتها عمليةُ صناعةِ الورقِ في أوروبَّا، وجزئيًّا إلى طريقتِهم العُدوانيَّة في تسويقِه. وتمكَّن صُنَّاع الورق الإيطاليُّون -مقارنةً مع نظرائهم في غربِ آسيا وشمال إفريقيا- من تسخيرِ طاقة الماء بكفاءةٍ أكبر لتَشغيل مطارقَ مزوَّدةٍ بمساحقَ امتازت بالكفاءةِ في صناعة اللُّبِّ. وتشكَّل اللُّبُّ النَّاتج باستخدام قوالبَ مصنوعةٍ من الأسلاكِ النُّحاسيةِ مُزودة بعلامات مائية لضمانِ جودةِ كل ورقةٍ مُنتجةٍ على حدة. ومع ذلك، ظلَّت تقنياتُ صناعةِ الورق في أوروبا على بساطٍ واحدٍ مع صناعةِ الورقِ في أوراسيا، حتى اختُرِع الخفَّاق الهولندي (Hollander beater) في أواخر القرن السَّابع عشر الميلادي. وأفضلُ ورقةٍ أنتجها صُنَّاع

الـورقِ الإيطاليُّـون فـي القـرن التَّاسـع الهجري/ الخامـس عشـر الميلادي لم تكن تَفضُل أجملَ ورقةٍ أنتجها صُنَّاع الورق الفُرس في هذه الحقبةِ نفسـها بحالٍ من الأحوال. بل اتَّسـم كلا النَّوعين من الورقِ بسـماتٍ مختلفةٍ على نحوٍ ملحوظٍ؛ وذاك لأن صُنَّاعها قصدوا من صُنعِها استخدامها في أغراضٍ مختلفةٍ. وعلى الرغم من البراعةِ التِّقنيةِ التي تمتَّع بها الإيطاليُّون، فقد سـاد التَّكافؤ بين المجتمعاتِ الزِّراعيةِ في أوراسـيا كافةً. وفي القرن السَّادس عشر الميلادي، كان العُثمانيون في المستوى الثَّقافي نفســه الذي كان عليه الإسبان والهنود والصينيون.

أمَّـا السَّـبب الثَّاني فـي تجاهـلِ الأوروبيِّين لتاريـخ الورق في العالـم الإسـلامي، فهو أنَّ الـورقَ كان لصِيقًا بالطباعةِ في كلٍّ من الصِّيـن وأوروبَّـا. وغالبًا ما يُنظر إلى إخفاق العالم الإسـلامي في قبـولِ الطِّباعـة علـى أنه اللحظة الأساسـيَّة التـي بدأ فيهـا التَّكافؤ التَّقريبـي الـذي كان قائمًا بين جميع هـذه الثقافات في الاختلال، وبدأت الحضارة الإسلامية التي كانت ذات يوم أعظمَ من مثيلتِها الأوروبيَّة في «التراجع».

بحَـث العلمـاءُ تـردُّدَ المجتمعـاتِ الإسـلامية فـي تبنِّـي تقنية الطباعة ونشرها، وفسَّروا ذلك التردد بطُرقٍ عِدَّة، ومن بينها تفسيرٌ عمليٌّ يقضي بأنَّ استخدامَ الأحرفِ العربيةِ لم يقتصِر على الكتابة باللغـة العربيـة فحسـب، بـل اشـتمل أيضًا علـى الكتابـة باللُّغتَين الفارسـيَّة والتُّركية، وهي اللغات الثـلاث المَحكيَّة والمكتوبة في مُعظم الرُّقعة الشَّاسـعة التي شـكَّلت العالم الإسـلامي التَّقليدي. وتعدُّ تقاليدُ الكتابة العربية فريدةً؛ وذلك لأن حروفَها تُكتب دائمًا مُتصلـةً: إذ يجبُ أن تتصِـلَ الحروفُ داخل كل كلمـة، اللهم إلا باستثناءات يسيرةٍ. ويتميَّز النصُّ -من ثَم- بالوصلات بين مُعظمِ الأحـرف فـي الكلمة، وكذلك بأشـكال مختلفـةٍ للحرف في أول

الخفاق الهولندي

الخفَّـاق الهولنـدي (Hollander beater)، أو هولانـدر (Hollander)، هو اختـراعٌ هولنـديٌّ عمِـل علـى ميكنة عملية تحويـلِ الخِرق إلى لب الورقِ مع تسريع وتيرة العملية.

كان الألمـان والسويسـريون والفَرنسـيون قـد سـيطروا علـى صناعـةِ الـورقِ بحلول القرن السَّـابع عشـر؛ وذلك لتوافـر الأنهـار وتيَّارات المـاء سـريعة التدفُّق، والتـي كانـت تدعـم -بدورِهـا- مطاحـن المطرقةِ المسـتخدمة فـي ضـربِ الخِـرق وتحويلهـا إلـى اللُّـبِّ. وعلـى الرغم مـن أنَّ هولنـدا كانت مركـزًا للطباعة منذ القرن السَّـادس عشـر الميلادي، إلا أنهـا لـم تبدأ في إنتـاج ورقٍ عالي الجودة حتى الرُّبـع الأخير من القرن السَّـابع عشـر الميـلادي. ولـم تكُـن هولنـدا تعانـي نقصًـا فـي الميـاه أو فـي خِـرق الكِتَّـان قـطُّ، بل اشـتهرت بصناعة البياضـات من الكتَّان، ولكنها كانـت تفتقر إلى تياراتٍ مائيةٍ سـريعةِ الجريـان، مثل تلك التـي توافرت في مراكز صناعـةِ الورق الأخـرى. ومن ثَـم لجـأ الهولنديـون إلـى اسـتخدام الطَّواحيـن التـي تعمـل بقـوة الرياح لطحنِ الحبـوبِ وضخِّ المياه. ولكن اسـتخدام طواحيـن الهـواء لتوليـدِ طاقـةٍ لطحـن الخِـرَق لتتحـول إلـى اللُّـبِّ لصناعة الـورق كان إجراءً غير عملـي. ومع ذلـك، فقد تصور بعض المخترعين المغامرين طريقةً جديدةً لتحويـل الخِـرق إلـى أليـافٍ عـن=



شكل (٨٣): الخطُّ العربيُّ المُكوَّن مـن ٢٤ نقطةً، من تصميـم المطبعـةِ الوطنيـةِ (Imprimerie Nationale)، باريس.

الكلمـة ووسـطها وآخرهـا، وقائمـة بذاتهـا فـي عـددٍ كبيـرٍ مـن الحالات. ولم تتطور طريقةٌ للكتابةِ بالعربيَّة بأحرفٍ مُنفصلةٍ قطُّ، علـى نحو ما جـرَت به العادة فـي الكتابةِ بالأحرفِ المستقلَّةِ في العبريـة واليونانية واللاتينيَّة. ومن ثم، كانت هناك مشـكلاتٌ فنيَّةٌ تُحيـط بطباعـةِ النـصِّ العربـيِّ جـاءت مُختلفـةً تمامًـا عـن تلـك المشـكلات التـي ظهَـرت عنـد طباعة الأحـرفِ مـن الأبجديات

طريـق ضربها في الماء بين أسـطوانة مُسنَّنة ولوحٍ قاعدي. وتكوَّن حوضُ الخفَّـاق «هولانـدر» (Hollander) الأصلي من حوضٍ خشـبيٍّ بيضاوي الشَّـكل، مع قِسـمٍ رأسـيٍّ قائـمٍ بذاته يمتـدُّ إلـى أسـفلِ منتصـف الحوض لإنشـاء قناةٍ مُتصلة. وتعلَّقت اسطوانةٌ خشـبيَّة مـن الخشـبِ المَتيـن مـزودة بنصالٍ من الحديد تدور فوق صفيحةٍ معدنيةٍ أو حجريةٍ بين الحاجز وجدار الحـوضِ. ويمكن التحكُّم في ارتفاع الأسـطوانة فـوق اللـوحِ، ويعمـل الخفـاق علـى تدوير اللُّب باسـتمرار حـول القنـاة وفـي أثنـاء مـرورِه بيـن الأسـطوانة الخشـبية ولـوح القاعـدة تعتصـره الاسـطوانة بضغطهـا أثنـاء دورانها وتقطعه إربًا بنصالها. ويمكن للخفـاق هولاندر الذي يعمـل بطاقةِ الرِّيـاح، أن ينتـجَ فـي سـاعةٍ واحـدةٍ الكمية نفسـها من اللبِّ التي يسـتغرق إنتاجهـا ٢٤ سـاعة فـي مطاحـن اللـبِّ ذات المطرقـة المُعتمِـدة على الدولاب العامل بطاقة جريان الماء.



الخفاق هولاندر

وكان يوهان يواكيم بيشـر (Johann Joachim Becher) -وهـو كاتـبٌ =

الأخـرى، بمـا فيها الأحـرف الصِّينيـة، التي تُعدُّ بـالآلاف إلا أنها كانت تُكتَب مُنفصلةً مع ذلك.

وتطلَّبت الطِّباعة بالخطِّ العربيِّ مستوى عالٍ للغاية من المهارةِ في قصِّ القوالبِ لتقليد معايير الخط العربي، كما كان ينبغي على المُنضِّـد أيضًـا أن يعـرفَ أيَّ شـكلٍ مـن أشـكالِ الحَـرف ينبغـي استخدامُه في كلِّ موضعٍ على حدة. ويمكن أن يصلَ الخطُّ الكامل بالحرفِ العربي -بما في ذلك علامات الضَّبط والتَّشكيل المطلوبة لطباعـة المصحـفِ والنصـوص التي تطلَّبـت الضَّبـط بالحركات الصَّوتية الأُخرى- إلى أكثر من ٦٠٠ نوعٍ، أو حرفٍ فردي، إضافةً إلـى كميـاتٍ لا حصر لها مـن الخيوطِ والرَّقائـق الفاصلة (*Quad-rats*) لتُوضَع بين علامات الضَّبط ومناسيب الأسطر. وعلى سبيل المثـال فإنَّ الخـطَّ العربي المكون من أربع وعشـرين نقطة، الذي طوَّرته المؤسَّسـة الفرنسـية الوطنية للطباعـة (Imprimerie Natio-nale) في القرن التاسـع عشـر ملأ أربع جـداولَ مُختلفة، بإجمالي بلغ ٧١٠ نمطًا مختلفًا من الأحرُفِ العربية (انظر: شكل ٨٣).

وعلـى الرَّغـم مـن الصُّعوبـاتِ المُتأصِّلـةِ فـي طبيعـةِ الكتابـة بالعربيـة، فقـد طُبِعـت الكتـبُ العربية منـذ تاريخٍ مبكـرٍ. ومارَس الكتبة المسـلمون بعض أشكال الاستكثار من النُّسخ، أو الطباعة باسـتخدام الطِّباعـة بالقالـب (block printing) في وقتٍ مبكرٍ من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كما يظهر على عددٍ كبيرٍ مـن التَّمائم المُكتشـفةِ فـي مصرَ خاصَّـةً. وطُبِعت معظـمُ الأمثلةِ المعروفة لنا على الورق (انظر: شكل ٨٤)، ولكن نموذجًا واحدًا منها طُبِع على ورقِ البردي، ونموذجين على الرَّق.

وعلـى الرَّغـم مـن أن هذه النَّمـاذج جميعًـا غير مؤرَّخـة، فإن اسـتخدامَ ورقِ البـردي والـرَّق يُشيـران إلـى تاريخٍ مبكـرٍ لمعرفةِ العالـم الإسـلامي بالطِّباعـة بالقالبِ بصفةٍ عامَّةٍ، وهـو أمرٌ يؤكده

ألمانـيٌّ متخصـصٌ فـي الميكانيـكا- قـد رأى هذا النـوع الجديد من آلات خفق اللُّبِّ في سـيرندام (Serndamm) بهولندا في أثناء اجتيازه بها في طريقِه إلـى إنجلتـرا؛ وكان أول مـن وصَـف هـذا الخفَّـاق فـي كتابٍ له نشـره عام ١٦٨٢م.

وبحلول أوائل القرنِ الثامن عشر، انتشـر اسـتخدام الخفَّـاق الهولندي، ولكـن مع بعـض التَّعديـلات، فقـد كُيِّـفَ الخفَّـاق ليعمـلَ بطاقـةِ جريان تيـار المـاء، فـي بافاريـا (Bavaria)، لكنـه لم يحل محلَّ المطارق القديمة بشكلٍ عام. وعمل الخفَّاق الهولندي -أحيانًـا- مـع المطـارقِ جنبًـا إلـى جنـب، حيـث أضحَـت المطـارق مُستخدمةً في عملية الضرب الأوَّلي للخِرق. ولم يزل الخفـاق الهولندي مُستخدمًا، مع قليلٍ مـن التَّعديلات، حيث يعالج فـي أي مكان يُنصبُ فيه ٣٠٠٠ رطـل (١٣٥٠ كيلوغرام) من اللُّب في الدَّفعةِ الواحدةِ، على الرغم من أن المصانع الحديثة قد استبدلت الخفَّـاق الهولـندي بمَصـافٍ ضخمةٍ للتكريـر، تعتمـدُ علـى نمـوذج أوَّلي صمَّمـه الأمريكي جوزيـف جوردان (Joseph Jordan) قبـل قرنٍ من الزمان، وهي خلاطاتٌ ضخمةٌ قابلة للمقارنةِ مع خلَّاطات الطَّعام الكبيرة.

أسلوبُ الكتابة. وثم دليل آخر على معرفة المسلمين بالطباعة بالقالب: فقد فسَّر الباحثون مُصطلحًا عربيًّا غامضًا، وهو «الطَّرْش» الذي ورَد ذكره في قصائد بعض الشُّعراء بين القَرنين الرابع الهجري والثامن الهجريين/ العاشر والرابع عشر الميلاديين بوصفِه إشارةً لطباعةِ التَّمائم والأسحار باستخدام قوالِب من القصدير المنحوتةِ بالبارز.

وتحتوي بعض أغطية الرأس التي وصلتنا على تمائم طُبِعت بالقالب تضمَّنت أحرُفًا غليظةً مع بعض الأشكال الزُّخرفية، رُسمت الأحرف والزخارف بالخلفية البيضاء باستخدام لونٍ مغاير (*Reserve*) أحيانًا، وربما طُبِعت بقوالبَ خشبيَّةٍ مُنفصلةٍ. وفي مُستهلِّ القرن العشرين لاحظ المستشرق ب. موريتز (B. Moritz) وجودَ ستِّ قوالبَ للطباعة في المكتبةِ الخديويةِ القديمةِ في القاهرة، وأرَّخها جميعًا بالعصر الفاطمي (بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/ العاشر والثاني عشر الميلاديين)، ولكن أين تستقر تلك القوالب الآن؟ لا يملكُ أحدٌ جوابًا عن هذا السُّؤال.

استُخدِمت الطباعة بالقوالب في فارس عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م عندما حاول الخان الإيلخاني جايخاتو (Gaykhatu) طباعةَ أوراق نقديَّةٍ على الورق، وكانت محاولة قصيرة الأمد، وانتهت بفشلٍ ذريعٍ، بيد أنَّ العملات من هذه الشَّاكلة كانت مُتداولةً في الصِّين



شكل (٨٤): تميمةٌ مطبوعةٌ بالقالب على ورقٍ اكتُشِف أثناء التَّنقيبات الأثرية في الفُسطاط، مصر ٣٣٩-٤٤٢هـ/ ٩٥٠-١٠٥٠م.

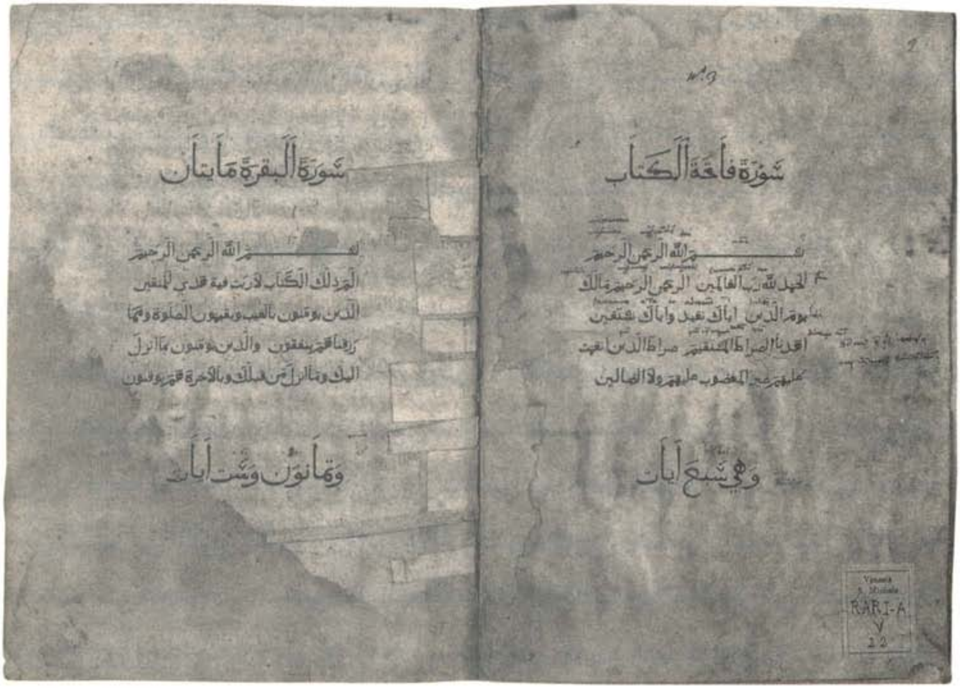
فـي وقـتٍ مبكرٍ من القـرنِ الثَّالث الهجري/ التَّاسـع الميلادي. واسـتخدمَ بعضُ الكتَّاب المصريِّين الطباعةَ بالقالبِ في القرنِ التَّاسـع الهجري/ الخامس عشـر الميلادي لزخرفةٍ غير مُكلفةٍ[1] لبطانةِ غلافي الكتابِ الأمامي والخلفي (*Doublures*). كما شكَّل المجلِّدون الفُرس أغلفةَ الكتبَ الجلدية الفارسـيَّة المعاصرة باسـتخدام قوالب معدنيةٍ منحوتةٍ نحتًا دقيقًا. ومن ثم يمكن القول: إن العالـم الإسـلامي عرَف كثيرًا من تقنياتِ الطِّباعة قبل أن يولَد جوتنبرج نفسه.

وسَـرعان ما أدرك الطبَّاعون الأوروبيُّون أنَّ الكتبَ العربيةَ المطبوعةَ يمكن أن تكون سِـلعًا تجاريـةً رائجةً، وذلك ما أن شَـرعت شـركاتُ صناعـة الورقِ الأوروبيـة في إنتاج الـورق بكميـاتٍ تجاريـةٍ، ثم بدأت في تصدير الـورقِ إلى غرب آسـيا والمغرب، وذلك على الرغم من الصُّعوبات الفنِّية المحيطة بتصميم الخطوط العربية وسبكِها. وأقدم نصٍّ وصلَنـا مـن النصوصِ المطبوعـةِ باللغة العربية هو كتاب **صلاة السَّـواعي**، الذي طُبِع في فانـو (Fano) علـى يد رئيس الطبَّاعين البنادقـة جريجوريو دي جريجوري (Gregorio de' Gregori) فـي عـام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، وهـو كتـابٌ يختـصُّ بذكـر صلـوات النَّصـارى المَلكانيِّيـن في الشَّـام. بيـد أنَّ الخطَّ المُسـتخدَم في هذا الكتـاب كان رديئًا، كما غصَّت الكتابـةُ نفسُـها بمظاهر اللَّحـنِ المختلفة، وبانفصالِ الحروفِ مـن حيث وجَب أن تكون مُتصلـةً. وبعـد عامَيـن من هذا التَّاريخ طبـع منضِّدُ الحروف بير باولو بـورو (Pier Paolo Porro) فـي جنـوة الكتـابَ المقدس بثلاث لغـاتٍ: اليونانية والعبريـة والعربية مع مقدِّمة باللغةِ العربيةِ.

ربما يكون الكتابُ العربي الأكثر أهمية، والذي أرهق الباحثين في البحث عنه طويلًا بيـن المطبوعـاتِ العربية في تلك الحقبة المبكِّرة من تاريخ الطِّباعة، هو المُصحف الذي طبعتـه المطبعـة الڤينيسـية (Paganino de' Paganini) بين عامـي ١٥٣٧-١٥٣٨م. وكان يُعتقَد أن جميع النُّسخ من هذا المصحف قد فُقِدت في حريق شبَّ هناك، حتى اكتُشِفَت نسخةٌ من هذه الطَّبعة في الثَّمانينيات من القرن الماضي في مكتبة فراتي مينوري دي سان ميشـيل إيزولا (Frati Minori di San Michele da Isola) في البُندقية (انظر: شـكل ٨٥).

---

(١) الإيمـاءةُ إلى الاسـتغناء عن المُـزوِّق أو المُزخرف، الذي كان يُناط به -عـادةً- القيام بهذا العمل، ومن ثم توفير أجره. (المترجم)



شكل (٨٥): واجهةُ المُصحفِ الذي طبعته المطبعةُ الڤينيسية (Paganino de' Paganini) في البُندقيَّة (Venice)، ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧-١٥٣٨م. مكتبة فراتي مينوري دي سان ميشيل دا إيسولا (Frati Minori di San Michele ad Iso-la)، البُندقية-إيطاليا.

وربما كان المقصود من هذه الطبعة أن تكون مشروعًا تجاريًّا، لكن الخطَّ الغريبَ المُستخدمَ فيها لم يكن مقبولًا بالكليَّة، ولا سيما عند تحكيم معايير الخط العربي وقواعده، وكانت الأخطاء الكثيرة التي غصَّ بها النص كافيةً لإثارة حميَّةِ المسلمين بلا شك. والطَّبعة برُمَّتها -سواءً كانت مشروعًا تجاريًّا أو إنجيليًّا- لم تكن عملًا موفقًا قطُّ.

وسبَكَ مُصمِّمُ الخطوطِ الفَرنسي وتاجر الكتب روبرت جرانجون (Robert Gran-jon) أول حروفٍ عربيَّةٍ اتَّسمَت بالأناقةِ في روما، بعد قرنٍ من اختراع جوتنبرج. اشتَقَّ جرانجون أشكالَ حروفِه من أفضل النَّماذج العربية المنسوخة بخطِّ اليد، واستغنى عن الأحرفِ المركَّبة، مفضِّلًا استخدامها على نحوٍ حُرٍ[1]. وظلَّت إيطاليا مركزًا لطباعة

(١) يعني حروفًا مُتَّصلةً عاديةً، وليس ذات أشكال مخصوصةً (form) عند اتِّصالِ حرفين أو أكثر، مثل الياء والجيم على هذا النحو (يجـ)، أو اللام والميم والحاء في أول الكلمة على هذا النَّحو (لمحـ). إذًا فقد وجد=

الكتبِ العربيَّة، ولا سيما بعد أن نصَح البابا جريجوري الثالث عشر (Pope Gregory XIII) الكاردينال فيرناندو دي ميديشي (Cardinal Ferdinanda de' Medici) بتأسيس مطبعةٍ بالحرفِ الأجنبيّ (Typographia Medicea linguarum externarum). وأُوكِل الإشرافُ على هذه المطبعة للمُستشرقِ جيوڤان باتيستا ريموندي (Giovan Battista Raimondi)، وطبَعت هذه المطبعة سِلسلةً من المُصنَّفات العربية، منها: ترجمة **الكتاب المقدَّس** بالعربية، والأناجيل الأربعة، وكتاب **القانون** لابن سينا، وكتاب **نُزهة المشتاق** للإدريسي الجُغرافيّ، الذي صنَّفه مخطوطًا في بلاط النُّورمان في صقلية قبل خمسة قرونٍ تقريبًا. ثم شارك أيضًا آخرون من كبار الطبَّاعين الأوروبيِّين، مثل الإنجليزي ويليام كاسلون (William Caslon) والإيطالي جيامباتيستا بودوني (Giambattista Bodoni)، في تَصميمِ الخطوطِ العربيةِ لاحقًا.

أمَّا التَّفسيرُ الثاني للفتورِ الذي أظهَره العالم الإسلامي للطِّباعةِ والكتاب المطبوع، فضلًا عن طولِ المُدَّة التي استغرقتها معرفةُ العالم الإسلامي بالطِّباعة، فهو تفسيرٌ اجتماعيٌّ. فإذا ما قيَّمنا المصالحَ الكبيرةَ للسُّلطان العُثماني محمد الثاني (Mehmed II) الذي قاد نهضةً واسعةَ النِّطاقِ في عهده، اشتمَلت على العناية بالمخطوطات اليونانيَّة، والاستعانة بالفنَّانين الأوروبيِّين، واستخدام التِّقنيات الأوروبيَّة في شتَّى الحِرف والصَّنائع، فإننا نلحظُ أنَّ السلطان لم يكترِثْ لإنشاء مطبعةٍ للدَّولة العُثمانية خلال فترة حكمِه في منتصف القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي.

والحقُّ أن المطبعةَ لقِيَت مقاومةً عنيدةً في الدَّولةِ العثمانيةِ، فلم يتوجَّس العُثمانيُّون منها خيفةً فحَسب، بل حظروها بالكُلِّيةِ، فقد أصدَر السُّلطان العثماني بايزيد الثاني، ثم سَليم الأول من بعده فرمانَيْن في العامين ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥-٩٢٠هـ/ ١٥١٥م على التَّرتيب، يحظران فيهما على الرعيَّةِ من المسلمين خاصةً طباعةَ النُّصوصِ المكتوبةِ بالحرفِ العربيّ، ومع ذلك استثنى كِلا الفرمانَين الأقلياتِ الدِّينية الأخرى من هذا الحظر، فسمَح لهم بطباعةِ النصوصِ العبريَّةِ وغيرها من اللُّغاتِ. وخلال القرون الثَّلاثة التالية، اعتمدت الطِّباعةُ في ديارِ الإسلامِ على نحوٍ كبيرٍ على النَّماذج الأوروبيَّةِ.

= ذلك المُصمِّم أنَّ الاستغناء عن هذه الأشكال المخصوصة يسهِّل الطباعة بالحرف العربي. (المترجم)

وتأسَّست أول مطبعةٍ في إستانبول على يد بعض المهاجرين اليهود بعد طردِهم من الأندلس عام ٨٩٢هـ/ ١٤٩٢م. وربما نشَروا أوّلَ مطبوعاتِهم في أواخر عام ٨٩٣هـ/ ١٤٩٣م؛ ثم طبعوا كتابَهم الثاني -وكانت طبعةً من التَّوراة- في أبريل من عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م. ونُشِرَت طبعة التَّوراة، باللغةِ الفارسيَّةِ بالحرفِ العبريِّ في إستانبول في ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م. وبدأ الأرمنُ الطِّباعةَ في إستانبول في عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، فأسَّس اثنان من الأرمن مطبعةً، بعد أن تعلَّما أصولَ الطِّباعةِ في البُندقية، ورعى الرهبان الدُّومينيكان (Dominican) اللّاتين هذه المطبعة الأرمينيَّة. فأخرجت ستَّةَ كُتبٍ على مدى العامين التَّاليين، باستخدام خُطوطٍ جُلِبَت من البُندقيَّة.

واتَّبعت قصَّةَ الطِّباعة في إيران الصَّفوية المسارَ نفسه. فقد دخلَت الطِّباعةُ البلاد، أو فلنقُلْ -بعبارةٍ أدق- أُعيد إدخالها في إيران في عام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، عندما تسلَّم الكَرمليُّون في أصفهانَ مطبعةً من روما، كانت تشتمل على ٣٤٩ حرفًا عربيًّا، إضافةً إلى جهازين لإعداد حروفِ المطبعةِ، ولكن لا يُعرف ما إذا كانت المطبعة قد طبَعت كتبًا قبل عام ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م، عندما تَسلَّمَها نائبُ القائدِ الكَرملي. واحتفظَت شركةُ الهند الشَّرقية الهولندية بالمطبعةِ في مخزنها الكائن في أصفهان حتى عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م، ثم أعادَتها إلى الكرمليِّين مجددًا.

في غضون ذلك، تأسَّست مطبعةٌ أرمينيةٌ في جلفا الجديدة -إحدى ضواحي أصفهان- في عام ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م، وبعد سَبعة عشر شهرًا من التَّجربة والخطأ نجَح الأسقف خاكاتور كيساراكائي (Khac'atur Kesarac'i) في طباعةِ **سفرِ المزامير** في عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م. وعلى الرَّغم من أنه استخدم الأحرفَ المنحوتةَ من الخشبِ والمَسبوكة من الحديد والنُّحاس، عوضًا عن الأحرفِ المِعيارية المصنوعة من الرَّصاص، فيبدو أن مشكلتَه الرئيسةَ تمثَّلت في العثور على الورقِ والحبرِ بجودةٍ عاليةٍ، فلم يكن الورقُ الفارسيُّ المصنوع للكتب الفارسيَّة سطحًا ملائمًا لامتصاصِ الحبرِ في أثناء عملية طباعة النَّص على نحوٍ مثاليٍّ.

بيد أن كيساراكائي ما لبِثَ أن تمكَّن من طباعةِ كتابَين دينيَّين آخرين في عام ١٠٥١هـ/ ١٦٤١-١٦٤٢م، لكنه أرسَل بعد ذلك أحد تلامذته، وكان يُدعى هوڤهنِّيس (Hovhannes)، إلى أوروبَّا لتعلُّم تقنية الطِّباعة. وبعد أن طبَع هوڤهنِّيس كتابًا باللغة

الأرمينيـة فـي ليڤورنو (Livorno) في عـام ١٦٤٤م، عاد إلى بلاده مُصطحبًا مطبعةً وخطًّا مسبوكًا بأحـرفٍ مـن الرَّصـاص. غير أنه كان يُعانـي من عدم وجود حبرٍ مناسـبٍ، وكان ينتوي طباعةَ **الكتاب المقدَّس**، ومن الواضح أن تلك المطبعة لم تُستخدَم قط حتى عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م، عندما طُبِعَت تسعةَ كتبٍ دفعةً واحدةً.

ويمكـن تفسـيرُ المقاومة العُثمانيـة خاصةً -والإسـلاميَّة عمومًا- للطِّباعـةِ جزئيًّا من خلالِ التَّوقير الذي أبداه المُسلمون، ولا سيما العُلماء، للكلمةِ المكتوبةِ بخطِّ اليد. فكما رأينا، تمتَّع الكتبةُ والخطَّاطون بمكانةٍ خاصَّةٍ في المجتمعات الإسلامية، واحتكروا نقلَ النُّصوصِ وتكاثرها حتى القرن الثامن عشر الميلادي، عندما شرَع المسلمون في طباعة الكتبِ. وعلى الرغم من مُعارضةِ بعض العُلماء للطباعةِ، فيبدو أن العقبةَ الرئيسةَ تمثَّلت في معارضة الورَّاقين والنسَّاخين خاصةً.

وتمتَّع النسَّـاخون والورَّاقون بسلطةٍ اقتصاديةٍ وسياسـيةٍ كبيرةٍ في العاصمة العُثمانية، فقـد قدَّر العالِـمُ البولوني لويجي فردينانـدو مارسـيجلي (Luigi Ferdinando Marsigli) -الـذي أسَـره العثمانيُّـون، واشـتراه أحـدُ الباشـوات، ثـم أعتقَـه لاحقًـا فـي عـام ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م- عدد النُّسَّـاخ العاملين في إسـتانبول وحدها بـ ٨٠ ألف ناسـخٍ. ولا شك في أن إدخالَ الطباعةِ إلى بلادهم كان سيجعلهم -وزملاءهم في أماكن أخرى- في حُكمِ العاطلين عن العمل.

وعلى الرغم من هذه المقاومة، جادل المؤرِّخ والدِّبلوماسي العثماني إبراهيم بشَوي -وهو سليلُ أسرةٍ خدمتِ السَّلاطين العُثمانيِّين لأجيالٍ خلَت- في كتابِه المسمَّى **التاريخ** فـي الأربعينيَّات من القرن السَّـابع عشـر الميـلادي، بأن المَطبعة لم تعُدْ شـيئًا غريبًا على المجتمع التُّركي، وأن المُجتمعَ ينبغي أن يتقبَّلها بسبب السُّرعة التي يمكن أن تُخرِجَ بها عددًا كبيرًا من الكتبِ بمجرد الانتهاء من العمل المُمِلِّ في تنضيدِها. ومن المثير للدَّهشةِ أن دعـوةَ بشـوي لم تُسْـمِعْ حيًّا. وبعد ما يقـربُ من ثمانين عامًا على وفاة بشـوي، افتتَح إبراهيم مُتفرِّقة أول مطبعةٍ مملوكةٍ للمسلمين في تاريخ الدولة العثمانية.

وُلِـدَ إبراهيـم مُتفرِّقـة مـن أبويـن نصرانيَّيـن بين عامـي ١٠٨١-١٠٨٥هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٤م في ترانسـيلڤانيا (Transylvania) التي كانت تُسيطر عليها الدولة العثمانية آنئذٍ.

وتلقَّى تعليمَه بوصفه نصرانيًا موحِّدًا في إحدى كليَّات اللاهوت بالمَجر، ثم لم يلبث أن فرَّ من المجر عندما سقطت في قبضة آل هابسبورغ (Hapsburg) الكاثوليك، وانضمَّ إلى القوات المجريَّة التي تحالفت مع العُثمانيِّين. وفي الأخير انضمَّ إبراهيمُ إلى الإدارة البيروقراطيَّة العُثمانية، ثم ما لبِث أن اعتنق الإسلام، وانضم إلى سلاحِ المُتفرِّقة، وهم حراسٌ مقيمون، جرتِ العادةُ بتكليفهم بمهام عامةٍ أو سياسيةٍ مهمةٍ. وشارك إبراهيم في عددٍ كبيرٍ من البعثات الدِّبلوماسية الموفَدة إلى النِّمسا وروسيا.

وبعد أن زار محمد يرميسكيز جلبي أفندي فرنسا، بوصفه سفيرًا مفوضًا من قبل السلطان أحمد الثَّالث إلى بلاط الملك لويس الخامس عشر (Louis XV) بين عامي ١٧٢٠-١٧٢١م، غدا على قناعةٍ بضرورةِ إنشاء مطبعةٍ في إستانبول. وتضامن معه ابنه سعيد أفندي، والصَّدر الأعظم داماد إبراهيم باشا، وكذلك شيخُ الإسلام، وهو الشَّخصية الدِّينية الأكثر أهمية في المجتمعِ العُثماني وقتئذٍ. ومن ثم شجَّع محمد يرميسكيز إبراهيم مُتفرقة على إنشاء مطبعةٍ في إستانبول.

وقدَّم إبراهيمُ عريضةً للمشروع في مقالٍ بعنوان «آلة المطبعة»، وجَّهها إلى الصَّدر الأعظم، تضمَّنت عرضًا رائعًا لفواتِ العلمِ في الإسلام بسبب عدم إتقان المُسلمين للطِّباعة، والفَوائد التي تعود على المسلمين والدولة العُثمانية من إنشاءِ المطبعةِ. وتناول في مقاله كذلك الفوائد التي تعود على الرَّعية التي تمسُّ حاجتها إلى التَّعليم، والطَّبقات الحاكمة، وفائدة الاحتفاظ بالكُتبِ من خلال طباعتها عندما تُباد المخطوطات بسبب الحرب (كما حدَث في أثناء اجتياح النَّصارى للأندلس وفي أثناء اجتياح المغولِ للعالم الإسلامي).

ولم يُبدِ إبراهيم مُتفرِّقة اهتمامًا يذكر بطبعِ المُتونِ المُثيرةِ للجدل من الناحية الدينيَّة، ومن ثم لم يواجه كبيرَ مُعارضةٍ من جانب العُلماء. بل حصَل على فتوى من شيخِ الإسلام بجواز طباعة الكُتبِ. وكما كان متوقَّعًا، يبدو أن المعارضةَ الرئيسةَ قد جاءت من النُّساخ والخطَّاطين والورَّاقين، الذين رأوا في المطبعةِ تهديدًا يوشك أن يقطعَ مصدرَ أرزاقِهم. ومع ذلك أصدَر السلطانُ أحمد الثَّالث فرمانًا يأذن فيه بفتح مطبعةٍ مُتخصِّصةٍ في موضوعاتِ عمليَّةٍ محددةٍ لا تتعدَّاها إلى غيرها، مثل: الطب، والحِرَف والمِهَن، والجغرافيا، دون العلوم الإسلامية.



شكل (٨٦): افتتاحية تاريخ راشد أفندي (Tarikh-i rashid afandi)، وهو مصنَّفٌ في تاريخ الدَّولة العُثمانية يبدأ بحوادث عام ١٠٦٠هـ/ ١٦٦٠م. طبَعه إبراهيم مُتفرّقة في القسطنطينية (إستانبول)، ١٧٤١هـ/ ١١٥٤م.

وعلى هذا النَّحو أضحى إبراهيم متفرقة أول مُسلمٍ يُنشئ مطبعةً في إستانبول، ولكن نشأته بوصفِه نصرانيًّا موحّدًا، والتَّعليم الأوروبي الذي تلقاه، أسهما بلا شكٍّ في اهتمامه بالطِّباعة. وفي عام ١١٣٤هـ/ ١٧٣١م صنَّف إبراهيم كتابًا شرَح فيه تراجع الدَّولة العثمانيَّة مقارنةً بالدولِ النَّصرانيَّة الأوروبيَّة، وأكد على حاجةِ العُثمانيِّين للاستفادة من العلومِ الحديثة، ولا سيما الجغرافيا والعلوم العسكرية.

وأثمرت محاولتُه الأولى في مجال الطِّباعة عن طباعةِ خريطةٍ لبحر مرمَرة في عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩-١٧٢٠، طبَعها على الأرجحِ من خلال لوحاتٍ ومطبعةٍ جلَبها جميعًا من ڤيينا، وأهدَى خريطتَه للصَّدر الأعظم. وعلى امتداد السَّنوات التَّالية طبَع خريطتَين إضافيَّتين، إحداهما للبحرِ الأسودِ (١١٢٧هـ/ ١٧٢٤-١٧٢٥م) والثَّانية لبلاد فارس (١١٤٢هـ/ ١٧٢٩-١٧٣٠م). ولمَّا صدَر الفرمان بإغلاق المطبعةِ في عام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م، كان إبراهيم قد طبع ١٧ مُصنَّفًا تضمَّنت بعض المعاجم وغيرها من الكتبِ الدُّنيوية (انظر: شكل ٨٦). وظلَّت طباعةُ المصحفِ وغيره من الكتبِ الدِّينيةِ محظورةً.

وبعد وفاة إبراهيم مُتفرِّقة، واصَل نائبه وزوج ابنته القاضي إبراهيم أفندي عمَل رئيسِه وصِهره الرَّاحل، ونشَر سبعة عناوين أخرى بين أعوام ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥-١٧٥٦؛

١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤-١٧٩٥م. وبحلول نهاية القرن الثَّامن عشر الميلادي، تمكَّن المُسلمون الرُّوس من طباعةِ المُصحفِ كاملًا.

وخفَّت حدَّةُ الاعتراضات العمليَّة والاجتماعية على طباعةِ الكتبِ باللغة العربية بعد أن ابتكر بوهيميان ج. ن. ف. سينيفيلدر (Bohemian J. N. F. Alois Senefelder) الطِّباعة الحجريَّة في ميونخ بين عامي ١٧٩٦-١٧٩٩م، وتميَّزت الطِّباعة على الحجرِ باستنساخٍ كاملٍ لا تشوبه شائبة لصفحاتٍ منسوخةٍ بخطِّ اليد، وذلك على النَّقيض من الطِّباعةِ من النَّمطِ البارد (Cold type)، التي تطلَّبت وضع كل حرفٍ على حدةٍ. ثم تطورت الطريقة التي ابتكرها سينيفيلدر نفسه، حيث كتب الخطَّاط بسائلٍ خاصٍّ على ورقٍ من نوعٍ خاص. ثُم نُقِل النصُّ الناتج إلى حجرِ الطباعة، والذي مكَّن الطبَّاعين من سحبِ عدد غير محدود من النُّسخِ من خلاله. وعلى هذا النَّحو انتشرت الطباعةُ الحجريَّةُ في العالم الإسلامي سريعًا في غضون بضعةِ عقودٍ، وذلك على النَّقيض من المطبعة من طرازِ الأحرفِ المتحرِّكةِ، والتي استغرقت عدَّة قرونٍ ليتقبَّلها العالم الإسلامي.

وعلى الرغم من أن الطبَّاعين الأوروبيِّين فضَّلوا إعدادَ النصِّ العربيَّ بالطِّباعة من النَّمط البارد، فقد فضَّل عددٌ كبيرٌ من القُرَّاء العرب قراءة الصَّفحات المطبوعة طباعةً حجريَّةً، لأنَّ الكتاب المطبوع على الحجرِ كان يُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ قراءة مخطوطٍ منسوخٍ بخطِّ اليد. وأنشأ المسلمون مزيدًا من المطابع وطبَعوا عددًا كبيرًا من المتونِ طبعاتٍ حجريَّة في القرنِ التَّاسع عشر الميلادي. كما طُبعت أعدادٌ كبيرةٌ من الكتبِ المُصوَّرة من الكلاسيكيَّات الفارسيَّة، والحكايات الشَّعبية، والتَّرجمات من اللغاتِ الأوروبيَّةِ طباعةً حجريةً في طِهران وتِبريز منذ أربعينيَّات القرن التَّاسع عشر الميلادي. وأسفَر إدخالُ الطِّباعةِ الحجرية في أوائل القرن العشرين، ثم ظهور الحاسوبِ في أواخر القرنِ العشرين عن حلِّ جميع الصُّعوبات الفنِّية التي تبقَّت في الطِّباعة باللغةِ العربيةِ.

وإذا حكَّمنا مسيرةَ التَّاريخ الطويلة، فإنَّ تأخر العالم الإسلامي في قبولِ الطِّباعة لم يعدُ كونه مجرد توقفٍ قصيرٍ في حركةِ الانتشارِ المستمرّ للاختراعاتِ والابتكارات عبر أوراسيا. وفي ضوء ذلك، فإنَّ تاريخ الطِّباعةِ لا يختلف عن تاريخ صناعةِ الورقِ: فقد ظهر كلا الابتكارَيْن في الصِّين ثم انتشرا غربًا، حتى وصَلا إلى ساحلِ المحيطِ الأطلسي. وبالنِّسبةِ للورقِ، فإنَّ الطريقَ واضحةٌ: فقد تبنَّت أوروبَّا الورقَ وصناعته من العالم

الإسلامي. أما بالنسبةِ للطِّباعةِ، فلا يزال مُتعيِّنًا على الدَّارسين تحديد العلاقة بين اختراع جوتنبرج والاستخدامات السَّابقة للمطبعةِ من طرازِ الأحرفِ المُتحرِّكةِ في الصِّين.

وعلى أيَّة حال، فقد انتشَرت الطباعةُ من أوروبَّا إلى العالم الإسلامي. ولم تكن الفجوةُ بين اختراع جوتنبرج في العقدِ السَّادس من القرنِ الخامس عشر الميلادي وبداية الطِّباعة في غرب آسيا بعد ثلاثة قرونٍ في وقتٍ لاحقٍ حاسمةً، وذلك لأنَّ المُجتمعَ الإسلامي كان قد طوَّر بالفعل وسائلَ عمليَّةً وفعَّالةً لتكاثر النُّسخ من المتنِ الواحدِ، ونشْر أعدادٍ كبيرة منها في المقام الأول. ومن ثَمَّ، لم يكن لاختراع الطباعة كبيرُ تأثيرٍ على تاريخ الورقِ في العالم الإسلامي.

بيد أن الأهم من ذلك -في سياقِ التَّمييز بين تاريخي العالم الإسلامي وأوروبا، وكذلك بيانِ سبب اضمحلال صناعة الورق في العالم الإسلامي- كان تطوير الأوروبِّيين لموقفٍ «تِقنيٍّ» في أواخر القرون الوسطى. وعرَّف مارشال ج. س. هودجسون (Mar-shall G. S. Hodgson) مُصطلح النَّزعة التقنيَّة (*Technicalism*) -وكان أوَّل من استخدَمه- على أنها: «توقُّع كفاءةٍ لا تستندُ إلى الصَّانِع، من خلالِ دقة أداء الآلةِ»، وعلى هذا النَّحو طوَّرت أوروبا «نهجًا تقنيًّا» للمشكلاتِ وطُرقِ حلِّها منذ القرن السَّادس عشر الميلادي، وشيئًا فشيئًا ميَّزت هذه النَّزعة المجتمعاتِ الأوروبيَّة عن نظيرتها الإسلامية على نحوٍ مُتزايد.

وإذا غدَت المجتمعات الإسلاميَّة لاحقًا أقلَّ تقبُّلًا للابتكارِ من المجتمعات الأوروبيَّة، فإنَّ هذا الموقف لم يكن هو الموقفُ السَّائد في جميع الأحوال. ففي أواخر القرن الثَّاني الهجري/ الثامن الميلادي، عالج البيروقراطيُّون المسلمون في بغدادَ مشكلة الكمياتِ المحدودةِ من حواملَ الكتابةِ، من خلال قبولهم للورقِ والبدء في صناعتِه. وكان أوائل العصرِ العبَّاسي عصرًا من عصورِ الفضول الثَّقافي الاستثنائي والثورة الفكرية، مقارنةً بالنَّهضةِ الأوروبيَّةِ. وكان العلماء في العصر العبَّاسي مُنفتحين على نطاقٍ واسعٍ على الأفكار من جميع أنحاء العالم: فكان الورقُ والأرقامُ الهندو-عربية من بين نتائج هذا الانفتاح. لكن هذا الوضع تغير بالكليَّة في أواخر القرون الوسطى، وذاك لأنَّ المجتمعاتِ الإسلاميَّةَ أضحَت أقل حماسةً بكثير بشأن استثمارِ رأس المال في التَّحسينات التقنيَّة. وفي هذه المرحلة أخذت أوروبَّا زمامَ المبادرةِ.

وأظهـرت المجتمعـات الأوروبيَّـة منذ أواخر القرونِ الوسـطى إلـى العصر الحديث نزعةً إلى الابتكارِ التقنيِّ على نحوٍ غير مسبوقٍ، وقدرةً فائقةً على توليدِ الثَّروة الاقتصادية، ومشاريع القُوة العسكرية. وعلى الرغم من أن المجتمعاتِ الأوراسيَّةَ الرئيسةَ كانت على بسـاطٍ واحـدٍ، وتمتعـت بتكافؤ نسـبيٍّ نحـو عـام ١٥٠٠م، فقد أعـادت الثَّقافـةُ والقدرةُ العسـكرية الأوروبيتان تشـكيلَ العالم بعد ثلاثة قرون لاحقًا. وتكمن جذور هذا التطور الاسـتثنائي في مجموعـةٍ من الظروف الاجتماعيَّـة والاقتصادية والثقافيـة التي تداخلت معًـا: فقد اختلفـت المجتمعاتُ الأوروبيةُ اختلافًا عميقًا عن المجتمعاتِ الإسـلاميَّة في الشـرقِ الأوسـط من نواحٍ كثيرةٍ، منها: بِنية الأسـرة، وطبيعة الحكومـة، ودرجة ارتباطها بالدِّيـن. ولطالمـا حمَلت الحكومات الأوروبيَّة -فضلًا عن الكنيسـةِ النَّصرانيَّة نفسِـها- إيمانًـا بوجود مصادرَ علمانيَّةٍ مُسـتقلَّةٍ للقيم المدنيَّـة والثَّقافية. وعمِلت كل هذه العوامل على تعزيز التعدُّدية المتأصِّلة في الدُّول الأوروبية، فولَّدت الفصل بين الدَّولة والكنيسـة فـي التطـور الأخيـر. وكانـت المظاهـرُ الأوليَّـةُ في أواخـر القرون الوسـطى، هـي النُّمو التجـاري، والتَّمايـز الاجتماعـي، وتحفيـز مجموعـاتِ الشَّـركات الخاصـة -ولا سـيما النِّقابات الأهليَّة- على العمل على تعزيزِ مصالح أعضائها.

ويمكن مقارنة الإحساسِ النَّامي بالتعدُّدية في أوروبَّا، الذي أدَّى -بدورِه- إلى زيادة الوعـي بالفـردِ وقيمتِـه الذاتيَّة، بالالتزام الكُلِّي للمُجتمعات الإسـلامية بسـيادةِ الشَّـريعة القائمـة علـى القرآن والسُّـنةِ وفوقيَّة «الأمَّـة». ومن ثم فقد تحدَّدت التزامـاتُ الفردِ تجاه مجتمعه من خلال الأوامر والنَّواهي التي حدَّدها الدِّين.

واتَّبعت أوروبَّا هذا التوجُّه الجديد القائم على الاختراع التِّقني، مثل: صناعة الورق، والسَّـعي وراء الرفاهةِ الماديةِ في أوائل القرنين الثَّالث عشـر والرابع عشر الميلاديين في إيطاليا، وفي فلاندرز (Flanders)، وعلى طولِ سـواحل بحر البلطيق، ما أسفَر عن ظهورِ تقنياتٍ جديدة للاستثمار والبنوك والتَّأمين. وبالغ الأوروبيُّون في الميلِ إلى التعدُّدية في عصرِ النَّهضةِ، ولا سـيما من خلال حركة الإصلاح الديني (Reformation)، حيث اندفع الأفراد إلى البحثِ عن أماراتٍ دنيويَّةٍ لخلاصِهم من خلال العمل المُمنهج والمُخلِص. ومـع هـذا التحـوُّلِ، أخضَـع النـاسُ -على نحـو ممنهج- جميـع الاعتبارات الشَّـخصية والعاطفيـة والجماليَّـة، بـل والأخلاقيَّة أيضًا، لنظرتهم إلى الحيـاة وطريقتِهم في العيشِ.

وقد أسفَرت هذه المعتقدات عن قدرةِ المرء على إبداء التزامٍ -غير مستندٍ إلى الذَّاتِ أو إلى العاطفةِ- بالمعايير المُتأصِّلة في المؤسَّسة التي انتمَى إليها، والسَّعي لتحقيقِ الأهداف الخاصَّة بها في الأخير.

وعلى هذا النَّحو امتلك الأوروبيُّون شكلًا فريدًا من أشكالِ التعدُّديَّة الاجتماعيَّة والمؤسَّسيَّة، إضافةً إلى العقليَّة التي شدَّدت على الابتكار، والنَّشاط الدُّنيوي الفرداني، والهيمنة العُدوانية الخشِنة، والتجارب التقنيَّة. وتضافرت هذه المواقف جميعًا ومنحَت الأوروبيِّين التقدُّمَ الذي منحَهم -بدوره- التفوق العسكري والتِّجاري في جميع أنحاء العالم في العصرِ الحديثِ.

ومن ثم، لا تكمن جذور ثورة الطِّباعة في أوروبا في اختراع جوتنبرج للمطبعةِ ذات الأحرفِ المتحركةِ فحسب، بل في الارتباط العَظيم بالاختراع، وبالحاجة إلى التوسُّع الاقتصادي، الذي اشتَمل على نموِّ القوةِ الاقتصادية الألمانيَّة، وفتح مناجم جديدة في جبال هارتز (Hartz) في بوهيميا (Bohemia)، والمجر، وستيريا (Styria). وكذلك في تطوير الأوروبيِّين لتقنياتٍ جديدةٍ للتَّعدين، وانتشار صناعة الورقِ، واختراع أحبارٍ جديدةٍ تعتمد على قاعدةٍ زيتيَّةٍ، وظهور أشكالٍ جديدةٍ من الرَّأسمالية، وحركة الإحياء الفكري التي جعَلت الناسَ توَّاقين للقراءةِ.

وأدَّت النَّزعة التِّقنية بالأوروبيِّين بالمثلِ إلى تغيير مسارِ صناعة الورق الأوروبية منذ أواخر القرن السَّابع عشَر الميلادي، وتمييز منتجاتها عن الورق المصنوع يدويًّا في أي بُقعةٍ أخرى من العالم، واختراع الخفَّاق الهولندي (Hollander beater)، الذي يمكن أن يُنجِز في ساعةٍ واحدةٍ ما تُنجِزه المِطرقة القديمة في يوم كاملٍ. ثم تبعها في نهاية القرن الثامن عشر آلة صناعة الورق (*Fourdrinier*)، والتي إذا غُذِّيت بكميَّاتٍ كافيةٍ من اللُّبِّ، فإنها يمكن أن تخرج شريطًا لا نهايةَ له من الورق من أي قطعٍ تقريبًا. وفي غضون ذلك، كان المهندسون والعلماء الأوروبيُّون يبحثون عن موادَّ خامٍ جديدةٍ يصنعون منها الورق، وطُرقٍ جديدةٍ لاستغلالِ هذه المواد. ومن ثم أسفرت جهودهم عن موادَّ كيميائيةٍ مُبيِّضةٍ، أتاحت لهم استغلال مخزونات كانت متوفرة سلفًا من الألياف، وغدا بوسع صُنَّاع الورق استخدامها في صناعتِه آنذاك، فضلًا عن طُرقٍ لاستخراج كميات غير محدودة من السُّليلوز من الأشجار.

ولا يسعُ أحدٌ إنكار أهمية الطِّباعة في التحوُّلِ الكبيرِ للحضارةِ الأوروبيَّة. لكن الورق -وهو المادة التي نقلتها الحضارةُ الإسلاميةُ من الصِّين إلى أوروبَّا- كان الاختراع الأكبر في تاريخ البشـريَّةِ؛ فلم يُسـهِم حامل الكتابةِ الأرخص الجديد في جعل التَّعليم التَّقليدي أكثر سـهولةً فحسـب، بل شـجَّع أيضًا على التَّعليـم الجديد، فمهَّد طرقًا جديـدةً للتَّفكير وتمثيـلِ الأفكارِ. وكمـا أدرك ألفريد ڤون كريمر (Alfred von Kremer) منذ أكثر من قرنٍ مضى من الزَّمان، وكما أصبحنا نعي الآن ذلك جيدًا؛ فإن «ازدهارَ النَّشاطِ الفكريِّ» الذي أتاحَه الورقُ قد «افتتَح عهدًا جديدًا للحضارةِ الإنسانيَّةِ».

قضايا ببليوجرافيَّة

وردَت المصـادر المذكـورة هنا في قائمة المصادرِ التي تتلو هذا الفصل مباشـرةً. بيد أن هـذا الفصـل يحتوي على اقتراحاتٍ وإحالاتٍ ببليوجرافيةٍ شـخصيَّةٍ، لمن أراد مزيدًا من التَّعمقِ في تاريخ الورق، ولم يكن القصدُ منه تقديمَ قائمةٍ ببليوجرافيَّةٍ علميَّةٍ شاملةٍ. وأُشير على القارئ -في المقام الأول- بمعاودة: المُصنَّفِ الجليل المُزوَّد بمعجم ثلاثي اللغة للمُصطلحات المسـتخدمة في صناعة الـورق، (Le Lénnec-Bavavéas 1998). أمَّا عن اختصارات المُصنَّفات التي تكرَّرت الإشارة إليها هنا فهي:

DMA: Dictionary of the Middle Ages.

DoA: The Dictionary of Art.

EI²: The Encyclopaedia of Islam, ²ed.

المدخل

التعليق العرَضي «الورق»:

فضلًا عن مثلِ هذه الموسـوعات والمصنَّفات النَّموذجية من قَبيل مُصنَّف (Hunter 1978) و (Tsien 1985)، تجِـدُ تمهيـدًا ملائمًـا عـن تقنيـةِ صناعـةِ الـورق فـي: (Dempsey n.d). ولإلمامـةٍ عامـةٍ مفيـدةٍ عـن الـورق الرَّقيـق المعاصـر، مشـتملةً على صُـورٍ وكذلك على بعـض العيِّنات، انظـر أيضًا: (Turner 1998).

والْحَظْ أنه ليس ثَمَّ كتاب تناول التاريخ العام للورق صدَر حديثًا باللغة الإنجليزيَّـة منـذ صـدور مُصنَّـف (Hunter 1978)، الـذي صـدَرت طبعتـه

الأولى في عام ١٩٤٧. وقد عفا عليه الزَّمن، كما أنه لم يتطرَّق إلى الورقِ في العالـم الإسـلامي. وتميـل دراسـةُ (Polastron 1999) إلى استعراض تاريـخ الـورق عالميًـا، وفـوق ذاك فهو لا يخلـو من توازنٍ وتشـويقٍ، على الرغـم من أنه يفتقر إلى التَّفاصيل الدَّقيقة. أما دراسـة (Turner 1998) فهي مقدمـةٌ موجـزةٌ لتاريخ الـورقِ، وبمثابة دليـلٍ جيِّدٍ للورق المعاصر، سـواء المصنَّع يدويًّا أو آليًّا من خلال الماكينات، كما أنَّه تضمَّن عيناتٍ لعددٍ كبيرٍ من الأوراق التي صُنِعت لأغراضٍ خاصَّةٍ.

إنَّ عـددًا كبيـرًا مـن مصادر بحثـي غير معروفـةٍ للقارئ العـام، ومن ثم فإنِّنـي أوجِّـه القـارئ -بكل سـرورٍ- إلـى مجموعـةٍ من المراجـع القديمة المطبوعة الرَّائعة، ومنها -على سبيل المثال لا الحصر- معجم الفن (*The Dictionary of Art*) والـذي سأشـير إليـه اختصـارًا فيمـا بعـد بـ: (*DoA*)، ومعجـم القـرون الوسـطى (*The Dictionary of the Middle Ages*) والذي سأشير إليه اختصارًا بـ(*DMA*)، ودائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشـرة (*The Encyclopedia Britannica,* 11th Ed.)، ودائـرة المعـارف الإسـلاميَّة، الطبعـة الثانيـة (*The Encyclopedia of slam,* 2d Ed.) ، والتـي سأُشير إليها اختصارًا بـ(*EI*2). ودائرة المعارف الإيرانية (*The Encyclopedia Iranica*). فضـلًا عـن عـددٍ كبيـر من المصـادر الأخرى، وهنـاك أيضًا بعض المقالات الجديدة (غير المطبوعة)، والمنشورة على الشَّبكةِ الدَّوليَّة للمعلومـات (الإنترنـت)، ومـن ذلـك: (موقـع الرَّابطـة الدَّوليـة لمؤرِّخي الـورق) http://www.paperhistory.org، وموقـع معهد علـوم وتكنولوجيا الورقِ في أتلانتا Institute of Paper Science and Technology in Atlanta, Ga.) www.ipst.edu/amp/museumdhunter.htm .

أمـا عـن لوحتـي لالانـد (Lalande) المُتعلِّقتَيـن بصناعةِ الـورقِ، فتجد أولاهمـا فـي: (Hunter 1978, fig. 138.)، والثَّانيـة فـي (Polastron 1999, p.120) وقـد أخَذهمـا بـدورهِ مـن: (Simonneau 1698). وأُعيـد نشـرُ نصِّ

لالاند (Lalande) برمَّته عام ١٧٦١، مُصوَّرًا بتقنية الفاكسميلي، مع بعضِ كتاباتِ القرن الثَّامن عشر في: (Les art du papier 1984)، ثم تُرجِم إلى الإنجليزية أخيرًا في: (Atkinson 1975).

وعن اكتشاف عُنصر الكلورِ (Chlorine) وخصائصه المُبيِّضة، انظر في ذلك: (Hunter 1978, p. 318)؛ وكذلك عاوِدْ دائرة المعارف البريطانيَّة (Encyclopedia Britannica, s.v. Chlorine). وناقش هانتر تاريخ آلة صناعةِ الورقِ وتجارب صُنع الورق من الأخشاب في: (Hunter 1978, Ch.12-13). وبدأت الدِّراسةُ الجادَّة للعلامات المائيَّة الأوروبيَّة على يد بريكويت (Briquet 1907). أما شُروحات ديدورت (Diderot) فبوسعك العثور عليها في (Diderot and d'Alembert 1966, s.v. Papetterie). وتجدُ ملحوظات دنتون (Denton) عن تدنِّي جودة الورق الصِّيني، وكذلك ملحوظات أولريوس (Olearius) عن القَلمِ المصنوع من ريش الإوَز والقَلم المصنوع من القصَبِ في: (Bosch, Carswell and Petherbridge 1981, no. 32). ونُوقِشَت فكرةُ صناعة الورق من الجوت، ورسالة ريمور (Réamur)، وكذلك التَّجارب التي أجراها شافير Schäffer في: (Hunter 1978, 313-330). وثَمَّ مدخلٌ تمهيديٌّ ملائمٌ عن أوراقِ دونهوانج في (*DoA,* s.v Dunhuang).

وراجِع بشأنِ حقيبةِ البريد التي احتوت على الرَّسائل الصُّغدية: (Encyclopedia Iranica, s.v. Ancient Letters). أمَّا عن روايةِ الثَّعالبي فتجدها في (Bosworth 1968, 140). وعن تردُّدِ العالم الإسلامي في قبولِ الطِّباعة، انظر (*DoA*, Islamic art, III.8 ii). وعن الطِّباعةِ باللغةِ العربية في مطابع أوروبَّا، انظر (Roberts 1997)، وعن تأثيرِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ على أوروبَّا، انظر (Kagan 1997). أمَّا عن الفحوصاتِ الفنيَّة الأولى للورقِ الإسلاميِّ، فانظر: (Wiesner 1986). وعن الانتقال من الطُّرق التَّقليديَّة في حفظِ السِّجلَّات ذِهنيًّا، إلى تدوين الحساباتِ والوصايا والعُقود على الورق، انظر: (Clanchy 1993; Febvre and Martin 1990).

الفصل الأول

اختراع الورق

التَّعليق العرَضي «البردي»:

عـن صناعـةِ ورق البَـردِي فـي العصـورِ القديمـة، انظـر: (Parkinson and Quirke 1995; *DoA*, s.v. Papyrus.)؛ ولإلمامـةٍ بالخصائصِ الفنِّية لأوراق البَردِي الإسلاميَّة، انظر: (Khan 1992 and 1993).

التعليق العرَضِي «الرَّق»:

عن صناعةِ الرَّق، انظر: (*DoA*, s.v. Parchment). وعن ظروفِ حفظِ إعلان الاستقلالِ الأمريكي، انظر: (Leary 1999).

التعليق العرَضي «اللُّـبود»:

عـن الاختلافـاتِ التِّقنيَّةِ بيـن صناعةِ الـورقِ وصناعة اللُّبـود، انظر (Tsien 1985 36; *DoA*, s.v. Felt). ويقـوم صنَّـاع الورق بحشـرِ اللُّباد بين الأوراق المُشكَّلة للتو في الرِّزْمةِ أو تحت المِكْبس قبل عملية كَبس الورق للتخلُّص من الماءِ في الأوراق المصنوعة حديثًا.

التَّعليق العرضي «الورق الياباني»:

عـن الـورقِ الياباني بصفةٍ عامـةٍ، انظـر: (*DoA*, s.v. Japan §XVI, 18, Paper)، وانظـر خاصـةً: (Barrett 1992). وعـن اسـتخدام رامبرانـت (Rembrandt) للـورق اليابانـي فـي بعـضِ لوحاتِـه، انظـر (Sayre and Stampfle 1969, 178-80). وعـن اكتشـافِ الأوروبيِّيـن للبضائـع اليابانيَّـة –مُتضمِّنةً الورق– في القرن التَّاسع عشَر، انظر (*DoA*, s.v. Japonism).

ألواح الطين ولِفافات البردي:

عـن الكيفيَّـةِ التـي غيَّـر بها اختـراع الكتابـةِ المُجتمعـات البشـرية، راجع: (Havelock 1986 and Diamond 1997, chap. 12). واختُرِع أول نظام كتابةٍ

معروفٍ في بلاد ما بين النَّهرين. وعن أنظمـةِ الكتابة، فضلًا عن عددٍ كبيرٍ مـن الأفـكار حول الكتابة التي ذُكِرت في هذا الفصل، وكذلك على امتدادِ الفصـول التَّاليـة، عـاوِد: (Martin 1994). وعن علاقةٍ مُحتملـةٍ ربَطت بين بـلاد مـا بين النَّهريـن والصِّين فـي عصورٍ ما قبـل التَّاريخ، انظـر: (Barber 1999). وناقَـش كل مـن دانيال وبريت تطوُّر الخط المِسـماري على الطِّين النَّاعـم في: (Daniels and Bright 1996, 33ff).

ولإلمامـةٍ عامةٍ جيـدةٍ بموضوع ورق البردي وما تعلَّـق به، انظر: (Parkinson and Quirke 1995). وعن مُصطلحات: الهيروغليفية (*hieroglyphic*) والهيراطيقيـة (*hieratic*) وهـي مُسـمَّيات أطلقهـا كليمنت السَّـكندري (Clement of Alexandria) فـي أواخـر القـرن الثَّاني، وأوائـل القرن الثَّالث الميلادي؛ انظر: (Daniels et al. 1996, 73 ff.). ويُشـير الاكتشـافُ الأثريُّ الأخير بالقرب من مدينةِ الأَقْصُر إلى أنَّ المصريِّين ربما استخدَموا أبجديةً في وقتٍ أسـبقَ -إلى حدٍّ ما- ممَّا كان يُعتَقد سـابقًا، حيث اكتُشِف ما يبدو لنا وكأنه كتابات أبجدية منقوشة على الحجرِ الجيري، ربما في وقتٍ مبكرٍ مـن منتصف الألفيـة الثَّانية قبل الميلاد، وعن هذه المسـألة تحديدًا، انظر: (Wilford 1999). وعـن صلابـةِ القلـمِ اليوناني الذي عرَّض سـطح البردي الهشِّ للتمزُّقِ أثناء الكتابةِ، انظر: (*DoA,* s.v. Papyrus).

الألواح الخشبية وكُتب الرَّق:

ناقـش عـددٌ كبيرٌ من الباحثيـن، الانتقالَ من اللِّفافة إلى نَسـق الكتابِ (*Codex*) مـع الانتشـار المتزامـن للـرَّق، ومـن أبرزهـم: (Roberts and Skeat 1983) الـذي رأى أنَّ النصـارى الأوائـل دوَّنـوا الأناجيـل متَّبعيـن في ذلك التَّقاليد اليهودية في تدوين الشَّـريعة الشَّـفاهية. ولخَّص كليمنت الحِجاج فـي هذا الصَّـدد فـي: (Clement 1996)، وقـارن أيضًـا: (*DoA,* s.v. Book, §1)، حيـث قيل: إنَّ النَّصـارى تبنَّوا الكتب (*Codices*) تمييزًا لكتاباتِهم عن كتابـات معاصريهـم المدوَّنـة في اللِّفافـات، بمن فيهم اليهـود الذين دوَّنوا شـريعتهم علـى لِفافـات مصنوعةٍ من الـرَّق)، والرُّومان أيضًـا الذين دوَّنوا

مُصنَّفاتهم الأدبيَّةِ على لِفافات مصنوعةٍ من البردي. وعن الرَّأي القائل: إن صفحـةَ الكتـاب (*Codex*) وفّـرت -علـى نحـوٍ رائعٍ- أسـاليب جديدة «لا خَطِّيـة» للقـراءةِ والمراجعـةِ، انظـر: (O'Donnell 1998 and Pang 1999). وتنـاول وُتيـرز المخطوطة على هيئـة الكتاب (*Codex*) والتـي وُضِعَت في قواعدَ اللغة اليونانية، وهي محفوظة في مكتبةِ شيستر بيتي (Chester Beat-ty)، انظر: (Wouters 1990-91).

اكتُشِـفَ الكتـابُ السِّـينائيُّ (*Codex Sinaiticus*) في دير سـانت كاترين (St. Catherine) الواقـع فـي سـفح جبـلِ سـيناء علـى يـد قسـطنطين فـون تيشـيندورف (Constantine von Tischendorf) فـي منتصف القرن التَّاسـع عشـر الميلادي. ثم قُدِّم في عام ١٨٥٥م إلى ألكسـندر الثَّاني (Alexander II)، وظـل محفوظًـا فـي سـانت بطرسـبورج (St. Petersburg) حتـى عـام ١٩٣٣عندما اشترى المُتحف البريطاني ٣٤٦ ورقة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه اسـترليني، جُمِعَـت من خـلال تبرُّعات الجمهـورِ في بريطانيـا والولايات المتَّحـدة. وتسـتقرُّ ٤٣ ورقـةً أخرى فـي مكتبة جامعة ليبتسـج (Leipzig). وتبقَّـت ثلاثـة أوراق فـي سـان بطرسـبرغ، ولا تـزال بضعـة أوراقٍ أخـرى محفوظـة فـي دير سـانت كاتريـن. في حيـن أُرسـلت مخطوطـةُ «الكتاب السَّـكندري» (Alexandrinus Codex)، المحفوظـة الآن فـي المكتبـة البريطانية (Royal MS. I.D.v-viii) بوصفِها هديَّةً من بطريرك القُسـطنطينية إلى جيمس الأول (James I) ملك إنجلترا في القرن السَّابع عشر. انظر في ذلـك: (*DoA,* s.v. Book, §1: Origins.). أمَّـا عـن تقديـرِ عـدد الحيوانـاتِ المَذبوحةِ والتي اسـتُعمِلَت جلودُها في صُنع الرَّق المسـتخدم في صناعة المخطوطـة، فانظـر: (Hills 1992)، والـذي قدَّر أنَّ كل نُسـخةٍ من الكتاب المقدَّس في طبعةِ جوتنبرج، تكوَّنت من أكثر من ٦٤١ ورقة، كانت بحاجةٍ إلى جلودِ أكثر من ٣٠٠ رأسٍ من الشَّاء والأغنام.

وعن البرديَّاتِ العربيَّة عامَّةً، انظر: (Khan 1993)، وذُكرت المخطوطتان العربيَّتان المنسوختَان على هيئةِ كتابَين (*codices*) في: (Bosch et al. 1981,

24). أمَّا عن استخدام أوراق البردي القَديمة لصُنع أغلفةِ الكتبِ، فعاوِد بشأنها: (Karabacek 1991, 100-101)، وتَستكمِلُ حاليًا م. ليزلي ويلكنز (M. Lesley Wilkins) أطروحتَها للدُّكتوراه بعنوان «من ورق البَردِي إلى الورق: التغيُّر التِّقني في مصر في القرون الوسطى، ٨٦٨-٩٦٩م» (From Papyrus to Paper: Technological Change in Medieval Egypt, 868-969)، في جامعة هارڤارد (Harvard University)، وتُشير النَّتائج الأوليَّة التي توصَّلت إليها، إلى أنَّ المسلمين كانوا أسرعَ في استخدام الورق قياسًا بالنَّصارى، وكان النَّصارى الآشوريِّين -الذين ارتبطوا بعلاقاتٍ وثيقةٍ مع بني جلدتهم في العراق- أسرع في استخدام الورق من النَّصارى الأقباط من أهل البلاد. وأنا مُمتنٌّ لها؛ لكرمِها في إتاحة هذه المعلومات غير المنشورةِ لي.

أشرطة الخيزران والمنسوجات الحريرية:

يُشير انتشار الرَّعي من بلاد ما بين النَّهرين من خلال آسيا الوسطى في عصورِ ما قبل التاريخ إلى أنَّ الكتابةَ ربما اتَّبعت مسارًا مُماثلًا (Barber 1999). وعرض ويلتي أصولَ الكتابةِ في الصِّين، إلا أنه لم يميِّزِ الأساطيرَ من الحقائق، انظر: (Wheatley 1971)، كما عرَضها تسين على نحوٍ انتقائيٍّ، انظر: (Tsien 1962). وثَمَّ مدخلٌ متوازن في هذه المسألة، ولا بأس به أبدًا، تجده في: (*DoA*, s.v. China §XIII, 3 (i) Manuscripts).

اختراع الورق:

عن اختراعِ الورقِ والطِّباعة في الصِّين، أُوصي -في المقام الأول- بمعاودةِ (Tsien 1985). وعن مداخل أُخَر ملائمة تجدُها في: (*DoA*, s.v. China §XIII, 3 Books and 18 Paper; Le Léannec-Bavavéas 1998). وثم روايةٌ حديثةٌ نشرتها صحيفةُ (China Daily) (في عددها الصَّادر في الأول من يونيو عام ١٩٩٩) تُظهِر أن اختراعَ الورقِ ما زال أمرًا يحفز الخيال. فقد نشرت الصَّحيفة -المشار إليها آنفًا- حديثَ خرافةٍ عن لسانِ أحد

الفلَّاحين ممن يقطنون في المنطقة القريبة من شيان (Xi'an)، حيث أفاد ذلك الفلَّاحُ بأنَّ مياه الفيضانات العارمة التي فاضَت من الأنهار في الولاية جرَفت كل شيءٍ في طريقِها، فاقتلعت الأشجار والنَّباتات، بما في ذلك نباتات الكتَّان والقُنَّب. ومن ثم تكونت أحواضٌ تخمَّرت فيها ألياف القُنَّب واللِّحاء بعد ركودِ المياه، ثم علقت تلك الألياف على السَّتائر المنزلية، التي جرفتها مياهُ الفيضان من بيوت الفلاحين أيضًا. فلما انحسَرت المياه، علق اللبُّ الطبيعي على السَّتائرِ المُجفَّفةِ في الشمس، وتشكَّلت بذلك أوراق بدائية تكوَّنت من تلقاء نفسها، ودون تدخُّلٍ بشري!

وثَم مناقشةٌ وجيزة للتَّأثيرات النَّاعمة والضَّبابية التي شكَّلها الرسَّام مي فو (Mi Fu) في: (*DoA,* s.v. Mi (1)) مُتضمنةً قائمة ببليوجرافيَّة. وعن إلمامةٍ مختصرةٍ عن تاريخ الطَّائرة الورقيَّة في الصِّين، انظر (*DoA,* s.v. China §XIII, 17 Kites). والْحَظْ أن اليونانيِّين يدَّعون لأنفسِهم الفضلَ في اختراع الطَّائرات الورقيَّة، وينسِبون اختراعها إلى العالم أرخيتاس التارينتومي (Archytas of Tarentum)، (من أهل القرن الخامس قبل الميلاد). أمَّا عن الرِّواية المتعلِّقة باستخدام أهل الصِّين لورقِ الحمام فهي مُستقاةٌ من: (Tsien 1985, 48). وعن لِفافة التَّميمة الصَّغيرة (miniature charm scroll)، انظر أيضًا (*DoA,* s.v. Korea §VIII, 2 (ii) Woodblock printing)، وعن الطِّباعةِ بالقوالب عاود المصدر نفسه، والْحَظْ أنها وُصِفَت بالطِّباعة الكوريَّة ثمَّة.

انتشار الورق:

عن تحليلِ ١٥ وثيقةً مؤرَّخةً بين عامي ٤٠٦-٩٩١م في المُتحفِ البريطاني (British Museum)، صُنِعَت في المقام الأول من ورقِ التُّوت؛ وكذلك ٢٢ عيِّنة مؤرخة بين عامي ٢٥٩-٩٦٠م في مجموعة بكين ومعظمها مصنوعٌ من أليافِ القُنَّب انظر: (Tsien 1985; Clapperton 1934). وعن استخدام تجَّار طريقِ الحريرِ للورق، انظر: (*Encyclopaedia lranica,*

(Ierusalimskaja and Borkopp ،1985-, s.v Ancient Letters)، فضـلًا عن: (Daniels et al. 1996, 1997, 101-2). وعـن أصولِ الكتابـةِ في الهند انظر: (Losty1982, 165). وأودُّ هنا أن أشـكُرَ صديقي روبرت هلينبراند (Robert Hillenbrand) الـذي لفَت انتباهي إلى الرِّوايةِ الطَّريفةِ عن «كبيكاج» ملك الأرَضـة، التي وردَت في: (Gaček 1986). وانظر أيضًا: (Steingass 1972, 1013b) حيـث يعـرِّف المؤلِّـفُ (كبيكاج kabikāj) على أنـه: ١) «نوع من أنـواع البقدونـس البري، ٢) سُـمٌّ قاتلٌ؛ ٣) الملاك الرَّاعـي للزَّواحِف؛ ٤) ملك الأرَضَة. (وغالبًا ما يردُ الدُّعاء في الكُتبِ الهنديَّةِ في الصَّفحةِ الأولى مـن الكتـابِ، حيـث اعتقـد النُّسَّـاخُ والكتبة في حديـثِ خُرافـةٍ يقضي بأن الأرَضـة تقـدُّس اسـمَ ملكهـم وراعيهـم، ومن ثـم فإنها تتجنَّـب أكلَ ورق الكتاب). وعن معرفةِ أهلِ كشمير بصناعةِ الورق، انظر: (Humbert 1998, 98; Porter 1994; Premchand 1995, 17-19)

معرفة العالم الإسلامي بالورقِ وصناعتِه:

ورَد ذكرُ سَبيِ المُسـلمين المزعـوم لصُنَّاع الورقِ الصينيِّيـن مؤخَّرًا، انظر، على سـبيل المثال: (Diamond 1997, 256). وروَى البيروني قصةً مشـابهةً قبـل ألـفِ عام فـي كتابه «تحقيق مـا للهند من مَقولـةٍ مقبولةٍ فـي العقلِ أو مرذولـةٍ»، وكذلـك ذكرهـا بورتـر: (Porter 1994, 16). أمَّـا روايـة الثَّعالبي فتجدهـا فـي: (Bosworth 1968). وعن مزيدٍ من المعلوماتِ حول الجيش الصِّينـي الذي قاتل فـي معركةِ طلاس (Talas)، انظر: (Barthold 1977, 19 6-97)، وناقش تسـين روايةَ دو هوان (Du Huan) في: (Tsien 1985, 297). وعـن روايـةِ ابـن النَّديم عن صُنَّـاع الـورقِ الصينيِّين الذين كانـوا يصنعون الورقَ في خُراسان. انظر: ترجمة دودج (Dodge) لكتاب «الفِهرست» في: (al-Nadim 1970, 39-40). وعـن الانتقـالِ مـن صناعـةِ الـورقِ مـن لِحـاء الأليـافِ إلـى صناعتِه مـن الخِرق، انظـر تفصيـلًا: (Karabacek 1892, xx; Hoernle 1903, 672).

الفصل الثاني

انتشار صناعة الورق في العالم الإسلامي

التعليقان العرَضيَّان «المطاحن» و«الطَّحن»:

عـن زراعـةِ الأرُز فـي العالـم الإسـلامي، انظـر: (*EI*[2], s.v. Ruzz,)؛ وانظـر أيضًـا: (Wright 1999, 587 ff.). أمَّا رواية البيروني فتجدها في: (al-Hassan and Hill 1992. 243). وليس ثَمَّ دراسةٌ مُتخصِّصةٌ تناولت تطور المطاحنِ في العالم الإسلامي حتى الآن؛ ولكن هناك مدخلٌ جيدٌ إلى هذا الموضوع، تجده في: (Hill 1993).

التَّعليق العَرضي «القوالب»:

عـن تطـوُّرِ أنـواعٍ مُختلفةٍ من الشَّاشـات المُسـتعملة في صناعـةِ الورق في الصِّين، انظر: (Tsien 1985, 64-68).

التعليق العرَضي «إزارُ الكِتَّان»:

عـن تاريـخ كسَّـارة الكِتَّان وتطـوُّر صناعـة إزار الكِتَّان، انظـر: (*DMA*, s.v. Linen.). وعن دولابِ الغَزلِ، انظر: (White 1967).

التَّعليق العرَضي «الزِّجزاج»:

إن أردت تناولًا مُفصَّلًا لعلاماتِ الزِّجزاج التي شُوهدت في بعض الأوراق الأندلسـيَّة المُبكِّـرة، مـع قائمـةٍ ببليوجرافيـة متوسِّـعةٍ، فانظـر: (Le Léan-nec-Bavavéas 1998, 68-71)

التَّعليق العرَضي «العلامات المائية»:

ينبغي تمييزُ الورقِ الأوروبيِّ الذي يحمل علامةً مائيَّةً –حيث مثَّلت العلامةُ شـكلًا من أشـكال العلامـاتِ التجاريـةِ– عن الـورقِ الصِّينـيِّ ذي العلامة المائيَّـة المُزخرف على نحوِ مخطَّطٍ باسـتخدام الماء أثناء تَشـكيلِ الورقة.

وظهرت هذه الورقة التي عُرِفت باسـم «ورقة الموج المُتدفِّق» في النِّصفِ الأوَّل مـن الألف الأولـى بعد الميلاد، ومن ثم فإنَّ أقدم ورقةٍ صينيَّةٍ عليها علامة مائية وصَلتنا تسـبقُ الـورق الأوروبي ذي العلامة المائية بعدة قرون على الأقل. لكن تقنيات العلامات المائية -سواءً في الصين أو في أوروبَّا- كانـت لهـا أغراضٌ مختلفـةٌ تمامًا. وعـن العلامات المائيَّـة الصينيَّة، انظر: (*DoA*, s.v. China §XIII,18(iii))، وعـن العلامـاتِ المائيَّـة علـى الـورقِ الأوروبي وأشكالها انظر: (Briquet 1907).

العراق:

لـم يكن الورقُ معروفًا بالكليَّةِ للفُرسِ السَّاسـانيين، ولا للـرُّومِ البيزنطيِّين قبـل ظهورِ الإسـلامِ بالكُلِّية. بيد أن واطسـون ذكَر أنَّ الـورقَ كان نادرًا في أيام الأكاسرة السَّاسانيين، ومن ثم «انحصَر استخدامه في الوثائق الرَّسميَّة فحسـب» على حـدِّ قوله. انظـر: (Watson 1983, 552 n.c). ولـم أجد أحدًا من الباحثين انتصَر لرأيه هذا. وعن نَسـخ كتاب «الأبسـتاق» (*Avesta*) على جلـودِ الحيوانـات، انظـر: (Porter 1994, 13). وعن الرِّواية المشوَّشـةِ عن معرفةِ العربِ بصناعة الورق، والتي استشهد بها بوش (Bosch) ليدلِّل على أنَّ العـربَ تعرفـوا على الورقِ للمرة الأولى فـي عام ٣٠هـ/ ٦٥٠م، انظر: (Bosch et al. 1981, 26). وهـي روايـة مشـكوكٌ فـي صحَّتِهـا بصفةٍ عامةٍ. وعن اشـتقاق كلمة «كاغَـد» (kaghaz) من الكلمة الصِّينيـة (guzhi)، انظر: (von Gabain 1983, 622).

وعن البَرامِكَةِ، انظر: (*EI*², s.v. Baramika). وكان فرانز روزنثال (Franz Rosenthal)، مترجـم [مقدمـة] ابن خلدون إلى اللغة الإنجليزية، حذِرًا في شـأنِ قبـولِ روايةِ ابن خلدون التي تقضي بنسـبة الفضلِ فـي اعتماد الورقِ رسـميًّا فـي الدَّواوين العباسـيَّة للبَرامكـةِ دون غيرهـم؛ وذاك لأنه عدَّ تلك الرواية جزءًا من الأسـاطير التي حيكَت حـول البرامكةِ من قِبل المؤرِّخين المتأخِّريـن. ومـع ذلـك، فقد تكون هـذه إحدى الحالات التـي يكون فيها لحديثِ الخرافةِ نصيبًا من الصِّحةِ. تفصيلًا انظر: (ابن خلدون ١٩٦٧، ٢:

٣٩٢)، وعـن الأنـواعِ والقُطـوع الكثيـرةِ للـورقِ العربـيِّ، والتـي لا يمكن الوقوف على خصائصِها أو الأماكنِ التي صُنِعت فيها إلا نادرًا، انظر: (EI², s.v. Kaghad). وعـن المؤلِّـفِ الموسـوعيِّ ابن النَّديم، راجـع: (Pedersen 1984, 67) فضلًا عن: (ابن النديم ١٩٧٠).

أما عن الرِّسالةِ المؤرَّخةِ بالقرن الثَّالث الهجري/ التَّاسع الميلادي التي بعَث بها أعضاء الأكاديميَّة اليهودية البابليَّة إلى بني جِلدَتهم في الفُسطاط-مصـر، فهي ضمـن مُقتنيـات مجموعـة تايلور-شـيكتر (Taylor-Schecter Collection 12.851) فـي مكتبة جامعة كامبريدج (Cambridge University Library)، وتناولها بالدراسة كلٌّ من: ريف وجيل، انظر: (Reif 1988; Gil 1997, 2:61-62). وأنـا أشـكُر سـتيفان ريـف (Stefan Reif) علـى هـذه المعلومات. أما عن تفضيلِ [أحمد] ابن حنْبَل الكتابة على الرَّقِّ دون غيره مـن حوامـلَ الكتابـةِ، فانظـر: (EI², s.v. Raqq). وعـن اسـتخدام الأقبـاط للـورقِ، انظـر: (Wilkins 2001). أما عن اسـتخدام الـورقِ من قِبل الأرمن والجورجيِّيـن، فانظر: (Le Lénnec-Bavavéas 1998, 80, 97). وعن هلال الصَّابئ، انظر: (هلال الصَّابئ ١٩٧٧، ١٠٣؛ Sanders 1994, 24). أمَّا عن مخطوطتي مقامات الحريري، ولا سـيما نُسـخَة المكتبـةِ الوطنيَّة بباريس، فهُما محفوظتان في: (Bibliotheque Nationale, MS arabe 5847; and St. Petersburg, Academy of Sciences, S23)، وكذلك انظر: (Grabar 1984, nos. 3 and 4)، أمَّا رواية القَلْقشَـندي فتجدها في: (Quatremére 1968, n. 214).

وقـد فحَصتُ بنفسـي ورقةً بخـطِّ أحمـد السُّـهروردي، المحفوظة في مجموعـة متحـف المتروبوليتـان للفـن (Metropolitan Museum of Art)، بمساعدة مارجوري شيلي (Marjorie Shelley) وسارة برتلان (Sarah Bertalan) مـن مُختبـرِ صيانـةِ الورقِ، وهـي ورقةٌ رائعةٌ حقًّا. وعـن تحليلٍ فنيٍّ لمخطوطـةِ رشـيد الدِّيـن المُعاصـرة، انظـر: (Baker 1991). وعن القطوع المختلفـة للـورقِ بصفةٍ عامةٍ، انظـر: (Karabacek 1991, 55; Bosch et al.

1981, 31; James 1988, 235· no. 40). والْحَظ أن تسين (Tsien) لم يحرِص على تناول شكلِ الورقِ تحديدًا، على الرغم من أن بعضَها يبدو من القَطع الكبير.

ووضَّح بولاسترون (Polastron) آليَّةَ الأثقالِ المُوازِنة لرفعِ قوالب اللُّبِّ بالصُّور في: (Polastron 1999, 45)، وصُوِّرت مخطوطةُ ياقوت في: (Gulchīnī 1375, 50). وناقش جيمس مسألةَ هجرةِ الفنَّانين والحرفيِّين من بغدادَ إلى دمشق والقاهرة في: (James 1988, cat. nos. 28-34). وعن المخطوط في مجموعةِ نور (Nour Collection)، انظر: (James 1992). وذكَر هامبرت (Humbert) عددًا كبيرًا من المخطوطاتِ المُدوَّنة على الورقِ الإيطاليِّ المحفوظة في المكتبةِ الوطنيَّة بباريس انظر: (Humbert 1998, 2;)، وهي على النَّحو التَّالي: مخطوطة مرقومة بـ (MS arabe 2291,)، مؤرَّخةٌ بعام ١٣٥٦م، ومخطوطة أخرى مرقومة بـ (Suppl. Persan 113)، نُسِخَت عام ١٣٥٢م في شِبه جزيرة القرمِ، التي كانت مُستعمرةً لـ جُنوة، وثَم مخطوطةٌ مرقومة بـ (Armenian 121)، نُسِخَت في عام ١٣٨٦م أيضًا في شبه جزيرة القِرم.

الشَّام:

عن صناعةِ الورقِ في الرَّقة ومَنبِج، انظر (*EI*²). وعن الورقِ العربي في المصادر البيزنطيَّة، انظر: (Atsalos 1977, 85)، وعن تحليل ويزنر (Wiesner) فقد تُرجم إلى الإنجليزية وأُعيد نشرُه في (Wiesner 1986). أمَّا عن افتقارِ حلب إلى مصانع الورقِ، فانظر: (Elisséeff 1967, 260, 868-89)، وعن تصديرِ الورقِ الشَّامي إلى مصر والعلامة التِّجارية التي ميَّزت ورقَ ابن الإمام، فانظر: (Goitein, 1973, 90 n. 5.). وبشأن البروتوكول (*protocollon*) انظر: (Khan 1993, 17).

أمَّا عن أقدم مخطوطةٍ يونانيَّةٍ مُدوَّنةٍ على الورق «العربي»، فهي تلك المحفوظة في الڤاتيكان، انظر: (Vatican Gr. 2000)، وانظر أيضًا: (Perria

(1983-84. وحُقِّقَت شذرةُ «ألف ليلة وليلة»، ونُشِرت في: (Abbott 1949). وانظر أيضًا (Bosch et al. 1981, no. 97). وعن اكتشاف أقدمِ مخطوطةٍ مدوَّنةٍ على الورقِ بالعربيَّة، انظر: (Beit-Arié 1996). أمَّا عن مخطوطةِ كتاب «غريب الحديث» لأبي عُبَيد [القاسم بن سَلام] المؤرَّخة في حردِ متنِها (*colophon*) -الذي وقَّع على ظهر الورقة ٢٤١- بذي القعدة ٢٥٢هـ/ نوفمبر-ديسمبر ٨٦٦م. انظر: (Voorhoeve 1980, p. 1). وڤورهوف شديدُ الحذرِ، حيث قال عن تلك المخطوطةِ ما نصُّه: «يبدو أنَّها أقدم مخطوطةٍ ورقيةٍ على هيئة كتاب (*Codex*) مؤرخةٌ في أوروبا». وعلى أية حالٍ فانظر أيضًا: (Felix 1952 *Levinus;* Warner, 1970, 75-76)، ولا يمثِّل وجودُ حردِ المتن في المخطوطةِ على هيئة الكتاب (codex) دليلًا على أن المخطوطة التي وصلتنا كاملةً، بل فُقِد منها ما يُقدَّر بخُمسي الكتابِ تقريبًا. وصدَرت مؤخرًا مجموعة صورٍ جديدةٍ لنصوصِ هذه المخطوطات، مثل الصُّور الأخيرة التي ظهرت في كتالوج معرض: (*Levinus Warner*). وأنا مدينٌ لـ ج. ج. ويتكام (J. J. Witkam)؛ لأنَّه كان مصدر معلوماتي حول حالة هذه المخطوطة وورقها. وعن حالاتٍ أخرى شوهدت لظاهرةِ انفصال طبقاتِ الورق (delamination of paper)، انظر: (Don Baker in Karabacek 1991, 89 note to p. 53).

وعن أوصافِ ورق الطَّير انظر: (Karabacek 1991, 65, 69؛ القلقشندي د.ت، ٦: ١٩٢) أمَّا عن البريدِ وما تعلَّق به، فانظر: (المقريزي ١٨٥٣، ٢: ٢١١). وعن إعراض صُنَّاع الورق عن إعادةِ تدويرِ الورقِ الذي دُوِّنت عليه نصوصٌ مقدَّسة أو أسماء الأنبياء والصَّالحين، فانظر: (Le Léannec-Bavavéas 1998, 75).

فارس وآسيا الوسطى:

فيما تعلَّق بالاقتباساتِ النصِّيةِ [الفارسيَّة] المُتعلِّقة بالورقِ الفارسيِّ، بما في ذلك الاقتباسات من منوشهري والمافروخي وجمال اليزدي، انظر: (Afshar 1995; Porter 1994, 14-28). وعن أقدم مخطوطةٍ معروفةٍ دُوِّنَت

على الورقِ باللغةِ الفارسيَّةِ، انظر: (Duda 1983, 51-52 and ills. 1 and 2). وعن كتابةِ أهل الصِّين على جانبٍ واحدٍ فحسب من الورقةِ، انظر: (رشيد الدِّين فضل الله الهمذاني ١٣٦٨/ ١٩٨٩، ٣٧-٨٧).

أمَّا عن النُّسخة العربيَّة من كتاب «جامع التَّواريخ»، فانظر: (Blair 1995; Baker 1991). والْحَظ أنَّ صفحاتِ النُّسختَين الفارسيَّتين من «جامع التَّواريخ» في مكتبة قصر طوب قابي سراي (Hazine 1653 and 1654) قياسهما ٥٤٢×٣٧٧ ملليمتر- ٥٥٧×٣٨٨ ملم، على التَّرتيبِ. وعن نُسخةٍ من «المجموعِ الرَّشيدي» في الفقه المحفوظة في باريس، انظر: (Bibliothéque Nationale, MS arabe 2324). أمَّا عن مختاراتِ الشِّعر المنسوخة في المكتبة الرشيديَّة، والمحفوظة في مكتبة المكتب الهندي (India Office Library) بلندن، فانظر: (Ethé 903, 911, 913, and 1028)؛ وقارن أيضًا: (.Robinson 1976, nos. 1-53; Blair 1996). والْحَظْ أنَّ قياسَ الصَّفحات ٣٨٥× ٢٧٥مم، لذلك ربَّما تعرَّضت المخطوطةُ للقصِّ والتَّهذيب وإعادة التَّجليد. والمساحةُ المكتوبةُ في المخطوطةِ العربية قياسُها (٣٦٥×٢٥٥مم) وهو الحجم نفسه في المخطوطةِ الفارسيَّة من «جامع التَّواريخ»، انظر في ذلك: (Bazine 1653). ويبلغ قياسُ كتابِ وقفِ رشيد الدِّين، الذي كتَبه رشيدُ الدِّين بخطِّ يدِه ٣٤٠×٢٧٠مم، وتبلغ مساحةُ النصِّ المكتوب ٢٩٠×٢٣٠مم، لكن الأوراق ينبغي أن تكون أكبر إلى حدٍّ ما، وفقًا لـ (أفشَر Afshar، ١٣٥٠هـ) و(مينوڤي Minovi، ١٩٧٢)، ونشَر الأخير كتابَ وقفِ رشيد الدِّين مُصوَّرًا بتقنية الفاكسيملي.

وعن «شاهنامة المغول العِظام»، انظر: (Grabar and Blair 1980). ونوقِشَت المخطوطات المُصوَّرة في شيراز في: (Wright 1997, 163). وأنا ممتنٌّ لها لمُشاركتها إيَّاي هذه المعلومات غير المنشورة. أما بالنِّسبة إلى عمَّال المعادن والخزَّافين الذين جلبَهم تيمور معه إلى سمَرقَنْد، فانظر: (Komaroff 1992; Golombek, Mason, and Bailey 1996). وورَد ذكر الورقةِ الصينيَّةِ التي بلغ طولها ١٧ مترًا في: (Tsien 1985, 48).

كمـا وردَت ترجمة روايـة قاضي أحمد حول عمر الأقطـع بالإنجليزيَّة عنـد سـوداڤار، انظـر: (Soudavar 1992, 59). وترجم تاكيسـتون (Thack-ston) ملاحظات سـيمي نيسـابوري في: (Thackston 1990). وعن الحقبةِ الكلاسـيكيَّة في فنونِ الكتابِ الفارسيَّة، انظر: (Lentz and Lowry 1989). وعن السُّـمك المُتفاوت للورقِ في المجلَّد الواحد، انظر: (Wright 1997, 168-70). وتُرجمت قصيدة سُلطان علي المَشهدي في: (Minorsky 1959, 114). أمَّـا عن اسـتخدام الـورقِ الصِّينيّ، فانظـر: (Minorsky 1959, 113)، ولا سـيَّما (Blair 2000). وعن الوثيقةِ التي تحملُ اسـم حُسين ميرزا انظر: (Soucek and Çağman 1995, 200-201). أمَّـا عـن مخطوطـةِ «ديوان فريد الدِّين العطَّار» التي نُسِخَت خصِّيصًا لـ شاه رُخ على الورقِ الصِّيني، فانظر: (Lentz et al. 1989, cats. 39, 40). وعن مخطوطةِ «مخزن الأسرار» لـ مير حيدر خُوارِزمي، فانظر: (Soucek 1988). وعن تقنيةِ التَّذهيب، انظر (Por-ter 1994, 49-51)، وعـن تقنيـةِ التَّرخيـم فـي الصِّيـن، انظـر: (Tsien 1985, 94)، أمَّـا عـن فنِّ التَّرخيم الفارسـي، فانظـر: (Porter 1994, 45-49). وعن انتشـارِ هذه التِّقنيـات في أوروبَّا، عـاوِد: (Wolfe 1991). وذُكِرت الأوراقُ الهنديـة في الدَّواويـن الصَّفويَّة في: (Porter 1994)؛ وعـن الورقِ الهنديِّ، انظـر: (Premchand 1995). وعن الفَحـصِ الفنِّي للورقِ في المخطوطات الفارسية، انظر (Snyder 1988).

مصر:

عـن الرَّحالـةِ الذين زاروا مصـرَ، راجع (المقدسـي ١٩٦٧، ٣٢ وما يليها، ١٩٣ ومـا يليهـا، ٢٠٢ وما يليهـا؛ Pedersen 1984, 62). وعُثِر على الورقِ والنَّسـيج خلال موسـمِ التَّنقيب الأثري عام ١٩٨٠ في الفُسطاط، ونُشِرت فـي: (Kubiak and Scanlon 1989). وعـن وثائـق البَردِي والـرَّق التي عُثِر عليهـا في الفيُّوم بيـن عامي ١٨٧٧–١٨٧٨م، انظـر: (Karabacek 1892). أمَّا عن الشَّذراتِ المبكِّرةِ من الورق التي جُلِبت من الشَّام إلى مصر، انظر: (Abbott 1949- Hoernle 1903)، وعـن طبيعـةِ وثائـق الجنيـزة (Geniza)

واكتشافِها، فانظر: (Goitein, 1967-94, I:1-28). وعن مجموعة فرير من أوراق الجنيزةِ (Freer Geniza collection)، انظر: (Gottheil and Worrell 1927)، وعن مجموعة تايلر-شيكتر (Tayler-Schechter collection) الهائلة. فبوسعِك الوصول إلى مجموعةٍ مُختارةٍ منها في مكتبة جامعة كامبريدج (Cambridge University Library).

ويمكن رؤيةُ الشَّوائب الدَّقيقة من القماشِ المنسوج بالعين المجرَّدة في الوثيقة المرقومة بـ (TS 16.203) في مكتبة جامعة كامبريدج. أمَّا عن مصانع الورقِ في الفُسطاط في روايةِ ابن سعيد الأندلسي فانظر: المقريزي (١٨٥٣، ١: ٣٦٦)؛ والْحَظْ أنَّ جوايتين (Goitein 1967-94, 1:81 and n. 2) يُشير إليه باسم «أبي سعيد». وعن تراجعِ صادرات مصرَ من الغِلالِ، وزيادة المساحاتِ المزروعةِ بالكتَّان بوصفِها صادرات مصريَّةٍ أساسيةٍ، انظر: (Mayerson 1997). وعن رواية عبد اللطيف [البغدادي] عن نابشي القبورِ، انظر: (Lombard 1978, 205). وعن صانع الورقِ في مدينة ماين (Maine) الذي استخدَم لفائفَ المُومياوات لصناعةِ الورقِ البُنِّي الخشِن، فتجد أخباره في: (Hunter 1978, 382). وعن مُمارسةِ استخدام الورق ثم إعادة الكتابة عليه مجددًا، انظر: (Goitein, 1967-94, I: 241). وعن مثالٍ من صفحةٍ مكوَّنةٍ من العرض الكاملِ للورقة الأصليَّة التي تحتفظ بها مكتبة جامعة كامبريدج (Cambridge University Library, TS 32. 2)؛ والأمثلة المضروبة على شذراتٍ أصغرَ من الورقِ فهي هذه الوثائق المرقومة: (TS 28.14, 28.15, and 28.2). أمَّا عن الورقِ الرَّديء، وعن مُمارسةِ كتابة كلمةٍ في منطقة التصاق الورقتَين دلالة على أصالةِ الورقة المُلصقة، راجع: (Goitein, 1967-94, 2:232- 33)؛ ويظهر استخدامٌ لختمٍ على وثيقةٍ تخص الحاكم المغولي جاياتو (Gayhatu) في: (Soudavar 1992). يمكن رؤيةِ آثار الحبر (بإزاء المِداد الكربوني) على أوراق في مكتبة جامعة كامبريدج (Cambridge University Library, TS 16-37). أمَّا عن مراسلات بن ييجو (Ben Yiju) المرقومة بـ 995 من أوراق الجنيزةِ،

فانظـر: (Goitein, 1973, 186 ff.)؛ ولا سـيَّما (Ghosh 1993)، والكتـابُ الأخيرُ ساحرٌ يأخذ بلُبِّ المرء حقًّا.

ونُشرت المراسيمُ الفاطميَّةُ التي وصَلتنا في: (Stern 1964). وورَد ذكرُ الرَّسـائل المِصريَّة السِّـت في أرشـيف أراغون في: (Valls I Subira 1970, II)، وظلَّـت حوامـل الكتابـة سـلعًا غاليـةً نسـبيًّا، وفقـاً لــ (Le Léan-nec-Bavavéas 1998, 133).

أما عن سـعرِ الورقِ والقوة الشِّرائية للدِّينار، فانظر: (*EI*[2], s.v. Kaghad; Goitein, 1967-94, 1:7, 344). ونقَلتُ روايةَ أمين الريحاني بشأنِ استخدام الـورقِ فـي اليمن من: (Abbott 1939, 14). وأنا أشـكُر روبـرت هيلينبراند (Robert Hillenbrand) على لفتِ نظري إلى هذه الرِّواية الطَّريفةِ. أمَّا إشارةُ ابـن بطوطة للأختـام تجدها في: (ابن بطوطـة ١٩٩٣، ٣٦)، وعن الوثائق المكتوبةِ على الرَّق، انظر: (Goitein, 1967-94. 1:112)؛ وعن وثيقةٍ مكتوبةٍ علـى الحريـرِ، انظـر: (Ragib 1980). وعـن المصاحـف المملوكيَّـة بصفةٍ عامة، راجع: (James 1988). وعن المخطوطةِ المكونةِ من سبعة مجلدات والتي نُسِخت بأمر من بيبرس الجاشنكير، انظر: (Blair and Bloom 1994, 100).

أمَّـا عـن الـورقِ الأوروبيِّ الـذي صُـدِّر إلـى طرابلس ومُدن الشَّـام المُجـاورةِ الأخـرى، انظـر: (Ashtor 1977, 270)، ونُشِـرت المجموعةُ -الكاملـةُ تقريبًـا- مـن بطاقـات اللعـب المرسـومة باليد فـي: (Mayer 1971). أمَّـا عـن القاهرة بوصفِهـا نقطةٍ لإعادة توزيـع الورقِ الأوروبيِّ وتراجـع مبيعـات الكتب فيها، فارجع إلى: (Raymond 1973-74, 130, 343).

المغرب والأندلس:

بيعَت أقدم مخطوطةٍ من المُصحفِ المنسوخِ على الورق في مزاد كريستي (Christie) فـي لنـدن بتاريـخ: ٩ أكتوبـر ١٩٩٠ (pl. 46 in the sales

(catalogue. وتجـد تنويهًـا عنهـا فـي: (Khemir 1992. 117). وعـن روايـةِ المعـزِّ بـن باديـس، انظـر: (Levy 1962). وعن ورق فاس الـذي صُدِّر إلى ميورقـة وأراغـون، انظـر: (Burns 1985, 174-76). أمَّا عن الورق الإيطالي الـذي صُـدِّر إلى تونـس، وكذلك عن الورقـةِ التي تحمِـل كلًّا من العلامة المائيـة والزِّجـزاج معًـا، فانظـر: (Valls Subirá 1970, 11-12). وعن إقامة فيبوناتشي (Fibonacci) في تونس، انظر: (Abulafia 1994, 16). ولُخِّصَت الفتوى التي دوَّنها فقيه فاس الوَنشَريسـي[1]، في: (Lagardiére 1995, 42). وأنا مُمتنٌّ للغاية لـ ديڤيد س. باورز (David S. Powers) من جامعة كورنيل (Cornell University) للَفتِ نظري إلى هذه الفتوى.

أمَّـا بشـأنِ روايـةِ ابن عبـدِ ربِّه عن الأنـواع المختلفةِ مـن أقلام القصب الأكثر ملاءمة للكتابةِ على الرَّق ورق البردي والورق فتجدها في: -Peder) (sen 1984, 62. وعـن المخطوطـةِ الوحيدةِ التـي وصَلتنا من مكتبةِ الحَكم المُستنصِر، انظر: (Lévi-Provençal 1934). أما عن كتابِ «الأدعية بلسان المُسْتَعرِبةِ والصَّلـوات فـي البِيـع» (Mozarabic Breviary and Missal in (Silos، وكذلـك عـن مَصنعِ الورقِ فـي الرُّصافـةِ (Ruzafa)، فانظر: (Valls (Subirá 1970, 5, 9. وعـن إشـادة الإدريسـي بشـاطبةَ الأندلسـيَّة لورقِهـا، فانظر: (الإدريسي، ١٩٦٨، ٢٣٣). وعن علاقةِ المُحتسِب بصُنَّاع الورق، انظـر: (Levi-Provençal, 1947 107)، (النـص العربـي، ١٥٠). وعن ورقةٍ مـن الأوراقِ الأندلسـيَّة أو الـورق التُّطيلـي الـذي صُـدِّر إلى مصـرَ، انظر: (Goitein, 1967-94, 5:288 n. 72. 5: 457; Constable 1994. 195-96). ونوقِشـت الأوراق النَّصريَّة المَصبوغة في: (Valls Subirá 1970, 12). كما نُوقِشَـت المخطوطات الأندلُسِـية-العربية التي وصَلتنا في: ,James 1992) (212. أمَّا عن الحكاية الشَّاعريَّة «بياض ورياض» المحفوظة في: (الڤاتيكان (Ar. 368)، فانظر: (Dodds 1992, 312-13; Nykl 1941).

---

(١) أظـنُّ أن ثمَّـة خطأً وقع هنا، وأن المؤلفَ أراد الإشـارة لابن مرزوق وفتواه المُسـمَّاة **تقرير الدَّليل الواضح المعلوم على جواز النسخ في كاغد الروم**. (المترجِم)

الفصل الثالث

الورق والكتب

التَّعليق العرَضي «الكتاب الإسلامي»:

عن هيئةِ الكُتب في العالم الإسلامي، انظر: (Bosch; Carswell, and Petherbridge 1981; Orsatti 1993; *DoA,* s.v. Islamic art III: Arts of the Book.). أمَّا بشأنِ الجوانب الفنِّية المُتعلِّقة بالكتاب الإسلامي، بدءًا من الدِّعامات والأحبار إلى الجمع والحياكةِ والتَّجليد، فقد عالجها ديروش معالجةً وافيةً في: (Déroche 2000).

وعن تَقييمٍ سلبيٍّ آخر لإخفاقِ الحضارة الإسلامية في إدخال الطِّباعة، انظر: (Landes 1998, 401- 402). وعن عددِ النُّسخ في طبعاتِ الكُتبِ في الصِّين بعد اختراع المطبعةِ، انظر: (Tsien 1985, 369 ff). أما عن تقدير عدد المخطوطاتِ العربيةِ التي وصَلتنا فهو مأخوذٌ من جاشيك، انظر: (Gaček 1983, 175). وعن تنوع المجتمع الإسلامي منذ عصرِ صدر الإسلام، انظر: (Daftary 1998, 21-22.). ولإلمامةٍ عامةٍ بالآثار المترتِّبة على الانتقالِ من الثقافةِ القائمةِ على الحفظِ والإيماءة إلى الثَّقافةِ المُستندةِ إلى السجلِّ المكتوبِ، انظر: (Havelock 1986 and Clanchy 1993).

القرآن وثقافة الرِّواية:

عن مُقدمةٍ مُلائمةٍ عن التَّاريخ المبكِّر للغةِ العربيةِ انظر: (Bestonetal.1-22; Graham 1993). وهي مناقشةٌ صيغَت ببلاغةٍ عن الرِّواية والكتابِ والسُّنَّة في العالم الإسلامي. ونوقش اعتماد الطَّبعة المصرية للمُصحفِ على التَّقاليد الشَّفاهيَّة في تلاوةِ القرآن في: (*EI*², s.v. Kur'an.). وعن مُعارضة علماءِ الأزهر لـ «تنويت» تِلاوة القرآن في نوتةٍ موسيقيَّة موحَّدة، انظر: (Sadie 1980, s.v. Islamic religious music). أما الرِّواية المُتعلقةِ بالخليفةِ المأمون الشَّاب مع مُعلِّمه الكِسائي، فتجدها في: (Pedersen 1984, 28).

وإذا حكَّمنا العُقودُ المُكتشفةُ في مصر في القرون الوسطى، والتي نصَّت على «تفسيرِ» ما ورَد في العقد باللُّغة العربيَّة شفاهةً لأطرافِ العقدِ بلغتِهم الأعجميَّة، فإن هذا يشير إلى ضعفِ مُعدَّلات التَّعريبِ بعد أكثر من ثلاثة قرونٍ من هيمنةِ اللغةِ العربيَّةِ. كما تؤكد تلك العقود قلَّة أعداد المصريين الذين اعتنقوا الإسلامَ في مصر، على النحو الذي أشارَ إليه كلٌّ من الكُتَّاب المُعاصرين والباحثين المُحدَثين. انظر على سبيل المثال: (ابن حوقل، ١٩٦٧؛ Frantz-Murphy 1985, 37).

وعن روايةِ فاطمة المِرنيسي بشأنِ الطَّريقةِ التي حفِظت بها القُرآن في منزلٍ مغربيٍّ تقليديٍّ، انظر: (Mernissi 1995, 96). وعن تحفيظِ القرآن الكريم بوصفِه شرطًا لا غنًى عنه لمزيد من التَّحصيلِ العِلمي، انظر: (Graham 1993, 105-6). وعن دراسةِ الحديثِ، انظر: (Beeston et al. 1983, chap. 10)، وانظر خاصةً: (Makdisi 1981. 99-105)، حيث ذكَر مقدسي الرِّواياتِ الطَّريفةَ المتعلِّقة بالغَزَّالي وابن دُريد. وحول الجدل المحيط برواية الحديث وهل استندت إلى نُصوصٍ مكتوبةٍ منذ البداية أم لا، راجع «تدوين الحديث» في: (Goldziher 1971, 2:181-88). وعن استمرارِ الرِّواية بوصفها أساسًا للتَّعليم، انظر: (Bulliet 1994. 15). أمَّا الاقتباس النصِّي المذكور عن ابن خلدون، فهو من ترجمةِ روزنثال (Rosenthal) لـ «مقدمة ابن خلدون» (ابن خلدون، ١٩٦٧، ٢: ٣٩٣–٣٩٤). وعن نظرةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة إلى الكلمةِ المكتوبةِ، انظر: (Powers 1993, 390). وعن دورِ الوثائق المكتوبةِ في الشَّريعة الإسلامية، انظر: (Tyan 1959; Wakin 1972; Cook 1997)، وعن الوثائق المكتوبةِ التي لا يكاد يُسْتَغنى عنها، انظر: (Schacht 1966, 82, 193).

خصائص الكتابةِ بالعربيةِ:

عن القرآنِ بوصفِه نصًّا مُدوَّنًا، انظر: (Pedersen 1984, 57). وعن الاعتماد الكُلِّي على الوثائق بدلًا من الحفظِ، انظر: (Graham 1993, 15). وعن وجهات نظرٍ مختلفةٍ حول التَّأريخ للمصاحفِ المُبكِّرة، انظر: .EI², s.v)

(Whelan :انظر خاصةً Kur'an). وعن تأريخ أقدمِ مخطوطاتِ المُصحفِ، انظر خاصةً: (Whelan 1990; Déroche 1983, 1992). وحلَّـل خـان (Khan) النُّصـوصَ العربيَّـةَ المُدونةَ في الوثائق الخاصَّة والتجارية في: (Khan 1993).

واعتقد بعض العُلماء أنَّ مخطوطات المُصحف ذات الشَّكل الرَّأسي (vertical-format) أو ما نسميه «اللوحة» (portrait) التي نُسِخت بخطٍّ مُميَّزٍ يميـلُ إلـى جهـةِ اليمين، يمكن تأريخهـا بأوائل القرن الثَّامـن؛ وذاك لأنهم صنَّفـوا الخـطَّ الذي كُتِبت به تلك المصاحفُ علـى أنه «الخط الحجازي» المذكـور في المصـادرِ المتأخرةِ. ومع ذلك فإنَّ هذه التَّصنيفات اسـتندت إلـى عدَّة افتراضـاتٍ خاطئـةٍ، انظـر: (Déroche 1987-89; 1983, 14)، ولا سيما دراسـة ويـلان (وهـي تحـت الطبـع) والتـي أعـادت تقييـمَ هـذه المخطوطات اسـتنادًا إلى أسسٍ مُقنعةٍ. ومن المعروفِ أنَّ هناك مخطوطة واحـدة -خـارج نطـاق المصاحـف- مجهولـة المؤلـف، وهـي فـي علـم الأنساب، مكتوبةً بالخط الكوفي؛ انظر في ذلك: (Whelan 1990, 122 and n. 94).

تُوفِّيت إسـتل ويلان (Estelle Whelan)، فجـأةً في عام ١٩٧٧، وكانت تعملُ على دراسـةِ الخطوطِ العربيةِ المبكرةِ، واقترحت إطلاق اسـم «خط الـورَّاق» علـى الخطِّ الجديد الـذي خلَف الخـطَّ الكوفيَّ العتيـقَ، تكريمًا للورَّاقين والنُّساخ الذين اخترعوه وروَّجوا لاستخدامِه. ولم تكن ويلان قد طـوَّرت بعـد -على نحوٍ شـاملٍ- فرضيَّتهـا المُقنِعة حول علاقـة الورَّاقين والنُّسَّـاخ بظهور هذا الخط الجديـد. انظر: (Whelan) تحت الطبع. ولنهجٍ ذي صلةٍ بجهود ويلان، ننتظر النَّشرة القادمة لـ(Blair 2002)، والتي تصفُ «خـط الوراق» بـ«بالخط الليِّن المكسـور (broken cursive script). وعن واجباتِ الكاتِب ومسؤوليَّاته، انظر: (EI², s.v. Katib).

أمَّـا عـن الشَّـذرة التـي وصَلتنـا من مُصحـفِ علي بن شـاذان الـرَّازي، والمحفوظة في مكتبة جامعة إستانبول: (Istanbul University Library, A. 6778)، فانظـر: (Catalogue of the 1931 Exhibition, 1931, 70, no.

(126D. وعـن شـذرةٍ منه محفوظةٌ بمكتبةِ شسـتر بيتـي (Chester Beatty)، انظـر: (Arberry 1967, 13, no. 35; James 1980, 27, no. 13). ومعظـم مخطوطـةِ المُصحـف التي خطَّهـا خطَّاطٌ لمالـكٍ مجهـول، والمكوَّنة من أربعة مجلَّدات والتي نُسِخت في أصفهان في عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م محفوظة في مُتحفِ الفنِّ التُّركي والإسـلامي باسـتانبول، وذلك على الرغم من أن أوراقًا منها بيعَت في مزادٍ علنيٍّ. وثَمَّ ورقةٌ واحدةٌ في مجموعة نور (Nour Collection)، لنـدن، انظـر: (Déroche 1992, 154)، وثـمَّ ورقـة أخـرى محفوظة في متحف متروبوليتان للفنونِ (Metropolitan Museum of Art).

أمَّـا عـن مخطوطـةِ الإنجيـلِ المرقومة بـ ٨٩٧ فـي جبل سـيناء، والتي نُسِـخت علـى الرَّق بخطِّ الـورَّاق، فانظر بشـأنها: (Atiya 1955, 4, no. 72, and pl. VI). وعن شرحٍ لأنواع الحِبرِ المُختلفةِ، راجع: (*DoA*, s.v. Ink.). أمَّـا عـن الوصفات فهي مأخـوذةٌ من: (Levy 1962). وثَـمَّ مثالان متأخِّران ولا سيَّما من خط الوراق (broken cursive script) هما شذرة من المصحفِ المنسـوخ بالخط المُقرمَط، انظـر: (James 1980, no. 15)، وكتاب التِّرياق المـؤرَّخ بعـام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨- ١١٩٩م. (Paris, Bibliothéque Natio-nale, MS arabe 2964)، والتي تظهر في: (Farés 1953)، واستمرَّ الكتبةُ في استخدام خطِّ الورَّاق (Broken cursive) في كتابة العناوين في المخطوطاتِ فـي القرنَيـن الثامـن والتَّاسـع الهجريين/ الرابـع عشـر والخامـس عشـر الميلاديين.

عصر التَّدوين:

عـن الكُتبِ بصفةٍ عامةٍ، انظـر: (*EI*[2], s.v. Kitab.). أمَّا عن مُعدَّلاتِ اعتناق السُّـكَّان للإسلام، فانظر: (Bulliet 1979)؛ وتُمثِّل هذه التَّواريخ بداية حقبة «الأغلبيـة المُتأخِّـرة (late majority) كما يسـمِّيها بولِّيت. وعـن علم الفقه انظر: (Schacht 1966, 44). أمَّا عن ازدهار الكتابةِ التَّاريخيةِ، فانظر: (Duri 1983, 22 ; Cahen 1990, 207). ولإلمامـةٍ بأنـواع جديـدةٍ مـن الأدب الدُّنيوي، انظر: (Irwin 1994, 78; Wright 1999). أما بشـأنِ كتب الطَّبيخ،

فانظر: (Rodinson 1949-50, 97؛ ابن النَّديم ١٩٧٠، ٧٤٢- ٧٤٣). وعن مُصنِّفي كُتبِ الطَّبيخ، انظر: (Mez 1937, 394)، وتُرجِمت وصفةُ حَساء المشمش للمرة الأولى في: (Arberry, 1939, 40)، وهي وتظهر أيضًا في (Bloom and Blair 2000). وللاطلاع على مناقشةٍ شاملةٍ لتأليفِ الكُتبِ العربية وانتقالها، انظر: (Pedersen 1984, chap. 3). وعن ترجمةِ المصنَّفات اليونانية إلى اللغةِ العربيةِ، انظر: (Cahen 1990, 483). وثم مرجع أكثر حداثة هو: (Gutas 1998). وتُرجِمَت تعليماتُ رشيد الدين إلى ورَّاقيه في: (Thackston 1995, 114). وتفسيرُ واجهةِ كتاب ديسقوريدس (Dioscorides) هو رأي إتينغاوزن، انظر: (Ettinghausen 1962, 67-70). ونُشِرت النُّسخةُ الصغيرةُ الفاخرةُ من المُصحفِ الذي نُسِخ خصيصًا للأمير الزَّنكي صاحب الموصل في: (James 1992, no. 7). وعن خصائص المدرسةِ الأرتُقِيَّة في التَّصوير انظر: (Ward 1985).

المجموعات والمكتبات:

عن تقديراتٍ لأعدادِ الكُتبِ المحفوظةِ في مكتبةِ الإسكندرية، انظر: (Wasserstein 1990-91). ووفقًا لما ذهَب إليه مارتن (Martin 1994, 56) كانت مكتبةُ البطالمةِ في الإسكندرية تحتوي على ٤٩٠,٠٠٠ لِفافةٍ، بينما احتوت مكتبة السِّيرابيوم (Serapeum) على ٤٢٨٠٠ لِفافةٍ. أمَّا عن مُقتنيات مكتباتِ القرون الوسطى، فانظر: (*DMA,* 1982-89, s.v. Libraries, 7:562; Manguel 1997, 189). ونوقِشَت مُقتنياتُ مكتبةِ السُّوربون في باريس في: (Martin 1994, 154). أمَّا عن ابن النَّديم وكتابه المُسمَّى «الفهرست»، فانظر: مقدمة دودج (Dodge) (ابن النَّديم ١٩٧٠). وعن المكتباتِ العربيةِ بصفةٍ عامةٍ، انظر: (Eche, 1967). وكان الدِّرهم الفِضي، يقدر بقيمةٍ اسميَّةٍ تبلغ حوالي واحد على ثلاثة عشر من الدِّينار الذَّهبي.

وقيل: إنَّ الأميرَ الأُمويَّ خالد بن يزيد (من أهل القرن الأول الهجري/ السَّابع الميلادي) كرَّس حياتَه لدراسة علوم اليونان، ولا سيَّما الكيمياء والطب، ولكن هذه الأسطورة تقوم على ترجماتٍ رديئةٍ للمصادر العربية.

انظـر: (EI², s.v. Khalid b. Yazid b. Mu'awiya). أمَّـا عـن مكتبـةِ بيـت الحكمـة فـي بغـدادَ، انظـر: Young, Latham, and Serjeant 1990, chap.) 28; EI², s.vv. Bayt al-Hikma, Dar al-'Ilm, and Maktaba.). أمَّـا عـن روايـةِ المكتبـةِ التي تولَّى ابن البوَّاب خزانتها، والمكتبة التي أنشـأها عَضُد الدَّولـة فـي شـيراز، فانظـر: (Pedersen 1984, 86, 123)؛ فضلًا عن: Rice) 1955). وعن مكتبة الحكَم المُستنصِر في قُرطبةَ (Córdoba)، فانظر: -Was) serstein 1990-91). والمخطوطة الوحيدة التي وصَلتنا من المكتبة -كُتِبَت بخطِّ الورَّاق- وهي مُختصر أبي مُصعب بن أبي بكر الزُّرهي[1]، التي كتَبها الحُسين بـن يوسُـف للحكَم المُستَنصِر في عـام ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م؛ انظر: (Lévi-Provençal 1934).

وعـن المكتبـاتِ الفاطميَّـة، انظـر: -Walker 1997; EI², s.v. Dar al) 'Ilm.)، والمصدرُ الرَّئيس في هذا الصدد هو (المقريزي ١٨٥٣، ١: ٤٠٩). والمخطوطتـان الباقيتـان مـن المكتبةِ الفاطميَّـة هما: ١) نُسـخةٌ فريدة من كتاب أبي علي الهِجري المسمى «التَّعليقات والنَّوادر»، وهي مقسومةٌ بين دار الكتبِ المصرية في القاهرة ومكتبة الجمعية الآسيوية للبنغال (Asiatic Society of Bengal) بكلكُتـا (Calcutta). ٢) نُسـخة بخـط النَّحـوي البارز إسـحاق النَّجَيْرَميِّ من كتابِ «حذف من نسـب قريش» لـ مؤرِّج بن عمرو السَّدوسـي وهو كتاب في الأنسـاب. وقد كُتبت المخطوطة الأولى للوزير الأفضل بن بدر الجمالي في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميـلادي، لكـن بعد بضع سـنوات دخَل الكتابُ في ملـك الخليفةِ الفائز. وتسـتقرُّ المخطوطـةُ الثانيـةُ، الآن فـي المكتبة العامـة للرِّبـاط، بالمغرب، ونُسِـخَت قُبيـل عـام ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م في بغـدادَ، لذلك فهـي لا تعدُّ -من الناحية الفنِّية الدَّقيقة- مخطوطةً فاطميةً، وهي تحمل قيدَ تملُّكٍ يُشـير إلى أنهـا كُتِبَـت للخزانـة السَّـعيدة الظَّافرية، التي هـي مكتبة الخليفـة الفاطمي الظَّافـر والـد الفائز. وعن هاتَيـنِ المخطوطتَين تفصيلًا، انظـر: (أيمن فؤاد سيد ١٩٩٨، ٨٢ -٨٣).

---

(١) كذا في الأصلِ الإنجليزيِّ، والصَّواب «الزُّهري». (المترجم)

ثقافة التَّدوين:

عـن التحوُّل من ثقافةِ الرِّواية إلـى الثقافةِ القائمةِ على الكتابةِ، انظر: (Graham 1993, 15-17; Clanchy 1993). وعـن نقـاشٍ مُثيـرٍ للجـدل حـول العلاقـات المتغيرة بين السُّـلطة الدينيَّـةِ والمجتمع في هـذه الحقبةِ، انظر: (Bulliet 1994, 21-22). وعـن التَّعليـم الإسـلامي كمـا تطـوَّر فـي العصـر المملوكي في مصر، انظر: (Berkey 1992).

الفصل الرابع
الورق ونُظم التدوين

لإلمامةٍ عامةٍ بمفهوم التَّدوين، راجع: (*The New Grove Dictionary of Music and Musicians,* 1980, s.v. Notation 13:334). وعن مقدِّمةٍ موجزةٍ لتاريخ تدوينِ الأرقام، انظر: (J. S. Pettersson's essay) في: (Daniels and Bright 1996, 795-806).

الرِّياضيات:

عـن تمهيـدٍ ملائـمٍ في الرياضيَّـاتِ العربيَّـةِ وغيرها مـن الموضوعات التي نوقِشـت فـي هـذا الفصل انظـر: (Hill 1993)، وعـن أنظمةِ العـدِّ المُختلفةِ المُسـتخدمة فـي العالـم الإسـلامي، انظـر: (*EI*[2], s.vv. Abdjad, Hisab al-Djummal, and Ta'rikh III)؛ وانظـر أيضًـا: (MacDonald 1992). وعن تاريـخ الأرقام اليونانية والرُّومانية، انظـر: (Daniels et al. 1996, 804). أمَّا عن شرحٍ واضحٍ جليٍّ لكيفية عمل العدَّاد (*abacus*) الذي كان يُستخدَم في ضرب الأرقام الرُّومانية وقِسْـمَتها، فانظـر: (*DMA,* 1982-89, s.v. Mathematics.). وعن تاريخ حساب العَقد (*dactylonomy*) في العالم الإسلامي، انظـر: (*EI*[2], s.v. Hisab al-'akd). ويَسـتندُ كثيـرٌ مـن تناولـي للحسـابِ في العالم الإسلامي على المادةِ المُصوَّرةِ التي كتبها أ. إ. صبرة (A. I. Sabra) في: (*EI*[2], s.v. Ilm al-Hisab).

وعـن أصلِ الأرقام الهندو-عربية، انظـر: (Saidan 1996, 333-34). أمَّا عن أُصولِ كلمة خُوارزمية (*algorithm*)، فانظر أيضًا: (*EI²*, s.v. Algorith-mus.). وعـن ابن النَّديم والخُوارِزمي انظر: (*DMA*, 1982-89, s.v. Arabic Numerals). وعن تاريخ القلم الرَّصاص انظر: (Petroski 199 2). أمَّا بشأن إدخـالِ الأرقامِ العربيَّةِ إلـى الدَّولة البيزنطيَّة، فانظر: (*DMA*, 1982-89, s.v. Arabic Numerals). وعـن اسـتخدام الأرقـام العربيَّـة علـى ألـواح الغُبار، انظـر: (*EI²*, s.v. Hisab al-Ghubar.). أمَّـا عـن التجَّـار الإيطاليِّين والأرقام العربية، فانظر: (Crosby 1997). وعن استبدالِ الورقِ والحبرِ بألواح الغُبار فـي البنـوك الإيطاليَّـة، انظـر: (Rowland 1994; Barnard 1916; Crosby 1997).

التجارة:

عن إعادةِ بناء الحياةِ الاقتصاديةِ للجاليةِ اليهودية (وكذلك المسـلمين) في القرونِ الوسـطى على أساس الوثائق المُدوَّنة على الورق، انظر: (Goitein 1967-94). وتجد روايةَ عاملِ الخَراج الخُراسـاني في: (Mez 1937, 109). أما بشـأن الـدَّور الذي لعبته المنسـوجات فـي المجتمعاتِ الإسـلاميَّة في القرون الوسـطى، انظـر: (Lombard 1978). وعن الصُّرَرِ المختومةِ، انظر: (Goitein 1967-94, 1:230). أمـا عـن المـال وقضايـا السُّـيولة الماليَّـةِ فـي المجتمـع الإسـلامي، انظـر: (Bates 1978). وعـن الائتمـان وتطبيقاته في المُجتمعاتِ الإسـلاميَّة في القرون الوسـطى، فانظـر: (Goitein 1967-94, 1:240-50). وعـن مقولة الفقيه السَّرخَسـي والافتقـار إلى البنوكِ في العالم الإسلامي، انظر: (*DMA*, 1982-89, s.v. Banking, Islamic.). وعن الرِّواية المُتعلِّقةِ بالشَّاعر المُحبَط فهي مُستقاة من (Mez 1937, 476).

أمَّـا عـن التَّخفيضـات النَّقديـة والسُّـفْتَجة، فانظـر: (Goitein 1967-94, 1:199, 245-46). وفيما تعلَّق بالأموالِ الورقيةِ المُتداولةِ في الصِّين، انظر: (Tsien 1985, 96-102)؛ وعـن إدخال النُّقودِ الورقيةِ إلى بلاد فارس، انظر: (Boyle 1968, 374-75). وعـن مَسـكِ الدَّفتـر ونمـوذج المحاسـبةِ الماليَّـةِ

الإسلاميَّة، فانظر: (Goitein 1967-94, I: 204-9). أمَّا عن أُصولِ القَيدِ المزدوج (double-entry) في إمساك الدَّفاتر والسجلَّات التجارية في إيطاليا، فانظر: (DMA, 1982-89, s.v. Accounting.).

فن رسم الخرائط:

استنَدت معظمُ المعلوماتِ الواردة في هذا القسم إلى المقالات المُمتازة المنشورةِ في: (Harley and Woodward 1992)، إضافةً إلى مقدمةٍ كتبها كارا مصطفى (Karamustafa 1992). وعن خرائط القِبلة انظر: (King and Lorch 1992)، وعن خرائط السَّماء، انظر: (Savage-Smith 1992). ونوقِشت دائرةُ البروج (Zodiac) المُصوَّرة في قصير عمرة في: (Saxl 1969; Beer 1969). ونُشِرَت مخطوطةُ بودليان لأبي عبد الرحمن الصُّوفي في: (Wellesz 1959). وذكَر سافاج وسميث روايةَ البيروني عن أبي عبد الرحمن الصُّوفي التي تلي الحديثَ عن تمثيلِ الكرةِ الأرضيةِ، في: (Savage-Smith 1992, 55). ونوقِشَت الخرائطُ الإسلاميَّةُ المبكرةُ في دراسة تيبتس، انظر: (Tibbetts 1992). وعن روايةِ المسعودي عن خريطةِ الأرض التي صُنِعَت للمأمون، انظر: (المسعودي ١٩٦٤، ٣٣)، وتجدُ نصَّ المسعودي مترجمًا للإنجليزية في: (Tibbetts 1992, 95). وعن تحديدِ الاتجاهات في الخرائط الإسلاميَّة، انظر: (Tibbetts 1992, 105). وعن خريطةِ العالم التي أُعِدَّت للخليفةِ الفاطميِّ المُعزِّ لدين الله، تجد وصفًا لها عند المقريزي، انظر: (المقريزي ١٨٥٣، ١: ٤١٧، سطر ١٢ وما يليه)؛ قارن أيضًا: (Combe, Sauvaget, and Wiet 1931, 4:186, no. 1654). وعن مدرسة «المسالك والممالك» عند رسَّامي الخرائط المُسلمين، انظر (Tibbetts 1992, 105؛ المسعودي ١٩٦٤). وعن الخرائط الأوروبيَّة القُروسطيَّة للعالم (*Mappae mundi*)، انظر: (*DoA,* s.v. Map 2. Western world maps.). ونوقِشت خرائط الإدريسي في: (Ahmed 1992)؛ أمَّا أقدم ما وصَلنا من خرائط الإدريسي، فهو محفوظٌ في المكتبةِ الوطنيَّةِ في باريس (Bibliotheque Nationale, MS arabe 2221, fols. 3v-4r). وعن الخرائط الصِّينية، انظر: (Steinhardt, 1997, 1998).

الموسيقى، وعلم الأنساب وخطط القتال:

تعتمدُ كثيرٌ من المعلومات التي ذكَرتُها في ثنايا تناولي لتدوين الموسيقى العربية على عددٍ من الموادّ، وهي منشورة في: (The *New Grove Dictionary of Music and Musicians,* 1980)، وهي تشتملُ على تلك المواد، (Arab music §1,2, al-Kindi, Notation, and Safi al-Din)، إضافةً إلى بعض المقالات المنشورةِ في (*EI*²)، بما في ذلك (Ghina, Kutb al-Din Shirazi, and Musiki). وأنا مُمتنٌّ للغاية لـ أوين رايت (Owen Wright) لإجاباتِه عن تساؤلاتي حول نظام تَرميزِ الكِنديّ للنَّغماتِ والألحان.

وعن الأنساب ومُشجَّرات الأنسابِ، انظر (*EI*², s.vv. Hamdani and Nasab.) وعن مخطوطةِ رشيد الدِّين، انظر: (Richard 1997, 44)، وتُغطِّي مُشجَّرةُ الأنسابِ الأوراق ٢٦٥ظ إلى ٢٧٧و- وعن المُخطَّطات الأخرى المُوضَّحةِ بالمُنمنمات، انظر: (Blair 1995, 110 n. 45). أمَّا عن الرُّسومات والمُخطَّطات في مخطوطاتِ الفروسيَّة، فانظر: (*EI*², s.v. Furusiyya; Hillenbrand 1999. 518-21). وعن مخطوطةِ الأَقصُري المحفوظةِ في مكتبة شستر بيتي (Chester Beatty)-دبلن برقم (Add. MS. I)، فانظر: (Atil 1981, 262).

الفصل الخامس

الورق والفنون البصرية

الفنون البصريَّة قبل القرن السَّابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي:

ظهَرت بعض الموادِّ في هذا الفصل بالفعل بشكلٍ مختلفٍ مقارنةً بما نُشِر من قبل في: (Bloom 1993. Bloom 2000). والأدبيات المُتعلقة بموضوع تحريمِ التَّصوير (*Anieonism*)، أو كراهة الصُّور في الإسلام لا تكاد تُحصى. وعن إلمامةٍ عامَّةٍ حول هذا الموضوع، راجع: ,Allen 1988)

(chap. 2. وهنـاك عـددٌ صغيـرٌ نسـبيًا مـن الصـور التـي رُسِـمَت فـي إطار موضوعـاتٍ «دينيـةٍ» ظاهريًا، مثل المُنمنمات التي صَوَّرت رحلة الإسـراء والمِعـراج، في أزمنةٍ وأمكنةٍ مُختلفةٍ. ولكن مُعظمها، إن لم تكن جميعها، ينبغـي أن تُفهَـم علـى أنهـا مُنمنماتٌ رُسِـمَت في إطـار مُصنَّفـاتٍ تاريخيَّةٍ ودواويـن شـعرٍ، وليـس فـي إطار أعمـال فنيَّـةٍ تعبديَّـةٍ. وعـن مخطوطاتٍ إسـلامية مصـوَّرة قبـل عـام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، انظـر: (Holter 1937)، والمُلحـق (Buchthal, Kurz, and Ettinghausen 1940). وعـن مخطوطـةِ ديسـقوريدس، انظر: (Weitzmann 1971, 252, and pl. xxxiv, figs. 8 and II; Grube 1959, 169, 175, fig. 5).

أمَّـا بشـأنِ تقييـم تلـك الشَّـذرات التـي عُثِـر عليهـا بالفُسـطاطِ فهو أمر محفـوفٌ بالمصاعـبِ. وعن أقدم المخطوطات العربيَّـة المُصوَّرة عمومًا، انظـر: (Rice 1959). ومـن المعروفِ أن التجَّار لم يُزوِّروا نُسـخًا ثم أدَّعوا أصالتهـا فحسـب، بل قامـوا «بزخرفـةِ» أو «تزييـن» صفحاتٍ ورسـوماتٍ أصلية من القرون الوسطى لزيادة قيمتِها في سوقِ الفنِّ من خلال تزويدها بنصـوصٍ أو بمنمنمـاتٍ. ومن الخطورةِ بمكان اسـتخدام أمثلـةٍ مثل ورقة رسالة كعب الأحبار المزوَّدة بصورة أسدٍ بوصفِها دليلًا قاطعًا على الوجود المبكر لفنِّ تصويرِ الكتاب، كما تورَّط هوفمان في ذلك، انظر: (Hoffman 2000). وعـن تقييـم أكثـر توازنًـا، راجـع: (Stefano Carboni in *Trésor sfatimides du Caire,* 1998, 99).

ونُشِـرت الواجهة التي يُزعـم أنها افتتاحية جزءٍ من ديوان لأحد الشُّعراء مـن العصـر الأُمـوي فـي: (Wiet 1944; Grube 1976, 33). وهناك منمنمةٌ أخـرى تُصوِّر مقاتلَيْن، نُشِـرت مؤخرًا فـي: (*Trésor sfatimides du Caire, 1998. No 22*)، وهـي محـلُّ شـكٍّ فـي أصالتِهـا أيضًا، ولا سـيَّما أن بعض الباحثيـن صنَّفوها على أنها رسـمٌ بالمدادِ، بينما زعـم آخرون أنها مطبوعةٌ بالقالب (block print).

وإلى حدٍّ ما بوسـعي أن أقرِّر أن جميعَ هذه الأعمال ظَهَرت في سـوقِ

الفنِّ في القاهرة في الثلاثينيَّات والأربعينيَّات من القرن الماضي، بالتَّزامن مع مجموعةٍ من قِطع الحرير الفارسيَّة التي يُزعم أنها تعود إلى العصر البويهي (Wiet 1948). ثم ثبتَ لنا مؤخرًا أنها مُصطنعةٌ ومزوَّرةٌ. ووثَّق الباحثون في البدايةِ تاريخها استنادًا إلى نصوصٍ مؤرَّخةٍ وأشعارٍ طُرِّزَت عليها بدقة؛ انظر في تفصيل ذلك: (Blair, Bloom, and Wardwell 1993). ولن أشعرَ بتأنيبِ الضَّمير إذا ربَطْتُ شذرةَ الفُسطاط التي دُوِّنت عليها نصوصٌ بهذه الطَّريقة نفسها -إلى حدٍّ كبيرٍ- بهذه القطع المزورةِ المشار إليها آنفًا. ومن ثم يظل من قَبيل المجازفة -في رأيي- الاستناد إليها حتى تُفحَص فحصًا علميًّا دقيقًا.

ووردت روايةُ المسعودي في: (Rice 1959)، أما بشأن روايةِ ابن النَّديم، فانظر: (النديم ١٩٧٠، ٨٣٢). وعن منصورٍ الشَّامي، انظر: (Hillenbrand 1991, 161 n. 48,)، حيث يحيلُ هلينبراند إلى نشرة (محيي الدِّين ١٩٨١). وعن مخطوطات «كليلة ودِمنة» المصوَّرة، انظر: (Grube 1990-91). واستشهد كثيرٌ من الباحثين بمقولةِ ابن المُقفَّع، ولكن انظر خاصةً: (Rice 1959, 2 09). أما عن المصادر المُتعلِّقة بأقدم نُسخةٍ مصوَّرةٍ من «كليلة ودِمنة» في آسيا الوسطى، فانظر: (Raby 1987-88).

وعن تخمينِ الوظيفةِ المزعومةِ التي أدَّتها شذراتُ الفسطاط، فتجدها في: (Grube 1976). وعن الرَّسم على الفخَّار المبكِّر في خُراسان وبلاد ما وراء النَّهر (Transoxiana)، انظر: (Volov (Golombek) 1966; Wilkinson 1973). وعن أمثلةٍ من المنسوجات التي نُسِجَت باستخدام النَّمط نفسه، وعلى أنوالٍ مختلفةٍ، انظر: (Blair, Bloom, and Wardwell 1993).

ونوقِش استخدامُ المخطَّطات المعماريَّة في العمارة الإسلامية المبكِّرة -وتحديدًا في بناءِ قبةِ الصَّخرة- في: (Creswell 1969, 101 ff; 109-111)، وعلى نحو أكثر تركيزًا في: (Bloom 1993)، الذي تناول تلك القضيَّة بمقاربةٍ مختلفةٍ كُلِّيًّا. وعن مُخطَّط مسجدِ الزَّيتونة في تونس، انظر: (Creswell 1989; 386-87; Golvin 1970-, 3:156-60). وعن مزيدٍ من الإشارات

إلـى «المُخطَّطـات» المعماريَّـة، انظـر: (Necipoğlu 1995, 3-4). أمَّـا عـن رواية المسـعوديِّ عن قصرِ المُتوكِّل، فقد نُشِـرت مؤخرًا في: (Matthews and Daskalakis Matthews 1997). وعـن الجامـعِ الكبيـرِ فـي تازة، انظر: (Terrasse 1943). ويمكن رؤية الامتدادِ غير المنطقي عند الاعتمادِ على ما تُظهِره المخططات على سـطحٍ ثنائيِّ الأبعادَ أكثر من الاعتماد على الخبرة في قراءة الرسـوم ثلاثيـة الأبعاد للمبنى فـي: (Ewert and Wisshak 1981, 127). ويعتقد المؤلِّفون أن المُثمَّنات مُتحدة المركزِ في مخطط قبَّة الصخرة تكـرَّرت علـى نحو واعٍ في عمود الجامع الكبير فـي القيروان، على الرغم مـن أن هـذه «المُثمَّناتِ» لا تظهـر إلا في المخطَّطات عاليـة الدِّقة لأعمدة المسـاجد. وعـن فـنِّ الخـطِّ المعاصـر، انظـر: (Blair 2002). ولإلمامـةٍ بالاختلافاتِ بين النظريَّة والتطبيق، انظر: (Rogers 1973-74).

وتتضمـن النُّسـخُ العربيَّـةُ مـن متـن البوزجانـي نصًّـا وُضِـع فـي القرن الخامـس عشـر لمكتبـة ألـوغ بيـك Ulugh Beg فـي سـمرقند (إسـتانبول، المكتبة السُّـليمانية، MS Ayasofya 2753) وهناك نُسـخةٌ في ميلانو (Ambrosiana, Ar. 68). وتَضـمُّ المكتبـة الوطنيَّـة فـي باريس ترجماتٍ فارسـيَّةً متأخرةٍ لبعض المخطوطاتِ العربيَّة، (Bibliothéque Nationale, MS persane 169, and Tehran, University Library, MS 2876; see Sezgin 1974, 324). وعن تفسيرٍ مُختلفٍ تمامًا لـدورِ أبي الوفا البوزجاني، انظر: (Necipoğlu 1995)، والـذي ينبغـي مُعاودته بحـذرٍ، وفقًا لـ صليبة (Saliba 1999). وعن تباين الحرفيِّين في معرفةِ القراءةِ والكتابةِ، انظر: (Ettinghausen 1974). وعـن دورِ الأدبِ فـي الثقافة العربيَّة عمومًا، انظر، على سـبيل المثال: (*EI*[2], s.v. Adab).

الفنون البصرية منذ القرن السَّابع الهجري/ الثَّالث عشر الميلادي:

إنَّ الأدبياتِ المُتعلِّقةَ بتطوّر الرَّسـم الإسـلامي، وخاصَّةً في المخطوطات المُصـوَّرةِ، غزيـرةٌ. وعـن مُلخـصٍ وجيـزٍ، انظـر: (Raby 1987-88). وعن الـرَّأي القائـل: إن المخطوطـاتِ المُصـوَّرة قـد صُنِعَـت منـذ عصـر صدرِ

الإسلام إلا أنها لم تصِلنا، انظر: (Ettinghausen 1942; Grube 1976)، فضلًا عن الدِّراسةِ التي نُشِرت مؤخرًا (Hoffman, 2000)، وينسِج هوفمان على مِنوال فيتزمان (Weitzmann 1971) ويناقِش الكتابَ الإسلاميَّ بوصفِه أثرًا من أواخِر العصورِ القديمةِ. أمَّا عن الكتاب المصوَّر بوصفِه نتاجًا لظهور طبقة برجوازية حضريَّة، فانظر: (Grabar 1970). وفي ظلِّ غياب تاريخ عام للكتابِ المصوَّرِ في هذه الحقبة، انظر، على سبيل المثال: (Blair and Bloom, 1994) في غير موضع، وانظر أيضًا: (DoA, s.v. Islam-ic art, §III, 4(v) Painted book illustration c. 1250-c. 1500).

وعن الحكايةِ الشَّاعريَّةِ المُسمَّاة «بياض ورياض»، انظر: (Dodds 1992, no. 82). وراجع النَّشرة الكاملة في: (Nykl 1941). ونوقِشت رواية الرَّاوندي في: (Blair 1995, 55-56). وجمَع بورتر بعض المراجع الأخرى عن الكُتبِ المصوَّرةِ في النُّصوص المعاصرة، انظر: (Porter 1994). وتجد إشاراتٍ أدبيَّةً لبعض مخطوطات الشَّاهنامة المُصوَّرة التي صُنِعَت لبلاط القراخانيِّين في القرن السَّادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في: (Me-likian Chirvani 1988, 43-45)، وعن الحكاية الشَّاعرية المُسمَّاة «ورقة وگلشاه»، انظر: (Melikian-Chirvani 1970). ونُوقِشت النُّسخُ المُصوَّرة من مقامات الحريري في: (Grabar 1984).

وعن نشأةِ الكتابِ المُصوَّرِ في فارس في القرنِ الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وتطوره، انظر: (Blair 1993). أمَّا عن مخطوطات «الشَّاهنامة الصَّغيرة»، فانظر: (Simpson 1979). وعن محاولةٍ لكشف قياس قطع الورق المُستخدم في المخطوطات الفارسيَّة (غير المُصوَّرة)، انظر: (Humbert 1998). والأبعاد المُعطاة لحجم النصِّ في مخطوطة ورقة وگلشاه في: (Ateş 1961) غير دقيقةٍ؛ انظر في ذلك: (Melikian- Chirvani 1970; çağman and Tanindı 1986, nos. 21-24)، وعن «شاهنامة المغول العظام»، انظر: (Grabar and Blair 1980). وقد نُشرت ألبومات إستانبول جزئيًّا. وعن ألبومَيْن يضمَّان بعضَ المُنمنمات من القرنِ الثَّامن الهجري/

الرابع عشر الميلادي، انظر: (Roxburgh 1996). ونشر كوين المُنمنمات من مخطوطة «كليلة ودمنة» المُفكَّكة من القرن الثَّامن الهجري/ الرَّابع عشر الميلادي، انظر: (Cowen 1989)، على الرغم من أن استنتاجاتِها لم تحظَ بإجماع الباحثين. وعن ألبومات برلين، انظر: (Ipşiroğlu 1964)، وعن المصاحفِ من القرنين السَّابع والثَّامن الهجريين/ الثَّالث عشر والرَّابع عشر الميلاديين، انظر: (James 1988).

وعن الصِّياغةِ الكلاسيكيَّةِ للأنماط الثَّلاثة من الخزفِ القاشاني، انظر: (Watson 1985). ونُوقِش أسلوب قاشان في صناعةِ الخزف مناقشةً وافيةً في: (Guest and Ettinghausen 1961). وقدَّم هيلينبراند شرحًا مختلفًا إلى حدٍّ ما للعلاقاتِ بين الخزف وتَصوير الكُتبِ في هذه الفترة في: (Hillen-brand 1994). وعن [جمال الدِّين] أبي القاسم، انظر: (Watson 1985, Blair 1986b; Allan 1973)، وتُرجِمَت مقولةُ دوست محمد إلى الإنجليزية في: (Thackston 1989, 345). وعن تكرار الأشكالِ والتَّركيبات، انظر: (Titley 1979; Adamova 1992). وعن مختارات إسكندر سلطان (Iskan-dar Sultan)، انظر: (Gray 1979, 134). وثَمَّ تاريخٌ موجزٌ للرَّسم بتقنيةِ الوخز في: (*DoA*, s.v. Pouncing). ونُشِرت مجموعة من صورِ الأواني والقرميد من نيقية (Iznik)، بالإضافة إلى رسمٍ بتقنية الوخز في: (Atasoy and Raby 1989, 56-57). أما عن استخدام النماذج الورقيَّة في أواخر القرن العاشر الهجري/ السَّادس عشر الميلادي، انظر: (Necipoğlu 1990, 155). وعن تصميماتِ المشغولاتِ المعدنية والمخطوطات في فارس في القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، انظر: (Komaroff 1994)، وعن المُزخرفين والمُذهِّبين الذين عمِلوا من مصادرَ تَصميمٍ مُشتركةٍ، فانظر: (Sims 1988).

وعن مجموعةٍ مُختارةٍ بتَبصُّر من رسوماتِ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على الورق، فانظر: (Lentz and Lowry 1989, chap. 3). وعن أمر باي سونغور لـ جعفر بن علي التَّبريزي بالعمل فهو

مُترجمٌ في: (Thackston 1989, 323-27). وعرَض روجرز عدة أمثلةٍ توضح الكيفية التي انتقلت بها الرُّسومات والزَّخارف من وسيطٍ إلى آخر، تجدها في: (Rogers 1983). ونوقِش النَّقش غير المُكتمِل في المسجد الأزرق في تِبريز في: (Rogers 1989). كما نُشِر اللوح الجصِّي الصَّغير المكتشف في «تختِ سليمان» في: (Harb 1978). أمَّا عن مجمَّع ضريح رُكن الدِّين في يَزْد، انظر (الجَعفري ١٣٣٨/ ١٩٦٠، ٨٨ -٨٩؛Blair 1986a, 33, 92 n. 10; Afshar 1979). وعن العمارةِ الفارسيَّة في القرن الثَّامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، انظر: (Wilber 1969)؛ وعن تطوُّرِها في القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشَر الميلادي، انظر: (Golombek and Wilber 1988). وعن أقدم الرُّسوماتِ المعماريَّة التي وصَلتنا وكذلك لِفافةِ طوب قابي سراي، انظر: (Necipoğlu 1995). وعن الحرفيِّين من البنَّائين المُتجوِّلين، انظر: ;Meinecke 1992, 130-52) 1996). أمَّا عن النَّهج «المِهني» الجديد للتَّصميم في العمارةِ التَّيموريَّة، فانظر: (Golombek and Wilber 1988, chap. 7).

وهناك عدة رسوماتٍ للمُهندسِ المعماري الإيطالي بالداسار بيروتزي (Baldassare Peruzzi) على الورق المربَّع الشَّبكي، لكن مُعظم الرُّسومات المعماريَّة الإيطاليَّة في القرن الخامس عشر الميلادي لم تُرسَم على هذا النَّوع من الورق خاصةً. وأنا أشكر مَيْرا نان روزنفيلد -Myra Nan Rosen) feld)، كبيرة الباحثين في المركز الكندي للآثار -Centre Canadien d'Ar) chitecture)، على إمدادي بهذه المعلومات.

وعن الرُّسومات المِعماريَّة الإيطاليَّة، انظر: (Frommel 1997). أمَّا عن الأنظمة التَّناسُبيَّة المُستخدمة في الهندسة المعمارية التَّيمورية، انظر: (Golombek and Wilber 1988, chap. 7). وعن مثالٍ من الرُّسوماتِ الخاصَّةِ بالمُصمم بالمِدادِ واعتماد الحِرفَيِّ عليه، فانظر مجلدات الكُتبِ المختومةِ في منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي التي نُوقِشت في: (Raby and Tanındı 1993, 15-17). وعن تَقييمٍ ذكيٍّ

وموجز للأدبِ التَّيموريِّ، فانظر: ,Wheeler M. Thackston's entry in *EI²*) s.v. Timurids 2. Literature) ونوقِش عمـلُ قِـوام الدِّين في: Golombek) and Wilber 1988, 189-93; Wilber 1987). والمعماري سِنان هو موضوع عددٍ من الدِّراساتِ، بما في ذلك: (Kuran 1987)، وعن بهزاد انظر: -Pris) cilla P. Soucek in *DoA* s.v. Bihzad)؛ وانظر أيضًا: الرُّسومات التَّوضيحيَّة في: (Bahari 1996). وعن السُّلطان محمد، انظر: (Soucek 1990).

وعـن أمثلـةٍ علـى الأعمـال المعدنيَّـة التَّيموريـة والأعمـال الخشـبية المُسـتندةِ إلـى تصميمـاتٍ مُسـبقةٍ على الـورق، انظر، على سـبيل المثال: (Lentz and Lowry 1989, 206-9; Grube 1974). وعـن نظـرةٍ عامَّـةٍ علـى الفنـونِ في هـذه الحقبةِ، انظـر: (Blair and Bloom 1994) في غير موضع. وعن استخدام الأنماطِ الورقيَّة للنَّسيج المطرَّز في القرنِ التَّاسع الهجري/ الخامس عشـر الميـلادي، انظـر: -Lentz and Lowry 1989, cat. nos. 95) 98). ونوقِش تطوُّر تصميمِ السـجَّاد في: .Blair and Bloom 1994, chaps) 10 and 16). وعـن سـجَّاد أوشـاق (Ushak) ذي الميداليـة خاصـةً، انظـر: (Raby 1986). ونوقش سـجَّاد أردبيل في: ;Stead 1974; *Enryclopaedia* *Iranica,* 1985, s.v. Ardabil Carpets).

الفصل السادس

انتقال الورق وصناعته إلى أوروبا النصرانية

التعليق العرَضِي «الورقُ الإسباني»:

عن الورقِ الإسـبانيّ بصفةٍ عامةٍ، انظر: (Valls i Subirá 1970 and 1978). وعـن مخطوطةِ القُسـطنطينيَّةِ في القرنِ الثَّالث عشـر الميلادي، انظر: Le) Léannec-Bavavéas 1998, 71; Canart 1982).

التَّعليق العرَضي «تقنيةُ شدِّ الأسلاكِ»:

عـن ثيوفيلـوس انظـر: (*DoA*, s.v. Theophilu). وعـن اسـتبدالِ عضـلاتِ الرِّجـالِ والشُّـروع فـي اسـتخدام الآلاتِ (mechanization) فـي صناعـة الأسلاكِ في نورمبرج (Nuremberg) انظر: (Le Léannec-Bavavéas 1998, 59).

التَّعليق العرضي «الخطوطُ المُمدَّدة والخطوط المُتسلسِلة»:

ناقش تيرنر الخصائصَ التِّقنية للورقِ مناقشـةً وافيةً، بما في ذلك الخطوط المُمدَّدة والمُتسلسِـلة. انظر: (Turner 1998, 26 ff). وأعدَّ جارلوك مُعجمًا مفيدًا للمُصطلحاتِ المُتعلِّقة بصناعةِ الورقِ. انظر: (Garlock 1983)

التَّعليق العرضي «صناعة الورق في إيطاليا»:

عـن تاريـخِ الـورقِ الإيطالي في طـورِه المبكِّر، انظـر: (Hills 1992). وعن انتشـار صناعـة الـورقِ فـي أوروبَّا بعـد اختـراع الطباعة من نـوعِ الأحرف المتحرِّكة، انظر: (Febvre et al. 1990, 112-113, 216-22).

الدَّولة البيزنطية:

درس إيريجويـن التاريخ المبكِّـر للورقِ في بيزنطة، انظر: (Irigoin 1953). وجـادل نيقـولاس اويكونوميديـس Nicholas Oikonomidès في أنَّ صُنَّاع الورق قد ذُكِروا في نصَّين بيزنطيَّين من القرون الوسطى، انظر: (Nicholas Oikonomidés 1977). فقـد عدَّد ثيودور الاسـتوديتي (Theodore the Studiite) -فـي ثنايـا عِظاتـه- المهـن التـي كانت تُمـارَس في دَيره فـي القرن التَّاسع الميلادي. ومنها (*kartopoio*)، أي أولئك الذين يصنعون القِرطاس، ومـن ثَـم ميَّزهم عن أولئك الذين كانوا يصنعـون الرَّق (*membranopoio*). وتُشير رسالةُ الإمبراطور قسطنطين بورفيجينيتو (Constantine Porphyrigenito) فـي القرن العاشـر الميـلادي والتي وضَعها في فـنِّ الحكم وإدارة الإمبراطورية، إلى مجموعة ممن دعاهم القِرطاسيِّين (kartopoio). وهكذا

افترض اويكونوميديس (Oikonomidés) أن هؤلاء القرطاسيِّين كانوا يصنعون الورقَ. بيد أن البردي كان يُسمَّى في اليونانية بالقِرطاس (kartes)، واستمرَّت مصر في إنتاج أوراق البردي وتصديرها إلى الدَّولة البيزنطية حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ومن ثَمَّ فقد عمِل أولئك الأفراد بلا شك في صُنع ورق البردي. ولمَّا لم يعُدِ البردي يُصدَّر من مصر إلى الدَّولة البيزنطية، فقد توجَّب على الكتبةِ البحث عن بديلٍ مناسبٍ.

وعن دراسةٍ مُقارنةٍ بين الممارسات في الأعيادِ والاحتفالاتِ في الدَّولة البيزنطيَّة والفاطمية، انظر: (Canard 1951). وعن تزايد شعبية الورق الأوروبي في الدَّولة البيزنطيَّة بعد الحرب الصَّليبيةِ الرابعة، انظر: (Irigoin 1977). وعن تصديرِ الورقِ من برشلونة (Barcelona) إلى القُسطنطينية (Constantinople)، عاوِد: (Burns 1985, 174). وعن التَّاريخ المبكر لصناعة الورق في العصر العثماني، انظر: (Kağitçi 1963, 37). وجادل بابينجر (Babinger 1931) أنَّ الدُّولابَ في مصنع الورق (Kagithane) لم يبدأ العمل حتى القرن الثَّامن عشر، على الرغم من أن هذا المصنع قد ذُكِر مرتين على الأقل قبل قرنين من الزَّمان، ولا ريب أن ثمَّة خطأً واضحٌ هنا. أمَّا عن أنواع الورق المُستخدمةِ في البلاط العُثماني، فانظر: (Raby et al. 1993, 69, 215). وعن هجرةِ الخطَّاطين من البلاط التُّركماني إلى البلاط العُثماني، انظر: (Blair 2002).

إسبانيا:

عن الثقافةِ الماديَّة المُشتركةِ في إسبانيا في القرون الوسطى، انظر: (Mann, Glick, and Dodds 1992). وأظهَر الباحث الكاتالوني أريول ڤالس سوبيرا (Oriol Valls y Subirà) شغفًا بدراسةِ تاريخ الورق الإسباني، ولا سيما الورق الكاتالوني منه، انظر: (Oriol Valls Subiré 1978). وعرض لو ليونيك بافافيس (Le Léannec Bavavéas) ما نعرفه حاليًا عن الورقِ الإسبانيِّ الذي أُنتِج قبل ظهورِ العلاماتِ المائيَّة (Le Léannec- Bavavéas 1998, 87-95, 132). أما عن الاقتباسِ من بيتر الموقَّر -Peter the Venera)

ble) فهـو مأخـوذٌ من: (Valls i Subiré 1970, 5-6). ويعتقد بورنس (Burns 1980; 1985, 180) أنَّ توحيدَ حجم الورقِ ساعد على تَمهيدِ الطريق لعصر الطباعة. وعن تقنياتِ المطاحنِ في إسبانيا، انظر: (Glick 1979, 230-34) ودُرِسَـت محتويـاتُ أرشيـف أراغـون فـي: (Valls Subiré 1970). وعـن إدخالِ الورق الإيطالي إلى إسبانيا، انظر: (Irigoin 1977, 48; 1960).

إيطاليا:

دُرِسَـت أصـولُ صناعةِ الورق الإيطاليَّة، ووثائق سِـجلَّات العدلِ من قِبَل: (Irigoin 1963; Le Léannec-Bavavéas 1998, 107-10). كمـا دُرِسَـت الجوانـبُ التقنيَّـةُ مـن قِبـل: (Hills 1992). وعـن استيراد إيطاليـا للـورقِ الإسباني، انظر: (Constable 1994, 196).

شمال جبال الألب:

عن إنشـاء مصانعَ الورقِ شـمال جبال الألب، انظر: (Martin 1994, 209). وعـن تكلفـة الـورقِ مقارنـةً بتكلفـةِ الـرَّق، انظـر: (Irigoin 1950). وتجِد تواريـخ إدخـال الـورق فـي شـمال أوروبَّـا فـي: (Le Léannec-Bavavéas 1998, 80, 129-30, 134). وعن تأثيرِ الورقِ على طرق التَّصميم والرَّسـم، انظر: (*DoA*, s.v. Architectural Drawing.).

الفصل السابع

الورق بعد الطباعة

التَّعليق العرَضي «الخفَّاق الهولندي»:

نُوقش اختراعُ الخفَّاق الهولندي، وتطوره في: (Hunter 1978, 162 ff).

وعـن الآثـار الثَّوريَّة للطِّباعـةِ، انظـر: (Martin 1994 and Febvre et al. 1990). وعـن السِّـماتِ العامـة لليابسـةِ في القـارَّةِ الأوروبيَّـة، انظر: -Dia)

mond 1997). وعن انتشار تربيةِ الماشيةِ من بلاد ما بين النَّهرين إلى آسيا الوسطى، انظر: (Barber 1999). وعن الرِّكاب والمَطاحِن، انظر: (White 1967). وعن نقلِ الأفكارِ والتِّقنيات في الحقبةِ الإسلامية الكلاسيكية، انظر: (Hodgson 1974, 3:200). وبغضِّ النظر عن دراسةِ بورنس (Burns 1980)، يبدو أنَّ دورَ الورق في التحوُّلات التي ألَمَّت بأوروبا في عصر ما قبل الحداثةِ لم يُستكْشَف بعد.

وعن الطِّباعةِ في العالم الإسلامي، انظر: (*DoA*, s.v. Islamic Art, §III.8(i) Block-printing; and *EI*^{2}, s.v. Matba'a.). وعن التَّمائم المطبوعةِ بطريقة الطِّباعةِ بالقالب (block-printed)، انظر: (Bulliet 1987; Kubiak et al. 1989, 69-70). وعن الطِّباعةِ بالقالب على غُلافي الكتاب من الدَّاخلِ، انظر: (Bosch et al. 1981; Haldane 1983). وعن تجليدِ الكُتبِ المَصبوبةِ بالضَّغط، انظر: (Raby et al. 1993, 13). أما عن المُحاولات الأولى لطباعة المصحفِ، فانظر: (Nuovo 1987, 1990). وقد حُفِظ المصحفُ الذي طبعته المطبعة الڤينيسية في البندقية (Venice) في عام ١٩٩٣، برقم ٢٩٨. وعن كثيرٍ من الأمثلةِ الأخرى من الكُتب المطبوعةِ المُبكِّرة، انظر: (Kreiser 2001).

وعن المكتبةِ اليونانية التي أنشَأها السُّلطان محمد Mehmed، انظر: (Raby 1987). وعن مسألةِ الطِّباعة في الإمبراطورية العُثمانية، انظر: (Fa-roqhi 1995, 111-13). أمَّا عن تطوُّرِ الطباعة في الدَّولتَين: العُثمانيَّة والصَّفويَّة، فانظر: (*EI*^{2}, s.v. Matba' a.). وعن بشَوي (Pechewi)، انظر: (*EI*^{2}, s.v. Pečewi). وعن تقييمِه للطِّباعة، انظر: (*EI*^{2}, s.v. Matba'a.). وعن خطِّ المطبعةِ الوطنيَّة (Imprimerie Nationale) بالحرفِ العربيِّ، انظر: (Atanasiu 1999, 47-48). وعن إبراهيم مُتفرِّقة، راجع هذه الموادَّ: (*EI*^{2}, s.v. Ibrahim Müteferrika; *DoA*, s.v. Islamic art, §Ill, 8 Printing). وعن تقنيةِ الطِّباعةِ الحجريَّة (*lithography*)، انظر هذه المواد: (*DoA*, s.vv. Lithography and Islamic art §Ill.4 (vi)(b): Painted book illustration: Iran, c.1750- c.1900)

عن موقفِ الثَّقافةِ الإسلاميةِ من الأفكارِ الجديدة بين القبولِ والرَّفض، انظر: (Hodgson 1974, 3:179ff.). وعن الأفكار الأوروبيَّة الجديدة، انظر: (Lapidus 1988, 268-75, 553). والاقتباس الذي ورَد في نهاية هذا الفصل مأخوذٌ من مقولةٍ لـ ألفريد ڤون كريمر (Alfred von Kremer) من كتابِه المُسمَّى (*Culturgeschichte des Orients* 1875- 77)كما ورَد أيضًا في: (Karabacek 1991, 72)؛ وهو جزءٌ من مقطعٍ أطول، وهو ذاك الذي اخترتُ أن أستهلَّ به هذا الكتاب.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربيَّة

الإدريسي، محمَّد بن محمَّد بن عبد الله بن إدريس الحَسَني الطَّالبي، المعروف بالشَّريف الإدريسي (المُتوفَّى ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، **وصف إفريقية وبلاد الأندلس**، *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrîsî*، تحقيق رينهارت دوزي R. Dozy؛ م. ج. دي غوية M. J. De Goeje، ليدن: مطبعة بريل (E. J. Brill)، ١٨٦٦ - ١٩٦٨.

ابن بطُّوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللَّواتي الطَّنجي، (المتوفَّى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة**، ترجمة هـ. أ. ر. جب H. A. R. Gibb، لندن: (Hakluyt Society)، ١٩٥٨، وأعيدت طباعته ١٩٩٤.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، (المُتوفَّى بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، **صورة الأرض**، تحقيق ج. هـ. كرامرز، سِلسلة المكتبة الجغرافية العربية (*Bibliotheca Geographorum Arabicorum*)، ليدن: مطبعة بريل (E. J. Brill)، ١٩٣٨، وأُعيدت طباعته ١٩٧٦.

الثَّعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (المُتوفَّى ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م)، **لطائفُ المعارف**، ترجمه إلى الإنجليزية ك. إ. بوزورث C. E. Bosworth، إدنبره: مطبعة جامعة إدنبره (Edinburgh University Press)، ١٩٦٨.

الجعفري، جعفر بن محمد بن الحسن (من أهل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)، **تاريخُ يَزْد**، (طهران: د.ن، د.ت).

ابن خَلدون، وليُّ الدِّين أبو زيد عبد الرَّحمن بن محمد بن محمد الحَضْرمي الإشبيلي (المتوفَّى ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **مقدمة ابن خلدون**، ترجمها إلى الإنجليزية فرانز روزنثال Franz Rosenthal، ونشرها بعنوان: The Muqaddimah: An Introduction to History، نيويورك: (Bollingen Foundation)، ١٩٥٨-١٩٦٧.

القَلقَشنـدِي، أحمـد بـن علـي بن أحمـد الفـزاري (المتوفـى ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، **صُبح الأعشَى في صناعةِ الإنشا**، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٢).

المَسعُودي، أبـو الحسَـن على بن الحُسين بن علـى (المُتوفَّى ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، **التَّنبيه والإشـراف**، تحقيـق م. ج. دي غويـة M. J. De Goeje، سلسـلة المكتبـة الجغرافيَّـة العربيَّـة (*Bibliotheca Geographorum Arabicorum*)، ليـدن: مطبعـة بريـل (E. J. Brill)، ١٩٦٤.

المقدسي، أبو عبد الله محمَّد بن أحمد المَقدِسي البشاري (المتوفى نحو ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، **أحسـن التَّقاسـيم في معرفةِ الأقاليم**، تحقيق م. ج. دي غوية M. J. De Goeje، سلسلة المكتبـة الجغرافيـة العربيـة (*Bibliotheca Geographorum Arabicorum*)، ليـدن: مطبعة بريل (E. J. Brill)، ١٩٠٦-١٩٦٧.

المقريـزي، تقـيُّ الدِّيـن أبـو العبَّاس أحمـد بن علي بـن عبد القـادر الحُسَـيني (المتوفى ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، **خِطَـط المقريـزي** المُسـمَّاة: **المواعـظُ والاعتبـارُ بذكـر الخِطَط والآثار**، (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٨٥٣).

ابـن النَّديـم، أبـو الفـرج محمَّد بن إسـحاق بـن محمـد الـورَّاق البغـدادي (المتوفَّى بعد ٤١٢هـ/ ١٠٢١م)، **الفِهرسـت**، ترجمه إلى الإنجليزية بايارد دودج Bayard Dodge، ونشَـره بعنـوان: A Tenth-Century Survey of Muslim Culture، نيويـورك: مطبعـة جامعة كولومبيا (Columbia University Press)، ١٩٧٠.

هلال بن المُحسِّن الصَّابئ، أبو الحُسين هلال بن المُحسِّن بن إبراهيم الصَّابئ (المُتوفَّى ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، **رسومُ دار الخلافةِ**، ترجمه إلى الإنجليزية إيلي أ. سالم، بيروت: منشوراتُ الجامعة الأمريكية، ١٩٧٧.

ثانيا: المصادر والمراجع الأجنبية

Abbott, Nabia. 1939. *The Rise of the North Arabic Script and Its Kur'anic Development, with a Full Description of the Kur'an Manuscripts in the Oriental Institute*. Chicago: Oriental Institute, University of Chicago Press.

———. 1949. "A Ninth-Century Fragment of the 'Thousand Nights': New Light on the Early History of the *Arabian Nights*." *Journal of Near Eastern Studies*

8, no. 3: 129–64.

Abulafia, David. 1994 "The Role of Trade in Muslim-Christian Contact During the Middle Ages." In *The Arab Influence in Medieval Europe*, ed. Dionisius A. Agius and Richard Hitchcock. Folio Scholastica Mediterranea, 1–24. Reading, U.K.: Ithaca Press.

Adamova, A. 1992. "Repetition of Compositions in Manuscripts: The *Khamsa* of Nizami in Leningrad." In *Timurid Art and Culture: Iran and Central Asia in the Fifteenth Century*, ed. Lisa Golombek and Maria Subtelny. Supplements to Muqarnas, 67–75. Leiden: E. J. Brill.

Afshar, Iraj. 1979. "Architectural Informations Through the Persian Classical Texts." In *Akten des VII. Internationalen Kongresses für Iranische Kunst und Archäologie. Munchen 7.–10. September 1976*, 612–16. Berlin.

———. 1995. "The Use of Paper in Islamic Manuscripts as Documented in Classical Persian Texts." In *The Codicolon of Islamic Manuscripts, Proceedings of the Second Conference of al-Furqan*

Islamic Heritage Foundation, 4–5 December 1993, ed. Yasin Dutton, 77–91. London: Al-Furqan Islamic Heritage Foundation.

Afshar, Iraj, and M. Minovi, eds. 1340/1972. *Vaqfnama-yi Rab'-i Rashidi*. Tehran.

Ahmad, S. Maqbul. 1992. "Cartography of al-Sharif al-Idrisi." In *The History of Cartography,* vol. 2: *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies*, ed. J. B. Harley and David Woodward, 156–74. Chicago: University of Chicago Press.

Allan, J. W. 1973. "Abu'l-Qasim's Treatise on Ceramics." *Iran* 11:111–20.

Allen, Terry. 1988. *Five Essays on Islamic Art*. [Sebastapol, Calif.]: Solipsist Press.

Arberry, Arthur J. 1939. "A Baghdad Cookery-Book." *Islamic Culture* 13:21–47, 189–214.

———. 1967. *The Koran Illuminated: A Handlist of Korans in the Chester Beatty Library*. Dublin: Hodges, Figgis.

Les arts du papier. 1984. Geneva: Slatkine Reprints.

Ashtor, E. 1977. "Levantine Sugar Industry in the Later Middle Ages—An Example of Technological Decline." *Israel Oriental Studies, Tel Aviv University* 7:226–80.

Atanasiu, Vlad. 1999. *De la fréquence des lettres et de son influence en calligraphie arabe*. Paris: L'Harmattan.

Atasoy, Nurhan, and Julian Raby. 1989. *Iznik: The Pottery of Ottoman Turkey*. London: Alexandria Press.

Ateş, Ahmed. 1961. "Un vieux poème romanesque persan: Récit de Warqah et Gulshah." *Ars Orientalis* 4:143–52.

Atil, Esin. 1981. *Renaissance of Islam: Art of the Mamluks*. Washington, D.C.: Smithsonian Institution, Freer Gallery of Art.

Atiya, A. S. 1955. *The Arabic Manuscripts of Mount Sinai*. Baltimore, Md.: Johns Hopkins University Press.

Atkinson, Richard M. 1975. *Joseph de Lalande: The Art of Papermaking*. Sixmimlebridge, Ireland.

Atsalos, Basile. 1977. "Terminologie médiévale et description codicologique." In *La Paléographie grecque et byzantine*, ed. Jacques Bompaire and Jean Irigoin, 83–91. Paris: Editions du CNRS.

Babinger, Franz. 1931. "Papierhandel und Papierbereitung in der Levante." *Wochenblatt für Papierfabrikation* 62:1215–19.

Bahari, Ebadollah. 1996. *Bihzad, Master of Persian Painting*. London: I. B. Taurus.

Baker, Don. 1991. "The Conservation of *Jami'al-Tawarikh* by Rashid al-Din (1313)." *Arts and the Islamic World* 20 (Spring): 32–33.

Barber, Elizabeth Wayland. 1999. *The Mummies of Ürümchi*. New York: W. W. Norton.

Barnard, Francis Pierrepont. 1916. *The Casting-Counter and the Counting-Board: A Chapter in the History of Numismatics and Early Arithmetic*. Oxford: Clarendon Press.

Barrett, Timothy. 1992. *Japanese Papermaking: Traditions, Tools, and Techniques*. 1983. New York: Weatherhill.

Barthold, W. 1977. *Turkestan Down to the Mongol Invasion*. 4th ed. E. J. W. Gibb Memorial. Philadelphia: Porcupine Press.

Bates, Michael L. 1978. "Islamic Numismatics." *Middle East Association Bulletin* 12, no. 2:1–16; no. 3: 2–18.

Beer, Arthur. 1969. "The Astronomical Significance of the Zodiac of Qusayr 'Amra." In *Early Muslim Architecture,* vol. 1, by K. A. C. Creswell, 432–40. Oxford: Clarenden Press.

Beeston, A. F. L., T. M. Johnstone, R. B. Serjeant, and G. R. Smith. 1983. *Arabic Literature to the End of the Umayyad Period*. Cambridge History of Arabic Literature. Cambridge: Cambridge University Press.

Beit-Arié, Malachi. 1996. "The Oriental Arabic Paper." *Gazette du livre médiéval* 28 (Spring): 9–12.

Berkey, Jonathan. 1992. *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo: A Social History of Islamic Education.* Princeton: Princeton University Press.

Blair, Sheila S. 1986a. *The Ilkhanid Shrine Complex at Natanz, Iran.* Cambridge: Harvard University Center for Middle Eastern Studies.

———. 1986b. "A Medieval Persian Builder." *Journal of the Society of Architectural Historians* 45:389–95.

———. 1993. "The Development of the Illustrated Book in Iran." *Muqarnas* 10:266–74.

———. 1995. *"A Compendium of Chronicles": Rashid al-Din's Illustrated History of the World.* London: Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press.

———. 1996. "Patterns of Patronage and Production in Ilkhanid Iran: The Case of Rashid al- Din." In *The Court of the Il-Khans, 1290–1340*, ed. Julian Raby and Teresa Fitzherbert, 39–62. Proceedings of the Barakat Trust Conference on Islamic Art and History, St. John's College, Oxford, 28 May 1994. Oxford Studies in Islamic Art, vol. 12. Oxford: Oxford University Press for the Board of the Faculty of Oriental Studies, University of Oxford.

———. 2000. "Color and Gold: The Decorated Papers Used in Manuscripts in Later Islamic Times." *Muqarnas* 17:24–36.

———. 2002. *Islamic Calligraphy.* Edinburgh: Edinburgh University Press. Forthcoming.

Blair, Sheila S., and Jonathan M. Bloom. 1994. *The Art and Architecture of Islam, 1250–1800.* Pelican History of Art. London: Yale University Press.

Blair, Sheila S., Jonathan M. Bloom, and Anne E. Wardwell. 1993. "Reevaluating the Date of the 'Buyid' Silks by Epigraphic and Radiocarbon Analysis." *Ars Orientalis* 23:1–42.

Bloom, Jonathan M. 1993. "On the Transmission of Designs in Early Islamic Architecture." *Muqarnas* 10:21–18.

———. 1999. "Revolution by the Ream." *Aramco World Magazine* 50, no. 3: 26–39.

———. 2000. "The Introduction of Paper to the Islamic Lands and the Development of the Illustrated Manuscript." *Muqarnas* 17:17–23.

Bloom, Jonathan, and Sheila Blair. 2000. *Islam: One Thousand Years of Faith and Power.* New York: TV Books.

Bosch, Gulnar, John Carswell, and Guy Petherbridge. 1981. *Islamic Bindings and Bookmaking*. Exh. cat. Chicago: Oriental Institute, University of Chicago.

Boyle, J. A. 1968. "Dynastic and Political History of the Il-Khans." In *The Cambridge History of Iran,* vol. 5: *The Saljuq and Mongol Periods,* ed. J. A. Boyle, 303–421. Cambridge: Cambridge University Press.

Briquet, Charles-Moïse. [1907] 1968. *Les filigranes, dictionnaire historique des marques du papier dès leur apparition vers 1282 jusqu'en 1600.* Amsterdam: Paper Publications Society (Lebarre Foundation).

Buchthal, Hugo, Otto Kurz, and Richard Ettinghausen. 1940. "Supplementary Notes to K. Holter's Check List of Illuminated Islamic Manuscripts Before A.D. 1350." *Ars Islamica* 7:147–64.

Bulliet, Richard W. 1979. *Conversion to Islam in the Medieval Period: An Essay in Quantitative History.* Cambridge: Harvard University Press.

———. 1987. "Medieval Arabic *Tarsh:* A Forgotten Chapter in the History of Printing." *Journal of the American Oriental Society* 107, no. 3: 427–38.

———. 1994. *Islam: The View from the Edge.* New York: Columbia University Press.

Burns, Robert I. 1980. "The Paper Revolution in Europe: Crusader Valencia's Paper Industry—a Technological and Behavioral Breakthrough." *Pacific Historical Review* 50:1–30.

———. 1985. *Society and Documentation in Crusader Valencia: Diplomatarium of the Crusader Kingdom of Valencia—The Registered Charters of Its Conqueror Jaume I, 1257–1276.* Princeton: Princeton University Press.

Çağman, Filiz, and Zeren Tanindi. 1986. *The Topkapi Saray Museum: The Albums and Illustrated Manuscripts.* Ed. and trans. J. M. Rogers. Boston: Little, Brown.

Cahen, Claude. 1990. "History and Historians." In *The Cambridge History of Arabic Literature,* vol. 2: *Religion, Learning and Science in the 'Abbasid Period,* ed. M. J. L. Young, J. D. Latham, and R. B. Serjeant, 188–233. Cambridge: Cambridge University Press.

Cambridge University Library. 1900. "University Library, Cambridge, TS Class List (Glass) Taylor Schechter Collection List (Glass Catalogue) of Fragments (Formerly) in Glass." Unpublished manuscript.

Canard, Marius. 1951. "Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin: Essai de comparaison." *Byzantion* 21:355–420.

Canart, Paul. 1982. "A propos du Vaticanus graecus 207: Le recueil scientifique

d'un érudit constantinopolitain du XIIIe siècle et l'emploi du papier à zig-zag dans la capitale." *Illinois Classical Studies* 7:271–98.

Catalogue of the International Exhibition of Persian Art at the Royal Academy of Arts, London, 7th January to 28th February 1931. 1931. London: Office of the Exhibition.

Clanchy, M. T. 1993. *From Memory to Written Record: England, 1066–1307*. Oxford: Blackwell.

Clapperton, R. H. 1934. *Paper: An Historical Account of Its Making by Hand from Its Earliest Times Down to the Present Day*. Oxford: Shakespeare Head Press.

Clement, Richard W. 1996. "Medieval and Renaissance Book Production—Manuscript Books." In *ORB Online Encyclopedia*. http://orb.rhodes.edu.

Combe, Etienne, Jean Sauvaget, and Gaston Wiet. 1931 –. *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*. Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale.

Constable, Olivia Remie. 1994. *Trade and Traders in Muslim Spain: The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900–1500*. Cambridge: Cambridge University Press.

Cook, Michael A. 1997. "The Opponents of the Writing of Tradition in Early Islam." *Arabica* 44:43–53.

Cowen, Jill Sanchia. 1989. *Kalila wa Dimna: An Animal Allegory of the Mongol Court*. New York: Oxford University Press.

Creswell, K. A. C. 1969. *Early Muslim Architecture*. Vol. 1. 2d ed. Oxford: Clarendon Press.

———. 1989. *A Short Account of Early Muslim Architecture*. Revised and enlarged by James W. Allan. Aldershot, U.K.: Scolar.

Crosby, Alfred W. 1997. *The Measure of Reality: Quantification and Western Society, 1250–1600*. Cambridge: Cambridge University Press.

Curatola, Giovanni 1993. *Eredità dell'Islam*. [Venice]: Silvana Editoriale.

Daftary, Farhad. 1998. *A Short History of the Ismailis: Traditions of a Muslim Community*. Islamic Surveys. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Daniels, Peter T., and William Bright. 1996. *The World's Writing Systems*. New York: Oxford University Press.

Dempsey, David. n.d. *The History and Technolon of Papermaking*. Northampton, Mass.: Smith College Museum of Art.

Déroche, François. 1983. *Les manuscrits du coran, aux origines de la calligraphie coranique*. Paris: Bibliothèque Nationale, Département des Manuscrits, Catalogue des Manuscrits Arabes.

———. 1987–89. “Les manuscrits arabes datés du IIIe/IXe siècle.” *Revue des études islamiques* 55–57:343–79.

———. 1992. *The Abbasid Tradition: Qur'ans of the Eighth to the Tenth Centuries AD.* Ed. Julian Raby. Nasser D. Khalili Collection of Islamic Art. London: Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press.

Déroche, François, et al. 2000. *Manuel de codicologie des manuscrits en écriture arabe.* Paris: Bibliothèque Nationale de France.

Diamond, Jared. 1997. *Guns, Germs and Steel: The Fate of Human Societies.* New York: W. W. Norton.

The Dictionary of Art. 1996. Ed. Jane Turner. London: Macmillan.

Dictionary of the Middle Ages. 1982–89. Ed. Joseph R. Strayer. New York: Charles Scribner's Sons.

[Diderot, Denis, and Jean Le Rond d'Alembert]. 1966. *Encyclopédie, ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers, par une société de gens de lettres, mis en ordre et publié par Mr.* ***. Stuttgart: Friedrich Fromann Verlag, 1966.

Dodds, Jerrilynn D., ed. 1992. *Al-Andalus: The Art of Islamic Spain.* New York: Metropolitan Museum of Art.

Duda, Dorothea. 1983. *Islamische Handschriften.* Vol. 1, *Persische Handschriften.* Die Illuminierten Handschriften und Inkunabeln der Österreichischen Nationalbibliothek. Vienna: Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften.

Duri, A. A. 1983. *The Rise of Historical Writing Among the Arabs.* Ed. and trans. Lawrence I. Conrad. Princeton: Princeton University Press.

Eche, Yousset. 1967. *Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Enpte au moyen age.* Damascus: Institut Français de Damas.

Elisséeff, Nikita. *Nur ad-Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades (511–569 H. / 1118–1174).* Damascus: Institut Français de Damas, 1967.

The Encyclopaedia Britannica. 1910. 11th ed. New York: Encyclopaedia Britannica Company.

Encyclopaedia Iranica. 1985–. Ed. Ehsan Yarshater. London: Routledge.

The Encyclopaedia of Islam. 1960–. New ed. Ed. H. A. R. Gibb and others. Leiden: E. J. Brill.

Ettinghausen, Richard. 1942. "Painting in the Fatimid Period: A Reconstruction." *Ars Islamica* 9:112–24.

———. 1962. *Arab Painting*. Geneva: Skira.

———. 1974. "Arabic Epigraphy: Communication or Symbolic AYrmation?" In *Near Eastern Numismatics, Iconography, Epigraphy and History: Studies in Honor of George C. Miles,* ed. Dikran Kouymjian, 297–317. Beirut.

Ewert, Christian, and Jens-Peter Wisshak. 1981. *Forschungen zur almohadischen Moschee*. Vol. 1, *Vorstufen. Hierarchichische Gliederungen westislamischer Betsäle des 8. bis 11. Jahrhunderts: Die Hauptmoscheen von Qairawa-n und Córdoba und Ihr Bannkreis*. Madrider Beiträge. Mainz: Philipp von Zabern.

Farès, Bishr. 1953. *Le livre de la thériaque: Manuscrit arabe à peintures de la fin du XIIe siècle con servé a la Bibliothèque Nationale de Paris*. Art Islamique. Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale.

Faroqhi, Suraiya. 1995. *Kultur und Alltag im osmanischen Reich: Vom Mittelalter bis zum Anfang des 20. Jahrhunderts*. Die Welt des Islam. Munich: C. H. Beck.

Febvre, Lucien, and Henri-Jean Martin. 1990. *The Coming of the Book: The Impact of Printing, 1450–1800*. Trans. David Gerard. London: Verso.

Felix, D. A. 1952. "What Is the Oldest Dated Paper in Europe?" *Papiergeschichte* 2, no. 6 (December): 73–75.

Frantz-Murphy, Gladys. 1985. "Arabic Papyrology and Middle Eastern Studies." *Middle East Studies Association Bulletin* 19, no. 1 (July): 34–48.

Frommel, Christoph Liutpold. 1997. "Reflections on the Early Architectural Drawings." In *The Renaissance from Brunelleschi to Michelangelo: The Representation of Architecture,* ed. Henry A. Millon and Vittorio Magnago Lampugnani, 101–22. New York: Rizzoli.

Fu'ad Sayyid, Ayman. 1998. "L'art du livre." *Dossiers d'archéologie,* no. 233 (May): 80–83.

Gaček, Adam. 1983. "Some Remarks on the Cataloguing of Arabic Manuscripts." *Bulletin of the British Society for Middle Eastern Studies* 10.

———. 1986. "The Use of Kabikaj in Arabic Manuscripts." *Manuscripts of the Middle East* 1:49–53.

Garlock, Trisha. *Glossary of Papermaking Terms: A Selection of Terms Prepared on the Occasion of the International Paper Conference, 1983, Japan*. San Francisco: World Print Council, 1983.

Ghosh, Amitav. 1993. *In an Antique Land*. New York: Alfred A. Knopf.

Gil, Moshe. 1997. *Be-Malkhut Yishmael Bi-Tekufat Ha-Geonim. Pirsume*

Ha-Makhon le-Heker Ha- Tefutsot; Sefer 117–120. Tel Aviv: Tel Aviv University.

Glick, Thomas F. 1979. *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages: Comparative Perspectives on Social and Cultural Formation*. Princeton: Princeton University Press.

Goitein, S. D. 1967–94. *A Mediterranean Society*. Berkeley: University of California Press.

———. 1973. *Letters of Medieval Jewish Traders*. Princeton: Princeton University Press.

Goldziher, Ignaz. 1971. *Muslim Studies (Muhammedanische Studien)*. Ed. S. M. Stern. Trans. C.R. Barber and S. M. Stern. Chicago: Aldine.

Golombek, Lisa, and Donald Wilber. 1988. *The Timurid Architecture of Iran and Turan*. Princeton: Princeton University Press.

Golombek, Lisa, Robert B. Mason, and Gauvin A. Bailey. 1996. *Tamerlane's Tableware: A New Approach to the Chinoiserie Ceramics of Fifteenth- and Sixteenth-Century Iran*. Costa Mesa, Calif.: Mazda in association with the Royal Ontario Museum.

Golvin, Lucien. 1970. *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*. Paris: Klincksieck.

Gottheil, R., and W. H. Worrell. 1927. *Fragments from the Cairo Genizah in the Freer Collection*. New York.

Grabar, Oleg. 1970. "The Illustrated Maqamat of the Thirteenth Century: The Bourgeoisie and the Arts." In *The Islamic City*, ed. A. H. Hourani and S. M. Stern, 207–22. Oxford: Bruno Cassirer.

———. 1984. *The Illustrations of the Maqamat*. Chicago: University of Chicago Press.

Grabar, Oleg, and Sheila Blair. 1980. *Epic Images and Contemporary History: The Illustrations of the Great Mongol Shah-Nama*. Chicago: University of Chicago Press.

Graham, William A. 1993. *Beyond the Written Word: Oral Aspects of Scripture in the History of Religion*. New York: Cambridge University Press.

Gray, Basil, ed. 1979. *The Arts of the Book in Central Asia: Fourteenth–Sixteenth Centuries*. Boulder, Colo.: Shambhala/UNESCO.

Grube, Ernst J. 1959. "Materialien zum Dioskorides Arabicus." In *Aus der Welt der Islamischen Kunst: Festschrift für Ernst Kühnel*, 163–94. Berlin: Mann.

———. 1974. "Notes on the Decorative Arts of the Timurid Period." In *Gururajamañjarika-: Studi in onore di Giuseppe Tucci*, vol. 1, pp. 233–79. Naples.

———. 1976. "Fustat Fragments." In *Islamic Painting and the Arts of the Book,* ed. B. W. Robinson, 23–66. Keir Collection. London: Faber and Faber.

———. 1990–91. "Prologomena for a Corpus Publication of Illustrated *Kalila wa Dimna* Manuscripts." *Islamic Art* 4:301–482.

Guest, Grace D., and Richard Ettinghausen. 1961. "The Iconography of a Kashan Luster Plate." *Ars Orientalis* 4:25–64.

Gulchīnī az qur'ānhāyi khattımu-za-yi dawrānī islāmī (A Selection of Koran Manuscripts in the Museum of the Islamic Eras) (in Persian). 1375/1997. Tehran: Muze-yi dawranī islāmī.

Gutas, Dimitri. 1998. *Greek Thought: Arabic Culture*. London: Routledge.

Haldane, Duncan. 1983. *Islamic Bookbindings in the Victoria and Albert Museum*. London: World of Islam Festival Trust in association with the Victoria and Albert Museum.

Harb, Ulrich. 1978. *Ilkhanidische Stalaktitengewölbe: Beiträge zu Entwurf und Bautechnik.* Berlin, 1978.

Harley, J. B., and David Woodward, eds. 1992. *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies*. Vol. 2 of *The History of Cartography*. Chicago: University of Chicago Press.

al-Hassan, Ahmad Y., and Donald R. Hill. 1992. *Islamic Technolon, an Illustrated History*. Cambridge: Cambridge University Press.

Havelock, Eric A. 1986. *The Muse Learns to Write*. New Haven: Yale University Press.

Hill, Donald R. 1993. *Islamic Science and Engineering*. Islamic Surveys. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Hillenbrand, Carole. 1999. *The Crusades: Islamic Perspectives*. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Hillenbrand, Robert. 1991. "Mamluk and Ilkhanid Bestiaries." *Ars Orientalis* 20:149–87.

———. 1994. "The Relationship Between Book Painting and Luxury Ceramics in Thirteenth-Century Iran." In *The Art of the Saeljuqs in Iran and Anatolia: Proceedings of a Symposium Held in Edinburgh in 1982,* ed. Robert Hillenbrand, 134–45. Costa Mesa, Calif.: Mazda.

Hills, Richard L. 1992. "Early Italian Papermaking, a Crucial Technological Revolution." In *Produzione e commercio della carta e del libro secc. xiii–xvii. Atti della "Venitreesima Settimana di Studi," 15–20-aprile,* ed. Simonette Cavaciocchi, 73–97. Florence: Le Monnier.

Hodgson, Marshall G. S. 1974. *The Venture of Islam*. Chicago: University of Chicago Press.

Hoernle, A. F. Rudolf. 1903. "Who Was the Inventor of Rag-Paper?" *Journal of the Royal Asiatic Society* 43:663–84.

Hoffman, Eva R. 2000. "The Beginnings of the Illustrated Arabic Book: An Intersection Between Art and Scholarship." *Muqarnas* 17:37–52.

Holter, Kurt. 1937. "Die Islamischen Miniaturhandschriften vor 1350." *Zentralblatt für Bibliothekwesen* 54:1–34.

Humbert, Geneviève. "Papiers non filigranés utilisés au proche-orient jusqu'en 1450, essai de typologie." *Journal Asiatique* 286, no. 1: 1–54.

Hunter, Dard. [1947] 1978. *Papermaking: The History and Technique of an Ancient Craft*. New York: Dover.

Ierusalimskaja, Anna A., and Birgitt Borkopp. 1997. *Von China nach Byzanz: Frühmittelalterliche Seiden aus der Staatlichen Ermitage St. Petersburg*. Exh. cat. Munich: Bayerische Nationalmuseum.

Ipşiroğlu, M. 1964. *Saray-Alben: Diez'sche Klebebände aus den Berliner Sammlungen*. Wiesbaden.

Irigoin, Jean. 1950. "Les premiers manuscrits grecs écrits sur papier et le problème du bombycin." *Scriptorium* 4:194–204.

———. 1953. "Les débuts de l'emploi du papier à Byzance." *Byzantinische Zeitschrift* 43:314–19.

———. 1960. "L'introduction du papier italien en Espagne." *Papiergeschichte* 10, no. 3 (July): 29–32.

———. 1963. "Les origines de la fabrication du papier en Italie." *Papiergeschichte* 13, nos. 5–6 (December): 62–67.

———. 1977. "Papiers orientaux et papiers occidentaux." In *La paléographie grecque et byzantine,* ed. Jacques Bompaire and Jean Irigoin, 45–54. Paris: Editions du CNRS.

Irwin, Robert. 1994. *The Arabian Nights, a Companion*. London: Allen Lane/Penguin Press.

James, David. 1980. *Qur'ans and Bindings from the Chester Beatty Library: A Facsimile Exhibition*. Exh.cat. N.p.: World of Islam Festival Trust.

———. 1988. *Qur'ans of the Mamluks*. London: Alexandria Press, and Thames and Hudson.

———. 1992. *The Master Scribes: Qur'āns of the Tenth to the Fourteenth Centuries A.D.* Ed. Julian Raby. Nasser D. Khalili Collection of Islamic Art. Lon-

don: Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press.

Kagan, Donald. 1997. "Continent No. 1: Review of J. H. Roberts, *A History of Europe*." *New York Times Book Review,* 28 December, p. 8.

Kağîtçi, Mehmed Ali. 1963. "Beitrag zur türkischen Papiergeschichte." *Papiergeschichte* 13, no. 4: 37–44.

Karabacek, Joseph von. 1892. *Führer durch die Ausstellung Pavrus Erzherzog Rainer*. Vienna: Selbstverlag der Sammlung.

———. 1991. *Arab Paper, 1887*. Trans. Don Baker and Suzy Dittmar. London: Islington Books.

Karamustafa, Ahmet T. 1992. "Introduction to Islamic Maps." In *The History of Cartography,* vol. 2: *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies,* ed. J. B. Harley and David Woodward, 1–11. Chicago: University of Chicago Press.

Khan, Geoffrey. 1992. *Arabic Pavri: Selected Material from the Khalili Collection*. London: Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press.

———. 1993. *Bills, Letters and Deeds: Arabic Pavri of the Seventh to Eleventh Centuries*. Ed. Julian Raby. Nasser D. Khalili Collection of Islamic Art. London: Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press.

Khemir, Sabiha. 1992. "The Arts of the Book." In *Al-Andalus: The Art of Islamic Spain,* ed. Jerrilynn D. Dodds, 115–25. New York: Metropolitan Museum of Art and Harry N. Abrams.

King, David A., and Richard P. Lorch. 1992. "Qibla Charts, Qibla Maps." In *The History of Cartography,* vol. 2: *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies,* ed. J. B. Harley and David Woodward, 189–205. Chicago: University of Chicago Press.

Komaroff, Linda. 1992. *The Golden Disk of Heaven: Metalwork of Timurid Iran.* Persian Art Series. Costa Mesa, Calif.: Mazda.

———. 1994. "Paintings in Silver and Gold: The Decoration of Persian Metalwork and Its Relationship to Manuscript Illustration." *Studies in the Decorative Arts* 2, no. 1 (Fall): 2–34.

[Kreiser, Klaus, ed.] 2001. *The Beginnings of Printing in the Near and Middle East: Jews, Christians and Muslims*. Wiesbaden: Harrassowitz.

Kubiak, Wladyslaw, and George T. Scanlon. 1989. *Fustat C*. Vol. 2 of *Fustat Ex-*

pedition Final Report. Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns for the American Research Center in Egypt.

Kuran, Aptullah. 1987. *Sinan: The Grand Old Master of Ottoman Architecture*. Photographs by Ara Güler and Mustafa Niksarli. Washington, D.C.: Institute of Turkish Studies; Istanbul: Ada Press.

Lagardière, Vincent. 1995. *Histoire et société en occident musulmane au moyen-age: Analyse du Mi'yar d'al-Wans̆arisi*. Collection de la Casa de Velázquez. Madrid: Casa de Velázquez.

Lalande, Joseph Jérôme le Français de. 1761. *Art de faire le papier: Descriptions des arts et métiers faites our approuvées par Messieurs de l'Académie Royale des Sciences, avec figures en taille-douce*. Paris.

Landes, David S. 1998. *The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor*. New York: W. W. Norton.

Lapidus, Ira M. 1988. *A History of Islamic Societies*. Cambridge: Cambridge University Press.

Leary, Warren E. 1999. "New Framers of the Declaration of Independence Act to Save It in Parchment." *New York Times*, 7 February.

Le Léannec-Bavavéas, Marie-Thérèse. 1998. *Les papiers non filigranés médiévaux de la Perse à l'Espagne: Bibliographie, 1950–1995*. Paris: Editions du CNRS.

Lentz, Thomas W., and Glenn D. Lowry. 1989. *Timur and the Princely Vision*. Los Angeles: Los Angeles County Museum of Art.

Levinus Warner and His Legacy: Three Centuries Legatum Warnerianum in the Leiden University Library. 1970. Exh. cat. Leiden: E. J. Brill.

Levy, M. 1962. "Medieval Arabic Bookmaking and Its Relation to Early Chemistry and Pharmacology." *Transactions of the American Philosophical Society* 40:3–79.

Lombard, Maurice. 1978. *Les textiles dans le monde musulman VIIe–XIIe siècle*. Civilisations et Sociétés 61. Paris: Mouton.

Losty, Jeremiah P. 1982. *The Art of the Book in India*. London: British Library.

Lévi-Provençal, E. 1934. "Un manuscrit de la bibliothèque du calife al-H. akam II." *Hespéris* 18:198–200.

———, trans. and ed. 1947. *Séville musulmane au début du XIIe siècle: Le traité d'Ibn 'Abdun*. Paris: G. P. Maisonneuve.

Lockwood-Post's Directory of Products of Pulp, Paper Mills, Converters, and Merchants. 1996. San Francisco: Miller-Freeman.

Lockwood's Directory of the Paper and Stationery Trades. 1908. New York: Lockwood.

Loveday, Helen. 2001. *Islamic Paper: A Study of the Ancient Craft*. [London:] Don Baker Memorial Fund.

MacDonald, M. C. 1992. "On the Placing of S in the Maghribi Abjad and the Khirbet al- Samra' ABC." *Journal of Semitic Studies* 37:155–66.

Makdisi, George. 1981. *The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West*. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Manguel, Alberto. 1997. *A History of Reading*. New York: Penguin.

Mann, Vivian B., Thomas F. Glick, and Jerrilynn D. Dodds. 1992. *Convivencia: Jews, Muslims, and Christians in Medieval Spain*. New York: George Braziller in association with the Jewish Museum.

Martin, Henri-Jean. 1994. *The History and Power of Writing*. Trans. Lydia G. Cochrane. Chicago: University of Chicago Press.

Matthews, Thomas F., and Annie-Christine Daskalakis Matthews. 1997. "Islamic-Style Mansions in Byzantine Cappadocia and the Development of the Inverted T-Plan." *Journal of the Society of Architectural Historians* 56, no. 3 (September): 294–315.

Mayer, L. A. 1971. *Mamluk Playing Cards*. Ed. R. Ettinghausen and O. Kurz. L. A. Mayer Memorial Studies in Islamic Art and Archaeology. Leiden: E. J. Brill.

Mayerson, Philip. 1997. "The Role of Flax in Roman and Fatimid Egypt." *Journal of Near Eastern Studies* 56, no. 3 (July): 201–7.

Meinecke, Michael. 1992. *Die Mamlukische Architektur in Änpten und Syrien*. Abhandlungen des deutschen Archäologischen Instituts Kairo, Islamische Reihe. Glückstadt: J. J. Augustin.

———. 1996. *Patterns of Stylistic Change in Islamic Architecture: Local Traditions Versus Migrating Artists*. New York: New York University Press.

Melikian-Chirvani, A. S. 1970. "Le Roman de Varqe et Golšâh." *Arts Asiatiques* 22.

———. 1988. "Le livre des rois, miroir du destin, I." *Studia Iranica* 17, no. i: 7–46.

Mernissi, Fatima. 1995. *Dreams of Trespass: Tales of a Harem Girlhood*. Photographs by Ruth V. Ward. Reading, Mass.: Addison-Wesley.

Mez, Adam. 1937. *The Renaissance of Islam*. Trans. Salahuddin Khuda Bakhsh and D. S. Margoliouth. Patna: Jubilee.

Minorsky, V., trans. 1959. *Calligraphers and Painters: A Treatise by Qadi Ahmad, Son of Mır-Munshı (Circa A.H. 1015/ A.D. 1606)*. Occasional Papers. Washington, D.C.: Smithsonian Inštitution, Freer Gallery of Art.

Mohiuddin, A. 1981. "Muslim Contribution to Biology." In *Proceedings of the International Symposium on Islam and Science,* 81. Islamabad.

Necipoğlu, Gülru. 1990. "From International Timurid to Ottoman: A Change of Tašte in Sixteenth-Century Ceramic Tiles." *Muqarnas* 7:136–70.

———. 1995. *The Topkapi Scroll—Geometry and Ornament in Islamic Architecture*. Getty Center in the Hištory of Art and Humanities. Santa Monica, Calif.: Getty Center and Oxford University Press.

New Grove Dictionary of Music and Musicians. 1980. Ed. Stanley Sadie. London: Macmillan.

Nuovo, A. 1987. "Il Corano arabo ritrovato (Venezia, P. e. A. Paganini, tra l'agosto 1537 e l'agošto 1538)." *La Bibliofilia* 89:237–71.

———. 1990. "A Lošt Arabic Koran Rediscovered." *Library,* 6th ser. 12:273–92.

Nykl, A. R. 1941. *Hištoria de los Amores de Bayad y Riyad, una Chantefable Oriental en Eštilo Persa (Vat. Ar. 368)*. New York: Hispanic Society of Amerir ca.

O'Donnell, James. 1998. *Avatars of the Word: From Pavrus to Cyberspace*. Cama bridge: Harvard University Press.

Oikonomidès, Nicolas. 1977. "Le support matériel des documents Byzantins." In *La paléographie grecque et byzantine,* ed. Jacques Bompaire and Jean Irigoin, 385–416. Paris: Editions du CNRS.

Orsatti, Paola. 1993. "Le manuscrit islamique: Caractérištiques matérielles et typologie." In *Ancient and Medieval Book Materials and Techniques*, ed. Marilena Maniaci and Paola F. Munafò, 269–332. Studi e Tešti, vols. 57–58. Vatican City: Biblioteca Apoštolica Vaticana.

Pang, Alex Soojung-Kim. 1999. "The Book Is Here to Stay." *American Scholar* 68, no. 1 (Winter): 136–39.

Parkinson, Richard, and Stephen Quirke. 1995. *Pavrus*. Egyptian Bookshelf. Austin: University of Texas Press.

Pedersen, Johannes. [1946] 1984. *The Arabic Book.* Trans. Geoffrey French. Princeton: Princeton University Press.

Perria, L. 1983–84. "Il *Vat. Gr.* 2200. Note codicologiche e paleografiche." *Revista di Studi Byzantini e neoellenici,* n.s. 20–21:25–68.

Petroski, Henry. 1992. *The Pencil: A Hištory of Design and Circumštance.* New

York: Alfred A. Knopf.

Polastron, Lucien X. 1992. *Le papier: 2000 ans d'histoire et de savoir-faire.* Paris: Imprimerie Nationale.

Porter, Yves. 1994. *Painters, Paintings and Books: An Essay on Indo-Persian Technical Literature, Twelfth–Nineteenth Centuries.* Trans. Mrs. S. Butani. New Delhi: Manohar, Centre for Human Sciences.

Powers, David S. 1993. "The Maliki Family Endowment: Legal Norms and Social Practices." *International Journal of Middle East Studies* 25, no. 3: 379–406.

Premchand, Neeta. 1995. *Off the Deckle Edge: A Paper-Making Journey Through India.* Bombay: Ankur Project.

Quatremère, Etienne. [1836] 1968. *Raschid-Eldin: Histoire des mongols de la perse—texte persan, publié, traduit en français accompagnée de notes et d'un mémoire sur la vie et les ouvrages de l'auteur.* Amsterdam: Oriental Press.

Raby, Julian. 1986. "Court and Export. Part 2: The Ušak Carpets." In *Oriental Carpet and Textile Studies,* vol. 2: *Carpets of the Mediterranean Countries, 1400–1600,* ed. Robert Pinner and Walter B. Denny, 177–88. London.

———. 1987. "East and West in Mehmed the Conqueror's Library." *Bulletin du Bibliophile* 3:297–321.

———. 1987–88. "Between Sogdia and the Mamluks: A Note on the Earliest Illustrations to Kalila wa Dimna." *Oriental Art* 33, no. 4 (Winter): 381–98.

Raby, Julian, and Zeren Tanindı. 1993. *Turkish Bookbinding of the Fifteenth Century: The Foundations of an Ottoman Court Style.* Ed. T. Stanley. London: Azimuth Editions on behalf of l'Association internationale de bibliophilie.

Ragib, Yusuf. 1980. "Un contrat de mariage sur soie d'Egypte fatimide." *Annales islamologiques* 16:31–37.

Rashīd al-Din Fadlallah Hamadani. 1368/1989. *Athar va ahya, (A Fourteenth Century Persian Text on Agriculture).* Ed. Manoochehr Sotoodeh and Iraj Afshar. History of Science in Islam. Tehran: McGill University Institute of Islamic Studies, Tehran Branch, in collaboration with Tehran University.

Raymond, André. 1973–74. *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle.* Damascus: Institut Français de Damas.

Reif, Stefan. 1988. *Published Material from the Cambridge Genizah Collections: A Bibliography, 1896–1980.* Genizah Series. Cambridge: Cambridge University Press.

Rice, D. S. 1955. *The Unique Ibn al-Bawwāb Manuscript in the Chester Beatty*

Library. Dublin: Chester Beatty Library.

———. 1959. "The Oldest Illustrated Arabic Manuscript." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 22:207–20.

Richard, Francis. 1997. *Splendeurs persanes: Manuscrits du XIIe au XVIIe siècle*. Paris: Bibliothèque Nationale de France.

Roberts, Colin H., and T. C. Skeat. 1983. *The Birth of the Codex*. London: Oxford University Press for the British Academy.

Roberts, J. H. 1997. *A History of Europe*. New York: Allen Lane.

Robinson, B. W. 1976. *Persian Paintings in the India Office Library, a Descriptive Catalogue*. London.

Rodinson, Maxime. 1949–50. "Recherches sur les documents arabes relatifs à la cuisine." *Revue des études islamiques* 17–18:95–165.

Rogers, J. M. 1973–74. Review of *The Formation of Islamic Art,* by Oleg Grabar. *Kunst des Orients* 9:152–66.

———. 1983. *Islamic Art and Design: 1500–1700*. London: British Museum.

———. 1989. Review of *Timurid Architecture in Khurasan,* by Bernard O'Kane. *Bulletin of the Asia Institute* 3:129–38.

Rowland, Ingrid D. 1994. "Character Witness." *New York Review of Books,* 1 December, p. 30.

Roxburgh, David J. 1996. "'Our Works Point to Us': Album Making, Collecting, and Art (1427–1565) Under the Timurids and Safavids." Ph.D. diss. University of Pennsylvania.

Saidan, Ahmad. 1996. "Numeration and Arithmetic." In *Encyclopedia of the History of Arabic Science,* ed. Roshdi Rashed, 331–48. London: Routledge.

Saliba, George. 1999. "Artisans and Mathematicians in Medieval Islam." *Journal of the American Oriental Society* 119, no. 4: 637–45.

Sanders, Paula. 1994. *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*. Albany: State University of New York Press.

Savage-Smith, Emilie. 1992. "Celestial Mapping." In *The History of Cartography,* vol. 2: *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies,* ed. J. B. Harley and David Woodward, 12–70. Chicago: University of Chicago Press.

Saxl, Fritz. 1969. "The Zodiac of Qusayr 'Amra." In *Early Muslim Architecture,* vol. 1, by K. A. C. Creswell, 424–31. Oxford: Clarendon Press.

Sayre, Eleanor A., and Felice Stampfle. 1969. *Rembrandt: Experimental Etcher*. Exh. cat. Museum of Fine Arts, Boston; Pierpont Morgan Library, New York.

Greenwich, Conn.: New York Graphic Society.

Schacht, Joseph. 1966. *An Introduction to Islamic Law*. 1964. Oxford: Clarendon Press.

Sezgin, Fuat. 1974. *Mathematik bis ca. 430 H.* Geschichte des arabischen Schrifttums. Leiden: E. J. Brill.

Simonneau, Louis. 1698. *Déscription de l'art du papier*. Desbillettes.

Simpson, Marianna Shreve. 1979. *The Illustration of an Epic: The Earliest Shahnama Manuscripts*. New York: Garland.

Sims, Eleanor. 1988. "The 'Iconography' of the Internal Decoration in the Mausoleum of Uljaytu at Sultaniyya." In *Content and Context of Visual Arts in the Islamic World,* ed. P. P. Soucek, 139–76. University Park: Pennsylvania State University Press for the College Art Association of America.

Snyder, Janet G. 1988. "Appendix 10: Study of the Paper of Selected Paintings from the Vever Collection." In *An Annotated and Illustrated Checklist of the Vever Collection,* ed. Glenn D. Lowry and Milo Cleveland Beach, 433–40. Washington, D.C.: Smithsonian Institution, Arthur M. Sackler Gallery.

Soucek, Priscilla P. 1988. "The New York Public Library *Makhzan al-Asrār* and Its Importance." *Ars Orientalis* 18:1–38.

———. 1990. "Sultan Muhammad Tabrizi: Painter at the Safavid Court." In *Persian Masters: Five Centuries of Painting,* ed. Sheila R. Canby, 55–70. Bombay: Marg.

Soucek, Priscilla P., and Filiz Çağman. 1995. "A Royal Manuscript and Its Transformation: The Life History of a Book." In *The Book in the Islamic World: The Written Word and Communication in the Middle East,* ed. George N. Atiyeh, 179–208. Albany: State University of New York Press.

Soudavar, Abolala. 1992. *Art of the Persian Courts: Selections from the Art and History Trust Collection*. New York: Rizzoli.

Stead, Rexford. 1974. *The Ardabil Carpets*. Malibu, Calif.

Steingass, F. [1892] 1972. *A Comprehensive Persian-English Dictionary Including the Arabic Words and Phrases to Be Met With in Persian Literature*. Beirut: Librairie du Liban.

Steinhardt, Nancy Shatzman. 1997. "Chinese Cartography and Calligraphy." *Oriental Art* 43, no. 1: 10–20.

———. 1998. "Mapping the Chinese City: The Image and the Reality." In *Envisioning the City: Six Studies in Urban Cartography,* ed. David Buisseret, 1–33. Chicago: University of Chicago Press.

Stern, S. M. 1964. *Fatimid Decrees: Original Documents from the Fatimid Chan-*

cery. All Souls Studies. London: Faber and Faber.

Terrasse, Henri. 1943. *La grande mosquée de Taza*. Paris: Editions d'Art et d'Histoire.

Thackston, Wheeler M. 1989. *A Century of Princes: Sources on Timurid History and Art*. Cambridge, Mass.: Aga Khan Program for Islamic Architecture.

———. 1990. "Treatise on Calligraphic Arts: A Disquisition on Paper, Colors, Inks and Pens by Simi of Nishapur." In *Intellectual Studies on Islam: Essays Written in Honor of Martin B. Dickson, Professor of Persian Studies, Princeton University,* ed. Michel M. Mazzaoui and Vera B. Moreen, 219–28. Salt Lake City: University of Utah Press.

———. 1995. "Articles of Endowment of the Rab'i-Rashidi, by Rashiddudin Fazulluh." In *A Compendium of Chronicles: Rashid al-Din's Illustrated History of the World,* by Sheila S. Blair, 114–15. London: Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press.

Tibbetts, Gerald R. 1992. "The Beginnings of a Cartographic Tradition." In *The History of Cartography,* vol. 2: *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies,* ed. J. B. Harley and David Woodward, 90 107. Chicago: University of Chicago Press.

Titley, Norah M. 1979. "Persian Miniature Painting: The Repetition of Compositions During the Fifteenth Century." In *Akten des VII. International Kongresse Iranische Kunst und Archäologie, 1976,* 471–91. Berlin: D. Reimer.

Trésors fatimides du Caire. 1998. Exh. cat. Paris: Institut du Monde Arabe.

Tsien, Tsuen-Hsuin. 1962. *Written on Bamboo and Silk: The Beginnings of Chinese Books and Inscriptions*. Chicago: University of Chicago Press.

———. 1985. *Paper and Printing*. Vol. V:1 of *Science and Civilisation in China,* ed. Joseph Needham. Cambridge: Cambridge University Press.

Turner, Sylvie. 1998. *The Book of Fine Paper*. New York: Thames and Hudson.

Tyan, Emile. 1959. *Le notariat et le régime de la preuve par écrit dans la pratique du droit musulman*. Beirut.

Valls i Subirà, Oriol. 1970. *Paper and Watermarks in Catalonia*. Monumenta Chartae Papyracea Historiam Illustrantia. Amsterdam: Paper Publications Society (Labarre Foundation).

———. 1978. *The History of Paper in Spain (X–XIV Centuries)*. Madrid: Empresa Nacional de Celulosa.

Volov (Golombek), Lisa. 1966. "Plaited Kufic on Samanid Epigraphic Pottery." *Ars Orientalis* 6:107–34.

von Gabain, A. 1983. "Irano-Turkish Relations in the Late Sasanian Period." In

The Cambridge History of Iran, vol. 3: *The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods,* ed. Ehsan Yarshater, 613–24. Cambridge: Cambridge University Press.

Voorhoeve, P. M. 1980. *Handlist of Arabic Manuscripts.* Codices Manuscripti. The Hague.

Wakin, Jeanette A. 1972. *The Function of Documents in Islamic Law.* Albany: State University of New York Press.

Walker, Paul E. 1997. "Fatimid Institutions of Learning." *Journal of the American Research Center in Enpt* 34:179–200.

Ward, Rachel. 1985. "Evidence for a School of Painting at the Artuqid Court." In *The Art of Syria and the Jazīra, 1100–1250,* ed. Julian Raby, 69–84. Oxford Studies in Islamic Art. Oxford: Oxford University Press for the Board of the Faculty of Oriental Studies.

Wasserstein, David. 1990–91. "The Library of al-Hakam II al-Mustansir and the Culture of Islamic Spain." *Manuscripts of the Middle East* 5:99–105.

Watson, Oliver. 1985. *Persian Lustre Ware.* London.

Watson, William. 1983. "Iran and China." In *The Cambridge History of Iran,* vol. 3: *The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods,* ed. Ehsan Yarshater, 537–58. Cambridge: Cambridge University Press.

Weitzmann, Kurt. 1971. "The Greek Sources of Islamic Scientific Illustrations." In *Studies in Classical and Byzantine Manuscript Illumination,* ed. Herbert L. Kessler, 20–44. Chicago: University of Chicago Press.

Wellesz, Emmy. 1959. "An Early al-Sufi Manuscript in the Bodleian Library in Oxford: A Study in Islamic Constellation Images." *Ars Orientalis* 3:1–27.

Wheatley, Paul. 1971. *The Pivot of the Four Quarters: A Preliminary Enquiry into the Origins and Character of the Ancient Chinese City.* Chicago: Aldine.

Whelan, Estelle. 1990. "Writing the Word of God: Some Early Qur'ān Manuscripts and Their Milieux, Part I." *Ars Orientalis* 20:113–48.

———. In press. "The Phantom of *Hijazi* Script: A Note on Paleographic Method." *Manuscripts of the Middle East* 8.

White, Lynn, Jr. 1967. *Medieval Technolon and Social Change.* Oxford: Oxford University Press.

Wiesner, Julius. 1986. *Mikroskopische Untersuchung der Papiere von El-Faijûm (Microscopic Examination of the Faijûm Papers).*3d ed. Ed. Jack C. Thompson. Trans. Gudrun Aurand. Portland, Ore.: Caber Press.

Wiet, Gaston. 1944. "Une peinture du XIIe siècle." *Bulletin de l'Institut d'Enpte* 26:109–18.

———. 1948. *Soieries persanes*. Cairo.

Wilber, Donald N. 1969. *The Architecture of Islamic Iran: The IlKhânid Period.* New York: Greenwood.

———. 1987. "Qavam al-Din ibn Zayn al-Din Shirazi: A Fifteenth-Century Timurid Architect." *Architectural History* 30:31–44.

Wilford, John Noble. 1999. "Finds in Egypt Date Alphabet in Earlier Era." *New York Times,* November 14, p. 1.

Wilkins, M. Lesley. 2001. "From Papyrus to Paper: Technological Change in Medieval Egypt, 868–969." Ph.D. diss. Harvard University.

Wilkinson, Charles K. 1973. *Nishapur: Pottery of the Early Islamic Period.* New York.

Wolfe, Richard J. 1991. *Marbled Paper: Its History, Techniques, and Patterns.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Wouters, A. 1990–91. "From Papyrus Roll to Papyrus Codex: Some Technical Aspects of the Ancient Book Fabrication." *Manuscripts of the Middle East* 5:9–19.

Wright, Clifford A. 1999. *A Mediterranean Feast: The Story of the Birth of the Celebrated Cuisine of the Mediterranean, from the Merchants of Venice to the Barbary Corsairs, with More Than Five Hundred Recipes*. New York: William Morrow.

Wright, Elaine Julia. 1997. "The Look of the Book: Manuscript Production in the Southern Iranian City of Shiraz from the Early Fourteenth Century to 1452." Ph.D. diss. Faculty of Oriental Studies, Oxford University.

Young, M. J. L., J. D. Latham, and R. B. Serjeant. 1990. *Religion, Learning and Science in the 'Abbasid Period.* The Cambridge History of Arabic Literature. Cambridge: Cambridge University Press.



قصة الورق

تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة

إنه لشرفٌ عظيمٌ حقًّا أن يترجمَ أحمد العَدوي كتابي «قصَّة الورق قبل ظهورِ الطِّباعة» -الصَّادر عام -2001 إلى اللغةِ العربيَّةِ. كما أنَّني سعيدٌ أيضًا أن تنشُرَ "دار أدب" هذه الترجمةَ العربيةَ، وفي هذا المظهرِ الرَّائعِ، والثَّوبِ القَشيبِ.

وعلى الرَّغم من أنَّ كتابي هذا قد تناول الدَّورَ المِحوريَّ الذي لعبَه الورقُ في تطورِ الحضارةِ في العالمِ الإسلامي والكيفيةُ التي نقَل المسلمون المعرفةَ بالورقِ وصناعتِه من شرق آسيا إلى غرب أوروبا في القرونِ الوسطى فإنَّ عمومُ القرَّاء في المِنطقة التي تناولَها بالدِّراسة لا يكادون يعرفونه.

ويحدوني الأملُ في أن تصبحَ هذه الترجمةُ العربيةُ مُتاحةً على نطاقٍ واسعٍ لجمهورِ القرَّاء العربِ، ومعروفةً لهم. وأن تُلهم جيلًا جديدًا منهم تقديرَ الدورِ الحاسمِ الذي لعِبته المجتمعاتُ الإسلاميةُ في الحضارةِ الإنسانيةِ، عندما استخدَمت الورقَ وسيلةً للتواصُلِ البَشري.

وقد أسْعَدني حقًّا أن أرى هذا الكتابَ - الذي صدَر منذ نحو 20 عامًا - قد ألهَم الباحثين في أمريكا وأوروبًا البحثَ والتوسُّعَ في بعض القضايا التي أثارها. وإنَّني أتطلَّع شوقًا إلى رؤيةِ الكيفيَّةِ التي سيقدِّرُ بها قُرَّاء هذه التَّرجمةِ العربيَّةِ ذلك الدَّورَ المَنسيَّ لـ «الورق قبل ظهورِ الطِّباعةِ».

- المؤلف

ISBN 978-603-03-6913-3

أدب ADAB

إثراء ithra